الجامع لأحكام القرآن

والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان

تأليف

أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي

(ت ٦٧١ هـ)

تحقيق

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

شارك في تحقيق هذا الجزء

محمد رضوان عرقسوسي

الجزء الخامس

مؤسسة الرسالة

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع
وطى المصيطبة - شارع حبيب أبي شهلا- بناية المسكن، بيروت-لبنان
تلفاكس: ٣١٩٠٣٩-٨١٥١١٢ فاكس: ٨١٨٦١٥ ص.ب: ١١٧٤٦٠

Al-Resalah
PUBLISHERS
BEIRUT/LEBANON-Telefax:815112-319039 Fax:818615-P.O.Box:117460
Email:Resalah@Cyberia.net.lb

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة آل عمران

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ هذه السورةُ مدنيةٌ بإجماع. وحكى النقَّاش أنَّ اسمَها في التَّوراة طَيْبة[1].

وقرأ الحسن وعمرو بنُ عُبَيْد وعاصم بن أبي النَّجُود وأبو جعفر الرُّؤاسِي[2]: «الٓمٓ أللّه» بقطع ألف الوصل[3]، على تقدير الوقف على «الٓمٓ» كما يُقدِّرون الوقفَ على أسماء الأعداد في نحو واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، وهم واصلون.

قال الأخفشُ سعيدٌ: ويجوزُ «الٓم اللّه» بكسر الميم لالتقاء السَّاكنَين[4]. قال الزَّجَّاجُ[5]: هذا خطأ، ولا تقولُه العربُ لثقله.

قال النَّحاس[6]: القراءةُ [الأُولى] قراءةُ العامَّة، وقد تكلَّم فيها النَّحويون القدماءُ، فمذهبُ سيبويه[7] أنَّ الميمَ فُتحت لالتقاءِ السَّاكنين، واختاروا لها الفتحَ لِئلَّا يُجْمعَ بينَ كسرةٍ وياءٍ وكسرةٍ قبلَها.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٣٩٦ .

(٢) محمد بن أبي سارة، الكوفي النحوي، سمِّي الرؤاسي لكبر رأسه، كان أستاذ الكسائي والفراء، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء، وتقدم في النحو وعُمِّر إلى أيام الرشيد. إنباه الرواة ٤/ ٩٩

(٣) نسبها ابن مجاهد في السبعة ص٢٠٠ لأبي بكر عن عاصم، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٩ لعاصم وغيره. ولكن قراءة عاصم المشهورة عنه كقراءة الجماعة، وهي بفتح الميم وإسقاط الهمزة حالة الوصل. وينظر جامع البيان لأبي عمرو ٢/ ٧٠ .

(٤) معاني القرآن للأخفش ١/ ١٧٢ ونسب ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٩ هذه القراءة لعمرو بن عبيد.

(٥) معاني القرآن له ١/ ٣٧٣ .

(٦) في إعراب القرآن ١/ ٣٥٣ وما بين حاصرتين منه، ونقل المصنف عنه قولي الأخفش والزجاج السالفين.

(٧) الكتاب ٤/ ١٥٣ .

وقال الكسائيُّ: حروفُ التهجِّي إذا لَقِيَتْها ألفُ وَصْلٍ، فحذِفَت ألفُ الوصلِ، حرَّكتَها بحركة الألفِ، فقلْتَ: الٓمَ اللّه، والٓمُ اذْكُر، والٓمِ اقْتَرَبتْ.

وقال الفرَّاء[(١)]: الأصل: «الٓمْ أللّه» كما قرأ الرؤاسيُّ، فأُلقِيَتْ حركةُ الهمزةِ على الميم.

وقرأ عمرُ بنُ الخطَّاب: «الْحَيُّ القَيَّام»[(٢)]. وقال خارجة: في مصحف عبدِ اللّه: «الْحَيُّ القَيِّمُ»[(٣)].

وقد تقدَّم ما للعلماء في الحروف التي في أوائل السُّورِ في أوَّل «البقرة». ومن حيثُ جاء في هذه السورة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾جملةٌ قائمة بنفسها، فتتصوَّرُ تلك الأقوالُ كلُّها.

الثانية: روى النَّسائيُّ[(٤)] أنَّ عمرَ بن الخطاب ﷺ صلَّى العِشاءَ، فاستفتحَ «آل عمران»، فقرأ: «الٓمَ. اللَّهُ لَآ إِلٰـهَ إِلَّا هُوَالْحَيُّ القَيَّامُ» فقرأ في الركعة الأولى بمئة آية، وفي الثانية بالمئة الباقية[(٥)].

قال علماؤنا: ولا يقرأ سورةً في ركعتين، فإنْ فعلَ أَجْزأَهُ. وقال مالك في المجموعة: لا بأسَ به[(٦)]، وما هو بالشأن.

قلت: الصحيحُ جوازُ ذلك. وقد قرأ النبيُّ ﷺ بالأعراف في المغرب، فرَّقها في

(١) معاني القرآن له ١/ ٩ ونقل المصنف كلامه وكلام الكسائي السالف بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٥٤

(٢) أخرجها ابن أبي داود في المصاحف (١٥٠) وما بعدها. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٩ وابن جني في المحتسب ١/ ١٥١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١ / ٣٥٤ . ونسب ابن خالويه هذه القراءة في القراءات الشاذة ص١٩ ، وابن جني في المحتسب ١ / ١٥١ لعلقمة بن قيس. ونسب ابن أبي داود في المصاحف ١ / ٣٠٩ ، وابن جني في المحتسب ١ / ١٥١ لابن مسعود قراءة: «الحيُّ القيام».

(٤) في (د) و (م): الكسائي، وهو خطأ. وهذا الخبر رواه النحاس في معاني القرآن ١/ ٣٤٠ عن شيخه النسائي، وعنه نقل المصنف، والخبر ليس في سنن النسائي.

(٥) أخرجه بتمامه ابن أبي داود في المصاحف ١/ ٢٨٦-٢٨٧ . وأخرج منه ذكر القراءة «الحيّ القيام» سعيد ابنُ منصور في سننه (٤٨٦) (قسم التفسير)، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص١٦٨ . وعلقه البخاري في صحيحه في تفسير سورة نوح (الفتح ٨/ ٦٦٦). وذكر القراءة ابن جني في المحتسب ١/ ١٥١، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤ .

(٦) المنتقى للباجي ١/ ١٤٨ .

ركعتين. خرَّجه النَّسَائيُّ أيضاً[١] وصحَّحه أبو محمد عبدُ الحق[٢]، وسيأتي[٣].

الثالثة: هذه السُّورةُ وردَ في فضلها آثارٌ وأخبار، فمن ذلك ما جاءَ أنَّها أمَانٌ من الحيَّات، وكَنْزٌ للصُّعْلوك، وأنَّها تُحَاجُّ عن قارئها في الآخِرة، ويُكْتَب لمن قرأ آخرَها في ليلةٍ كقيام ليلة، إلى غير ذلك:

ذكر الدَّارمي أبو محمد في مسنده: حدَّثنا أبو عُبَيْد القاسم بن سلَّام قال: حدَّثني عُبَيْد اللّه الأشجَعيّ قال: حدَّثني مِسْعَر قال: حدَّثني جابر قبلَ أنْ يقعَ فيما وقعَ فيه، عن الشَّعْبي قال: قالَ عبدُ اللّه: نِعم كنْزُ الصُّعْلوك سورةُ آل عمران يقومُ بها في آخر اللَّيل[٤].

حدَّثنا محمد بنُ سعيد، حدَّثنا عبدُ السَّلام، عن الجُرَيْرِيّ عن أبي السَّلِيل قال: أصابَ رجلٌ دَماً قال: فأوى إلى وادي مَجَنّةَ[٥]: وادٍ لا يمشي فيه أحدٌ إلا أصابته حيةٌ[٦]، وعلى شَفِير الوادي راهبان؛ فلمَّا أمسى قال أحدُهما لصاحبه: هلكَ واللّهِ الرَّجلُ! قال: فافتتحَ سورةَ آل عمران قالا: فقرأ سورةَ طَيْبَة لعلَّه سيَنجو، قال: فأصبحَ سليماً[٧].

وأسندَ عن مَكْحُول قال: مَنْ قرأ سورةَ آلِ عمرانَ يومَ الجمعةِ، صلَّت عليه المَلائكةُ إلى اللَّيل[٨].

---

(١) في السنن الكبرى (١٠٦٥)، وفي المجتبى ٢/ ١٧٠ من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها. وأخرجه أحمد (٢١٦٠٩) من حديث أبي أيوب أو زيد بن ثابت رضي الله عنهما.

(٢) في الأحكام الصغرى ١/ ٢٣٤ – ٢٣٥ .

(٣) في أول سورة الأعراف.

(٤) سنن الدارميّ (٣٤٤١)، وهو عند شيخه أبي عبيد في فضائل القرآن ص ١٢٧ وفي إسناده جابر بن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، وقول مسعر فيه: قبل أن يقع فيما وقع فيه، لعله يريد كذبه وتدليسه، وإيمانه برجعة علي ﷺ. تنظر ترجمته في تهذيب الكمال ٤/ ٤٦٥ .

(٥) قال البكري في معجمه ٤/ ١١٨٧ : مَجَنَّة على أميال يسيرة من مكة، بناحية مرّ الظهران. وفي القاموس (جنن): المَجَنَّة: الأرض الكثيرة الجنّ، وموضع قرب مكة، وقد تكسر ميمها.

(٦) في سنن الدارميّ : جِنَّة.

(٧) سنن الدارميّ (٣٤٤١) ، والجُريري ـ وهو سعيد بن إياس ـ اختلط، ولم يُذكر عن عبد السلام ـ ولعله ابن حرب ـ هل روى عن الجُريري قبل اختلاطه أم بعده.

(٨) سنن الدارميّ (٣٤٤٠)، وهو مقطوع.

وأسندَ عن عثمانَ بنِ عفانَ قال: من قرأ آخرَ سورةِ آل عمران في ليلة، كُتبَ له قيامُ لَيلة. في طريقه ابنُ لَهِيْعَة[١].

وخرَّج مسلمٌ عن النوَّاس بنِ سَمْعَان الكِلابي قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «يُؤْتَى بالقرآن يومَ القيامةِ وأهلِه الذين كانوا يعملونَ به، تَقْدُمُه سورةُ البقرةِ وآلِ عمرانَ» ـ وضربَ لهما رسولُ اللّه ﷺ ثلاثةَ أمْثَالٍ ما نسيتُهُنَّ بعدُ، قال: ـ «كأنَّهما غمامتانِ، أو ظُلَّتانِ سَوْداوان بينَهما شَرْقٌ، أو كأنَّهما حِزْقانِ من طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عن صاحبهما[٢]».

وخرَّج أيضاً عن أبي أُمَامَة الباهليِّ قال: سمعت رسولَ اللّه ﷺ يقول: «اقْرؤوا القرآنَ فإنَّه يأتي يومَ القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا الزّهْرَاوَين البقرةَ وسورةَ آلِ عمرانَ، فإنَّهما يأتيان يوم القيامة كأنَّهما غمامتان، أو كأنَّهما غَيَايتَان، أو كأنَّهما فِرْقَانِ من طَيْرٍ صَوَافَّ تُحاجَّانِ عن أصحابهما، اقرؤوا سورةَ البقرة، فإنَّ أخْذَها بركَةٌ، وتَرْكَها حَسْرةٌ، ولا يَستطيعُها البَطَلَةُ». قال معاوية: وبلغني أنَّ البَطَلةَ السَّحَرةُ[٣].

الرابعة: للعلماء في تسمية البقرة وآلِ عمرانَ بالزَّهْرَاوَيْن ثلاثةُ أقوال:

الأول: أنهما النَّيِّرتان، مأخوذٌ من الزَّهْر والزُّهْرَةِ، فإما لهدايتهما قارئهما بما يزهر له من أنوارهما، أي: من معانيهما.

وإما لِما يترتَّبُ على قراءتهما من النُّور التَّامِّ يوم القيامة، وهو **القولُ الثاني**.

الثالث: سُمِّيتا بذلك؛ لأنَّهما اشتركتا في تضمُّن[٤] اسمِ اللّه الأعظم، كما ذكره

(١) سنن الدارميِّ (٣٤٣٩). وابن لهيعة: هو عبدالله، قال الحافظ ابن حجر في التقريب: صدوق، خلَّط بعد احتراق كتبه. اهـ. وهذا الخبر من رواية إسحاق بن عيسى الطباع عنه، ورواية إسحاق عنه قبل احتراق كتبه، كما في علل أحمد (١٥٧٢)، والله أعلم.

(٢) صحيح مسلم (٨٠٥)، وهو في مسند أحمد (١٧٦٣٧)، قوله: شرق، هو بفتح الراء وإسكانها، أي: ضياء ونور، يعني أن بين تلك الظلتين السوداوين مشارق أنوار، والحزقان بكسر الحاء المهملة وإسكان الزاي: قطيعان وجماعتان. قاله النووي في شرح صحيح مسلم ٦/ ٩٠ – ٩١.

(٣) صحيح مسلم (٨٠٤)، وأخرجه أحمد (٢٢١٤٦)، ومعاوية: هو ابن سلّام أحد رجال الإسناد. قوله: فرقان، بكسر الفاء وإسكان الراء: قطيعان وجماعتان. قاله النووي في شرح مسلم.

(٤) في النسخ: فيما تضمنه، والمثبت من المفهم، ٢/ ٤٣٠ وعنه نقل المصنف.

أبو داود وغيرُه[١] عن أسماءَ بنتِ يزيد أنَّ رسول اللّه ﷺ قال: إن اسمَ اللّهِ الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، والتي في آل عمران: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أخرجه ابنُ ماجه أيضاً[٢].

والغمام: السَّحابُ الملْتَفُّ، وهو الغَيَايَة إذا كانت قريباً من الرأس، وهي الظُّلَّة أيضاً. والمعنى: أنَّ قارِئَهما في ظِلِّ ثوابهما، كما جاء: «الرجل في ظلِّ صَدقتِه»[٣].

وقوله: تُحاجَّان؛ أي: يخلقُ اللّهُ مَنْ يُجادلُ عنه بثوابهما ملائكة، كما جاء في بعض الحديث أن «مَن قرأ ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] الآية، خلق اللّه سبعين مَلَكاً يستغفرون له إلى يوم القيامة»[٤].

وقوله: بينهما شَرْقٌ؛ قُيِّد بسكون الراء وفتحها، وهو تنبيه عن الضياء؛ لأنه لما قال: «سَوْداوان» قد يُتَوَهَّم أنَّهما مُظْلِمتان، فنفى ذلك بقوله: «بينَهما شَرْقٌ». ويعني بكونهما سوداوان، أي: من كثافتهما التي بسببهما حالتَا بينَ مَنْ تحتهما وبينَ حرارةِ الشَّمس وشدَّة اللَّهَب. واللّه أعلم[٥].

الخامسة: صَدْرُ هذه السورة نزل بسبب وفد نَجْران فيما ذكر محمد بن إسحاق[٦]، عن محمد بن جعفر بن الزُّبير، وكانوا نصارى وَفَدوا على رسول اللّه ﷺ بالمدينة في ستِّين راكباً، فيهم من أشرافهم أربعةَ عشرَ رجلاً، في الأربعةَ عشرَ ثلاثةُ نفرٍ؛ إليهم يرجِعُ أمرُهم: العاقبُ: أميرُ القوم وذو آرائهم، واسمهُ عبدُ المسيح،

---

(١) سنن أبي داود (١٤٩٦)، وسنن الترمذي (٣٤٧٨).

(٢) في سننه (٣٨٥٥).

(٣) المفهم ٢/ ٤٣١، وأخرج الحديث أحمد (١٧٣٣٣)، وأبو يعلى (١٧٦٦)، وابن حبان (٣٣١٠) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٤) المفهم ٢/ ٤٣١، وأورده الكناني في تنزيه الشريعة ١/ ٢٩٨، والفتني في تذكرة الموضوعات ص٨٠، والشوكاني في الفوائد المجموعة ص٣١٢ من حديث أنس رضي الله عنه. قال الفتني: وفيه مجاشع بن عمرو كذاب يضع. اهـ. ونقل الذهبي في ترجمته في الميزان ٣/ ٤٣٦ عن ابن معين قوله فيه: أحد الكذابين، وعن العقيلي: حديثه منكر.

(٥) المفهم ٢/ ٤٣٣.

(٦) نقله عنه ابن هشام في السيرة ١/ ٥٧٣-٥٧٦ مطولاً.

والسيِّد: ثِمالُهم[١] وصاحبُ مجتمعهم، واسمُه الأَيْهم، وأبو حارثة بنُ علقمة: أحدُ بكر بن وائل أُسْقُفُّهم وعالِمُهم، فدَخلُوا على رسول اللّه ﷺ إثْرَ صلاةِ العَصْرِ، عليهم ثيابُ الحِبَرات[٢] جُبَبٌ وأرْدية. فقال أصحابُ النبيِّ ﷺ: ما رأينا وَفْداً مثلَهم جَمَالاً وجلالةً. وحانت صلاتُهم، فقاموا فصلَّوا في مسجد النبيِّ ﷺ إلى المَشْرِق، فقال النَّبيُّ ﷺ: «دَعُوهم»، ثم أقاموا بها أياماً يُناظرون رسول اللّه ﷺ في عيسى، ويزعمون أنه ابنُ اللّه، إلى غير ذلك من أقوال شنيعةٍ مضطربةٍ، ورسولُ اللّه ﷺ يردُّ عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يُبْصرون، ونزل فيهم صَدْرُ هذه السُّورةِ إلى نَيِّفٍ وثمانينَ آيةً؛ إلى أن آلَ أمرُهم إلى أنْ دعاهم رسول اللّه ﷺ إلى الابتهال[٣] حسب ما هو مذكورٌ في سيرة ابنِ إسحاق[٤] وغيرِه.

قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصِّدق، وقيل: بالحجَّة الغالبة. والقرآن نزل نُجوماً: شيئاً بعدَ شيء، فلذلك قال: «نَزَّلَ» والتَّنزيل مرَّةً بعدَ مرَّة. والتَّوراةُ والإنجيلُ نزلا دَفْعةً واحدةً؛ فلذلك قال: «أَنْزَلَ».

والباء في قوله: «بِالحَقِّ» في موضع الحالِ من الكتاب، والباءُ متعلِّقةٌ بمحذوفٍ، التَّقدير: آتياً بالحقِّ. ولا تتعَلّقُ بـ «نَزَّلَ»؛ لأنه قد تعدَّى إلى مفعولين أحدُهما بحرفِ جرٍّ، ولا يَتعدَّى إلى ثالث.

---

(١) الثِّمال بوزن الكتاب: غياث القوم الذي يقوم بأمرهم. القاموس (ثمل)

(٢) الحِبَرة كعِنَبَة: ضرب من بُرود اليمن. القاموس (حبر).

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٣٩٦ - ٣٩٧، والابتهال: الاجتهاد في الدعاء وإخلاصُه لله عز وجل، وفي التنزيل ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١) أي: يخلص ويجتهد كل منا في الدعاء واللعن على الكاذب منا. اللسان (بهل).

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٥٨٢-٥٨٤ .

و«مُصَدِّقًا» حال مؤكِّدة غير مُنتقِلةٍ، لأنه لا يمكنُ أنْ يكونَ غيرَ مُصدِّق، أي: غيرَ موافق؛ هذا قول الجمهور. وقدَّر فيه بعضُهم الانتقالَ، على معنى أنه مصدِّقٌ لنفسه ومصدِّقٌ لغيره(١).

قوله تعالى: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني من الكتب المنزَّلة. والتَّوراةُ معناها الضياءُ والنُّور؛ مشتقَّةٌ من وَرَى الزَّنْدُ ووَرِيَ، لُغتان: إذا خرجت نارهُ. وأصلُها تَوْرَيَةٌ على وزن تَفْعَلَةٌ، التاء زائدة، وتحرَّكت الياءُ وقبلَها فتحة فقُلِبت ألفاً. ويجوزُ أن تكونَ تَفْعِلة، فتنقلُ الراء من الكسر إلى الفتح، كما قالوا في جاريةٍ: جَارَاة، وفي ناصِيةٍ: ناصاة، كلاهما عن الفرّاء(٢).

وقال الخليل: أصلُها فَوْعَلة، فالأصل: وَوْرَيَةٌ، قُلِبت الواو الأولى تاءً، كما قلبت في تَوْلَج(٣)، والأصلُ: وَوْلَج؛ فَوْعَلٌ من وَلَجت، وقُلبت الياء ألفاً لحركتها وانفتاح ما قبلَها. وبناء فَوْعَلَة أكثر من تَفْعَلَة(٤).

وقيل: التوراة مأخوذة من التَّورِية، وهي التَّعريض بالشيء والكتمان لغيره؛ فكأنَّ أكثرَ التوراة معاريضُ وتلويحات من غير تصريح وإيضاح(٥)، هذا قول المؤرِّج. والجمهور على القول الأول لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء :٤٨] يعني التَّوراةَ.

والإنجيل: إفْعِيلٌ من النَّجْل، وهو الأصل، ويجمع على أنَاجِيل، وتوراة على تَوَارٍ(٦)؛ فالإنجيل أصلٌ لعلوم وحِكَم. ويقال: لعن اللّه نَاجِلَيْه، يعني والدَيه، إذْ كانا أصلَه. وقيل: هو من نَجَلْتُ الشيء: إذا استَخرجتَه؛ فالإنجيل مُستخرَج به علومٌ وحِكَم، ومنه سُمِّي الوَلَدُ والنَّسْل نَجْلاً لخروجه(٧)؛ كما قال:

---

(١) انظر المحرر الوجيز ١/ ٣٩٧ - ٣٩٨، والوسيط للواحدي ١/ ٤١٢، وتفسير البغوي ١/ ٢٧٧ .

(٢) ذكرهما في كتابه المصادر فيما ذكر الأزهري في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٠٧ .

(٣) التَّولَجُ: كِناسُ الوحش، وهو مستتره من الشجر. القاموس (ولج، كنس)

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٣٩٨، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٣٧٥، وللنحاس ١/ ٣٤٢ .

(٥) تفسير البغوي ١/ ٢٧٧ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٧٥، وللنحاس ١/ ٣٤٣ .

(٧) زاد المسير ١/ ٣٤٩، وينظر المعرّب للجواليقي ص٧١-٧٢ .

إلى مَعْشَرٍ لم يُورِثِ اللؤمَ جَدُّهم أصاغرَهم وكلُّ فَحْلٍ لهم نَجْلُ[١]

والنَّجْلُ: الماء الذي يخرجُ من النَّزِّ. واستَنْجَلَت الأرضُ، وبها نِجَالٌ: إذا خرجَ منها الماءُ[٢]، فسمِّي الإنْجيل به؛ لأنَّ اللّه تعالى أخرج به دَارِساً من الحقِّ عافياً.

وقيل: هو من النَّجَلِ في العين، بالتحريك، وهو سَعَتُها[٣]، وطعنةٌ نَجْلاء، أي: واسعة، قال:

رُبَّما ضَرْبَةٍ بسيفٍ صَقيلٍ بين بُصْرَى وطعنةٍ نَجْلاءِ[٤]

فسمِّيَ الإنجيلُ بذلك؛ لأنَّه أصلٌ أخرجَه لهم ووسَّعه عليهم نُوراً[٥] وضياءً.

وقيل: التَّناجُل التَّنازُع؛ وسمِّيَ إنجيلاً لتنازع الناس فيه. وحكى شَمِرٌ عن بعضهم: الإنجيلُ كلُّ كتابٍ مكتوبٍ وافرِ السُّطور. وقيل: نَجَل: عَمِلَ وصنَع؛ قال:

وأنجلُ في ذاك الصَّنيع كما نَجَلْ[٦]

أي: أعملُ وأصنَعُ. وقيل: التوراة والإنجيل من اللغة السُّرْيانية. وقيل: الإنجيل بالسُّريانية إنْكليون؛ حكاه الثعلبيُّ.

قال الجوهري[٧]: الإنجيل كتابُ عيسى عليه السَّلام يذكَّر ويؤنَّث، فمن أنَّثَ أرادَ الصَّحيفة، ومن ذكَّر أرادَ الكتابَ.

قال غيرهُ: وقد يُسمَّى القرآن إنجيلاً أيضاً، كما رُوي في قصة مناجاة موسى عليه السَّلام أنَّه قال: يا ربِّ، أرى في الألواح أقواماً أناجيلُهم في صدورهم، فاجعلْهم

---

(١) قائله زهير بن أبي سلمى، والبيت في ديوانه ص١٠٠، قال شارحه: النجل: النسل.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٣٩٨ .

(٣) تفسير البغوي ١/ ٢٧٧ .

(٤) قائله عدي بن الرَّعلاء الغساني، والبيت من قصيدة له في الأصمعيات ص١٥٢، وخزانة الأدب ٩/ ٥٨٢، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥٦٦ .

(٥) في (م): ونوراً.

(٦) صدره: ولما أتى يوم بأيام فخة، وهو لبلعاء بن قيس كما في تاج العروس (نجل).

(٧) في الصحاح (نجل).

أمَّتي، فقال الله تعالى له: تلك أمَّةُ أحمدَ ﷺ. وإنَّما أرادَ بالأناجيل القرآنَ[١].

وقرأ الحسن: «والأَنْجيل» بفتح الهمزة[٢]، والباقون بالكسر، مثلُ الإكليل، لغتان. ويُحتملُ إن سُمع أنْ يكونَ ممَّا عرَّبته العربُ من الأسماء الأعجمية، ولا مثالَ له في كلامها.

قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ قال ابن فُورَك: التقديرُ: هدىً للنَّاس المتقين؛ دليلُه في البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فردَّ هذا العامَّ إلى ذلك الخاص[٣]. و«هدىً» في مَوضِعِ نَصبٍ على الحال. و﴿الْفُرْقَانَ﴾: القرآن. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٥﴾

هذا خبرٌ عن علمِه تعالى بالأشياء على التَّفصيل، ومثلُه في القرآن كثير. فهو العالم بما كان وما يكونُ وما لا يكونُ، فكيف يكونُ عيسى إلهاً أو ابنَ إلهٍ وهو تَخْفى عليه الأشياء؟!

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾ أخبر تعالى عن تصويره للبشر في أرحام الأمَّهات.

وأصل الرَّحِم من الرَّحْمة؛ لأنَّها مما يُتَراحَمُ به. واشتقاقُ الصُّورَة من صارَه إلى كذا: إذا أماله، فالصُّورة مائلةٌ إلى شَبَهٍ وهَيْئة.

وهذه الآيةُ تعظيمٌ لله تعالى، وفي ضمنها الرَّدُّ على نصارى نَجْرانَ، وأنَّ عيسى

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٢٤٤، وأخرجه الطبري ١٠/ ٤٥٢-٤٥٣، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٤-١٥٦٥ عن قتادة.

(٢) المحتسب ١/ ١٥٢، والقراءات الشاذة ص١٩ .

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٣٣٩ .

من المصَوِّرين، وذلك مما لا يُنكره عاقلٌ»[١].

وأشار تعالى إلى شرح التَّصْوير في سورة الحَجِّ والمؤمنُون[٢].

وكذلك شرحَه النبيُّ ﷺ في حديث ابن مسعود، على ما يأتي هناك بيانُه إنْ شَاءَ اللّهُ تعالى.

وفيها الردُّ على الطبائعيين أيضاً، إذْ يجعلونها فاعلةً مستبِدَّة. وقد مضى الردُّ عليهم في آية التَّوحيد[٣].

وفي مسند ابن سنجر ـ واسمُه محمد بن سنْجر[٤] ـ حديث: «إنَّ اللّه تعالى يخلقُ عِظامَ الجنينِ وغَضاريفَه من مَنيِّ الرَّجلِ، وشحمَه ولحمَه من مَنيّ المرأةِ[٥]».

وفي هذا أدَلُّ دليل على أنَّ الولدَ يكونُ من ماء الرَّجل والمَرأة، وهو صريح قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾[الحجرات: ١٣].

وفي صحيح مسلم[٦] من حديث ثوبان وفيه: أنَّ اليهوديَّ قال للنبيِّ ﷺ: وجئتُ أسألُك عن شيءٍ لا يعلمُه أحدٌ من أهل الأرض إلا نبيٌّ أو رجلٌ أو رجلان. قال: «يَنفعُك إنْ حدَّثتُك»؟ قال: أسمعُ بأُذُنيَّ، قال: جئتُكَ أسألُكَ عن الوَلَدِ؛ فقال النبيُّ ﷺ: «ماءُ الرَّجلِ أبيضُ، وماءُ المرأةِ أصْفَرُ، فإذا اجْتمَعَا فَعَلا مَنيُّ الرَّجلِ مَنيَّ المرأةِ أذْكَرا بإذْنِ اللّه تعالى، وإذا عَلاَ مَنيُّ المرأةِ مَنيَّ الرَّجل آنَثَا بإذن اللّه» الحديث. وسيأتي بيانُه آخرَ الشُّورَى إن شاء اللّه تعالى[٧].

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٠ .

(٢) في تفسير الآية (٥) من سورة الحج، والآيات (١٢-١٤) من سورة المؤمنون.

(٣) ٢/ ٥٠٤ .

(٤) أبو عبدالله، الجرجاني، صاحب المسند، سمع يزيد بن هارون والفريابي وأبا نعيم والحميدي، كان ثقة خيِّراً، توفي سنة (٢٥٨هـ) بصعيد مصر. تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٧٨، وشذرات الذهب ٣/ ٢٥٩، وتاريخ جرجان ص٣٧٩ .

(٥) نقله ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٠ ، والله أعلم.

(٦) برقم (٣١٥).

(٧) في تفسير الآيتين (٤٩-٥٠) منها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ يعني من حُسْنٍ وقُبْح، وسَوَادٍ وبَيَاضٍ، وطُولٍ وقِصَرٍ، وسَلامةٍ وعاهةٍ، إلى غير ذلك من الشَّقاء والسَّعادة.

وذُكر عن إبراهيم بن أدْهَم أن القُرَّاءَ اجتمعوا إليه ليسمعوا ما عندَه من الأحاديث، فقال لهم: إني مشغولٌ عنكم بأربعةِ أشياءَ، فلا أتفرَّغُ لرواية الحديث، فقيل له: وما ذاك الشُّغلُ؟ قال:

أحدُها: أني أتفكَّر في يومِ الميثاق حيثُ قال: «هؤلاءِ في الجنةِ ولا أُبالي، وهؤلاءِ في النَّار ولا أُبالي[(١)]» فلا أدري من أيِّ الفريقين كنتُ في ذلك الوقت.

والثاني: حيث صُوِّرتُ في الرَّحِم، فقال المَلَكُ الذي هو موكَّل على الأرحام: «يا ربِّ، شَقيٌّ هو أم سعيد[(٢)]» فلا أدري كيف كان الجوابُ في ذلك الوقت.

والثالثُ: حينَ يَقبِضُ مَلَكُ الموت رُوحي فيقولُ: يا ربِّ مع الكفر أم مع الإيمان. فلا أدري كيف يخرجُ الجوابُ.

والرابع: حيث يقولُ: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] فلا أدري في أيِّ الفريقين أكونُ.

ثم قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا خالِق ولا مصوِّر [إلا هو][(٣)]، وذلك دليلٌ على وحدانيَّته، فكيف يكون عيسى إلهاً مُصَوِّراً وهو مُصَوَّرٌ؟!

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي لا يغالب. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: ذو الحكمة أو المُحْكِم، وهذا أخصُّ بما ذكر من التَّصوير.

---

(١) أخرجه أحمد (٣١١) و (١٧٥٩٣) و (١٧٦٦٠) و (٢٢٠٧٧) و (٢٧٤٨٨) من حديث عمر، وأبي عبدالله رجل من الصحابة، وعبد الرحمن بن قتادة السلمي، ومعاذ بن جبل، وأبي الدرداء، رضي الله عنهم.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٣٦٢٤)، والبخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) عن عبدالله بن مسعود، وأحمد (١٢١٥٧)، والبخاري (٣١٨)، ومسلم (٢٦٤٦) عن أنس بن مالك، وأحمد (١٦١٤٣)، ومسلم (٢٦٤٤) عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنهم.

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٢٤٥ وما بين حاصرتين منه، وعنه نقل المصنف كلام ابن أدهم.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾﴾

فيه تسع مسائل:

الأولى: خرَّج مسلم[1] عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتُم الذين يتَّبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّاهم الله فاحذروهم».

وعن أبي غالب قال: كنتُ أمشي مع أبي أُمَامة وهو على حمارٍ له، حتى إذا انتهى إلى دَرَج مسجدِ دمشق؛ فإذا رؤوسٌ منصوبة، فقال: ما هذه الرُّؤوس؟ قيل: هذه رؤوسُ خوارج يُجاء بهم من العراق، فقال أبو أمامةَ: كلابُ النَّار، كلابُ النَّار، كلابُ النَّار، شرُّ قتلى تحت ظلِّ السماء، طوبى لمَن قتلَهم وقتلُوه - يقولُها ثلاثاً - ثم بكى. فقلت: ما يُبكيك يا أبا أمامة؟ قال: رحمةً لهم، إنَّهم كانوا من أهل الإسلام، فخرجوا منه، ثم قرأ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ﴾ إلى آخر الآيات. ثم قرأ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. فقلت: يا أبا أُمَامة، هُمْ هؤلاء؟ قال: نعم. قلتُ: أشيءٌ تقولُه برأيك، أم شيءٌ سمعتَه من رسول الله ﷺ؟ فقال: إني إذاً لَجَرِيءٌ، إني إذاً لَجَرِيء، بل سمعتُه من رسول الله ﷺ غيرَ مرَّةٍ ولا مرتين ولا ثلاثٍ ولا أربع ولا خمسٍ ولا ست ولا سبع، ووضعَ أُصبعيْه في أُذُنَيْه، قال: وإلَّا فصُمَّتا - قالها ثلاثاً - ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تفرَّقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقةً، واحدة في الجنَّة، وسائرهم في النار، ولَتزيدنَّ عليهم

---

(١) في صحيحه (٢٦٦٥)، وأخرجه أحمد (٢٦١٩٧)، والبخاري (٤٥٤٧).

هذه الأمَّةُ واحدةً، واحدةٌ في الجنَّة وسائرُهم في النَّار[١]».

الثانية: اختلف العلماءُ في المحكمات والمتشابهات على أقوال عديدة، فقال جابر بن عبد اللّه [بن رئاب]، وهو مقتضى قول الشعبيِّ وسفيان الثوريِّ وغيرهما: المحكمات من آي القرآن ما عُرِف تأويلُه، وفُهِم معناه وتفسيرُه. والمتشابه ما لم يكن لأحدٍ إلى علمه سبيلٌ، مما استأثر اللّه تعالى بعلمه دونَ خلقِه. قال بعضُهم: وذلك مِثلُ وقتِ قيامِ السَّاعة، وخروجِ يأجوجَ ومأجوجَ والدَّجالِ وعيسى، ونحوُ الحروفِ المقطَّعةِ في أوائلِ السُّورِ[٢].

قلت: هذا أحسنُ ما قيل في المتشابه. وقد قدَّمنا في أوّل[٣] سورة البقرة عن الربيع بن خُثيم أن اللّه تعالى أنزلَ هذا القرآنَ، فاستأثرَ منه بعلم ما شاءَ، الحديث.

وقال أبو عثمان: المحكم فاتحةُ الكتاب التي لا تُجزِئ الصلاة إلا بها.

وقال محمد بنُ الفضل: سورة الإخلاص؛ لأنَّه ليس فيها إلا التَّوحيدُ فقط. وقد قيل: القرآن كُلُّه مُحْكَم؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، وقيل: كلُّه متشابِه؛ لقوله: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

قلتُ: وليس هذا من معنى الآية في شيء، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: في النَّظمِ والرَّصْف، وأنَّه حقٌّ من عند اللّه. ومعنى ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي: يُشْبِهُ بعضُه بعضاً، ويُصدِّق بعضُه بعضاً. وليس المرادُ بقوله: «آياتٌ مُحْكَماتٌ» «وأُخَرُ مُتَشَابِهاتٌ» هذا المعنى، وإنَّما المتشابه في هذه الآيةِ من بابِ الاحتمال والاشتباه، من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠]، أي: التبسَ علينا، أي: يحتملُ أنواعاً كثيرةً من البقر. والمرادُ بالمُحْكَمِ ما في مقابَلةِ هذا، وهو ما لا التباسَ فيه، ولا يحتملُ إلَّا وجهاً واحداً.

---

(١) أخرجه بهذا السياق الطبراني في الكبير (٨٠٥١)، وأخرجه مختصراً أحمد (٢٢١٨٣) و (٢٢٢٠٨)، والترمذي (٣٠٠٠).

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٠١ وما بين حاصرتين منه.

(٣) في (م): أوائل، وسلف خبر الربيع ١/ ٢٣٤ .

وقيل: إنَّ المتَشابِه ما يحتملُ وجوهاً، ثم إذا رُدَّت الوجوهُ إلى وجهٍ واحدٍ وأبطل الباقي؛ صارَ المتشابِه مُحكَماً. فالمحكَمُ أبداً أصلٌ تُردُّ إليه الفروع، والمتشابه هو الفرعُ.

وقال ابنُ عباس: المحكماتُ: هي[١] قولُه في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [١٥١] إلى ثلاث آيات، وقولُه في بني إسرائيل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. قال ابن عطية[٢]: وهذا عندي مثالٌ أعطاه في المحكمات.

وقال ابن عباس أيضاً: المحكماتُ: ناسخه[٣]، [وحلاله]، وحرامه، وفرائضه، وما يؤمنُ به، ويعمل[٤]، والمتشابهات: المنسوخاتُ، ومقدَّمه، ومؤخَّره، وأمثالُه، وأقسامُه، وما يؤمنُ به ولا يعملُ به.

وقال ابنُ مسعود وغيرُه: المحكماتُ: الناسخاتُ، والمتشابهاتُ: المنسوخاتُ، وقاله قتادة والربيع والضَّحاك[٥].

وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المحكَماتُ: هي التي فيها حجَّةُ الربِّ، وعصمةُ العباد، ودفعُ الخُصوم والباطل، ليس لها تصريفٌ ولا تحريفٌ عما وُضِعْن عليه. والمتشابهاتُ: لهنَّ تصريفٌ وتحريفٌ وتأويل، ابتلى الله فيهنَّ العبادَ، وقاله مجاهد وابن إسحاق[٦].

قال ابنُ عطية[٧]: وهذا أحسنُ الأقوالِ في هذه الآية.

قال النَّحاس[٨]: أحسنُ ما قيلَ في المحكَمات والمتشابهات: إن المحكماتِ ما

---

(١) في (د) و (م): هو.

(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٠.

(٣) في النسخ الخطية: ناسخه ومنسوخه، وهو خطأ، والمثبت من (م).

(٤) في (د) و (م): ويعمل به.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٠ وما بين حاصرتين منه، وأخرج الأقوال الطبري ٥/ ١٩٣ - ١٩٦.

(٦) أخرج أثر محمد بن جعفر الطبريُّ ٥/ ١٩٧، وانظر سيرة ابن هشام ١/ ٥٧٦.

(٧) في المحرر الوجيز ١/ ٤٠١ وعنه نقل المصنف قول محمد بن جعفر.

(٨) في إعراب القرآن ١/ ٣٥٥.

كانَ قائماً بنفسه لا يحتاجُ أنْ يُرجَع فيه إلى غيره، نحو: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢]. والمتشابهاتُ نحوُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، يُرجع فيه إلى قوله جل وعلا: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢]، وإلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

قلت: ما قاله النَّحاس يبيِّن ما اختاره ابنُ عطيَّة، وهو الجاري على وَضْع اللسان، وذلك أن المُحكَم اسمُ مفعولٍ من أَحْكَم، والإحكامُ الإتْقان، ولا شك في أنَّ ما كان واضحَ المعنى لا إشكالَ فيه ولا تردُّد، وإنما يكونُ كذلك لوضوح مفرداتِ كلماتِه واتِّفاق[(١)] تركيبها، ومتى اخْتَلَّ أحدُ الأمرين جاءَ التّشابُه والإشكال[(٢)]. والله أعلم.

وقال ابن خُويزِمَنْدَاد: للمتشابه وجوهٌ، والذي يتعلَّقُ به الحكمُ ما اختلف فيه العلماء أيّ الآيتين نَسخت الأخرى؛ كقول عليٍّ وابن عباس في الحامل المتوفَّى عنها زوجُها: تعتدُّ أقْصَى الأجلين. فكان عمرُ وزيدُ بنُ ثابت وابنُ مسعود وغيرُهم يقولون: وضعُ الحمل، ويقولون: سورةُ النساء القُصرى[(٣)] نسختْ: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ﴾ [البقرة: ٢٣٤]. وكان عليٌّ وابنُ عباس يقولان: لم تُنسخ.

وكاختلافهم في الوصيَّة للوارث هل نُسِخت أم لم تُنْسخ.

وكتعارُض الآيتين أيُّهما أولى أن تُقدَّم إذا لم يُعرف النَّسخُ، ولم تُوجد شرائطُه، كقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، يقتضي الجمعَ بين الأقارب من مِلك اليمين، وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ﴾ [النساء: ٢٣]، يمنع ذلك منه[(٤)].

---

(١) في (خ) و (م): وإتقان.

(٢) المفهم ٦/ ٦٩٦.

(٣) يعني سورة الطلاق؛ أخرج البخاري (٤٩١٠) عن عبدالله بن مسعود قال: لَنَزَلَتْ سورةُ النساء القُصرى بعد الطولى: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٦٥٥: أي سورة الطلاق بعد سورة البقرة. وانظر الإتقان ١/ ٥٥.

(٤) لفظ: منه، ليس في (م).

ومنه أيضاً تعارضُ الأخبار عن النبيِّ ﷺ وتعارضُ الأقْيسَة، فذلك المتشابه.

وليس من المتشابه أن تقرأ الآية بقراءتين ويكون الاسم[١] محتملاً أومُجملاً يحتاجُ إلى تفسير؛ لأنَّ الواجبَ منه قدرُ ما يتناولُه الاسم أوجميعُه. والقراءتان كالآيتين يجبُ العملُ بموجبهما جميعاً، كما قرئ: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة:٦] بالفتح والكسر، على ما يأتي بيانُه في «المائدة» إن شاء الله تعالى.

الثالثة: روى البخاريُّ[٢] عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إني أجدُ في القرآن أشياءَ تختلفُ عليَّ، قال: ما هو؟ قال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١]، وقال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات:٢٧]، وقال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢]، وقال: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، فقد كتموا في هذه الآية. وفي النازعات: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ إلى قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾. فذكر خلق السماء قبلَ خلقِ الأرض، ثم قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله[٣]: ﴿طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، فذكر في هذه[٤] خلق الأرض قبل خلق السماء. وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٨]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، فكأنه كان ثم مضى.

فقال ابن عباس: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ في النَّفخة الأولى، ثم يُنفَخُ في الصُّور، فصَعِقَ مَنْ في السَّماوات ومن في الأرض إلّا مَن شاءَ الله، فلا أنسابَ بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النَّفخة الآخِرة أقبلَ بعضُهم على بعض يتساءلون. وأما قولُه: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ فإنَّ الله يَغفر لأهل الإخلاص ذنوبَهم، وقال المشركون: تعالَوا نقولُ: ما كنا[٥] مشركين، فختم اللّهُ على أفواههم، فتَنطقُ

---

(١) في (خ): الأمر.

(٢) في صحيحه باب تفسير سورة فصلت، (٨/ ٥٥٥ فتح الباري)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) لفظ: قوله، من (خ).

(٤) في النسخ: هذا، والمثبت من صحيح البخاري.

(٥) في (م) وصحيح البخاري: لم نكن.

جوارحُهم بأعمالهم، فعند ذلك عُرفَ أن اللّه لا يُكتَم حديثاً، وعندَه ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢].

وخلق اللّه الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء، فسوَّاهنَّ سبعَ سماواتٍ في يومين، ثم دحا الأرضَ، أي: بسطَها، فأخرجَ منها الماءَ والمرعى، وخلقَ فيها الجبالَ والأشجارَ والآكام وما بينهما[١] في يومين آخرين؛ فذلك قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، فخُلِقَتِ الأرضُ وما فيها في أربعة أيام، وخُلِقَت السماءُ في يومين.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يعني [سمَّى] نفسَه ذلك، أي: لم يزل ولا يزالُ كذلك، فإنَّ اللّه لم يُرِد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد. ويحكَ! فلا يختلِفْ عليك القرآنُ، فإن كلًّا من عند اللّه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ لم تُصرف أُخَرُ؛ لأنَّها عُدِلت عن الألف واللام؛ لأنَّ أصلَها أن تكونَ صفةً بالألف واللّام، كالكُبَرِ والصُّغَر، فلما عُدِلت عن مجرى الألف واللام مُنِعت الصَّرف.

أبو عبيد: لم يَصْرِفوها؛ لأنَّ واحدَها لا ينصرفُ في معرفةٍ ولا نكرة. وأنكر ذلك المبرِّد وقال: يجبُ على هذا ألَّا ينصرف غِضابٌ وعِطاشٌ.

الكسائيُّ: لم تنصرف؛ لأنَّها صفةٌ. وأنكره المبردُ أيضاً وقال: إن لِبَداً وحُطَماً صفتان، وهما منصرفان.

سيبويه: لا يجوز أن تكونَ أُخَرُ معدولة عن الألف واللام؛ لأنَّها لو كانت معدولةً عن الألف واللام لكان معرفةً[٢]، ألا ترى أن سَحَرَ معرفةٌ في جميع الأقاويل لما

---

(١) في (خ) و (م): بينها.

(٢) كذا ذكر المصنف رحمه الله عن سيبويه ـ ونقله عنه الشوكاني في فتح القدير ١/ ٣١٥ ـ وهو وهم منه، ولعله نقله عن المهدوي، فقد ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٢ أن المهدوي خلط في هذه المسألة وأفسد كلام سيبويه، وقد نقل المصنف كلام سيبويه على الجادة بواسطة النحاس عند تفسير قوله تعالى: ﴿فعدة من أيام أخر﴾ (البقرة: ١٨٤) فقال: لم ينصرف «أُخر» عند سيبويه لأنها معدولة عن الألف واللام...

كانت معدولة [عن السَّحَر][١]. وَأَمْسِ في قول من قالَ: ذهبَ أمسِ، معدولاً عن الأمسِ؛ فلو كانَ أخرُ معدولاً أيضاً عن الألف واللام لكان معرفةً، وقد وصفه اللّه تعالى بالنكرة.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ﴾ الذين رفع بالابتداء، والخبرُ: «فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ[٢]».

والزيغُ: الميلُ، ومنه زاغت الشمسُ، وزاغت الأبصارُ، ويقال: زاغَ يَزيغُ زَيْغاً: إذا تركَ القَصْدَ[٣]، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥].

وهذه الآيةُ تعمُّ كلَّ طائفة من كافرٍ وزِنديق وجاهلٍ وصاحبِ بِدْعةٍ، وإنْ كانت الإشارةُ بها في ذلك الوقت إلى نصارى نجران.

وقال قَتادةُ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ﴾: إنْ لم يكونوا الحروريَّةَ وأنواعَ الخوارج؛ فلا أدري مَن هم[٤].

قلت: قد مرَّ هذا التفسيرُ عن أبي أمامةَ مرفوعاً، وحسبُك[٥].

السادسة: قوله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ قال شيخُنا أبو العباس[٦] رحمةُ اللّه عليه: متَّبِعو المتشابه لا يخلو أن يتَّبعوه ويجمعوه طلباً للتَّشكيك في القرآن وإضلالِ العوامِّ؛ كما فعلتْه الزنادقةُ والقَرامِطة الطاعنون في القرآن، أو طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه؛ كما فعلتْه المجسِّمةُ الذين جمعوا ما في الكتاب والسُّنة مما [يوهم] ظاهرُه الجِسميةَ، حتى اعتقدوا أنَّ البارئ تعالى جسمٌ مجسَّمٌ، وصورةٌ مصوَّرةٌ ذاتُ وجْهٍ، وعَينٍ، ويَدٍ، وجَنْبٍ، ورِجلٍ، وأُصْبُع! تعالى

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة للتوضيح، انظر المحرر الوجيز ١/ ٤٠٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٥٥.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٢، وإعراب القرآن ١/ ٣٥٥.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٢، وأخرج أثر قتادة الطبري ٥/ ٢٠٧.

(٥) في المسألة الأولى من تفسير هذه الآية.

(٦) في المفهم ٦/ ٦٩٧ - ٦٩٨، وما سيرد بين حاصرتين منه.

اللّه عن ذلك! أو يتبعوه على جهة إبداءِ تأويلاتِها وإيضاحِ معانيها، أو كما فعل صَبِيغ[١] حينَ أكثر على عمر فيه السؤال. فهذه أربعة أقسام:

الأول: لا شكَّ في كُفرهم، وأنَّ حكمَ اللّه فيهم القتلُ من غير استتابة.

الثاني: الصحيح القولُ بتكفيرهم، إذ لا فرقَ بينهم وبين عُبَّاد الأصنامِ والصُّوَر، ويُستتابون، فإن تابوا؛ وإلا قُتلوا كما يُفعلُ بمن ارتدَّ.

الثالث: اختلفوا في جواز ذلك بناءً على الخلاف في جواز تأويلها[٢]. وقد عُرِف أنَّ مذهبَ السَّلف تركُ التعرُّضِ لتأويلها، مع قطعهم باستحالة ظواهرها، فيقولون: أَمِرُّوها كما جاءت. وذهب بعضُهم إلى إبداء تأويلاتها، وحملها على ما يَصِحُّ حملُه في اللسان عليها من غير قطعٍ بتعيين مَحْملٍ منها.

الرابع: الحكم فيه الأدبُ البليغ، كما فعلَه عمرُ بصَبِيغ.

وقال أبو بكر الأنباريُّ: وقد كان الأئمةُ من السَّلف يعاقبون من يسألُ عن تفسير الحروف المشكلةِ[٣] في القرآن، لأنَّ السائلَ إن كان يَبْغي بسؤاله تخليدَ البدعة وإثارةَ الفتنة، فهو حقيقٌ بالنَّكير وأعظمِ التَّعزير، وإنْ لم يكن ذلك مقصدُه، فقد استحقَّ العَتَب بما اجترَم من الذنب، إذ أوجدَ للمنافقين الملحدين في ذلك الوقت سبيلاً إلى أنْ يقصدوا ضَعَفَة المسلمين بالتشكيك والتَّضليل في تحريف القرآن عن مناهج التَّنزيل وحقائقِ التَّأويل. فمن ذلك ما حدثنا إسماعيلُ بن إسحاق القاضي، أنبأنا سليمان بن حَرْب، عن حماد بن زيد، عن يزيد بن حازم، عن سليمانَ بن يسار أنَّ صَبِيغَ بن عِسل قدم المدينة، فجعل يسألُ عن متشابه القرآن وعن أشياءَ، فبلغ ذلك عمرَ ﷺ، فبعثَ إليه عمرُ، فأحضره وقد أعدَّ له عَراجينَ من عراجين النَّخل. فلما حضر قال له عمر: مَن أنت؟ قال: أنا عبدُ اللّه صَبيغ، فقال عمرُ ﷺ: وأنا عبدُ اللّه عمرُ، ثم قام إليه

---

(١) صَبِيغ بوزن عظيم، وآخره معجمة، ويقال بالتصغير، ذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة ٥/ ١٦٨ وذكر قصته، وسيرد تخريجها قريباً.

(٢) في المفهم ٦/ ٦٩٧: فأما مَن يتبع المتشابه لا على تلك الجهتين، فإن كان ذلك على إبداء تأويلاتها وإيضاح معانيها، فذلك مختلف في جوازه بناء على الخلاف في جواز تأويلها.

(٣) في (م): المشكلات.

فضربَ رأسَه بعرجُون فشَجَّه، ثم تابع ضَرْبَه حتى سالَ دمُه على وجهه، فقال: حسبُك يا أمير المؤمنين؛ فقد واللّهِ ذهبَ ما كنتُ أجدُ في رأسي.

وقد اختلفت الرواياتُ في أدبه، وسيأتي ذكرُها في «الذاريات». ثم إن اللّه تعالى ألهمَه التوبةَ، وقذفها في قلبه، فتابَ وحسُنت توبته(١).

ومعنى «ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ» طلب الشبهات واللَّبْس على المؤمنين حتى يُفسِدوا ذاتَ بينهم، ويردُّوا الناس إلى زيغهم.

وقال أبو إسحاق الزَّجَّاج: معنى ابتغائهم(٢) تأويلَه: أنَّهم طلبوا تأويلَ بعثِهم وإحيائهم، فأعلم اللّه جلَّ وعزَّ أنَّ تأويلَ ذلك ووقتَه لا يعلمُه إلَّا اللّه. قال: والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: يومَ يرون ما يوعدون من البعث والنُّشور والعذاب ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: تركوه ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، أي: قد رأينا تأويلَ ما أنبأتنا به الرُّسُلُ. قال: فالوقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: لا يعلم أحدٌ متى البعثُ إلَّا اللّه(٣).

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يقال: إنَّ جماعةً من اليهود ـ منهم حُيَيُّ بن أخطب ـ دخلوا على رسول اللّه ﷺ وقالوا: بلغنا أنه نزلَ عليك «الٓمٓ»، فإنْ كنتَ صادقاً في مقالتك فإن مُلْكَ أمَّتك يكونُ إحدى وسبعين سنةً، لأنَّ الألِف في حساب الجُمَّل(٤) واحد، واللَّامَ ثلاثون، والميمَ أربعون، فنزل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(٥).

---

(١) وأخرجه الدرامي (١٤٦)، والآجري في الشريعة (١٥٣)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١١٣٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٣/ ٤١١ من طريق حماد بن زيد، به. وذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة ٥/ ١٦٨-١٦٩ طرقاً أخرى للخبر. وسيذكر بعضها المصنف في تفسير الآية الأولى من سورة الذاريات.

(٢) في (د) و (م): ابتغاء.

(٣) معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٧٨، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٣٥٥ وعنه نقل المصنف.

(٤) في معجم متن اللغة: الجُمَّلُ (ويخفَّف): حساب مبناه على حروف أبجد، كل حرف يدلُّ على رقم من الأعداد، آحادها، وعشراتها، ومئاتها.

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٢٤٧، وأخرجه مطولاً الطبري ١/ ٢٢١ عن جابر بن عبدالله بن رئاب، وضعّفه =

والتأويل يكون بمعنى التفسير، كقولك: تأويلُ هذه الكلمة على كذا. ويكون بمعنى ما يَؤولُ الأمرُ إليه. واشتقاقه من آل الأمرُ إلى كذا يَؤولُ إليه، أي: صار. وأوَّلتُه تأويلاً، أي: صيَّرتُه. وقد حدَّه بعضُ الفقهاء فقالوا: هو إبداء احتمالٍ في اللفظ مقصود بدليل خارج عنه. فالتفسيرُ بيانُ اللفظ، كقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شكَّ. وأصلُه من الفَسْرِ، وهو البيان، يقالُ: فَسَرْتُ الشَّيءَ (مخفَّفاً) أفْسِرُه (بالكسر) فَسْراً. والتأويل بيانُ المعنى، كقوله: لا شكَّ فيه عند المؤمنين، أو لأنَّه حقٌّ في نفسه، فلا تَقبلُ ذاتُه الشَّكَّ، وإنَّما الشَّكُّ وصفُ الشَّاكِّ. وكقول ابن عباس في الجدِّ أباً؛ لأنَّه تأوَّل قولَ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾[١] [الأعراف: ٢٦].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ اختلف العلماءُ في «والرَّاسِخُونَ في الْعِلْم» هل هو ابتداءُ كلامٍ مقطوعٍ ممَّا قَبلَه، أو هو معطوفٌ على ما قبلَه فتكونُ الواوُ للجمعِ، فالذي عليه الأكثرُ أنه مقطوعٌ مما قبلَه، وأن الكلام تمَّ عند قوله: «إلا اللَّهُ»، هذا قولُ ابنِ عمرَ وابنِ عباسٍ وعائشةَ وعروةَ بن الزبير وعمرَ بنِ عبد العزيز وغيرهم، وهو مذهبُ الكِسائيِّ والأخفشِ والفرَّاء وأبي عُبيد وغيرهم[٢].

قال أبو نَهِيك الأسدي: إنكم تَصِلون هذه الآيَة، وإنَّها مقطوعة. وما انتهى علمُ الراسخين إلَّا إلى قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

وقال مثلَ هذا عمرُ بن عبد العزيز، وحكى الطبريُّ نحوَه عن يونسَ، عن أشهبَ، عن مالك بن أنس[٣]. و«يقولون» على هذا خبر «الراسخون».

قال الخطابي: وقد جعل اللَّه تعالى آياتِ كتابه الذي أَمَرَنا بالإيمان به والتَّصديق بما فيه على[٤] قسمين: محكماً ومتشابهاً، فقال عزَّ من قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ

= ابن كثير في تفسير الآية الأولى من البقرة وقال: مداره على محمد بن السائب الكلبي، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به.

(١) انظر معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٥١ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٢٨٠، ومعاني القرآن للنحاس ١/٣٥١ .

(٣) المحرر الوجيز ١/٤٠٣ . وأخرج الطبري ٥/ ٢١٩ قول أبي نهيك وعمر بن عبد العزيز ومالك.

(٤) لفظة: على، من (د) و (ظ).

ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ إلى قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فأعْلَم أن المتشابهَ من الكتاب قد استأثر اللّهُ بعلمه، فلا يعلم تأويلَه أحَدٌ غيرُه، ثم أثنى اللّه عزَّ وجلَّ على الراسخين في العلم بأنهم يقولون: آمنا به. ولولا صحّةُ الإيمان منهم لم يستحقُّوا الثناءَ عليهم.

ومذهبُ أكثر العلماء أن الوقفَ التامَّ في هذه الآية، إنما هو عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وأن ما بعده استئنافُ كلامٍ آخرَ، وهو قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، وروي ذلك عن ابن مسعود وأبيٍّ بن كعب وابنِ عباسٍ وعائشة[١].

وإنما رويَ عن مجاهد أنه نَسَق الراسخين[٢] على ما قبله وزعم أنهم يعلمونَه[٣].

واحتجَّ له بعضُ أهل اللُّغة فقال: معناه: والراسخون في العلم يعلمونه قائلين آمنَّا، وزعم أن موضعَ «يقولون» نَصبٌ على الحال. وعامةُ أهلِ اللُّغة يُنكرونه ويستبعدونه؛ لأن العربَ لا تُضمِرُ الفعلَ والمفعولَ معاً، ولا تذكر حالاً إلَّا مع ظهور الفعل، فإذا لم يظهر فعلٌ فلا يكون حال، ولو جاز ذلك لجاز أن يقال: عبدُ اللّه راكباً، بمعنى: أقبل عبدُ اللّهِ راكباً، وإنما يجوز ذلك مع ذكر الفعل، كقوله: عبدُ اللّه يتكلَّمُ يصلحُ بين الناس؛ فكان «يصلحُ» حالاً له، كقول الشاعر ـ أنشدنيه أبو عمر قال: أنشدنا أبو العباس ثعلب ـ:

أرسلتُ فيها رَجُلاً[٤] لُكالِكا ... يَقْصُر يَمْشي ويَطولُ بارِكا[٥]

أي: يقصرُ ماشياً، فكان قولُ عامةِ العلماء مع مساعدة مذاهب النَّحويين له أولى

(١) انظر إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٥٦٥، والمكتفى للداني ص١٩٥، وتفسير البغوي ١/ ٢٨٠، وأخرج الطبري ٥/ ٢١٨ أثر ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم.

(٢) في (م): الراسخون.

(٣) تفسير مجاهد ١٢٢ ، وأخرجه الطبري ٥/ ٢٢٠، وابن الأنباري في إيضاح الوقف ٢/ ٥٦٥، والداني في المكتفى ص١٩٦ .

(٤) في (م) ولسان العرب (لكك): قَطِماً، والقَطِم: الرجل المشتهي للحم. اللسان (قطم).

(٥) مجالس ثعلب ص٣٨٤، ونسب الرجز لمبشِّر بن هُذيل بن زافر الفزاري، وفيه قَرِداً، بدل: رجلاً، قال: ولُكالك: عظيم شديد.

من قول مجاهد وحدَه، وأيضاً؛ فإنه لا يجوز أنْ ينفيَ اللّه سبحانَه شيئاً عن الخلق ويثبته لنفسه، ثم يكون له في ذلك شريك. ألا ترى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقولَه: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقولَه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، فكان هذا كلُّه مما استأثر اللّه سبحانه بعلمه، لا يَشْرَكُه فيه غيره. وكذلك قوله تبارك وتعالى: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ». ولو كانت الواو في قوله: «وَالرَّاسِخُونَ» للنسق لم يكن لقوله: «كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا» فائدة. واللّه أعلم.

قلت: ما حكاه الخطابيُّ من أنه لم يقل بقول مجاهدٍ غيرهُ، فقد رُوي عن ابن عباس أن الراسخين معطوفٌ على اسم اللّه عزَّ وجلَّ، وأنهم داخلون في علم المتشابه، وأنهم مع علمهم به يقولون آمنا به، وقاله الربيعُ ومحمد بنُ جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم[(١)].

و«يقولون» على هذا التأويل نصبٌ على الحال من الراسخين، كما قال:

الريحُ تَبْكِي شَجْوَه[(٢)] والبرقُ يلْمَعُ في الغَمَامَهْ

وهذا البيتُ يَحتملُ المعنيين، فيجوزُ أن يكونَ: «والبرقُ» مبتدأ، والخبرُ «يلمعُ» على التأويل الأول، فيكون مقطوعاً مما قبلَه. ويجوزُ أن يكونَ معطوفاً على «الريح»، و«يلمعُ» في موضع الحال على التأويل الثاني، أي: لامعاً.

واحتجَّ قائلو هذه المقالةِ أيضاً بأن اللّه سبحانه مدحهم بالرسوخ في العلم، فكيف يمدحُهم وهم جُهَّال! وقد قال ابن عباس: أنا ممَّن يعلمُ تأويلَه.

وقرأ مجاهدٌ هذه الآيةَ وقال: أنا ممن يعلمُ تأويلَه؛ حكاهُ عنه إمامُ الحرمين أبو المعالي.

قلت: وقد ردَّ بعضُ العلماء هذا القولَ إلى القول الأوَّل، فقال: وتقديرُ تمامِ الكلام «عِندَ اللّهِ»[(٣)] أنَّ معناهُ: وما يعلم تأويلَه إلاَّ اللّه، يعني تأويلَ المتشابهاتِ،

---

(١) أخرج أقوالهم الطبري ٥/ ٢٢٠ .

(٢) في (م): شجوها، والبيت ليزيد بن مفرغ الحميري، وهو في ديوانه ص١٤٣ .

(٣) كذا في النسخ، ولم يتبين لنا المراد، ولعل قوله: «عند الله» مقحم، والله أعلم.

والراسخون في العلم يعلمون بعضَه قائلين: آمنَّا به كلٌّ من عند ربنا بما نُصِب من الدلائل في المُحْكَم ومكَّن من ردِّه إليه. فإذا علموا تأويلَ بعضِه ولم يعلموا البعضَ قالوا: آمنا بالجميع كلٌّ من عند ربِّنا، وما لم يحط به علمُنا من الخفايا مما في شرعه الصَّالح؛ فعلمُه عند ربِّنا(١).

فإنْ قالَ قائلٌ: قد أشكل على الراسخين بعضُ تفسيره، حتى قال ابن عباس: لا أدري ما الأوَّاهُ ولا ما غِسْلِين، قيل له: هذا لا يلزم؛ لأن ابنَ عباسٍ قد علم بعدَ ذلك، ففسَّر ما وقفَ عليه. وجوابٌ أقطعُ من هذا؛ وهو أنَّه سبحانه لم يقل: وكلٌّ راسخ، فيجب هذا، فإذا لم يعلمه أحدهم علمَه الآخر(٢).

ورجَّح ابنُ فُورَك أنَّ الراسخين يعلمون التأويل، وأطنب في ذلك(٣). وفي قوله عليه الصلاة والسلام لابن عباس: «اللّهم فقِّهه في الدِّين وعلِّمْه التأويل(٤)» ما يبينُ لك ذلك، أي: علِّمْه معانيَ كتابك. والوقفُ على هذا يكونُ عندَ قوله: «والرَّاسِخُونَ في العلم».

قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وهو الصحيح(٥)، فإن تسميتَهم راسخين يقتضي بأنَّهم يعلمون أكثرَ من المُحْكَم الذي يستوي في علمه جميعُ من يفهمُ كلامَ العرب. وفي أيِّ شيءٍ هو رسوخُهم إذا لم يعلموا إلَّا ما يعلمُ الجميعُ؟ لكنَّ المتشابهَ يتنوَّعُ، فمنه ما لا يُعلمُ البتَّةَ، كأمر الرُّوحِ والساعة ممَّا استأثر اللّه بغيبه، وهذا لا يتعاطى عِلمَه أحدٌ؛ لا ابنُ عباس ولا غيرُه.

فمن قال من العلماء الحُذَّاق بأنَّ الراسخين لا يعلمون علمَ المتشابه، فإنما أرادَ هذا النَّوع، وأما ما يمكن حملُه على وجوهٍ في اللغة ومَنَاحٍ في كلام العرب، فيُتأوَّل

---

(١) انظر أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٥ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٥٦ - ٣٥٧ .

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٤ .

(٤) أخرجه البخاري (١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧) من حديث ابن عباس، وسلف ١/ ٥٨ .

(٥) هذا خلاف ما في كتاب المفهم ٦/ ٦٩٦ - ٦٩٧ لأبي العباس، فقد ذكر أن الوقف على: «إلا الله» أولى وأليق وأسلم.

ويُعلَمُ تأويلُه المستقيم، ويُزالُ ما فيه مما عسى أن يتعلق [به] من تأويل غير مستقيم؛ كقوله في عيسى: ﴿ وَرُوحٌ مِنْه ﴾ إلى غير ذلك. فلا يُسمَّى أحدٌ راسخاً إلَّا بأنْ يعلمَ من هذا النوعِ كثيراً بحَسب ما قُدِّر له.

وأما مَن يقول: إن المتشابهَ هو المنسوخُ، فيستقيمُ على قولِه إدخالُ الراسخين في علم التَّأويل؛ لكنَّ تخصيصَه المتشابهاتِ بهذا النَّوع غيرُ صحيح.

والرُّسوخُ: الثُّبوتُ في الشيء، وكلُّ ثابتٍ راسخٌ. وأصلُه في الأجرام أنْ يرسخَ الجبلُ والشجرُ في الأرض[١]؛ وقال الشاعر:

لقد رَسَخَتْ في الصَّدر مني مودَّةٌ ... لليلى أبَتْ آياتُها أن تَغَيَّرا[٢]

ورسَخ الإيمانُ في قلب فلان يَرْسَخ رسوخاً. وحكى بعضُهم: رسخَ الغَديرُ: نَضَب ماؤه؛ حكاه ابن فارس[٣]، فهو من الأضداد. ورَسَخ ورَصَخ ورَصُن ورسَب؛ كلُّه ثبت[٤].

وسئل النبيُّ ﷺ عن الراسخين في العلم فقال: «هو مَنْ بَرَّتْ يمينُه، وصدَق لسانُه، واستقامَ قلبُه[٥]».

فإن قيل: كيف كان في القرآن متشابه والله يقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فكيف لم يُجعل[٦] كلُّه واضحاً؟ قيل له: الحكمةُ في ذلك ـ والله أعلم ـ أنْ يظهرَ فضلُ العلماءِ؛ لأنَّه لو كان كلُّه واضحاً لم يظهر فضلُ بعضهم على بعضٍ. وهكذا يفعلُ مَن يصنِّف تصنيفاً، يجعلُ بعضَه واضحاً وبعضَه

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٣-٤٠٤ وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) في مجمل اللغة ١/ ٣٧٧ .

(٤) في (د) و (م): ثبت فيه.

(٥) أخرجه الطبري ٥/ ٢٢٣، وابن أبي حاتم (١٢٦)، والطبراني في الكبير (٧٦٥٨) من طريق عبدالله بن يزيد بن آدم، عن أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع رضي الله عنهم، وعبدالله ابن يزيد؛ قال أحمد: أحاديثه موضوعة، وقال الجوزجاني: أحاديثه منكرة. ميزان الاعتدال ٢/ ٥٢٧ .

(٦) في (م): يجعله.

مُشكلاً، ويترك للخبرة[١] موضعاً؛ لأنَّ ما هان وجودُه قلَّ بهاؤه. والله أعلم.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فيه ضميرٌ عائدٌ على كتاب الله تعالى؛ مُحكَمِه ومتُشابِهه، والتقدير: كلُّه من عند ربنا. وحذف الضمير لدلالة «كلّ» عليه؛ إذْ هي لفظة تقتضي الإضافة.

ثم قال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ما يقول هذا ويُؤمنُ [به] ويقفُ حيث وقَفَ، ويَدَع اتِّباعَ المتشابه إلاَّ ذو لُبٍّ، وهو العقل. ولُبُّ كلِّ شيءٍ خالصُه؛ فلذلك قيل للعقل: لُبٌّ. و«أولو» جمع ذو[٢].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ في الكلام حذفٌ تقديرُه: يقولون. وهذا حكاية عن الراسخين. ويجوزُ أن يكونَ المعنى: قل يا محمد.

ويقالُ: إزاغةُ القلبِ فسادٌ ومَيْلٌ عن الدِّين[٣]، أفكانوا يخافون ـ وقد هُدُوا ـ أنْ ينقلَهم اللهُ إلى الفساد؟

فالجوابُ: أن يكونوا سألوا إذ هداهم الله ألّا يبتليَهم بما يَثقُلُ عليهم من الأعمال فَيَعْجِزوا عنه، نحوُ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ [النساء: ٦٦].

قال ابن كيسان: سألوا ألّا يَزيغوا فيُزيغَ الله قلوبهم؛ نحو: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، أي: ثبِّتنا على هدايتك إذ هديتنا، وألا نَزيغَ فنستحقَّ أن تُزيغَ قلوبَنا[٤].

---

(١) لم تجود اللفظة في النسخ، ففي (خ) و (د) و (م): للجثوة، وفي (ف): للحتوه، وفي (ظ): للخيرة، والمثبت من تفسير أبي الليث (وعنه نقل) ١/لوحة ١١٠، ووقع في مطبوعه ١/ ٢٤٧: للحيرة.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٤ وما بين حاصرتين منه.

(٣) في (ظ) و(خ): وميل عن الدين جحود.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٥٥-٣٥٦ .

وقيل: هو منقطع مما قبلُ؛ وذلك أنَّه تعالى لمَّا ذكرَ أهلَ الزَّيْع، عقَّبَ ذلك بأنْ علَّم عبادَه الدعاءَ إليه في ألَّا يكونوا من الطائفة الذَّميمة التي ذُكِرت، وهي أهلُ الزَّيغ[١].

وفي الموطأ[٢] عن أبي عبد الله الصُّنابحيِّ أنه قال: قَدِمتُ المدينة في خلافة أبي بكر الصِّدِّيق، فصلَّيتُ وراءَه المغربَ، فقرأ في الركعتين الأُولَيَين بأمِّ القرآن، وسورةٍ سورة [٣] من قِصار المُفصَّل، ثمَّ قامَ في الثالثة، فدنَوتُ منه حتى إنَّ ثيابي لتكادُ تَمسُّ ثيابَه، فسمعتُه يقرأُ بأمِّ القرآن وهذه الآيةِ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ الآية.

قال العلماء: قراءتُه بهذه الآية ضَرْبٌ من القُنوت والدعاء لما كان فيه من أمرِ أهلِ الرِّدة. والقُنوت جائز في المغربِ عند جماعةٍ من أهلِ العلم، وفي كلِّ صلاة أيضاً إذا دَهِمَ المسلمين أمرٌ عظيم يُفزِعُهم ويخافونَ منه على أنفسِهم[٤].

وروى الترمذي من حديث شَهْر بن حَوْشَب قال: قلتُ لأمِّ سَلَمة: يا أمَّ المؤمنين، ما كان أكثرُ دعاءِ رسول الله ﷺ إذا كان عندَك؟ قالت: كان أكثرُ دعائه: «يا مُقلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قَلْبي على دينِك» فقلتُ: يا رسولَ الله، ما أكثرَ دعاءَك «يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قَلْبي على دينِك»! قال: «يا أمَّ سلمةَ، إنَّه ليسَ آدمي إلَّا وقلبُه بينَ أُصْبُعينِ من أصابعِ اللهِ، فمن شاءَ أقامَ، ومَنْ شاءَ أزاغَ» فتلا معاذ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾. قال: حديث حسن[٥].

وهذه الآيةُ حُجَّةٌ على المعتزلة في قولهم: إنَّ اللهَ لا يُضلُّ العبادَ. ولو لم تكن الإزاغةُ من قِبَلِه لَمَا جازَ أن يُدعى في دفع ما لا يجوزُ عليه فعلُه.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٤.

(٢) ١/ ٧٩. وأخرجه عن مالك عبد الرزاق (٢٦٩٨)، والشافعي في مسنده (٢٣٣) (بترتيب السندي)، والبيهقي ٢/ ٦٤، و٣٩١.

(٣) لفظ: سورة (الثانية) من (خ)، وهي موافقة لما في الموطأ.

(٤) الاستذكار ٤/ ١٤٧.

(٥) في سنن الترمذي (٣٥٢٢). وهو في مسند أحمد (٢٦٦٧٩) ومعاذ المذكور: هو ابن معاذ بن نصر العنبري، أحد رجال الإسناد.

وقرأ أبو واقد والجرَّاح[(١)]: «لا تَزِغْ قُلُوبُنا» بإسناد الفعل إلى القلوب، وهذه رغبةٌ إلى اللّه تعالى. ومعنى الآية على القراءتين: أي: لا يكون[(٢)] منك خلقُ الزَّيغ فيها فتزيغ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: من عندِك، ومن قِبَلك تفضُّلاً، لا عن سببٍ منَّا ولا عمل، وفي هذا استسلامٌ وتَطارُح[(٣)].

وفي «لَدُنْ» أربع لغات: لَدُن بفتح اللَّام وضم الدَّال وجَزْمِ النُّون، وهي أفصحُها. وبفتح اللَّام وضمِّ الدَّال وحذف النُّون. وبضم اللَّام وجَزْمِ الدَّال وفتح النون. وبفتح اللَّام وسكون الدَّال وفتح النون[(٤)].

ولعل جُهّال المتصوِّفة وزنادقةَ الباطنية يتشبَّثون بهذه الآية وأمثالها فيقولون: العلم ما وهبه اللّه ابتداءً من غير كَسْب، والنظرُ في الكتب والأوراق حجاب. وهذا مردود على ما يأتي بيانُه في غير[(٥)] هذا الموضع.

ومعنى الآية: هب لنا نعيماً صادراً عن الرحمة؛ لأنَّ الرحمةَ راجعةٌ إلى صفة الذَّاتِ، فلا تتصوَّرُ فيها الهبة[(٦)].

يقال: وَهب يَهَب، والأصل: يَوهِب بكسر الهاء. ومن قال: الأصل يَوهَب بفتح الهاء فقد أخطأ؛ لأنَّه لو كان كما قال لم تُحذف الواو، كما لم تُحذف في يَوْجَل. وإنما حُذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة؛ ثم فُتحَ بعدَ حذفِها؛ لأنَّ فيه حرفاً من حروف الحَلْق.

---

(١) في (م) والمحتسب ١/ ١٥٤: أبو واقد الجراح، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٤ والكلام منه. ونسب ابن خالويه ص ١٩ القراءة لعمرو بن فايد، والجحدري. والجراح: لعله ابن عبد الله أبو عقبة الحَكَمي، وليَ البصرة وغيرها، كان بطلاً شجاعاً، عابداً قارئاً. السير ٥/ ١٨٩.

(٢) في (م): ألا يكون، وفي المحرر ١/ ٤٠٤ (وعنه نقل المصنف): أن لا يكن.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٤ - ٤٠٥.

(٤) ذكر لها النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٥٧ عشر لغات.

(٥) لفظ: غير، من (ظ) و (خ). وسيتكلم المصنف في هذا الموضوع في المسألة الثالثة من تفسير قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ (الآية: ٨٢).

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾.

أي: باعثُهم ومحييهم بعد تفرُّقهم، وفي هذا إقرارٌ بالبَعْث ليوم القيامة.

قال الزَّجاج(١): هذا هو التأويلُ الذي عَلِمه الراسخون وأقرُّوا به، وخالف الذين اتَّبعوا ما تشابَه عليهم من أمر البعث حين(٢) أنكروه.

والرَّيْبُ الشَّكُّ، وقد تقدَّمت محَامِلُه في البقرة(٣). والميعاد: مِفْعَال من الوعد(٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠﴾

معناه بَيِّنٌ، أي: لن تدفعَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من عذابِ اللّهِ شيئاً.

وقرأ السُّلَميُّ: «لَنْ يُغْنيَ» بالياء لتقدُّم الفعل، ودخولِ الحائل بين الاسم والفعل(٥).

وقرأ الحسن: «يُغْني» بالياء(٦) وسكون الياء الآخرة للتخفيف؛ كقول الشاعر(٧):

كفَى باليَأْسِ من أسماءَ كَافي وليسَ لِسُقْمِها إذْ طالَ شافي

وكان حقُّه أنْ يقولَ: كافياً، فأرسلَ الياءَ. وأنشد الفرَّاء في مثله:

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٣٧٩.

(٢) في (م) حتى.

(٣) ١/ ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥ وعنه نقل المصنف كلام الزجاج.

(٥) ذكر قراءة السلمي النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٥٨، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥ ووقع في القراءات الشاذة ص ١٩: لن تُغنيْ عنهم، بإسكان الياء للسلمي عن علي.

(٦) في النسخ: تغني بالتاء، وقيدها أبو حيان في البحر ٢/ ٣٨٨ فقال: بالياء أولاً، وبالياء الساكنة آخراً، وذلك لاستثقال الحركة في حرف اللين، وإجراء المنصوب مجرى المرفوع. وكذا قيدها السمين الحلبي في الدر المصون ٣/ ٣٥.

(٧) هو بشر بن أبي خازم، والبيت في ديوانه ص ١٦٢، وخزانة الأدب ٤/ ٤٣٩.

كـأنَّ أيـدِيـهِـنَّ بـالـقـاعِ الـقَـرِقْ أيـدي جَـوَارٍ يَـتَـعـاطَـيْـن الـوَرِق[١]

القَرِقُ والقَرِقَة لُغتان في القاع.

و«من» في قوله: «مِن اللّهِ» بمعنى عند، قاله أبو عبيدة[٢].

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ الوَقُود اسم للحطب، وقد تقدَّم في البقرة[٣].

وقرأ الحسنُ ومجاهد وطلحةُ بن مُصَرِّف: «وُقُود» بضمِّ الواو على حذف مضاف تقديرهُ حطبُ وُقودِ النَّارِ[٤]. ويجوزُ في العربية إذا ضمَّ الواو أن تقول: أُقُود، مثل أُقِّتَتْ[٥]. والوُقود بضمِّ الواو المصدر؛ وَقَدَتِ النَّار تَقِدُ: إذا اشتعلَتْ[٦].

وخرَّج ابنُ المبارك[٧] من حديث العبَّاس بن عبد المطلب قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يظهرُ هذا الدِّين حتى يجاوِزَ البحارَ، وحتى تُخاضَ البحارُ بالخيل في سبيل اللّه تبارك وتعالى، ثم يأتي أقوامٌ يقرؤون القرآن، فإذا قَرؤوه قالوا: مَنْ أقْرَأُ منَّا، من أعْلَمُ منَّا؟» ثم التفت إلى أصحابه فقال: «هل ترون في أولئكم مِنْ خَيرٍ؟» قالوا: لا. قال: «أولئك منكم، وأولئك من هذه الأمَّة، وأولئك هم وَقود النار».

---

(١) الرجز لرؤبة بن العجاج، وهو في ملحقات ديوانه ص١٧٩. وهو في الكامل ص٩٠٩، والخصائص ١/٣٠٦ و ٢/٢٩١، والمحتسب١/١٢٦ و ٢٨٩، وأمالي المرتضى ١/٥٦١، وأمالي ابن الشجري ١/١٥٨، والصحاح واللسان (قرق)، ومجمل اللغة ٧٤٩، وتهذيب اللغة ١٥/١٠٧، وخزانة الأدب ٨/٣٤٧. قال البغدادي في الخزانة: ضمير أيديهن للإبل، والقاع: هو المكان المستوي، والقَرِق بفتح القاف الأولى وكسر الراء: الأملس، وجَوارٍ جمع جارية، ويتعاطَيْنَ: يناول بعضهن بعضاً، والوَرِق: الدراهم.

(٢) في مجاز القرآن ١/٨٧، وتفسير البغوي ١/٢٨١ وعنه نقل المصنف.

(٣) ١/٣٥٤.

(٤) المحرر الوجيز ١/٤٠٥. وذكر القراءة النحاس في إعراب القرآن ١/٣٥٨، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٩.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/٣٥٨.

(٦) المحرر الوجيز ١/٤٠٥.

(٧) في الزهد والرقاق (٤٥٠)، وسلف ١/٣٤.

قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

الدَّأْبُ: العادة والشَّأنُ. ودَأَبَ الرجلُ في عمله يَدْأَبُ دَأْباً ودُؤوباً: إذا جَدَّ واجتهدَ، وأدأبتُه أنا. وأَدْأَبَ بعيرَه: إذا جَهَدَه في السَّير. والدَّائبان: الليلُ والنَّهارُ[1].

قال أبو حاتم: وسمعتُ يعقوبَ يذكر: «كدَأَبِ» بفتح الهمزة، وقال لي وأنا غُلَيِّمٌ: على أيِّ شيءٍ يجوزُ «كَدَأَبِ»؟ فقلت له: أظنُّه من دَئِبَ يدْأَب دَأَباً، فقبل ذلك مني، وتعجَّب من جَودَةِ تقديري على صغري؛ ولا أدري أيُقالُ [ذلك] أم لا.

قال النَّحاسُ[2]: وهذا القولُ خطأ، لا يُقال البتَّة: دَئِب، وإنما يُقال: دَأَب يَدْأَب دُؤُوباً [ودَأْباً]، هكذا حكى النَّحْويونَ، منهم الفرَّاء، حكاه في كتاب المصادر؛ كما قال امرؤ القيس[3]:

كدأْبِكَ مِن أمِّ الحُوَيْرِث قَبْلَها ... وجارَتِها أمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ

فأما الدَّأَب فإنَّه يجوزُ؛ كما يقال: شَعْرٌ وشَعَرٌ، ونَهْرٌ ونَهَرٌ؛ لأن فيه حرفاً من حروف الحلق.

واختلفوا في الكاف، فقيل: هي في موضع رفع، تقديره: دَأْبُهم كدَأْب آل فرعون، أي: صنيع الكفَّار معَك كصنيع آلِ فرعونَ مع موسى[4].

وزَعَم الفَرَّاء أن المعنى: كفَرَت العَرَبُ [كُفراً] ككُفرِ آلِ فرعون[5]

قال النَّحاس[6]: لا يجوزُ أن تكونَ الكافُ متعلِّقةً بكفروا؛ لأن كفروا داخلةٌ في الصِّلة [وكدأب خارج منها].

---

(١) الصحاح (دأب).

(٢) في إعراب القرآن له ١/ ٣٥٩، وعنه نقل المصنف قول أبي حاتم، وما بين حاصرتين منه.

(٣) ديوانه ص٩، وفيه: كدِيْنِكَ، وتفسير الطبري ٥/ ٢٣٧، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٥٩، وسلف ١/ ٢٢٢.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٥٧، وتفسير أبي الليث ١/ ٢٤٨.

(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ١٩١، وفيه: كفرت اليهود.

(٦) في إعراب القرآن له ١/ ٣٥٩، وعنه نقل المصنف كلام الفراء، وما سلف وما سيرد بين حاصرتين منه.

وقيل: هي متعلقةٌ بـ «أَخَذَهُمُ اللّه»، أي: أخذهم أَخْذاً كما أخذ آلَ فرعون. وقيل: هي متعلقةٌ بقوله: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم﴾[1] أي: لم تُغْنِ عنهم غَنَاءً، كما لم تُغنِ الأموالُ والأولادُ عن آل فرعون.

وهذا جوابٌ لمن تخلَّف عن الجهاد وقال: شغَلَتنا أموالُنا وأهلونا.

ويَصِحُّ أن يعملَ فيه فِعْلٌ مقدَّرٌ من لفظ الوَقود، ويكون التَّشبيهُ في نفس الاحتراق. ويؤيد هذا المعنى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[2] [غافر: ٤٦]، والقول الأوَّل أرجحُ، واختاره غيرُ واحد من العلماء.

قال ابنُ عرفة: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كعادةِ آلِ فرعونَ. يقولُ: اعتادَ هؤلاءِ الكَفَرةُ الإلحادَ والإعناتَ للنبيِّ ﷺ، كما اعتادَ آلُ فرعونَ من إعنات الأنبياء، وقال معناه الأزهريُّ[3]. فأمَّا قولُه في سورة الأنفال: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [٥٢]، فالمعنى: جُوزيَ هؤلاءِ بالقتل والأسر كما جُوزِي آلُ فرعونَ بالغَرقِ والهلاكِ[4].

قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ يحتملُ أن يُريدَ الآياتِ المتلوَّة، ويحتملُ أنْ يُريدَ الآياتِ المنصوبةَ للدَّلالة على الوحدانيَّة[5]. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾.

يعني اليهود. قال محمد بن إسحاق: لمَّا أصابَ رسولُ اللّه ﷺ قريشاً ببدرٍ وقَدم المدينةَ، جَمَعَ اليهودَ فقال: «يا معشرَ اليهودِ، احذروا من اللّه مِثْلَ ما نزلَ بقريش يومَ بدرٍ، [وأسلموا] قبلَ أنْ ينزلَ بكم ما نزلَ بهم، فقد عَرَفتم أني نبيٌّ مرسلٌ، تجدون

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٥٩.

(٢) في النسخ والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٥ (وعنه نقل المصنف): «أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب، النار يعرضون عليها غدواً وعشياً».

(٣) في تهذيب اللغة ١٤/ ٢٠٢.

(٤) الغريبين للهروي ٢/ لوحة ١، وعنه نقل المصنف كلام ابن عرفة والأزهري.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥.

ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم»، فقالوا: يا محمد، لا يغرَّنَّك أنكَ قتلت قوماً[(١)] أغْمَاراً[(٢)] لا عِلم لهم بالحرب، فأصبت فيهم فُرصة، والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن النَّاسُ. فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ بالتاء، يعني اليهود، أي: تُهزَمون ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة. فهذه روايةُ عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس[(٣)].

وفي رواية أبي صالح عنه: أن اليهود لمَّا فرِحوا بما أصاب المسلمين يوم أُحُد نزلت[(٤)]. فالمعنى على هذا: «سَيُغْلَبُونَ» بالياء، يعني قريشاً، «ويُحْشَرُونَ» بالياء فيهما، وهي قراءةُ نافع[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ يعني جهنم؛ هذا ظاهر الآية. وقال مجاهد: المعنى: بئس ما مهدوا لأنفسهم، فكأنَّ المعنى، بئسَ فعلُهم الذي أدَّاهم إلى جهنم[(٦)].

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ أي: علامة. وقال: «كان» ولم يقل:

---

(١) في (د) و (م): أقواماً.

(٢) الأغمار: جمع غُمْر؛ وهو مَن لم يجرِّب الأمور. القاموس (غمر).

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٩١-٩٢، وما بين حاصرتين منه، وتفسير البغوي ١/ ٢٨٢. وأخرجه أبو داود (٣٠٠١)، والطبري ٥/ ٢٣٩، والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ١٧٣-١٧٤. ورواية الطبري والبيهقي: عن سعيد بن جبير أو عكرمة، بالشك بينهما، قال الحافظ ابن حجر في العجاب ١/ ٢٠٦: هذا السند بالشك، ولا يضر لكونه يدور على ثقة. اهـ. وهو على الشك كذلك في سيرة ابن هشام ٢/ ٤٧.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص ٩١، وتفسير البغوي ١/ ٢٨٢.

(٥) كذا ذكر المصنف رحمه الله عن نافع، وهو وهم منه، فإن قراءة نافع بالتاء من فوق في (ستغلبون وتحشرون)، والذي قرأ بالياء في (ستغلبون وتحشرون) هو حمزة والكسائي. انظر السبعة ص٢٠١، والتيسير ص٨٦.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٦، وأخرج قول مجاهد الطبري ٥/ ٢٤١.

كانت؛ لأنَّ «آية» تأنيثُها غيرُ حقيقي. وقيل: ردَّها إلى البيان، أي: قد كان لكم بيان، فذهبَ إلى المعنى وترك اللَّفظ، كقول امرئ القيس:

بَـــرَهْـــرَهَـــةٌ رُؤْدَةٌ رَخْـــصَـــةٌ   كَـخُـرْعُـوبَـةِ الـبَـانَـةِ الـمُـنْـفَـطِـرْ[١]

ولم يقل: المنفطرة، لأنه ذهب إلى القضيب.

وقال الفرّاء: ذكَّره لأنه فرَّقَ بينهما بالصفة، فلما حالت الصفةُ بين الاسم والفعل ذُكِّر الفعل[٢].

وقد مضى هذا المعنى في البقرة في قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [الآية: ١٨٠]

﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ يعني المسلمين والمشركين يومَ بدر.

﴿فِئَةٌ﴾ قرأ الجمهور: ﴿فئةٌ﴾ بالرفع، بمعنى: إحداهما فئةٌ. وقرأ الحسن ومجاهد: «فِئةٍ» بالخفض، «وأُخْرَى كَافِرةٍ» على البدل. وقرأ ابن أبي عَبْلة بالنصب فيهما. قال أحمد بن يحيى: ويجوز النصب على الحال، أي: التقتا مختلفتين مؤمنةً وكافرةً. قال الزجَّاج: النصب بمعنى: أعني[٣].

وسمِّيت الجماعةُ من الناس فئةً، لأنها يُفَاءُ إليها ـ أي: يُرجع[٤] ـ في وقت الشِّدة. وقال الزجَّاج[٥]: الفئة الفِرقة، مأخوذ[٦] من: فَأَوْتُ رأسَه بالسيف ـ ويقال: فَأَيْتُه ـ إذا فَلَقْتَه[٧].

---

(١) ديوان امرئ القيس ص١٥٧، وقد سلف ٣/ ١١٥.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ١/ ٢٨٢.

(٣) انظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٨٢، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٥٩ - ٣٦٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٨، وقراءة «فئةٍ» بالخفض نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٩ للزهري ومجاهد، وزاد ابن عطية نسبتها إلى حُميد بن قيس. وقراءة ابن أبي عبلة ذكرها ابن خالويه أيضاً.

(٤) في (م): يرجع إليها.

(٥) في معاني القرآن ١/ ٣٨١، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٧، والكلام الذي قبله منه.

(٦) في (م): مأخوذة.

(٧) في النسخ الخطية: قلعته، والمثبت من معاني القرآن للزجاج والمحرر الوجيز.

ولا خلاف أن الإشارة بهاتين الفئتين هي إلى يوم بَدْر. واختلف مَن المخاطب بها، فقيل: يحتمل أن يُخاطبَ بها المؤمنون، ويحتمل أن يُخاطب بها جميعُ الكفار، ويحتمل أن يُخاطب بها يهودُ المدينة، وبكل احتمال منها قد قال قوم. وفائدةُ الخِطاب للمؤمنين تثبيتُ النفوس وتشجيعُها حتى يُقدِموا على مِثْلَيْهم وأمثالهم كما قد وقع[1].

قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾، قال أبو علي[2]: الرؤية في هذه الآية رؤيةُ عين، ولذلك تعدَّتْ إلى مفعول واحد. قال مكيّ[3] والمهدويّ: يدلّ عليه: «رَأْيَ الْعَيْنِ».

وقرأ نافع: «تَرَوْنَهُم» بالتاء، والباقون بالياء[4].

﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ نصب على الحال من الهاء والميم في «ترونهم». والجمهور من الناس على أنَّ الفاعل بـ «ترون» هم المؤمنون، والضمير المتصل هو للكفار[5]. وأنكر أبو عمرو أن يُقرأ: «ترونهم» بالتاء، قال: ولو كان كذلك لكان: مِثْليكم. قال النحاس[6]: وذا لا يلزم، ولكن يجوز أن يكون: مِثْلي أصحابكم.

قال مكيّ[7]: «تَرَوْنَهُم» بالتاء جرى على الخطاب في «لَكُم»، فيحسُن أن يكون الخطاب للمسلمين، والهاء والميم للمشركين. وقد كان يلزمُ من قرأ بالتاء أن يقرأ: مِثْلَيْكم، بالكاف، وذلك لا يجوزُ لمخالفة الخطّ، ولكن جرى الكلامُ على الخروج من الخطاب إلى الغَيْبة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ [الروم: ٣٩] فخاطب، ثم قال: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فرجَع إلى الغَيْبة.

---

(١) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤٠٦ .
(٢) في الحجة للقراء السبعة ٣/ ١٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٧ .
(٣) في الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٣٣٧ .
(٤) انظر السبعة ص٢٠١-٢٠٢ ، والتيسير ص٨٦ .
(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٧ .
(٦) في معاني القرآن ١/ ٣٦٢ ، والكلام الذي قبله منه.
(٧) في الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٣٣٦ .

فالهاء والميم في «مِثْلَيْهِمْ» يحتمل أن يكون للمشركين، أي: ترون أيها المسلمون المشركين مثلَيْ ما هم عليه من العدد، وهو بعيد في المعنى، لأن اللّه تعالى لم يُكْثِرِ المشركين في أَعين المسلمين، بل أَعْلَمنا أنه قلَّلَهم في أعين المؤمنين، فيكون المعنى: تَرون أيها المؤمنون المشركين مِثْلَيْكم في العدد، وقد كانوا ثلاثة أمثالهم، فقلَّلَ اللّه المشركين في أعين المسلمين، فأراهم إيَّاهم مِثْلَيْ عِدَّتِهم لتقوَى أنفسُهم ويقعَ التجاسُر، وقد كانوا أُعلِموا أنَّ المئة منهم تغلب المئتين من الكفار، وقلَّل المسلمين في أعين المشركين لِيَجْتَرئوا عليهم، فينْفُذَ حكمُ اللّه فيهم.

ويحتمل أن يكون الضمير في «مِثليْهِم» للمسلمين، أي: تَرون أيها المسلمون المسلمين مِثْلَيْ ما أنتم عليه من العدد، أي: تَرون أنفسَكم مِثْلَيْ عددِكم، فعل اللّهُ ذلك بهم لتقوى أنفسُهم على لقاء المشركين. والتأويل الأوّل أولى، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: ٤٣] وقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: ٤٤].

ورُوي عن ابن مسعود أنه قال: قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أظنهم مئةً. فلما أخذنا الأُسارَى أخبرونا أنهم كانوا ألفاً[١].

وحكى الطبريّ عن قوم أنهم قالوا: بل كَثَّر اللّه عددَ المؤمنين في عيون الكافرين حتى كانوا عندهم ضِعفيْهم. وضعَّف الطبري هذا القول[٢].

قال ابن عطية[٣]: وكذلك هو مردودٌ من جهات. بل قلَّل اللّه المشركين في أعين المؤمنين كما تقدّم. وعلى هذا التأويل كان يكون «ترون» للكافرين، أي: ترون أيها الكافرون المؤمنين مِثْليهم، ويحتمل مِثْليكم، على ما تقدَّم.

وزعم الفرّاء[٤] أنّ معنى[٥] «ترونَهم مثلَيْهم» ثلاثةَ أمثالهم. وهو بعيدٌ غير معروف

---

(١) أخرجه الطبري ٦/ ٢٣٦ بنحوه.

(٢) انظر تفسير الطبري ٦/ ٢٣٩ .

(٣) في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٧ ، ونقل عنه المصنف أثر ابن مسعود وقول الطبري السالفين.

(٤) في معاني القرآن له ١/ ١٩٤ .

(٥) في (خ) و(ز) و(م): المعنى.

في اللغة. قال الزجَّاج[١]: وهذا بابُ الغَلَط، فيه غَلَطٌ في جميع المقاييس، لأنّا إنما نعقِل مِثْلَ الشيء مُساوياً له، ونعقِل مِثْلَيْه ما يُساويه مرتين.

قال ابن كَيْسان: وقد بيَّن الفرّاء قوله بأن قال: كما تقول وعندك عبدٌ: أحتاج إلى مثله، فأنت مُحتاجٌ إليه وإلى مثله. وتقول: أحتاج إلى مِثْلَيه، فأنت محتاج إلى ثلاثة. والمعنى على خلاف ما قال، واللغةُ. والذي أوقع الفرّاءَ في هذا أنّ المشركين كانوا ثلاثةَ أمثال المؤمنين يوم بدر، فتوهَّم أنه لا يجوز أن يكونوا يرونهم إلا على عِدَّتهم، وهذا بعيدٌ، وليس المعنى عليه. وإنما أراهم اللّه على غير عِدَّتهم لجهتين: إحداهما أنه رأى الصلاح في ذلك؛ لأن المؤمنين تقوَى قلوبهم بذلك. والأُخرى أنه آيةٌ للنبيّ ﷺ[٢]. وسيأتي ذكر وقعة بدر إن شاء اللّه تعالى[٣].

وأمّا قراءة الياء، فقال ابن كيسان: الهاء والميم في «يرونهم»[٤] عائدةٌ على «وَأُخْرَى كَافِرَةٌ»، والهاء والميم في «مِثْلَيْهم» عائدةٌ على «فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، وهذا من الإضمار الذي يدل عليه سياق الكلام، وهو قوله: ﴿يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾. فدلَّ ذلك على أن الكافرين كانوا مِثْلَي المسلمين في رَأْيِ العين، وثلاثةَ أمثالهم في العدد. قال: والرؤية هنا لليهود[٥].

وقال مكيّ[٦]: الرؤية للفئة المقاتلة في سبيل اللّه، والمَرْئية الفئة الكافرة، أي: يُري[٧] الفئةَ المقاتلةَ في سبيل اللّه الفئةَ الكافرةَ مِثْلَي الفئةِ المؤمنة، وقد كانت الفئةُ الكافرة ثلاثةَ أمثال المؤمنةِ، فقلَّلهم اللّه في أعينهم على ما تقدَّم. والخطاب في «لكم» لليهود.

---

(١) في معاني القرآن له ١/ ٣٨١، وفيه كلام الفراء السالف.

(٢) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٦٤ - ٣٦٦.

(٣) عند الآية (١٢٣) من هذه السورة.

(٤) في (خ) و(د): ترونهم.

(٥) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٦٢.

(٦) في الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٣٣٧.

(٧) في (ز) و(ظ) و(م): ترى.

وقرأ ابن عباس وطلحة: «يُرَوْنَهم» بِضم الياء[١]، والسُّلميّ بالتاء[٢] مضمومة على ما لم يسمَّ فاعله.

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ تقدَّم معناه والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾.

فيه إحدى عشرةَ مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ زُيِّنَ من التزيين[٣]. واختلف الناس مَن المُزيِّن، فقالت فرقةٌ: اللّه زيَّن ذلك، وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب ﷺ، ذَكَره البخاريّ[٤]. وفي التنزيل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ٧]، ولما قال عمر: الآن يا ربِّ حين زيّنتها لنا! نزلت: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ﴾ [آل عمران: ١٥].

وقالت فرقة: المزيِّن هو الشيطان، وهو ظاهر قول الحسن، فإنه قال: مَنْ زيَّنها؟ ما أحدٌ أشدُّ لها ذَمّاً مِن خالقها. فتزيين اللّه تعالى إنما هو بالإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجِبِلّة على المَيْل إلى هذه الأشياء. وتزيين الشيطان هو[٥] بالوَسْوَسة والخديعة وتحسين أَخْذِها من غير وجوهها. والآية على كلا الوجهين ابتداءُ وعظٍ لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توبيخٌ لمعاصري محمد ﷺ من اليهود وغيرِهم.

---

(١) كذا في (د) و(ظ)، والقراءات الشاذة ص١٩، والمحتسب ١/ ١٥٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٦: يُرونهم، بضم الياء. ونسبها ابن خالويه لطلحة وحده، وزاد ابن عطية نسبتها لأبي حيوة، ووقع في (خ) و(ف) و(م): «تُرونهم» بضم التاء، وكذا قيَّدها أبو حيان في البحر ٢/ ٣٩٤.

(٢) كذا في النسخ والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٦: بالتاء، وقيَّدها أبو حيان في البحر ٢/ ٣٩٤ بضمِّ الياء على الغيبة.

(٣) في النسخ الخطية: التزيّن، والمثبت من (م).

(٤) في صحيحه قبل الحديث (٦٤٤١)، ولفظه: اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زيَّنته لنا، اللهم إني أسألك أن أُنفقه في حقِّه.

(٥) في (م): إنما هو.

وقرأ الجمهور: «زُيِّنَ» على بناء الفعل للمفعول، ورفع «حُبّ». وقرأ الضَّحاك ومجاهد: «زَيَّنَ» على بناء الفعل للفاعل، ونصب «حُبّ»(١).

وحُرِّكت الهاء من «الشَّهَوَاتِ» فرقاً بين الاسم والنعت(٢).

والشَّهَوات جمع شَهْوة، وهي معروفة. ورجلٌ شهوانُ للشيء، وشيء شهيٌّ، أي: مُشْتَهىً. واتّباع الشهوات مُرْدٍ، وطاعتُها مَهْلَكة. وفي «صحيح» مسلم: «حُفَّتِ الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشَّهَوات» رواه أنس عن النبيّ ﷺ(٣).

وفائدةُ هذا التمثيل أن الجنة لا تُنال إلا بقطع مَفَاوز المكاره وبالصبر عليها. وأن النار لا يُنْجَى منها إلا بترك الشهوات وفِطام النفس عنها. وقد رُوِيَ عنه ﷺ أنه قال: «طريقُ الجنةِ حَزْنٌ برَبْوة، وطريقُ النارِ سَهْلٌ بسَهْوَة»(٤)، وهو معنى قوله: «حُفَّتِ الجنة بالمكاره، وحُفَّتِ النار بالشهوات». أي: طريقُ الجنة صعبةُ المَسْلك، فيه أعلى ما يكون من الرَّوَابي، وطريقُ النار سَهْل لا غِلَظ فيه ولا وُعورة، وهو معنى قوله: «سهلٌ بسهوة» وهو بالسين المهملة(٥).

الثانية: قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بَدَأ بِهنَّ لِكثرة تشوُّف النفوسِ إليهنّ، لأنهنَّ حَبائلُ الشيطان وفتنةُ الرجال. قال رسول اللّه ﷺ: «ما تركتُ بعدي فِتنةً أضرَّ(٦) على

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٨، وقولا عمر والحسن أخرجهما الطبري ٦/ ٢٤٣ - ٢٤٤. وقراءة مجاهد أوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٩، وإن جني في المحتسب ١/ ١٥٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٠.

(٣) صحيح مسلم (٢٨٢٢)، وهو في مسند أحمد (١٢٥٥٩)، وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ عند أحمد(٧٥٣٠)، والبخاري (٦٤٨٧)، ومسلم (٢٨٢٣). وعند البخاري: «حُجبت» بدل «حُفّت».

(٤) في النسخ الخطية: بشهوة، والمثبت من (م)، وسيقيدها المصنف بالسين المهملة. والحديث أخرجه أحمد (٣٠١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مطولاً، وفي إسناده نوح بن أبي مريم، قال البخاري وأحمد والحاكم: ذاهب الحديث، وقال مسلم: متروك الحديث. انظر ميزان الاعتدال ٤/ ٢٧٩، ولسان الميزان ٦/ ١٧٢ - ١٧٣، وتهذيب التهذيب ٤/ ٢٤٧. وأخرجه البيهقي في الشعب (١٤٦١) من حديث أبي البُجير، وفي إسناده سعيد بن سنان الحنفي، وهو متروك، رماه الدار قطني وغيره بالوضع، كما في تقريب التهذيب.

(٥) انظر المفهم ٧/ ١٦١.

(٦) في (م): أشدّ.

الرجال من النساء» أخرجه البخاريّ ومسلم[١].

ففتنة النساء أشدُّ من جميع الأشياء. ويقال: في النساء فتنتان، وفي الأولاد فتنةٌ واحدة. فأما اللّتان في النساء، فإحداهما[٢] أن تُؤدِّيَ إلى قطع الرَّحِم؛ لأن المرأة تأمرُ زوجَها بقطعه عن الأُمَّهَات والأخوات، والثانية: يُبْتلى بجمع المال من الحلال والحرام. وأمّا البنون[٣]؛ فإنّ الفتنة فيهم واحدة، وهو ما ابْتُلي بجمع المال لأجلهم[٤].

وروى عبد اللّه بن مسعود قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تُسْكِنوا نساءَكم الغُرَفَ، ولا تُعَلِّموهنّ الكِتاب»[٥]. حذَّرهم رسولُ اللّه ﷺ، لأن في إسكانهنَّ الغُرفَ تطلُّعاً إلى الرجال، وليس في ذلك تَحْصِينٌ لهنَّ ولا سِتْر، لأنهنَّ قد يُشرفن على الرجال، فتحدُثُ الفتنةُ والبلاء، ولأنهنَّ خُلِقْن[٦] من الرجل، فَنَهْمتُهنَّ[٧] في الرجل، والرجلُ خُلِق فيه الشهوة، وجُعِلَتْ سَكَناً له، فغيرُ مأمونٍ كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه. وفي

(١) صحيح البخاري (٥٠٩٦)، وصحيح مسلم (٢٧٤٠) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (٢١٧٤٦).

(٢) في النسخ الخطية: فإحداهن، والمثبت من (م).

(٣) في النسخ الخطية وتفسير أبي الليث ١/ لوحة ١١٣ (والكلام منه): البنين، والمثبت من (م).

(٤) في (خ) و(د) و(ز) و(ظ) وتفسير أبي الليث: لأجله، وفي (ف): من أجله، والمثبت من (م).

(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل ٢/ ٥٧٥، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ١٧٣ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفي إسناده جعفر بن نصر أبو ميمون العنبري، قال ابن عدي: حدّث عن الثقات بالبواطيل، وليس بالمعروف. وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ١٤/ ٢٢٤، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ١٧٤، وأورده الذهبي في الميزان ٣/ ٤٤٦ من حديث عائشة رضي الله عنها، وفي إسناده محمد بن إبراهيم الشامي، قال الذهبي: قال الدارقطني: كذاب، وقال ابن حبان: لا تحلُّ الرواية عنه إلا عند الاعتبار، كان يضع الحديث. وسيذكر المصنف حديث عائشة رضي الله عنها عند تفسير الآية (١) من سورة النور. ونسبه لابن مسعود ﷺ الحكيمُ الترمذي في نوادر الأصول ص٢٧٠-٢٧١ ونقله المصنف مع الكلام الذي بعده منه.

ثم إنَّ قوله: ولا تعلموهن الكتاب، مخالف لما ورد في الكتاب والسنة، كما سنذكر.

(٦) في (م): قد خلقن.

(٧) في (د) و(ف) و(م) ونوادر الأصول: فهمّتها، وفي (خ): فنهمتها، والمثبت من (ظ). والنَّهمة، كما في القاموس (نهم): الحاجة، وبلوغ الهمَّة، والشهوة في الشيء.

تعلمهنَّ الكتابَ هذا المعنى من الفتنة وأشدُّ[١].

وفي كتاب الشِّهاب عن النبي ﷺ: «أَعْرُوا النساء يَلْزَمْن الحِجَال»[٢].

فعلى الإنسان إذا لم يصبر في هذه الأزمان أن يبحثَ عن ذات الدِّين لِيسلَم له الدِّين، قال ﷺ: «عليك بذاتِ الدِّين تَرِبَتْ يداك» أخرجه مسلم عن أبي هريرة[٣]. وفي «سنن» ابن ماجه عن عبد اللّه بن عمرو[٤] قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تَزَوَّجُوا النساء لحسنِهنّ، فعسى حُسْنُهنَّ أنْ يُرْدِيَهنَّ، ولا تَزَوَّجُوهنَّ لأموالهنَّ، فعسى أموالُهنَّ

---

(١) لا ينبغي بناء حكم على حديث تالف، فقوله: لا تعلِّموهن الكتاب، مخالف للعقل والنقل، فقد أمر الله تعالى عباده بتعلم القراءة في أول آية نزلت: ﴿اقرأ باسم ربك﴾ وقال تعالى: ﴿الرحمن، علم القرآن﴾ وآيات أخرى، وترجم البخاري (كما في الفتح ١/ ١٩٠): باب تعليم الرجل أمته وأهله، وأورد حديث أبي موسى الأشعري (٩٧) مرفوعاً: «ثلاثة لهم أجران». وذكر منهم: «ورجل كانت عنده أمة فأدَّبها فأحسن تأديبها، وعلَّمها فأحسنَ تعليمها، ثم أعتقها فتزوَّجها، فله أجران».

وأخرج عبد الرزاق في مصنفه (١٩٧٦٨) عن معمر، عن الزهري قال: بلغني أن النبي ﷺ قال لامرأة: «ألا تعلِّمين هذه رُقْيَةَ النملة ـ يريد حفصةَ زوجتَه ـ كما عَلَّمتِها الكتابة؟».

قال ابن القيم في زاد المعاد ٤/ ١٧٠ : في الحديث دليل على جواز تعليم النساء الكتابة.

(٢) مسند الشهاب (٦٨٩) . وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير ١٩/(١٠٦٣) . والحديث من طريق عمرو ابن الحارث، عن مجمع بن كعب، عن مسلمة بن مخلد ﷺ، وهذا الإسناد ضعيف جداً، لانقطاع فيه وجهالة؛ فإن عمرو بن الحارث لا يروي عن مجمع بن كعب، بينهما جعفر بن ربيعة، كما في التاريخ الكبير ٧/ ٤١٠ . ولا يروي عن مجمع بن كعب إلا جعفر بن ربيعة، كما في الجرح والتعديل ٨/ ٢٩٧ ، وثقات ابن حبان ٥/ ٤٣٨ .

وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١٢٩٧) . ورمز السيوطي لضعفه في الجامع الصغير ١/ ١٤٩ ، ووهم المناوي في فيض القدير ١/ ٥٦٠ في نقله عن الحافظ ابن حجر العسقلاني (في لسان الميزان ٢/ ٥٢) أن ابن عساكر حسَّنه، لإخراجه الحديث من وجه آخر في أماليه، فإن ذلك التحسين لحديث آخر، وليس لهذا الحديث. والله أعلم. قوله: أعروا النساء، أي: جرِّدوهن من ثياب الزينة والخيلاء، ومن الحليّ، وقوله: الحِجال: جمع حَجَلة، وهو بيت كالقبة يُستر بالثياب. قاله المناوي.

(٣) صحيح مسلم (١٤٦٦) ، وأخرجه أحمد (٩٥٢١) ، والبخاري (٥٠٩٠) بلفظ: «فاظفر» بدل: «عليك»، وفي الباب عن جابر ﷺ عند أحمد (١٤٢٣٧) ، ومسلم ٢/ ١٠٨٧ (٧١٥) ، وعن عائشة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما عند أحمد (٢٥١٩١) و(١١٧٦٥) . وسيأتي هذا الحديث بتمامه عند تفسير الآية التالية، وعند تفسير الآية (١٣) من سورة الحجرات.

(٤) في (د) و(ز) و(ظ) و(ف) و(م): عبدالله بن عمر، وهو خطأ، والمثبت من (خ) وسنن ابن ماجه وتحفة الأشراف ٦/ ٣٥٤ .

أنْ تُطْغِيَهنَّ، ولكن تَزَوَّجُوهنَّ على الدِّين، وَلَأمةٌ سَوْداءُ خَرْماءُ ذاتُ دِين أفضلُ»[١].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ عطف على ما قبله. وواحد البنين[٢] ابن. قال اللّه تعالى مخبراً عن نوح: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥]. وتقول في التصغير: بُنَيّ، كما قال لقمان[٣]. وفي الخبر: أن النبي ﷺ قال للأشعث بن قيس: «هل لكَ من ابنة جَمْد[٤] من ولد؟» قال: نعم، لي منها غلامٌ، ولَوَدِدْت أنَّ لي به جَفْنَةً مِنْ طعام أُطعِمها مَنْ بقيَ من بَني جَبَلة. فقال النبيّ ﷺ: «لئن قلتَ ذلك، إنهم لَثمرةُ القلوب، وقُرَّةُ الأعين، وإنهم مع ذلك لَمَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَحْزَنَةٌ»[٥].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾ القناطير جمع قِنطار، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠]، وهو العُقْدَة الكبيرة من المال، وقيل: هو اسمٌ للمِعْيار الذي يُوزَن به، كما هو الرِّطل والرُّبْع. ويقال لِما بَلَغ ذلك الوزنَ: هذا قِنطار، أي: يَعدِلُ القِنطار. والعرب تقول: قَنْطرَ الرجلُ: إذا بلغ مالُه [أنْ] يُوزَنَ بالقِنطار. وقال الزجَّاج[٦]: القِنطار مأخوذ مِن عَقْد الشيء وإحكامه، تقول العرب: قنطرتُ الشيء إذا أحكمتَه، ومنه سُميت القنطرة، لإحكامها. قال طَرَفة[٧]:

كَقَنْطَرَةِ الرُّوميِّ أقسَمَ ربُّها   لَتُكْتَنَفَنْ حتى تُشَادَ بقَرْمَدِ

---

(١) سنن ابن ماجه (١٨٥٩)، وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد الإفريقي، وهو ضعيف، فيما ذكره الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب ص٢٨٢. قوله: «خَرْماء» أي: مثقوبة الأذن، أو التي قطعت وترةُ أنفها أو طرفُه. النهاية ٢/ ٢٧.

(٢) في (م): من البنين.

(٣) كما في الآيات ١٣ - ١٧ من سورة لقمان.

(٤) في النسخ: حمزة، وهو خطأ؛ والمثبت من المصادر.

(٥) أخرجه بنحوه أحمد في المسند (٢١٨٤٠)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٢٣٩ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وأورده بلفظ المصنف الطبرسيُّ في مجمع البيان ٢/ ٣٠ - ٣٩. قوله: «مجبنة محزنة» قال البغوي في شرح السنة ١٣/ ٣٦: أراد أن الرجل إذا كثر ولده، بخل بماله إبقاءً عليهم، وجَبُن عن الحروب استبقاءً لنفسه.

(٦) في معاني القرآن ١/ ٣٨٣، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩، والكلام الذي قبله وما بين حاصرتين منه.

(٧) في ديوانه ص٢٥.

والقَنْطرة: المعقودة، فكأنَّ القِنطار عَقْدُ مال.

واختلف العلماء في تحرير حَدِّهِ كم هو على أقوال عديدة، فروَى أُبيُّ بنُ كعب عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «القِنطار ألفُ أُوقِيَّة ومئتا أُوقِيَّة[١]». وقال بذلك معاذُ بن جبل، وعبد اللّه بن عمر، وأبو هريرة وجماعة من العلماء. قال ابن عطية[٢]: وهو أصحُّ الأقوال، لكن القِنطار على هذا يختلف باختلاف البلاد في قدر الأُوقيَّة.

وقيل: اثنا عشر ألف أُوقية، أسنده البُستيّ في «مسنده» الصحيح عن أبي هريرة، أن رسول اللّه ﷺ قال: «القِنطارُ اثنا عشرَ ألف أُوقيّة، الأُوقيّة خيرٌ مما بين السماء والأرض»[٣]. وقال بهذا القول أبو هريرة أيضاً[٤].

وفي «مسند» أبي محمد الدارميّ[٥] عن أبي سعيد الخدريّ قال: مَن قرأ في ليلة عشرَ آيات كُتِب من الذاكرين، ومَن قرأ بمئة آية كُتب من القانتين، ومَن قرأ بخمس مئة آية إلى الألف أصبح وله قِنطار من الأجر، قيل: وما القِنطار؟ قال: مِلْءُ مَسْكِ ثَوْرٍ ذهباً. موقوف، وقال به أبو نَضْرَة العَبْديّ[٦].

وذكر ابنُ سِيده أنه هكذا بالسُّريانية. وقال النقَّاش عن ابن الكلبي: إنه هكذا بلغة الروم.

وقال ابن عباس والضحَّاك والحسن: ألف ومئتا مِثقال من الفضة، ورَفَعَه الحسن. وعن ابن عباس: اثنا عشر ألف درهم من الفضة، ومن الذهب ألفُ دينار دِيَةُ الرجل المسلم، ورُوي عن الحسن والضحّاك. وقال سعيد بن المسيّب: ثمانون

---

(١) أخرجه الطبري ٦/ ٢٤٤ - ٢٤٥، وفي إسناده مخلد بن عبد الواحد أبو الهذيل البصري؛ قال ابن حبان في المجروحين ٣/ ٤٣: منكر الحديث جداً. وأورد ابن كثير الحديث في تفسيره ٢/ ٢٠، وقال: هذا حديث منكر، والأقرب أن يكون موقوفاً على أُبيّ بن كعب كغيره من الصحابة.

(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٨، وما قبله منه.

(٣) صحيح ابن حبان (٢٥٧٣)، وهو في مسند أحمد (٨٧٥٨).

(٤) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩.

(٥) الحديث (٣٤٥٨).

(٦) هو المنذر بن مالك بن قُطَعة، العوفي، البصري، المحدث، الثقة، توفي سنة (١٠٨هـ). السير ٤/ ٥٢٩.

ألفاً. قتادة: مئة رِطْل من الذهب، أو ثمانون ألف درهم من الفضة[١].

وقال أبو حمزة الثُّمَاليّ: القنطار بإفريقيَّة والأندلس ثمانية آلاف مِثْقال من ذهب أو فضة[٢].

السدّيّ: أربعة آلاف مثقال. مجاهد: سبعون ألف مثقال، ورُوي عن ابن عمر. وحَكَى مكيٌّ قولاً أنَّ القِنطار أربعون أُوقيَّة من ذهب أو فضة، وقاله ابن سِيدَه في «المحكم» وقال: القنطار بلغة بَرْبَر ألف مثقال. وقال الربيع بن أنس: القنطار المالُ الكثير بعضُه على بعض[٣]، وهذا هو المعروف عند العرب، ومنه قوله: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠]، أي: مالاً كثيراً. ومنه الحديث: إنَّ صفوانَ بنَ أُميَّة قَنْطَرَ في الجاهلية وقَنْطَرَ أبوه[٤]، أي: صار له قِنطارٌ من المال. وعن الحَكَم: القنطارُ هو ما بين السماء والأرض[٥].

واختلفوا في معنى «المُقَنْطَرَةِ»، فقال الطبري[٦] وغيرُه: معناه المُضَعَّفة، وكأنّ القناطيرَ ثلاثةٌ، والمُقنطرةَ تسعٌ. ورُوي عن الفرّاء[٧] أنه قال: القناطيرُ جمع القنطار، والمُقنطرة جمع الجمع، فيكون تسعَ قناطير. السُّدِّيّ: المُقنطرة: المضروبة حتى

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٨ - ٤٠٩ . وأخرج الأقوال السابقة الطبري في تفسيره ٦/ ٢٤٥ - ٢٤٨ .

(٢) أورده ابن قتيبة في تفسير غريب بالقرآن ص١٠٢ ، ولم ينسبه، وأبو حيان في البحر ٢/ ٣٩٧ ، وأبو حمزة الثمالي: هو ثابت بن أبي صفية الأزدي، الكوفي، توفي في خلافة أبي جعفر، قال عنه أحمد وابن معين: ليس بشيء، وقال الدارقطني: متروك. تهذيب التهذيب ١/ ٢٦٤ .

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٨ - ٤٠٩ ، وأخرج الأقوال السابقة الطبري ٦/ ٢٤٨ - ٢٤٩ ، وفيهما قول السدي: القنطار: ثمانية آلاف مثقال.

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٤/ ١١٩ من قول أبي عبيدة. وصفوان بن أمية بن خلف القرشي الجمحي المكي: صحابي، أسلم بعد الفتح، وشهد اليرموك أميراً على كُردوس، توفي سنة (٤١هـ) ﷺ. السير ٢/ ٥٦٢

(٥) أورده البغوي في تفسيره ١/ ٢٨٤ .

(٦) في تفسيره ٦/ ٢٤٩ .

(٧) انظر معاني القرآن له ١/ ١٩٥ .

صارت دنانيرَ أو دراهم. مكيّ: المُقنطرة: المُكمَّلة[١]، وحكاه الهروي[٢]، كما يقال: بَدْرة[٣] مُبَدَّرَة، وَألفٌ[٤] مؤَلّفة. وقال بعضهم. ولهذا سُمِّي البناءُ القنطرةَ لِتكاثف البناء بعضِه على بعض.

ابن كَيسان والفرّاء: لا تكون المُقنطرة أقلَّ من تسعة[٥] قناطير[٦]. وقيل: المُقَنْطَرة إشارةٌ إلى حضور المال وكونه عتيداً[٧].

وفي «صحيح» البُستي: عن عبد اللّه بن عمرو[٨] عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «مَنْ قامَ بعشر آياتٍ لم يُكتَبْ من الغافلين، ومَن قام بمئة آيةٍ كُتبَ من القانتين، ومَن قام بألف آية كُتب من المُقَنْطِرين».

الخامسة: قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ الذهب مُؤَنَّثة، يقال: هي الذَّهب الحسنةُ، جمعُها ذِهاب وذُهُوب. ويجوز أن يكون جمعُ ذهبة، ويجمع على الأَذْهَاب. وذهب فلانٌ مَذْهباً حسناً. والذَّهَب: مِكْيالٌ لأهل اليمن. ورجل ذَهِبٌ: إذا رأى مَعْدِنَ الذَّهب فَدَهِش. والفضّة معروفة، وجمعها فِضَضٌ[٩].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩، ونقل المصنف عنه قول الطبريّ السالف، وأخرج قولَ السُّدِّيِّ الطبريُّ ٦/ ٢٥٠

(٢) انظر تهذيب اللغة ٩/ ٤٠٥، وفيه: المقنطرة: المُتَمَّمة.

(٣) في (خ) و(د) و(ف) و(م): بدر، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٠٢ . والبدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم، أو سبعة آلاف دينار. القاموس المحيط (بدر).

(٤) في (م): آلاف، وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٠٢ .

(٥) في (خ) و(د): سبعة، وفي (ظ): سبع، وفي (م): تسع، والمثبت من (ف).

(٦) نسب ابن عطية في المحرر الوجيز١/ ٤٠٩ والنحاس في إعراب القرآن هذا القول لابن كيسان وحده وذكر ابن عطية أيضاً أن المهدوي حكى عن ابن كيسان والفراء: لا تكون المقنطرة أكثر من تسعة.

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩ .

(٨) في (د) و(ظ) و(م): عبدالله بن عمر، وهو خطأ، والمثبت من (خ) و(ف) وهو الموافق لصحيح ابن حبان (٢٥٧٢).

(٩) انظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٠، ومجمل اللغة ١/ ٣٦١ . وقوله: الذهب مؤنثة، كذا عند النحاس، وفي معاجم اللغة أن الذهب يُذكَّر ويُؤنَّث. وقوله: جمعها ذهاب، هذا أيضاً عند النحاس، وفي معاجم اللغة أن جمع الذَّهَب: أذهاب وذُهوب، وذُهبان. وانظر تهذيب اللغة ٦/ ٢٦٣، والقاموس المحيط، واللسان (ذهب).

فالذهب مأخوذة من الذَّهَاب، والفضة مأخوذة من انفَضّ الشيء تفرَّق[١]، ومنه فَضَضْتُ القوم فانفضُّوا، أي: فرَّقتُهم فتفرَّقوا، وهذا الاشتقاقُ يُشعر بزوالهما وعدم ثُبوتهما كما هو مُشاهَد في الوجود. ومن أحسن ما قيل في هذا[٢] قولُ بعضهم:

النّارُ آخرُ دِينارٍ نطقتَ به   والهَمُّ آخِرُ هذا الدِّرْهِم الجاري

والمرءُ بينَهما إن كان ذا وَرَعٍ   مُعذَّبُ القلبِ بين الهَمِّ والنارِ

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلِ﴾ الخيل مُؤنَّثة. قال ابن كيسان: حُدِّثت عن أبي عُبيدة أنه قال: واحدُ الخيل خائل، مثل: طائر وطير، وضائن وضَيْن، وسُمِّيَ الفرس بذلك لأنه يختال في مَشْيه[٣]. وقال غيره: هو اسم جمع لا واحدَ له من لفظه، واحده فرس[٤]، كالقوم والرَّهْط والنساء والإبل ونحوها.

وفي الخبر من حديث عليّ، عن النبيّ ﷺ: «إنَّ اللّه خلَق الفرسَ من الريح، ولذلك جعلَها تطيرُ بلا جناح»[٥]. وَهْبُ بن مُنَبِّه: خلَقها من ريح الجَنُوب. قال وهب: فليس من[٦] تسبيحةٍ ولا تكبيرة ولا تهليلة يُكبِّرها صاحبُها إلا وهو يَسمعه[٧]، فَيُجيبُه بمثلها[٨].

وسيأتي لذكر الخَيْل ووصفِها في سورة الأنفال[٩] ما فيه كفايةٌ إن شاء اللّه تعالى.

---

(١) انظر تفسير البغوي ١/ ٢٨٤.

(٢) في (م): هذا المعنى.

(٣) في (ظ): مشيته.

(٤) انظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٩.

(٥) أورده الثعلبي في قصص الأنبياء ص٣٠٥ عن أبي عبدالله عقيل الأنصاري بإسناده عن علي ﷺ. وأبو عبدالله عقيل لم نقف له على ترجمة، ولم نقف على إسناد الخبر، والضعف فيه ظاهر. والثعلبي ـ وهو أحمد بن إسحاق ـ قال فيه ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير ص٧٦: والثعلبي في نفسه كان فيه خير ودين، ولكنه كان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع.

(٦) لفظة: من، ليست في (م).

(٧) في (م): يسمعها.

(٨) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (١٣٠١) مطولاً، وهو من الإسرائيليات.

(٩) في تفسير الآية (٦٠) منها.

وفي الخبر[١]: إن اللّه عرضَ على آدمَ جميعَ الدوابِّ، فقيل له: اختَرْ منها واحداً، فاختار الفرس، فقيل له: اخترتَ عِزَّك، فصار اسمه الخير من هذا الوجه. وسُمِّيت خيلاً لأنها مَوْسُومَةٌ بالعِزِّ، فمن ركبَه اعتزَّ بِنِحْلة اللّه له، واختال[٢] به على أعداء اللّه تعالى. وسُمِّيَ فرساً لأنه يفترسُ مسافاتِ الجوِّ افتراسَ الأسد وَثَباناً، ويقطعُها كالالتهام بيديه على شيء خَبْطاً وتناولاً، وسُمِّي عربيّاً لأنه جِيء به من بعد آدمَ لإسماعيلَ جزاءً عن رفع قواعدِ البيت، وإسماعيلُ عربيٌّ، فصار له نِحلةً من اللّه تعالى فسمِّي عربياً[٣]. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «لا يدخل الشيطانُ داراً فيها فرسٌ عَتِيق»[٤]. وإنما سُمِّي عَتيقاً لأنه قد تخلَّص من الهَجانة[٥].

وقد قال ﷺ: «خيرُ الخيلِ الأدهمُ الأقْرحُ الأرْثمُ، [ثم الأقرحُ المحجَّل]، طلقُ اليمين، فإن لم يكن أدهمَ، فكُميت على هذه الشِّيَةِ». أخرجه الترمذيّ عن أبي قتادة[٦].

وفي مسند الدارميّ عنه أن رجلاً قال: يا رسول اللّه، إني أُريد أن أشتريَ فرساً [فأيُّها أشتري؟] قال: «إشْترِ أدهمَ، أرثَمَ، مُحجَّل[٧]، طَلْقَ اليمين، أو من الكُميت

(١) هو قطعة من قول وهب بن منبِّه السالف.

(٢) في (خ) و (د) و(ف) و(م): ويختال، والمثبت من (ظ).

(٣) تقدم نحو هذا الكلام ٢/ ٣٩٠، وذكر المصنف ثمة حديثاً موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٩٧، وأبو الشيخ في العظمة (١٣٠٥) من حديث عَريب المُليكي، وفي إسناده سعيد بن سنان أبو مهدي الحمصي؛ قال الذهبي في الميزان ٢/ ١٤٤: ضعّفه أحمد، وقال يحيى: ليس بشيء، وقال النسائي: متروك، وسيتكرر الخبر عند تفسير الآية (٦٠) من سورة الأنفال.
قوله: «فرس عتيق»: هو الرائع الكريم. اللسان (عتق).

(٥) الهجين من الخيل: الذي ولدته بِرْذَونة من حصان عربي، وفرس هجين: غير عتيق. انظر تهذيب اللغة ٦/ ٦٠ والقاموس المحيط (هجن).

(٦) سنن الترمذي (١٦٩٦)، وما بين حاصرتين منه، وهو في مسند أحمد (٢٢٥٦١). قال السندي كما في حاشية مسند أحمد: قوله: «الأدهم»، أي: الأسود. «الأقرح»: هو ما كان في جبهته قُرحة - بالضم - وهو بياض يسير دون الغُرّة. «الأرثم»: هو الذي أنفه أبيض وشفته العليا. «المحجل»: هو الذي في قوائمه بياض. «طلق اليمين»، أي: مُطلقُها، ليس فيها تحجيل. «فكُميت» بضم الكاف مصغّر: هو الذي لونُه بين السواد والحمرة، يستوي فيه المذكر والمؤنث. «على هذه الشِّية» بكسر الشين: هو اللون المخالف لغالب اللون.

(٧) كذا وقع في النسخ وسنن الدارمي: محجل، والجادة: مُحجَّلاً.

على هذه الشِّيَة، تغنَم وتسلَم»[١].

ورَوَى النسائيُّ عن أنس قال: لم يكن أحبَّ إلى رسول اللّه ﷺ بعد النساء من الخيل[٢].

ورَوَى الأئمةُ عن أبي هريرةَ أنّ رسول اللّه ﷺ قال: «الخيلُ ثلاثة: لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سِتْرٌ، ولرجل وِزْرٌ» الحديث[٣] بطوله، شُهرته أغنتْ عن ذكره. وسيأتي ذكر أحكام الخيل في «الأنفال» و«النحل»[٤] بما فيه كفاية إن شاء اللّه تعالى.

السابعة: قوله تعالى: ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ يعني الراعية في المُروج والمسارح، قاله سعيد ابنُ جُبير. يقال: سامَت الدابةُ والشاةُ إذا سَرَحَتْ، تسومُ سَوْماً، فهي سائمة. وأَسَمْتُها أنا: إذا تركتُها لذلك، فهي مُسامَة. وسوَّمتها تسويماً فهي مُسوَّمة[٥].

وفي «سنن» ابن ماجه[٦] عن عليّ قال: نهى رسولُ اللّه ﷺ عن السَّوْمِ قبل طلوعِ الشمس، وعن ذَبْح ذواتِ الدَّرِّ. السَّوم هنا في معنى الرعي. وقال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]. قال الأخطل[٧]:

مثل ابنِ بَزْعةَ[٨] أو كآخَرَ مثلِهِ ... أَوْلَى لك ابنَ مُسِيمَةِ الأَجْمالِ

أراد: ابنَ راعية الإبل. والسَّوَام: كل بَهيمة تَرْعَى، وقيل: المُعَدَّة للجهاد، قاله ابن زيد. مجاهد: المُسَوَّمَة: المُطَهَّمَة الحِسان. وقال[٩] عِكرمة: سوَّمها الحُسن،

---

(١) سنن الدارمي (٢٤٢٨)، وما بين حاصرتين منه.

(٢) المجتبى ٦/ ٢١٧ - ٢١٨، وفي الباب عن معقل بن يسار ﷺ عند أحمد (٢٠٣١٢).

(٣) أخرجه أحمد (٧٥٦٣)، والبخاري (٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧).

(٤) عند تفسير الآية (٦٠) من الأنفال، وتفسير الآية (٨) من النحل.

(٥) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩، وقول سعيد أخرجه الطبري ٦/ ٢٥٢.

(٦) الحديث (٢٢٠٦).

(٧) في ديوانه ص ١٥٩.

(٨) وقع في (خ): ضل ابن زرعة، وفي (د): ظل ابن زرعة، ولم تتبين في (ظ)، والمثبت من الديوان، قال شارحه: ابن بزعة: يعني شداد بن المنذر أخا حصين الذُّهلي، وبزعة أُمُّه، وروايته في الأغاني ٨/ ٣١٩: كابن البزيعة.

(٩) في النسخ: وقاله، والمثبت من (م).

واختاره النحاس[١]، من قولهم: رجل وَسِيم. ورُوي عن ابن عباس أنه قال: المسوَّمة المُعْلَمة بِشِيات الخيل في وجوهها، من السِّيما، وهي العلامة[٢]. وهذا مذهب الكِسائيّ وأبي عُبيدة[٣]. قلت: كل ما ذكر يَحتمله اللفظ، فتكون راعيةً مُعَدَّةً حِساناً مُعْلَمَةً لِتُعرفَ من غيرها.

قال أبو زيد: أصلُ ذلك أن تجعلَ عليها صُوفةً أو علامةً تخالف سائر جسدها لتبين من غيرها في المرعى[٤].

وحكى ابن فارس اللغويّ في «مجمله»[٥]: المسَوَّمَة: المُرْسَلَة وعليها رُكبانها. وقال المُؤرِّج: المسوَّمة: المَكْوِيَّة. المبرّد: المعروفة في البلدان. ابن كَيْسان: البُلْقُ[٦]. وكلُّها متقارب من السِّيما. قال النابغة[٧]:

وضُمْرٍ كالقِدَاح مُسَوَّمَاتٍ عليها مَعْشَرٌ أشْبَاهُ جِنٍّ

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ قال ابن كَيْسان: إذا قلت: نَعَمٌ، لم تكن إلَّا للإبل، فإذا قلت: أنعامٌ وقعتْ للإبل وكلِّ ما يرعى[٨]. قال الفرّاء: هو مُذَكَّر ولا يؤنّث، يقولون: هذا نَعَمٌ واردٌ، ويُجمع أنعاماً[٩]. قال الهَرَوِيّ[١٠]: والنَّعَم يذكّر ويؤنّث، والأنعام: المَواشي من الإبل والبقر والغنم، وإذا قيل: النَّعَم فهو الإبل

(١) في معاني القرآن ١/ ٣٦٧ .

(٢) انظر المحرر الوجيز ١/٤٠٩ - ٤١٠ ، وأخرج الأقوال السابقة الطبري ٦/ ٢٥٢ - ٢٥٤ ، وقول عكرمة فيه: تسويمها الحُسن.

(٣) انظر مجاز القرآن ١/ ٨٩ ، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٣٦٧ .

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ١/ ٣٦٨ .

(٥) ١/ ٤٧٩ .

(٦) أورد قولي المؤرّج وابن كيسان ابنُ الجوزي في زاد المسير ١/ ٣٦٠ ، وقول المبرد أورده أبو حيان في البحر ٢/ ٣٩٨ .

(٧) هو الذبياني، والبيت في ديوانه ص١٢٤ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٠ .

(٩) الصحاح (نعم) وعنه نقل المصنف كلام الفراء، وفيه: يُجمع على نُعمان، مثل: حَمَل وحُملان . اهـ.

(١٠) انظر تهذيب اللغة ٣/ ١٣ .

خاصَّة. وقال حسان[١]:

وكانت لا يزالُ بها أَنِيسٌ   خِلالَ مُروجِها نَعَمٌ وشَاءُ

وفي «سنن» ابن ماجه عن عُروة البارقيِّ يرفعه قال: «الإبلُ عِزٌّ لأهلها والغنم بركةٌ، والخيرُ معقودٌ في نواصي الخيل إلى يوم القيامة»[٢].

وفيه عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه ﷺ: «الشاة من دوابِّ الجنة»[٣].

وفيه عن أبي هريرة قال: أمَر رسول اللّه ﷺ الأغنياءَ باتِّخاذ الغنم، والفقراء باتخاذ الدَّجَاج. وقال: «عند اتِّخاذ الأغنياءِ الدجاج يأذَن اللّه تعالى بهلاك القُرى»[٤].

وفيه عن أُمِّ هانِئٍ أنّ النبيّ ﷺ قال لها: «اتَّخذِي غَنَماً، فإِنَّ فيها بركةً». أخرجه عن أبي بكر بن أبي شَيْبة، عن وكيع، عن هشام بن عُرْوة، عن أبيه، عن أمِّ هانئ، إسناد صحيح[٥].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾ الحرث هنا اسمٌ لكل ما يُحْرَث، وهو مصدر سُمِّيَ به، تقول: حَرَثَ الرجلُ حَرْثاً: إذا أثار الأرضَ لمعنى[٦] الفِلاحَة، فيقع اسمُ الحِراثَة على زرع الحبوب وعلى الجَنّات وغير[٧] ذلك من نوع الفِلاحة[٨]. وفي

---

(١) في ديوانه ص ٥٨ .

(٢) سنن ابن ماجه (٢٣٠٥) ، وقوله منه: «الخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة» أخرجه أحمد (١٩٣٥٤)، والبخاري (٣٦٤٣) ، ومسلم (١٨٧٣) ، وسلف ٣/ ٢٤١ .

(٣) سنن ابن ماجه (٢٣٠٦) . قال البوصيري في الزوائد ٢/ ٢٧: هذا إسناد ضعيف، زَرْبي بن عبدالله، أبو يحيى الأزدي [وهو أحد رجال السند] متفق على ضعفه، وانظر ميزان الاعتدال ٢/ ٦٩ .

(٤) سنن ابن ماجه (٢٣٠٧) قال البوصيري في الزوائد ٢/ ٢٨: هذا إسناد ضعيف، علي بن عروة تركوه، قال ابن حبان: يضع الحديث، وعثمان بن عبد الرحمن مجهول، والمتن ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من حديث نافع عن عبدالله بن عمر.

(٥) سنن ابن ماجه (٢٣٠٤) ، وهو في مسند أحمد (٢٧٣٨١) .

(٦) في (د) و(ظ): بمعنى.

(٧) في (م): وعلى غير.

(٨) المحرر الوجيز ١/ ٤١٠ .

الحديث: «أُحْرُثْ لدنياك كأنك تعيش أبداً[١]». يقال: حرثتُ واحترثت.

وفي حديث عبد الله: احْرُثُوا هذا القرآن[٢]، أي: فَتِّشُوه. قال ابن الأعرابيّ: الحرث التَفْتِيشُ، وفي الحديث: «أصدقُ الأسماء الحارِثُ»[٣] لأنَّ الحارث هو الكاسب، واحتراثُ المال كَسْبُه، .والمِحْرَاثُ: مِسْعَرُ النار[٤]، والحَرَاثُ مَجْرى الوَتَر في القوس، والجمع أَحْرِثة، وأحرثَ الرجل ناقتَه: أهْزَلها. وفي حديث معاوية: ما فعلتْ نَواضِحُكم؟ قالوا: حرَثْناها يومَ بَدْر. قال أبو عبيد[٥]: يعنون: هزلناها، يقال: حرثت الدابةَ وأحرثتها، لغتان.

وفي «صحيح» البخاريّ عن أبي أُمامة الباهِليِّ قال؛ وقد رأى سِكّةً وشيئاً من آلة الحرث، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخلُ هذا بيتَ قومٍ إلا دَخَله الذُّلُّ»[٦]. قيل: إنَّ الذُّلَّ هنا ما يلزَمُ أهلَ الشُّغلِ بالحرث من حقوق الأرض التي يُطالبهم بها الأئمة والسلاطين.

وقال المهلب: معنى قوله في هذا الحديث ـ والله أعلم ـ الحَضّ على مَعالي الأحوال وطلب الرزق من أشرف الصناعات، وذلك لما خَشِي النبيّ ﷺ على أمّته من الاشتغال بالحرث وتَضييع ركوب الخيل والجهاد في سبيل الله، لأنهم إن اشتغلوا بالحَرْث؛ غلَبتهم الأمم الراكبة للخيل المتعيشة من مكاسبها، فحضَّهم على التعيُّش من الجهاد؛ لا من الخُلود إلى عِمارة الأرض ولزوم المِهْنَة. ألا ترى أنَّ عمر قال:

---

(١) سلف ٣/ ٣٨٦.

(٢) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٤/ ٤٧٨ والكلام منه، وانظر مجمل اللغة ١/ ٢٣٠.

(٣) أخرجه أحمد (١٩٠٣٢)، وأبو داود (٤٩٥٠) من حديث أبي وهب الجُشمي، وإسناده ضعيف، فيه عقيل بن شبيب، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٨٨: لا يعرف هو ولا الصحابي إلا بهذا الحديث، تفرد به محمد بن مهاجر عنه.

(٤) وهو ما سُعِرَ به، كالمِسعار. القاموس (سعر). وقال في معجم متن اللغة: هو ما تحرك به النار حديداً كان أو خشباً لتسعر.

(٥) في غريب الحديث ٤/ ٢٦٥، وأورد خبر معاوية أيضاً الزمخشري في الفائق ٢/ ٣٨٣.

(٦) صحيح البخاري (٢٣٢١). قوله: سِكّة، بكسر المهملة: هي الحديدة التي تحرث بها الأرض. فتح الباري ٥/ ٥.

تَمَعْدَدُوا واخْشَوْشِنُوا، واقطعُوا الرُّكُبَ، وَثِبُوا على الخيل وَثْباً؛ لا تَغلبنَّكم عليها رُعاة الإبل[١]. فأمرهم بملازمة الخيل، ورياضة أبدانهم بالوُثوب عليها.

وفي «الصحيحين» عن أنس بن مالك قال: قال النبيّ ﷺ: «ما مِن مسلم يَغْرِسُ غَرْساً، أو يَزْرَعُ زرعاً[٢]، فيأكلُ منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ، إلا كان له به صدقة»[٣].

قال العلماء[٤]: ذكَر الله تعالى أربعةَ أصناف من المال، كلُّ نوع من المال يتموَّل به صِنْفٌ من الناس، أمّا الذهب والفضة فيتموَّل بها التجار، وأمّا الخيل المسوَّمة فيتموَّل بها الملوك، وأمَّا الأنعام فيتموَّل بها أهل البَوادي، وأمّا الحرث فيتموَّل به[٥] أهل الرَّساتيق[٦]. فتكون فتنةُ كلِّ صنف في النوع الذي يتموَّل، فأمّا النساء والبنون ففتنةٌ للجميع.

العاشرة[٧]: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ما يُتَمتَّع به فيها، ثم يذهَب ولا يبقى. وهذا منه تزهيدٌ في الدنيا وترغيبٌ في الآخرة. روى ابن ماجه وغيره عن عبد الله بن عمرو[٨] أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنما الدنيا متاعٌ، وليس من متاع الدنيا شيءٌ أفضلَ من المرأة الصالحة»[٩]. وفي الحديث: «اِزهَدْ في الدنيا يُحِبَّك

---

(١) لم نقف عليه بهذا السياق، وأخرجه أحمد (٣٠١)، وفيه: وألقوا الرُّكُبَ، وانزُوا نَزْواً، وعليكم بالمَعَدِّية. وابنُ حبان (٥٤٥٤) وفيه: واخشوشنوا، واخلولقوا .. وانزُوا نَزْواً.
قال السندي كما في حاشية المسند: عليكم بالمَعَدِّية (تمعدَدُوا): يريد خشونة العيش واللباس تشبهاً بمعَدِّ بن عدنان جَدِّ العرب وقوله: الرُّكُب: جمع ركاب، وهو موضع القدم في السَّرج. وقوله: وانزُوا نَزْواً، أي ثِبُوا على الخيل وثباً.

(٢) في (د) و(ز) و(ف) و(م): غرس غرساً وزرع زرعاً، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لما في البخاري ومسلم.

(٣) صحيح البخاري (٢٣٢٠)، وصحيح مسلم (١٥٥٣)، وهو في مسند أحمد (١٢٤٩٥).

(٤) القائل هو أبو الليث السمرقندي في تفسيره ١/ ٢٥١ - ٢٥٢.

(٥) في (م): بها.

(٦) قوله: الرساتيق: جمع رُستاق، وهو السواد والقُرى، انظر القاموس المحيط (رستق).

(٧) قوله العاشرة، لم ترد هنا في النسخ الخطية، بل وردت عند قوله: قال العلماء (السالف)، والمثبت من (م) وهو الأنسب.

(٨) في (د) و(ظ) و(ف) و(م): عمر، وهو خطأ، والمثبت من (خ) ومصادر الحديث.

(٩) سنن ابن ماجه (١٨٥٥)، وأخرجه أحمد (٦٥٦٧)، ومسلم (١٤٦٧) بنحوه.

اللّه»[١] أي: في متاعها من الجاه والمال الزائد على الضروريّ. قال ﷺ: «ليس لابن آدمَ حقٌّ في سوى هذه الخِصالِ: بيتٌ يَسكنُه، وثوبٌ يُوارِي عورتَه، وجِلْفُ الخبز والماء». أخرجه الترمذي من حديث المِقدام بن معدِ يكرب[٢]. وسُئل سهلُ بنُ عبد اللّه: بِمَ يسهُلُ على العبد تركُ الدنيا وكلِّ الشَّهوات؟ قال: بتشاغُله بما أُمِرَ به.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ ابتداءٌ وخبر. والمآب: المَرْجِع، آبَ يؤوبُ إياباً: إذا رجَعَ، قال امرؤ القيس[٣]:

وقد طوَّفْتُ في الآفاق حتى ... رضِيتُ من الغَنِيمَةِ بالإيابِ

وقال آخر[٤]:

وكلُّ ذي غَيْبَةٍ يؤُوبُ ... وغائِبُ الموتِ لا يؤُوبُ

وأصلُ مآب: مَأْوَب، قُلبت حركةُ الواو إلى الهمزة، وأُبدل من الواو ألف، مثل: مَقال. ومعنى الآية: تقليل الدنيا وتحقيرُها، والترغيب في حسن المرجِع إلى اللّه تعالى في الآخرة[٥].

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّـٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾.

منتهى الاستفهام عند قوله: «مِن ذلكم». «للّذينَ اتَّقَوا» خبرٌ مقدَّم، و«جناتٌ» رَفْع

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ، وفي إسناده خالد بن عمرو القرشي، قال أحمد وابن معين وابن عدي: أحاديثه موضوعة، وقال البخاري: منكر الحديث. وصححه الحاكم ٣١٣/٤ فتعقبه الذهبي بقوله: خالد وضاع. وانظر جامع العلوم والحكم ٢/ ١٧٤ .

(٢) سنن الترمذي (٢٣٤١)، وهو من حديث عثمان بن عفان، ﷺ، وليس من حديث المقدام بن معدي كرب ﷺ وهو في مسند أحمد (٤٤٠). وفي إسناده حُريث بن السائب؛ وقد وهم في رفعه، والصواب: عن بعض أهل الكتاب؛ كما ذكر الدارقطني في العلل ٣/ ٢٩ . وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٧٩٩ : هذا حديث لا يصح. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح!. . قال النضر بن شُميل: جلف الخبز يعني ليس معه إدام.

(٣) في ديوانه ص٩٩ .

(٤) هو عَبيد بن الأبرص، والبيت في ديوانه ص٢٦ .

(٥) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤١٠ .

بالابتداء. وقيل: مُنتهاه «عند رَبِّهم»، و«جنات» على هذا رفع بابتداء مضمر، تقديره: ذلك جناتٌ. ويجوز على هذا التأويل «جَنَّاتٍ» بالخفض بدلاً من «خيرٍ»، ولا يجوز ذلك على الأوَّل.

قال ابن عطية[١]: وهذه الآيةُ والتي قبلها نظيرُ قوله عليه الصلاة والسلام: «تُنْكَح المرأة لأربع: لِمالِها وحَسَبها وجمالها ودِينها، فاظْفَرْ بذاتِ الدِّين تَرِبَتْ يَداك» خرَّجه مسلم وغيره[٢]. فقوله: «فاظْفَرْ بذات الدِّين» مِثالٌ لهذه الآية. وما قبلُ مثالٌ للأُولى. فذكر تعالى هذه تسليةً عن الدنيا وتقويةً لنفوس تاركيها. وقد تقدّم[٣] في البقرة معاني ألفاظِ هذه الآية.

والرِّضوانُ مصدر من الرِّضا، وهو أنه إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ يقول الله تعالى لهم: «تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: يا ربَّنا، وأيُّ شيء أفضلُ من هذا؟ فيقول: رِضايَ، فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً» خرَّجه مسلم[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ وعدٌ ووَعِيدٌ[٥].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلۡقَـٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلٌ من قوله: «للّذِين اتَّقوا»، وإن شئتَ كان رفعاً، أي: هم الذين، أو نصباً على المدح.

﴿رَبَّنَآ﴾ أي: يا ربَّنا. ﴿إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي: صدَّقنا. ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ دعاء بالمغفرة. ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ تقدّم في البقرة[٦].

---

(١) في المحرر الوجيز ١/ ٤١٠، والكلام الذي قبله منه.

(٢) سلف ص٤٧ من هذا الجزء.

(٣) ١/ ٣٥٨.

(٤) برقم (٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وأخرجه أحمد (١١٨٣٥)، والبخاري (٦٥٤٩)، ولفظه عندهم: «أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

(٥) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤١١.

(٦) ٣/ ٣٥٧.

﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ يعني عن المعاصي والشَّهوات، وقيل: على الطاعات. ﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ أي: في الأفعال والأقوال. ﴿وَٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ الطائعين. ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ يعني في سبيل اللّه. وقد تقدّم في البقرة هذه المعاني على الكمال[1]. ففسر تعالى في هذه الآية أحوالَ المتقين الموعودين بالجنات[2].

واختُلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ فقال أنس بن مالك: هم السائلون المغفرةَ. قتادة: المُصَلُّون[3].

قلت: ولا تناقض، فإنهم يُصلُّون ويستغفرون. وخَصَّ السَّحَرَ بالذكر، لأنه مَظَانُّ القَبول، ووقتُ إجابةِ الدعاء. قال رسول اللّه ﷺ في تفسير قوله تعالى مُخبِراً عن يعقوب عليه السلام لِبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ [يوسف:٩٨]: «إنه أخَّر ذلك إلى السَّحَر» خَرَّجَه الترمذي، وسيأتي[4]. وسأل النبيُّ ﷺ جبريلَ: «أيُّ الليل أسمعُ؟» فقال: لا أدري غير أنَّ العرشَ يهتزُّ عند السَّحَر»[5].

يقال: سَحَر وسَحْر، بفتح الحاء وسكونها، وقال الزجَّاج[6]: السَّحَر من حين

---

(١) ينظر ١/ ٢٧٣، ٣٥١ و٢/ ٦٥.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٤١١.

(٣) أخرجهما الطبري ٦/ ٢٦٥ - ٢٦٦، ولفظ قول أنس فيه: أُمرنا أن نستغفر بالأسحار سبعين استغفارة، وسيأتي قريباً.

(٤) سنن الترمذي (٣٥٧٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أنه أخَّر الاستغفار حتى تأتي ليلة الجمعة. قال الترمذي: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم. وسيأتي بأطول من هذا في تفسير الآية (٩٨) من سورة يوسف. وأما القول بأنه أخَّر ذلك إلى السحر، فأخرجه الطبري ٦/ ٢٦١ - ٢٦٢ من قول ابن مسعود ﷺ.

(٥) لم نقف عليه بهذا السياق، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٠٠ من طريق حماد بن سلمة، وأحمد في الزهد ص٨٩، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٢٠٣ من طريق جعفر بن سليمان، كلاهما عن سعيد بن إياس الجريري قال: بلغنا أن داود سأل جبريل فقال: يا جبريل، أي الليل أفضل؟ قال: يا داود ما أدري، إلا أن العرش يهتز من السحر. وهو ضعيف لانقطاعه. ويغني عنه ما أخرجه أبو داود (١٢٧٧) بإسناد صحيح عن عمرو بن عبسة السلمي أنه قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الليل أسمع؟ قال: «جوف الليل الآخِر، فصلِّ ما شئت، فإنَّ الصلاة مشهودة مكتوبة».

(٦) انظر معاني القرآن له ١/ ٣٨٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٦٢. وينظر المحرر الوجيز ١/ ٤١١.

يُدبر الليلُ إلى أن يطلُعَ الفجر الثاني، وقال ابن زيد: السَّحر هو سُدس الليل الآخِر.

قلت: أصحُّ من هذا ما روَى الأئمة عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «ينزِلُ اللّه عزَّ وجلَّ إلى سماء الدنيا كلَّ ليلة حين يمضي ثلثُ الليل الأوّل، فيقول: أنا المَلِكُ، أنا[1] المَلِكُ، مَن ذا الذي يدعوني فأستجيبَ له، مَن ذا الذي يسألني فأُعطيَه، مَن ذا الذي يستغفرني فأغفِرَ له، ولا يزال[2] كذلك حتى يطلُعَ الفجر». في روايةٍ: «حتى يَنفجِرَ الصبح». لفظ مسلم[3].

وقد اختُلف في تأويله، وأولى ما قيل فيه ما جاء في كتاب النَّسائيّ[4] مفسَّراً عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي اللّه عنهما قالا: قال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ اللّه عزَّ وجلَّ يُمهِلُ حتى يمضيَ شطرُ الليل الأوّل، ثم يأمُر منادياً فيقول: هل من داعٍ يُستجابُ له، هل من مُستغفِرٍ يُغفَرُ له، هل من سائل يُعطَى». صحَّحه أبو محمد عبد الحقّ[5]، وهو يرفع الإشكالَ، ويُوضح كلّ احتمال، وأنّ الأوّلَ من باب حذف المضاف، أي: ينزل مَلَكُ ربِّنا فيقول. وقد رُوي: «يُنزِل» بضم الياء[6]، وهو يُبيِّن ما ذكرنا، وباللّه توفيقنا.

وقد أتينا على ذكره في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء اللّه الحسنى وصفاته العُلى»[7].

مسألة: الاستغفار مندوبٌ إليه، وقد أثنى اللّه تعالى على المستغفرين في هذه الآية وغيرها، فقال: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وقال أنس بن مالك: أُمِرْنا أن نستغفر بالسَّحَر سبعين استغفارة[8].

---

(١) من هنا إلى ص١١٩ من هذا الجزء (الآية: ٣٨) سقط من (ف).

(٢) في (م): فلا يزال.

(٣) أخرجه أحمد (٩٤٣٦)، والبخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، وفي رواية البخاري ورواية أخرى لمسلم: «حين يبقى ثلث الليل الآخِر» وذكر القاضي عياض في إكمال المعلم ٣/ ١١١ أنها الروايةُ الصحيحة.

(٤) في عمل اليوم والليلة (٤٨٢).

(٥) الأحكام الصغرى ١/ ٢٧٨.

(٦) انظر المفهم ٢/ ٣٨٦.

(٧) لم نقف عليه فيه.

(٨) أخرجه الطبري ٦/ ٢٦٦.

وقال سفيان الثوريّ: بلغني أنه إذا كان أوّلُ الليل نادى مُنادٍ: لِيَقُمِ القانتون. فيقومون كذلك يُصلُّون إلى السَّحَر، فإذا كان عند السَّحَر نادى مُنادٍ: أين المستغفرون، فيستغفر أولئك، ويقوم آخرون فيصلون فيلحقون بهم. فإذا طلَع الفجر؛ نادى مُنادٍ: ألا لِيقُم الغافلون، فيقومون من فُرشِهم كالموتى نُشِروا من قبورهم.

وروي عن أنس قال[١]: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «إنّ اللّه يقول: إني لأهُمُّ بعذاب أهل الأرض، فإذا نظرتُ إلى عُمّار بيوتي، وإلى المتحابّين فيَّ، وإلى المتهجِّدين والمستغفرين بالأسحار، صَرفتُ عنهم العذابَ بهم»[٢].

قال مكحول: إذا كان في أُمّة خمسةَ عشرَ رجلاً يستغفرون اللّه كلَّ يوم خمساً وعشرين مرةً، لم يؤاخذِ اللّه تلك الأُمّةَ بعذاب العامّة. ذكره أبو نُعيم في كتاب «الحِلية»[٣].

وقال نافع: كان ابن عمر يُحيي الليلَ ثم يقول: يا نافع، أسحَرْنا؟ فأقول: لا. فَيُعاوِدُ الصلاةَ ثم يسأل، فإذا قلت: نعم، قَعَد يستغفر.

وروَى إبراهيم بنُ حاطِب عن أبيه قال: سمعتُ رجلاً في السَّحَر في ناحية المسجد يقول: يا ربّ، أمرتَني فأطعتُك، وهذا سَحَرٌ، فاغْفِرْ لي. فنظرتُ، فإذا ابنُ مسعود[٤]. قلت: فهذا كلُّه يدلُّ على أنه استغفارٌ باللسان مع حضور القلب، لا ما قال ابنُ زيد أنّ المرادَ بالمستغفرين الذين يُصلُّون صلاةَ الصبح في جماعة[٥]، واللّه أعلم.

---

(١) لفظة: قال، من (ظ).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩٠٥١) وفي إسناده صالح بن بشير المرّي، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير ١/ ٢٦٠ .

(٣) ٥/ ١٨٣ . ووقع في (م): الحلية له.

(٤) في (م): فإذا هو ابن مسعود، وأخرج هذا الأثر والذي قبله الطبري ٦/ ٢٦٦ . وانظر المحرر الوجيز ١/ ٤١١ .

(٥) أخرجه الطبري ٦/ ٢٦٧ ، وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤١١ من قول زيد بن أسلم.

وقال لقمانُ لابنه: يا بُنيَّ لا يَكُنِ الدِّيكُ أكيَسَ منك، يُنادِي بالأسحار وأنت نائم[١].

والمختار من لفظ الاستغفار ما رواه البخاريُّ عن شدَّاد بنِ أوس ـ وليس له في «الجامع» غيره ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللّهم أنت ربِّي لا إله إلا أنت، خلقتَني وأنا عبدُك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ، أَبُوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأبوءُ لك[٢] بذنبي، فاغفِرْ لي، فإنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت». قال: «ومَنْ قالَها من النهار مُوقناً بها، فماتَ من يومه قبل أن يُمسيَ، فهو من أهل الجنة، ومَنْ قالَها من الليل وهو مُوقِنٌ بها، فماتَ من ليله[٣] قبل أن يُصبحَ، فهو من أهل الجنة»[٤].

وروى أبو محمد عبد الغنيّ بنُ سعيد من حديث ابن لَهيعةَ، عن أبي صخر، عن أبي معاوية، عن سعيد بنِ جُبير، عن أبي الصَّهْباء البكريّ، عن عليٍّ بن أبي طالب ﷺ أنّ رسول اللّه ﷺ أخذَ بيد عليٍّ بن أبي طالب ﷺ، ثم قال: «ألا أُعَلِّمك كلماتٍ تقولُهنَّ لو كانت ذنوبُك كَمَدبِّ النمل ـ أو كَمَدبِّ الذّرّ ـ لَغَفَرَها اللّه لك، على أنه مغفورٌ لك: اللّهم لا إله إلا أنت سبحانك، عَمِلتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فاغفِرْ لي، فإنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنتَ»[٥].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥٦٩٨)، وأورده البغوي في تفسيره ١/ ٢٨٥ من قول الحسن.

(٢) قوله: «لك» ليس في (د) و(م).

(٣) في (ظ): من ليلته.

(٤) صحيح البخاري (٦٣٠٦)، وهو في مسند أحمد (١٧١١١).

(٥) ذكر الهندي في كنز العمال (٥٠٥٢) أنه في إيضاح الإشكال لعبد الغني بن سعيد، وزاد نسبته لابن أبي الدنيا في الدعاء. قلنا: وأخرجه من طريق ابن لهيعة ـ بهذا الإسناد ـ البيهقيُّ في الدعوات الكبير (١٩٠). وابن لهيعة ـ وهو عبدالله ـ ضعيف. وفي إسناده أيضاً محفوظ بن أبي توبة، وهو ضعيف كما في علل أحمد (٥١٣٤). وأبو صخر: هو حميد بن زياد. وأبو معاوية: هو عمار بن معاوية الدهني البجلي.
وأخرج أحمد (٨)، والبخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥) عن أبي بكر الصديق أنه قال لرسول الله ﷺ: علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي. قال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كبيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم». وفي رواية: ظلماً كثيراً.

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قال سعيد بن جُبير: كان حولَ الكعبة ثلاثُ مئة وستون صنماً، فلما نزلتْ هذه الآيةُ خَرَّتْ[١] سُجّداً[٢].

وقال الكلبيّ: لما ظهر رسولُ الله ﷺ بالمدينة قَدِمَ عليه حِبْران من أحبار أهل الشام، فلما أبصَرا المدينةَ قال أحدهما لصاحبه: ما أشبهَ هذه المدينة بصفة مدينة النبيِّ الذي يخرجُ في آخر الزمان!. فلما دخلا على النبيِّ ﷺ، عَرَفاه بالصِّفة والنَّعْت فقالا له: أنت محمد؟ قال: «نعم»، قالا: وأنت أحمد؟ قال: «نعم»، قالا: نسألك عن شهادة، فإنْ أنت أخبرتَنا بها آمنَّا بك وصدَّقناك. فقال لهما رسول الله ﷺ: «سَلاَني». فقالا: أخْبِرْنا عن أعظم شهادة في كتاب الله. فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾. فأسلمَ الرجلان، وصدَّقا برسول الله ﷺ[٣].

وقد قيل: إنّ المراد بأُولي العلم الأنبياءُ عليهم السلام. وقال ابن كَيْسان: المهاجرون[٤] والأنصار. مقاتل: مؤمنو[٥] أهل الكتاب. السدّيّ والكلبيّ: المؤمنون كلهم[٦]، وهو الأظهرُ، لأنه عامّ.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على فضل العلم وشَرَف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان

---

(١) في (خ) و(د) و(م): خَرَرْن.

(٢) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٣٦٢ ، والسيوطي في الدر المنثور ٢/ ١٢ ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر، والله أعلم بصحته.

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٩٢، وابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٣٦٢ .

(٤) في النسخ: المهاجرين، والمثبت من (م).

(٥) في النسخ: مؤمني، والمثبت من (م).

(٦) أورد هذه الأقوال البغوي في تفسيره ١/ ٢٨٦ ، وفيه قول مقاتل: علماء مؤمني أهل الكتاب، وقول السُّدّيّ والكلبيّ: يعني جميع علماء المؤمنين.

أحدٌ أشرفَ من العلماء لَقَرنَهم اللّه باسمه واسمِ ملائكته كما قَرَنَ اسمَ العلماء. وقال في شرف العلم لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. فلو كان شيء أشرفَ من العلم لأمر اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أن يسأله المزيدَ منه كما أمره[١] أن يَستزيدَه من العلم. وقال ﷺ: «إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء»[٢]. وقال: «العلماءُ أُمَنَاء اللّه على خَلْقه»[٣]. وهذا شَرَفٌ للعلماء عظيم، ومحلٌّ لهم في الدِّين خطير.

وخرَّج أبو محمد عبد الغنيّ الحافظ من حديث بَرَكَة بن نشيط ـ وهو غَنْكل[٤] بن حكارك، وتفسيره: بركة بن نَشِيط ـ وكان حافظاً، حدثنا عمر بن المُؤمل، حدثنا محمد بن أبي الخصيب، حدثنا غنكل، حدّثنا محمد بن اسحاق، حدثنا شَريك، عن أبي اسحاق، عن البراء قال: قال رسول اللّه ﷺ: «العلماءُ ورثةُ الأنبياء، يُحبُّهم أهلُ السماء، ويستغفرُ لهم الحِيتانُ في البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة»[٥]. وفي هذا الباب[٦] عن أبي الدرداء، خرَّجه أبو داود[٧].

الثالثة: روى غالبٌ القطّان قال: أتيت الكوفةَ في تجارة، فنزلتُ قريباً من الأعمش، فكنت أختلف إليه. فلما كان ليلة أردتُ أن أنحدرَ إلى البصرة قام فتهجد

(١) في (م): أمر.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢) من حديث أبي الدرداء ﷺ مطولاً وفيه قصة. وأورده البخاري في صحيحه في ترجمة كتاب العلم؛ باب: العلم قبل القول والعمل (فتح الباري ١/ ١٥٩ - ١٦٠).

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١١٥) من حديث أنس ﷺ. وحسنه السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ١٥٢ والعامري في شرح الشهاب فيما ذكره المُناوي في فيض القدير ٤/ ٣٨٢.

(٤) في النسخ: عنكل (في الموضعين) والمثبت من نزهة الألباب في الألقاب للحافظ ابن حجر ٢/ ٤٧، فقد قيَّده بمعجمة، ثم مثلثة، بوزن جعفر، ووقع في مطبوع موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٣٥٧: غتكل؛ بالتاء.

(٥) نسبه السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ١٥٣ لابن النجار من حديث أنس، ورمز لضعفه، وتعقبه المناوي في فيض القدير ٤/ ٣٨٥، بأنه خرَّجه أبو نعيم والديلمي والحافظ عبد الغني، وغيرهم، بعضهم من حديث أنس، وبعضهم من حديث البراء، ونقل عن الحافظ ابن حجر قوله فيه: له طرق وشواهد، يعرف بها أن للحديث أصلاً.

(٦) بعدها في (م): حديث.

(٧) رقم (٣٦٤١)، وفيه: «إن العلماء ورثة الأنبياء» وقد سلف قريباً. وهو عند أحمد (٢١٧١٥).

من الليل، فقرأ بهذه الآية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾، قال الأعمش: وأنا أشهدُ بما شَهِد اللّه به، وأستودعُ اللّهَ هذه الشهادةَ، وهي لي عند اللّه وديعةٌ، وأنّ الدين عند اللّه الإسلام - قالها مِراراً - فغَدوتُ إليه وودَّعتُه، ثم قلت: إني سمعتُك تقرأُ هذه الآيةَ، فما بلغكَ فيها؟ أنا عندك منذ سنة لم تُحدِّثني به. قال: واللّه، لا حدَّثتُك به سنةً. قال: فأقمتُ وكتبتُ على بابه ذلك اليوم، فلما مضت السنة قلت: يا أبا محمد، قد مضتِ السنة. قال: حدثني أبو وائل، عن عبد اللّه بن مسعود قال: قال رسولُ اللّه ﷺ: «يُجَاءُ بصاحبها يومَ القيامة، فيقول اللّه تعالى: عبدي عَهِدَ إليَّ، وأنا أحَقُّ مَنْ وَفَى، أَدْخِلوا عبدي الجنةَ».

قال أبو الفرج الجوزيّ: غالبٌ القطّان: هو غالب بن خُطّاف القطّان، يروي عن الأعمش حديث: «شَهِدَ اللّه»، وهو حديثٌ مُعْضَل[١]، قال ابن عَدِيّ: الضعف على حديثه بَيِّن. وقال أحمد بن حنبل: غالبُ بن خُطَّاف القطّان ثِقةٌ ثقة[٢]. وقال ابن مَعِين: ثِقة[٣]. وقال أبو حاتم: صدوق صالح[٤].

قلت: يَكفيكَ من عَدالته وثِقته أن خرَّج له البخاريّ ومسلمٌ في كتابيهما، وحسبك بهما[٥].

ورُوي من حديث أنس عن النبيّ ﷺ أنه قال: «مَنْ قرأ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

---

(١) كذا نقل المصنف رحمه الله عن ابن الجوزي في الضعفاء والمتروكين ٢/ ٢٤٤ ، ونقله ابن الجوزي عن ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٠٣٥ ، ولم يتبين لنا الإعضال فيه، ولم يُعِلَّ أحدٌ الحديثَ بالإعضال، إنما أعلوه بالراوي عن غالب بن خُطَّاف، كما فعل ابن الجوزي نفسه في العلل، فإسناد الحديث متصل، وهو من رواية عمار بن عمر بن المختار، عن أبيه، عن غالب بن خُطَّاف، به. كذا أخرجه البيهقي في الشعب (٢٤١٤) ، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٤٦) . قال البيهقي: عمار بن عمر عن أبيه ضعيفان، وهذا لم يأت به غيرهما، وقال ابن الجوزي في العلل: هذا حديث لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ، تفرَّد به عمر بن المختار، وعمر يحدث بالأباطيل. وقال الذهبي في الميزان في ترجمة غالب بن خُطَّاف ٣/ ٣٣١: الآفة فيه من عمر، فإنه متهم بالوضع، فما أنصف ابن عدي في إحضاره هذا الحديث في ترجمة غالب .

(٢) علل أحمد ٢/ ٢٠٧ .

(٣) اختلف قول ابن معين فيه ، فقد نقل المزي في تهذيب الكمال ٢٣/ ٨٤ عنه توثيقه، ونقل عثمان الدارمي في تاريخه ص١٨٩ عنه تضعيفه، ونقل الذهبي في الميزان ٣/ ٣٣٠ قوله فيه: لا أعرفه.

(٤) الجرح والتعديل ٧/ ٤٨ .

(٥) لفظة «بهما»، من (ظ).

﴿هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ عند مَنامه خَلَق اللّه له سبعين ألفَ ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة»[١]. ويقال: مَن أقرَّ بهذه الشهادة عن عَقْد من قلبه؛ فقد قام بالعَدْل. ورُوي عن سعيد بن جُبير أنه قال: كان حولَ الكعبة ثلاث مئة وستون صنماً؛ لكل حَيٍّ من أحْيَاء العرب صَنَمٌ أو صنمان. فلما نزلتْ هذه الآية أصبحت الأصنام قد خرَّتْ ساجدةً لله[٢].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ أي: بَيَّنَ وأعْلم، كما يقال: شَهِد فلانٌ عند القاضي إذا بيَّن وأعْلم لمن الحقُّ، أو على مَنْ هو.

قال الزجَّاج[٣]: الشاهد هو الذي يَعلم الشيء ويُبَيِّنه، فقد دَلّنا اللّه تعالى على وحدانيته بما خَلَق وبَيّن.

وقال أبو عُبَيْدة[٤]: «شهِد اللّه» بمعنى: قَضَى اللّه، أي: أعلم. قال ابن عطية[٥]: وهذا مردودٌ من جهات.

وقرأ الكِسائي بفتح «أنّ» في قوله: «أنّه لا إله إلاّ هُو» وقولِه: «أنّ الدِّينَ»[٦]. قال المبرّد: التقدير: أنّ الدين عند اللّه الإسلام بأنه لا إله إلا هو، ثم حذفت الباء كما قال: أمرتُك الخيْرَ...[٧] أي: بالخير. قال الكِسائيّ: أنصِبهما جميعاً، بمعنى: شَهِد اللّه أنه كذا، وأنَّ الدين عند اللّه. قال ابن كيسان: «أنّ» الثانية بدل من الأُولى، لأنّ الإسلام تفسير المعنى الذي هو التوحيد.

وقرأ ابن عباس فيما حكَى الكِسائي: «شَهِدَ اللّهُ إنَّهُ» بالكسر، «أَنّ الدِّين» بالفتح. والتقدير: شَهِد اللّه أنَّ الدين الإسلام، ثم ابتدأ فقال: إنه لا إله إلا هو. وقرأ أبو

---

(١) حديث موضوع، وسلف في الصفحة ٩ .

(٢) سلف في المسألة الأولى.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٣٨٥ .

(٤) في مجاز القرآن ١/ ٨٩ .

(٥) في المحرر الوجيز ١/ ٤١٢ ، ونقل المصنف عنه قول أبي عبيدة السالف.

(٦) السبعة في القراءات ص٢٠٢ ، والتيسير ص٨٧ .

(٧) هو من بيت نسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٣٧ لعمرو بن معدي كرب، وذكر البغدادي في الخزانة ٩/ ٣٤٣ اختلافاً في قائله على أربعة أقوال، وتمامه:

أمرتك الخيرَ فافعل ما أُمرت به ... فقد تركتُك ذا مالٍ وذا نشبِ

المُهلَّب ـ وكان قارئاً ـ: «شُهَدَاءَ لله»[١]، بالنصب على الحال[٢]، وعنه: «شُهَدَاءُ لله»[٣].

وروى شعبةُ، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن أُبَيٍّ، عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقرأ[٤]: «أن الدين عند اللّه الحنِيفية، لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسِية[٥]». قال أبو بكر الأنبارِيّ: ولا يخفَى على ذي تمييزٍ أنَّ هذا كلامٌ[٦] من النبيِّ ﷺ على جِهة التفسير، أَدخله بعضُ مَن نقل الحديثَ في القرآن.

و﴿قَآئِمًا﴾ نصب على الحال المؤكّدة من اسمه تعالى في قوله: «شَهِدَ اللّهُ»، أو مِن قوله: «إلَّا هو». وقال الفرّاء[٧]: هو نصب على القطع، كان أصلُه: القائم، فلما قطعت الألف واللام نُصب، كقوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ [النحل: ٥٢]. وفي قراءة عبد اللّه: «القائمُ بالقسط» على النعت، والقِسْط العدل[٨].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ كرّر لأنّ الأُولى حَلَّتْ محلَّ الدعوى، والشهادةُ الثانية حلَّت محلَّ الحُكم.

وقال جعفر الصادق: الأُولى وصفٌ وتوحيدٌ، والثانية رَسْمٌ وتعليمٌ، يعني: قولوا: لا إله إلا اللّه العزيز الحكيم[٩].

---

(١) في (م): شهداء الله (في الموضعين). ويمكن قراءتها في (د) و(ظ): شُهُد الله، وهي مروية عن أبي المهلب، فيما ذكر أبو حيان في البحر ٢/ ٤٠٣، وقيدها بضم الشين والهاء، جمع شهيد.

(٢) انظر معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٦٩ - ٣٧١، وقراءة ابن عباس رضي الله عنهما ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤١٢. وقد ردَّ الطبري في تفسيره ٦/ ٢٦٨ على الكسائي قراءته بالنصب فيهما.

(٣) وذكر النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٦٢، أنه روي عنه أيضاً: شهداء الله، بالرفع والنصب.

(٤) في (خ) و(ظ): يقول.

(٥) أخرج نحوه أحمد (٢١٢٠٢)، والترمذي (٣٧٩٣) مطولاً. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٦) في (م): الكلام.

(٧) في معاني القرآن ١/ ٢٠٠.

(٨) انظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤١٣.

(٩) زاد المسير ١/ ٣٦٢.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ الدِّين في هذه الآية الطاعةُ والمِلَّة، والإسلام بمعنى الإيمان والطَّاعات. قاله أبو العالية، وعليه جُمهور المتكلّمين[١].

والأصل في مسمَّى الإيمان والإسلام التَّغَايرُ، لحديث جبريل[٢]. وقد يكون بمعنى المُرَادفة. فَيُسمَّى كلٌّ واحد منهما باسم الآخر، كما في حديث وَفْد عبد القَيْس، وأنه أمرهم بالإيمان باللّه وحده وقال: «هل تدرون ما الإيمان؟» قالوا: اللّه ورسوله أعلمُ. قال: «شهادةُ أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً رسول اللّه، وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، وصومُ رمضان، وأن تُؤَدُّوا خُمساً من المَغْنم» الحديث[٣]. وكذلك قوله ﷺ: «الإيمانُ بِضْعٌ وسبعون باباً، فأدناها إماطةُ الأذى، وأرفعُها قولُ لا إله إلا اللّه» أخرجه الترمذي[٤]. وزاد مسلم[٥]: «والحياءُ شعبةٌ من الإيمان». ويكون أيضاً بمعنى التداخل، وهو أن يُطلق أحدهما ويُراد به مُسمَّاه في الأصل ومسمَّى الآخر، كما في هذه الآية إذ قد دخَل فيها التصديق والأعمال، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «الإيمانُ معرفةٌ بالقلب، وقولٌ باللسان، وعملٌ بالأركان» أخرجه ابن ماجه، وقد تقدّم[٦]. والحقيقةُ هو الأوّل وضعاً[٧] وشرعاً، وما عداه من باب

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤١٣.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر ﷺ والذي يسأل فيه جبريلُ عليه السلام النبيَّ ﷺ: ما الإيمان... ما الإسلام... ما الإحسان...

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٢٠)، والبخاري (٥٣)، ومسلم (١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رقم (٢٦١٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو في مسند أحمد (٩٧٤٨). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) في صحيحه (٣٥)، وهو عند أحمد (٩٣٦١)، والبخاري (٩)، ولفظ البخاري: «الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان».

(٦) سنن ابن ماجه (٦٥).

(٧) في (د) و(ظ): وصفاً.

التوسُّع. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الآية. أخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب أنه كان على علمٍ منهم بالحقائق، وأنه كان بَغْياً وطَلَباً للدنيا. قاله ابن عمر وغيره[١]. وفي الكلام تقديمٌ وتأخير، والمعنى: وما اختلف الذين أُوتوا الكتاب بَغْياً بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم، قاله الأخفش[٢].

قال محمد بن جعفر بن الزُّبير: المراد بهذه الآية النصارى، وهي توبيخٌ لنصارى نَجْران. وقال الربيع بن أنس: المرادُ بها اليهود. ولفظ «الذين أُوتوا الكتاب» يعمُّ اليهود والنصارى[٣]، أي: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب ـ يعني في نبوّة محمد ﷺ ـ إلاّ مِنْ بعد ما جاءهم العلمُ. يعني: بيان صِفته ونبوَّته في كُتبهم. وقيل: أي: وما اختلف الذين أُوتوا الإنجيل[٤] في أمر عيسى، وفرَّقوا فيه القول، إلا من بعد ما جاءهم العلمُ بأنَّ الله إلهٌ واحد، وأنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُه[٥].

و«بَغْياً» نصب على المفعول من أجله، أو على الحال من «الذين». والله تعالى أعلم[٦].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ﴾ أي: جادلوك بالأقاويل المزوَّرة والمغالَطات، فأسْنِدْ أمرَك إلى ما كُلِّفتَ من الإيمان والتَّبليغ، وعلى الله نصرُك[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤١٣ ، وأخرج قول ابن عمر رضي الله عنهما الطبري ٦/ ٢٧٧ .

(٢) في معاني القرآن ١/ ٤٠١ ، وذكره الزجاج في معاني القرآن ١/ ٣٨٧ ، والنحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٦٢

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤١٣ ، وأخرج قولي محمد بن جعفر بن الزبير والربيع بن أنس الطبريُّ ٦/ ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٤) في (د): الكتاب.

(٥) انظر تفسير البغوي ١/ ٢٨٧ .

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤١٣ .

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٤١٣ - ٤١٤ .

وقوله: «وَجْهِي» بمعنى ذاتي، ومنه الحديث: «سجد وجهي للَّذي خلقَه وصوَّره»[١].

وقيل: الوَجْهُ هنا بمعنى القَصْد، كما تقول: خرج فلانٌ في وجه كذا. وقد تقدَّم هذا المعنى في البقرة مستوفىً[٢]، والأوَّل أَوْلى. وعبَّر بالوجه عن سائر الذَّات؛ إذ هو أشرفُ أعضاء الشَّخص وأجمعُها للحواسِّ[٣]. وقال[٤]:

أسلمتُ وجهِي لمَنْ أسلَمَتْ ... له المُزْنُ تحمِلُ عَذْباً زُلالا

وقد قال حُذَّاق المتكلِّمين في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]: إنها عبارةٌ عن الذَّات[٥].

وقيل: العملُ الذي يُقصَدُ به وجهُه[٦].

وقوله: «ومَنِ اتَّبَعَنِ»؛ «من» في محلِّ رفعٍ عطفاً على التّاء في قوله: «أَسْلَمْتُ» أي: ومنِ اتَّبعنِ أسلمَ أيضاً، وجاز العطفُ على الضَّمير المرفوع من غير تأكيدٍ للفصل بينهما.

وأثبت نافع وأبو عمرو ويعقوب ياء «اتَّبعنِ» على الأصل، وحذف الآخرون اتّباعاً للمصحف، إذ وقعت فيه بغير ياء[٧]. وقال الشاعر:

ليس تَخفَى يَسارَتي قَدْرَ يومٍ ... ولقد تُخْفِ شيمتي إعساري[٨]

---

(١) أخرجه أحمد (٧٢٩)، ومسلم (٧٧١) من حديث علي ﷺ مطولاً في صفة صلاة النبي ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٤٠٢٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) ٢/ ٣١٩.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤١٤.

(٤) زيدُ بن عمرو بن نُفيل، والبيت في سيرة ابن هشام ١/ ٢٣١، والمعارف ص٥٩، وتأويل مشكل القرآن ص٣٦٦ كلاهما لابن قتيبة، وتفسير الطبري ٢/ ٥١١، والأغاني ٣/ ١٢٨.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤١٤.

(٦) الذي عليه السَّلَف رضي الله عنهم إثبات صفة الوجه لله تعالى على ما يليق به، من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل.

(٧) تفسير البغوي ١/ ٢٨٧، وأثبتها نافع وأبو عمرو وصلاً، انظر السبعة ص٢٢٢ - ٢٢٣، والتيسير ص٩٣، وأثبتها يعقوب وصلاً ووقفاً، انظر النشر ٢/ ٢٤٧.

(٨) البيت في ديوان الأدب للفارابي ٣/ ٢٣٤، والصحاح واللسان (يسر)، والإنصاف لابن الأنباري ص٣٨٨

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعني اليهودَ والنَّصارى. «والأمِّيين» الذين لا كتاب لهم، وهم مشركو العرب.

«أأسْلَمْتُمْ» استفهامٌ معناه التَّقرير، وفي ضمنه الأمرُ، أي: أسلموا، كذا قال الطبريُّ[1] وغيره.

وقال الزجاج[2]: «أأسلمتُم» تهديد. وهذا حسن، لأن المعنى: أأسلمتُم أم لا.

وجاءت العبارةُ في قوله: «فَقَدِ اهْتَدَوْا» بالماضي مبالغةً في الإخبار بوقوع الهُدى لهم وتحصيلِه.

و«البلاغ» مصدر بَلَغَ[3]، بتخفيف عينِ الفعل، أي: إنَّما عليك أن تُبلِّغ. وقيل: إنه ممَّا نُسخ بالجهاد. وقال ابن عطيَّة[4]: وهذا يحتاجُ إلى معرفةِ تاريخ نزولها، وأما على ظاهر نزولِ هذه الآيات في وَفْد نَجْران فإنما المعنى: فإنما عليك أن تُبلِّغَ ما أُنزِل إليك بما فيه من قتالٍ وغيره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ قال أبو العبَّاس المبرِّد[5]: كان ناسٌ من بني إسرائيل جاءهم النبيُّون يَدعونَهم إلى الله عزَّ وجلَّ

---

(١) في تفسيره ٦/ ٢٨١ - ٢٨٢.

(٢) في معاني القرآن ١/ ٣٩٠.

(٣) في النسخ: بالغ، والمثبت من (م).

(٤) في المحرر الوجيز ١/ ٤١٤ وما قبله منه، وعنه نقل المصنف كلام الطبري والزجاج.

(٥) كذا قال المصنف رحمه الله، ونقله عنه الشوكاني في فتح القدير ١/ ٣٢٧ - ٣٢٨، والذي في إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٣ وعنه نقل المصنف: أبو العالية، ولم نقف على كلام المبرد في كتبه التي بين أيدينا.

فقَتلوهم، فقام أناسٌ من بعدهم من المؤمنين، فأمَروهم بالإسلام فقتَلوهم، ففيهم نزلت هذه الآية.

وكذلك قال مَعْقِلُ بنُ أبي مسكين: كانت الأنبياءُ صلواتُ الله عليهم تجيءُ إلى بني إسرائيلَ بغير كتاب فيقتلونهم، فيقوم قومٌ ممن اتَّبعهم فيأمرون بالقسط ـ أي: بالعدل ـ فيُقْتَلون(١).

وقد رُوي عن ابن مسعود قال: قال النبيُّ ﷺ: «بئس القومُ قومٌ يقتلون الذين يأمُرون بالقِسْط من الناس، بئس القومُ قومٌ لا يأمرون بالمعروف ولا ينهَوْن عن المنكر، بئس القومُ قومٌ يمشي المؤمنُ بينهم بالتَّقيَّة»(٢).

وروى أبو عبيدة بنُ الجرَّاح أن النبيَّ ﷺ قال: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثةً وأربعين نبيّاً من أوَّل النَّهار في ساعةٍ واحدة، فقام مئةُ رجلٍ واثنا عشر رجلاً من عبَّاد بني إسرائيل؛ فأمروا بالمعروف ونَهَوا عن المنكر، فقُتِلوا جميعاً في آخر النَّهار من ذلك اليوم، وهم الذين ذكرهم الله في هذه الآية»(٣). ذكره المهدويُّ وغيرُه.

وروى شعبة عن أبي إسحاق، عن أبي عُبيدة، عن عبد الله قال: كانت بنو إسرائيل تقتُلُ في اليوم سبعين نبيّاً، ثم تقوم سُوقُ بَقْلِهم من آخر النهار(٤).

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٧٥، وأخرجه الطبري ٦/ ٢٨٥، وابن أبي حاتم ٢/ ٦٢١.

(٢) لم نقف عليه بتمامه، وأخرج شطره الأخير ابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٩٤، وفيه سوّار بن مصعب الهمداني، قال ابن عدي: عامة ما يرويه ليس محفوظاً، وهو ضعيف، اهـ. ونقل الذهبي في الميزان ٢/ ٢٤٦ بعد إيراده الحديث عن ابن معين قوله فيه: ليس بشيء، وعن البخاري: منكر الحديث، وعن النسائي: متروك، وعن أبي داود: ليس بثقة.

(٣) النكت والعيون ١/ ٣٨١، وأخرجه الطبري ٦/ ٢٨٥ - ٢٨٦، وابن أبي حاتم ٢/ ٦٢٠ - ٦٢١، والبغوي في تفسيره ١/ ٢٨٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٣، وأبو عبيدة ـ وهو عامر بن عبدالله بن مسعود ـ لم يسمع من أبيه كما في المراسيل لابن أبي حاتم ص١٩٦.

وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره (٦٣٦) من طريق شعبة، عن الأعمش، عن إبراهيم النخعي، عن أبي معمر الأزدي، عن ابن مسعود قال: كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاث مئة نبي . . . الخبر، ورجاله ثقات.

فإن قال قائلٌ: الذين وُعِظوا بهذا لم يَقتلوا نبيّاً؟ فالجواب عن هذا أنهم رَضُوا فعلَ من قَتل، فكانوا بمنزلته، وأيضاً فإنهم قاتلوا النبيَّ ﷺ وأصحابَه، وهَمُّوا بقتلِهم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾[1] [الأنفال: ٣٠].

الثانية: دلَّت هذه الآيةُ على أن الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر كان واجباً في الأمم المتقدِّمة، وهو فائدة الرِّسالة وخلافةُ النبوَّة. قال الحسن: قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ أمرَ بالمعروف ونهى عن المنكر، فهو خليفةُ الله في أرضه، وخليفةُ رسوله، وخليفةُ كتابه»[2].

وعن دُرَّةَ بنتِ أبي لهبٍ قالت: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ وهو على المنبر فقال: مَن خيرُ الناس يا رسول الله؟ قال: «آمَرُهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله، وأوصلُهم لِرَحِمِه»[3].

وفي التنزيل: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ ثم قال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٦٧-٧١]. فجعل تعالى الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين، فدلَّ على أن أخصَّ أوصافِ المؤمن الأمْرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، ورأسُها الدعاءُ إلى الإسلام والقتالُ عليه. ثم إن الأمرَ بالمعروف لا يليقُ بكلِّ أحد، وإنما يقومُ به السلطان، إذْ كانت إقامةُ الحدود إليه، والتَّعْزِيرُ[موكَلٌ] إلى رأيه، والحبسُ والإطلاقُ له، والنفيُ والتَّغريبُ، فينصِبُ في كلِّ بلدة رجلاً صالحاً قوياً عالماً أمِيناً ويأمره بذلك، ويُمضِي الحدودَ على وجهها من غير زيادة. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [الحج: ٤١][4].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٧٥ - ٣٧٦.

(٢) لم نقف عليه من طريق الحسن مرسلاً، كما ذكره المصنف، وأخرجه ابن عدي ٦/ ٢١٠٤ من حديث عبادة بن الصامت، وفي إسناده كادح العُرني، قال ابن عدي: وأحاديثه عامة ما يرويه غير محفوظة ولا يتابع عليه في أسانيده ولا متونه.

(٣) لفظ: لرحمه، من (م)، والحديث أخرجه أحمد (٢٧٤٣٤)، وإسناده ضعيف.

(٤) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٣/ ٢١٦ وما بين حاصرتين منه.

الثالثة: وليس من شرط النَّاهي أن يكون عَدْلاً عند أهل السنَّة، خلافاً للمبتدِعة حيث تقول: لا يُغيِّره إلا عَدْل. وهذا ساقط؛ فإن العدالة محصورةٌ في القليل من الخَلْق، والأمْرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر عامٌّ في جميع الناس. فإن تشبَّثوا بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣] ونحوِه، قيل لهم: إنما وقع الذمُّ ها هنا على ارتكاب ما نَهَى عنه، لا على نَهْيه عن المنكر. ولا شكَّ في أن النَّهيَ عنه ممن يأتيه أقبحُ ممن لا يأتيه[١]، ولذلك يدور في جهنَّم كما يدور الحمار بالرَّحى، كما بيَّنَّاه في البقرة عند قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾[٢].

الرابعة: أجمعَ المسلمون ـ فيما ذكر ابنُ عبد البَرّ[٣] ـ أن المنكَر واجبٌ تغييرُه على كلِّ مَن قَدَر عليه، وأنه إذا لم يلحقْه بتغييره إلّا اللَّومُ الذي لا يتعدَّى إلى الأذى؛ فإن ذلك لا يَجب أن يمنعَه من تغييره [بيده]، فإن لم يقدِر فبلسانه، فإن لم يقدِرفبقلبه، ليس عليه أكثرُ من ذلك. وإذا أنكر بقلبه فقد أدَّى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك.

قال: والأحاديثُ عن النبيِّ ﷺ في تأكيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرةٌ جداً، ولكنها مقيَّدةٌ بالاستطاعة.

قال الحسن: إنما يُكَلَّم مؤمنٌ يُرجَى، أو جاهلٌ يُعلَّم، فأمَّا مَنْ وضعَ سيفَه أو سَوطَه وقال: اتَّقِني اتَّقِني[٤]، فما لك وله؟!

وقال ابنُ مسعود: بِحسْبِ المرء إذا رأى منكراً لا يستطيعُ تغييرَه أن يَعلم الله من قلبه أنه له كارهٌ.

وروى ابنُ لَهِيعَةَ عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحِلُّ لمؤمن أن يُذِلَّ نفسَه». قالوا: يا رسول الله، وما إذلالُه نفسَه؟ قال: «يتعرَّض من

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٦٦ .

(٢) ٢/ ٥٧ - ٥٨ .

(٣) في التمهيد ٢٣/ ٢٨١ - ٢٨٤ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في النسخ الخطية: اتقي اتقي، والمثبت من (م) والتمهيد ٢٣/ ٢٨٣ .

البلاء لِما يقومُ له»[١].

قلت: وخرَّجه ابنُ ماجه عن عليِّ بن زيد بن جُدْعان، عن الحسن، عن جُندب[٢]، عن حُذيفةَ، عن النبيِّ ﷺ، وكلاهما قد تُكُلِّم فيه.

ورُوي عن بعض الصحابة أنه قال: إن الرَّجلَ إذا رأى مُنكراً لا يستطيع النَّكيرَ عليه فليقل ثلاث مرات: اللّهم إن هذا منكر، فإذا قال ذلك؛ فقد فعل ما عليه.

وزعم ابن العربي[٣] أن مَن رجا زوالَه، وخاف على نفسه من تغييره الضَّربَ أو القتلَ، جاز له عند أكثر العلماء الاقتحامُ عند هذا الغَرَر، وإن لم يَرْجُ زوالَه فأيُّ فائدةٍ عنده. قال: والذي عندي أن النيَّة إذا خَلَصت[٤] فليقتحمْ كيف ما كان ولا يُبالي.

قلت: هذا خلافُ ما ذكره أبو عمر من الإجماع، وهذه الآية تدلُّ على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع خوفِ القتلِ، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان:١٧]، وهذا إشارةٌ إلى الإذاية.

الخامسة: روى الأئمة[٥] عن أبي سعيد الخدريِّ قال: سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول: «مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّرْهُ بيده، فإن لم يَستطعْ فبلسانه، فإن لم يَسْتطِعْ فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان».

قال العلماء: الأمرُ بالمعروف باليد على الأُمراء، وباللّسان على العلماء،

---

(١) التمهيد ٢٣/ ٢٨٤ و ٢٤/ ٣١٣ - ٣١٤ ، وروايته من طريق عبدالله بن أبي حسان (ولم نعرفه) عن ابن لهيعة، وابن لهيعة خلَّط بعد احتراق كتبه، ولم يُذكر ابنُ أبي حسان هذا من الذين رَوَوْا عنه قبل احتراق كتبه.

(٢) في النسخ: عن الحسن بن جندب، وهو خطأ، والحديث في سنن ابن ماجه (٤٠١٦). وعلي بن زيد ابن جُدعان ضعيف، وهو في مسند أحمد (٢٣٤٤٤).

ورواه عبد الرزاق (٢٠٧٢١) عن الحسن وقتادة مرسلاً، ورواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٨٢١) عن الحسن مرسلاً.

(٣) في أحكام القرآن ١/ ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٤) في النسخ الخطية: حصلت، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

(٥) أحمد (١١٠٧٣) ، ومسلم (٤٩) ، وأبو داود (١١٤٠) و(٤٣٤٠) ، والترمذي (٢١٧٢) ، والنسائي ٨/ ١١٢ ، وابن ماجه (١٢٧٥) و(٤٠١٣).

وبالقلب على الضُّعفاء، يعني لعوامِّ الناس. فالمنكر إذا أمكَنَ[(١)] إزالتُه باللسان للنَّاهِي فليفعلْه، وإن لم يُمكنْه إلا بالعقوبة أو القتل فلْيفعلْ، فإن زالَ بدون القتلِ لم يَجُزِ القَتْلُ، وهذا تُلُقِّي من قول الله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات:٩]. وعليه بنى العلماء أنه إذا دفع الصَّائلَ على النَّفس أو على المال عن نفسه، أو عن ماله، أو نفْسِ غيره، فله ذلك، ولا شيءَ عليه.

ولو رأى زيد عَمْراً وقد قصد مالَ بكرٍ، فيجب عليه أن يدفعه عنه إذا لم يكن صاحبُ المال قادراً عليه ولا راضياً به، حتى لقد قال العلماء: لو فَرَضْنا قَوَداً[(٢)].

وقيل: كلُّ بلدة يكون فيها أربعةٌ فأهلُها معصومون من البلاء: إمامٌ عادلٌ لا يَظلِم، وعالِمٌ على سبيل الهُدى، ومشايخُ يأمرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكر، ويُحرِّضون على طلب العلم والقرآن، ونساؤهم مستورات لا يَتبرَّجْنَ تبرُّجَ الجاهلية الأولى.

السادسة: روى أنس بنُ مالك قال: قيل: يا رسول الله، متى نترك[(٣)] الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلَكم». قلنا: يا رسول الله، وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: «المُلْكُ في صِغاركم، والفاحشةُ في كِباركم، والعلمُ في رُذَالتكم».

قال زيد: تفسير معنى قولِ النبيِّ ﷺ: «والعلمُ في رُذَالتكم» إذا كان العلمُ في الفُسَّاق. خرَّجه ابنُ ماجه[(٤)].

وسيأتي لهذا الباب مزيدُ بيان في «المائدة»[(٥)] وغيرها إن شاء الله تعالى. وتقدَّم معنى «فَبَشِّرْهُم» و«حَبِطَتْ» في البقرة[(٦)] فلا معنى للإعادة.

---

(١) في (م): يعني عوامَّ الناس، فالمنكر إذا أمكنت.

(٢) كذا في النسخ الخطية و(م).

(٣) في النسخ الخطية: يترك، والمثبت من (م)، وهو الموافق لمصدر الحديث.

(٤) في سننه (٤٠١٥)، وزيد: هو ابن يحيى بن عُبيد الخُزاعي، أحد رجال الإسناد.

(٥) في تفسير الآية (٧٩) منها.

(٦) ١/٣٥٨ و٣/٤٢٨.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى: قال ابن عباس: هذه الآيةُ نزلت بسبب أنَّ رسول اللّه ﷺ دخل بيت المِدْرَاس على جماعةٍ من يهود، فدعاهم إلى اللّه، فقال له نُعَيم بن عمرو والحارثُ ابنُ زيد: على أيِّ دينٍ أنت يا محمد؟ فقال النبيُّ ﷺ: «أنا[(١)] على مِلَّة إبراهيم». فقالا: فإن إبراهيم كان يهوديّاً. فقال النبيُّ ﷺ: «فهلُمّوا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم». فأبيا عليه، فنزلت الآية[(٢)].

وذكر النقَّاش أنها نزلت لأن جماعةً من اليهود أنكروا نبوَّة محمد ﷺ، فقال لهم النبيُّ: «هلمُّوا إلى التوراة ففيها صِفتي» فأبَوا[(٣)].

وقرأ الجمهور: «لِيَحْكُمَ»، وقرأ أبو جعفر يزيدُ بن القعقاع: «لِيُحْكَمَ» بضمِّ الياء، والقراءة الأولى أحسن؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩][(٤)].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على وجوب ارتفاع المَدعُوِّ إلى الحاكم؛ لأنه دُعي إلى كتاب اللّه، فإن لم يفعل، كان مخالفاً يتعيَّن عليه الزجرُ بالأدب على قدر المُخالِف والمخالَف[(٥)]. وهذا الحكم جارٍ عندنا بالأندلس وبلادِ المغرب، وليس بالديار المصرية. وهذا الحكم الذي ذكرناه مبيَّن في التنزيل في سورة النور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم مُعْرِضُونَ﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٤٨-٥٠].

---

(١) في (خ) و (م): إني.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤١٥، وأخرجه الطبري ٦/ ٢٨٨ - ٢٨٩، وفي إسناده محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، وهو مجهول، كما في تقريب التهذيب.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤١٦.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٧٦، وقراءة أبي جعفر من العشرة، ينظر النشر ٢/ ٢٢٧ و ٢٣٩.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٦٧.

وأسند الزَّهراوي[١] عن الحسن أن رسول اللّه ﷺ قال: «مَن دعاه خصمُه إلى حاكمٍ من حُكّام المسلمين، فلم يُجب، فهو ظالمٌ، ولا حقَّ له»[٢].

قال ابن العربي[٣]: وهذا حديثٌ باطل. أما قولُه: «فهو ظالم» فكلامٌ صحيح. وأما قوله: «فلا حقَّ له» فلا يصحّ، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق.

قال ابن خُوَيْزمَنداد المالكيّ: واجبٌ على كلِّ من دُعِيَ إلى مجلس الحاكم أن يُجيبَ ما لم يعلم أن الحاكم فاسق، أو يعلم عداوةً بين[٤] المدَّعي والمدَّعَى عليه.

الثالثة: وفيها دليلٌ على أن شرائعَ مَنْ قبلَنا شريعةٌ لنا إلَّا ما علِمنا نسخَه، وأنه يجبُ علينا الحكمُ بشرائع الأنبياء قبلَنا، على ما يأتي بيانُه.

وإنما لا نَقرأ التوراةَ ولا نعمل بما فيها؛ لأن مَن هي في يده غيرُ أمين عليها، وقد غيَّرها وبدَّلها، ولو علمنا أن شيئاً منها لم يتغيَّر ولم يتبدَّل، جاز لنا قراءتُه.

ونحو ذلك رُوِيَ عن عمر حيث قال لكعب: إن كنت تعلمُ أنها التوراةُ التي أنزلها اللّه على موسى بن عمران فاقرأها[٥].

وكان عليه الصلاة والسلام عالماً بما لم يغيَّر منها، فلذلك دعاهم إليها وإلى الحُكم بها.

وسيأتي بيانُ هذا في «المائدة»[٦] والأخبار الواردة في ذلك إن شاء اللّه تعالى. وقد قيل: إن هذه الآية نزلت في ذلك. واللّه أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

إشارةٌ إلى التَّولِّي والإعراض، واغترارٌ منهم في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾

(١) في (د) و (م): الزهري، والمثبت من (خ) و (ظ)، وسيرد أيضاً ١٢/ ٢٩٤ (الطبعة المصرية)، والزهراوي هو عمر بن عبيد الله.

(٢) أخرجه أبو داود في المراسيل (٣٩١)، والجصاص في أحكام القرآن ٣/ ٣٢٩، والدارقطني ٤/ ٢١٤، والبيهقي ١٠/ ١٤٠ وقال: هذا مرسل.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٧٩.

(٤) في (م): من.

(٥) التمهيد ١٤/ ٣٨٧.

(٦) في تفسير الآية (٤١) منها.

[المائدة:١٨]، إلى غير ذلك من أقوالهم(١). وقد مضى الكلامُ في معنى قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ في البقرة(٢).

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

خطابٌ للنبيِّ ﷺ وأمَّتِه على جهةِ التَّوقيفِ والتعجُّب، أي: فكيف يكون حالُهم، أو كيف يصنعون إذا حُشروا يومَ القيامة واضمحلَّت عنهم تلك الزخارفُ التي ادَّعَوْها في الدنيا، وجُوْزُوا بما اكتسبوه من كفرهم واجترائهم وقبيحِ أعمالهم(٣).

واللام في قوله: «ليوم» بمعنى «في»، قاله الكسائيُّ. وقال البصريُّون: المعنى: لحساب يوم(٤). الطبريّ: لِما يَحدث في يوم(٥).

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

قال عليٌّ ﷺ: قال النبيُّ ﷺ: «لمَّا أرادَ اللّه تعالى أن يُنزلَ فاتحةَ الكتاب، وآيةَ الكُرسيّ، وشهد اللّه، وقل اللّهمَّ مالك الملك، إلى قوله: بغير حساب؛ تعلَّقنَ بالعرش، وليس بينهنَّ وبين اللّه حجابٌ، وقلن: يا ربّ تهبط بنا إلى دار الذّنوب، وإلى مَن يعصيك، فقال اللّه تعالى: وعزَّتي وجلالي، لا يقرأُكنَّ عبدٌ عَقِبَ كلِّ صلاةٍ مكتوبة إلّا أسكنتُه حظيرةَ القُدس على ما كان منه، وإلّا نظرتُ إليه بعيني المكنونة في كلِّ يوم سبعين نظرة، وإلا قضيتُ له في كلِّ يوم سبعين حاجةً، أدناها المغفرة، وإلا

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤١٦ .

(٢) ٢/ ٢٢٤ .

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤١٦ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٤ .

(٥) تفسير الطبري ٦/ ٢٩٤ .

أعذتُه من كلِّ عدوٍّ ونصرتُه عليه، ولا يمنعُه من دُخول الجنة إلا أن يموت»[١].

وقال معاذ بنُ جبل: احتبستُ عن النبيِّ ﷺ يوماً، فلم أصلِّ معه الجمعة، فقال: «يا معاذ، ما منعك من صلاة الجمعة؟» قلت: يا رسول الله، كان ليوحنّا بن بارِيا اليهودي عليَّ أوقِيَّة من تِبر، وكان على بابي يرصُدني، فأشفقتُ أن يحبِسني دونك. قال: «أتحبُّ يا معاذُ أنْ يقضيَ الله دَينَك؟» قلت: نعم. قال: «قل كلَّ يوم: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ، إلى قوله: بِغَيْرِ حِسَابٍ، رحمانَ الدُّنيا والآخرة ورحيمَهما، تُعطي منهما مَن تشاء، وتمنعُ منهما مَن تشاء، اقْضِ عنّي دَيني. فلو كان عليك مِلْءُ الأرض ذهباً لأدَّاه الله عنك»[٢].

خرَّجه أبو نعيم الحافظ أيضاً[٣] عن عَطاء الخُراسانيِّ أنَّ معاذَ بنَ جبل قال: علَّمَني رسولُ الله ﷺ آياتٍ من القرآن وكلماتٍ، ما في الأرض مسلمٌ يدعو بهنَّ وهو مكروبٌ، أو غارِمٌ أو ذو دَيْن، إلا قضى الله عنه، وفرَّج همَّه، احتبسْتُ عن النبيِّ ﷺ، فذكره. غريبٌ من حديث عطاء، أرسله عن معاذ.

وقال ابن عباس وأنس بن مالك: لما افتتحَ رسولُ الله ﷺ مكَّةَ، وواعدَ أمَّته مُلْكَ فارسَ والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات! من أين لمحمد مُلْكُ فارسَ والروم؟! هم أعزُّ وأمنعُ من ذلك، ألم يكفِ محمداً مكةُ والمدينةُ حتى طمِع في مُلْك فارس والروم؟! فأنزل الله تعالى هذه الآية[٤].

وقيل: نزلت دامغةً لباطل نصارى أهل نَجران في قولهم: إن عيسى هو الله، وذلك أن هذه الأوصافَ تبيِّن لكلِّ صحيح الفطرةِ أنَّ عيسى ليس في شيءٍ منها[٥].

---

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١٢٥)، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٤٢٧، والواحدي في الوسيط ١/ ٤٢٦، وابن الجوزي في الموضوعات (٢٥٣) وقال: هذا حديث موضوع، تفرد به الحارث بن عُمير، وأورده ابن حبان في المجروحين ١/ ٢٢٣ وقال: موضوع لا أصل له.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٠/ (٣٢٣) و(٣٣٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٨٦: في الراوية الأولى نصر بن مرزوق، ولم أعرفه، وسعيد بن المسيب لم يسمع من معاذ، وفي الرواية الثانية من لم أعرفه.

(٣) في حلية الأولياء ٥/ ٢٠٤. وعطاء الخراساني لم يسمع من معاذ. انظر تهذيب التهذيب ٣/ ١٠٨ - ١٠٩

(٤) أسباب النزول للواحدي ص٩٣، وتفسير البغوي ١/ ٢٨٩ - ٢٩٠، ولم نقف له على إسناد.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤١٦.

قال ابن إسحاق: أعلمَ اللّه عزَّ وجلَّ في هذه الآية بعنادِهم وكُفرهم، وأن عيسى ﷺ وإن كان اللّه تعالى أعطاه آياتٍ تدلُّ على نُبوَّته من إحياء الموتى وغير ذلك؛ فإن اللّه عزَّ وجلَّ هو المنفردُ بهذه الأشياء، من قوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فلو كان عيسى إلهاً، كان هذا إليه، فكان في ذلك اعتبارٌ وآيةٌ بيِّنة[1].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ اختلف النحويُّون في تركيب لفظة «اللّهمَّ» بعد إجماعهم أنها مضمومةُ الهاء مشدَّدةُ الميم المفتوحة، وأنَّها منادى[2]، وقد جاءت مخفَّفَة الميم في قول الأعشى:

كَدَعْوَةٍ مِنْ أبي رِياحِ يَسْمَعُها اللَّهُمُ الكُبَارُ[3]

قال الخليل وسيبويه[4] وجميعُ البصريِّين: إن أصل اللّهم: يا اللّه، فلما استُعملت الكلمةُ دون حرف النداء الذي هو «يا» جعلوا بدلَه هذه الميم المشدَّدة، فجاؤوا بحرفين، وهما الميمان عِوضاً من حرفين، وهما الياء والألف، والضمَّة في الهاء هي ضمَّةُ الاسم المنادى المفرد.

وذهب الفرَّاء والكوفيُّون[5] إلى أن الأصل في اللَّهم: يا اللّه أُمَّنا بخير، فحذف وخلط الكلمتين، وأنَّ الضمَّةَ التي في الهاء هي الضمةُ التي كانت في أُمَّنا؛ لما حُذفت الهمزةُ انتقلت الحركة[6].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٥ .

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤١٧ .

(٣) ديوان الأعشى ص٣٣٣ وروايته: يسمعها لاهُهُ الكُبار، وتفسير الطبري ٦/ ٢٩٨ ، وخزانة الأدب ٢/ ٢٦٦ .
قال البغدادي: أبو رياح: رجل من بني ضُبيعة، وهو حصن بن عمرو بن بدر، وكان قتل رجلاً من بني سعد ابن ثعلبة، فسألوه أن يحلف أو يعطي الدِّيَة، فحلفَ ثم قُتل بعد حلفته، فضربته العرب مثلاً لما لا يغني من الحلف. والكُبار، بضم الكاف وتخفيف الموحدة: صيغة مبالغة الكبير، بمعنى العظيم.

(٤) الكتاب ١/ ٢٥ و ٢/ ١٩٦ .

(٥) معاني القرآن ١/ ٢٠٣ ، والزاهر لابن الأنباري ١/ ٥١ .

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤١٧ وعنه نقل المصنف قول الخليل وسيبويه والفراء.

قال النحاس[١]: هذا عند البصريِّين من الخطأ العظيم، والقولُ في هذا ماقاله الخليلُ وسيبويه.

قال الزجّاج[٢]: مُحالٌ أن يُترك الضمُّ الذي هو دليلٌ على النِّداء المفرَد، وأن يُجعل في اسم اللّه ضمَّةُ أُمَّ، هذا إلحادٌ في اسم اللّه تعالى.

قال ابن عطية[٣]: وهذا غلوٌّ من الزجَّاج، وزَعَم أنه ما سُمع قطّ: يا اللّه أُمَّ، ولا تقولُ العرب: يا اللّهمَّ.

وقال الكوفيُّون: إنه قد يَدخل حرفُ النّداء على «اللَّهُمَّ»، وأنشدوا على ذلك قول الرَّاجز:

غـفـرْتَ أو عَـذَّبْـتَ يـا الـلّـهـمـا[٤]

آخر:

ومـا عـلـيـكِ أن تـقـولِـي كـلَّـمـا ... سبَّحْتِ أو هَلَّلتِ يا اللّهُمَّ ما[٥]

أُرْدُدْ عـلـيـنـا شـيـخَـنـا مُـسَـلَّـمـا ... فـإنَّـنـا مـن خَـيـرِهِ لـن نُـعْـدَمـا[٦]

آخر:

إنِّـي إذا مـا حَـدَثٌ أَلَـمَّـا ... أقـولُ يـا الـلَّـهـمَّ يـا الـلَّـهـمَّـا[٧]

---

(١) في إعراب القرآن ١/ ٣٦٤ .

(٢) في معاني القرآن ١/ ٣٩٣ .

(٣) في المحرر الوجيز ١/ ٤١٧ .

(٤) البيت في الصحاح (ليه)، والإنصاف لابن الأنباري ١/ ٣٤٣ .

(٥) في (ظ): يا اللهمَّا، والمثبت من باقي النسخ، وذكر البغدادي في الخزانة ٢/ ٢٩٦ أن الزجّاجي أنشده على أن «ما» تزاد قليلاً بعد «يا اللهمّ» .

(٦) الرجز في معاني القرآن للفراء ١/ ٢٠٣ ، وتفسير الطبري ٦/ ٢٩٧ ، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٣٩٤ ، والزاهر لابن الأنباري ١/ ٥١ ، والجمل للزجاجي ص١٦٥ ، وتهذيب اللغة ٦/ ٤٢٦ ، والإنصاف ١/ ٣٤٢ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤١٧ ، وخزانة الأدب ٢/ ٢٩٦ على اختلاف في بعض ألفاظه، ورواية الطبري: يا اللهما.

(٧) الرجز في نوادر أبي زيد ص١٦٥ ، والزاهر لابن الأنباري ١/ ٥١ ، وسر صناعة الإعراب لابن جني ١/ ٤١٩ و ٤٣٠ ، وتهذيب اللغة ٦/ ٤٢٦ ، وشرح المفصل ٢/ ١٦ ، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٣٤٠ ، والإنصاف ١/ ٣٤١ ، والخزانة ٢/ ٢٩٥ .

قالوا: فلو كانت الميمُ عوضاً من حرف النِّداء لما اجتمعا.

قال الزجَّاج[١]: وهذا شاذٌّ لا يُعرف قائلُه، ولا يترك له ما في[٢] كتاب اللّه، وفي جميع دِيوان العرب، وقد ورد مثلُه في قوله:

هما نفثَا في فيَّ من فَمَوَيْهِما ... على النَّابِح العَاوِي أشَدَّ رِجَامِ[٣]

قال الكوفيُّون: وإنما تُزاد الميمُ مخفَّفةً في فَم وابْنِم، وأما ميم مشدَّدة فلا تُزاد[٤].

وقال بعض النحويِّين: ما قاله الكوفيُّون خطأ، لأنه لو كان كما قالوا، لكان يجب أن يُقال: «اللّهم»، ويُقتصر عليه؛ لأنه معه دعاء. وأيضاً[٥] فقد تقول: أنت اللّهم الرزَّاق. فلو كان كما ادَّعَوْا؛ لكنتَ قد فصلتَ بجملتين بين الابتداء والخبر.

وقال النَّضْرُ بنُ شُمَيْل: من قال: اللَّهم، فقد دعا اللّه تعالى بجميع أسمائه كلِّها. وقال الحسن: «اللّهم» تجمعُ الدعاء[٦].

قوله تعالى: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ قال قتادة: بلغني أن النبيَّ ﷺ سأل اللّه عزَّ وجلَّ أن يُعطِيَ أمَّته مُلْكَ فارس، فأنزل الله هذه الآية[٧].

وقال مقاتل: سأل النبيُّ ﷺ أن يجعلَ اللّه له مُلْكَ فارس والروم في أمَّته، فعلَّمه

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٣٩٤.

(٢) في (م): ما كان في.

(٣) قائله الفرزدق، والبيت في ديوانه ص٧٧١ وفيه: تفلا ... لجام، والكتاب ٣/ ٣٦٤ و ٦٢٢، والخزانة ٤/ ٤٦٠. قوله: هما نفثا: ضمير التثنية راجع إلى إبليس وابنه، ونفثا: ألقيا على لساني، والنابح: أراد به من يتعرض للهجوم والسبّ من الشعراء، وأصله في الكلب، ومثله العاوي، والرِّجام: مصدر راجمه بالحجارة، أي: راماه، جعل الهجاء كالمراجمة لجعْلِه كالكلب النابح. قاله البغدادي في الخزانة، وذكر أن الشاهد في البيت هو الجمع بين البدل والمبدل منه، وهما الميم والواو.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤١٧ وعنه نقل المصنف قول الزجاج.

(٥) في (ظ): لأنه معه دعاء، ودليله ما تقدم من قول بعضهم: إني ما حدث ألمَّا أقول يا اللهم يا اللهما، إلى غير ذلك مما جاء في كلام العرب المقتدى بأقوالهم في اللغة، وأيضاً...

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤١٧.

(٧) أخرجه الطبري ٦/ ٣٠٠.

اللّه تعالى بأن يدعوَ بهذا الدعاء[١]. وقد تقدَّم معناه.

و «مالك» منصوبٌ عند سيبويه على أنَّه نداءٌ ثان، ومثله قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٤٦]، ولا يجوز عنده أن يُوصف اللّهم؛ لأنه قد ضُمَّت إليه الميم[٢]. وخالفه محمد بنُ يزيد وإبراهيم بن السَّريّ الزجَّاج فقالا[٣]: «مالِك» في الإعراب صفةٌ لاسم اللّه تعالى، وكذلك ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قال أبو علي: وهو مذهبُ أبي العباس المبرِّد، وما قاله سيبويه أصْوَبُ وأبْيَنُ؛ وذلك أنه ليس في الأسماء الموصوفة شيءٌ على حدِّ «اللّهم»؛ لأنه اسمٌ مفرَدٌ ضُمَّ إليه صوت، والأصوات لا تُوصف، نحو: غَاقْ، وما أشبهه. وكان حكم الاسم المفرَد ألّا يوصَف، وإن كانوا قد وصفوه في مواضِعَ، فلما ضُمَّ هنا ما لا يُوصَف إلى ما كان قياسُه ألَّا يوصَف، صار بمنزلة صوتٍ ضُمَّ إلى صوت، نحو: حَيَّهل، فلم يُوصَف[٤].

و﴿ٱلْمُلْكِ﴾ هنا النبوَّةُ، عن مجاهد. وقيل: الغَلَبةُ. وقيل: المالُ والعبيدُ[٥]. الزجَّاج[٦]: المعنى: مالك العباد وما مَلَكُوا. وقيل: المعنى: مالك الدّنيا والآخرة[٧].

ومعنى ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ﴾ أي: الإيمانَ والإسلامَ. ﴿مَن تَشَآءُ﴾ أي: مَن تشاء أن تُؤتِيَه إياه، وكذلك ما بعدَه، ولا بدّ فيه من تقدير الحذف، أي: وتَنزِعُ المُلْكَ ممَّن تشاءُ أن تَنْزِعَه منه، ثم حُذف هذا، وأنشد سيبويه[٨]:

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٢٥٧ ، وينظر العُجاب لابن حجر ٢/ ٦٧٥ .

(٢) الكتاب ٢/ ١٩٦ - ١٩٧ .

(٣) في النسخ الخطية: وإبراهيم بن السري والزجَّاج فقالوا، وهو خطأ، فالزجَّاج هو إبراهيم بن السَّريّ. وكلام محمد بن يزيد (وهو المبرد) في المقتضب ٤/ ٢٣٩ ، وكلام الزجَّاج في معاني القرآن ١/ ٣٩٤ ، وقد نقلهما المصنف مع كلام سيبويه عن إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٥ .

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤١٧ ، وعنه نقل المصنف كلام أبي علي، ولم نقف عليه.

(٥) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٧٨ ، وأخرج أثر مجاهد الطبري ٦/ ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٦) معاني القرآن ١/ ٣٩٢ .

(٧) النكت والعيون ١/ ٣٨٣ وعنه نقل المصنف كلام الزجاج.

(٨) في الكتاب ٢/ ٢٤٦ و ٣/ ٦٩ ونسب البيت للأسود بن يعفر ، وهو في نوادر أبي زيد ص١٥٩ ، وأمالي ابن الشجري ١/ ١٩٣ .

ألا هل لهذا الدَّهرِ من مُتعلَّلِ على الناس مهما شاء بالناسِ يفعَلِ

قال الزجاج[١]: مهما شاء أن يفعلَ بالناس يفعل.

وقوله: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ يقال: عزَّ إذا غلب[٢]، ومنه ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣].

﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ ذَلَّ يَذِلُّ ذُلّاً؛ إذا غُلِبَ وعُلِيَ[٣] وقُهِر، قال طَرَفة:

بطيءٍ عن الجُلَّى سريعٍ إلى الخَنَا ذليلٍ، بأَجْماع الرِّجال مُلهَّدِ[٤]

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ أي: بيدك الخيرُ والشَّر، فحذف كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، وقيل: خَصَّ الخير؛ لأنه موضعُ دعاء ورَغبة في فضله. قال النقَّاش: بيدك الخير، أي: النَّصرُ والغنيمةُ[٥].

وقال أهلُ الإشارات: كان أبو جهل يملك المالَ الكثير، ووقع في الرَّسِّ يوم بدر، والفقراءُ صُهَيْب وبِلال وخبَّاب لم يكن لهم مال، وكان مُلكهم الإيمان. ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ تقيمُ الرسولَ يتيمَ أبي طالب على رأس الرَّسِّ حتى يُنادِيَ أبداناً قد انقلبت إلى القَلِيب: يا عُتْبَة، يا شَيْبَة. ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ أي صُهَيْبُ، أي بِلالُ، لا تعتقدوا أنَّا منعناكم من الدُّنيا ببغضِكم. ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ ما مَنْعُكم مِن عَجْز ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إنْعامُ الحقِّ عامٌّ يتولَّى من يشاء.

قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسُّدِّيّ في معنى قوله ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي

---

(١) في معاني القرآن له ١/ ٣٩٣، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٣٧٩، وعنه نقل المصنف كلام الزجاج وإنشاد سيبويه.

(٢) في (م): إذا علا وقهر وغلب.

(٣) في (د) و(ظ) و(م): علا، وهو خطأ، والمثبت من (خ).

(٤) معاني القرآن ١/ ٣٧٩ للنحاس. والبيت في ديوان طرفة ص٤٦. قوله: الجُلَّى: الأمر الجليل، والخنا: الفحشاء، يقول: إذا ناب القومَ أمرٌ جليل بطؤ عنه ولم يشارك في دفعه، وإن أحسّ بفساد ودناءة أسرع إلى ذلك ولم يتخلف عنه، والأجماع: جمع جُمْع، وهو قبض الرجل أصابعه، وشدّه إياها للَّكز، والملهّد: المدفّع. قاله الشنتمري في شرح الديوان.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤١٧.

﴿ٱلنَّهَارِ﴾ الآية، أي: تُدخلُ ما نَقصَ من أحدهما في الآخر، حتى يصيرَ النهارُ خمس عشرةَ ساعة، وهو أطولُ مايكون، والليلُ تسعَ ساعات، وهو أقصرُ ما يكون، وكذا ﴿تُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾. وهو قولُ الكلبيِّ، ورُوي عن ابن مسعود[١].

وتحتمل ألفاظُ الآية أن يدخلَ فيها تعاقُبُ الليل والنهار، كأنَّ زوالَ أحدِهما وُلوجٌ في الآخر.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ فقال الحسن: معناه: تُخرج المؤمنَ من الكافر، والكافرَ من المؤمن، ورُويَ نحوُه عن سَلْمَانَ الفارسيّ[٢].

وروى مَعْمَر عن الزُّهريِّ أن النبيَّ ﷺ دخل على نسائه؛ فإذا بامرأةٍ حسنةِ الهيئة، قال: «مَن هذه»؟ قلْن: إحدى خالاتك. قال: «ومن هي»؟ قلن: هي خالدة بنتُ الأسود بنِ عبدِ يغوث. فقال النبيُّ ﷺ: «سبحان الذي يُخرج الحيَّ من الميت». وكانت امرأةً صالحة، وكان أبوها كافراً[٣].

فالمرادُ على هذا القول موتُ قلبِ الكافر وحياةُ قلبِ المؤمن، فالموتُ والحياة مستعاران.

وذهب كثيرٌ من العلماء إلى أن الحياةَ والموتَ في الآية حقيقتان، فقال عِكرمة: هي إخراجُ الدَّجاجة وهي حيَّة من البيضة وهي ميتة، وإخراجُ البيضة وهي ميتة من الدَّجاجة وهي حيَّة.

وقال ابن مسعود: هي النُّطفةُ تَخرجُ من الرجل وهي ميتة وهو حيٌّ، ويَخرج الرجل منها حيّاً وهي ميتة.

وقال عِكرمة والسدّيّ: هي الحبَّةُ تَخرج من السُّنبُلَة، والسُّنبُلَة تَخرج من الحبَّة،

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤١٧، وتفسير أبي الليث ١/ ٢٥٧، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٣٨٠، وأخرج الآثار الطبري ٦/ ٣٠٢ - ٣٠٣، وابن أبي حاتم ٢/ ٦٢٥.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤١٨. وأخرج الطبري القولين ٦/ ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٢٥٨. وأخرجه كذلك عن الزهري مرسلاً عبد الرزاق في تفسيره ١/ ١١٧- ١١٨، وابن سعد في الطبقات ٨/ ٢٤٨، والطبري ٦/ ٣٠٨.

والنَّواةُ من النَّخلة، والنَّخلةُ تَخرج من النَّواة، والحياة في النَّخلة والسُّنبُلَة تشبيه[(١)].

ثم قال: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تضييقٍ ولا تَقتير، كما تقول: فلانٌ يُعطِي بغير حساب، كأنه لا يَحسب ما يُعطي[(٢)].

قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قال ابن عباس: نهى اللّه المؤمنين أن يُلاطفوا الكفارَ فيتَّخِذوهم أولياء[(٣)]، ومثلُه: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨]. وهناك يأتي بيانُ هذا المعنى.

ومعنى ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: فليس من حزب اللّه ولا من أوليائه في شيءٍ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. وحكى سيبويه: هو مِنّي فرسخين، أي: من أصحابي ومعي[(٤)].

ثم استثنى، وهي:

الثانية: فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ قال معاذ بنُ جبل ومجاهد: كانت التَّقِيَّة في جِدَّة الإسلام قبل قُوَّة المسلمين، فأما اليوم فقد أعزَّ اللّه الإسلام، [فليس ينبغي لأهل الإسلام] أن يتَّقوا من عدوِّهم[(٥)].

قال ابن عباس: هو أن يتكلَّمَ بلسانة وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان، ولا يقتلَ ولا يأتيَ مَأْثماً.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤١٨، وأخرج الآثار الطبري ٦/ ٣٠٤ و ٣٠٦، وابن أبي حاتم ٢/ ٦٢٦ - ٦٢٨.

(٢) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٨٢.

(٣) أخرجه الطبري ٦/ ٣١٣.

(٤) الكتاب ١/ ٤١٧ وفيه: أنت مني فرسخين، أي: أنت مني ما دمنا نسير فرسخين، ونقله المصنف عنه بواسطة معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٨٣.

(٥) تفسير البغوي ١/ ٢٩٢ وما بين حاصرتين منه.

وقال الحسن: التَّقيَّةُ جائزةٌ للإنسان إلى يوم القيامة، ولا تقيَّةَ في القتل[١].

وقرأ جابر بن زيد ومجاهد والضحَّاك: «إلَّا أن تَتَّقُوا منهم تَقِيَّةً»[٢].

وقيل: إن المؤمن إذا كان قائماً بين الكفّار؛ فله أن يُدارِيَهم باللسان إذا كان خائفاً على نفسه وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان. والتقيَّة لا تحِلُّ إلا مع خوفِ القتلِ أو القطعِ أو الإيذاءِ العظيم. ومَن أُكره على الكفر؛ فالصحيحُ أنَّ له أن يتصلَّبَ، ولا يجيب إلى التَّلفُّظِ[٣] بكلمة الكفر، بل يجوز له ذلك؛ على ما يأتي بيانُه في «النحل» إن شاء اللّه تعالى[٤].

وأمالَ حمزة والكسائيُّ «تقاة»، وفخَّم الباقون[٥]، وأصلُ «تُقاة»: وُقَيَة على وزن فُعَلَة، مثل تُؤَدَة وتُهَمَة، قُلبت الواو تاءً والياء ألفاً.

وروى الضحَّاك عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عبادةَ بنِ الصامت الأنصاريّ، وكان بدرِياً نقيباً[٦]، وكان له حِلفٌ من اليهود، فلما خرج النبيُّ ﷺ يوم الأحزاب قال عبادة: يا نبيَّ اللّه، إن معي خمسَ مئة رجل من اليهود، وقد رأيتُ أن يخرجوا معي فأستظهرَ بهم على العدوّ، فأنزل اللّه تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية[٧].

وقيل: إنها نزلت في عمار بن ياسِر حين تكلَّم ببعض ما أراد منه المشركون، على ما يأتي بيانُه في «النحل»[٨].

قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ قال الزجَّاج[٩]: أي: ويحذِّرُكم اللّه إياه، ثم

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٨٣ ، وأخرج قول ابن عباس الطبري ٦/ ٣١٥ .

(٢) ذكرها الفراء في معاني القرآن ١/ ٢٠٥ ، والنحاس في معاني القرآن ١/ ٣٨٣ ، والبغوي في تفسيره ١/ ٢٩٢ ، وابن عطية في المحرر ١/ ٤١٩ ، وهي قراءة يعقوب من العشرة . انظر النشر ٢/ ٢٣٩ .

(٣) في (خ) و (ظ): ولا يجب التلفظ.

(٤) في تفسير الآية (١٠٦) منها، وانظر تفسير البغوي ١/ ٢٩٢ .

(٥) السبعة ص٢٠٤ ، والتيسير ص٤٩ .

(٦) في (د) و(ظ) و(م): تقياً، والمثبت من (خ)، وهو الصواب.

(٧) أسباب النزول للواحدي ص٩٦-٩٧ .

(٨) في تفسير الآية (١٠٦) منها.

(٩) في معاني القرآن ١/ ٣٩٧ .

استغْنَوْا عن ذلك بذا، وصار المستعمَل؛ قال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] فمعناه: تعلم ما عندي وما في حقيقتي، ولا أعلم ما عندك ولا ما في حقيقتك.

وقال غيره: المعنى: ويحذِّركم الله عقابَه، مثل ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. وقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ أي: مُغَيَّبي، فجُعلت النفس في موضع الإضمار؛ لأنه فيها يكون[1].

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: وإلى جزاء الله المصيرُ. وفيه إقرارٌ بالبعث.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

فهو العالِمُ بخفيَّات الصُّدورِ وما اشتملت عليه، وبما في السماوات والأرض وما احتوَت عليه، علَّامُ الغُيوب، لا يَعزُب عنه مِثقالُ ذرَّة، ولا يغيبُ عنه شيء، سبحانه لا إله إلا هو، عالمُ الغيب والشهادة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾.

«يوم» منصوبٌ متَّصلٌ بقوله: «ويُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ، يَوْمَ تَجِدُ». وقيل: هو متَّصلٌ بقوله: «وَإِلَى اللّهِ المَصِيرُ، يَوْمَ تَجِدُ»[2]. وقيل: هو متَّصلٌ بقوله: «واللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، يَوْمَ تَجِدُ». ويجوز أن يكون منقطِعاً على إضمار: اذْكُرْ، ومثلُه قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ﴾ [إبراهيم: ٤٧ - ٤٨].

و«مُحْضَراً» حالٌ من الضميرِ المحذوفِ من صلةِ «ما»، تقديرُه: يوم تَجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْهُ من خيرٍ مُحْضَراً[3]. هذا على أن يكون «تَجِدُ» من وُجْدان الضالَّة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٦ وعنه نقل المصنف كلام الزجاج.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٦ .

(٣) مشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ١٥٥ .

و«ما» من قوله ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ عطفٌ على «ما» الأولى. و«تَوَدُّ» في موضع الحال من «ما» الثانية[١].

وإن جعلتَ «تَجِدُ» بمعنى تعلمُ، كان «مُحْضَراً» المفعولَ الثاني، وكذلك تكون «تَوَدُّ» في موضع المفعول الثاني، تقديرُه: يوم تَجدُ كل نفسٍ جزاءَ ما عملت مُحضَراً.

ويجوز أن تكون «ما» الثانية رفعاً بالابتداء، و«تَوَدُّ» في موضع رفعٍ على أنه خبرُ الابتداء، ولا يجوز[٢] أن تكون «ما» بمعنى الجزاء؛ لأن «تَوَدُّ» مرفوع، ولو كان ماضياً لجاز أن يكون جزاءً، وكان يكون معنى الكلام: وما عملت من سُوءٍ وَدَّت لو أنَّ بينها وبينه أمداً بعيداً، أي: كما بين المشرق والمغرب. ولا يكون المستقبل إذا جعلتَ «ما» للشَّرط إلا مجزوماً، إلا أن تحملَه على تقدير حَذْفِ الفاء، على تقدير: وما عملَتْ من سوء فهي تَوَدُّ[٣].

أبو علي: هو قياسُ قولِ الفرَّاء عندي، لأنه قال في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١]: إنه على حذفِ الفاءِ.

والأَمَدُ: الغايةُ، وجمعُه آماد. ويقال: استولى على الأمَد، أي: غَلَبَ سابقاً. قال النابغة[٤]:

إلَّا لِـمـثْـلِـك أو مَـنْ أنـت سـابِـقُـه سبْقَ الجَوادِ إذا استولى على الأمَدِ

والأَمَدُ: الغضب، يقال: أمِدَ أَمَداً، إذا غَضِبَ غَضَباً[٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

الحُبُّ: المحبَّةُ، وكذلك الحِبُّ، بالكسر. والحِبُّ أيضاً الحبيب؛ مثلُ الخِدْن والخَدِين، يقال: أحبَّه فهو مُحَبٌّ، وحَبَّه يَحِبُّه، بالكسر، فهو مَحْبُوب. قال

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٢١ .

(٢) في (م): ولا يصح.

(٣) وضعف هذا الوجه ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٢١ .

(٤) ديوانه ص٣٣ .

(٥) الصحاح (أمد).

الجوهري[١]: وهذا شاذٌّ؛ لأنه لا يأتي في المُضاعَفِ يَفْعِل بالكسر.

قال أبو الفتح: والأصل فيه حَبُب كظَرُف، فأُسكِنت الباء وأُدغِمت في الثانية.

قال ابنُ الدَّهَّان سعيد[٢]: في حَبَّ لُغتان: حَبَّ وأَحَبَّ، وأصل «حَبَّ» في هذا البناء: حَبُبَ، كَظُرفَ، يدل على ذلك قولُهم: حَبُبْت، وأكثر ما ورد فَعيل من فَعُل.

قال أبو الفتح: والدّلالة على أَحَبَّ قولُه تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] بضمِّ الياء، و﴿اتَّبِعوني يُحبِبْكُم الله﴾. و«حَبَّ» يَرِدُ على فَعُلَ، لقولهم: حَبِيب، وعلى فَعِلَ، لقولهم[٣]: محبوب. ولم يَرِد اسمُ الفاعل من حَبَّ، المتعدِّي، فلا يقال: أنا حَابٌّ. ولم يَرِد اسمُ المفعول من أَفْعَلَ إلّا قليلاً، كقوله:

مِنِّي بِمنزلةِ المُحَبِّ المُكْرَمِ[٤]

وحكى أبو زيد: حَبَبْتُه أحبُّه[٥]. وأنشد:

فواللّهِ لولا تَمْرُهُ ما حَبَبْتُهُ ... ولا كان أدْنى من عُوَيْفٍ وهاشِمِ[٦]

وأنشد:

لعَمْرُكَ إنَّني وطِلَابَ مِصْرٍ ... لَكَالمُزْدادِ مِمَّا حَبَّ بُعْدَا[٧]

---

(١) الصحاح (حبب) وما قبله منه.

(٢) ابن المبارك، أبو محمد، البغدادي النحوي، له شرح الإيضاح لأبي علي في ثلاثة وأربعين مجلداً، وشرح اللُّمَع لابن جني، توفي سنة (٥٩٦هـ). سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٨١.

(٣) في (د) و(ظ) و(م): كقولهم، وكذلك وقعت اللفظة الأخرى في (د) و(ظ).

(٤) صدره: ولقد نزلتِ فلا تظنّي غيرَه، وهو لعنترة في ديوانه ص١٦.

(٥) لم نقف على كلامه في النوادر، ولا مَن ذكره عنه.

(٦) البيت لغَيْلان بن شجاع النهشلي، وهو في الاشتقاق لابن دريد ص٣٨ برواية: من عُمَيرٍ وسالمِ، والكامل للمبرد ص ٤٣٨ برواية: وكان عياضٌ منه أدنى ومُشرِقُ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٨، والخصائص ٢/ ٢٢٠، وتهذيب اللغة ٤/ ٨، وشرح القصائد السبع ص٣٠١، والزاهر ١/ ٣٣١، والمخصص ١٢/ ٢٤٢ و ١٤/ ١٧٦، وشرح المفصل لابن يعيش ٧/ ١٣٨، واللسان (حبب)، وشرح شواهد المغني ٦/ ١١٦، وخزانة الأدب ٩/ ٤٢٩، وروايته فيها: من عُبَيْدٍ ومُشرِقِ. قال البغدادي: وعُبَيد ومُشرِق: ابنا الشاعر.

(٧) البيت في الكامل ص٤٣٧، والاقتضاب لابن السيد البطليوسي ص٢٨٣، وشرح أبيات المغني ٦/ ١١٧ دون نسبة.

وحكى الأصمعيُّ فَتْحَ حرفِ المُضارعة مع الياء وحدَها.

والحُبُّ: الخابية، فارسيٌّ مُعرَّب، والجمع حِبَاب وحِبَبَةٌ، حكاه الجوهريُّ(١).

والآية نزلت في وفد نَجران إذْ زعموا أن ما ادَّعَوْه في عيسى حُبٌّ للّه عزَّ وجلَّ، قاله محمد بن جعفر بن الزبير.

وقال الحسن وابن جُريج: نزلت في قومٍ من أهل الكتاب قالوا: نحن الذين نُحِبُّ ربَّنا.

ورُوي أن المسلمين قالوا: يا رسول اللّه، واللّهِ إنا لنُحِبُّ ربَّنا، فأنزل اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾(٢).

قال ابن عرفة: المحبَّةُ عند العرب إرادةُ الشيءِ على قصدٍ له.

وقال الأزهريُّ: محبةُ العبدِ للّه ورسولِهِ طاعتهُ لهما، واتِّباعُه أمرَهما، قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾. ومحبَّةُ اللّه للعباد إنعامُه عليهم بالغفران(٣)، قال اللّه تعالى: ﴿إنَّ الله لا يحب الكافرين﴾ أي: لا يغفرُ لهم.

وقال سهل بن عبد اللّه: علامةُ حُبِّ اللّه حبُّ القرآن، وعلامةُ حبِّ القرآن حبُّ النبيِّ ﷺ، وعلامةُ حبِّ النبيِّ ﷺ حبُّ السنَّةِ، وعلامةُ حُبِّ اللّه وحبِّ القرآن وحبِّ النبيِّ ﷺ وحبِّ السنَّةِ حبُّ الآخرة، وعلامةُ حبِّ الآخرة أن يُحبَّ نفسَه، وعلامةُ حبِّ نفسِه أن يُبغض الدنيا، وعلامةُ بغضِ الدُّنيا ألَّا يأخذَ منها إلا الزَّادَ والبُلْغَة.

وروى أبو الدَّرداء عن رسول اللّه ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ قال: «على البِرِّ والتَّقوى والتَّواضعِ وذلَّةِ النفس» خرَّجه أبو عبداللّه الترمِذيُّ(٤).

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن أراد أن يُحِبَّه اللّه فعليه بصِدْق الحديث، وأداءِ

(١) في الصحاح (حبب).

(٢) أخرج هذه الآثار الطبري ٦/ ٣٢٤- ٣٢٥، وينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٧.

(٣) الذي عليه السلف رضي الله عنهم أن المغفرة صفة، والمحبة صفة أخرى، ثابتة لله تعالى على الوجه الذي يليق به، من غير مشابهة لمحبة المخلوقين.

(٤) في نوادر الأصول ص٣٥٦ ولم نقف على إسناده.

الأمانة، وألّا يؤذيَ جارَه»[١].

وفي صحيح مسلم[٢] عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال: إني أُحِبُّ فلاناً فأحِبَّه، قال: فيُحِبُّه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إنَّ اللّه يُحِبُّ فلاناً فأحِبُّوه، فيحبُّه أهلُ السماء، قال: ثم يُوضَعُ له القَبولُ في الأرض. وإذا أبغضَ عبداً دعا جبريل فيقول: إني أُبغضُ فلاناً فأبْغِضْه، قال: فيُبغِضُه جبريل، ثم يُنادي في أهل السماء: إن اللّه يُبغِضُ فلاناً فأبْغِضُوه، قال: فيُبغضونَه، ثم تُوضَع له البَغضاءُ في الأرض».

وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في آخر سورة مريم إن شاء اللّه تعالى[٣].

وقرأ أبو رجاء العُطارديُّ: «فاتّبِعُونِي يَحْبُبْكُم» بفتح الياء[٤].

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ عطفٌ على «يُحْبِبْكُم». وروى مَحبوب[٥] عن أبي عمرو بن العلاء أنه أدغم الراءَ من «يغفر» في اللّام من «لكم»[٦]. قال النحاس[٧]: لا يُجيزُ الخليلُ وسيبويه[٨] إدغامَ الرّاء في اللام، وأبو عمرو أجلُّ من أن يَغلَط في مثل هذا، ولعلَّه كان يُخفي الحركةَ كما يفعلُ في أشياءَ كثيرة[٩].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٧ ، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٩٧٤٨) ، ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (٩٥٥١) ضمن حديث.

(٢) برقم (٢٦٣٧) ، وأخرجه أحمد (٧٦٢٥) ، والبخاري (٣٢٠٩) .

(٣) في تفسير الآية (٩٦) منها.

(٤) في النسخ: فاتبعوني بفتح الباء، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٧ ، وذكر قراءة أبي رجاء ابن خالويه في شواذ القراءات ص٢٠ ، وابن عطية في المحرر ١/ ٤٢٢ ، وأبو حيان في البحر ٢/ ٤٣١ .

(٥) هو محمد بن الحسن بن هلال، أبو جعفر البصري، مولى قريش، ولقبه محبوب وهو به أشهر، روى له البخاري مقروناً بغيره والترمذي. تهذيب الكمال ٢٥/ ٧٤ .

(٦) قال ابن الجزري في النشر ٢/ ١٢ - ١٣: أدغم الراء في اللام أبو عمرو من رواية السوسي، واختلف عنه من رواية الدوري، والأكثرون [عنه] على الإدغام، والوجهان صحيحان عن أبي عمرو. وانظر السبعة ص١٢١ ، والتيسير ص٤٤-٤٥ .

(٧) في إعراب القرآن ١/ ٣٦٧ - ٣٦٨ وما قبله منه.

(٨) الكتاب ٤/ ٤٤٨ .

(٩) قال أبو حيان في البحر المحيط ٢/ ٣٦٣: قد اتفق على نقل إدغام الراء في اللام كبيرُ البصريين =

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ يأتي بيانه في «النساء»[(١)].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ شرط، إلا أنه ماضٍ لا يُعرَب. والتقدير: فإن تولَّوا على كُفرهم، وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا يرضى فعلَهم، ولا يغفرُ لهم، كما تقدّم.

وقال: «فإنّ الله» ولم يقل: «فإنه» لأنَّ العرب إذا عظَّمت الشيءَ أعادت ذكرَه، وأنشد سيبويه[(٢)]:

لا أرَى الموتَ يَسبِقُ الموتَ شيءٌ نَغَّصَ الموتُ ذَا الغِنَى والفَقِيرا

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ الآية. اصطفى: اختار، وقد تقدَّم في البقرة. وتقدَّم فيها اشتقاقُ آدم وكنيته[(٣)]، والتقدير: إن الله اصطفى دينَهم وهو دينُ الإسلام، فحذف المضاف. وقال الزجّاج[(٤)]: اختارهم للنبوّة على عالَمِي زمانِهم.

«ونوحاً» قيل: إنه مشتقٌّ من ناح يَنوح، وهو اسم أعجمِيٌّ؛ إلا أنه انصرف على ثلاثة أحرف[(٥)]، وهو شيخُ المرسَلين، وأوّلُ رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدمَ عليه السلام بتحريم البناتِ والأخَوات والعمّات والخالات وسائرِ القرابات، ومَن قال: إن إدرِيسَ كان قبلَه. من المؤرِّخين، فقد وَهِمَ، على ما يأتي بيانُه في «الأعراف»

= ورأسُهم أبو عمرو بنُ العلاء، ويعقوب الحضرمي، وكبراء أهل الكوفة: الرؤاسي والكسائي والفرّاء، وأجازوه، ورَوَوْه عن العرب، فوجب قبوله والرجوع فيه إلى علمهم ونقلهم، إذ مَنْ عَلِمَ حجة على مَنْ لم يعلم. وانظر أيضاً البحر ٢/ ٤٣١ .

(١) في تفسير الآية (٥٩) منها.

(٢) لسواد بن عدي في الكتاب ١/ ٦٢ ، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٣٨٤ - ٣٨٥ وعنه نقل المصنف إنشاد سيبويه، وصحح البغدادي في الخزانة ١/ ٣٨١ نسبة البيت إلى عدي بن زيد.

(٣) ١/ ٤١٧ و ٢/ ٤٠٦ .

(٤) انظر معاني القرآن له ١/ ٣٩٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٨ .

إن شاء اللّه تعالى[١].

قوله تعالى: ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تقدَّم في البقرة معنى الآلِ وعلى ما يُطلَق مستوفى[٢].

وفي البخاريِّ عن ابن عباس[٣] قال: آلُ إبراهيم وآلُ عمران: المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد، يقول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وقيل: آلُ إبراهيم: إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وأنّ محمداً ﷺ من آل إبراهيم. وقيل: آلُ إبراهيم نفسُه، وكذا آل عمران، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨][٤].

وفي الحديث: «لقد أُعْطِي مِزماراً مِن مزامِير آل داود»[٥].

وقال الشاعر:

ولا تَبْكِ مَيْتاً بعد مَيْتٍ أَجَنَّهُ ... عليٌّ وعبَّاسٌ وآلُ أبي بكرِ[٦]

---

(١) في تفسير الآية (٥٩) منها.

(٢) ٢/ ٨١.

(٣) علّقه عنه بصيغة الجزم قبل الحديث (٣٤٣١) (فتح الباري ٦/ ٤٦٩) ووصله الطبري ٦/ ٣٢٦، وابن أبي حاتم ٢/ ٦٣٥.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٢٩٤.

(٥) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣) (٢٣٦) من حديث أبي موسى الأشعري، وأحمد (٢٢٩٦٩)، ومسلم (٧٩٣) (٢٣٥) من حديث بريدة الأسلمي، وأحمد (٨٦٤٦) و (٢٤٠٩٧) من حديث أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهم.

(٦) في النسخ: ولا تنس . . . أحبَّه، والمثبت من المصادر. والبيت لأراكة الثقفي يرثي ابنه، وكان قتله بُسر ابن أرطاة، وهو ضمن أبيات في الكامل ص١٣٨٦، والفاضل ص٦٥، والتعازي والمراثي ص٣و٦٩، والعقد الفريد ٣/ ٣٠٦، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص٦٨، والحماسة البصرية ١/ ٢٧٧، وأمالي المرتضى ١/ ٤٦١، وحماسة ابن الشجري ١/ ٤٧٩، والمحرر الوجيز ١/ ١٤٠ و ٤٢٣. قال الميمني في حواشي الفاضل، والمرصفي في رغبة الآمل ٨/ ١٥٧: أَجَنَّهُ: قَبَرَهُ ودفَنَه، وأراد بالميت رسول الله ﷺ، والمروي أن الذين نزلوا بقبره ﷺ هم علي بن أبي طالب، والفضل وقُثَم ابنا العباس، فذكر العباس وأراد ابنَيه، وأراد بآل أبي بكر عائشة أمَّ المؤمنين، حيث دُفن في بيتها، رضي الله عنهم جميعاً.

وقال آخر:

يُلاقي من تَذَكُّرِ آل ليلى كما يَلْقَى السَّليمُ من العِدَادِ[١]

أراد من تذكُّرِ ليلى نفسِها.

وقيل: آلُ عمران آلُ إبراهيم، كما قال: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾. وقيل: المرادُ عيسى؛ لأن أمَّه ابنةُ عمران. وقيل: نفسُه كما ذكرنا.

قال مقاتل: هو عمران أبو موسى وهارون، وهو عمرانُ بن يَصْهُر بن فاهاث بن لاوي بن يعقوب[٢].

وقال الكلبيُّ: هو عمران أبو مريم، وهو من ولد سليمان عليه السلام[٣].

وحكى السُّهيلي[٤]: عمران بن ماثان، وامرأتُه حَنَّة، بالنون.

وخصَّ هؤلاء بالذِّكر من بين الأنبياء؛ لأن الأنبياء والرسلَ بقضِّهم وقضيضِهم من نسلِهم. ولم يَنْصرف عمران؛ لأن في آخره ألفاً ونوناً زائدَتَيْن.

ومعنى قوله: «عَلَى العَالَمِينَ» أي: على عالَمِي زمانهم في قول أهل التفسير. وقال الترمذيُّ الحكيمُ أبو عبد الله محمد بن عليّ: جميع الخلقِ كلّهم. وقيل: «عَلَى العَالَمِينَ»: على جميع الخلق كلِّهم إلى يوم الصُّور، وذلك أن هؤلاء رُسُلٌ وأنبياء، فهم صفوةُ الخلق، فأما محمدٌ ﷺ فقد جازت مرتبتُه الاصطفاءَ؛ لأنه حبيبٌ ورحمةٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فالرسل خُلقوا للرحمة، ومحمد ﷺ خُلق بنفسه رحمةً، فلذلك صار أماناً للخلق، لمّا بعثه الله أَمِنَ الخلقُ العذابَ إلى نفخة الصور. وسائرُ الأنبياء لم يحلُّوا هذا المحلَّ؛ ولذلك قال

---

(١) البيت دون نسبة في العين للخليل ١/ ٨٠، وغريب الحديث للهروي ١/ ٧٣، وكتاب الحيوان للجاحظ ٤/ ٢٤٩، وجمهرة اللغة ١/ ٢٧٩، وتهذيب الألفاظ لابن السكيت ١/ ١١٨، والأضداد لابن الأنباري ص١٠٦، ولأبي الطيب اللغوي ص٣٥٢، والصحاح (عدد)، وتهذيب اللغة ١/ ٨٩، والمخصص ٥/ ٨٨. والسليم: اللّديغ، والعِداد: وجع اللديغ، وذلك إذا تمت له سنة منذ يوم لُدغ اهتاج به الألم. الصحاح (عدد).

(٢) تفسير البغوي ١/ ٢٩٤.

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٢.

(٤) في التعريف والإعلام ص٣٢.

عليه الصلاة والسلام: «أنا رحمةٌ مُهداة»[١] يخبر أنه بنفسِه رحمةٌ للخلق من اللّه. وقوله: «مُهداة» أي: هديَّةٌ من اللّه للخلق.

ويقال: اختار آدمَ بخمسة أشياء: أوَّلُها: أنه خَلَقَه بيده في أحسن صورة بقُدرته، والثاني: أنه علَّمَه الأسماءَ كلَّها، والثالث: أمرَ الملائكةَ بأن يسجدوا له، والرابع: أسكنَه الجنَّةَ، والخامس: جعله أبا البشر.

واختار نوحاً بخمسة أشياء: أوَّلها: أنه جعله أبا البشر؛ لأن الناسَ كلَّهم غَرِقوا وصار ذرِّيتُه هم الباقين، والثاني: أنه أطال عمُرَه، ويقال: طُوبَى لمَنْ طال عمرُه وحسُنَ عملُه[٢]، والثالث: أنه استجابَ دعاءَه على الكافرين والمؤمنين، والرابع: أنه حمله على السفينة، والخامس: أنه كان أوَّلَ مَن نسخ [به] الشرائعَ، وكان قبل ذلك لم يُحرِّم تزويجَ[٣] الخالات والعمَّات.

واختار إبراهيمَ بخمسة أشياء: أوَّلها: أنه جعله أبا الأنبياء؛ لأنه رُوي أنه خَرج من صُلبه ألفُ نبيٍّ من زمانه إلى زمن النبيِّ ﷺ، والثاني: أنه اتَّخذه خليلاً، والثالث: أنه أنجاه من النّار، والرابع: أنه جعله إماماً للناس، والخامس: أنه ابتلاه بالكلمات،

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ١٩٢- ١٩٣ ، وابن أبي شيبة ١١/ ٥٠٤ ، والبيهقي في دلائل النبوة ١/ ١٥٧ ، وشعب الإيمان (١٤٠٤) من طريق وكيع، والدارمي (١٥) من طريق علي بن مُسهر كلاهما عن الأعمش، عن أبي صالح قال: قال رسول الله ﷺ . . . فذكره مرسلاً. ووصله عبدالله بن نصر، فيما أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٥٤٦ من طريقه، عن وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. ثم ذكر أن هذا غير محفوظ عن وكيع، عن الأعمش، وأن عبدالله بن نصر له مناكير، وهذا منها.

وأخرجه البزار (٢٣٦٩) (زوائد)، والطبراني في الأوسط (٣٠٠٥) ، وفي الصغير (٢٦٤) ، والحاكم ١/ ٣٥ ، والشهاب القضاعي (١١٦٠) و (١١٦١) ، والبيهقي في دلائل النبوة ١/ ١٥٧ - ١٥٨ ، وفي شعب الإيمان (١٤٠٥) من طريق زياد بن يحيى الحساني، عن مالك بن سُعَير، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. قال البزار: لا نعلم أحداً وصله إلا مالك بن سعير، وغيره يرسله ولا يقول عن أبي هريرة، وقال الحاكم: وهذا حديث صحيح على شرطهما، فقد احتجا جميعاً بمالك ابن سعير، والتفرد من الثقات مقبول. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٥٧ : ورجال البزار رجال الصحيح. وأورده السيوطي في الجامع الصغير ١/ ٣٤٨ ، ورمز له بالصحة.

(٢) قوله: طوبى لمن طال عمره وحسُن عمله، حديث مرفوع؛ رواه عبدالله بن بُسر المازني ﷺ، أخرجه أحمد (١٧٦٨٠) و (١٧٦٩٨) ، والترمذي (٢٣٢٩) ، وأبو القاسم البغوي في الجعديات (٣٤٦٦) ، وأبو محمد البغوي في شرح السنة (١٢٤٥) .

(٣) في تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٢ (والكلام منه): تزوّج. وما بين حاصرتين منه.

فوفَّقه حتى أتمَّهُنَّ.

ثم قال: «وَآلَ عِمْرَانَ»؛ فإن كان عمرانُ أبا موسى وهارون؛ فإنما اختارَهما على العالَمين حيثُ بَعث على قومه المَنَّ والسَّلْوَى، وذلك لم يكن لأحدٍ من الأنبياء في العالَم. وإن كان أبا مريم؛ فإنه اصطفى له مريمَ بولادة عيسى بغير أب، ولم يكن ذلك لأحدٍ في العالم، والله أعلم[1].

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾.

تقدَّم في البقرة معنى الذرِّيةِ واشتقاقها[2]. وهي نصبٌ على الحال، قاله الأخفش[3]. أي: في حال كونِ بعضِهم من بعض، أي: ذرِّيَّة بعضُها من ولد بعض. الكوفيُّون: على القطع[4]. الزجاج[5]: بدل، أي: اصطفى ذرِّيةً بعضُها من بعض.

ومعنى «بعضُها من بعض»: يعني في التَّناصُرِ في الدِّين، كما قال: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: ٦٧] يعني: في الضَّلالة، قاله الحسن وقتادة[6]. وقيل: في الاجتباءِ والاصطفاءِ والنبوَّة. وقيل: المراد به التناسُلُ، وهذا أضعفُها.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾.

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ قال أبو عبيدة: «إذ» زائدة[7]، وقال

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٢.

(٢) ٢/ ٣٦٨.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٤٠٢.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٩ وعنه نقل قول الأخفش، ومعنى قوله: على القطع، أي: على الحال. انظر تعليق الشيخ محمود شاكر رحمه الله على تفسير الطبري ٦/ ٢٧٠.

(٥) معاني القرآن له ١/ ٣٩٩.

(٦) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٠، وذكرهما الماوردي ١/ ٣٨٦، والطبرسي ٢/ ٦٣.

(٧) مجاز القرآن ١/ ٩٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٦٩، قال ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٢٤: هذا قول مردود.

محمد بن يزيد: التقدير: اذكر إذ. وقال الزجَّاج: المعنى: واصطفى آلَ عمران إذ قالت امرأة عمران[١]. وهي حَنَّةُ ـ بالحاء المهملة والنون ـ بنتُ فاقود بن قنبل، أمُّ مريم، جدَّة عيسى عليه السلام، وليس باسمٍ عربيٍّ، ولا يُعرف في العربية حَنَّة اسمُ امرأة، وفي العربية أبو حَنَّةَ البَدْريُّ، ويُقال فيه: أبو حبَّة -بالباء بواحدة- وهو أصحُّ، واسمُه عامر[٢]، ودير حَنَّة بالشام، وديرٌ آخرُ أيضاً يقال له كذلك؛ قال أبو نُوَاس:

يـا دَيْـرَ حَـنَّـةَ مِـن ذات الأُكَـيْـرَاحِ مَن يَصْحُ عنكَ فإنّي لستُ بالصَّاحي[٣]

وحَبَّةُ في العرب كثير، منهم أبو حَبَّة الأنصاريُّ[٤]. وأبو السَّنابل بنُ بَعْكَك ـ المذكور في حديث سُبَيعةَ[٥] ـ حَبَّة[٦]، ولا يُعرف خَنَّةُ ـ بالخاء المعجَمة ـ إلَّا بنتُ يحيى بنِ أكثم القاضي، وهي أمُّ محمد بنِ نصر[٧]، ولا يعرف جَنَّة ـ بالجيم ـ إلَّا أبو جَنَّة، وهو خال ذي الرُّمَّة الشاعر[٨]. كلُّ هذا من كتاب ابن ماكُولَا[٩].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٠٠ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٩ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٤ .

(٢) قال الذهبي في التجريد ٢/ ١٥٧ : أبو حبة الأنصاري الأوسي البدري، بالباء الموحدة وهو الصحيح، ويقال: أبو حية بنقطتين، ويقال: أبو حنة بالنون، اسمه عامر، وقيل: مالك بن عمرو بن ثابت، وقيل: اسمه ثابت بن النعمان بن أمية. وينظر الإصابة ١١/ ٧٨ ، والإكمال ٢/ ٣٢١ .

(٣) ديوان أبي نواس ص١٦٤ ، الأُكيراح: بيوت صغار تسكنها الرهبان الذين لا قلاليّ (أي: صوامع) لهم، يقال لواحدها: كُرْح، بالقرب منها ديران، يقال لأحدهما: دير مرعبدا، وللآخر: دير حنة، وهو موضع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياض. معجم البلدان ١/ ٢٤٢ .

(٤) ابن غزية بن عمرو الخزرجي المازني النَّجاري، شهد أحداً واستشهد باليمامة، وقد خلطه غير واحد بالذي قبله (أي عامر) وفرق بينهما غير واحد، وقال أبو عمر: هذا خزرجي وذاك أوسي، وهذا لم يشهد بدراً وذاك شهدها. الإصابة ١١/ ٧٩ ، والاستيعاب على هامش الإصابة ١١/ ١٨٦ .

(٥) بنت الحارث الأسلمية، كانت تحت سعد بن خولة، وتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل. الإصابة ١٢/ ٢٩٦ . وحديث سبيعة مع أبي السنابل أخرجه البخاري (٣٩٩١)، ومسلم (١٤٨٤) من حديث سبيعة رضي الله عنها.

(٦) ابن الحارث بن عَميلة، القرشي العَبْدَري، وقيل: اسمه عمرو، وقيل غير ذلك، وهو من مسلمة الفتح، وأقام بمكة حتى مات. الإصابة ١١/ ١٧٩ .

(٧) كذا نقل المصنف عن السهيلي في التعريف والإعلام ص٣٣ ، ونسبه السهيلي لابن ماكولا، والذي في الإكمال لابن ماكولا ٢/ ٣٣٠ : أن خنة هي بنت أكثم أخت يحيى بن أكثم، وأنها كانت تحت محمد ابن نصر المروزي.

(٨) واسمه حكيم بن عبيد الأسدي، ويقال: حكيم بن مصعب. المؤتلف والمختلف للآمدي ص١٤٦ .

(٩) الإكمال ٢/ ٣١٩ - ٣٣٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة السهيلي في التعريف والإعلام ص٣٢-٣٣ .

الثانية: قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ تقدَّم معنى النَّذر، وأنه لا يلزم العبدَ إلَّا بأن يُلزِمَه نفسَه[١]. ويقال: إنها لمَّا حملت قالت: لئن نجَّاني اللّه، ووضعتُ ما في بطني، لجعلتُه مُحَرَّراً. ومعنى «لك» أي: لعبادتك. «محرَّراً» نصبٌ على الحال، وقيل: نعتٌ لمفعول محذوف، أي: إني نذرتُ لك ما في بطني غلاماً مُحرَّراً، والأوَّلُ أولى من جهة التفسير وسياقِ الكلام والإعراب:

أمَّا الإعرابُ: فإن إقامة النعت مقامَ المنعوت لا يجوزُ في مواضع، ويجوز على المجاز في أخرى.

وأمَّا التفسيرُ: فقيل: إن سببَ قولِ امرأةِ عمرانَ هذا أنها كانت كبيرةً لا تَلِد، وكانوا أهلَ بيتٍ من اللّه بمكان، وأنها كانت تحت شجرةٍ، فبَصُرت بطائر يَزُقُّ فَرْخاً[٢]، فتحرَّكت نفسُها لذلك، ودعت ربَّها أن يَهَب لها ولداً، ونذرت إن وَلَدت أن تجعل ولدها مُحرَّراً، أي: عتيقاً خالصاً لله تعالى، خادماً للكنيسة حَبِيساً عليها، مُفرَّغاً لعبادة اللّه تعالى. وكان ذلك جائزاً في شريعتهم، وكان على أولادهم أن يُطيعوهم. فلمَّا وضعتْ مريمَ قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ يعني أن الأنثى لا تصلح لخدمة الكنيسة؛ قيل: لِمَا يصيبها من الحَيْض والأذى، وقيل: لا تصلح لمخالطة الرجال. وكانت ترجو أن يكون ذَكَراً، فلذلك حَرَّرت[٣].

الثالثة: قال ابن العربيّ[٤]: لا خلافَ أن امرأة عِمران لا يتطرَّق إلى حملها نذرٌ لكونها حرَّةً، فلو كانت امرأته أمَةً، فلا خلافَ أن المرء لا يصح له نذرُ ولدِه[٥] وكيفما تصرفَتْ حاله؛ فإنه إن كان الناذرُ عبداً لم[٦] يتقرَّر له قولٌ في ذلك؛ وإن كان حرًّا، فلا يصحُّ أن يكون مملوكاً له، وكذلك المرأةُ مثله، فأيُّ وجهٍ للنذر فيه؟

---

(١) ٤/ ٣٥٩ .

(٢) أي: يطعمه بفمه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٩ - ٣٧٠ ، وتفسير الطبري ٥/ ٣٣٢ ، ٣٣٧ - ٣٣٨ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٤ .

(٤) أحكام القرآن ١/ ٢٧٠ .

(٥) في (خ) و (د) و (م): نذر في ولده، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في أحكام القرآن.

(٦) في (م): فلم.

وإنما معناه ـ والله أعلم ـ أن المرء إنما يريد ولدَه للأُنس به والاستنصار[١] والتسلِّي، فطلبت هذه المرأةُ الولدَ أُنساً به وسُكوناً إليه؛ فلما منَّ الله تعالى عليها به، نذرت أنَّ حَظَّها من الأنْس به متروكٌ فيه، وهو على خدمة الله تعالى موقوف، وهذا نذرُ الأحرار من الأبرار. وأرادت به: مُحَرَّراً من جهتي، محرَّراً من رِقِّ الدنيا وأشغالها. وقد قال رجلٌ من الصُّوفيَّة لأمِّه: يا أُمَّهْ، ذَرِيني لله أتعبَّد له وأتعلَّم العلم، فقالت: نعم. فسار حتى تبصَّرَ، ثمَّ عاد إليها فدَّق الباب، فقالت: مَنْ؟ فقال لها: ابنُكِ فلان، قالت: قد تركناك لله ولا نعود فيك.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿مُحَرَّرًا﴾ مأخوذٌ من الحُرية التي هي ضدُّ العُبوديَّة؛ من هذا تحريرُ الكتاب، وهو تخليصُه من الاضطراب والفساد. وروى خُصَيفٌ عن عِكرمة ومجاهد: أن المحرَّر الخالصُ لله عزَّ وجلَّ، لا يشوبه شيءٌ من أمر الدنيا[٢]. وهذا معروف في اللغة أنْ يقال لكل ما خَلَص: حُرٌّ، ومحرَّر بمعناه؛ قال ذو الرُّمَّة:

والقُرْط في حُرَّة الذِّفْرَى مُعَلَّقُهُ ... تباعَدَ الحبلُ منه فهو يَضْطرِبُ[٣]

وطِينٌ حُرٌّ: لا رَمْلَ فيه، وباتت فلانة بليلةٍ حُرَّةٍ: إذا لم يَصِلْ إليها زوجها أوَّلَ ليلة، فإن تمكَّن منها فهي بلَيْلةٍ شَيْباء[٤].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ قال ابنُ عباس: إنما قالت هذا لأنه لم يكن يُقبل في النَّذْر إلَّا الذكورُ[٥]، فقبِل الله مريم. «وأنثى» حال، وإن شئتَ بدلٌ[٦]. فقيل: إنها ربَّتها حتى ترعرعت، وحينئذٍ أرسلتها؛ رواه أشهب عن مالك. وقيل: لفَّتها في خِرقتها وأرسلت بها إلى المسجد، فوفَّت بنذرها

(١) في (ظ): الاستبصار.

(٢) أخرجه الطبري ٥/ ٣٣٣، وابن أبي حاتم (٣٤٢٢).

(٣) ديوان ذي الرمة ١/ ٣٥، وحُرةُ الذِّفرى: موضع مجال القرط منها. اللسان (حرر). والذِّفريان: ما عن يمين النقرة وشمالها، واستعار الذِّفرى ها هنا، وإنما هي للإبل. قاله شارحه ١/ ٣٧.

(٤) مجمل اللغة ١/ ٢١١.

(٥) أورده الواحدي في الوسيط ١/ ٤٣٠، وأخرجه الطبري ٥/ ٣٣٤ - ٣٣٥ عن قتادة والربيع.

(٦) مشكل إعراب القرآن ١/ ١٥٦.

وتبرَّأت منها. ولعلَّ الحجابَ لم يكن عندهم كما كان في صدر الإسلام[١]؛ ففي البخاريِّ ومسلمٍ أن امرأةً سوداءَ كانت تَقُمُّ المسجد على عهد رسول اللّه ﷺ فماتت. الحديث[٢].

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ هو على قراءة مَن قرأ: «وَضَعْتُ» - بضمِّ التاء - من جملة كلامها، فالكلام متَّصلٌ. وهي قراءة أبي بكر وابن عامر[٣]، وفيها معنى التسليمِ لله والخضوعِ والتنزيه له أن يخفى عليه شيء، ولم تَقُلْه على طريق الإخبار؛ لأن علم اللّه في كلِّ شيءٍ قد تقرَّر في نفس المؤمن، وإنما قالته على طريق التعظيم والتنزيه لله تعالى.

وعلى قراءة الجمهور هو من كلام اللّه عزَّ وجلَّ؛ قُدِّم، وتقديرُه أن يكون مؤخَّراً بعدَ: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ قاله المَهْدويُّ.

وقال مكِّي: هو إعلامٌ من اللّه تعالى لنا على طريق التثبيت، فقال: واللّه أعلم بما وضعتْ أمُّ مريم، قالته أو لم تقله. ويقوِّي ذلك أنه لو كان من كلام أمِّ مريم لكان وجهُ الكلام: وأنتَ أعلم بما وضعتُ؛ لأنها نادته في أوَّل الكلام في قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾[٤]. ورُوي عن ابن عباس: «بما وَضَعْتِ» بكسر التاء[٥]، أي: قيل لها هذا.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ استدلَّ به بعض الشافعية على أن المطاوِعة في نهار رمضان لزوجها على الوطء لا تساويه في وجوب الكفارة عليها. قال ابنُ العربيّ[٦]: وهذه منه غفلة، فإنَّ هذا خبرٌ عن شرعِ مَن قَبلنا، وهم لا يقولون

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٠ .

(٢) صحيح البخاري (٤٥٨)، وصحيح مسلم (٩٥٦)، وهو عند أحمد (٨٦٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.
وقوله: تقم المسجد، أي: تكنسه. المفهم ٢/ ٦١٧ .

(٣) السبعة ص ٢٠٤ ، والتيسير ص٨٧ .

(٤) الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٥) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٢٠ .

(٦) لفظة «قال» من (ظ)، وكلام ابن العربي في أحكام القرآن ١/ ٢٧١ .

به[١]، وهذه الصالحةُ إنما قصدتْ بكلامها ما تشهد له به بيِّنةُ حالِها، ومَقْطعُ كلامها، فإنها نذرت خدمةَ المسجد في ولدها، فلمَّا رأته أنثى لا تصلح، وأنها عورةٌ، اعتذرت إلى ربِّها من وجودها لها على خلاف ما قصدته فيها.

ولم ينصرف «مريم»؛ لأنه مؤنثٌ معرفة، وهو أيضاً أعجمي؛ قاله النحاس[٢]. والله تعالى أعلم.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ يعني خادم الربِّ في لغتهم[٣]. ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ﴾ يعني مريم. ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ يعني عيسى. وهذا يدلُّ على أن الذرِّية قد تقع على الولد خاصة[٤].

وفي صحيح مسلم[٥] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ يُولد إلّا نَخَسه الشيطانُ، فيستهلُّ صارخاً من نخسة [الشيطان] إلّا ابنَ مريم وأمَّه» ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

قال علماؤُنا[٦]: فأفاد هذا الحديثُ أن الله تعالى استجاب دعاءَ أمِّ مريم، فإن الشيطان ينخَس جميعَ ولد آدم حتى الأنبياءِ والأولياءِ إلَّا مريمَ وابنها.

قال قتادة: كلُّ مولودٍ يَطْعُن الشيطانُ في جنبه حين يُولد غيرَ عيسى وأمِّه، جُعل بينهما حجابٌ، فأصابت الطعنة الحجابَ، ولم ينفذ لهما منه شيءٌ[٧].

---

(١) يعني الشافعية، وعبارته في أحكام القرآن هي: ولا خلاف بين الشافعية عن بكرة أبيهم أن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا.

(٢) إعراب القرآن ١/ ٣٧١.

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٣.

(٤) أحكام القرآن ١/ ٢٧١ - ٢٧٢.

(٥) رقم (٢٣٦٦) وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٧١٨٢)، والبخاري (٣٤٣١).

(٦) المفهم ٦/ ١٧٨.

(٧) أخرجه الطبري ٥/ ٣٤٢، وأخرجه بنحوه أحمد (١٠٧٧٣)، والبخاري (٣٢٨٦) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً.

قال علماؤنا[١]: وإن لم يكن كذلك بطلت الخصوصيةُ بهما، ولا يلزم[٢] من هذا أن نَخْسَ الشيطان يلزم منه إضلالُ المنخوس[٣] وإغواؤُه، فإن ذلك ظنٌّ فاسد؛ فكم تعرَّض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء، ومع ذلك فعصمهم اللّه ممَّا يَرُومه الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. هذا مع أن كلَّ واحد من بني آدم قد وُكِّل به قَرِينُه من الشياطين؛ كما قال رسول اللّه ﷺ[٤]، فَمَرْيَمُ وَابْنُها وإن عُصِما مِن نخسه، فلم يُعْصَما من ملازمته لهما ومقارنته. واللّه أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ المعنى: سلك بها طريق السعداء؛ عن ابن عباس. وقال قوم: معنى التَّقبُّل: التكفُّلُ في التربية والقيامُ بشأنها. وقال الحسن: معنى التقبُّل: أنه ما عذَّبها ساعةً قطُّ من ليل ولا نهار.

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ يعني سوَّى خَلْقَها من غير زيادة ولا نقصان، فكانت تَنبت في اليوم ما يَنبت المولود في عام واحد[٥]. والقَبول والنبات مصدران على غير المصدر،

---

(١) المفهم ٦/ ١٧٨.

(٢) في المفهم: ولا يُفهم.

(٣) في النسخ: الممسوس، والمثبت من المفهم.

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٢٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد أيضاً (٣٦٤٨)، ومسلم (٢٨١٤) من حديث ابن مسعود ﷺ بلفظ: «ما منكم من أحد إلا وكِّل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة».

(٥) تفسير البغوي ١/ ٢٩٦، ومجمع البيان ٣/ ٦٨. وهذا الكلام على سبيل المبالغة، إذ لا يمكن حمله على الحقيقة، وقد ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٢٥ أن المراد بالمعنى حسن النشأة وسرعة الجودة فيها في خلقة وخلق. وقال ابن كثير: أي جعلها شكلاً مليحاً، ومنظراً بهيجاً، ويسَّر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم الخير والعلم والدين، ولهذا قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

والأصل: تقبُّلاً وإنباتاً؛ قال الشاعر:

أكُفراً بعد ردِّ الموت عنِّي وبعدَ عطائكَ المئةَ الرِّتاعا[١]

أراد: بعد إعطائك. لكن لمَّا قال: «أنبتها» دلَّ على نَبَت؛ كما قال امرؤ القيس:

فصِرْنا إلى الحُسْنَى ورَقَّ كلامُنا ورُضْتُ فذلَّت صعبةً أيَّ إذلالِ[٢]

وإنما مصدر ذَلَّتْ: ذُلّ، ولكنه ردَّه على معنى أذْلَلت، وكذلك كلُّ ما يَرِد عليك في هذا الباب. فمعنى تقبَّل وقَبِل واحد، فالمعنى: فقَبِلَها ربُّها بقبول حَسَن[٣].

ونظيره قولُ رُؤْبَة[٤]:

وقد تَطَوَّيْتُ انطواءَ الحِضْبِ

أي[٥]: الأفعى. لأن معنى تَطَوَّيتُ وانطويت واحدٌ؛ ومثله قول القَطَاميِّ[٦]:

وخيرُ الأمرِ ما استقبلتَ منه وليس بأن تَتَبَّعَه اتِّباعا

لأن تَتَبَّعتُ واتَّبعتُ واحد. وفي قراءة ابن مسعود: «وأنْزَلَ الملائكةَ تَنْزيلاً» لأن معنى نزَّل وأنزل واحد[٧].

وقال المُفَضَّل: معناه: وأنبتها فنبتتْ نَباتاً حَسَناً. ومراعاة المعنى أوْلى كما ذكرنا.

---

(١) قائله القطامي، وهو في ديوانه ص٣٧ ، والخزانة ٨/ ١٣٧ وهو ضمن قصيدة في مدح زفر بن الحارث الكلابي، يقول: أخونك بعد هذا وقد مننت عليَّ وأطلقتني؟ والرتاع: جمع راتعة وهي: الراعية. قاله البغدادي في الخزانة.

(٢) ديوانه ص٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧١ ، قوله: ورُضْت فذلَّت، قال شارح الديوان: ليَّنْتُها بالكلام والمداراة كما يُرَاض البعير بالسير حتى يذلَّ.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧١ - ٣٧٢ .

(٤) ديوانه ص١٦ .

(٥) لفظة أي، من (ظ).

(٦) عُمير بن شُيَيْم التغلبي، ولقب القطامي منقول من الصقر ؛ لأن الصقر يقال له قطامي، وله لقب آخر وهو: صريع الغواني، كان نصرانياً فأسلم، وهو ابن أخت الأخطل وعدَّه الجمحي في الطبقة الثانية من شعراء الإسلام. خزانة الأدب ٢/ ٣٧١ . والبيت في ديوانه ص٣٥ ، والكتاب ٤/ ٨٢ .

(٧) القراءات الشاذة لابن خالويه ص١٠٤ وهي من سورة الفرقان الآية (٢٥). قال ابن خالويه: وهذا غريب، جعل مصدر أفعل تفعيلاً، ولكن لما كان أنزل بمعنى: نزّل، حمله على معناه.

والأصلُ في القَبول الضم؛ لأنه مصدرٌ، مثلُ الدخول والخروج، والفتح جاء في حروف قليلة، مثل الوَلوع والوَزوع، هذه الثلاثة لا غيرُ[(١)]؛ قاله أبو عمرو والكسائيُّ والأئمة. وأجاز الزجاج[(٢)]: «بقُبُول» بضم القاف على الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ أي: ضَمَّها إليه. أبو عبيدة: ضَمِن القيام بها[(٣)].

وقرأ الكوفيون: «وكفَّلها» بالتشديد[(٤)]، فهو يتعدَّى إلى مفعولين؛ والتقدير: وكفَّلها ربُّها زكريا، أي: ألزمه كفالتها، وقدَّر ذلك عليه، ويَسَّره له. وفي مصحف أُبَيٍّ: «وأكْفَلَها»، والهمزة كالتشديد في التعدِّي[(٥)]. وأيضاً فإن قَبْله: «فتقبَّلَها، وأنبتها» فأخبر تعالى عن نفسه بما فعل بها، فجاء «كفَّلها» بالتشديد على ذلك.

وخفَّفه الباقون على إسناد الفعل إلى زكريا، فأخبر الله تعالى [عنه] أنه هو الذي تولَّى كفالتَها والقيامَ بها، بدلالة قوله: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾؛

قال مَكّيّ[(٦)]: وهو الاختيار؛ لأن التشديد يرجع إلى التخفيف، لأن الله تعالى إذا كفَّلها زكريا كفَلها بأمر الله، ولأن زكريا إذا كفَلها فعن مشيئة الله وقدرته؛ فعلى ذلك فالقراءتان متداخلتان.

وروى هارون[(٧)] بن موسى عن عبدالله بن كَثِير وأبي عبدالله المُزَنِي[(٨)]: «وكَفِلها» بكسر الفاء. قال الأخفش[(٩)]: يقال كَفَلَ يَكْفُلُ، وكَفِلَ يَكفَلُ، ولم أسمع

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٢٩٦ ، واللسان (ولع).

(٢) معاني القرآن ١/ ٤٠١ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٨٨ ، ووقع في مجاز القرآن ١/ ٩١ : (وكفلها زكريا) أي: ضمها.

(٤) السبعة ص٢٠٤ ، والتيسير ص٨٧ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٢ .

(٥) الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٤١ ، والكشاف ١/ ٤٢٧ .

(٦) الكشف ١/ ٣٤٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٧) في النسخ: عمرو: والمثبت من مطبوع إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٢ ، والكلام منه، وذكر محققه أنه وقع في بعض نسخه: عمرو. ولعل ما أثبتناه هو الصواب، لأن هارون بن موسى أبو عبدالله العتكي البصري الأزدي مولاهم، روى القراءة عن ابن كثير، كما ذكر ابن الجزري في طبقات القراء ٢/ ٣٤٨ .

(٨) في (خ) وإعراب القرآن ١/ ٣٧٢: المدني، وفي المحرر: المزني، وفي البحر: عبدالله المزني والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٠ .

(٩) معاني القرآن ١/ ٤٠٣ - ٤٠٤ ، ونقلها المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٧٢ .

كَفُلَ، وقد ذُكِرَتْ.

وقرأ مجاهد: «فتقبَّلْها» بإسكان اللام على المسألة والطلب، «رَبَّها» بالنصب نداء مضاف، «وأَنْبِتْها» بإسكان التاء، «وكَفِّلْها» بإسكان اللام، «زكرياءَ» بالمدِّ والنصب[١].

وقرأ حفص وحمزة والكسائيُّ: «زكريا» بغير مدٍّ ولا همز، ومدَّه الباقون وَهَمزُوه[٢]. وقال الفَرَّاء[٣]: أهلُ الحجاز يمدُّون «زكرياء» ويَقْصُرونه، وأهل نَجْد يحذفون منه الألف ويصرفونه فيقولون: زكريٌّ. قال الأخفش: فيه أربعُ لغات: المدُّ، والقصر، وزكرِيٌّ بتشديد الياء والصَّرف، وزكَرٍ، ورأيتُ زكرِياً[٤].

قال أبو حاتم: زكريُّ بلا صرفٍ؛ لأنه أعجميٌّ. وهذا غلط؛ لأن ما كانت[٥] فيه ياء مثل هذه[٦] انصرف، مثل: كرسيّ ويحيى[٧]، ولم ينصرف زكرياء في المدِّ والقصر لأن فيه ألفَ تأنيث والعُجمةَ والتعريف.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ المِحرابُ في اللغة: أكرمُ موضعٍ في المجلس. وسيأتي له مزيدُ بيان في سورة مريم[٨]. وجاء في الخبر: أنها

(١) القراءات الشاذة ص٢٠ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٦ .

(٢) السبعة ص٢٠٥ والتيسير ص٨٧ .

(٣) معاني القرآن ١/ ٢٠٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٧٢ .

(٤) يعني مخففاً كما قيده في القاموس (زكر). وأما قوله: زَكَر، فقد ذكر الزبيدي في تاج العروس أن بعض المفسرين شذّ، فزاد لغة خامسة وقال: زَكَر، مثل جبل. وحكى السمين الحلبي في الدُّرّ المصون ٣/ ١٤٤ عن الأخفش: زَكْر، زنة: عَمْرو.

(٥) في (م): كان.

(٦) في (م): هذا.

(٧) كذا وقع في النسخ، ولعل الصواب: نَجِيّ، أو: بَخِيّ، أو ما شابهها، والكلام في إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٢ دون المثال.

(٨) عند قوله تعالى: ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ الآية (١١).

كانت في غرفةٍ؛ كان زكريا يصعَد إليها بسُلَّم. قال عديّ بن زيد[١]:

رَبَّـــةُ مِــحــرابٍ إذا جــئــتُــهـــا   لــم أدْنُ[٢] حــتـى أرْتَـقِـي سُـلَّـمَـا[٣]

أي: رَبَّة غرفة.

روى أبو صالح عن ابن عباس قال: حملت امرأة عِمران بعد ما أسنَّت، فنذرت ما في بطنها محرَّراً، فقال لها عمران: ويحكِ! ما صنعت؟ أرأيتِ إن كانت أنثى؟ فاغتمَّا لذلك جميعاً. فهلك عِمرانُ وحَنَّة حامل، فولدت أنثى، فتقبَّلها اللّه بِقَبُول حَسَن، وكان لا يُحرَّر إلَّا الغلمانُ، فتَسَاهَم عليها الأحبار بالأقلام التي يكتبون بها الوَحي ـ على ما يأتي[٤] ـ فكفِلها زكريا وأخذ لها موضعاً، فلمَّا شبَّت[٥] جعل لها مِحراباً لا يُرتَقى إليه إلَّا بسلَّم، واستأجر لها ظِئراً، وكان يُغلِق عليها باباً، وكان لا يدخل عليها إلَّا زكريَّا حتى كَبِرت، فكانت إذا حاضت أخرجها إلى منزله، فتكونُ عند خالتها ـ وكانت خالتها امرأة زكريا في قول الكَلْبيِّ، وقال مُقاتِل: كانت أختها امرأة زكريا ـ وكانت إذا طَهُرت من حيضتها واغتسلت ردَّها إلى المحراب.

وقال بعضهم: كانت لا تحيض، وكانت مطهَّرةً من الحيض[٦].

وكان زكريا إذا دخل عليها يجدُ عندها فاكهةَ الشتاء في القَيْظ، وفاكهةَ القَيْظ في الشتاء، فقال: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾. فعند ذلك طمِع زكريا في الولد وقال: إن الذي يأتيها بهذا قادر أن يرزقني ولداً[٧].

---

(١) كذا وقع في النسخ: عدي بن زيد، وهو منسوب في المصادر لوضاح اليمن، وانظر التعليق التالي.

(٢) في (م): لم ألقها.

(٣) جمهرة اللغة ١/ ٢١٩، وهو أيضاً في الأغاني ٦/ ٢٣٧ (ضمن قصيدة) ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٠٣، واللسان (حرب) برواية: لم ألقها أو أرتقي سلماً. ونُسب فيها كلِّها لوضاح اليمن وهو عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كُلال، ولقِّب بذلك لجماله وبهائه، وحكي أن أحد خلفاء بني أمية دفنه في صندوق وهو حي. الأغاني ٦/ ٢٠٩.

(٤) في الصفحة ١٣١.

(٥) في (ظ). أنبتت، وفي (د) و (ز) و (م): أسنت، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٠.

(٦) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٤.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٠.

ومعنى: «أنَّى»: من أين؛ قاله أبو عبيدة[١]. قال النحاس[٢]: وهذا فيه تساهل؛ لأن «أين» سؤالٌ عن المواضع، و«أنَّى» سؤالٌ عن المذاهب والجهات. والمعنى: من أيِّ المذاهب، ومن أيِّ الجهات لكِ هذا؟ وقد فرَّق الكُمَيت بينهما فقال:

أنَّى ومن أينَ آبكَ الطَّربُ ... من حيث لا صَبْوةٌ ولا رِيَبُ[٣]

و«كلَّما» منصوب بـ «وَجَدَ»، أي: كلّ دَخْلة[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ قيل: هو من قول مريم. ويجوز أن يكون مستأنَفاً[٥]. فكان ذلك سببَ دعاءِ زكريا وسؤالِه الولد.

الثانية: قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ «هنالك» في موضع نصب؛ لأنه ظرفٌ يُستعمل للزمان والمكان، وأصلُه للمكان[٦]. وقال المُفَضَّل بن سَلَمة: «هنالك» في الزمان، و«هناك» في المكان، وقد يُجعل هذا مكانَ هذا.

و﴿هَبۡ لِي﴾: أعطني ﴿مِن لَّدُنكَ﴾: من عِندِك. ﴿ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ﴾ أي: نسلاً صالحاً. والذُّرِّيةُ تكون واحداً[٧] وتكون جمعاً، ذكراً وأنثى، وهو هنا واحدٌ؛ يدلُّ عليه قولُه: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ [مريم:٥]، ولم يقل: أولياء. وإنما أنَّثَ «طَيِّبةً» لتأنيث لفظ الذرية[٨]؛ كقوله:

أبوك خليفةٌ وَلَدَتْه أخرى ... وأنتَ خليفةٌ ذاك الكمالُ[٩]

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٩١ .

(٢) في معاني القرآن ١/ ٣٨٩ .

(٣) شرح هاشميات الكميت ص١٠٠ ، قال الشارح: آبك: أتاك ليلاً، يقول: إنما طربُكَ إلى بني هاشم لا صبوة في صبا. ولا رِيَب، أي: لا ريبة.

(٤) إعراب القرآن ١/ ٣٧٢ .

(٥) النكت والعيون ١/ ٣٨٩ .

(٦) مشكل إعراب القرآن ١/ ١٥٧ .

(٧) في (م): واحدة.

(٨) هذا قول الطبري ٥/ ٣٦٢ وتعقبه ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٢٧ ، وقال ابن عطية: إنما الذرية والولي اسما جنس يقعان للواحد فما زاد.

(٩) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٠٨ ، وتفسير الطبري ٥/ ٣٦٢ ، ونسبه ابن الأنباري في المذكر والمؤنث ٢/ ١٦٣ لنُصيب.

فأنَّث «ولدته» لتأنيث لفظ الخليفة[١].

ورُوِي من حديث أنس قال: قال النبيُّ ﷺ: «أيُّ رجلٍ مات وترك ذُرِّيةً طيبةً، أجرى اللّه له مِثلَ أجرِ عملِهِم ولم يَنْقصْ من أجورهم شيئاً»[٢]. وقد مضى في «البقرة» اشتقاق الذرِّية[٣].

و﴿طَيِّبَةً﴾ أي: صالحة مباركة. ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: قابلُه، ومنه: سمِع اللّه لمن حَمِده.

الثالثة: دلَّت هذه الآية على طلب الولد، وهي سُنَّة المرسلين والصدِّيقين، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]. وفي صحيح مسلم[٤] عن سعد بن أبي وَقَّاصٍ قال: أراد عثمان [بن مظعون] أن يتبتَّلَ، فنهاهُ رسول اللّه ﷺ، ولو أجاز له ذلك لاختَصَيْنا.

وخرَّج ابن ماجه، عن عائشة قالت: قال رسول اللّه ﷺ «النكاحُ من سُنَّتي، فمن لم يعمل بسُنَّتي فليس منِّي، وتزوَّجوا، فإني مكاثِرٌ بكم الأممَ، ومن كان ذا طَوْلٍ فَلْيَنْكِحْ، ومن لم يجدْ فعليه بالصيام[٥]، فإنَّه له وِجاءٌ»[٦] وفي هذا رَدٌّ على بعض جُهَّال المتصوِّفة حيث قال: الذي يطلب الولدَ أحمق. وما عَرَف أنه هو الغبيُّ الأخرق؛ قال اللّه تعالى مُخبِراً عن إبراهيم الخليل: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤].

---

(١) قال الفراء: قال «أخرى» لتأنيث اسم الخليفة، والوجه أن تقول: وَلَدَه آخر.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العيال (٤٩٢) من طريق عطاء بن أبي رباح عن النبي ﷺ، مرسلاً. ولم نقف عليه من حديث أنس ﵁.

(٣) ٢/٣٦٨.

(٤) برقم (١٤٠٢) وما سيرد بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (١٥١٤)، والبخاري (٥٠٧٤).

(٥) في (د) و (م) بالصوم، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لما في سنن ابن ماجه.

(٦) سنن ابن ماجه (١٨٤٦) قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/١١٦ : في إسناده عيسى بن ميمون وهو ضعيف، وفي الصحيحين [البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)] حديث أنس في ضمن حديث: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأتزوج، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وقد ترجم البخاريُّ على هذا: باب طلب الولد[١]. وقال ﷺ لأبي طَلْحة حين مات ابنه: «أعْرَسْتُم الليلةَ؟» قال: نعم. قال: «بارك اللّه لكما في غابر ليلتِكُما». قال: فحملَتْ[٢]. في البخاريِّ: قال سفيان: فقال رجل من الأنصار: فرأيتُ [لهما] تسعةَ أولادٍ كلُّهم قد قرؤوا القرآن[٣].

وترجم أيضاً: باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة، وساق حديثَ أنسِ بن مالك، قال: قالت أمُّ سُلَيم: يا رسول اللّه، خادمُك أنسٌ، ادعُ اللّه له، فقال: «اللَّهُمَّ أكْثِرْ مالَه وولدَه، وبارِكْ له فيما أعطيتَه»[٤].

وقال ﷺ: «اللَّهُمَّ اغفر لأبي سَلَمة، وارفَعْ درجَتَه في المهديِّين، واخْلُفْه في عَقِبِه في الغابرين». خرَّجه البخاريُّ ومسلم[٥].

وقال ﷺ: «تزوَّجوا الوَلُودَ الوَدود، فإني مُكاثِرٌ بكم الأمم». أخرجه أبو داود[٦].

والأخبارُ في هذا المعنى كثيرة، تحثُّ على طلب الولد وتَندب إليه؛ لِمَا يرجوه الإنسان من نفعه في حياته وبعد موته. قال ﷺ: «إذا ماتَ أَحدُكُم، انقطع عملُه إلَّا من ثلاث» فذكر: «أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»[٧]. ولو لم يكن إلَّا هذا الحديثُ، لكان فيه كفاية.

الرابعة: فإذا ثبت هذا؛ فالواجب على الإنسان أن يتضرَّع إلى خالقه في هداية

---

(١) في كتاب النكاح (فتح الباري ٩/ ٣٤١)

(٢) صحيح البخاري (٥٤٧٠)، وصحيح مسلم (٢١٤٤).

(٣) صحيح البخاري (١٣٠١) وما بين حاصرتين منه. وهي رواية أخرى للحديث السالف، وسفيان المذكور: هو ابنُ عيينة.

(٤) صحيح البخاري (٦٣٤٤)، وهو عند أحمد (٢٧٤٢٦)، ومسلم (٢٤٨٠).

(٥) لم نقف عليه عند البخاري، وهو عند مسلم (٩٢٠)، وأحمد (٢٦٥٤٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها. قال أبو العباس في المفهم ٢/ ٥٧٣ : قوله: «واخلفه في عقبه في الغابرين» أي: كن الخليفة على من يتركه من عقبه ويبقى بعده، ويعني بالغابرين: الباقين.

(٦) سنن أبي داود (٢٠٥٠)، وهو عند أحمد (١٢٦١٣) وهو من حديث معقل بن يسار ﷺ ووقع عند أحمد: مكاثر الأنبياء، بدل: الأمم.

(٧) أخرجه أحمد (٨٨٤٤)، ومسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ولده وزوجه بالتوفيق لهما، والهدايةِ والصلاح والعفاف والرعاية، وأن يكونا مُعينين له على دينه ودنياه، حتى تعظمَ منفعتُه بهما في أُولاهُ وأُخراه؛ ألا ترى قولَ زكريًا: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٦]، وقال: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾. وقال: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان:٧٤]. ودعا رسول الله ﷺ لأنس فقال: «اللَّهُمَّ أكثر ماله وولده، وبارك له فيه». خرَّجه البخاريُّ ومسلم[١]، وحسْبُك.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قرأ حمزة والكسائيُّ: «فناداه» بالألف على التذكير ويُميلانها؛ لأن أصلَها الياء، ولأنها رابعةٌ[٢]، وبالألف قراءةُ ابن عباس، وابن مسعود[٣]، وهو اختيار أبي عبيد. ورَوَى عن جرير، عن مُغِيرة، عن إبراهيم قال: كان عبدُ الله يذكِّر الملائكَة في [كلِّ] القرآن. قال أبو عبيد: نراه اختار ذلك خلافاً على المشركين، لأنهم قالوا: الملائكة بنات الله.

قال النحاس[٤]: هذا احتجاجٌ لا يُحصِّلُ منه شيءٌ؛ لأن العرب تقول: قالت الرجال، وقال الرجال، وكذا النساء، وكيف يُحتجُّ عليهم بالقرآن؟ ولو جاز أن يُحتجَّ عليهم بالقرآن بهذا لجاز أن يحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران:٤٢] ولكن الحجةَ عليهم في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف:١٩] أي: فلم يشاهدوا خَلْقَهم[٥]، فكيف يقولون إنهم إناثٌ؟! فقد عُلم أن هذا ظنٌّ وهوىً. وأمَّا «فناداه» فهو جائز على تذكير الجمع، «ونادته» على تأنيث الجماعة.

---

(١) صحيح البخاري (١٩٨٢)، وصحيح مسلم (٦٦٠)، وسلف في المسألة قبلها بلفظ: «وبارك له فيما أعطَيته».

(٢) السبعة ص٢٠٥، والتيسير ص٨٧، والكشف ١/ ٣٤٢.

(٣) القراءات الشاذة ص٢٠، ونسبها لابن مسعود، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٣.

(٤) في إعراب القرآن ١/ ٣٧٣، وما سلف بين حاصرتين منه. وأثر إبراهيم عن عبدالله ذكره أيضاً البغوي ١/ ٢٩٨، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢١ لابن المنذر.

(٥) قوله: خلقهم، من (خ) و (ظ) وليس في باقي النسخ، وهو موافق لما في إعراب القرآن.

قال مَكّي[١]: والجماعة[٢] ممن يعقلُ في التكسير يجري[٣] في التأنيث مَجرى ما لا يعقل، تقول: هي الرجال، وهي الجُذوع، وهي الجِمال، وقالت الأعراب. ويقوِّي ذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عمران:٤٢] وقد ذكَّر في موضع آخرَ فقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام:٩٤] وهذا إجماع. وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد:٢٣]، فتأنيثُ هذا الجمعِ وتذكيرُه حَسَنان.

وقال السُّدِّي: ناداه جبريل وحدَه؛ وكذا في قراءة ابن مسعود[٤]. وفي التنزيل: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل:٢] يعني: جبريل، والروح: الوَحْي. وجائز في العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع. وجاء في التنزيل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران:١٧٣] يعني نُعيم بن مسعود؛ على ما يأتي.

وقيل: ناداه جميع الملائكة، وهو الأظهر، أي: جاء النداء من قِبَلهم[٥].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ «وهو قائِم» ابتداء وخبر، «يصلِّي» في موضع رفع، وإن شئتَ كان نصباً على الحال من المضمر. «أنَّ اللّه» أي: بأن اللّه.

وقرأ حمزة والكِسائيُّ: «إنَّ» أي: قالت: إن اللّه[٦]؛ فالنداءُ بمعنى القول. «يبشِّركَ» بالتشديد قراءةُ أهل المدينة. وقرأ حمزة: «يَبْشُرُك» مخفَّفاً[٧]، وكذلك حُميد ابن قيس[٨] المكّي، إلَّا أنه كَسَر الشين وضم الياء وخفف الباء[٩]. قال الأخفش:

---

(١) الكشف ١/ ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٢) في (خ) و (د) و (م): والملائكة، والمثبت من (خ) وهو الموافق لما في الكشف.

(٣) في (د) و (م): فجرى، والمثبت من (خ) و (ظ) وهو الموافق لما في الكشف.

(٤) أخرجها الطبري في التفسير ٥/ ٣٦٤ - ٣٦٥ ، وذكر أبو حيان في البحر ٢/ ٤٤٦ أنها كذلك في قراءة عبدالله ومصحفه.

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٦) كذا نقل المصنف عن النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٧٣ ، والذي ذكره ابن مجاهد في السبعة ص٢٠٥ ، والداني في التيسير ص٨٧ ، ومكي في الكشف ١/ ٣٤٣ أنها قراءة حمزة وابن عامر.

(٧) وقرأ بها الكسائي أيضاً. السبعة ص٢٠٥ ، والتيسير ٨٧ .

(٨) في (م): حميد بن القيس.

(٩) المحتسب ١/ ١٦١ ، وزاد نسبتها لمجاهد، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٢٩ لابن مسعود ﷺ.

هي ثلاثُ لغاتٍ بمعنىً واحد[١]. دليل الأولى - وهي[٢] قراءة الجماعة - أن ما في القرآن من هذا، من فعل ماضٍ أو أمر، فهو بالتثقيل؛ كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧] ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ [يس: ١١] ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ [هود: ٧١] ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٥٥].

وأما الثانية، وهي قراءة عبد اللّه بن مسعود، فهي من بَشَر يَبْشُر، وهي لغة تِهامة[٣]؛ ومنه قول الشاعر:

بَشَرتُ عِيَالِي إذْ رأيتُ صحيفةً ... أتَتْكَ من الحجَّاج يُتْلَى كتابُها[٤]

وقال آخر:

وإذا رأيتَ الباهِشِينَ إلى النَّدى ... غُبْراً أكُفُّهُمُ بِقاعٍ مُمْحِلِ

فأعِنْهُمُ وابْشَر بما بَشِروا به ... وإذا هُمُ نَزلُوا بضَنْكٍ فانزلِ[٥]

وأما الثالثة فهي من: أَبْشَرَ يُبْشِر إبْشاراً قال:

يا أمَّ عَمْرٍو أبشري بالبُشْرَى ... موتٌ ذريعٌ وجَرادٌ عَظْلَى[٦]

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٧٣. قال ابن عطية في المحرر ١/ ٤٢٩: قال غير واحد من اللغويين في هذه اللفظة ثلاث لغات: بشّر بشد الشين، وبَشَر بتخفيفها، وأبْشَر يُبْشِر إبشاراً، وهذه القراءات كلها متّجهة فصيحة مَرْويَّة.

(٢) في (م): هي.

(٣) تفسير البغوي ١/ ٢٩٨ وهي قراءة حمزة كما سلف. وقال ابن عطية في المحرر ١/ ٤٢٩: وفي قراءة عبدالله بن مسعود: «يُبْشِرك» بضم الياء وتخفيف الشين المكسورة - من أبْشَر - وهكذا قرأ في كل القرآن. وذكر مثل ذلك أيضاً أبو حيان في البحر ٢/ ٤٤٧.

(٤) لم نقف على قائله، وذكره الفراء في معاني القرآن ١/ ٢١٢، والطبري ٥/ ٣٦٨.

(٥) البيتان لعبد قيس بن خُفَاف البُرْجُمِيِّ، وهما في معاني القرآن للفراء ١/ ٢١٢، وتفسير الطبري ٥/ ٣٦٨، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٠٥، واللسان (بشر). وللبيت الثاني رواية أخرى، فهو في المفضليات ص٢٨٥، والأصمعيات ص٢٣٠، والصحاح (يسر)، واللسان (كرب) (يسر) برواية: فأعنهم وايسِرْ بما يَسَروا به.. قال الجوهري: الياسر: اللاعب بالقِداح. قوله: الباهشين، قال في اللسان (بهش): البَهْش: الإسراع إلى المعروف بالفرح.

(٦) لم نقف على قائله، وهو في تهذيب اللغة ٢/ ٢٩٨، واللسان (عظل). قوله: عظلى؛ يقال: تعاظلت الكلاب: إذا لزم بعضها بعضاً في السِّفاد، ويقال ذلك في الجراد أيضاً. المجمل ٣/ ٦٧٥. وقال الأزهري: أراد أن يقول: يا أم عامر، فلم يستقم البيت، فقال: يا أم عمرو، وأم عامر كنية الضبع.

قوله تعالى: ﴿بِيَحْيَىٰ﴾ كان اسمه في الكتاب الأوَّل: حَيَا، وكان اسم سارةَ زوجةِ إبراهيم عليه السلام: يَسَارَة، وتفسيره بالعربية: لا تلد، فلمَّا بُشِّرتْ بإسحاقَ قيل لها: سارة، سمَّاها بذلك جبريلُ عليه السلام، فقالت: يا إبراهيمُ، لِمَ نقصَ من اسمي حرف؟ فقال ذلك إبراهيم[١] لجبريل عليهما السلام، فقال: إن ذلك الحرفَ زِيدَ في اسم ابنٍ لها من أفضل الأنبياء اسمه حَيَى ويُسمَّى[٢] بيحيى؛ ذكره النقاش.

وقال قتَادة: سمِّي بيحيى لأن اللّه تعالى أحياه بالإيمان والنبوَّة. وقال بعضهم: سُمِّي بذلك لأن اللّه تعالى أحيا به الناس بالهُدَى. وقال مُقاتِل: اشتُقَّ اسمه من اسم اللّه تعالى: حَيّ، فسمَّاه[٣] يحيى. وقيل: لأنه أحيا به رَحِمَ أمِّه.

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني عيسى في قول أكثر المفسرين، وسمِّي عيسى كلمةً لأنه كان بكلمة اللّه تعالى التي هي: «كنْ»، فكان من غير أب[٤].

وقرأ أبو السَّمَّال العَدَويُّ: «بكِلْمة» مكسورةَ الكاف ساكنةَ اللام في جميع القرآن[٥]، وهي لغة فصيحةٌ، مثل: كِتْف وفِخْذ.

وقيل: سمِّي كلمةً لأن الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام اللّه تعالى.

وقال أبو عبيدة[٦]: معنى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بكتابٍ من اللّه. قال: والعرب تقول: أَنْشَدَني كلمةً، أي: قصيدة[٧]، كما رُوي أن الحُوَيْدِرَة ذُكِر لحسانٍ، فقال:

---

(١) في (م): فقال إبراهيم ذلك.

(٢) في (خ) و (د) و (م): وسمي، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في التعريف والإعلام ص٣٣، والكلام منه.

(٣) في (خ) و (م): فسمي، والمثبت من (د) و (ظ) وهو الموافق لما في تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٥، والكلام منه، وخبر قتادة أخرجه الطبري ٥/ ٣٧٠.

(٤) تفسير الطبري ٥/ ٣٧١ - ٣٧٣، وتفسير البغوي ١/ ٢٩٨ - ٢٩٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٩.

(٥) ينظر القراءات الشاذة لابن خالويه ص٢١، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٣.

(٦) وقع في النسخ: أبو عبيد والمثبت من المصادر، وانظر التعليق التالي.

(٧) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٩١. ونقله عنه البغوي في تفسيره ١/ ٢٩٨ - ٢٩٩، والماوردي في النكت والعيون ١/ ٣٩٠، والطبرسي في مجمع البيان ٣/ ٧٢، وأبو حيان في البحر ٢/ ٤٤٧، وقد ردَّ هذا الكلام الطبري ٥/ ٣٧٣، وذكر أن ذلك جهل منه بتأويل الكلمة، واجتراءٌ على ترجمة القرآن بالرأي.

لعن اللّه كلمته، يعني قصيدته[١].

وقيل غيرُ هذا من الأقوال، والقولُ الأوّل أشهرُ، وعليه من العلماء الأكثر.

و«يحيى» أوّلُ من آمن بعيسى عليهما السلام وصَدَّقه [فشهد له أنه كلمة اللّه وروحُه] وكان يحيى أكبرَ من عيسى بثلاث سنين، ويقال: بستة أشهر. وكانا ابني خالة، فلما سمع زكريا شهادته قام إلى عيسى فضمَّه إليه وهو في خِرَقِهِ[٢].

وذكر الطبريُّ أن مريم لمَّا حملت بعيسى، حملت أيضاً أختُها بيحيى، فجاءت أختها زائرةً، فقالت: يا مريم أشعرت أني حملتُ؟ فقالت لها مريم: أشعرت أنت أني حملت؟ فقالت لها: وإني لأجدُ ما في بطني يسجد لِمَا في بطنك[٣]. وذلك أنه رُوي أنها أحسَّت جنينَها يَخِرُّ برأسه إلى ناحية بَطْن مريم؛ قال السُّديُّ: فذلك قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾. و«مصدِّقاً» نصب على الحال.

﴿وَسَيِّدًا﴾ السيد: الذي يسود قومَه، ويُنْتَهَى إلى قوله، وأصلُه: سَيْوِد، يقال: فلان أسْوَد من فلان، أَفْعَل، من السيادة؛ ففيه دلالةٌ على جواز تسميةِ الإنسان سيداً، كما يجوز أن يُسمَّى عزيزاً أو كريماً. وكذلك رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال لبني قُريظة: «قوموا إلى سيِّدكم»[٤].

وفي البخاريِّ ومسلم[٥] أن النبيَّ ﷺ قال في الحسن: «إن ابني هذا سيدٌ، ولعلَّ اللّهَ أن[٦] يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين». وكذلك كان، فإنه لما قُتل

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٩٢، والكشاف ١/ ٤٢٨. والحويدرة هو قطبة بن أوس بن محصن، ويسمى أيضاً: الحادرة، ومعناه الضخم، وهو شاعر جاهلي مقل. الأغاني ٢/ ٢٧٠.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٥، وما سلف بين حاصرتين منه، وينظر تفسير البغوي ١/ ٢٩٩.

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٣٧٢، وقد أخرجه من قول ابن عباس بإسناد منقطع وأخرجه أيضاً من قول السدّي. قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٤٤٢: معنى السجود ها هنا الخضوع والتعظيم، كالسجود عند المواجهة للسلام، كما كان في شرع من قبلنا، وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم.

(٤) قطعة من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، أخرجه أحمد (١١١٦٨)، والبخاري (٤١٢١)، ومسلم (١٧٦٨)، قال: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ. قال: فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد، فأتاه على حمار. قال: فلما دنا قريباً من المسجد قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم». الحديث...

(٥) صحيح البخاري (٢٧٠٤)، ولم نقف عليه عند مسلم، وهو عند أحمد (٢٠٣٩٢)، وهو من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٦) قوله: أن، من (ظ).

عليٌّ ﷺ، بايعه أكثرُ من أربعين ألفاً، وكثيرٌ ممن تخلَّف عن أبيه، ومن نَكث بيعتَه، فبقي نحو سبعةَ[(١)] أشهرٍ خليفةً بالعِراق وما وراءها من خُراسان، ثم سار إلى معاويةَ في أهل الحجاز والعراق، وسار إليه معاويةُ في أهل الشام. فلمَّا تراءى الجَمعان بموضعٍ يقال له «مَسْكِن» من أرض السَّواد بناحية الأنبار، كرِه الحسَنُ القتالَ؛ لعلمِه أنَّ إحدى الطائفتين لا تغلِبُ حتى تَهلِك أكثرُ الأخرى، فيَهلك المسلمون؛ فسلَّم الأمرَ إلى معاويةَ على شروط شَرَطها عليه، منها أن يكون الأمر له من بعد معاوية؛ فالتزم كلَّ ذلك معاويةُ. فصدَق قولُه عليه الصلاة والسلام: «إن ابني هذا سيِّدٌ» ولا أسْودَ ممن سوَّده الله تعالى ورسوله.

قال قتَادة في قوله تعالى: «وَسَيِّداً» قال: في العلم والعبادة. ابن جبير والضحاك: في العلم والتُّقى. مجاهد: السيِّد: الكريم. ابن زيد: الذي لا يغلبه الغضب[(٢)]. وقال الزجَّاج[(٣)]: السيد الذي يفوق أقرانه في كلِّ شيءٍ من الخير. وهذا جامع.

وقال الكِسَائيُّ: السيد من المعز المُسِن؛ وفي الحديث: «ثَنِيٌّ من الضَّأْن[(٤)] خيرٌ من السيِّد [من] المعز»[(٥)]. قال:

سـواءٌ عـلـيـه شـاةُ عـامٍ دَنـتْ لـه ... لـيـذبَـحـهـا لـلـضـيـفِ أم شاةُ سيِّدِ[(٦)]

﴿وَحَصُورًا﴾ أصله من الحَصْر، وهو الحبس. حَصَرني الشيءُ وأحصرني: إذا حبسني.

---

(١) في (ظ): ستة، وفي الاستيعاب ٣/ ١٠١ (على هامش الإصابة): أربعة.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٣٧٤ - ٣٧٦ ، وتفسير البغوي ١/ ٢٩٩ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٩ والقول الذي نسبه المصنف لابن زيد نُسب في هذه المصادر لعكرمة، أما قول ابن زيد كما أخرجه الطبري وأورده ابن عطية؛ فهو السيد: الشريف.

(٣) معاني القرآن ١/ ٤٠٦ .

(٤) في (خ) و(د): ثنيُّ الضأن.

(٥) المجمل ٢/ ٤٧٨ ، والصحاح (سود)، وما بين حاصرتين منهما، والحديث أخرجه أحمد (٩٢٢٧)، والحاكم ٤/ ٢٢٧ عن أبي هريرة ﷺ وعندهما: «الجذع من الضأن. . .» وفي إسناده أبو ثِفَال المرِّي ثمامة بن وائل، قال الذهبي في ميزان الاعتدال ٤/ ٥٠٨: قال البخاري: في حديثه نظر. وأخرجه البيهقي ٩/ ٢٧١ من طريق أخرى وضعفها. والجذع من الضأن: هو ما تمت له سنة، وقيل أقل منها، والثَّنِيُّ من الغنم: ما دخل في السنة الثالثة. النهاية ١/ ٢٥٠ ، ٢٢٦ .

(٦) المجمل ٢/ ٤٧٨ ، والصحاح واللسان (سود).

قال ابن ميَّادة[١]:

وما هجرُ ليلَى أن تكونَ تَباعَدتْ … عليكَ ولا أن أحْصَرَتْكَ شُغولُ

وناقة حَصور: ضيِّقةُ الإحليل. والحَصُور: الذي لا يأتي النساء، كأنه مُحجِم عنهن؛ كما يقال: رجلٌ حَصورٌ وحَصيرٌ: إذا حبَس رِفدَه ولم يُخرج ما يُخرجه النَّدامَى. يقال: شرب القوم فحَصِر عليهم فلانٌ، أي: بخِل؛ عن أبي عمرو[٢]؛ قال الأخطل:

وشارِبٍ مُرْبحٍ بالكأس نادمني … لا بالحَصُور ولا فيها بِسوَّارِ[٣]

وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء:٨] أي: مَحْبِساً. والحَصِير: المِلكُ؛ لأنه محجوب.

وقال لبيد:

وقُماقِمٍ غُلْبِ الرِّقابِ كأنهم … جِنٌّ لَدَى بابِ الحَصِير قِيامُ[٤]

فيحيى عليه السلام حَصورٌ، فَعولٌ بمعنى مفعول، لا يأتي النساء، كأنه ممنوعٌ مما يكون في الرجال؛ عن ابن مسعود وغيره. وفعولٌ بمعنى مفعول كثيرٌ في اللغة، من ذلك: حَلوبٌ بمعنى محلوبة[٥]؛ قال الشاعر:

فيها اثنتان وأربعون حَلُوبةً … سُوداً كخافيةِ الغرابِ الأسْحَمِ[٦]

---

(١) الرماح بن أبرد، وأمه ميادة أم ولد، بربرية، وقيل: صَقْلَبية، وكان هو يزعم أنها فارسية، وهو شاعر فصيح مقدم من شعراء الدولتين، وكان يحب مهاجاة الشعراء ومُسَابَّة الناس، توفي في صدر خلافة المنصور. الأغاني ٢/ ٢٦١ . والبيت في ديوانه ص١٨٧ ، والمجمل ١/ ٢٣٩ ، والصحاح (حصر).

(٢) المجمل ١/ ٢٣٨ - ٢٣٩ ، والصحاح (حصر).

(٣) ديوان الأخطل ص١١٦ ، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٠٧ . قال الزجاج: أي نادمني وهو كريم منفق على الندامى، والسوَّار: المعربد يساور نديمه، أي: يثب عليه.

(٤) المجمل ١/ ٢٣٨ ، والصحاح (حصر)، وهو في شرح ديوان لبيد ص٢٩٠ برواية: ومقامة.

قال شارح الديوان: والمقامة: الجماعة يجتمعون في المجلس، وإذا قيل القماقم: فهي جمع القمقام، وهو العدد الكثير، وغُلْب الرقاب: غِلاظُها جمع أغلب.

(٥) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٠٥ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٤ .

(٦) قائله عنترة، والبيت في ديوانه ص١٧ ، قال ابن الأنباري في شرح المعلقات ص٣٠٦ : الخوافي (وهي جمع الخافية): الريش دون الريشات العشر في مقدم الجناح، والأسحم: الأسود.

وقال ابن مسعود أيضاً وابن عباس وابن جُبير وقَتادة وعطاء وأبو الشَّعْثاء والحسنُ والسُّدِّيُّ وابنُ زيد: هو الذي يكُفُّ عن النساء ولا يَقْرَبُهنَّ مع القدرة[١]. وهذا أصح الأقوال[٢] لوجهين:

أحدهما: أنه مَدْحٌ وثناءٌ عليه، والثناءُ إنما يكونُ عن الفعل المكتَسَب دون الجِبِلَّة في الغالب.

الثاني: أن فعولاً في اللغة من صيغ الفاعلين؛ كما قال:

ضَروبٌ بنصلِ السَّيف سُوقَ سِمَانِها إذا عَدِمُوا زاداً فإنك عاقِرُ[٣]

فالمعنى: أنه يحصُر نفسه عن الشهوات. ولعلَّ هذا كان شَرْعَه، فأمَّا شرعُنا فالنكاح[٤]، كما تقدَّم[٥].

وقيل: الحَصورُ: العِنِّين الذي لا ذَكَر له يتأتَّى له به النكاح، ولا يُنزل؛ عن ابن عباس أيضاً وسعيدِ بن المسيب والضَّحَّاك[٦].

وروى أبو صالحٍ، عن أبي هريرةَ قال: سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول: «كلُّ ابنِ آدمَ يلقى الله بذنب قد أذنبه، يعذِّبه عليه إن شاء أو يرحمه، إلَّا يحيى بن زكريا، فإنه كان سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين». ثم أهوى النبيُّ ﷺ بيده إلى قَذاةٍ من الأرضِ،

---

(١) عرائس المجالس ص٣٧٨، وتفسير البغوي ١/ ٢٩٩، ومجمع البيان ٣/ ٧٢، والأخبار المذكورة أخرجها الطبري ٥/ ٣٧٧ - ٣٨١.

(٢) قوله: الأقوال، من (م).

(٣) البيت لأبي طالب في رثاء أبي أمية بن المغيرة وكان زوج أخته عاتكة، وهو في الكتاب ١/ ١١١، والمقتضب ٢/ ١١٤، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٢٤٦، والخزانة ٨/ ١٤٦. والسوق جمع ساق، مدحه بأنه كان يعرقب الإبل للضيفان عند عدم الأزواد، وكانوا إذا أرادوا نحر الناقة ضربوا ساقها بالسيف فخرَّت، ثم نحروها.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٢.

(٥) ٤/ ٧٢ - ٧٣.

(٦) أخرج أقوالهم الطبري ٥/ ٣٧٨ و ٣٧٩ و ٣٨٠، وابن أبي حاتم (٣٤٦٧) (٣٤٦٨).

فأخذها وقال: «كان ذَكَره مثلَ هذه القَذَاة»(١).

وقيل: معناه الحابس نفسَه عن معاصي اللّه عزَّ وجلَّ(٢).

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال الزجّاج(٣): الصالحُ الذي يؤدِّي لله ما افْتَرض عليه، وإلى الناس حقوقَهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾.

قيل: الربُّ هنا جبريلُ، أي: قال لجبريلَ: ربِّ ـ أي: يا سيدي ـ أنَّى يكون لي غلام؟! يعني ولداً؛ وهذا قولُ الكلبيِّ(٤). وقال بعضهم: قوله: «ربِّ» يعني اللّهَ تعالى. «أنَّى» بمعنى: كيف، وهو في موضع نصبٍ على الظرف.

وفي معنى هذا الاستفهام وجهان:

أحدُهُما: أنه سأل: هل يكون له الولدُ وهو وامرأته على حاليهما، أو يُردّان إلى حالِ مَن يَلِد؟.

الثاني: سأل: هل يُرزقُ الولد من امرأته العاقرِ، أو من غيرها.

وقيل: المعنى: بأيِّ منزلة أستوجب هذا وأنا وامرأتي على هذه الحال؟ على وجه التواضع.

ويُروى أنه كان بين دعائه والوقتِ الذي بُشِّر فيه أربعون سنةً، وكان يومَ بُشِّر ابنَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٤٧٠)، والطبراني في المعجم الأوسط (٦٥٥٢)، وابن عدي ٢/ ٦٥١ من طريق حجاج بن سليمان الرُّعيني، عن الليث بن سعد، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، به. قال ابن أبي حاتم: قال أبي: لم يكن هذا الحديث عند أحد غير الحجاج [بن سليمان الرُّعَيْني] ولم يكن في كتاب الليث [بن سعد]. وقال الذهبي في الميزان ١/ ٤٦٢ : حجاج بن سليمان الرعيني عن الليث، قال ابن يونس: في حديثه مناكير، وقال أبو زرعة: منكر الحديث، ومشّاه ابن عدي.

(٢) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٩٤ .

(٣) معاني القرآن١/ ٤٠٧ .

(٤) ذكر أبو حيان في البحر ٢/ ٤٦٢ أن من ذهب إلى أن قوله: «ربِّ»، إنما هو نداء لجبريل، ومعناه: يا سيدي، فقد أبعد، ونقل عن الزمخشري قوله: هو من بدع التفاسير.

تسعين سنةً، وامرأته قريبةُ السنِّ منه. وقال ابن عباس والضحاك: كان يومَ بُشِّر ابنَ عشرين ومئة سنةٍ، وكانت امرأته بنتَ ثمانٍ وتسعين سنةً؛ فذلك قوله: «وامْرَأَتِي عَاقِرٌ» أي: عَقيمٌ لا تلد[١].

يقال: رجل عاقر، وامرأة عاقر: بيِّنة العُقْر، وقد عَقُرت ـ وعَقُر، بضم القاف فيهما ـ تَعْقُر عُقْراً: صارت عاقراً، مثل: حَسُنَتْ تَحْسُنُ حُسْناً؛ عن أبي زيد[٢]. وعَقَارة أيضاً[٣]. وأسماء الفاعِلِين من فَعُل: فَعِيلة، يقال: عَظُمت فهي عظيمة، وظرُفت فهي ظريفة. وإنما قيل: عاقرٌ؛ لأنه يُراد به: ذات عُقْرٍ، على النَّسَب[٤]، ولو كان على الفعل لقال: عَقُرت فهي عقيرة كأنَّ بها عُقْراً، أي: كبراً من السنِّ يمنعها من الولد.

والعاقر: العظيم من الرمل لا يُنبت شيئاً. والعُقْر أيضاً: مَهْرُ المرأة إذا وُطِئت على شُبهة. وبيضة العُقْر ـ زعموا ـ هي بيضةُ الديك؛ لأنه يبيض في عمره بيضةً واحدة إلى الطُّول [ما هي]. وعُقْر النار أيضاً: وسطُها ومعظَمُها. وعُقْر الحوض: مؤخّره حيث تقف الإبل إذا وردت؛ يقال: عُقْر وعُقُر مثل عُسْر وعُسُر، والجمعُ الأعقار[٥] فهو لفظٌ مشترك.

والكاف في قوله: «كذلك» في موضع نصب، أي: يفعل اللّه ما يشاء مثلَ ذلك[٦].

والغلامُ مشتقٌّ من الغُلْمةِ، وهي[٧] شدَّةُ طلبِ النكاح. واغْتَلَم الفحلُ غُلْمةً: هاج

(١) تفسير الطبري ٥/ ٣٨٣، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٠٨، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٣٩٦، وعرائس المجالس ص٣٧٨، وتفسير البغوي ١/ ٢٩٩ - ٣٠٠، ومجمع البيان ٣/ ٧٤.

(٢) الصحاح (عقر).

(٣) في اللسان (عقر): عقُرت المرأة عَقارة وعِقارة.

(٤) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٠٨.

(٥) الصحاح (عقر) وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٤.

(٧) في (خ) و (د) و (م): وهو، والمثبت من (ظ).

من شهوة الضِّرَاب. وقالت لَيْلَى الأَخْيَلِيَّة[١]:

شَفَاها من الداء العُضَال الذي بها غُلامٌ إذا هَزَّ القَنَاةَ سَقَاها

والغلام: الطارُّ الشارب. وهو بيِّن الغُلُومةِ والغُلومِيَّةِ، والجمعُ: الغِلْمة والغِلمان. ويقال: إن الغَيْلم الشابُّ والجاريةُ أيضاً. والغَيْلم: ذَكر السُّلَحْفاة. والغيلم: موضع. واغتلم البحر: هاج وتلاطمت أمواجُه[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ «اجْعَلْ[٣]» هنا بمعنى صيِّر، لتعدِّيه إلى مفعولين. و«لي» في موضع المفعول الثاني[٤].

ولمَّا بُشِّر بالولد ولم يَبْعُد عنده هذا في قدرة اللّه تعالى، طلب آيةً ـ أي: علامة ـ يَعرفُ بها صحةَ هذا الأمرِ، وكونَه من عند اللّه تعالى؛ فعاقبه اللّه تعالى بأن أصابه السكوتُ عن كلام الناس؛ لسؤاله الآيةَ بعد مُشافَهة الملائكةِ إياه؛ قاله أكثر المفسرين[٥]؛ قالوا: وكذلك إن لم يكنْ من مرضٍ؛ خَرَسٍ أو نحوه؛ ففيه على كلِّ حال عقابٌ ما. قال ابن زيد: إن زكريا عليه السلام لمَّا حملت زوجه منه بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحداً، وهو مع ذلك يقرأ التوراةَ ويذكر اللّه تعالى؛ فإذا أراد مقاولَةَ أحدٍ لم يطقه.

---

(١) هي ليلى بنت عبدالله بن الرَّحَّال بن شداد بن كعب بن معاوية، وهي من النساء المتقدمات في الشعر من شعراء الإسلام. الأغاني ١١/ ٢٠٤ . والبيت فيه ٢٤٨/١١، وفي أمالي القالي ٨٦/١ ، وزاد المسير ١/ ٣٨٥ .

(٢) المجمل ٣/ ٦٨٣ ، والصحاح (غلم).

(٣) في (خ) و(د) و(م): جعل.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٤ .

(٥) هذا قول قتادة، وقد أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ١٢٠ ، والطبري ٥/ ٣٨٦ ، وابن أبي حاتم (٣٤٧٨)، وذكرته أغلب كتب التفسير. وانظر عرائس المجالس ص٣٧٩ .

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ الرمز في اللغة الإيماء بالشفتين، وقد يُستعمل في الإيماء بالحاجبين والعينين واليدين؛ وأصله الحركة.

وقيل: طلبَ تلك الآيةَ زيادةَ طمأنينة. المعنى: تَمِّمْ[١] النعمة بأن تجعل لي آية، وتكون تلك الآية زيادة نعمةٍ وكرامة؛ فقيل له: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي: تُمنع من الكلام ثلاثَ ليالٍ؛ دليلُ هذا القولِ قولُه تعالى بعد بشرى الملائكة له: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٩] أي: أوجدْتُك بقدرتي، فكذلك أُوجِدُ لك الولد. واختار هذا القولَ النحاسُ[٢] وقال: قولُ قتادة: إن زكريا عُوقب بترك الكلام قولٌ مرغوبٌ عنه؛ لأن اللّه عزَّ وجلَّ لم يخبرنا أنه أذنب، ولا أنه نهاه عن هذا؛ والقولُ فيه أن المعنى: اجعل لي علامةً تدلُّ على كون الولد؛ إذ كان ذلك مغيَّباً عني.

و «رَمْزاً» نصبٌ على الاستثناء المنقطع؛ قاله الأخفش[٣]. وقال الكِسائي: رَمَز يَرْمُز ويَرْمِز. وقرئ: «إِلَّا رَمَزاً» بفتح الميم، و«رُمُزاً» بضمها وضمِّ الراء، والواحدة رُمْزة[٤].

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على أن الإشارة تنزل منزلةَ الكلام، وذلك موجود في كثير من السنة، وآكد الإشارات ما حكم به النبيُّ ﷺ من أمْرِ السوداء حين قال لها: «أين اللّه»؟ فأشارت برأسها إلى السماء، فقال: «أعْتِقْها فإنها مؤمنة»[٥]. فأجاز

---

(١) في (ظ): تتم.

(٢) إعراب القرآن ١/ ٣٧٥ .

(٣) معاني القرآن ١/ ٤٠٥ .

(٤) نسب ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٠ القراءة الأولى للأعمش، والثانية ليحيى بن وثاب. ونسب ابن جني في المحتسب ص١٦١ القراءة الثانية للأعمش.

(٥) أخرجه بهذه السياقة (يعني أنها أشارت برأسها إلى السماء) الإمام أحمد في المسند (٧٩٠٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده المسعودي، وقد اختلط. وأخرجه أحمد أيضاً (٢٣٧٦٢)، ومسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم مطولاً، وفيه: قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أين الله؟» فقالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. . . وأخرجه أيضاً أحمد (١٥٧٤٣) عن رجل من الأنصار، وفيه: قال لها رسول الله ﷺ: «أتشهدين أن لا إله إلا الله؟» قالت: نعم. قال: «أتشهدين أني رسول الله؟». قالت: نعم. . . قال الشوكاني في شرح الموطأ ٤/ ٨٥: يؤوَّل قوله: قالت: نعم، على أنها قالت بالإشارة، وأنه وقع منها الأمران، فقالت: نعم باللفظ. . . وأشارت إلى السماء حين قوله: أين الله؟. . .

الإسلامَ بالإشارة الذي هو أصلُ الديانة، الذي يَحْرُز الدمَ والمالَ، وتُستحقُّ به الجنة، ويُنَجَّى به من النار، وحَكَم بإيمانها كما يُحكم بنطق مَن يقول ذلك؛ فيجب أن تكون الإشارةُ عاملةً في سائر الديانة، وهو قول عامة الفقهاء[١].

وروى ابن القاسم عن مالك: أن الأخرس إذا أشار بالطلاق أنه يَلْزَمُه[٢]. وقال الشافعيُّ في الرجل يمرض فيختلُّ لسانه: فهو كالأخرس في الرجعة والطلاق. وقال أبو حنيفة: ذلك جائزٌ إذا كانت إشارتُهُ تُعرف، وإن شُكَّ فيها فهي باطلٌ[٣]. وليس ذلك بقياس، وإنما هو استحسان. والقياس في هذا كلِّه أنه باطل؛ لأنه لا يتكلَّم ولا تُعقل إشارته.

قال أبو الحسن بن بطَّال: وإنما حمل أبا حنيفة على قوله هذا أنه لم يعلم السُّنن التي جاءت بجواز الإشارات في أحكامٍ مختلفة في الديانة. ولعلَّ البخاريَّ حاول بترجمته: «باب الإشارة في الطلاق والأمور»[٤] الردَّ عليه.

وقال عطاء: أراد بقوله: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ صومَ ثلاثةِ أيام، وكانوا إذا صاموا لا يتكلَّمون إلَّا رَمْزاً[٥]. وهذا فيه بُعْدٌ. واللّه أعلم.

الرابعة: قال بعض من يجيز نسخَ القرآن بالسُّنَّة: إن زكريا عليه السلام مُنع الكلامَ وهو قادرٌ عليه. وإنه منسوخٌ بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا صَمتَ يوماً[٦] إلى

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٢ .

(٢) المدونة ٣/ ٢٤ .

(٣) مختصر اختلاف العلماء ٢/ ٤٥١ .

(٤) صحيح البخاري، قبل الحديث (٥٢٩٣)، وينظر فتح الباري ٩/ ٤٣٨ .

(٥) عرائس المجالس ص٣٧٩ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٠٠ .

(٦) كذا في النسخ: يوماً (في الموضعين)، والحديث أخرجه أبو داود (٢٨٧٣) من حديث علي ﷺ بلفظ: «لا صمات يومٍ إلى الليل». قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٤/ ١٥٢ - ١٥٣ وقد روي هذا الحديث من رواية جابر بن عبدالله وأنس بن مالك وليس فيها شيء يثبت.

قال عبد الحق في الأحكام الوسطى ٣/ ٣٢٣ : المحفوظ موقوف على علي. قلنا: أخرج الموقوف عبد الرزاق (١١٤٥١) وانظر علل الدارقطني ٤/ ١٤٢ .

الليل». وأكثرُ العلماء على أنه ليس بمنسوخ[١]، وأن زكريا إنما مُنع الكلامَ بآفةٍ[٢] دخلت عليه منعته إياه، وتلك الآفة[٣]: عدمُ المقدرةِ[٤] على الكلام مع الصحة؛ كذلك قال المفسرون[٥].

وذهب كثيرٌ من العلماء إلى أنه: «لا صَمتَ يوماً إلى الليل» إنما معناه: عن ذكر الله، وأما عن الهَذَر وما لا فائدةَ فيه، فالصمتُ عن ذلك حسن.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أمَره بألَّا يتركَ الذكرَ في نفسه مع اعتقال لسانه، على القول الأوَّل. وقد مضى في البقرة معنى الذكر[٦].

وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: لو رُخِّصَ لأحد في ترك الذكرِ لرُخِّص لزكريا بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ ولرُخِّص للرجل يكون في الحرب بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥]. ذكره الطبري[٧].

﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: صلِّ؛ سمِّيت الصلاةُ سُبْحةً لِمَا فيها من تنزيه الله تعالى عن السوء. و«العشيّ» جمع عشيَّة، وقيل: هو واحد. وذلك من حين تزولُ الشمسُ إلى أن تغيب؛ عن مجاهد[٨].

وفي الموطأ[٩] عن القاسم بن محمد قال: ما أدركتُ الناسَ إلَّا وهم يصلُّونَ الظُّهرَ بعشيٍّ. «والإبكار»: من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٢ .
(٢) في (د) و (خ): بآية.
(٣) في النسخ الخطية: الآية، والمثبت من (م).
(٤) في (م): القدرة.
(٥) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٣٢ : وقال قوم من المفسرين: لم تكن آفة، ولكنه منع محاورة الناس فلم يقدر عليها، وكان يقدر على ذكر الله، قاله الطبري. وانظر تفسيره ٥/ ٣٩٠ .
(٦) ٢/ ٤٥٩ - ٤٦٠ .
(٧) في (م) وذكره الطبري، وهو في تفسيره ٥/ ٣٩١ ، وتفسير ابن أبي حاتم (٣٤٨٤)، دون قوله: ولرخص للرجل يكون في الحرب، وأخرجه بتمامه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٢١٥ .
(٨) أخرجه الطبري ٥/ ٣٩٢ .
(٩) ١/ ٩ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أي: اختاركِ، وقد تقدَّم[١]. ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي: من الكفر؛ عن مجاهد والحسن[٢]. الزجَّاج[٣]: من سائر الأدناسِ، من الحيض والنِّفاس وغيرهما، واصطفاك لولادة عيسى.

﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: عالَمِي زمانِها؛ عن الحسن وابن جُريجٍ وغيرهما[٤]. وقيل: «على نساء العالمين» أجْمَعَ إلى يوم الصُّور، وهو الصحيح على ما نبيِّنه، وهو قول الزجَّاج وغيره[٥]. وكرَّر الاصطفاء لأن معنى الأوَّل: الاصطفاء لعبادته، ومعنى الثاني: لولادة عيسى.

وروى مسلم[٦] عن أبي موسى قال: قال رسول اللّه ﷺ: «كَمُلَ من الرجال كثيرٌ، ولم يكمل من النساء غيرُ مريمَ بنتِ عمرانَ، وآسيةَ امرأةِ فرعون، وإن فَضْلَ عائشةَ على النساء، كفضل الثَّريدِ على سائرِ الطعام».

قال علماؤنا رحمة اللّه عليهم[٧]: الكمالُ هو التناهي والتمام؛ ويقال في ماضيه: «كمل» بفتح الميم وضمِّها، و«يَكْمُل» في مضارعه بالضم، وكمال كلِّ شيءٍ بحَسَبِه. والكمالُ المطلَق إنما هو لله تعالى خاصةً، ولا شكَّ أن أكملَ نوعِ الإنسان الأنبياءُ، ثم يليهم الأولياءُ من الصدِّيقين والشهداءِ والصالحين. وإذا تقرَّر هذا فقد قيل: إن الكمالَ المذكورَ في الحديث يعني به النبوَّةَ، فيلزم عليه أن تكون مريمُ عليها السلام

---

(١) ٢/٤٠٦ .

(٢) النكت والعيون ١/ ٣٩٢ ، وأخرج الطبري ٥/ ٣٩٦ وابن أبي حاتم (٣٤٨٩) قول مجاهد.

(٣) معاني القرآن ١/ ٤١٠ .

(٤) زاد المسير ١/ ٣٨٧ وزاد نسبته لابن عباس، وأخرج الطبري ٥/ ٣٩٦ خبر مجاهد. ونقل ابن الجوزي عن ابن الأنباري قوله: وهذا قول الأكثرين.

(٥) معاني القرآن ١/ ٤١٠ .

(٦) صحيح مسلم (٢٤٣١)، وهو عند أحمد (١٩٥٢٣)، والبخاري (٣٤١١).

(٧) المفهم ٦/ ٣٣١ - ٣٣٢ .

وآسيةُ نبيَّتين، وقد قيل بذلك. والصحيح أن مريم نبيَّة؛ لأن اللّه تعالى أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيِّين حَسْبَ ما تقدَّم، ويأتي بيانُه أيضاً في «مريم»[١]. وأما آسيةُ فلم يَرِدْ ما يدلُّ على نبوَّتها دلالةً واضحة، بل على صدِّيقيَّتها وفضلها، على ما يأتي بيانُه في «التحريم»[٢].

ورُوي من طرق صحيحة أنه عليه الصلاة والسلام قال فيما رواه عنه أبو هريرة: «خيرُ نساءِ العالمين أربعٌ: مريمُ بنتُ عمرانَ، وآسيةُ بنتُ مُزَاحِمٍ امرأةُ فرعون، وخديجةُ بنتُ خُوَيْلد، وفاطمةُ بنتُ محمد»[٣].

ومن حديث ابن عباسٍ، عن النبيِّ ﷺ: «أفضلُ نساءِ أهلِ الجنةِ خديجةُ بنتُ خويلدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمد، ومريمُ بنتُ عمرانَ، وآسيةُ بنتُ مُزَاحِمٍ امرأة فرعون»[٤]. وفي طريق آخر عنه: «سيدةُ نساءِ أهلِ الجنةِ بعد مريمَ فاطمةُ وخديجة»[٥].

فظاهرُ القرآن والأحاديث يقتضي أنَّ مريمَ أفضلُ من جميع نساءِ العالَم؛ من حوَّاء إلى آخِرِ امرأة تقوم عليها الساعة؛ فإن الملائكة قد بلَّغتها الوحيَ عن اللّه عزَّ وجلَّ بالتكليف والإخبار والبشارة، كما بلَّغت سائر الأنبياء؛ فهي إذاً نبيَّة، والنبيُّ أفضلُ من الوليِّ، فهي أفضلُ من كلِّ النساء: الأوَّلين والآخِرين مطلقاً. ثم بعدها في الفضيلة فاطمة، ثم خديجة، ثم آسِية. وكذلك رواه موسى بن عقبةَ، عن كُرَيْب، عن ابن

---

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ [الآية: ١٦].

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ [الآية: ١٢].

(٣) المفهم ٦/ ٣١٤، وأخرج الحديث ابن عبد البر في الاستيعاب على هامش الإصابة ١٢/ ١٧٩، وله شاهد من حديث أنس ﷺ أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٩٦١)، وابن حبان، (٦٩٥١)، والطبراني في المعجم الكبير ٢٢/ (١٠٠٤).

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٦٨)، وأبو يعلى (٢٧٢٢)، والطبراني (١١٩٢٨)، والحاكم ٣/ ١٨٥ وصححه، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٢٣: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجالهم رجال الصحيح.

(٥) المفهم ٦/ ٣١٤، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢١٧٩) وزاد في آخره: «وآسية امرأة فرعون» قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٠١: رواه الطبراني في الأوسط والكبير ورجال الكبير رجال الصحيح.

عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيدةُ نساء العالمين مريم، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم آسِية». وهذا حديثٌ حسن يرفع الإشكال[١].

وقد خَصَّ الله مريمَ بما لو يؤته أحداً من النساء، وذلك أن روحَ القُدُسِ كلَّمها وظهر لها، ونفخ في دِرعها، ودنا منها للنفخة، فليس هذا لأحدٍ من النساء. وصدَّقت بكلمات ربِّها، ولم تسأل آيةً عندما بُشِّرت كما سأل زكريا ﷺ من الآية[٢]؛ ولذلك سمَّاها الله في تنزيله صِدِّيقةً، فقال: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة:٧٥]، وقال: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢]. فشهد لها بالصدِّيقيَّة، وشهد لها بالتصديق لكلمات البشرى، وشهد لها بالقُنُوت.

وإنما[٣] بُشِّر زكريا بغلام، فلَحظ إلى كِبَرِ سنِّه وعَقَامةِ رحم امرأته، فقال: أنَّى يكون لي غلام وامرأتي عاقر[٤]، فسأل آيةً؛ وبُشِّرتْ مريمُ بالغلام[٥]، فلحظَت أنها بِكْرٌ ولم يمسَسْها بشرٌ، فقيل لها: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [مريم:٢١]، فاقتصرت على ذلك، وصدَّقْت بكلمات ربِّها، ولم تسأل آيةً ممن يعلم كُنْهَ هذا الأمر. ومن أين[٦] لامرأةٍ في جميع نساء العالمين من بنات آدم ما لها من هذه المناقب؟!

ولذلك رُوي أنها سبقت السابقين مع الرسل إلى الجنة؛ جاء في الخبر عنه ﷺ: «لو أقسمتُ لبرَرْتُ، لا يدخل الجنة قبل سابقي أمتي إلَّا بضعةَ عشرَ رجلاً، منهم إبراهيمُ، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباطُ، وموسى، وعيسى، ومريمُ ابنة عمران»[٧].

---

(١) المفهم ٦/ ٣١٥، والحديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٣/ (٢) لكن في إسناده محمد بن حسن ابن زَبالة، وهو متروك، كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٢٣، ويغني عنه الأحاديث السالفة قبله.

(٢) قوله: من، ليس في (ظ).

(٣) في (ظ): ولما.

(٤) لفظ الآية (٤٠) من آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

(٥) في (خ) و (ظ): بغلام.

(٦) قوله: أين، من (ظ).

(٧) أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ٢/ ٣٤٤، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٣٦٨) من حديث عتبة بن عبد ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٦٩: فيه بقية [بن الوليد] وهو ثقة لكنه مدلس.

وقد كان يحِقُّ على من انتحل علمَ الظاهرِ، واستدلَّ بالأشياء الظاهرة على الأشياء الباطنة، أن يعرف قولَ رسول اللّه ﷺ: «أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ ولا فخر»[(١)] وقوله حيث يقول: «لِواءُ الحمدِ يومَ القيامةَ بيدي، ومفاتيح الكرم بيدي، وأنا أوَّلُ خطيبٍ، وأوَّلُ شفيعٍ، وأوَّلُ مُبشِّرٍ، وأوَّل وأوَّل»[(٢)]. فلم ينل هذا السُّؤدد في الدنيا على الرسل إلَّا لأمرٍ عظيم في الباطن. وكذلك شأنُ مريم لم تنل شهادة اللّه في التنزيل بالصدِّيقيَّة والتصديقِ بالكلمات إلَّا لمرتبة قريبة دانية.

ومن قال: لم تكن نبيَّةً، قال: إن رؤيَتها للملك كما رُؤي جبريلُ عليه السلام في صفة دِحية الكلبيِّ حين سؤاله عن الإسلام والإيمان، ولم تكن الصحابة بذلك أنبياءَ، والأولُ أظهرُ وعليه الأكثر. واللّه أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: أطيلي القيامَ في الصلاة. عن مجاهد. قتادة: أديمي الطاعةَ[(٣)]. وقد تقدَّم القولُ في القنوت[(٤)]؛ قال الأوزاعِيُّ: لمَّا قالت لها الملائكة ذلك، قامت في الصلاةِ حتى وَرِمَتْ قدماها وسالت دماً وقيحاً عليها السلام[(٥)].

﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي﴾ قدَّم السجود هاهنا على الركوع؛ لأن الواو لا توجب الترتيب، وقد تقدَّم الخلافُ في هذا في البقرة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾. فإذا قلتَ: قام زيد وعمرو جاز أن يكون عمرو قام قبل زيد، فعلى هذا يكون المعنى: واركعي واسجدي. وقيل: كان شرعهم السجودَ قبل الركوع. ﴿مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾ قيل: معناه: افعلي كفعلهم وإن لم تصلِّي معهم. وقيل: المراد به صلاةُ

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن حبان (٦٢٤٢) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه وأحمد (١٠٩٨٧) وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وسلف ٣/ ٢٦٢ .

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٦١٠) وقال: حسن غريب. وينظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٣) النكت والعيون ١/ ٣٩٢ .

(٤) ٢/ ٣٣٤ - ٣٣٥ و ٤/ ١٨٤ .

(٥) تفسير البغوي ١/ ٣٠١ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٣٤ ، وأخرجه الطبري ٥/ ٣٩٩ ، وابن أبي حاتم (٣٤٩٦) .

الجماعة[١]. وقد تقدَّم في البقرة[٢].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: الذي ذكرنا من حديث زكريا ويحيى ومريمَ عليهم السلام من أخبار الغيب. ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ فيه دلالة على نبوَّة محمد ﷺ، حيث أخبر عن قصة زكريا ومريم ولم يكن قرأ الكتب، وأخبر عن ذلك وصدَّقه أهل الكتاب بذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾. فردَّ الكناية إلى «ذلك» فلذلك ذُكِّر[٣]. والإيحاء هنا: الإرسال إلى النبيِّ ﷺ. والوحيُ يكون إلهاماً وإيماءً وغير ذلك. وأصلُه في اللغة: إعلامٌ في خفاء، ولذلك صار الإلهام يسمَّى وحياً، ومنه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة:١١١]، وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨].

وقيل: معنى ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾: أمرتهم، يقال: وَحَى وأَوْحَى، ووَمَى وأَوْمَى بمعناه[٤]. قال العجَّاج:

أوحى لها القرارَ فاستقرَّتِ[٥]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٦، والنكت والعيون ١/ ٣٩٢، وتفسير البغوي ١/ ٣٠١. ورأي ابن عطية رحمه الله في المحرر ١/ ٤٣٤: أن مريم أمرت بالقنوت والسجود وهذان يختصان بصلاتها مفردة، ثم أمرت ـ بعدُ ـ بالصلاة في الجماعة، فقيل لها: ﴿واركعي مع الراكعين﴾ وقُصد هنا مَعلم من معالم الصلاة؛ لئلا يتكرر اللفظ، ولم يرد بالآية السجود والركوع الذي هو منتظِم في ركعة واحدة.

(٢) ٢/ ٢٥.

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٧، وتفسير البغوي ١/ ٣٠١.

(٤) في النسخ: رمى وأرمى، والتصويت من تهذيب اللغة ٥/ ٢٩٦ - ٢٩٧، واللسان (وحى)، وتاج العروس (ومى).

(٥) ديوانه ١/ ٤٠٨ - ٤٠٩ وبعده: وشدها بالراسيات الثبَّت. ورواية الديوان: وحى لها...، قال ابن دريد في الجمهرة ٢/ ١٩٨، والجوهري في الصحاح (وحى): ويروى: أوحى لها.

أي: أمر الأرضَ بالقرار. وفي الحديث: «الوَحَى الوَحَى»[١] وهو السرعة، والفعل منه تَوَحَّيتُ تَوَحِّياً. قال ابن فارس[٢]: الوحيُ الإشارة والكتابة[٣] والرسالة، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك حتى يعلمه وحيٌ كيف كان. والوَحِيُّ: السريع. والوَحَى الصَّوْت، ويقال: استوحيناهم، أي: استصرخناهم. قال:

أوحيتُ ميموناً لها والأزرقَ[٤]

الثانية: قوله تعالى ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: وما كنتَ يا محمد لديهم، أي: بحضرتهم وعندهم. ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ﴾ جَمْعُ قَلَم، مِن قَلَمَه: إذا قطعه. قيل: قِدَاحهم وسهامهم. وقيل: أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة، وهو أجود، لأن الأزلام قد نَهى الله عنها، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة:٣]. إلَّا أنه يجوز أن يكونوا فعلوا ذلك على غير الجهة التي كانت عليها الجاهلية تفعلها[٥].

﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ أي: يحضُنها، فقال زكريا: أنا أحقُّ بها، خالتُها عندي. وكانت عنده أشيعُ بنتُ فاقود أختُ حَنَّةَ بنتِ فاقود أمِّ مريم. وقال بنو إسرائيل: نحن أحقُّ بها، بنت عالِمنا. فاقترعوا عليها، وجاء كلُّ واحد بقلمه، واتفقوا أن يجعلوا الأقلام في الماء الجاري، فمَن وقف قلمه ولم يُجرِه الماء[٦] فهو حاضنها[٧]. قال

---

(١) قطعة من خطبة أبي بكر الصديق ﷺ أخرجها هنّاد في الزهد ٤٩٥، والطبري في التاريخ ٣/ ٢٢٣ - ٢٢٤، والحاكم ٢/ ٣٨٣ - ٣٨٤، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٤ - ٣٥. وأخرجها أحمد في الزهد ص٣٤٠ عن الحسن، وذكر الأزهري في تهذيب اللغة ٥/ ٢٩٨، والجوهري في الصحاح (وحى)، والميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٣٩٢ أن من كلام العرب قولهم: الوحَى الوحَى، أي العَجَلَ العَجَل. وقال ابن الأثير في النهاية (وحى): يُمدّ ويقصر، يقال: توحَّيتُ تَوَحِّياً: إذا أسرعتَ، وهو منصوب على الإغراء بفعل مضمر.

(٢) مجمل اللغة ٤/ ٩١٩.

(٣) في النسخ: والكتاب، والمثبت من (م).

(٤) في (د) و(ز) و(م): والأزراق، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق لما في المجمل، ولم نقف على قائله.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٦.

(٦) في (خ): ولم يجر بالماء، وفي (ظ): ولم يجر مع الماء، وفي أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٣ (والكلام منه): ولم يجر في الماء.

(٧) في (ظ) وأحكام القرآن: صاحبها.

النبيُّ ﷺ: «فَجَرَتِ الأقلام وعالَ قلمُ زكريا»[١]. وكانت آيةً له، لأنه نبيٌّ تجري الآيات على يديه. وقيل غير هذا.

و﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ ابتداء وخبر في موضع نصبٍ بالفعل المضمَر الذي دلَّ عليه الكلام، التقدير: ينظرون أيُّهم يكفل مريم. ولا يعمل الفعل في لفظ «أي» لأنها استفهام[٢].

الثالثة: استدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القُرْعة، وهي أصلٌ في شرعنا لكلِّ مَن أراد العدل في القسمة، وهي سنَّةٌ عند جمهور الفقهاء في المستَوِيين في الحجة ليُعدلَ بينهم وتطمئنَّ قلوبهم، وترتفعَ[٣] الظِّنَّة عمن يتولَّى قسمتهم، ولا يَفْضُلَ أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد، اتباعاً للكتاب والسنَّة.

وردَّ العملَ بالقُرْعة أبو حنيفة وأصحابُه، وردُّوا الأحاديث الواردة فيها، وزعموا أنها لا معنَى لها وأنها تشبه الأزلام التي نَهى اللّه عنها. وحكى ابن المنذر[٤] عن أبي حنيفة أنه جوَّزها وقال: القرعةُ في القياس لا تستقيم، ولكنَّا تركنا القياس في ذلك وأخذنا بالآثار والسنَّة.

قال أبو عبيد[٥]: وقد عمِل بالقرعة ثلاثةٌ من الأنبياء: يونس وزكريا ونبيُّنا محمدٌ ﷺ. قال ابن المنذر: واستعمال القرعة كالإجماع من أهل العلم فيما يقسم بين الشركاء، فلا معنى لقول مَن ردَّها[٦].

---

(١) لم نقف عليه مرفوعاً، وعلقه البخاري في صحيحه بصيغة الجزم عن ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الشهادات، باب القُرعة في المشكلات (الفتح ٥/ ٢٩٢) ووصله البيهقي في السنن ١٠/ ٢٨٦ - ٢٨٧، وأخرجه الطبري ٥/٣٤٨ عن عكرمة قوله. وعن السُّدِّيِّ كذلك مطولاً. قال الحافظ في الفتح ٥/ ٢٩٤: قوله: وعال قلم زكريا، أي: ارتفع، وفي رواية الكشميهني: وعلا ، وفي نسخة: وعدا بالدال.

(٢) مشكل إعراب القرآن ١/ ١٥٩ ، وتتمة كلامه: ولا يعمل في الاستفهام ما قبله.

(٣) في (ظ): وتدفع.

(٤) الإشراف ٢/ ٤٤٢.

(٥) بنحوه في غريب الحديث ٢/ ٢٣٤.

(٦) إكمال المعلم ٨/ ٢٨٦ ، والمفهم ٧/ ٣٦٥ وشرح النووي لصحيح مسلم ١٧/ ١٠٣.

وقد ترجم البخاريُّ في آخر كتاب الشهادات: باب القُرْعةِ في المشكِلات وقولِ اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ﴾ وساق حديثَ النعمان بن بشير: « مَثَلُ القائم على حدود اللّه والمُدْهِنِ فيها كمَثَل[١] قومٍ اسْتَهَمُوا على سفينةٍ » الحديث[٢]. وسيأتي في «الأنفال» إن شاء اللّه تعالى، وفي سورة «الزخرف» أيضاً بحَوْلِ اللّه سبحانه[٣]. وحديثَ أمِّ العلاء، وأن عثمان بن مَظْعُون طار لهم سَهمُه في السُّكْنَى حين اقترعت الأنصار سُكْنَى المهاجرين، الحديث[٤]، وحديثَ عائشة قالت: كان رسول اللّه ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنَّ خرج سهمها خرج بها، وذكر الحديث[٥].

وقد اختلفت الرواية عن مالك في ذلك، فقال مرَّةً: يُقْرِع، للحديث. وقال مَرَّة: يسافِر بأوفقهنَّ له في السفر[٦]. وحديثُ أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «لو يعلمُ الناس ما في النِّداءِ والصَّفِّ الأول، ثم لم يجدوا إلَّا أن يَسْتَهِموا عليه لاستهموا»[٧]. والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرة. وكيفيةُ القُرْعة مذكورةٌ في كتب الفقه والخلاف.

واحتجَّ أبو حنيفة بأن قال: إن القرعة في شأن زكريا وأزواجِ النبيِّ ﷺ كانت ممَّا لو تراضَوْا عليه دون قرعةٍ لجاز. قال ابن العربيِّ[٨]: وهذا ضعيف، لأن القرعة إنما فائدتُها استخراجُ الحكم الخَفِيِّ عند التَّشَاحِّ، فأما ما يُخرجه التراضي فبابٌ آخر، ولا يصحُّ لأحد أن يقول: إن القرعة تجري مع موضِع التراضي، فإنها لا تكون أبداً مع التراضي، وإنما تكون فيما يَتَشاحُّ الناس فيه ويُضَنُّ به.

وصفة القرعة عند الشافعيِّ ومَن قال بها: أن تُقطع رِقاعٌ صغار مستوية، فيكتب في كلِّ رقعةٍ اسمُ ذي السهم، ثم تجعل في بنادق طينٍ مستوية لا تفاوتَ فيها، ثم

---

(١) في (م): مثل.

(٢) صحيح البخاري (٢٦٨٦)، وهو عند أحمد (١٨٣٦١)، قوله: المدهن، أي: المحابي. الفتح ٥/ ٢٩٥.

(٣) الآية: ٢٥ من سورة الأنفال، والآية: ٣٣ من سورة الزخرف.

(٤) صحيح البخاري (٢٦٨٧)، وهو عند أحمد (٢٧٤٥٧).

(٥) صحيح البخاري (٢٦٨٨)، وهو عند أحمد (٢٥٦٢٣)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٦) إكمال المعلم ٨/ ٢٨٧، والمفهم ٧/ ٣٦٥ - ٣٦٦.

(٧) أخرجه أحمد (٧٢٢٦)، والبخاري (٢٦٨٩).

(٨) أحكام القرآن ١/ ٢٧٣.

تجفَّف قليلاً، ثم تُلقى في ثوب رجل لم يحضُر ذلك، ويغطِّي عليها ثوبه، ثم يدخل يده ويُخرج، فإذا أخرج[(١)] اسم رجل أُعطي الجزء الذي أُقرع عليه.

الرابعة: ودلَّت الآية أيضاً على أن الخالة أحقُّ بالحضانة من سائر القرابات ما عدا الجدَّة، وقد قضى النبيُّ ﷺ في ابنة حمزة ـ واسمُها أَمَةُ الله ـ لجعفر، وكانت عنده خالتُها، وقال: «إنما الخالةُ بمنزلة الأم»[(٢)]. وقد تقدَّمت في البقرة هذه المسألة[(٣)].

وخرَّج أبو داود[(٤)] عن عليٍّ قال: خرج زيد بن حارثة إلى مكة فقدِم بابنة حمزة، فقال جعفر: أنا آخذُها، أنا أحقُّ بها، ابنةُ عمي وخالتُها عندي، وإنما الخالةُ أم. فقال عليٌّ: أنا أحقُّ بها، ابنةُ عمي وعندي ابنةُ رسول الله ﷺ، فهي أحقُّ بها. وقال زيد: أنا أحقُّ بها، أنا خرجتُ إليها وسافرتُ وقدِمت بها، فخرج النبيُّ ﷺ، فذكر حديثاً؛ قال: «وأما الجاريةُ فأقضي بها لجعفر تكونُ مع خالتها، وإنما الخالةُ أمٌّ»[(٥)].

وذكر ابن أبي خَيْثَمة[(٦)] أن زيد بن حارثة كان وصِيَّ حمزة[(٧)]، فتكون الخالةُ على هذا أحقَّ من الوصِيِّ، ويكون ابن العم إذا كان زوجاً غيرَ قاطعٍ بالخالة في الحضانة، وإن لم يكن مَحْرَماً لها[(٨)].

---

(١) في النسخ الخطية: خرج والمثبت من (م).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٩) من حديث البراء بن عازب. قال الحافظ في الفتح ٧/ ٥٠٥: ابنة حمزة اسمها عمارة، وقيل: فاطمة، وقيل: أمامة، وقيل: أمة الله، وقيل: سلمى، والأول هو المشهور، ونقل في الإصابة ١٢/ ١٢٦ عن الخطيب: أن رسول الله ﷺ زوجها من سلمة بن أم سلمة.

(٣) ٤/ ١١٣.

(٤) سنن أبي داود (٢٢٧٨)، وهو عند أحمد (٧٧٠)، وتقدم ٤/ ١١٣.

(٥) جاء في رواية أحمد: فقال رسول الله ﷺ: «أمَّا أنت يا جعفر، فأشبَهْتَ خَلْقي وخُلُقي، وأمَّا أنت يا عليُّ، فمنِّي وأنا منك، وأما أنت يا زيد، فأخونا ومَوْلانا، والجاريةُ عند خالتها فإن الخالة والدة». ووقع هذا أيضاً عند البخاري من حديث البراء السالف.

(٦) واسمه أحمد بن زهير بن حرب، صاحب كتاب «التاريخ الكبير» الكثير الفائدة، توفي في سنة (٢٧٩هـ). السير ١١/ ٤٩٢.

(٧) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ١٥٩ من حديث ابن عباس ﷺ، وهو من رواية الواقدي.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٤.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

دليلٌ على نبوَّتها كما تقدَّم. و«إذ» متعلقةٌ بـ «يختصِمون». ويجوز أن تكون متعلقةً بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾[١].

﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ وقرأ أبو السَّمَّال[٢]: «بِكِلْمَة»، وقد تقدَّم. ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ ولم يقل: اسمها: لأن معنى «كلمة»: ولد[٣]. والمسيح لقبٌ لعيسى، ومعناه: الصدِّيق، قاله إبراهيم النخعيُّ[٤]. وهو فيما يقال معرَّب، وأصله الشين وهو مشترك.

قال ابن فارس[٥]: والمسِيح: العَرَق، والمَسِيح: الصِّدِّيق، والمَسِيح: الدرهم الأطلسُ لا نقشَ فيه. والمَسْح: الجماع، يقال: مسحها. والأَمْسح: المكان الأملس. والمَسْحَاءُ: المرأة الرَّسْحاء التي لا اسْتَ لها. وبفلان مَسْحة من جمال. والمسائح قِسِيٌّ جِياد، واحدتها مَسِيحة. قال:

لـهـا مَـسـائـحُ زُورٌ فـي مـراكِـضـهـا لِـيـنٌ ولـيـس بـهـا وَهْـيٌ ولا رَقَـق[٦]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٧ . قال ابن عطية في المحرر ١/ ٤٣٥ : وهذا كله يردُّه المعنى ، لأن الاختصام لم يكن عند قول الملائكة .

(٢) في (د): السماك ، وفي (خ) و(ظ): سماك ، وفي (م): السمان ، والمثبت هو الصواب، وسلف ص١١٥ ، عند قوله تعالى: (مصدقاً بكلمة من الله)، ونسبها لأبي السمال أيضاً أبو حيان في البحر ١/ ٤٤٧ .

(٣) في (خ) و(د) و(ز) و(م): لأن معنى كلمة معنى ولد ، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٧ ، والكلام منه .

(٤) علقه عنه البخاري بصيغة الجزم في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك . .﴾. وأخرجه الطبري ٥/ ٤٠٩ ، وابن أبي حاتم (٣٥١٦) . ونقل الأزهري في تهذيب اللغة ٤/ ٣٤٧ عن أبي بكر بن الأنباري قوله: واللغويون لا يعرفون هذا ، قال: ولعل هذا كان مستعملاً في بعض الأزمان ، فدَرَس فيما درس من الكلام .

(٥) المجمل ٣/ ٨٣٠ وما قبله منه.

(٦) المجمل ٣/ ٨٣٠ ، والصحاح واللسان (مسح)، ووقع في (م) والصحاح واللسان: وهن، بدل: وهي، ونسبه ابن منظور في اللسان لأبي الهيثم التغلبي، ونقل عن ابن بري قوله: صواب: إنشاده: لنا مسائح، أي: لنا قسِيٌّ. وزور: جمع زوراء وهي المائلة ، ومراكضها: يريد مِرْكَضَيْها وهما جانباها من عن يمين الوتر ويساره، والوهن والرقق: الضعف.

واختُلِف في المسيح ابن مريم مماذا أخذ؟ فقيل: لأنه مسح الأرض، أي: ذهب فيها فلم يستكِنَّ بِكِنٍّ، ورُوِي عن ابن عباس أنه كان لا يمسح ذا عاهةٍ إلَّا بَرِئ، فكأنه سُمِّي مسيحاً لذلك، فهو على هذا فعيلٌ بمعنى فاعل.

وقيل: لأنه ممسوحٌ بدهن البركة، كانت الأنبياء تُمسح به، طيِّبِ الرائحة، فإذا مُسح به عُلم أنه نبيّ.

وقيل: لأنه كان ممسوح الأَخْمَصَيْن. وقيل: لأن الجمال مَسَحَه، أي: أصابه وظهر عليه. وقيل: إنما سُمي بذلك لأنه مُسح بالطُّهر[(١)] من الذنوب.

وقال أبو الهيثم[(٢)]: المسيح ضِدُّ المسيخ، يقال: مَسَحَه اللّه، أي: خلقه خَلْقاً حسناً مباركاً، ومسخه أي: خَلَقه خلقاً ملعوناً قبيحاً. وقال ابن الأعرابيّ: المسيح الصِّدِّيق [وبه سمي عيسى]، والمسيخ الأعور، وبه سُمِّي الدجَّال. وقال أبو عبيد: المسيح أصلُه بالعبرانية مَشِيحاً، بالشين، فعرِّب كما عُرِّب موشى بموسى. وأما الدَّجَّال فسمِّي مسيحاً لأنه ممسوح إحدى العينين. وقد قيل في الدَّجَّال مِسِّيح، بكسر الميم وشدِّ السِّين. وبعضُهم يقوله[(٣)] كذلك بالخاء المنقوطة. وبعضهم يقول: مَسِيخ، بفتح الميم وبالخاء والتخفيف، والأوَّل أشهرُ وعليه الأكثر. سمِّي به لأنه يسيح في الأرض، أي: يطوفُها، ويدخل جميع بلدانها، إلَّا مكةَ والمدينة وبيتَ المقدس، فهو فَعِيل بمعنى فاعل، فالدجَّال يمسح الأرض مِحْنَةً، وابن مريم يمسحها مِنْحةً. وعلى أنه ممسوح العين فعيل بمعنى مفعول[(٤)]. وقال الشاعر:

---

(١) في النسخ الخطية: بالتطهير والمثبت من (م).

(٢) أبو الهيثم الرازي، اشتهر بكنيته، كان بارعاً حافظاً صحيح الأدب، عالماً ورعاً كثير الصلاة، من كتبه: الشامل في اللغة، والفاخر في اللغة، توفي سنة (٢٧٦هـ). إنباه الرواة ٤/ ١٨٢ ، ومقدمة تهذيب اللغة ١/ ٢٦

(٣) في (ظ) و(م): يقول.

(٤) تهذيب اللغة ٤/ ٣٤٧ - ٣٤٨ ، وإكمال المعلم ١/ ٥١٩ - ٥٢٠ ، والمفهم ١/ ٣٩٨ - ٣٩٩ ، وما بين حاصرتين مثبت من هذه المصادر. وينظر كذلك المحرر الوجيز ١/ ٤٣٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٧ .

إنَّ المسِيحَ يقتلُ المسِيحا[(١)]

وفي صحيح مسلم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ليس مِن بلدٍ إلّا سَيَطَؤُه الدجّال إلاّ مكّةَ والمدينةَ» الحديث[(٢)]. ووقع في حديث عبد اللّه بن عمرو: «إلا الكعبةَ وبيتَ المقدس» ذكره أبو جعفر الطبري[(٣)].

وزاد أبو جعفر الطَّحَاويُّ: «ومسجد الطور»، رواه من حديث جُنَادَة بنِ أبي أمية، عن بعض أصحاب النبيِّ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ[(٤)].

وفي حديث أبي بكر بن أبي شيبة، عن سَمُرةَ بن جُنْدُب، عن النبيِّ ﷺ: «وأنه سيظهرُ على الأرض كلِّها إلّا الحرمَ وبيتَ المقدس، وأنه يَحصُر المؤمنين في بيت المقدس» وذكر الحديث[(٥)].

وفي صحيح مسلم: «فبينا هو كذلك، إذ بعث اللّه المسيحَ ابنَ مريم، فينزلُ عند المنارةِ البيضاءِ شَرْقِيَّ دِمَشق، بين مَهْرُودتين، واضِعاً كفَّيه على أجنحةِ مَلَكَيْن، إذا طَأْطَأَ رأسه قَطَر، وإذا رَفَعَه تحدَّر منه جُمَان كاللؤلؤ، فلا يَحِلُّ لكافر يجدُ ريح نَفَسه إلا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفُه، فيطلبه حتى يُدْرِكَه بباب لُدٍّ فيقتلُه» الحديث بطوله[(٦)].

---

(١) في (د) و(ظ) و(م): المسيخا، والمثبت من (خ)، وهو الموافق لما في تهذيب اللغة ٤/ ٣٤٧ ، ومجمع البيان ٢/ ٨٠ ، واللسان (مسح) ، وهو في التهذيب واللسان برواية: إذا المسيح. وفي مجمع البيان: إذ المسيح، ولم نقف على قائله.

(٢) صحيح مسلم (٢٩٤٣) ، وأخرجه البخاري (١٨٨١) ، وهو عند أحمد بنحوه (١٢٩٨٦) .

(٣) لم نقف عليه عند الطبري، ونسبه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٣٥٠ إلى الطبراني وقال: وفيه من لم أعرفهم.

(٤) شرح مشكل الآثار (٥٦٩٢) ، وهو عند أحمد (٢٣٠٩٠) ، قال الحافظ في الفتح ١٣/ ١٠٥: رجاله ثقات.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٤٦٩ ، وهو عند أحمد (٢٠١٧٨) ، والحاكم ١/ ٣٣٠ وصححه.

(٦) صحيح مسلم (٢٩٣٧) ، وهو عند أحمد (١٧٦٢٩) من حديث النَّوَّاس بن سمعان الكلابي. قوله: بين مهرودتين، أي: في شُقَّتَيْن أو حُلَّتين، وقيل: الثوب المهرود: الذي يصبغ بالورس ثم بالزعفران، فيجيء لونه مثل لون زهرة الحوذانة. النهاية ٥/ ٢٥٨ . وقال القاضي عياض في إكمال المعلم ٨/ ٤٨٦ : قوله: لا يحل، قيل: لا يمكن، ومعناه عندي: واجب وحق.

وقد قيل: إن المسيح اسمٌ لعيسى غيرُ مشتقٌ؛ سمَّاه اللّه به[١]. فعلى هذا يكون عيسى بدلاً من المسيح، من البدل الذي هو هو.

وعيسى اسم أعجميٌّ، فلذلك لم ينصرف، وإن جعلتَه عربياً لم ينصرف في معرفة ولا نكرة، لأن فيه ألف تأنيث. ويكون مشتقاً من عاسَه يَعُوسُه: إذا ساسَه وقامَ عليه[٢].

﴿وَجِيهًا﴾ أي: شريفاً ذا جاهٍ وقَدْر، وانتصب على الحال، قاله الأخفش. ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عِند اللّه تعالى، وهو معطوف على «وجيهاً» أي: ومُقَرَّباً، قاله الأخفش. وجَمْعُ وجيه: وُجَهَاء ووِجاه[٣]. ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ عطف على «وجيهاً»، قاله الأخفش أيضاً.

و﴿ٱلْمَهْدِ﴾ مضجع الصبيِّ في رضاعه. ومَهَّدْتُ الأمر: هيَّأْتُه ووطَّأْتُه. وفي التنزيل ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]. وامتَهد الشيءُ: ارتفع كما يمتهد سَنَام البعير. ﴿وَكَهْلًا﴾ الكهلُ بين حال الغلومة وحال الشيخوخة. وامرأة كَهْلَة. واكتَهلت الروضة: إذا عمَّها النَّوْر[٤]. يقول: يكلِّم الناس في المهد آيةً، ويكلمهم كهلاً بالوحي والرسالة.

وقال أبو العباس[٥]: كلَّمهم في المهد حين برَّأ أمَّه، فقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ الآية [مريم: ٣٠]. وأما كلامه وهو كهل؛ فإذا أنزله اللّه تعالى أنزله على[٦] صورة ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة، وهو الكهل، فيقول لهم: «إني عبد اللّه» كما قال في المهد. فهاتان آيتان وحُجَّتان.

قال المهدوِيُّ: وفائدة الآية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلِّمهم في المهد،

---

(١) المفهم ١/ ٣٩٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٧.

(٣) في (خ) و(م): ووِجهاء، والمثبت من (د) و(ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٧ والكلام منه، وكلام الأخفش في معاني القرآن ١/ ٤٠٧.

(٤) مجمل اللغة ٣/ ٨١٨ (مهد)، و٣/ ٧٧٣ (كهل).

(٥) هو ثعلب، أحمد بن يحيى، وقد نقل الأزهري هذا القول عنه بنحوه في تهذيب اللغة ٦/ ١٨.

(٦) في النسخ الخطية: في. والمثبت من (م).

ويعيش إلى أن يكلِّمهم كهلاً، إذ كانت العادة أنَّ من تكلم في المهد لم يعش.

قال الزجَّاج: «وكهلاً» بمعنى: ويكلِّم الناس كهلاً. وقال الفرَّاء والأخفش: هو معطوف على «وجِيهاً»[(١)]. وقيل: المعنى: ويكلِّم الناسَ صغيراً وكهلاً. وروى ابن جُريج عن مجاهد قال: الكهلُ: الحليم[(٢)]. قال النحاس[(٣)]: هذا لا يُعرف في اللغة، وإنما الكهل عند أهل اللغة مَن ناهز الأربعين. وقال بعضهم: يقال له حَدَثٌ إلى ستَّ عَشْرَةَ سنة، ثم شابٌّ إلى اثنتين وثلاثين سنة. ثم يَكْتهل في ثلاثٍ وثلاثين. قال[(٤)] الأخفش: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ عطف على «وجِيهاً» أي: وهو من العِباد الصالحين.

ذكر أبو بكر بن أبي شيبة: حدَّثنا عبد الله بن إدريس، عن حُصَيْن، عن هلال بن يِسَاف قال: لم يتكلَّم في المهد إلا ثلاثةٌ: عيسى، وصاحبُ يوسفَ، وصاحبُ جريج[(٥)]. كذا قال: «وصاحب يوسف». وفي[(٦)] صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «لم يتكلَّم في المهد إلَّا ثلاثةٌ: عيسى ابنُ مريم، وصاحب جُريج، . . .، وبيْنا صبيٌّ يرضع من أمِّه» وذكر الحديث بطوله[(٧)].

وقد جاء من حديث صُهيبٍ في قصة الأُخدود «أنَّ امرأةً جِيءَ بها لتُلقَى في النار

(١) معاني القرآن للزجَّاج ١/ ٤١٢، وللفراء ١/ ٢١٣، وللأخفش ١/ ٤٠٧، ونقل المصنف هذه الأقوال بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٧٧.

(٢) علقه البخاري عنه قبل الحديث (٣٤٣٣)، قال الحافظ في الفتح ٦/ ٤٧٢: وصله الفريابي من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) إعراب القرآن ١/ ٣٧٨.

(٤) في (م): قاله. وكلامه في إعراب القرآن ١/ ٣٧٨.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٥٤٥. وهو مرسل كما ذكر الحافظ في الفتح ٦/ ٤٨٠.

(٦) في (خ) و(م): وهو في.

(٧) وقع في النسخ: «وصاحب جُريج، وصاحب الجبَّار، وبينا صبيٌّ يرضع من أمه»، بزيادة لفظ: وصاحب الجبَّار، وهو تكرار، فلفظ الحديث كما في صحيح مسلم (٢٥٥٠): (٨): «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابنُ مريم، وصاحب جريج، وكان جريج رجلاً عابداً، فاتخذ صومعة. . .». وذكر قصة جُريج. . . وبعده: «وبينا صبيّ يرضعُ من أمه، فمرَّ رجل راكبٌ على دابة فارهة وشارة حسنة. . .» إلى آخر الحديث. فـ«صاحب الجبار» هو الصبيّ الذي يرضع من أمه. والحديث أيضاً عند أحمد (٨٠٧١) والبخاري (٣٤٣٦).

على إيمانها ومعها صبيٌّ ـ في غير كتاب مسلم: يَرضعُ ـ فتقاعست أن تقع فيها، فقال الغلام: يا أمَّهْ، اصبري، فإنك على الحقّ»[(١)].

وقال الضحَّاك: تكلَّم في المهد ستَّةٌ: شاهِدُ يوسف، وصبيُّ ماشِطةِ امرأةِ فرعون، وعيسى، ويحيى، وصاحبُ جُريج، وصاحبُ الجَبَّار. ولم يَذكر الأخدود، فأسقَطَ صاحبَ الأخدود، وبه يكون المتكلِّمون سبعة. ولا معارضةَ بين هذا وبين قوله عليه الصلاة والسلام: «لم يتكلَّم في المهد إلَّا ثلاثةٌ» بالحصر، فإنه أخبر بما كان في علمه ممَّا أُوحي إليه في تلك الحال، ثم بعد هذا أعلمه اللّه تعالى بما شاء من ذلك فأخبر به[(٢)].

قلت: أمَّا صاحبُ يوسفَ فيأتي الكلام فيه[(٣)]، وأما صاحب جُريج وصاحبُ الجَبَّار وصاحبُ الأخدودِ، ففي صحيح مسلم. وستأتي قصةُ الأخدود في سورة «البروج» إن شاء اللّه تعالى.

وأما صبيُّ ماشطةِ امرأةِ فرعونِ، فذكر البيهقيُّ عن ابن عباس[(٤)] قال: قال النبيُّ ﷺ: «لما أُسري بي سِرْتُ في[(٥)] رائحة طيِّبة، فقلت: ما هذه الرائحة؟ قالوا: ماشطةُ ابنةِ فرعون وأولادُها، سقط مشطُها من يديها[(٦)] فقالت: بسم اللّه، فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: ربِّي وربُّكِ وربُّ أبيكِ، قالت: أوَلكِ ربٌّ غيرُ أبي؟ قالت: نعم، ربِّي وربُّكِ وربُّ أبيكِ اللّهُ، قال: فدعاها فرعونُ، فقال: أَلكِ ربٌّ غيري؟ قالت: نعم، ربي وربُّكَ اللّه، قال: فأمر بنُقرةٍ[(٧)] من نُحاس، فأُحميت، ثم أمر بها لتلقَى فيها، قالت: إن لي

---

(١) المفهم ٦/٥١١، والحديث في صحيح مسلم (٣٠٠٥)، ومسند أحمد (٢٣٩٣١) ولفظه فيه: «فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست».

(٢) المفهم ٦/٥١٢، وقوله: وصاحب الجبار، من (م) وليس في باقي النسخ، ووقع في المفهم بدلاً منه: وصاحب الأخدود، وقال أبو العباس إثره: فأسقط الضحاك صبي الجبار وذكر مكانه يحيى، وعلى هذا يكون المتكلمون سبعة.

(٣) عند قوله تعالى: ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ [٢٦].

(٤) دلائل النبوة ٢/٣٨٩، والشعب (١٦٣٦)، وهو عند أحمد (٢٨٢١)، وابن حبان (٢٩٠٤).

(٥) في (د): سرت بي، وفي الدلائل والشعب: مرَّت بي، وعند أحمد: أتت علي.

(٦) في (خ) و(ظ): من بين يديها، وفي الدلائل والشعب: من يدها.

(٧) في (ظ): ببقرة، وقد رويت في الحديث بالوجهين، ففي المسند والدلائل: ببقرة، وعند ابن حبان =

إليك حاجةً، قال: ما هي؟ قالت: تجمعُ عظامي وعظامَ ولدي[١] في موضع واحد، قال: ذاكَ لكِ، لِمَا لكِ علينا من الحق. فأمر بهم فأُلقوا واحداً بعد واحد، حتى بلغ رضيعاً فيهم فقال: قَعِي يا أمَّه، ولا تقاعسِي، فإنَّا على الحقّ. قال: وتكلَّم أربعة وهم صغار: هذا، وشاهد يوسف، وصاحب جُريح، وعيسى ابن مريم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ أي: يا سَيّدي. تخاطب جبريل عليه السلام، لأنه لمَّا تمثَّل لها قال لها: «إنما أنا رسولُ ربِّكِ لِيَهَبَ لكِ غلاماً زكيّاً»[٢]. فلما سمعت ذلك من قوله استفهمت عن طريق الولد، فقالت: أنَّى يكون لي ولد ولم يمسَسْني بشر؟! أي: بنكاح، في سورتها: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٠]، ذكرت هذا تأكيداً، لأن قولها: «لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ» يشمل الحرام والحلال. تقول: العادة الجارية التي أجراها اللّه في خلقه أن الولد لا يكون إلَّا عن نكاحٍ أو سِفَاح. وقيل: ما استبعدت من قدرة اللّه تعالى شيئاً، ولكن أرادت: كيف يكون هذا الولد، أَمِنْ قِبَلِ زوجٍ في المستقبل، أم يخلقُه اللّه ابتداءً[٣]؟ فرُوي أن جبريل عليه السلام حين قال لها: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم:٢١]، نفخ في جَيب دِرعها وكُمِّها. قاله ابن جُريج[٤].

= والشعب: بنقرة. قال ابن الأثير في النهاية (بقر) ١/ ١٤٥: قال الحافظ أبو موسى: الذي يقع لي في معناه أنه لا يريد شيئاً مصوغاً على صورة البقرة، ولكنه ربما كانت قدراً كبيراً واسعة فسماها بقرة، مأخوذاً من التبقُّر: التوسع، أو كان شيئاً يسع بقرة تامة بتوابلها فسميت بذلك. وقال ٥/ ١٠٥ (نقر) بعد أن أورد الحديث بالرواية الأخرى: النقرة قدر يسخن فيها الماء وغيره، وقيل: هو بالباء الموحدة.

(١) يعني أولادي، كما يدل عليه قوله قبله: ماشطة ابنة فرعون وأولادها، وقوله بعده: فأمر بهم فأُلقوا واحداً بعد واحد. فلفظ «ولد» يطلق على الواحد، وعلى الجمع.

(٢) قال أبو حيان في البحر ٢/ ٤٦٢: من ذهب إلى أن قولها: «ربِّ»، وقول زكريا: «ربِّ» إنما هو نداء لجبريل لِما بشَّرهما، ومعناه يا سيدي، فقد أبعد، وقال الزمخشري: هو من بدع التفاسير.

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٤٨٩.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٩١. وقال أبو حيان في البحر ٢/ ٤٨٠: في قصة زكريا: «يفعل ما يشاء» من حيث أن أمر زكريا داخل في الإمكان العادي الذي يُتعارف، وإن قلَّ، وفي قصة مريم: «يخلق» لأنه لا يُتعارف مثله، وهو وجود ولد من غير والد، فهو إيجاد واختراع من غير سبب عادي، فلذلك جاء =

ابن عباس[١]: أخذ جبريلُ رُدْنَ[٢] قميصها بأصبعه، فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى. وقيل غيرُ ذلك، على ما يأتي بيانه في سورتها إن شاء اللّه تعالى[٣].

وقال بعضهم: وقع نَفْخُ جبريل في رحمها، فعلِقت بذلك. وقال بعضهم: لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل، لأنه يصير الولد بعضُه من الملائكة وبعضه من الإنس[٤]، ولكن سبب ذلك أن اللّه تعالى لمَّا خلق آدم وأخذ الميثاق من ذُرِّيته، فجعل بعضَ الماء في أصلاب الآباء وبعضَه في أرحام الأمَّهات، فإذا اجتمع الماءان صارا[٥] ولداً، وأن اللّه تعالى جعل الماءين جميعاً في مريم، بعضَه في رحمها وبعضه في صُلبها، فنفخ فيه جبريل لتهيج شهوتُها، لأن المرأة ما لم تَهِج شهوتها لا تحبل، فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل، وقع الماء الذي كان في صُلبها في رَحِمها، فاختلط الماءان فعلِقت بذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ يعني إذا أراد أن يخلق خلقاً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٦]. وقد تقدَّم في «البقرة» القول فيه مستوفى[٧].

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ قال ابن جُريج:

= بلفظ «يخلق» الدالّ على هذا المعنى.

(١) في (م): قال ابن عباس. والأثر ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٨٠، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ٣٤٩ (طبعة دار الفكر).

(٢) في مختار الصحاح: الرُّدْن، بالضم: أصل الكُمّ.

(٣) عند تفسير الآية: ٢٠ منها.

(٤) هذا كلام مردود بداهة.

(٥) في (خ) و(ظ): صار.

(٦) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٨. وهذا الكلام المذكور لا يصحُّ شرعاً ولا عقلاً، ويُخرج المعجزة في خلق عيسى عليه السلام عن معناها.

(٧) ٢/ ٣٣٦ - ٣٣٧.

الكتابُ: الكتابة والخط[١]. وقيل: هو كتابٌ غيرُ التوراة والإنجيل علَّمه اللّه عيسى عليه السلام.

﴿وَرَسُولًا﴾ أي: ونجعلُه رسولاً. أو يكلِّمهم رسُولاً. وقيل: هو معطوفٌ على قوله: «وجيهاً»[٢]. وقال الأخفش: وإن شئت جعلتَ الواو في قوله: «ورسولاً» مُقْحَمةً والرسولَ حالاً للهاء، تقديره: ويعلِّمه الكتاب رسولاً[٣]. وفي حديث أبي ذَرٍّ الطويلِ: «وأوَّل أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخِرهُم عيسى عليه السلام»[٤].

﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم﴾ أي: أصوِّر وأقدِّر لكم ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ قرأ الأعرج وأبو جعفر: «كهيَّة» بالتشديد، الباقون بالهمز[٥]. والطير يُذكَّر ويؤنَّث.

﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ أي: في الواحد منه، أو منها، أو في الطِّين، فيكونُ طائراً. وطائرٌ وطَيْر مثلُ تاجرٍ وتَجْر[٦].

قال وَهْب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً، ليتميَّز فعلُ الخلق من فعل اللّه تعالى.

وقيل: لم يخلقْ غيرَ الخُفّاش؛ لأنه أكملُ الطير خَلْقاً ليكونَ أبلغَ في القدرة، لأن لها ثَدْياً وأسناناً وأُذناً، وهي تحيض وتطهرُ وتلد[٧].

---

(١) ذكره البغوي ١/ ٣٠٢ ولم ينسبه، وأخرج ابن أبي حاتم (٣٥٣١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الكتاب» الخط بالقلم.

(٢) معاني القرآن للأخفش ١/ ٤٠٨، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٩.

(٣) تفسير الرازي ٧/ ٥٧ - ٥٨.

(٤) ذكره ابن كثيرٍ في التفسير عند قوله تعالى: (ورسلاً لم نقصصهم عليك) [الآية: ١٦٤] ونسبه لابن حِبَّان، وهو في صحيح ابن حبان (٣٦١) بتمامه دون هذه العبارة التي ذكرها المصنِّف. وفي إسناده: إبراهيم بن هشام قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٧٣: متروك. وله طريق أخرى أخرجه الطبري في التاريخ ١/ ٤٥١ وإسناده ضعيف. وأورده السيوطي في الجامع الصغير ١/ ٣٨٣ ضمن حديث، ورمز لضعفه.

(٥) النشر ١/ ٤٠٥ عن أبي جعفر، وقرأ بها حمزة وقفاً كما في التيسير ص٣٨.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٩.

(٧) عرائس المجالس ص٣٩٥، وتفسير البغوي ١/ ٣٠٣.

ويقال: إنما طلبوا خَلْق خُفَّاشٍ لأنه أعجبُ من سائر الخلق، ومن عجائبه أنه لحمٌ ودمٌ يطير بغير ريشٍ، ويلد كما يلد الحيوانُ، ولا يبيض كما يبيض سائرُ الطُّيور، فيكون له الضَّرع يخرج منه اللَّبن، ولا يُبْصِر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل، وإنما يَرى في ساعتين: بعد غروب الشمس ساعةً، وبعد طلوع الفجر ساعةً قبل أن يُسفِر جدّاً، ويضحك كما يضحك الإنسان، ويحيض كما تحيض المرأة.

ويقال: إن سؤالهم كان له على وجه التعنُّت، فقالوا: اخلق لنا خُفّاشاً واجعل فيه روحاً إن كنتَ صادقاً في مقالتك. فأخذ طيناً وجعل منه خُفَّاشاً، ثم نفخ فيه، فإذا هو يطير بين السماء والأرض. وكان تسويةُ الطين والنفخُ من عيسى، والخلقُ من اللّه عزَّ وجلَّ، كما أن النفخ [في مريم] من جبريلَ والخَلْقَ من اللّه[١].

قوله تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ الأكمهُ: الذي يولَد أعمى، عن ابن عباس. وكذا قال أبو عبيدةَ؛ قال: هو الذي يولد أعمى[٢]، وأنشد لرؤبة:

فـارتـدَّ ارْتِـدادَ الأكـمـهِ[٣]

وقال ابن فارس[٤]: الكَمَهُ: العمَى، يولد به الإنسان، وقد يَعْرِض. قال سُويد:

كَمِهتْ عيناه حتى ابيضَّتا[٥]

مجاهد: هو الذي يُبصر بالنهار ولا يُبصر بالليل. عكرمة: هو الأعمش. ولكنه في اللغة العمَى، يقال: كَمِه يَكْمَه كَمَهاً، وكَمَّهْتُها أنا: إذا أعميتها[٦].

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٩ وما بين حاصرتين منه في مطبوعه ١/ ٢٦٩.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٩٣، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٥/ ٤٢٢، وابن أبي حاتم (٣٥٤٢).

(٣) لم نقف عليه في ديوان رؤبة، وهو في تفسير الطبري ٥/ ٤٢٣، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤١٤، والأضداد لابن الأنباري ص٣٧٨، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٤٠٣، واللسان (كمه) (هرج) وتمامه:

هـرَّجْـتُ فـارتـد ارتـداد الأكـمـه

قوله: هرَّجتُ، قال في اللسان (هرج): هرَّج بالسَّبُع: صاح به وزجره.

(٤) مجمل اللغة ٣/ ٧٧٠.

(٥) المفضَّليَّات ص٢٠٠، والأضداد ٣٧٨ وعجزه: فهو يلحى نفسه لما نزع وسويد بن أبي كاهل، من بني يشكر، شاعر متقدم من مخضرمي الجاهلية والإسلام. جعله محمد بن سلاَّم في الطبقة السادسة وقرنه بعنترة العبسي. الأغاني ١٣/ ١٠٢، وطبقات فحول الشعراء ١/ ١٥٢.

(٦) تفسير الطبري ٥/ ٤٢٣.

والبَرَصُ معروفٌ: وهو بياض يعتري الجلدَ، والأبرصُ القمر، وسامٌّ أَبْرَصَ معروفٌ، ويُجمع على الأَبَارِص[١].

وخُصَّ هذان بالذكر لأنهما عَياءان. وكان الغالبُ على زمن عيسى عليه السلامُ الطِّبَّ، فأراهم اللّه المعجزة من جنس ذلك[٢].

﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قيل: أحيا أربعة أنفس: العازَرَ[٣]، وكان صديقاً له، وابنَ العجوز، وابنة العاشر، وسام بنَ نوح، فاللّه أعلم.

فأمَّا العازَرُ فإنه كان قد تُوفِّي قبل ذلك بأيام، فدعا اللّه، فقام بإذن اللّه ووَدَكُه يقْطُر[٤]، فعاش ووُلِدَ له.

وأما ابنُ العجوز: فإنه مرَّ به يُحمَل على سريره، فدعا اللّه، فقام ولبِس ثيابه، وحمل السرير على عنقه، ورجع إلى أهله.

وأما بنتُ العاشرِ[٥]: فكان أتى عليها ليلة، فدعا اللّه، فعاشت بعد ذلك، ووُلد لها.

فلما رأَوا ذلك قالوا: إنك تُحيي مَن كان موته قريباً، فلعلَّهم لم يموتوا، فأصابتهم سكتةٌ، فأَحْيِ لنا سام بنَ نوح. فقال لهم: دُلُّوني على قبره، فخرج وخرج القوم معه حتى انتهى إلى قبره، فدعا اللّه، فخرج من قبره وقد شابَ رأسُه، فقال له عيسى: كيف شابَ رأسُك ولم يكن في زمانكم شيْبٌ؟ فقال: يا روحَ اللّه، إنك دعوتني، فسمعتُ صوتاً يقول: أَجِبْ روحَ اللّه، فظننتُ أن القيامةَ قد قامت، فمِن هول ذلك شاب رأسي. فسأله عن النَّزْع فقال: يا روح اللّه، إن مرارة النزع لم تَذْهَبْ

(١) المجمل ١/ ١٢١ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٠٣ ، وتفسير أبي الليث ١/ ٢٧٠ .

(٣) قيَّده صاحب القاموس (عزر) على وزن هاجر، ووقع في (ظ) و(م): العاذر (في الموضعين).

(٤) في القاموس: الوَدَك: الدَّسَم.

(٥) وقع في عرائس المجالس ص٣٩٧: ابنة العشار، رجل كان يأخذ العشر.

عن[1] حَنْجَرَتي، وقد كان من وقتِ موتهِ أكثرُ من أربعة آلاف سنة، فقال للقوم: صدِّقوه فإنه نبيّ، فآمن به بعضُهم، وكذَّبه بعضُهم وقالوا: هذا سحر[2].

ورُوي من حديث إسماعيل بن عيَّاش قال: حدثني محمد بن طلحة، عن رجل: أن عيسى ابنَ مريم كان إذا أراد أن يُحييَ الموتى صلَّى رَكعتين يقرأ في الأولى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، وفي الثانية: «تنزيل» السجدة، فإذا فرَغ حمد[3] الله وأثنى عليه، ثم دعا بسبعة أسماء: يا قديمُ، يا خَفيُّ، يا دائمُ، يا فَرْدُ، يا وِتْرُ، يا أحدُ، يا صمد. ذكره البيهقيُّ وقال: ليس إسناده بالقويّ[4].

قوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: بالذي تأكلونه وما تدَّخرون. وذلك أنه[5] لمَّا أحيا لهم الموتى، طلبوا منه آيةً أُخرى وقالوا: أَخْبِرْنا بما نأكل في بيوتنا وما ندَّخر للغد، فأخبرهم فقال: يا فلان أنت أكلتَ كذا وكذا، وأنت أكلتَ كذا وكذا، وادخرتَ كذا وكذا، فذلك قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾ الآية[6].

وقرأ مجاهد والزُّهرِيُّ والسَّخْتِيانِيُّ: «وما تَذْخَرون» بالذال المعجَمة مخفَّفاً[7].

وقال سعيد بن جبير وغيره: كان يخبر الصبيان في الكُتَّاب بما يدَّخرون، حتى منعهم آباؤهم من الجلوس معه. قتادة: أخبرهم بما أكلوه من المائدة وما ادَّخروه منها خِفْية[8].

---

(١) في النسخ: من.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٩، وعرائس المجالس ص٣٩٦-٣٩٧، وتفسير البغوي ١/ ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٣) في (خ) و(ظ): مدح.

(٤) الأسماء والصفات (١٦١)، وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٠٠٧) من طريق محمد بن طلحة بن مصرف، عن أبي بشر عن أبي الهذيل قال: كان عيسى ابن مريم. وذكر الحديث. قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠]: هذا أثر عجيب جداً.

(٥) في (م): أنهم.

(٦) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٩، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٠.

(٨) أخرج الخبرين الطبري ٥/ ٤٢٧، ٤٢٩.

قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَمُصَدِّقًا﴾ عطف على قوله: «ورَسُولاً»(١). وقيل: المعنى: وجئتكم مصدِّقاً. ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ﴾ لما قَبْلي. ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ فيه حذف، أي: ولِأُحِلَّ لكم جئتكم. ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني من الأطعمة. قيل: إنما أحلَّ لهم عيسى عليه السلام ما حُرِّم عليهم بذنوبهم ولم يكن في التوراة، نحو أَكْلِ الشحوم وكلِّ ذي ظُفُر. وقيل: إنما أحلَّ لهم أشياءَ حرَّمَتْها عليهم الأحبارُ ولم تكن في التوراة محرَّمة عليهم(٢). قال أبو عبيدة(٣): يجوز أن يكون «بعض» بمعنى كل، وأنشد لَبِيد:

تَـرَّاكُ أَمْـكِـنَـةٍ إذا لـم أَرْضَـهـا ... أو يَرْتَبِطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها(٤)

وهذا القول غَلَطٌ عند أهل النظرِ من أهل اللغة، لأن البعضَ والجزءَ لا يكونان بمعنى الكلِّ في هذا الموضع، لأن عيسى ﷺ إنما أَحَلَّ لهم أشياءَ ممَّا حرَّمها عليهم موسى، من أَكْل الشحوم وغيرها، ولم يُحِلَّ لهم القتلَ ولا السرقةَ ولا فاحشةً. والدليلُ على هذا أنه رُوي عن قتادةَ أنه قال: جاءهم عيسى بألْينَ ممَّا جاء به موسى صلى الله عليهما وعلى نبينا، لأن موسى جاءهم بتحريم الإبل وأشياءَ من الشحوم، فجاءهم عيسى بتحليل بعضِها(٥).

وقرأ النَّخعيُّ: «بَعْضَ الذي حَرُمَ عَلَيْكُمْ»(٦) مثل كَرُمَ، أي: صار حراماً.

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٠٤، قال الفراء في معاني القرآن ١/ ٢١٦: وليس نصبه بتابع لقوله: «وجيهاً» لأنه لو كان كذلك لكان: ومصدقاً لما بين يديه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٠.

(٣) مجاز القرآن ١/ ٩٤.

(٤) شرح ديوان لبيد ص٣١٣، برواية: أو يعتلق بعض النفوس، وأشار شارح الديوان إلى رواية: أو يرتبط، قال الزوزني في شرح المعلقات السبع ص١٠٩: وتحرير المعنى: إني لا أترك الأماكن التي أجتويها، وأقليها إلّا أن أموت.

(٥) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٠٣ - ٤٠٤، وخبر قتادة أخرجه الطبري ٦/ ٤٣٩.

(٦) القراءات الشاذة ص٢٠.

وقد يوضَعُ البعضُ بمعنى الكلِّ إذا انضمَّت إليه قرينةٌ تدلُّ عليه، كما قال الشاعر(١):

أبا مُنْذِرٍ أفْنَيتَ فاستَبْقِ بعضَنا حَنَانَيْك، بعضُ الشرِّ أهْوَنُ من بعضِ

يريد: بعضُ الشَّرِّ أهونُ من كلِّه.

﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إنَّما وحَّد وهي آياتٌ؛ لأنها جنسٌ واحدٌ في الدلالة على رسالته(٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ أي: من بني إسرائيل. و«أحسَّ» معناه: علم ووجَد، قاله الزجَّاج(٣). وقال أبو عبيدة(٤): معنى «أحسَّ»: عرف. وأصْلُ ذلك وجودُ الشيء بالحاسَّة. والإحساس: العِلم بالشيء، قال اللّه تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم:٩٩]. والحَسُّ: القتلُ، قال اللّه تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران:١٥٢]. ومنه الحديثُ في الجَرَاد: «إذا حَسَّهُ البَرْدُ»(٥).

﴿مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ أي: الكفر باللّه. وقيل: سَمِعَ منهم كلمةَ الكفر. وقال الفرَّاءُ: أرادوا قتلَه(٦).

﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾: استنصَرَ عليهم. قال السدِّيُّ والثوريُّ وغيرُهما: المعنى: مع اللّه، فـ «إلى» بمعنى مع، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء:٢] أي: مع. واللّه أعْلَم. وقال الحسنُ: المعنى من أنصاري في السبيل إلى

---

(١) هو طرفة، والبيت في ديوانه ص٦٦ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٠٤ .

(٣) معاني القرآن ١/ ٤١٦ .

(٤) مجاز القرآن ١/ ٩٤ .

(٥) مجمل اللغة ١/ ٢١٢ ، والحديث لم نقف عليه وذكره ابن الأثير في النهاية (حس) ١/ ٣٨٥ وينظر ما يأتي في الصفحة ٢٧١ من هذا الجزء.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٠ .

اللّه؛ لأنه دعاهم إلى اللّه عزَّ وجلَّ. وقيل: المعنى: مَن يضمُّ نُصْرته إلى نُصرة اللّه عزَّ وجلَّ[١]. فـ «إلى» على هذين القولين على بابها، وهو الجيِّد.

وطَلَبَ النُّصْرَةَ ليَحْتميَ بها من قومه ويُظْهرَ الدَّعوة، عن الحسن ومجاهد. وهذه سنَّةُ اللّه في أنبيائه وأوليائه، وقد قال لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] أي: عشيرة وأصحاب ينصُرونني.

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصارُ نبيِّه ودينه. والحواريُّون أصحابُ عيسى عليه السلام، وكانوا اثني عشر رجلاً، قاله الكلبيُّ[٢] وأبو رَوْق.

واخْتُلِفَ في تسميتهم بذلك، فقال ابنُ عباس: سُمُّوا بذلك لبياضِ ثيابهم، وكانوا صيَّادين[٣]. ابن أبي نَجِيح وأبو أرْطَاة[٤]: كانوا قصَّارين، فسُمُّوا بذلك لتبييضهم الثياب.

قال عطاء: أسْلَمَتْ مريمُ عيسى إلى أعمالٍ شَتَّى، وآخِرُ ما دفعته إلى الحواريين، وكانوا قصَّارين وصبَّاغين، فأراد معلِّمُ عيسى السفَر، فقال لعيسى: عندي ثيابٌ كثيرةٌ مختلِفةُ الألوان، وقد علَّمتُكَ الصَّبغَة فاصبغها. فطَبَخ عيسى حُبّاً[٥] واحداً، وأَدْخَلَه جميعَ الثياب وقال: كوني بإذنْ اللّه على ما أريد منك. فقَدِم الحواريُّ والثيابُ كلُّها في الحُبِّ، فلما رآها قال: قد أفْسَدْتَها، فأَخرجَ عيسى ثوباً أحمرَ وأصفرَ وأخضرَ إلى غير ذلك ممَّا كان كلُّ[٦] ثوبٍ مكتوب عليه صِبْغُه، فَعجِبَ الحواريُّ، وعَلِم أنَّ ذلك من اللّه، ودعا الناسَ إليه، فآمنوا به، فهمُ الحواريُّون[٧].

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٠٥، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٢. وقول السدي أخرجه الطبري ٥/ ٤٣٧، وقول الثوري أخرجه ابن أبي حاتم (٣٥٦٦).

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٢٧٠، وتفسير البغوي ١/ ٤٠٦.

(٣) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٠٦، وأخرجه ابن أبي حاتم (٣٥٦٨).

(٤) وقع في النسخ: وابن أرطاة، وهو خطأ، والمثبت من تفسير الطبري ٥/ ٤٤٣، وذكره أيضاً عن أبي أرطاة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٤٢، وأبو حيان في البحر ٢/ ٤٧١، والسيوطي في الدر ٢/ ٣٥.

(٥) في القاموس (حبب): الحُبُّ: الجرَّة، أو الضخمة منها.

(٦) في (م): على كل.

(٧) عرائس المجالس ص٣٩٢، وتفسير البغوي ١/ ٣٠٦.

قتادة والضحاك: سُمُّوا بذلك لأنهم كانوا خاصَّةَ الأنبياء. يريدان لنقاء قلوبهم[(١)].

وقيل: كانوا ملوكاً، وذلك أن الملِكَ صنع طعاماً، فدعا الناسَ إليه، فكان عيسى على قَصْعَةٍ، فكانت لا تنقُصُ، فقال الملِك له: من أنت؟ قال: عيسى ابنُ مريم. قال: إني أترك مُلْكي هذا وأَتَّبِعُك. فانطَلَق بمن اتَّبعَه معه، فهم الحواريُّون، قاله ابنُ عون[(٢)].

وأصلُ الحَوَرِ في اللغة البياضُ، وحَوَّرْتُ الثيابَ: بيَّضْتُها، والحُوَّارَى من الطعام: ما حُوِّر، أي: بُيِّضَ، واحْوَرَّ الشيء[(٣)]: ابيضَّ، والجَفْنَة المحوَّرةُ: المبيَّضَة بالسَّنام، والحَوَاريُّ أيضاً: النَّاصر، قال رسولُ اللَّه ﷺ: «لكل نبيٍّ حَوَاريٌّ، وحَوارِيِّي الزبير». والحَواريّاتُ: النِّساء لبياضهن[(٤)]، وقال[(٥)]:

فقُلْ للحوَارِيَّات يَبْكِيْنَ غيرنا ... ولا تَبْكنا إلَّا الكلابُ النَّوابحُ

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ أي: يقولون: ربَّنا آمنَّا. ﴿بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ يعني في كتابك، وما أظهرْتَهُ من حكمك. ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ يعني عيسى. ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّٰهِدِينَ﴾ يعني أُمَّةَ محمد ﷺ، عن ابن عباس[(٦)]. والمعنى: أَثْبِتْ أسماءَنا مع أسمائهم، واجعلنا من جُملتهم.

وقيل: المعنى: فاكتبنا مع الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق.

---

(١) النكت والعيون ١/ ٣٩٥، وأخرج قوليهما الطبري ٥/ ٤٤٣.

(٢) عرائس المجالس ص٣٩٤.

(٣) قوله: الشيء، ليس في (م).

(٤) مجمل اللغة ١/ ٢٥٦، والحديث أخرجه أحمد (١٤٢٩٧)، والبخاري (٢٨٤٦)، ومسلم (٢٤١٥) من حديث جابر ﷺ، وأخرجه أحمد (٦٨٠) من حديث علي ﷺ، و(١٦١١٣) من حديث عبدالله بن الزبير ﷺ.
قوله: وحواريّي، ذكر القاضي في إكمال المعلم ٧/ ٤٢٨: أنه اختلف في ضبطه، فضبطه جماعة من المحققين بفتح الياء من الثاني كمصرخيَّ، وضبطه أكثرهم بكسرها.

(٥) هو أبو جَلْدة اليَشْكُري، والبيت في مجاز القرآن ١/ ٩٥، والأغاني ١١/ ٣١١، والمؤتلف والمختلف ص١٠٦، والحماسة الشجرية ١/ ٢٤٣، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٤٠٧.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٥٧٧) وجوَّد إسناده الحافظ ابن كثير في تفسيره.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ يعني كفَّارَ بني إسرائيلَ الذين أحسَّ منهم الكُفْرَ، أي: قَتْلَه. وذلك أن عيسى عليه السلام لمَّا أخرجه قومُه وأمّه من بين أظْهُرهم، عاد إليهم مع الحواريِّين، وصاحَ فيهم بالدعوة، فَهَمُّوا بقتله، وتواطَؤُوا على الفتك به، فذلك مكرُهم[١]. ومَكْرُ اللّه: استدراجُه لعباده من حيثُ لا يعلمون، عن الفرّاء[٢] وغيره. قال ابن عباس: كلّما أحدثوا خطيئة جدَّدْنا لهم نعمة. وقال الزَّجاج[٣]: مَكْرُ اللّه: مجازاتُهم على مكرهم، فسمَّى الجزاءَ باسم الابتداء، كقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٥]، ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]. وقد تقدَّم في البقرة.

وأصلُ المكر في اللغةِ الاحتيالُ والخِداعُ. والمَكْرُ: خَدَالَةُ السّاق. وامرأةٌ ممكورةُ الساقين. والمَكْرُ: ضَرْبٌ من النَّبات[٤]. ويقال: بل هو المَغْرَة، حكاه ابن فارس[٥].

وقيل: «مَكْرُ اللّه»: إلقاؤه[٦] شَبَهَ عيسى على غيره، ورَفْعُ عيسى إليه، وذلك أن اليهودَ لمَّا اجتمعوا على قتل عيسى دخل البيتَ هارباً منهم، فرفعه جبريلُ من الكُوَّة إلى السماء، فقال مَلِكهم لرجل منهم خبيثٍ يقال له يهوذا: ادْخُلْ عليه فاقتله، فدخلَ الخَوْخَة، فلم يجدْ هناك عيسى، وألقى اللّه عليه شَبَهَ عيسى، فلمَّا خرجَ رَأَوْه على شَبَه عيسى، فأخذوه وقتلوه وصَلَبوه. ثم قالوا: وجهُه يشبه وجْهَ عيسى، وبدنُه يشبه بدنَ صاحِبنا، فإن كان هذا صاحبَنا؛ فأين عيسى؟! وإن كان هذا عيسى؛ فأين صاحبُنا؟! فوقع بينهم قتالٌ، فقتَلَ بعضُهم بعضاً، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[٧]. وقيل غيرُ هذا على ما يأتي.

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٠٧.

(٢) معاني القرآن ١/ ٢١٨.

(٣) معاني القرآن ١/ ٤١٩، ونقله المصنف عنه بواسطة البغوي في التفسير ١/ ٣٠٧.

(٤) في النسخ: الثياب، وهو خطأ.

(٥) المجمل ٤/ ٨٣٨. خدالة الساق: استدارتها، والمَغْرَة: طين أحمر يُصبغ به. اللسان (خدل) واللسان (مغر).

(٦) في (م) إلقاء.

(٧) تفسير أبي الليث ١/ ٢٧١.

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ : اسمُ فاعلٍ من مَكَر يمْكُر مَكْراً. وقد عدَّه بعضُ العلماء في أسماءِ اللّه تعالى، فيقول إذا دعا به: يا خيرَ الماكرين امكُرْ لي. وكان عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه: «اللّهمَّ امْكُرْ لي ولا تَمْكُر عَلَيَّ». وقد ذكرناه في «الكتاب الأَسْنَى في شرح أسماء اللّه الحسنى»[١] واللّه أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ العامل في «إِذْ»: «ومَكَرَ اللّه»[٢]، أو فِعْلٌ مُضْمَر[٣].

وقال جماعة من أهل المعاني ـ منهم الضحاك والفراء ـ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: هو[٤] على التقديم والتأخير؛ لأن الواو لا توجبُ الرتبة[٥]. والمعنى: إني رافعك إليَّ، ومطهِّرك من الذين كفروا، ومتوفِّيك بعد إنزالك[٦] من السماء، كقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه:١٢٩]، والتقدير: ولولا كلمةٌ سبقت من ربك وأجلٌ مسمًّى لكان لِزاماً. قال الشاعر:

أَلَا يا نخلةً مِن ذات عِرْقٍ ... عليكِ ورحمةُ اللّه السلامُ[٧]

---

(١) ص٤٣، والحديث أخرجه أحمد (١٩٩٧)، والترمذي (٣٥٥١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال: حسن صحيح.

(٢) في النسخ: مكروا، بدل: ومكر الله، وهو خطأ، وهذا الرأي هو اختيار الطبري في التفسير ٥/ ٤٤٧ والتقدير عنده: ومكر الله بهم حين قال الله لعيسى إني متوفيك ورافعك إلي.

(٣) تقديره: اذكر، كما في المحرر الوجيز ١/ ٤٤٤.

(٤) لفظة: هو، من (خ).

(٥) في (خ) و(ظ): الترتيب.

(٦) في (د) و(م): بعد أن تنزل، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للفراء ١/ ٢١٩، وتفسير البغوي ١/ ٣٠٨.

(٧) ذكره البَطَلْيَوسي في كتاب الحلل في شرح أبيات الجمل ص١٨٩ وقال: لا أعلم لمن هو، ونسبه قومٌ إلى الأحوص (عبدالله بن محمد). وهو بلا نسبةٍ في الخصائص ٢/ ٣٨٦، وأمالي ابن الشجري ١/ ٢٧٦، والخزانة ١/ ٣٩٩. قال البغدادي: وذات عِرق: موضعٌ بالحجاز.

أي عليكِ السلامُ ورحمةُ اللّه.

وقال الحسن وابن جُريج: معنى: «متوفِّيك»: قابضُك[١] ورافعُك إلى السماء من غير موت، مثلُ: تَوَفَّيْتُ مالي من فلانٍ، أي: قبضتُه. وقال وهب بن منبِّه: تَوَفَّى اللّه عيسى عليه السلام ثلاثَ ساعاتٍ من نهارٍ، ثم رفَعه إلى السماء. وهذا فيه بُعْدٌ، فإنه صَحَّ في الأخبار عن النبيِّ ﷺ نزولُه وقتلُه الدجَّالَ، على ما بيَّناه في كتاب «التذْكِرة»[٢]، وفي هذا الكتاب حَسْبَ ما تقدَّم، ويأتي[٣].

وقال ابن زيد: متوفِّيك: قابضُك، ومتوفِّيك[٤] ورافعُك واحدٌ، ولم يَمُتْ بعدُ.

وروى ابنُ أبي[٥] طلحةَ عن ابنِ عباسٍ: معنى «متوفِّيك»: مميتُك. الربيعُ بن أنس: هي وفاةُ نومٍ[٦]، قال اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام:٦٠] أي: ينيمكم؛ لأن النومَ أخو الموت، كما قال ﷺ لمَّا سُئل: أفي الجنة نومٌ؟ قال: «لا، النوم أخو الموت، والجنةُ لا موتَ فيها». أخرجه الدارقطنيّ[٧].

والصحيحُ أنَّ اللّه تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاةٍ ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد، وهو اختيار الطَّبَري[٨]. وهو الصحيحُ عن ابن عباس، وقاله الضحَّاك؛ قال الضحَّاك: كانتِ القِصَّةُ لمَّا أرادوا قتلَ عيسى اجتمع الحواريُّون في غرفةٍ، وهم

(١) جاء بعدها في (خ) و(ظ) زيادة نصُّها: ويقالُ إنه يتزوج امرأةً من العرب بعدما يقتل الدجال وتلدُ له بنتاً فتموت، ثمَّ يموت هو بعدما يعيش سنين، لأنه سأل ربَّه أن يجعله من هذه الأمة فاستجاب الله دعاءه، وهذه الزيادة في تفسير أبي الليث ١/ ٢٧٢ .

(٢) ص ٦٦٨ .

(٣) تقدم في الصفحة ١٣٧ ، وسيأتي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته﴾ [النساء:١٥٩].

(٤) قبلها في النسخ: قال .

(٥) قوله: أبي، من (خ)، وهو علي بن أبي طلحة، وروى ابنُ أبي حاتم في المراسيل ص١١٨ ، عن أبيه قال: علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مرسل، ولم يسمع من ابن عباس التفسير.

(٦) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٠٩ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٠٨ ، وأخرج الآثار المذكورة الطبري ٥/ ٤٤٨ - ٤٥٠ .

(٧) لم نقف عليه عند الدارقطني. وأخرجه البَزَّار (٣٥١٧) من طريق محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعاً، وأخرجه بنحوه العقيلي في الضعفاء ٢/ ٣٠١ ، وابن عدي في الكامل ٤/ ١٥٣٣ و٦/ ٢٣٦٤ . قال ابنُ أبي حاتم في العلل: قال أبي: الصحيح ابن المنكدر عن النبي ﷺ ، ليس فيه جابر . اهـ . وقد أخرج المرسَل العقيلي في الضعفاء ٢/ ٣٠١ . وأورده السيوطي في الجامع الصحيح ٢/ ٥٨٨ ، ورمز لضعفه.

(٨) في تفسيره ٥/ ٤٥٢ .

اثنا عشرَ رجلاً، فدخلَ عليهمُ المسيحُ من مِشكاة الغرفة، فأخبر إبليسُ لعنه اللّه جمعَ اليهود، فركبَ منهم أربعةُ آلافِ رجلٍ، فأخذوا باب الغرفة، فقال المسيح للحواريّين: أيُّكم يخرجُ ويُقتَلُ ويكونُ معي في الجنة؟ فقال رجلٌ: أنا يا نبيَّ اللّه، فألقى إليه مِدْرَعَةً من صوفٍ وعِمامةً من صوف، وناولَه عُكّازه، وأُلقيَ عليه شَبَهُ عيسى، فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه. وأمَّا المسيح؛ فكساه اللّه الرِّيشَ، وألبسه النور، وقطع عنه لَذَّةَ المطعم والمشرب، فطارَ مع الملائكة.

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة[1]: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المِنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لمَّا أراد اللّه تبارك وتعالى أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج على أصحابه ـ وهم اثنا عشرَ رجلاً ـ من عينٍ في البيت ورأسُه يقطُرُ ماءً، فقال لهم: أمَا إنَّ منكم مَن سيكفر بي اثنتي عَشْرةَ مرةً بعدَ أن آمن بي، ثم قال: أيُّكم يُلقَى عليه شَبَهي، فيُقْتَلُ مكاني، ويكونُ معي في درجتي؟، فقامَ شابٌّ مِن أَحْدَثِهم فقال: أنا، فقال عيسى: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال: أنا، فقال عيسى: اجلس. ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال: أنا، فقال: نعم، أنت ذاك. فألقى اللّه عليه شَبَهَ عيسى عليه السلام. قال: ورفع اللّه تعالى عيسى من رَوْزَنةٍ كانت في البيت إلى السماء. قال: وجاء الطَّلَبُ من اليهود، فأخذوا الشبيهَ، فقتلوه ثم صلبوه، وكفر به بعضُهم اثنتي عشرةَ مرَّةً بعد أن آمن به، فتفرَّقُوا ثلاثَ فرقٍ: قالت فرقةٌ: كان فينا اللّه ما شاءَ، ثم صَعِدَ إلى السماء، وهؤلاء اليَعْقُوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابنُ اللّهِ ما شاء اللّهُ، ثم رفعه اللّهُ إليه، وهؤلاءِ النَّسْطُورِيّة. وقال فرقة: كان فينا عبدُ اللّه ورسوله ما شاء اللّه، ثم رفعه اللّه إليه، وهؤلاء المسلمون. فتظاهَرَتِ الكافرتان على المسْلِمةِ، فقتلوها، فلم يزلِ الإسلامُ طامساً حتى بعث اللّه محمداً ﷺ، فأنزل[2] اللّه تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: آمن آباؤهم في زمن عيسى ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بإظهار دينهم على دين الكفار ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

(١) في مصنفه ١١/٥٤٦ - ٥٤٧، وأخرجه أيضاً النسائي في السنن الكبرى (١١٥٢٧)، والطبري في التفسير ٢٢/٦٢٢ - ٦٢٣.

(٢) قبلها في النسخ: فقتلوا، ولا معنى لها، وليست في المصادر.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرةَ[١] قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لينزِلَنَّ ابنُ مريمَ حَكَماً عادلاً[٢]، فلَيَكْسِرنَّ الصليبَ، ولَيَقْتُلَنَّ الخنزيرَ، ولَيَضَعَنَّ الجِزْيةَ، ولتُتْرَكَنَّ القِلَاصُ[٣]، فلا يُسْعَى عليها، ولَتَذهَبَنَّ الشحناءُ والتباغضُ والتحاسدُ، ولَيُدْعَوُنَّ إلى المال، فلا يقبلُه أحد».

وعنه أيضاً عن النبيِّ ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لَيُهِلَّنَّ ابنُ مريمَ بفَجِّ الرَّوْحاء، حاجّاً، أو معتمِراً، أو لَيَثْنِيَنَّهما»[٤]

ولا ينزلُ بشَرْعٍ مبتَدَأ فينسَخَ به شريعتَنا، بل ينزل مجدِّداً لما دَرَس منها متَّبِعَها[٥]، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنتم إذا نزل ابنُ مريمَ فيكم وإمامُكم منكم؟» - وفي رواية: «فأمَّكم منكم» - قال ابن أبي ذِئب: تدري ما أمَّكم منكم؟. قلت: تخبِرني. قال: فأمَّكم بكتاب ربِّكم تبارك وتعالى وسنَّةِ نبيكم ﷺ[٦]. وقد زدنا هذا الباب بياناً في كتاب «التذكرة»[٧] والحمدُ لله.

و«مُتَوفِّيكَ»: أصلُه: متوفِّيُك، حُذفتِ الضَّمةُ استثقالاً، وهو خبرُ إنَّ. و«رَافِعُكَ» عطفٌ عليه، وكذا «مُطَهِّرُكَ»، وكذا «وجَاعِلُ الّذِينَ اتَّبَعُوكَ». ويجوز: «وجاعلٌ الذين» وهو الأصلُ. وقيل: إن الوقفَ التامَّ عند قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. قال النَّحاس[٨]: وهو قولٌ حسنٌ.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ يا محمدُ ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: بالحجَّةِ وإقامةِ البرهان.

---

(١) برقم (١٥٥): (٢٤٣)، وهو عند أحمد (١٠٤٠٤)، وأخرجه البخاري بنحوه (٣٤٤٨).

(٢) في (ظ): عدلاً.

(٣) جمع قَلُوص: وهي الناقة الشابة، أي: لا يخرج ساعٍ إلى زكاة، لقلة حاجة الناس إلى المال واستغنائهم عنه. النهاية ٤/ ١٠٠.

(٤) صحيح مسلم (١٢٥٢)، وهو عند أحمد (٧٢٧٣) قوله: «ليَثْنِيَنَّهما» أي: يقرن بينهما، وفجّ الرَّوْحاء: هو بين مكة والمدينة، وكان طريق رسول الله ﷺ إلى بدر، وإلى مكة عام الفتح وعام حجة الوداع. صحيح مسلم بشرح النووي ٨/ ٢٢٤.

(٥) المفهم ١/ ٣٧١.

(٦) صحيح مسلم (١٥٥): (٢٤٤) و(٢٤٦)، وهو عند أحمد (٧٦٨٠)، والبخاري (٣٤٤٩). ابن أبي ذئب: هو محمد بن عبد الرحمن، أحد رجال الإسناد.

(٧) ص ٦٧٥.

(٨) إعراب القرآن ١/ ٣٨١، وما قبله منه.

وقيلَ: بالعزِّ والغَلَبة[١]. وقال الضحَّاك ومحمد بن أبان: المرادُ الحواريُّون[٢]. والله تعالى أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ يعني بالقتل والصَّلْبِ[٣] والسَّبْيِ والجِزْيَةِ، وفي الآخرةِ بالنَّار[٤].

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ «ذلك» في موضع رفعٍ بالابتداء، وخبرُه «نتلوه». ويجوز: الأمرُ ذلك، على إضمار المبتدأ[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ دليلٌ على صحَّة القِياس[٦]. والتشبيهُ واقعٌ على أن عيسى خُلِقَ من غير أبٍ كآدمَ، لا على أنه خُلقَ من تراب. والشيء قد يشبَّهُ بالشيء ـ وإن كان بينهما فرقٌ كبيرٌ ـ بعدَ أن يجتمعا في وصفٍ واحد، فإن[٧] آدمَ خُلِقَ من تراب ولم يُخلقْ عيسى من تراب، فكان بينهما فرقٌ من هذه الجهة، ولكن شَبَهُ ما بينَهما أنهما خُلقا[٨] من غير أبٍ، ولأن أصلَ خلقهما[٩]

(١) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٢٠ .

(٢) أورده البغوي ١/ ٤٠٩ عن الضحاك .

(٣) قوله: والصلب، ليس في (خ) و(ظ).

(٤) معاني القرآن للزجّاج ١/ ٤٢٠ ،وتفسير البغوي ١/ ٣٠٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٢ .

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٦ .

(٧) في (خ): وكما أن ، وفي (د) و(ظ): كما أن .

(٨) في (خ) و(م): خَلَقَهما .

(٩) في (د) و(ز) و(م): خلقتهما، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في تفسير أبي الليث ١/ ٣٧٣ ، والكلام منه.

كانَ من ترابٍ؛ لأن آدمَ لم يُخْلَقْ مِن نفس التراب، ولكنه جَعَل التراب طيناً، ثم جعله صَلْصالاً، ثم خلقه منه، فكذلك عيسى حوَّلَه من حالٍ إلى حال، ثم جعله بشراً من غير أبٍ(١).

ونزلتْ هذه الآيةُ بسبب وفد نجرانَ حين أنكروا على النبيِّ ﷺ قولَه: «إنَّ عيسى عبدُاللّه وكلمتُه» فقالوا: أرِنا عبداً خُلِقَ من غير أب، فقال لهم النبيُّ ﷺ: «آدمُ، مَن كان أبوه؟ أعجبْتُم من عيسى ليس له أبٌ؟ فآدمُ عليه السلامُ ليس له أبٌ ولا أمّ»(٢). فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: في عيسى ﴿إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ في آدمَ ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

وروي أنه عليه الصلاة والسلام لمَّا دعاهم إلى الإسلام قالوا: قد كنا مسلمين قبلَك. فقال: «كذبتم، يمنعُكم من الإسلام ثلاثٌ: قولُكم اتخذَ اللّه ولداً، وأكْلُكُمُ الخنزيرَ، وسجودُكُم للصَّليب». فقالوا: من أبو عيسى؟ فأنزل اللّه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾. فدعاهمُ النبيُّ ﷺ [إلى الالتعان]، فقال بعضُهم لبعض: إن فعلتُم اضطرمَ الوادي عليكم ناراً. فقالوا: أما تَعرض علينا سوى هذا؟ فقال: «الإسلامُ، أو الجزيةُ، أو الحرب» فأقرُّوا بالجزية(٣) على ما يأتي(٤).

وتَمَّ الكلامُ عند قوله: «آدمَ»، ثم قال: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: فكان، والمستقبلُ يكون في موضع الماضي إذا عُرِفَ المعنى(٥).

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٢٧٣.

(٢) أخرج بعضه الطبري بنحوه ٥/ ٤٦٠، وابن أبي حاتم (٣٦٠٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقوله: «أعجبتم من عيسى...». لم نقف عليه.

(٣) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤١٥ - ٤١٦، وما سلف بين حاصرتين منه، والحديث أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٢٤٥) من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وأخرجه بنحوه أبو نعيم أيضاً في دلائل النبوة (٢٤٤)، والواحدي في أسباب النزول ص٩٩، وفي إسناده بشر بن مهران الخصاف - ويقال بشير - قال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٢/ ٣٧٩: ترك أبي حديثه، وأمرني أن لا أقرأ عليه حديثه. وأخرجه الواحدي ص٩٨ عن الحسن مرسلاً.

(٤) في المسألة الثانية من تفسير الآية التالية.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٢.

قال الفرَّاء[١]: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ مرفوعٌ بإضمار هو. أبو عبيدة[٢]: هو استئنافُ كلام، وخبرُه في قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾. وقيل: هو فاعل، أي: جاءك الحقُّ.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الخطاب للنبيِّ ﷺ، والمرادُ أمتُه، لأنه ﷺ لم يكن شاكّاً في أمر عيسى عليه السلام[٣].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ أي: جادلَك وخاصمَكَ يا محمدُ. ﴿فِيهِ﴾ أي: في عيسى. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بأنه عبدُ اللّه ورسولُهُ. ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾ أي: أقبِلوا. وُضِعَ لمن له جلالةٌ ورِفعةٌ، ثم صارَ في الاستعمال لكل داعٍ إلى الإقبال، وسيأتي له مزيدُ بيانٍ في «الأنعام»[٤].

﴿نَدْعُ﴾ في موضع جزم. ﴿أَبْنَآءَنَا﴾دليل على أن أبناء البناتِ يسمَّونَ أبناءً، وذلك أن النبيَّ ﷺ جاء بالحسن[٥] والحسين، وفاطمة تمشي خلفَه وعليٌّ خلفها[٦]، وهو يقول لهم: «إن أنا دعوتُ فأمِّنوا»[٧] وهو معنى قوله: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: نتضرع في

---

(١) معاني القرآن له ١/ ٢٢٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٨٢.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٩٥.

(٣) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٢٣، وتفسير البغوي ١/ ٣١٠.

(٤) عند تفسير الآية: ١٥١ منها.

(٥) في (ظ): جاءه الحسن.

(٦) في (خ) و(ظ): خلفهما.

(٧) أخرجه مطولاً أبو نعيم في دلائل النبوة (٢٤٥) من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الواحدي في الوسيط ١/ ٤٤٤، والبغوي ١/ ٣١٠.
وأخرج أحمد (١٦٠٨)، ومسلم (٢٤٠٤):(٣٢) عن سعد بن أبي وقاص أنه لما نزلت هذه الآية: ﴿ندع أبناءنا وأبناءكم﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: «اللهم هؤلاء أهلي».

الدعاء، عن ابن عباس. أبو عبيدة والكسائي: نلتعِن[1]. وأصلُ الابتهال: الاجتهادُ في الدعاء باللَّعن وغيرِه. قال لبيد:

فـي كـهـولٍ سـادةٍ مـن قـومِـه نَـظَـرَ الـدهـرُ إلـيـهـم فـابـتـهـلْ[2]

أي: اجتهد في إهلاكهم. يقال: بَهَلَه اللّهُ، أي: لعنه، والبَهْلُ: اللَّعنُ، والبَهْلُ: الماء القليل، وأَبْهَلْتُه: إذا خلَّيتَه وإرادتَه، وبهلتُه أيضاً[3].

وحكى أبو عبيدة: بَهَلَهُ اللّهُ يبهَلُه بَهْلةً، أي: لعنه. قال ابن عباس: هم أهلُ نجرانَ: السيِّد والعاقبُ وابنُ الحارث رؤساؤهم. ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [عطف][4].

الثانية: هذه الآيةُ من أعلام نبوَّةِ محمد ﷺ؛ لأنه دعاهم إلى المباهلة فأَبَوْا منها، ورضُوا بالجزيةِ بعدَ أنْ أعْلَمَهُم كبيرُهم العاقبُ أنهم إن باهلوه اضطرمَ عليهمُ الوادي ناراً، فإنّ محمداً نبيٌّ مرسَل، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل في أمر عيسى، فتركوا المباهلةَ، وانصرفوا إلى بلادهم على أن يؤدُّوا في كل عام ألفَ حُلَّةٍ في صَفَر، وألفَ حُلَّةٍ في رَجَب، فصالحهم رسولُ اللّه ﷺ على ذلك بدلاً من الإسلام[5].

الثالثة: قال كثيرٌ من العلماء: إنَّ قولَه عليه الصلاة والسلام في الحسن والحسين لمَّا باهل: ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ وقولَه في الحسن: «إن ابني هذا سيِّد»[6] مخصوص بالحسن والحسين أن يُسَمَّيا ابني النبيِّ ﷺ دونَ غيرِهما، لقوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ سببٍ ونَسَبٍ يَنقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي»[7] ولهذا قال بعض أصحاب

(١) تفسير البغوي ١/ ٣١٠ . وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٩٦ ، وأثر ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم (٣٦٢٣) وفيه: (ثم نبتهل): نجتهد.

(٢) ديوان لبيد ص١٩٧ برواية: في قرومٍ سادةٍ.

(٣) مجمل اللغة ١/ ١٣٨ .

(٤) مجاز القرآن ١/ ٩٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٣ ، وما بين حاصرتين منه. وأخرج خبر ابن عباس أبو نعيم في دلائل النبوة (٢٤٥) وقد تقدم آنفاً وانظر ما سلف ص١٠ .

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٤٦٩ - ٤٧٠ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٨ .

(٦) أخرجه أحمد (٢٠٣٩٢)، والبخاري (٢٧٠٤). وقد تقدم ص١١٦ من هذا الجزء.

(٧) أخرجه أحمد (١٨٩٠٧)، والطبراني ٢٠/ (٣٠) مطولاً من حديث المسور بن مخرمة، وصححه الحاكم ٣/ ١٥٨ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٠٣ : وفيه أم بكر بنت المسور، ولم يجرحها أحد، =

الشافعيّ فيمن أوصى لولد فلان، ولم يكن له ولد لصلبه[١]، وله ولدُ ابنٍ وولدُ ابنة: إن الوصية لولد الابن دون ولد الابنة؛ وهو قول الشافعيّ[٢]. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في «الأنعام» و«الزخرف» إن شاء الله تعالى[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ الإشارةُ في قوله: «إن هذا» إلى القرآن وما فيه من الأقاصيص، سمِّيت قَصَصاً لأن المعاني[٤] تتابع فيها، فهو من قولهم: فلانٌ يقُصُّ أثر فلان، أي: يتَّبعه.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ «مِن» زائدةٌ للتوكيد، والمعنى: وما إلهٌ إلّا اللّهُ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا يُغْلَب. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ ذو الحكمة[٥]. وقد تقدَّم مِثلُه[٦]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الخِطَاب في قول الحسن وابن زيد والسُّدِّي لأهل نجران، وفي قول قَتادة وابن جُريج وغيرِهما ليهود المدينة[٧]، خوطبوا

= ولم يوثقها أحد، وبقية رجاله وثقوا. وأخرجه الطبراني (١١٦٢١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٧٣: ورجاله ثقات.

وأخرجه الطبراني بنحوه (٢٦٣٣) (٢٦٣٥)، والحاكم ٣/ ١٤٢ من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(١) في (ظ): ولم يكن لصلبه ولد.

(٢) أحكام القرآن للكيا الطبري ١/ ٢٨٨.

(٣) سورة الأنعام الآية(٨٤)، وسورة الزخرف الآية: (٢٨).

(٤) في (ظ): المعنى.

(٥) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤١٦ - ٤١٧.

(٦) ١/ ٤٢٩.

(٧) النكت والعيون ١/ ٣٩٩، وأخرج هذه الأخبار الطبري ٥/ ٤٧٤ - ٤٧٥.

بذلك لأنهم جعلوا أحبارَهم في الطاعة لهم كالأرباب.

وقيل: هو لليهود والنصارى جميعاً[١]؛ وفي كتاب النبيِّ ﷺ إلى هِرقلَ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمدٍ رسولِ الله إلى هِرقلَ عظِيمِ الرّوم، سلامٌ على من اتبع الهدى [أما بعدُ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام] أسلِمْ تسلَمْ [وأَسلِمْ] يؤتِك اللهُ أجرَك مرتين، وإن تولَّيتَ فإن عليك إثمَ الأريسيِّين، و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾. لفظ مسلم[٢].

والسواءُ: العدل والنَّصَفَة؛ قاله قتادة. وقال زهير:

أَرُونِي خُطَّةً لا ضَيْمَ فيها يُسَوَّى بيننا فيها السَّواءُ[٣]

الفرَّاء[٤]: ويقال في معنى العدل: سِوىً وسُوىً. فإذا فتحتَ السينَ مددتَ، وإذا كسرت أو ضممتَ؛ قصرتَ، كقوله تعالى: ﴿مَكَانٗا سُوٗى﴾ [طه:٥٨].

قال: وفي قراءة عبدالله: «إلى كلمةٍ عدلٍ بيننا وبينكم»، وقرأ قَعْنَب: «كِلْمَة» بإسكان اللام، ألقى حركة اللام على الكاف؛ كما يقال: كِبْد[٥].

فالمعنى: أجيبوا إلى ما دُعيتم إليه، وهو الكلمة العادلة المستقيمة التي ليس فيها ميلٌ عن الحق؛ وقد فسَّرها بقوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾. فموضعُ «أن» خَفْضٌ على البدل من «كلمة»، أو رفعٌ على إضمار مبتدأ، التقدير: هي أن لا نعبدَ إلا الله. أو تكون مفسِّرةً لا موضعَ لها، ويجوز مع ذلك في «نعبد» وما عُطف عليه الرفعُ والجزم: فالجزم على أن تكون «أن» مفسِّرة بمعنى «أي»، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَنِ

(١) تفسير الطبري ٥/ ٤٧٣ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٨ .

(٢) صحيح مسلم (١٧٧٣) وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٢٣٧٠)، والبخاري (٧) وهو جزء من حديث طويل لابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤١٨ ، وللزجاج ١/ ٤٢٥ ، والبيت في ديوان زهير بشرح ثعلب ص٨٤ برواية: أرونا سنة لا عيب فيها .

(٤) معاني القرآن ١/ ٢٢٠ ، وتفسير البغوي ١/ ٣١١ .

(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٠ ، والقراءات الشاذة ص٢١، ٢٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٣ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٩ . قعنب: هو أبو السَّمَّال، وسلف ذكر القراءة عنه ص١١٥ .

ٱمْشُوا﴾ [ص:٦]، وتكون «لا» جازمة؛ هذا مذهبُ سيبويه. ويجوز على هذا أن ترفع «نعبد» وما بعده، ويكون[١] خبراً، ويجوز الرفعُ بمعنى: أنه لا نعبدُ؛ ومثلُه: ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:٨٩].

وقال الكسائيُّ والفرَّاء: «وَلَا نُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذْ» بالجزم على التوهُّم أنه ليس في أوَّلِ الكلام «أن»[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا نتَّبعه في تحليلِ شيءٍ أو تحريمه إلَّا فيما حلَّله اللّه تعالى، وهو نظير قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]. معناه: أنَّهم أنزلوهم منزلةَ ربِّهم في قَبول تحريمهم وتحليلهم لِمَا لم يحرِّمْه اللّه ولم يُحِلَّه اللّه.

وهذا يدلُّ على بطلان القول بالاستحسان المجرَّد الذي لا يستندُ إلى دليل شرعيّ؛ قال الكيا الطبريُّ[٣]: مِثل استحسانات أبي حنيفةَ في التقديرات التي قدَّرها دون مستَنَداتٍ بيِّنة.

وفيه ردٌّ على الرَّوافض الذين يقولون: يجب قَبول قول الإمام دونَ إبانةِ مُسْتَنَدٍ شرعيّ، وأنه يُحِلُّ ما حرَّمه اللّه من غير أن يُبيِّنَ مسْتَنداً من الشريعة.

وأرباب: جمع رب. و«دون» هنا بمعنى غير.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أَعْرَضوا عما دُعوا إليه. ﴿فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: متَّصفون بدين الإسلام، مُنْقادون لأحكامه، معترفون بما لِلّه علينا في ذلك من المِنَن والإنعام[٤]، غيرُ متَّخذين أحداً ربّاً، لا عيسى ولا عُزَيراً ولا الملائكة؛ لأنهم بشرٌ مثلُنا، مُحدَث كحدوثنا، ولا نقبل من الرُّهبان شيئاً بتحريمهم علينا ما لم يحرِّمه اللّه علينا، فنكونَ قد اتخذناهم أرباباً.

---

(١) في (م): يكون، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٤ .

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٠ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٣ - ٣٨٤ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ١٦٢ .

(٣) أحكام القرآن ١/ ٢٨٨ .

(٤) المفهم ٣/ ٦٠٩ .

وقال عكرمة: معنى «يَتَّخِذَ»: يسجد[١].

وقد تقدَّمَ أن السجودَ كان إلى زمن النبيِّ ﷺ، ثم نهى النبيُّ ﷺ[٢] مُعَاذاً لمَّا أراد أن يسجدَ؛ كما مضى في البقرة بيانُه[٣].

وروى أنسُ بن مالك قال: قلنا يا رسول اللّه، أينحني بعضنا لبعض؟ قال: «لا» قلنا: أيعانق بعضُنا بعضاً؟ قال: «لا، ولكن تصافحوا» أخرجه ابن ماجه في سننه[٤].

وسيأتي لهذا المعنى زيادةُ بيانٍ في سورة يوسف إن شاء اللّه[٥].

وفي «الواقعة» مسُّ القرآنِ أو بعضِه على غير طهارة إن شاء اللّه تعالى[٦].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الأصل «لِمَا» فحُذِفَتِ الألفُ فرقاً بين الاستفهام والخبر[٧]. وهذه الآية نزلَتْ بسبب دعوى كلِّ فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان على دينه، فأكْذَبَهُمُ اللّهُ تعالى بأنَّ اليهودية والنصرانيةَ إنما كانتا من بعده؛ فذلك قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري ٥/ ٤٨٠، وابن أبي حاتم (٣٦٣٥).

(٢) في (خ) و(ظ): ثم نهى عنه ﷺ.

(٣) ١/ ٤٣٧.

(٤) برقم (٣٧٠٢)، وهو عند أحمد (١٣٠٤٤)، والترمذي (٢٧٢٨)، وابن عدي في الكامل ٢/ ٨٢٨. قال الحافظ في التلخيص الحبير ٣/ ١٤٩: حسنه الترمذي، واستنكره أحمد، لأنه من رواية السدوسي (وهو حنظلة بن عبدالله) وقد اختلط، وتركه يحيى القطان.

(٥) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [الآية: ١٠٠].

(٦) عند قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الآية: ٧٩]، ويبدو أن المصنِّف قد ذكر هذا تعقيباً على كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، وأن هرقل قد أمسكه وفيه آيات من القرآن الكريم، وقال أبو العباس القرطبي في المفهم ٣/ ٦١٠ في هذا الحديث: وفيه دليل على جواز مس الجنب والكافر كتب الفقه والتفسير وإن كان فيها قرآن، لأن القرآن فيها تابع لغيره، بخلاف ما إذا كان القرآن وحده، فلا يجوز للجنب ولا للكافر أن يمسَّا منه شيئاً.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٤.

قال الزَّجَّاج[١]: هذه الآية أبْيَنُ حجةٍ على اليهود والنصارى؛ إذِ[٢] التوراةُ والإنجيلُ أُنْزِلا من بعده، وليس فيهما اسمه بواحد[٣] من الأديان، واسمُ الإسلام [له] فِي كلِّ كتاب.

ويقال: كان بين إبراهيمَ وموسى ألفُ سنةٍ، وبين موسى وعيسى أيضاً ألفُ سنةٍ[٤]. ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ دحوضَ حُجَّتِكم وبطلانَ قولِكم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ﴾ يعني في أمر محمد ﷺ؛ لأنهم كانوا يَعْلَمُونه فيما يجدون من نعته في كتابهم، فحاجُّوا فيه بالباطل ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾ يعني دعواهم في إبراهيمَ أنَّه كان يهودياً أو نصرانياً[٥].

والأصلُ في «ها أنتم»: أأنتم، فأُبدل من الهمزة الأولى هاءٌ؛ لأنها أختُها. عن أبي عمرو بنِ العلاء والأخفش. قال النَّحَّاس[٦]: وهذا قولٌ حسنٌ.

وقرأ قُنْبُل عن ابن كثير: «هَأَنْتُم» مثل: هَعَنْتُم[٧]. والأحسن منه[٨] أن يكون الهاءُ

---

(١) معاني القرآن ١/ ٤٢٦ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) في النسخ الخطية: أن، والمثبت من (م).

(٣) في النسخ الخطية: وليس فيها اسم لواحد، وفي (م): وليس فيهما اسم لواحد، والمثبت من معاني القرآن، والوسيط ١/ ٤٤٧ .

(٤) كذا وقع في النسخ، والذي في تفسير البغوي ١/ ٣١٢: ألفا سنة، وذكر الثعلبي في عرائس المجالس ص٣٧٤ أنه بين عمران أبي موسى عليه السلام وعمران والد مريم ألف وثمان مئة عام، وذكر ابن حبيب في المحبَّر ص١ ، أنه من موسى إلى داود خمس مئة وتسعون سنة، ومن داود إلى عيسى ألف وثلاث وخمسون سنة ،والله أعلم.

(٥) تفسير البغوي ١/ ٣١٣ .

(٦) إعراب القرآن ١/ ٣٨٤ ، وما قبله منه دون ذكر الأخفش، ونقله عن الأخفشِ البغويُّ ١/ ٣١٢ .

(٧) السبعة ص٢٠٧ . وانظر التيسير ص٨٨ . وقنبل: هو محمد بن عبد الرحمن المخزومي مولاهم، المكي، إمام في القراءة، راوي ابن كثير المكي، مات سنة (٢٩١ هـ). السير ١٤/ ٨٤ .

(٨) في (خ) و(ظ): فيه.

بدلاً من همزةٍ، فيكون أصلُه: أأنتم. ويجوز أن تكون «ها» للتنبيه؛ دخلت على «أنتم»، وحُذِفَت الألفُ لكثرة الاستعمال. وفي «هؤلاءِ» لغتان: المدُّ والقصرُ[١]. ومن العرب من يَقْصُرُها. وأنشد أبو حاتم:

لعمركَ إنّا والأحاليفُ هاؤلا ... لفي محنةٍ أظفارُها لم تُقَلَّمِ[٢]

وهؤلاء ها هنا في موضع النداء، يعني: يا هؤلاء. ويجوز «هؤلاء» خبر أنتم، على أن يكون أولاء بمعنى الذين، وما بعده صلة له، ويجوزُ أن يكونَ خبرُ «أنتم»: حاججتُم. وقد تقدَّم هذا في «البقرة»[٣] والحمد لله.

الثانية: في الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علمَ له، والحظرِ على من لا تحقيقَ عندَه، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾. وقد وَرَدَ الأمرُ بالجِدال لمن عَلِم وأيْقَنَ[٤]؛ فقال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ورُوي عن النَّبيِّ ﷺ أنه أتاه رجلٌ أنكر ولدَه، فقال: يا رسولَ اللّه، إنَّ امرأتي ولدَتْ غلاماً أسودَ، فقال رسول اللّه ﷺ: «هل لك مِن إبل؟» قال: نعم. قال: «ما ألوانُها؟» قال: حُمْرٌ. قال: «هل فيها مِنْ أَوْرَقَ؟» قال: نعم. قال: «فمِن أين ذلك؟» قال: لعلَّ عِرْقاً نَزَعَه. فقال رسولُ اللّه ﷺ: «وهذا الغلامُ لعلَّ عِرقاً نَزَعَه»[٥]. وهذا حقيقةُ الجدالِ، ونهايةٌ في تبيين الاستدلال من رسول اللّه ﷺ.

---

(١) انظر الحجة للفارسي ٣/ ٤٦ - ٤٧ و٥١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٥٠.

(٢) قائله أوس بن حجر، وهو في ديوانه ص١٢٠، والمعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٨٩٨ وشرح ديوان زهير للأعلم الشنتمري ص٢٢، برواية: حقبة، بدل: محنة. قال ابن قتيبة: أي نحن في حرب. وأظفارها كناية عن السلاح. قال الأعلم الشنتمري: أول من كنى بالأظفار عن السلاح أوس بن حجر.

(٣) ٢/ ٢٣٧ - ٢٣٨، وينظر معاني القرآن للزجاج ١/ ١٦٧، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٤٣.

(٤) في (ظ): وأتقن.

(٥) أخرجه أحمد (٧١٨٩)، والبخاري (٥٣٠٥)، ومسلم (١٥٠٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، والأورق: الأسمر. وقوله: لعل عرقاً نزعه، يقال: نزع إليه في الشبه، إذا أشبهه. النهاية (ورق) (نزع).

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾

نزَّهه تعالى من دعاويهم الكاذبةِ، وبيَّنَ أنه كان على الحنيفيَّة الإسلاميَّة، ولم يكن مشركاً. والحنيفُ: الذي يوحِّدُ ويحجُّ ويُضَحِّي ويختتِنُ ويستقبل القبلة[١]. وقد مضى في «البقرة» اشتقاقُه[٢]. والمسلِمُ في اللغة: المتذلِّلُ لأمر اللّه تعالى المنطاعُ له. وقد تقدَّم في «البقرة» معنى الإسلام مستوفىً[٣] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

قال ابن عباس: قال رؤساء اليهود: واللّه يا محمد، لقد علمتَ أنَّا أَولى الناسِ بدين إبراهيمَ منك ومن غيرك، وإنه[٤] كان يهوديّاً، وما بك إلا الحسدُ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية[٥].

﴿أَوْلَى﴾ معناه أحقُّ، قيل: بالمعونة والنصرة. وقيل: بالحجة[٦]. ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ على مِلَّته وسنَّته. ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ أفردَ ذكرَهُ تعظيماً له؛ كما قال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨]. وقد تقدَّم في «البقرة» هذا المعنى مستوفىً[٧].

و«هذا» في موضع رفعٍ عطفٌ[٨] على الذين، و«النبيُّ» نعتٌ لـ «هذا»، أو بدل[٩]،

---

(١) تفسير البغوي١/ ٣١٣ .

(٢) ٢/ ٤١٤ .

(٣) ٢/ ٤٠٧ .

(٤) في (م): فإنه.

(٥) أسباب النزول للواحدي ص١٠٠ .

(٦) مجمع البيان ٣/ ١١٠ .

(٧) ٢/ ٢٦٢ ، ٤/ ١٧٤ - ١٧٥ .

(٨) في (خ) و(ظ): على العطف .

(٩) قوله: أو بدل، من (خ) و(ظ)، وليس في باقي النسخ، وهو الموافق لما في مشكل إعراب القرآن ١/ ١٦٢ ، والكلام منه.

أو عطفُ بيان، ولو نُصب لكان جائزاً في الكلام عطفاً على الهاء في «اتبعوه».

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ناصرُهم. وعن ابن مسعود أن النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ لكل نبيٍّ ولاةً من النبيين، وإنَّ وليِّيَ منهم أبي وخليلُ ربي، ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾»[١].

قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩)﴾

نزلت في معاذ بن جبلٍ وحذيفةَ بن اليمان وعمار بن ياسرٍ؛ حين دعاهم اليهود من بني النضير وقريظة وبني قينقاع إلى دينهم.

وهذه الآيةُ نظيرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾[٢][البقرة:١٠٩]. و«مِنْ» على هذا القول للتبعيض. وقيل: جميع أهل الكتاب. فتكونُ «مِنْ» لبيان الجنس[٣].

ومعنى «لَوْ يُضِلُّونَكُم» أي: يُكسبونكم المعصية بالرجوع عن دين الإسلام والمخالفةِ له. وقال ابن جرير[٤]: «يُضِلُّونكم» أي: يهلكونكم؛ ومنه قول الأخطل:

كُنْتَ الْقَذَى في مَوْجِ أكْدَرَ مُزْبِدٍ قَذَفَ الأَتِيُّ بِه فضَلَّ ضلالا[٥]

أي: هلك هلاكاً.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ نفيٌ وإيجاب. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: يفطنون أنهم لا يَصِلُون إلى إضلال المؤمنين. وقيل: «وما يشعرون» أي: لا يعلمون بصحة الإسلام،

(١) أخرجه أحمد (٣٨٠٠)، والترمذي (٢٩٩٥)، والطبري ٦/ ٤٩٨.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص١٠٤، وتفسير البغوي ١/ ٣١٥، ونسبه ابن حجر في العجاب في بيان الأسباب ٢/ ٦٩٢ لمقاتل بن سليمان.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٥٢.

(٤) في النسخ: ابن جريج، ولم نقف عليه من قول ابن جُريج، ولعلها سبق قلم من المصنف رحمه الله، وهو قول الطبري في تفسيره ٦/ ٥٠٠، ونقله عنه ابن عطية في المحرر ١/ ٤٥٢.

(٥) ديوانه ص٥٠، والأتيُّ: السيل الذي يأتي من بلد مُطِر فيه إلى بلد لم يُمطر فيه. اللسان (أتى).

وواجب عليهم أن يعلموا؛ لأن البراهينَ ظاهرةٌ والحججَ باهرةٌ[١]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٧٠﴾

أي: بصحة الآيات التي عندكم في كتبكم؛ عن قتادة والسُّدي[٢].

وقيل: المعنى: وأنتم تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء التي أنتم مُقِرُّون بها.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٧١﴾.

اللَّبْس: الخَلْط، وقد تقدّم في البقرة[٣]، ومعنى هذه الآية والتي قبلها معنى تلك[٤].

﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ ويجوز: «وتكتموا» على جواب الاستفهام[٥]. ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ جملة في موضع الحال.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٧٢﴾

نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بنِ الصّيف وغيرهما، قالوا للسَّفِلة من قومهم: آمِنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا وجهَ النهار، يعني أولَه[٦].

وسُمّيَ وجهاً؛ لأنه أحسنُه، وأول ما يُواجَه منه أولُه. قال الشاعر:

وتُضيءُ في وجه النهارِ منيرةً ... كجُمانةِ البَحْريِّ سُلَّ نظامُها[٧]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٥.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٤٩١ - ٤٩٢، والمقصود بالآيات هنا: نعت النبي ﷺ وأنه موجود في كتبهم، وهم يشهدون بذلك ثم يكفرون به وينكرونه.

(٣) ٢/ ١٩.

(٤) في (د) و (م): ذلك.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٦.

(٦) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٢٧٧.

(٧) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٢٠، والبيت للبيد بن ربيعة، وهو في ديوانه ص٣٠٩، وفيه: الظلام،=

وقال آخر:

مَنْ كان مسروراً بمقتل مالكٍ فليأتِ نسوتَنا بوجه نهارِ[1]

وهو منصوب على الظرف، وكذلك «آخرَه». ومذهب قتادةَ أنهم فعلوا ذلك ليُشكِّكُوا المسلمين[2].

والطائفة الجماعة، من: طاف يطوف، وقد يستعمل للواحد على معنى نفس طائفة.

ومعنى الآية: أن اليهود قال بعضهم لبعض: أَظْهِرُوا الإيمان بمحمد في أول النهار، ثم اكفُروا به آخرَه؛ فإنكم إذا فعلتُم ذلك ظهر لمَنْ يتبعه ارتيابٌ في دينه، فيرجعون عن دينه إلى دينكم، ويقولون: إنَّ أهل الكتاب أعلمُ به منا[3].

وقيل: المعنى: آمِنوا بصلاته في أول النهار إلى بيت المقدس، فإنه الحقّ، واكفُروا بصلاته آخِرَ النهار إلى الكعبة لعلهم يرجعون إلى قِبْلتكم. عن ابن عباس وغيره[4].

وقال مقاتل: معناه: أنهم جاؤوا محمداً ﷺ أوَّلَ النهار، ورجعوا من عنده فقالوا للسَّفِلَة: هو حقٌّ فاتَّبِعوه، ثم قالوا: حتى ننظرَ في التوراة، ثم رجعوا في آخر النهار فقالوا: قد نظرنا في التوراة فليس هو به. يقولون: إنه ليس بحقٍّ، وإنما أرادوا أن يُلَبِّسُوا على السَّفِلَة، وأن يُشكِّكُوا فيه[5].

= بدل: النهار. وقوله: كجُمانة البحري؛ قال شارح الديوان: لؤلؤة الغواص الصغيرة. وقوله: سُلَّ نظامها: خيطها.

(١) البيت للربيع بن زياد العبسي، وقد أورده أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٩٧ ، والطبري في تفسيره ٦/ ٥٠٩ ، والزجاج في معاني القرآن ١/ ٤٢٩ ، والبغدادي في خزانة الأدب ٨/ ٣٦٩ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٦ .

(٣) ينظر زاد المسير ١/ ٤٠٥ .

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٢٩ ، وأخرج قول ابن عباس الطبريُّ في تفسيره ٦/ ٥٠٨ .

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٢٧٧ .

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا نهيٌ، وهو من كلام اليهود بعضِهم لبعض. أي: قال ذلك الرؤساء للسَّفِلَة. وقال السُّدِّيّ: من قول يهود خيبر ليهود المدينة[١].

وهذه الآية أشكلُ ما في السورة[٢]. فرُوِيَ عن الحسن ومجاهد أن معنى الآية: ولا تؤمنوا إلا لمَنْ تَبِعَ دينَكم، ولا تؤمنُوا أن يُحاجُّوكم عندَ ربِّكم؛ لأنهم لا حُجَّةَ لهم، فإنكم أصحُّ منهم دِيناً[٣]. و«أن يحاجُّوكم»[٤] في موضع خفض، أي: بأنْ يُحاجُّوكم، أي: باحتجاجهم[٥]. أي: لا تصدِّقوهم في ذلك، فإنهم لا حجةَ لهم أنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ من التوراة والمَنِّ والسَّلْوى وفَرْقِ البحر، وغيرِها من الآيات والفضائل[٦]. فيكون: «أن يؤتى» مؤخَّراً بعد: «أو يُحَاجُّوكم»، وقولَه: «إنّ الْهُدَى هُدَى اللّه» اعتراضٌ بين كلامين[٧].

وقال الأخفش: المعنى: ولا تؤمنوا إلا لِمَنْ تَبِعَ دينكم، ولا تؤمنوا أنْ يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتم، ولا تُصدِّقوا أنْ يُحاجُّوكم، يذهب إلى أنه معطوف[٨].

وقيل: المعنى: ولا تؤمنوا إلا لمَنْ تَبِعَ دينكم، أَأَنْ يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتم، بالمدّ[٩] على الاستفهام أيضاً؛ تأكيدٌ للإنكار الذي قالوه: إنه لا يُؤتى أحدٌ مثلَ ما

---

(١) النكت والعيون ١/ ٤٠١، والقول الأول عنده من كلام السُّدِّيّ، والثاني من كلام الحسن.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٦.

(٣) ينظر الوسيط للواحدي ١/ ٤٥٠، وتفسير البغوي ١/ ٣١٦.

(٤) يعني في قول الحسن ومجاهد: ولا تؤمنوا أن يُحاجُّوكم، ووقع في (م): وأن ويحاجُّوكم، وهو خطأ.

(٥) ينظر الوجيز للواحدي - بهامش مراح لبيد ١/ ١٠٤.

(٦) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٢٧٧، وتفسير البغوي ١/ ٣١٦.

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٤٥٤.

(٨) معاني القرآن للأخفش ١/ ٤١١، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٧ وعنه نقل المصنف.

(٩) في (د) و (م): فالمدّ.

أُوتوه؛ لأن علماء اليهود قالت لهم: لا تؤمنوا إلا لمَنْ تَبعَ دينكم أنْ يؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتم، أي: لا يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم، فالكلام على نسقه. و«أنْ» في موضع رفع على قول مَنْ رفع في قولك: أزيدٌ ضربتَه، والخبر محذوف تقديره: أنْ يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتم تصدِّقون أو تُقرُّون، أي: إيتاء موجود مصدَّقٌ أو مُقَرٌّ به، أي: لا تصدِّقون بذلك. ويجوز أن تكون «أنْ» في موضع نصب على إضمار فعل، كما جاز في قولك: أزيداً ضربتَه، وهو[1] أقوى في العربية؛ لأن الاستفهام بالفعل أوْلى، والتقدير: أتقرُّون أنْ يؤتى، أو: أتُشِيعون ذلك، أو: أتَذْكرون ذلك ونحوه[2].

وبالمدّ قرأ ابنُ كثير[3] وابن مُحَيصِن وحميد.

وقال أبو حاتم: «آن» معناه: أَلِأَنْ[4]، فحذفت لام الجرِّ استخفافاً، وأُبدلت مَدَّةً، كقراءة مَنْ قرأ: «آنْ كَانَ ذَا مَالٍ»[5] [القلم: ١٤] أي: أَلِأَن.

وقوله: «أو يُحَاجُوكُم» على هذه القراءة رجوعٌ إلى خطاب المؤمنين. و[6] تكون «أو» بمعنى «أَنْ»؛ لأنهما حَرْفا شكٍّ وجزاء، يوضَع أحدُهما موضعَ الآخر. وتقدير الآية: وأنْ يحاجُّوكم عند ربِّكم يا معشر المؤمنين، فقل يا محمد: إن الهدى هدى الله ونحن عليه[7].

ومَنْ قرأ بترك المدّ قال: إن النفي الأول دلَّ على إنكارهم في قولهم: ولا تؤمنوا. فالمعنى: أن علماء اليهود قالت لهم: لا تصدقوا بأنْ يُؤتَى أحدٌ مثل ما أُوتيتم[8].

---

(١) في (د) و (م): وهذا.

(٢) الكشف عن وجوه القراءات ١/٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٣) السبعة ص٢٠٧ ، والتيسير ص٨٩، وقال أبو عمرو في البيان ٢/٨١ : قرأ ابن كثير «أن يؤتى» على الاستفهام بهمزة محققة بعدها همزة مسهلة بين بين من غير ألف فاصلة بينهما على مذهبه في جميع الاستفهام، وقرأ الباقون على الخبر بهمزة واحدة محققة من غير مدّ.

(٤) في (د) و (ظ): لأن.

(٥) قرأ أبو بكر وحمزة: أأن كان، بهمزتين محققتين، وابن عامر بهمزة ومدة، وابن ذكوان دون هشام في المدّ، والباقون بهمزة واحدة مفتوحة على الخبر. التيسير ص٢١٣ ، وانظر السبعة ص٦٤٦ .

(٦) في (د) و (م): أو.

(٧) تفسير البغوي ١/٣١٦ .

(٨) الكشف عن وجوه القراءات ١/٣٤٨.

أي: لا إيمان لهم ولا حجَّة، فعطف على المعنى من العلم والحكمة والكتاب والحجة والمنِّ والسلوى وفَلْق البحر وغيرها من الفضائل والكرامات. أي: إنها لا تكون إلا فيكم، فلا تؤمنوا أنْ يُؤتى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتم إلا مَنْ تبع دينكم، فالكلام فيه تقديم وتأخير على هذه القراءة، واللام زائدة[١]، و«مَن» استثناء[٢]؛ ليس من الأول، وإلا لم يجز الكلام. ودخلت «أَحَدٌ» لأن أول الكلام نفي، فدخلت في صلة فـ «أنْ»، لأنه مفعول الفعل المنفي، فـ «أنْ» في موضع نصب؛ لعدم الخافض.

وقال الخليل: «أنْ» في موضع خفض بالخافض المحذوف.

وقيل: إن اللام ليست بزائدة، و«تُؤمِنُوا» محمول على تُقِرُّوا[٣].

وقال ابن جُريج: المعنى: ولا تؤمنوا إلا لمَنْ تبع دينكم؛ كراهيةَ أن يُؤتَى أحدٌ مثل ما أُوتيتم.

وقيل: المعنى: لا تخبروا بما في كتابكم من صفة محمد ﷺ إلا لِمَنْ تبعَ دينكم؛ لئلا يكون طريقاً إلى عَبدَة الأوثان إلى تصديقه[٤].

وقال الفرَّاء[٥]: يجوز أن يكون قد انقطع كلامُ اليهود عند قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾. أي: إن البيان الحقَّ هو بيانُ الله عزَّ وجلَّ ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾؛ بيّن أنْ لا يُؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتُم، و«لا» مقدرة بعد «أن» أي: لئلا يؤتى، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لئلا تضلوا. فلذلك صلح[٦] دخول «أحد» في الكلام.

و«أو» بمعنى «حتى» و«إلا أن»؛ كما قال امرؤ القيس:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٢٢.

(٢) في (د) و(ظ) و(م): استثنى، وانظر الدر المصون ٣/ ٢٥١ وما بعدها.

(٣) ينظر الحجة للفارسي ٣/ ٥٢ – ٥٥، والكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٤٨.

(٤) ينظر النكت والعيون ١/ ٤٠١ وفيه: أنهم نُهوا أن يؤمنوا إلا لمن تبع دينهم؛ لئلا يكون طريقاً لعبدة الأوثان إلى تصديقه. وقال: هذا قول الزجاج.

(٥) معاني القرآن له ١/ ٢٢٢ – ٢٢٣، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٧، وعنه نقل المصنف.

(٦) في النسخ: صلحت، والمثبت من (م).

فقلتُ له لا تَبكِ عَيْنُك إنما ... نحاول مُلكاً أو نموتَ فنُعذَرا[(١)]

وقال آخر:

وكنتُ إذا غَمزْتُ قَناةَ قومٍ ... كَسَرْتُ كُعُوبَها أو تستقيما[(٢)]

ومثلُه قولهم: لا نلتقي أو تقومَ الساعة، بمعنى: «حتى» أو: «إلى أن»، وكذلك مذهب الكسائيِّ[(٣)].

وهي عند الأخفش عاطفةٌ على «وَلَا تُؤْمِنُوا» وقد تقدَّم. أي: لا إيمانَ لهم ولا حجَّة، فعطف على المعنى.

ويحتمل أن تكون الآية كلُّها خِطاباً للمؤمنين من اللّه تعالى على جهة التثبيت لقلوبهم، والتشحيذ لبصائرهم؛ لئلا يشكُّوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم في دينهم. والمعنى: لا تصدِّقوا يا معشر المؤمنين إلا مَنْ تَبعَ دينكم، ولا تُصدِّقوا أنْ يُؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتم من الفضل والدِّين، ولا تُصدِّقوا أنْ يُحاجُّوكم[(٤)] في دينكم عند ربِّكم مَنْ خالفَكم أو يقدرون[(٥)] على ذلك؛ فإن الهدى هدى اللّه، وإنَّ الفضلَ بيد اللّه[(٦)].

قال الضحَّاك: إن اليهود قالوا: إنا نُحاجُّ عند ربِّنا مَنْ خالفَنا في ديننا، فبيَّنَ اللّه تعالى أنهم هم المُدْحَضُون المعذَّبون، وأن المؤمنين هم الغالبون[(٧)].

ومحاجَّتُهم خصومتُهم يوم القيامة، ففي الخبر عن رسول اللّه ﷺ: «إن اليهود والنصارى يُحاجُّونا عند ربِّنا، فيقولون: أعطيتَنا أجراً واحداً وأعطيتَهم أجرَيْن فيقول: هل ظلمتُكم من حقوقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإن ذلك فَضْلي أُوتيه مَنْ أشاء»[(٨)].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٢٣، وبيت امرئ القيس في ديوانه ص٦٦.

(٢) نسبه سيبويه في الكتاب ٣/ ٤٨، وابن الشجري في أماليه ٣/ ٧٨ لزياد الأعجم، وليس في ديوانه.

(٣) انظر النكت والعيون ١/ ٤٠٢.

(٤) في (م) يحاجكم.

(٥) كذا في النسخ الخطية، وفي (م): يقدر.

(٦) تفسير البغوي ١/ ٣١٧.

(٧) أورده الطبرسي في مجمع البيان ٣/ ١١٧، وفيه: المغلوبون، بدل: المعذبون.

(٨) أخرجه بنحوه أحمد (٥٩٠٢) والبخاري (٢٢٦٩) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

قال علماؤنا: فلو علموا أنَّ ذلك من فضل اللّه لم يُحاجُّونا عند ربِّنا، فأعلمَ اللّه نبيَّه ﷺ أنهم يحاجُونكم[١] يومَ القيامة عند ربِّكم، ثم قال: قلْ لهم الآن: ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقرأ ابن كثير: «آنْ يُؤْتى» بالمدّ على الاستفهام[٢]، كما قال الأعشى:

أأَنْ رأَتْ رجلاً أعْشَى أضَرَّ بهِ ... رَيْبُ المَنُونِ ودَهْرٌ مُتْبِلٌ خَبِلُ[٣]

وقرأ الباقون بغير مدٍّ على الخبر[٤]. وقرأ سعيد بن جبير: «إِنْ يُؤْتى» بكسر الهمزة، على معنى النفي[٥]، ويكون من كلام اللّه تعالى كما قال الفرَّاء، والمعنى: قل يا محمد: إن الهُدَى هدَى اللّه إنْ يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم، أو يحاجُوكم عند ربِّكم - يعني اليهود - بالباطل، فيقولون: نحن أفضلُ منكم[٦].

ونصب «أو يحاجُوكم» يعني بإضمار «أن»، و«أو» تضمر بعدها «أن» إذا كانت بمعنى: «حتى» و «إلا أن».

وقرأ الحسن «أن يُؤتِيَ» بكسر التاء وياء مفتوحة، على معنى: أن يُؤتِيَ أحدٌ أحداً مثلَ ما أُوتيتم، فحذف المفعول[٧].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ فيه قولان:

أحدُهما: أن الهدى إلى الخير والدلالة إلى اللّه عزَّ وجلَّ بيد اللّه جلَّ ثناؤه يؤتيه أنبياءَه، فلا تنكروا أن يُؤتى أحدٌ سواكم مثلَ ما أُوتيتم، فإنْ أنكروا ذلك، فقل لهم: ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

---

(١) في النسخ: يحاجوكم، والمثبت من (م).

(٢) نقلنا ص١٧٨ من هذا الجزء عن أبي عمرو أن ابن كثير قرأ بهمزة محققة بعدها همزة مسهلة بين بين، من غير ألف فاصلة بينهما.

(٣) ديوان الأعشى ص١٠٥، وفيه: مُفْنِد، بدل: مُتْبِل. وقوله: مُتْبِل أي: رماه الدهر بصروفه وأفناه. القاموس (تبل). وقوله: خَبِل أي: ملتوٍ على أهله. القاموس (خبل).

(٤) السبعة لابن مجاهد ص٢٠٧ .

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢١ للأعمش وطلحة.

(٦) انظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٢.

(٧) المحتسب ١/ ١٦٣ .

والقول الآخر: قل: إنَّ الهدى هدى اللّه الذي آتاه المؤمنين من التصديق بمحمد ﷺ لا غيرُه[١].

وقال بعض أهل الإشارات في هذه الآية: لا تُعاشروا إلا مَنْ يوافقُكم على أحوالكم وطريقتكم، فإن مَنْ لا يوافقُكم لا يرافقُكم. واللّه أعلم[٢].

قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

أي: بنبوَّته وهدايته. عن الحسن ومجاهد وغيرهما، ابن جُريج: بالإسلام والقرآن[٣].

﴿مَن يَشَآءُ﴾. قال أبو عثمان: أجمَلَ القولَ ليبقى معه رجاءُ الراجي وخوفُ الخائف. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ مثل عبداللّه بن سَلَام. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ وهو فنحاص بن عازوراء اليهودي، أودعه رجلٌ ديناراً، فخانه. وقيل: كعب بن الأشرف وأصحابه[٤].

وقرأ ابن وثَّاب والأشهب العُقيلي: «مَنْ إنْ تِيْمَنْه»[٥] على لغة مَنْ قرأ: «نِسْتَعين»، وهي لغة بكر وتميم[٦]. وفي حرف عبد اللّه: «مالك لَا تِيْمَنَّا على

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٧.

(٢) ينظر لطائف الإشارات للقشيري ١/ ٢٥١.

(٣) النكت والعيون ١/ ٤٠٢، وأخرج الآثار الطبري في تفسيره ٥/ ٥٠٧.

(٤) انظر تفسير البغوي ١/ ٣١٧.

(٥) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٢١، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٧.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٨، والقراءات الشاذة ص١.

يوسف»[١] والباقون بالألف.

وقرأ نافع والكسائيُّ: «يؤدِّهِي» بياء في الإدراج[٢].

قال أبو عبيد: واتفق أبو عمرو والأعمش وحمزة وعاصم[٣] في رواية أبي بكر على وقف الهاء، فقرؤوا: «يؤدِّهْ إليك».

قال النحاس[٤]: بإسكان الهاء لا يجوز إلا في الشعر عند بعض النحويين، وبعضُهم لا يجيزُه البتة، ويرى أنه غلطٌ ممن قرأ به، وأنه توهَّم أن الجزم يقع على الهاء. وأبو عمرو أجَلُّ من أن يَجوز عليه مثلُ هذا، والصحيح عنه أنه كان يكسرُ الهاء، وهي قراءة يزيد بن القَعْقاع[٥].

وقال الفرَّاء[٦]: مذهبُ بعضِ العرب يجزمون الهاء إذا تحرَّكَ ما قبلَها، يقولون: ضربتُهْ ضَرْباً شديداً، كما يسكّنون ميم أنتُم وقمتُم، وأصلُها الرفع. كما قال الشاعر:

لـمـا رأى ألَّا دَعَـهْ ولا شِـبَـعْ مـالَ إلى أرْطَاةِ حِقْفٍ فاضطجَعْ[٧]

---

(١) قيَّدها المصنف رحمه الله في سورة يوسف (الآية: ١١) بكسر التاء ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٢ ليحيى بن وثاب، وضبطت في مطبوعه بفتح التاء.

(٢) قراءة نافع هي من رواية ورش عنه، وهي أيضاً قراءة ابن كثير، وعاصم: من رواية حفص، وابن عامر من رواية ابن ذكوان، ووجه لهشام عنه. وأما قالون فقرأ بالاختلاس، وكذا هشام بوجه. انظر السبعة ص٢٠٨، والتيسير ص٨٩.

(٣) في (د) و(م): وعاصم وحمزةُ، والمثبت من باقي النسخ، وهو الصواب؛ لأن أبا بكر (وهو شعبة) راوي عاصم. وانظر المصدرين السالفين.

(٤) في إعراب القرآن ١/ ٣٨٨، وما قبله منه.

(٥) هو أبو جعفر المدني من العشرة. وذكر ابن الجزري له في النشر ١/ ٣٠٥ وجهين: الإسكان واختلاس الكسر، وذكر له في تحبير التيسير ص١٠٠ الإسكان فقط.

(٦) ينظر معاني القرآن له ١/ ٢٢٣.

(٧) الرجز في إصلاح المنطق لابن السكيت ص١٠٨، وفي المحتسب ١/ ١٠٧، والخصائص لابن جني ١/ ٦٣، وفي المخصص لابن سيده ٨/ ٢٤ دون نسبة، ونسبه البغدادي في شرح شواهد الشافية ٢/ ٣٢٤ لمنظور بن مرثد الأسدي. قوله: أرطاة: واحدة الأرطى، وهو شجر من شجر الرمل. والحقف: التل المعوج. شرح شواهد الشافية ٢/ ٣٢٤.

وقيل: إنما جاز إسكانُ الهاء في هذا الموضع؛ لأنها وقعت في موضع الجزم، وهي الياء الذاهبة[١].

وقرأ أبو المُنْذر سلَّام والزُّهْريُّ: «يؤدِّهُ»، بضم الهاء بغير واو[٢]. وقرأ قَتادة وحُميدٌ ومجاهد: «يُؤَدِّهُو»، بواو في الإدراج، اختِير لها الواو؛ لأن الواو من الشَّفَة، والهاءُ بعيدةُ المخرج. قال سيبويه: الواو في المذكَّر بمنزلة الألف في المؤنَّث، ويبدل منها ياء؛ لأن الياء أخفُّ إذا كان قبلَها كسرة أو ياء، وتُحذف الياء وتَبقى الكسرة؛ لأن الياء قد كانت تُحذف والفعل مرفوع، فأثبتت بحالها[٣].

الثانية: أخبر تعالى أنَّ في أهل الكتاب الخائنَ والأمينَ، والمؤمنون لا يميزون ذلك، فينبغي اجتنابُ جميعهم. وخصَّ أهلَ الكتاب بالذِّكْر ـ وإنْ كان المؤمنون كذلك ـ لأن[٤] الخيانة فيهم أكثر، فخرج الكلامُ على الغالب. والله أعلم.

وقد مضى تفسير القنطار[٥]. وأما الدينار فأربعةٌ وعشرون قيراطاً، والقيراط: ثلاثُ حبات من وسط الشعير، فمجموعُه اثنتانِ وسبعون حبةً، وهو مُجْمَعٌ عليه[٦].

ومَنْ حَفِظَ الكثير وأدَّاه؛ فالقليل أَوْلى، ومَنْ خانَ في اليسير أو منَعه؛ فذلك في الكثير أكثر. وهذا أدلُّ دليل على القول بمفهوم الخطاب. وفيه بين العلماء خلافٌ مذكور[٧] في أصول الفقه.

وذكر تعالى قسمين: مَنْ يؤدِّي، ومَنْ لا يؤدِّي إلا بالملازمة عليه، وقد يكون من الناس مَنْ لا يؤدِّي وإن دُمتَ عليه قائماً، فذكَر تعالى القسمين؛ لأنه الغالب والمعتاد، والثالث نادرٌ، فخرج الكلام على الغالب[٨].

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣١٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٨، وانظر إملاء ما مَنَّ به الرحمن للعكبري ٢/ ٨٧، والبحر المحيط ٢/ ٥٠٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٨، وانظر الكتاب لسيبويه ٤/ ١٨٩.

(٤) في النسخ: لكن، والمثبت من (م).

(٥) ص٤٦ من هذا الجزء.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٥.

(٧) في (م): خلاف كثير مذكور.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٦.

وقرأ طلحة بنُ مُصَرِّف وأبو عبد الرحمن السُّلَميّ وغيرهما: «دِمْتَ»؛ بكسر الدال، وهما لغتان، والكسر لغةُ أزْد السَّراة، من: دِمْتَ تَدَامُ؛ مثل: خفتَ تخافُ. وحكى الأخفش: دِمْتَ تدومُ، شاذاً[١].

الثالثة: استدلَّ أبو حنيفةَ على مذهبه في ملازمة الغريم بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ وأباه سائر العلماء[٢]، وقد تقدم في البقرة[٣].

وقد استدلَّ بعض البغداديين من علمائنا على حبس المِدْيان[٤] بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾. فإذا كان له ملازمتُه ومَنْعُه من التصرف، جاز حبسُه[٥].

وقيل: إن معنى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ أي: بوجهك، فيهَابُك ويستحي منك، فإنَّ الحياء في العينين، ألا ترى إلى قول ابن عباس ﷺ: لا تطلبوا من الأعمى حاجةً؛ فإن الحياء في العينين. وإذا طلبت من أخيك حاجة، فانظر إليه بوجهك حتى يستحيَ فيقضيَها.

ويقال: «قائماً» أي: ملازماً له، فإنْ أنظَرْتَه أنكَرك[٦]. وقيل: أراد بالقيام إدامةَ المطالبة لا عينَ القيام.

والدِّينار أصله: دِنَّار، فعوِّضت من إحدى النونين ياء؛ طلباً للتخفيف؛ لكثرة استعماله[٧]. يدلُّ عليه أنه يجمع: دنانير، ويصغَّر: دُنَيْنِير.

الرابعة: الأمانةُ عظيمةُ القَدْرِ في الدِّيْن، ومن عِظَم قدرِها أنها تقومُ هي والرَّحِم

---

(١) معاني القرآن للأخفش ١/ ٤١١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٨ ، ونسب فيه قراءة: دِمت، بكسر الدال ليحيى بن وثاب والأعمش، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢١ ليحيى بن وثاب وحده. وانظر المحرر الوجيز ١/ ٤٥٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٦ .

(٣) ٤/ ٤١٧ .

(٤) هو الذي عادتُه أن يأخذ بالدين ويستقرض. الصحاح (دين).

(٥) انظر المعونة للقاضي عبد الوهاب البغدادي ٢/ ١١٨١ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٥٨ .

(٦) تفسير الرازي ٨/ ١٠٨ .

(٧) مجمع البيان ٣/ ١١٩ .

على جَنَبَتَي الصراط، كما في صحيح مسلم[١]، فلا يُمَكَّن من الجواز إلا مَنْ حفظهما[٢].

وروى مسلم[٣] عن حذيفةَ قال: حدّثنا النبيُّ ﷺ عن رفع الأمانة، قال: «ينامُ الرجلُ النَّومةَ فتُقبضُ الأمانة من قلبه» الحديث. وقد تقدم بكماله أولَ البقرة[٤].

وروى ابن ماجه: حدثنا محمد بن المُصَفَّى، حدّثنا محمد بن حرب، عن سعيد ابن سِنان، عن أبي الزَّاهِرِيَّة، عن أبي شجرةَ كثيرِ بن مُرَّة، عن ابن عمر؛ أن النبيَّ ﷺ قال: «إن اللّه عزَّ وجلَّ إذا أرادَ أن يُهلك عبداً نزَع منه الحياء، فإذا نزَع منه الحياء لم تَلْقه إلا مَقِيتاً مُمقَّتاً، فإذا لم تَلْقه إلا مَقِيتاً مُمقَّتاً؛ نُزِعت منه الأمانة، فإذا نُزِعت منه الأمانة؛ لم تَلْقه إلا خائناً مُخَوَّناً، فإذا لم تَلْقه إلا خائناً مُخوَّناً؛ نُزِعت منه الرحمةُ، فإذا نُزِعت منه الرحمةُ؛ لم تَلْقه إلا رَجِيماً مُلعَّناً، فإذا لم تَلْقه إلا رجِيماً مُلعَّناً؛ نُزِعت منه رِبْقةُ الإسلام»[٥].

وقد مضى في البقرة معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «أدِّ الأمانةَ إلى مَنِ ائتَمَنك، ولا تَخُنْ مَنْ خانَك»[٦]. واللّه أعلم.

الخامسة: ليس في هذه الآية تعديلٌ لأهل الكتاب ولا لبعضهم، خلافاً لِمَنْ ذهب إلى ذلك؛ لأن فُسّاق المسلمين يوجد فيهم مَنْ يؤدّي الأمانة، ويُؤمَّنُ على المال الكثير، ولا يكونون بذلك عدولاً. فطريقُ العدالة والشهادة ليس يجزئُ فيه أداءُ الأمانة في المال من جهة المعاملة والوديعة، ألا ترى قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾؟ فكيف يُعدَّل مَنْ يعتقدُ استباحةَ أموالِنا وحَرِيمِنا بغير حرجٍ عليه؟! ولو كان ذلك كافياً في تعديلهم لَسُمعت شهادتُهم على المسلمين.

---

(١) برقم (١٩٥) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٣) في صحيحه (١٤٣) .

(٤) ١/ ٢٨٨ .

(٥) سنن ابن ماجه (٤٠٥٤) وقال البوصيري في الزوائد ٤/ ١٩٥ : هذا إسناد ضعيف؛ لضعف سعيد بن سنان والاختلاف في اسمه. وقال ابن حجر: متروك. تقريب التهذيب ص١٧٧ .

(٦) ٣/ ٢٤٨ .

السادسة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ يعني اليهود: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ قيل: إن اليهود كانوا إذا بايعوا المسلمين يقولون: ليس علينا في الأُمِّيِّين سبيلٌ ـ أي: حرجٌ في ظلمهم ـ لمخالفتهم إيَّانا. وادَّعَوْا أن ذلك في كتابهم، فأكذَبهم اللّه عزَّ وجلَّ، وردَّ عليهم فقال: «بلى» أي: بلى عليهم سبيلُ العذاب بكذبهم واستحلالهم أموالَ العرب. قال أبو إسحاق الزَّجَّاج: وتمَّ الكلام، ثم قال: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾[1].

ويقال: إن اليهود كانوا قد استدانوا من الأعراب أموالًا، فلما أسلم أرباب الحقوق قالت اليهود: ليس لكم علينا شيءٌ؛ لأنكم تركتم دِيْنَكم، فسقط عنا دَيْنُكم[2]. وادَّعوا أنه حُكم التوراة، فقال اللّه تعالى: «بلى»، ردّاً لقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ أي: ليس كما تقولون، ثم استأنف فقال: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ الشركَ، فليس من الكاذبين، بل يحبُّه اللّه ورسولُه.

السابعة: قال رجل لابن عباس: إنَّا نصيبُ في العَمْد من أموال أهل الذمَّة الدجاجةَ والشاةَ، ونقول: ليس علينا في ذلك بأس؟ فقال له: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾. إنهم إذا أدَّوا الجزية لم تحلَّ لكم أموالهم إلا عن طِيْب أنفسهم؛ ذكره عبد الرازق عن معمر، عن أبي إسحاق الهَمْداني، عن صَعْصعةَ؛ أن رجلاً قال لابن عباس، فذكره[3].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الكافر لا يُجعل أهلاً لقبول شهادتِه؛ لأن اللّه تعالى وصفَه بأنه كذَّاب، وفيه ردٌّ على الكَفرة الذين يُحرِّمون ويحلِّلون من[4] غير تحريم اللّه وتحليله، ويجعلون ذلك من الشرع.

قال ابن العربي[5]: ومن هذا يخرَّج الردُّ على مَنْ يحكم بالاستحسان من غير

---

(١) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٣٤، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٩، وانظر تفسير البغوي ١/ ٣١٨.

(٢) انظر تفسير الرازي ٨/ ١٠٩.

(٣) تفسير عبد الرزاق ١/ ١٢٣ - ١٢٤، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ٥/ ٥١٣.

(٤) لفظة (من) ليست في (د) و (م).

(٥) في أحكام القرآن له ١/ ٢٧٧، وما قبله منه.

دليل، ولستُ أعلم أحداً من أهل القِبْلة قاله.

وفي الخبر: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «ما شيءٌ كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميَّ، إلا الأمانةَ، فإنها مؤدَّاةٌ إلى البَرِّ والفاجر»[١].

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

«مَنْ» رفع بالابتداء، وهو شرط. و«أوفَى» في موضع جزم. و«اتقى» معطوف عليه، أي: واتقى اللّه ولم يكذب، ولم يستحلَّ ما حرّم عليه. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: يحب أولئك[٢]. وقد تقدّم معنى حبِّ اللّه لأوليائه.

والهاء في قوله: «بعهده» راجعة إلى اللّه عزَّ وجلَّ، وقد جرى ذِكْره في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ويجوز أن تعود على الموفي ومتَّقي الكفر والخيانة ونقضِ العهد. والعهدُ مصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: روى الأئمة عن الأشعث[٤] بن قيس قال: كان بيني وبين رجل من اليهود أرضٌ، فجحدَني، فقدَّمتُه إلى النبيِّ ﷺ، فقال لي رسول اللّه ﷺ: «هل لك بيِّنة»؟ قلت: لا، قال لليهودي: «احلفْ»، قلت: إذاً يحلفَ فيذهبَ بمالي، فأنزل اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية[٥].

---

(١) تفسير الرازي ٨/ ١٠٨ ، وأخرج الخبر الطبريُّ في تفسيره ٥/ ٥١١ عن سعيد بن جبير مرسلاً.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٩ .

(٣) ينظر مجمع البيان للطبرسي ٣/ ١٢١ ، وتفسير الرازي ٨/ ١٠٩ .

(٤) في النسخ: روى الأشعث. والمثبت من (م).

(٥) أسباب النزول للواحدي ص١٠٥ ، وأخرج هذا الخبر أحمد (٣٥٩٧)، والبخاري (٢٤١٦)، ومسلم (١٣٨) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

وروى الأئمة أيضاً عن أبي أُمامةَ أن رسول اللّه ﷺ قال: «مَنِ اقتطعَ حقَّ امرئٍ مسلم بيمينه؛ فقد أوجب اللّه له النارَ، وحرَّم عليه الجنةَ». فقال له رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول اللّه؟ قال: «وإنْ كان قضِيباً من أَرَاك»[١]. وقد مضى في البقرة معنى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾[٢].

الثانية: ودلَّت هذه الآية والأحاديثُ أن حكم الحاكم لا يُحلُّ المالَ في الباطن بقضاء الظاهر إذا علم المحكومُ له بطلانَه. وقد روى الأئمة عن أمِّ سلمةَ قالت: قال رسول اللّه ﷺ: «إنكم تختصمون إليَّ، وإنما أنا بشرٌ، ولعلَّ بعضَكم أن يكونَ أَلْحَنَ بحجَّته من بعض، وإنما أقضي بينكم على نحوٍ ممَّا أسمعُ منكم، فمَنْ قضيتُ له من حقِّ أخيه شيئاً، فلا يأخُذْه؛ فإنما أقطعُ له قطعةً من النار يأتِي بها يومَ القيامة»[٣].

وهذا لا خلافَ فيه بين الأمة[٤]، وإنما ناقض أبو حنيفة وغلا، فقال: إن حكم الحاكم المبنيَّ على الشهادة الباطلة يُحلُّ الفَرْجَ لمَنْ كان محرَّماً عليه[٥]. كما تقدم في البقرة[٦]. وزعم أنه لو شهد شاهدا زُورٍ على رجل بطلاق زوجته، وحكَم الحاكم بشهادتهما، فإنَّ فَرْجَها يحلُّ لمتزوِّجها ممن يعلم أن القضية باطل. وقد شُنِّع عليه بإعراضه عن هذا الحديث الصحيح الصريح، وبأنه صان الأموالَ ولم يرَ استباحتَها بالأحكام الفاسدة، ولم يَصُن الفُروج عن ذلك، والفُروج أحقُّ أن يُحتاط لها وتُصان[٧]. وسيأتي بطلان قوله في آية اللِّعان إنْ شاء اللّه تعالى[٨].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٣٩)، ومسلم (١٣٧)، وأبو أمامة راويه هو إياس بن ثعلبة الأنصاري الحارثي، وليس هو أبا أمامة الباهلي صُدَيّ بن عجلان وانظر شرح مسلم للنووي ٢/ ١٦٠ .

(٢) ٣/ ٥٠ .

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٦٧٠)، والبخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣)، وقد سلف ذكره ٢/ ٣٣٨ .

(٤) في (م): الأئمة.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٨ .

(٦) ٣/ ٢٢٣ .

(٧) المفهم ٥/ ١٥٨ .

(٨) عند تفسير الآية (٦) من سورة النور.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يعني طائفةً من اليهود ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾. وقرأ أبو جعفر وشيْبَةُ: «يُلوُّون» على التكثير[(١)]، والمعنى[(٢)]: يحرِّفون الكَلِمَ، ويعدِلون به عن القصد[(٣)]. وأصلُ اللَّيِّ الميل. لَوى بيده، ولَوى برأسه: إذا أماله، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ [النساء: ٤٦]، أي: عِناداً عن الحقِّ، ومَيْلاً عنه إلى غيره. ومعنى ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، أي: لا تُعَرِّجُون عليه، يقال: لَوَى عليه: إذا عرَّج وأقام. واللَّيُّ المَطْلُ. لواه بدَينه يَلْوِيه لَيّاً ولِيَاناً: مَطله[(٤)]. قال:

قد كنتُ داينتُ بها حسَّانا ... مخافةَ الإفلاسِ واللَّيَّانا

يُحسِنُ بيعَ الأصلِ والقِيانا[(٥)]

وقال ذو الرُّمَّة:

تريدين لَيَّاني وأنتِ مَلِيَّةٌ ... وأُحسِنُ يا ذاتَ الوِشاحِ التَّقاضِيَا[(٦)]

وفي الحديث: «لَيُّ الواجِدِ يُحِلُّ عِرْضَه وعُقُوبتَه»[(٧)].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٩، والكشاف ١/ ٤٣٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٠، وقراءة أبي جعفر (وهو من العشرة) المشهورةُ عنه كقراءة الجماعة.

(٢) في (م): التكثير: إذا أماله ومنه، والمعنى... الخ وهو خطأ. فقوله: «إذا أماله ومنه» سيرد على الجادة في السطر بعده.

(٣) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٣٥.

(٤) الصحاح (لوى)، ومجمع البيان ٤/ ١٢٣، وتفسير الرازي ٨/ ١١٣.

(٥) في النسخ: العيان، وهو خطأ. والرجز لرؤبة، وهو في ملحقات ديوانه ص١٨٧، ونسبه ابن يعيش في شرح المفصل ٦/ ٦٥ لزياد العنبري، وقال في شرحه: القينة: الأمة، مغنية كانت أو غير مغنية، يريد أنه داينَ بها - يعني الإبل - حسان؛ لأنه مليء لا يماطل، مخافة أن يداين غيره ممن ليس بمليء، فيماطل لإفلاسه، واللَّيّان مصدر بمعنى اللَّيّ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لَيُّ الغني ظلم».

(٦) ديوان ذي الرُّمة ٢/ ١٣٠٦، وفيه: تسيئين بدل: تريدين، وأورده بلفظ المصنف الجوهري في الصحاح (لوى).

(٧) سلف ٣/ ٢٥٦.

وألْسِنةٌ جمع لسانٍ في لغة من ذَكَّر، ومن أنَّث قال: ألْسُن[١].

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿مَا كَانَ﴾ معناه: ما ينبغي، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢]، و﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥]. و ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ [النور: ١٦]، يعني ما ينبغي. والبشر يقع للواحد والجمع؛ لأنه بمنزلة المصدر، والمراد به هنا عيسى في قول الضحَّاكِ والسُّدِّيّ[٢]. والكتاب: القرآن. والحُكْم: العلمُ والفهم. وقيل أيضاً: الأحكام. أي: إنَّ اللّهَ لا يصطفي لنبوَّته الكَذَبةَ، ولو فعلَ ذلك بشرٌ لسلبه اللّه آياتِ النبوَّةِ وعلاماتِها. ونصب «ثم يقولَ» على الاشتراك بين «أنْ يؤتيَه» وبين[٣] «يقول»، أي: لا يجتمع لنبيٍّ إتيانُ النبوّة وقولُه: ﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾، أي: ولكن جائزٌ أنْ يكونَ النبيُّ يقولُ لهم: كونوا ربَّانيّين. وهذه الآيةُ قيل: إنها نزلت في نصارى نَجْران[٤]. وكذلك رُوِيَ أنَّ السورةَ كلَّها إلى قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ كان سببُ نزولِها نصارى نَجْران، ولكن مُزِجَ معهم اليهود؛ لأنهم فعلوا من الجَحْد والعِناد فِعلهم.

والرَّبَّانِيُّون واحِدُهم رَبَّانِيٌّ، منسوبٌ إلى الرَّبّ. والربَّانِيُّ: الذي يُرَبِّي النَّاسَ بصغار العلمِ قبلَ كباره؛ وكأنه يقتدي بالربِّ سبحانه في تيسير الأمور[٥]؛ رُوِيَ معناه عن ابن عباس[٦].

قال بعضهم: كان في الأصل: رَبِّيّ، فأدخلت الألف والنونُ للمبالغة؛ كما يقال

---

(١) زاد المسير ١/ ٤١٢، وانظر الصحاح (لسن).

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٢٠.

(٣) في (خ) و (ظ): ومن، وفي (د): وبين أن، والمثبت من (م)، ومعاني الزجاج ١/ ٤٥٦، والكلام منه.

(٤) تفسير الطبري ٦/ ٥٣٩، وأسباب النزول للواحدي ص١٠٨.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٨ - ٢٧٩، وانظر تفسير البغوي ١/ ٣٢٠.

(٦) ذكره البخاري، باب العلم قبل القول والعمل. فتح الباري ١/ ١٦٠.

للعظيم اللحيةِ: لِحْيَانِيّ، ولعظيم الجُمَّةِ: جُمَّانِيّ، ولغليظ الرَّقَبَةِ: رَقَباني[١].

وقال المبرِّد: الرَّبَّانيُّون أربابُ العلم، واحدُهم رَبَّان، من قولهم: رَبَّه يَرُبُّه، فهو رَبَّان: إذا دَبَّره وأصلحه، فمعناه على هذا: يُدَبِّرون أمورَ النَّاسِ ويُصلحونها. والألف والنون للمبالغة كما قالوا: رَيَّان وعطشان، ثم ضُمت إليها ياءُ النِّسبةِ كما قيل: لِحْيانيٌّ ورَقَبانيٌّ وجُمَّانيّ[٢]. قال الشاعر:

لو كنتُ مُرتَهناً في الجَوِّ أنزلني ... منه الحديثُ وربَّانيُّ أحباري[٣]

فمعنى الربَّانِيِّ: العالِمُ بدين الرَّبِّ الذي يعمل بعلمه؛ لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم. وقد تقدم هذا المعنى في البقرة[٤].

وقال أبو رَزِين: الربَّانيُّ: هو العالمُ الحكيم. وروى شعبةُ عن عاصم، عن زِرٍّ، عن عبد الله بن مسعود ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ قال: حكماء علماء. ابن جُبير: حكماء أتقياء. وقال الضَّحَّاك[٥]: لا ينبغي لأحد أنْ يدعَ حفظَ القرآنِ جَهدَه، فإنَّ اللّهَ تعالى يقول: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾. وقال ابن زيد: الرَّبَّانيُّون: الولاة، والأحبار: العلماء. وقال مجاهد: الربَّانيُّون فوقَ الأحبار.

قال النحاس[٦]: وهو قولٌ حسن؛ لأنَّ الأحبارَ هم العلماء. والربَّانيُّ الذي يجمع إلى العلم البصرَ بالسياسة، مأخوذٌ من قول العرب: رَبَّ أمرَ الناسِ: يَرُبُّه: إذا أصلحه وقام به، فهو رابٌّ، وربَّانِيٌّ على التكثير.

قال أبو عبيدة: سمعت عالماً يقول: الربَّانيُّ: العالِمُ بالحلال والحرامِ والأمرِ والنهي، العارفُ بأنباء الأمَّةِ، وما كان وما يكون[٧].

---

(١) انظر كتاب سيبويه ٣/ ٣٨٠ ، ومعاني الزجاج ١/ ٤٣٥ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٢١ ، والوسيط ١/ ٤٥٦ ، وتفسير الرازي ٨/ ١١٩ .

(٣) لم نقف عليه.

(٤) ١/ ٢١١ - ٢١٢، وهو في سورة الفاتحة، وليس في البقرة.

(٥) أورده النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٩٠ ، وما قبله منه.

(٦) في معاني القرآن ١/ ٤٢٩ ، وأخرج الأقوال السالفة الطبري ٦/ ٥٤٠ - ٥٤٣ .

(٧) تفسير البغوي ١/ ٣٢٠ .

وقال محمد بنُ الحنفِيَّة يوم مات ابنُ عباس: اليومَ مات ربَّانِيُّ هذه الأمّة[١].

ورُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما من مؤمنٍ ذكرٍ ولا أنثى؛ حرٌّ ولا مملوكٍ، إلا ولله عزَّ وجلَّ عليه حقٌّ أنْ يتعلمَ من القرآن، ويتفقَّه في دينه، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ الآية. رواه ابن عباس[٢].

قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ قرأه أبو عمرو وأهل المدينة بالتخفيف؛ من العلم. واختار هذه القراءةَ أبو حاتم. قال أبو عمرو: وتصديقُها «تَدْرُسُون»، ولم يقل: «تُدَرِّسون» بالتشديد من التدريس. وقرأ ابن عامر وأهلُ الكوفة: «تُعلّمون» بالتشديد من التعليم؛ واختارها أبو عبيد. قال: لأنها تجمع المعنيَين: «تَعْلَمون، وتدرسون»[٣].

قال مَكّيّ[٤]: التشديد أبلغ؛ لأنَّ كلَّ معلِّمٍ عالمٌ بمعنى يَعْلم[٥]، وليس كلُّ من عَلِم شيئاً مُعَلِّماً، فالتشديدُ يدلُّ على العلم والتعليمِ، والتخفيفُ إنما يدلُّ على العلم فقط، فالتعليم أبلغُ وأمدح، وغيرُه أبلغ في الذَّمّ. احتجَّ من رجَّح قراءَة التخفيفِ بقول ابن مسعود: ﴿كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ قال: حكماء علماء[٦]؛ فيبعد أنْ يقالَ: كونوا فقهاءَ حكماء بتعليمكم. قال الحسن: كونوا حكماءَ علماء بعلمكم[٧].

وقرأ أبو حَيْوَة: «تُدْرِسون»، من أدرس يُدرِس[٨]. وقرأ مجاهد: «تَعلَّمون» بفتح

---

(١) أورده الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٤٠ ، والطبرسي في مجمع البيان ٣/ ١٢٧ ، وابن الجوزي في غريب الحديث ١/ ٣٧٢ .

(٢) أورده الطبرسي في مجمع البيان ٣/ ١٢٧ ، ولم يذكر راويه. وفيه: من العلم، بدل: من القرآن.

(٣) وقرأ بالتخفيف أيضاً ابن كثير. انظر السبعة ص٢١٣ ، والتيسير ص٨٩ ، والحجة للفارسي ٣/ ٥٨ - ٦١ .

(٤) في الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٥١ .

(٥) في الكشف: عالم بما يعلّم.

(٦) أورده النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٩٠ ، وسلف قريباً.

(٧) أخرجه الطبري ٦/ ٥٤١ .

(٨) المحتسب ١/ ١٦٣ ، وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٦٣ عنه أيضاً: تَدرِسُون، بكسر الراء، وقال: هذا على أنه يقال في مضارع درس: يَدرُسُ، ويَدرِسُ. اهـ . وذكر ابن عطية أيضاً وابن خالويه ص٢١ عنه: تُدَرِّسُون، بضم التاء وكسر الراء وشدّها، بمعنى: تُدَرِّسُون غيركم، وذكر ابن خالويه عنه أيضاً: تَدَرَّسُون، بفتح التاء والتشديد .

التاء وتشديد اللام، أي: تتعلمون[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بالنصب عطفاً على ﴿أَن يُؤْتِيَهُ﴾[(٢)]. ويقوّيه أنَّ اليهودَ قالت للنبيِّ ﷺ: أتريد أنْ نتَّخذَك يا محمد ربّاً؟ فقال اللّه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾[(٣)]. وفيه ضميرُ: البشر، أي: ولا يأمرَكم البشرُ، يعني عيسى وعُزَيراً.

وقرأ الباقون بالرفع[(٤)] على الاستئناف والقطعِ من الكلام الأوّل، وفيه ضميرُ اسمِ اللّه عزَّ وجلَّ، أي: ولا يأمرُكم اللّه أنْ تتخذوا. ويقوّي هذه القراءةَ أنَّ في مصحف عبدِ اللّه: «ولن يأمرَكم». فهذا يدلُّ على الاستئناف، والضميرُ أيضاً للّه عزَّ وجلَّ، ذكَره مكّي[(٥)]، وقاله سيبويه والزجّاج[(٦)]. وقال ابن جُريج وجماعة: ولا يأمركم محمدٌ عليه الصلاة والسلام[(٧)]. وهذه قراءةُ أبي عمرو والكِسائي وأهلِ الحرمين[(٨)].

﴿أَن تَتَّخِذُواْ﴾، أي: بأنْ تتخذوا الملائكة والنبيين أرْباباً. وهذا موجودٌ في النصارى؛ يعظِّمون الأنبياء والملائكةَ حتى يجعلوهم لهم أرباباً[(٩)].

﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ على طريق الإنكارِ والتعجب؛ فحرَّم اللّه

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٦٣ ، وزاد نسبتها للحسن، والقراءات الشاذة ص٢١، ونسبها لسعيد بن جبير.

(٢) السبعة ص٢١٣ ، والتيسير ص٨٩ .

(٣) أخرجه الطبري ٦/ ٥٣٩ .

(٤) عدا البصريّ، فإنه قرأ بالإسكان والاختلاس. انظر التيسير ص٨٩ .

(٥) في الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٥٠ - ٣٥١ ، وانظر السبعة ص٢١٣ ، وتفسير الطبري ٦/ ٥٤٨ ، والحجة ٣/ ٥٨ ، والمحرَّر الوجيز ١/ ٤٦٣ .

(٦) الكتاب ٣/ ٥٢ ، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٣٦ .

(٧) أخرجه الطبري ٦/ ٥٤٦ .

(٨) يعني الرفع، وقد سلف ذكرها.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٠ .

تعالى على الأنبياء أنْ يتخذوا الناسَ عباداً يتألَّهون لهم، ولكن ألزمَ الخلقَ حرمتَهم.

وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا يقولنَّ أحدُكم: عَبْدِي وأَمَتِي، وليقلْ: فَتايَ وفتاتِي، ولا يقل أحدكم: ربِّي، وليقل: سَيِّدِي»[١]. وفي التنزيل: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]. وهناك يأتي بيانُ هذا المعنى إنْ شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾

قيل: أخذ الله تعالى ميثاقَ الأنبياءَ أنْ يصدِّقَ بعضُهم بعضاً، ويأمرَ بعضُهم بالإيمان بعضاً؛ فذلك معنى النُّصرةِ بالتصديق. وهذا قولُ سعيد بنِ جُبير وقَتادةَ وطاوس والسُّدِّيّ والحسن[٢]، وهو ظاهرُ الآية.

قال طاوس: أخذ الله ميثاقَ الأوَّلِ من الأنبياء أنْ يؤمن بما جاء به الآخِر.

وقرأ ابن مسعود: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ»[٣].

قال الكسائي: يجوز أنْ يكونَ ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ بمعنى: وإذْ أخذ الله ميثاقَ الذين مع النبيين.

وقال البصريون: إذا أخذ الله ميثاقَ النبيين، فقد أخذَ ميثاقَ الذين معهم؛ لأنهم قد اتبعوهم وصدّقوهم. و«ما» في قوله «لَمَا» بمعنى الذي[٤].

قال سيبويه[٥]: سألت الخليلَ بن أحمد عن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ

---

(١) أخرجه أحمد (٩٤٥١)، والبخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٥٥٥ - ٥٥٦.

(٣) أخرجه الطبري ٥/ ٥٣٨ - ٥٣٩ عن ابن مسعود، وأُبيّ بن كعب. قال أبو حيان في البحر المحيط ٢/ ٥٠٨: وهذا لا يصحُّ عنه؛ لأن الرواة الثقات نقلوا عنه أنه قرأ: النبيين، كعبدالله بن كثير وغيره، وإن صحَّ ذلك عن غيره فهو خطأ مردود بإجماع الصحابة على مصحف عثمان.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٣٠ - ٤٣١، وقراءة ابن مسعود أخرجها الطبري ٦/ ٥٥٣.

(٥) في الكتاب ٣/ ١٠٧.

﴿النَّبِيِّنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾، فقال: «ما»[١] بمعنى الذي. قال النحاس[٢]: التقدير على قول الخليل: لَلذي آتيتُكموه، ثم حذف الهاء لطول الاسم. و«الذي» رفعٌ بالابتداء، وخبرُه: «من كتاب وحكمة». و«مِن» لبيان الجنس. وهذا كقول القائل: لزيدٌ أفضلُ منك؛ وهو قولُ الأخفشِ أنها لامُ الابتداء[٣].

قال المَهْدوِيُّ: وقولُه: «ثم جاءكم» وما بعدَه جملةٌ معطوفة على الصِّلة، والعائدُ منها على الموصول محذوف؛ التقدير: ثم جاءكم رسولٌ مصدّقٌ به[٤].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾؛ الرسول هنا محمدٌ ﷺ في قول عليٍّ وابن عباس رضي الله عنهما[٥]، واللفظ وإن كان نكرةً؛ فالإشارة إلى معين؛ كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ [النحل: ١١٢-١١٣]. فأخذ الله ميثاقَ النبيِّين أجمعين أنْ يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام وينصروه إنْ أدركوه، وأمرَهم أنْ يأخذوا بذلك الميثاق على أممهم[٦].

واللام من قوله: «لَتُؤْمِنُنَّ به» جوابُ القسمِ الذي هو أَخذُ الميثاق، إذ هو بمنزلة الاستحلاف. وهو كما تقول في الكلام: أخذتُ ميثاقَك لتَفعلَنَّ كذا، كأنك قلت: أستحلفُك، وفَصَلَ بين القَسَم وجوابِهِ بحرف الجرّ الذي هو «لِما» في قراءة ابن كَثير[٧] على ما يأتي. ومن فتحَها جعلَها متلقيةً للقسم الذي هو أخذُ الميثاق. واللام في «لَتؤمنُنَّ به» جوابُ قسمٍ محذوف، أي: واللّه لتؤمننَّ به[٨].

---

(١) في (د) و (م): لما، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٢) في إعراب القرآن ١/ ٣٩١، ونقل المصنف عنه قول سيبويه.

(٣) معاني القرآن للأخفش ١/ ٤١٣.

(٤) بعدها في (د) زيادة: وهي متعلقة بأخذ، وانظر مشكل إعراب القرآن ص١٦٣ - ١٦٤.

(٥) تفسير الطبري ٦/ ٥٥٥ - ٥٥٦.

(٦) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٣٨، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٤ - ٤٦٥.

(٧) كذا قال المصنف رحمه الله، وهو خطأ، والذي قرأ بكسر اللام من السبعة حمزة كما سيأتي، وانظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٥، ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ١٦٥.

(٨) الحجة ٣/ ٦٤، ومشكل إعراب القرآن ص١٦٥، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٤.

وقال المبرّد والكسائيُّ والزجاج[(١)]: «ما» شرطٌ دخلت عليها لامُ التحقيق كما تدخل على «إنْ»، ومعناه: لَمهما[(٢)] آتيتُكم، فموضع «ما» نصب، وموضع «آتيتكم» جزم، و«ثم جاءكم» معطوفٌ عليه، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ اللام في قوله: «لتؤمننَّ به» جوابُ الجزاء، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ﴾ [الإسراء: ٨٦]، ونحوه.

وقال الكسائيّ: لَتؤمنُنَّ به مُعتمدُ القسم، فهو متَّصلٌ بالكلام الأول، وجوابُ الجزاء قولُه: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، ولا يحتاج على هذا الوجهِ إلى تقديرِ عائد[(٣)].

وقرأ أهل الكوفة: «لِمَا آتيتكم» بكسر اللام[(٤)]، وهي أيضاً بمعنى الذي، وهي متعلقةٌ ب «أخذ»، أي: أخذَ اللّه ميثاقَهم لأجل الذي آتاهم من كتاب وحكمةٍ، ثم إن جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ لما معكم لتؤمننَّ به من بعد الميثاق؛ لأنَّ أخذَ الميثاقِ في معنى الاستحلاف كما تقدَّم[(٥)].

قال النحاس[(٦)]: ولأبي عبيدةَ في هذا قولٌ حَسَن. قال: المعنى: وإذ أخذ اللّه ميثاقَ الذين أوتوا الكتاب لتؤمننّ به لِما آتيتكم من ذكر التوراة، وقيل: في الكلام حذفٌ، والمعنى: وَإِذْ أخذ اللّه ميثاقَ النبيّين لَتُعَلِّمُنَّ الناس لِمَا جاءكم من كتاب وحكمة، ولتأخذنَّ على الناس أنْ يؤمنوا. ودلَّ على هذا الحذفِ: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾.

وقيل: إنَّ اللامَ في قولِه: «لِما» في قراءة من كَسرَها بمعنى بَعْد، يعني: بَعْدَ ما آتيتُكم من كتاب وحكمة[(٧)]، كما قال النابغة:

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٤٣٦.

(٢) في (د): ما، وفي (ظ): لما، والمثبت من (خ).

(٣) تفسير الطبري ٦/ ٥٥١، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩١، ومشكل إعراب القرآن ص١٦٦ - ١٦٧.

(٤) هي قراءة حمزة وحده من السبعة، وانظر السبعة ٢١٣، والتيسير ص٨٩.

(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٥، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٤.

(٦) في إعراب القرآن ١/ ٣٩٢.

(٧) نقل هذا المعنى السجاوندي عن صاحب النظم، فيما ذكره أبو حيان في البحر ٢/ ٥١٢، وذكره أيضاً السمين الحلبي في الدر المصون ٣/ ٢٨٧ - ٢٨٨ واستغربه وقال: لا أدري ما حمله على ذلك؟ وكيف ينتظم هذا كلاماً، إذ يصير تقديره: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين بعد ما آتيناكم، ومَن المخاطب بذلك؟

توهمتُ آياتٍ لها فعرفتُها لستَّةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ[(١)]

أيْ: بعد ستَّةِ أعوام.

وقرأ سعيد بنُ جُبير: «لَمَّا» بالتشديد[(٢)]، ومعناه: حينَ آتيتُكم. واحتمل أنْ يكون أصلُها التخفيف، فزيدت «مِن» على مذهب من يرى زيادتَها في الواجب، فصارت لَمِن ما، وقُلبت النون ميماً للإدغام، فاجتمعت ثلاثُ ميمات، فحذفت الأولى منهنَّ استخفافاً[(٣)].

وقرأ أهل المدينة: «آتيناكم» على التعظيم، والباقون: «آتيتُكم» على لفظ الواحد[(٤)].

ثم كلُّ الأنبياءِ لم يُؤتَوا الكتاب، وإنما أُوتي البعضُ؛ ولكن الغلبة للذين أوتوا الكتاب، والمراد أخذُ ميثاقِ جميعِ الأنبياء، فمن لم يؤت الكتابَ، فهو في حكم من أُوتي الكتابَ؛ لأنه أوتي الحُكْمَ والنبوَّة. وأيضاً من لم يؤت الكتاب أُمر بأنْ يأخذَ بكتابِ مَنْ قبلَه، فدخل تحتَ صفةِ مَنْ أُوتي الكتاب[(٥)].

قوله تعالى: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ «أقررتم» من الإقرار، والإِصْر والأَصْر لغتان، وهو العهد. والإصْرُ في اللغة الثِّقْل؛ فَسُمِّي العهدُ إصراً؛ لأنه مَنْعٌ وتشديد[(٦)].

﴿قَالَ فَٱشْهَدُوا۟﴾، أي: اعلموا؛ عن ابن عباس[(٧)]. الزجَّاج: بيِّنوا؛ لأنَّ الشاهدَ هو الذي يصحِّح دعوى المدَّعِي[(٨)].

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٧٩، والكتاب ٢/ ٨٦.

(٢) الكشاف ١/ ٤٤١، وزاد المسير ١/ ٤١٥، ونسبها ابن جني في المحتسب ١/ ١٦٤ للأعرج. قال الزمخشري: ومعناها: لَمِنْ أجل ما آتيتكم لتؤمننَّ به، وهذا نحو من قراءة حمزة في المعنى.

(٣) الكشاف ١/ ٤٤١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٥.

(٤) السبعة ص٢١٤، والتيسير ص٨٩.

(٥) ينظر تفسير الرازي ٨/ ١٢٦.

(٦) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٣٢، وزاد المسير ١/ ٤١٦.

(٧) أورده البغوي ١/ ٣٢٢.

(٨) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٣٧، وفيه: تبينوا لأن...

وقيل: المعنى: اشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم. ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ عليكم وعليهم. وقال سعيد بنُ المسيِّب: قال اللّه عزَّ وجلَّ للملائكة: فاشهدوا عليهم، فتكون كنايةً عن غير مذكور[١].

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

«مَنْ» شرط، والمعنى[٢]: فمن تولَّى من أمم الأنبياءِ عن الإيمان بعدَ أخذِ الميثاق ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[٣] أي: الخارجون عن الإيمان. والفاسق: الخارج. وقد تقدم[٤].

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ قال الكَلْبي: إنَّ كعب بنَ الأشرفِ وأصحابَه اختصموا مع النصارى إلى النبيِّ ﷺ، فقالوا: أيُّنا أحقُّ بِدين إبراهيم؟ فقال النبيُّ ﷺ: «كِلَا الفريقين بريءٌ من دِينه». فقالوا: ما نرضى بقضائك، ولا نأخذُ بِدينك، فنزل: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ يعني يطلبون[٥]. ونصبت «غير» بـ «يبغون»، أي: يبغون غيرَ دينِ اللّه. وقرأ أبو عمرو وحده: «يبغون» بالياء على الخبر «وإليه تُرجعون» بالتاء على المخاطبة. قال: لأنَّ الأوَّلَ خاصٌّ، والثاني عامٌّ، ففرَّق بينهما لافتراقهما في المعنى. وقرأ حفص وغيره: «يبغون، ويُرجعون» بالياء فيهما[٦]؛

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٢٢.

(٢) لفظة: «والمعنى» من (خ) و(ظ).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٢.

(٤) ١/ ٣٦٨ - ٣٦٩.

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٢٨١ - ٢٨٢، وانظر أسباب النزول للواحدي ص١٠٨.

(٦) هي رواية حفص عن عاصم فقط من السبعة، ووافقه من العشرة يعقوب، ولكن بفتح الياء في (يَرجعون). انظر النشر ٢/ ٢٤١، وانظر التعليق التالي.

لقوله: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾. وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب؛ لقوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾. والله أعلم[١]. قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ أي: استسلم وانقاد وخضع وذلَّ، وكلُّ مخلوقٍ فهو منقادٌ مستسلم؛ لأنه مجبولٌ على ما لا يقدر أنْ يخرجَ عنه.

قال قتادة[٢]: أسلم المؤمن طوعاً، والكافر عند موته كَرهاً، ولا ينفعه ذلك؛ لقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

قال مجاهد: إسلامُ الكافرِ كَرهاً بِسجودِهِ لِغير الله، وسجودِ ظِلِّه لله، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾[النحل: ٤٨]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقيل: المعنى أنَّ الله خلق الخلق على ما أراد منهم؛ فمنهم الحَسَنُ والقبيح، والطويلُ والقصيرُ، والصحيح والمريضُ، وكلُّهم منقادون اضطراراً، فالصحيح منقادٌ طائعٌ محبٌّ لذلك، والمريض منقادٌ خاضع وإن كان كارهاً[٣].

والطَّوْع: الانقياد، والاتباعُ بسهولة. والكَرْهُ: ما كان بمشقّةٍ وإباءٍ من النَّفس. و﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ مصدران في موضع الحال، أي: طائعين ومُكرهين.

وروى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، قال: «الملائكة أطاعوه في السماء، والأنصارُ وعبدُ القَيْس في الأرض»[٤].

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فإنَّ أصحابي أسلموا من خوف اللهِ، وأسلم الناسُ من خوف السَّيف»[٥].

---

(١) السبعة ص٢١٤، والتيسير ص٨٩، والحجة ٣/ ٦٩ - ٧٠، والكشف ١/ ٣٥٣.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٥٦٦ - ٥٦٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٢.

(٤) أخرجه الديلمي في مسنده (٧١٨١)، وأخرج نحوه الطبراني في الكبير (١١٤٧٣). وفي إسناده محمد بن محصن العكاشي، وهو متروك كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٦. وأخرجه الطبري ٦/ ٥٦٧ من قول مطر الورَّاق، وابنُ أبي حاتم ٢/ ٦٩٦ من قول الحسن.

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ، غير أن قوله: «لا تسبُّوا أصحابي» أخرجه أحمد (١١٠٧٩)، والبخاري =

وقال عِكْرمة: «طوعاً»: مَنْ أسلمَ من غير مُحاجَّة، «وكَرْهاً»: مَن اضطرته الحجةُ إلى التوحيد، يدلُّ عليه قولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

قال الحسن: هو عمومٌ معناه الخصوص. وعنه: ﴿أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وتمَّ الكلام، ثم قال: ﴿وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾. قال: والكارهُ: المنافقُ لا ينفعُه عملُه.

و«طوعاً وكرهاً» مصدران في موضع الحال[1].

عن مجاهد عن ابن عباس قال: إذا استصعبتْ دابَّةُ أحدِكم، أو كانت شَمُوساً، فليقرأ في أذنها هذه الآية: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ إلى آخر الآية[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

«غير» مفعول بـ «يبتغ»، «ديناً» منصوبٌ على التفسير، ويجوز أنْ ينتصبَ «ديناً» بـ «يبتغ»، وينتصب «غير» على أنه حالٌ من الدِّين[3].

قال مجاهد والسُّدِّيّ: نزلت هذه الآيةُ في الحارث بن سُويد أخو الجُلَاس بن سُويد، وكان من الأنصار، ارتدَّ عن الإسلام هو واثنا عشرَ معه، ولحقُوا بمكةَ كفاراً، فنزلت هذه الآية، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة. ورُوِيَ ذلك عن ابن عباس وغيره.

= (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد ﷺ. وسيرد ص١٧١ من هذا الجزء.

(١) تكرر هذا الكلام قريباً.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٤) من حديث أنس ﷺ بنحوه، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٥: فيه محمد بن عبيد بن عمير، وهو متروك. وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٥١٠) من قول يونس بن عبيد.

(٣) مشكل إعراب القرآن ص١٦٨.

قال ابن عباس: وأسلم بعد نزولِ الآيات[١].

﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ قال هشام: أي[٢]: وهو خاسرٌ في الآخرة من الخاسرين؛ ولولا هذا لفرقت بين الصلة والموصول. وقال المازني: الألف واللام مثلُها في الرجل.

وقد تقدَّم هذا في البقرة عند قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية: ١٣٠].

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

قال ابن عباس: إنَّ رجلاً من الأنصار أسلم، ثم ارتدَّ ولحقَ بالشرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: سَلُوا لي رسولَ اللّه ﷺ: هل لي مِنْ توبة؟ فجاء قومُه إلى رسول اللّه ﷺ، فقالوا: هل له من توبة؟ فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فأرسل إليه، فأسلم. أخرجه النسائي[٣].

وفي رواية[٤]: أنَّ رجلاً من الأنصار ارتدَّ، فلَحِقَ بالمشركين، فأنزل اللّه: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾، فبعث بها قومُه إليه، فلما قرئت عليه قال: واللّه ما كَذَبَني قومي على رسول اللّه ﷺ، ولا كذَبَ[٥] رسولُ اللّه ﷺ على[٦] اللّه، واللّه عزَّ وجلَّ أصدقُ الثلاثة؛ فرجع تائباً، فقَبِلَ منه رسولُ اللّه ﷺ وتركَه.

وقال الحسن[٧]: نزلت في اليهود؛ لأنهم كانوا يبشِّرون بالنبيِّ ﷺ، ويَسْتَفْتِحون

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٥٧٢ - ٥٧٣ .

(٢) لفظة أي، من (م)، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٣ ، والكلام منه. وهشام المذكور: هو ابن معاوية النحوي.

(٣) في المجتبى ٧/ ١٠٧ .

(٤) عند البيهقي ٧/ ١٩٧ .

(٥) في (د) و (م): أكذبت، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٦) في (د) و (م): عن، والمثبت من (ظ).

(٧) أخرجه الطبري ٦/ ٥٧٥ ، وأورده النحاس في معاني القرآن ١/ ٤٣٤ .

على الذين كفروا، فلما بُعِث، عانَدُوا وكفَروا، فأنزلَ اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

ثم قيل: «كيف» لفظة استفهام، ومعناه الجَحْد، أي: لا يهدي اللّه. ونظيرُه قولُه: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٧]، أي: لا يكون لهم عهد[١]، وقال الشاعر:

كيف نومي على الفِراش ولَمَّا ... يشملِ القومَ غارةٌ شَعْواءُ[٢]

أي: لا نومَ لي. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقال: ظاهرُ الآية أنَّ[٣] مَن كفر بعد إسلامه لا يهديه اللّه، ومن كان ظالماً لا يهديه اللّه، وقد رأينا كثيراً من المرتدِّين قد أسلموا وهداهم اللّه، وكثيراً من الظالمين تابوا عن الظلم.

قيل له: معناه: لا يهديهم اللّه ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمِهم، ولا يُقبِلون على الإسلام، فأما إذا أسلموا وتابوا، فقد وفَّقهم اللّه لذلك. واللّه تعالى أعلم[٤].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

أي: إنْ دامُوا على كفرهم. وقد تقدَّم معنى لعنةِ اللّه والناس في «البقرة»[٥] فلا معنى لإعادته.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يؤخَّرُون ولا يؤجَّلُون، ثم استثنى التائبين، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ هو الحارث بنُ سُوَيْد كما تقدَّم[٦]. ويدخلُ في الآية بالمعنى كلُّ من

---

(١) مجمع البيان ٣/ ١٣٥، والوسيط ١/ ٤٦٠، وزاد المسير ١/ ٤١٨.

(٢) قائله عُبيد الله بن قيس الرُّقَيَّات، وهو في ديوانه ص٩٥، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٦٣، وفيها: الشام، بدل: القوم.

(٣) لفظة أنَّ، من (م).

(٤) تفسير أبي الليث ١/ ٢٨٣.

(٥) ٢/ ٤٨٥ - ٤٨٦.

(٦) ص١٩٤ من هذا الجزء.

رجع إلى الإسلام[(١)] وأخلص.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾

قال قتادة وعطاء الخراسانيُّ والحسن: نزلت في اليهود؛ كفروا بعيسى والإنجيل، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ والقرآن.

وقال أبو العالية: نزلت في اليهود والنصارى؛ كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بنعته وصفتِه، «ثم ازدادوا كفراً» بإقامتهم على كفرهم.

وقيل: «ازدادوا كفراً» بالذنوب التي اكتسبوها[(٢)]. وهذا اختيارُ الطبريِّ[(٣)]، وهي عندَه في اليهود.

﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ مشكلٌ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

فقيل: المعنى لن تُقْبَلَ توبتُهم عند الموت. قال النحاس[(٤)]: وهذا قولٌ حسن، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١١٨]. ورُوي عن الحسن وقتادةَ وعطاء[(٥)]. وقد قال ﷺ: «إنَّ اللّه يقبلُ توبةَ العبد ما لم يُغَرْغِرْ»[(٦)]. وسيأتي في «النساء» بيانُ هذا المعنى[(٧)].

وقيل: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ التي كانوا عليها قبل أنْ يكفُروا؛ لأنَّ الكفر قد

---

(١) في (خ) و (د) و (م): راجع الإسلام، والمثبت من (ظ).

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٥٦٤ - ٥٦٥، وتفسير البغوي ١/ ٣٢٤.

(٣) في تفسيره ٥/ ٥٦٥.

(٤) في إعراب القرآن ١/ ٣٩٤.

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٥٦٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٧٠.

(٦) أخرجه أحمد (٦١٦٠)، والترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وفي الباب عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عند أحمد (٦٩٢٠).

(٧) عند تفسير الآية (١١٨) منها.

أحبطَها[١]. وقيل: «لن تقبل توبتُهم» إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخرَ؛ وإنما تقبلُ توبتُهم إذا تابوا إلى الإسلام[٢].

وقال قطرب: هذه الآيةُ نزلت في قومٍ من أهل مكةَ؛ قالوا: نتربَّصُ بمحمد ريبَ المَنون، فإنْ بدَا لنا الرَّجعةُ رجعنا إلى قومنا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾، أي: لن تُقبلَ توبتُهم وهم مقيمون على الكفر، فسماها توبةً غيرَ مقبولة؛ لأنه لم يصحَّ من القوم عزمٌ، والله عزَّ وجلَّ يقبل التوبةَ كلَّها إذا صحَّ العزم[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

المِلْءُ، بالكسر: مقدارُ ما يملأ الشَّيء، والمَلْءُ، بالفتح: مصدر ملأتُ الشَّيءَ، ويقال: أعطني مِلْأَه ومِلْأَيْه وثلاثةَ أمْلائِه[٤].

والواو في «ولَوِ افْتَدَى بِهِ» قيل: هي مقحمةٌ زائدة؛ المعنى: فلن يُقْبلَ من أحدهم مِلْءُ الأرضِ ذهباً لو افتدى به.

وقال أهل النظرِ من النحويين: لا يجوز أنْ تكونَ الواوُ مقحمةً؛ لأنها تدلُّ على معنى. ومعنى الآية: فلن يُقبلَ من أحدهم مِلْءُ الأرضِ ذهباً تبرُّعاً ولو افتدى به[٥].

و«ذهباً» نصبٌ على التفسيرِ في قول الفرَّاء[٦]. قال المفضّل: شرطُ التفسير أنْ يكونَ الكلامُ تامّاً وهو مُبْهَمٌ؛ كقولك: عندي عشرون، فالعدد معلومٌ، والمعدودُ مبهم؛ فإذا قلت: درهماً، فَسَّرْتَ. وإنما نُصِبَ التمييزُ؛ لأنه ليس له ما يخفضُه ولا ما

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٤ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٣٦ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٤ ، وانظر تفسير البغوي ١/ ٣٢٤ .

(٤) الصحاح (ملأ) .

(٥) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٣٧ ، وانظر معاني الزجاج ١/ ٤٤١ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٢٥ .

(٦) في معاني القرآن له ١/ ٢٢٥ .

يرفعُه، وكان النصب أخفَّ الحركات، فجُعِلَ لكلٍّ ما لا عاملَ فيه[١].

وقال الكسائيّ[٢]: نُصب على إضمار مِنْ، أي: من ذهب؛ كقوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]، أي: من صيام. وفي البخاريِّ ومسلم عن قتادةَ، عن أنس بن مالك أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يُجاء بالكافر يومَ القيامة، فيقال له: أرأيت لو كان لك ملءُ الأرضِ ذهباً، أكنت تَفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنتَ سُئلتَ ما هو أيسرُ من ذلك». لفظ البخاري. وقال مسلم بدل «قد كنت»: «كذبتَ، قد سُئلتَ»[٣].

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: رَوى الأئمةُ ـ واللفظُ للنسائي ـ عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: إنَّ ربَّنا لَيسألُنا من أموالنا، فأُشهِدُك يا رسولَ اللّه أنِّي جعلتُ أرضي للّه. فقال رسول اللّه ﷺ: «اجعلْها في قَرابتك، في حسان بن ثابت وأُبيِّ بن كعب»[٤].

وفي الموطأ[٥]: وكانت أحبَّ أمواله إليه بَيْرَحاء[٦]، وكانت مستقبلةَ المسجد،

---

(١) تفسير الرازي ٨/ ١٤٠ .

(٢) لم نقف على قوله، وأورده السمين في الدر المصون ٣/ ٣٠٦ .

(٣) صحيح البخاري (٦٥٣٨)، وصحيح مسلم (٢٨٠٥) (٥٣) ، وهو عند أحمد (١٢٣١٢).

(٤) أخرجه أحمد (١٤٠٣٦)، والبخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨)، وأبو داود (١٦٨٩)، والترمذي (٢٩٩٧)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٢٣١ - ٢٣٢ واللفظ له، وفي الكبرى (١١٠٠١)، وفيه: فجعلها في حسان. . . ، وهو الموافق لروايات الحديث الأخرى.

(٥) ٢/ ٩٩٥ - ٩٩٦ .

(٦) في بعض النسخ: بئرحاء، بإضافة البئر إلى الحاء، قال الفيروز أبادي في القاموس (برح): بَيْرَحَى، كفَيْعَلَى: أرض بالمدينة، ويصحِّفها المحدِّثون: بئرحاء، وقال في (الحا): اسم رجل ينسب إليه بئرحاء بالمدينة، وقد يقصر. وقال ابن الأثير في النهاية (برح): هذه اللفظة كثيراً ما تختلف ألفاظ المحدثين فيها، فيقولون: بيرحاء، بفتح الباء وكسرها، وبفتح الراء وضمها، والمد فيهما، وبفتحهما والقصر، وهي اسم مال وموضع بالمدينة، وقال الزمخشري في الفائق: إنها فَيْعَلَى من البَراح، وهي الأرض الظاهرة.

وكان رسولُ اللّه ﷺ يدخلُها ويشرَبُ من ماء فيها طيِّبٍ. وذكر الحديث.

ففي هذه الآية دليلٌ على استعمال ظاهرِ الخطاب وعمومه، فإنَّ الصحابةَ رضوانُ اللّه عليهم أجمعين لم يفهموا من فحوى الخطابِ حين نزلت الآية غيرَ ذلك. ألا ترى أبا طلحةَ حين سمع ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾ الآية، لم يحتجْ أنْ يقفَ حتى يردَ البيانُ الذي يريدُ اللّهُ أنْ ينفقَ منه عبادُه بآيةٍ أخرى، أو سُنةٍ مبيِّنةٍ لذلك، فإنهم يحبُّون أشياءَ كثيرة.

وكذلك فعل زيدُ بنُ حارثة؛ عَمِدَ مما يحبُّ إلى فرس يقال له: سَبَل، وقال: اللّهمَّ إنك تعلمُ أنه ليس لي مالٌ أحبَّ إليَّ من فرسي هذه. فجاء بها إلى النبيِّ ﷺ، فقال: هذا في سبيل اللّه، فقال لأسامةَ بن زيد: «اِقْبِضْه». فكأنَّ زيداً وجدَ من ذلك في نفسه، فقال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ اللّهَ قد قَبِلَها منك». ذكره أسد بنُ موسى(١).

وأعتق ابنُ عمر نافعاً مولاه، وكان أعطاه فيه عبد اللّه بنُ جعفر ألفَ دينار. قالت صفية بنتُ أبي عبيد: أظنه تأوَّل قولَ اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

ورَوى شِبلٌ عن ابن أبي نَجِيح(٢)، عن مجاهد قال: كتب عمر بنُ الخطاب إلى أبي موسى الأشعريِّ أنْ يبتاعَ له جاريةً من سَبْي جَلُولاء يومَ فتحِ مدائنِ كسْرَى، فقال سعد بنُ أبي وقاص: فدعا بها عمرُ، فأعجبته، فقال: إنَّ اللّه عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، فأعتقَها عمرُ ﵁(٣).

ورُويَ عن الثوريِّ أنه بلغَه أنَّ أمَّ ولدِ الرَّبيع بن خُثيم قالت: كان إذا جاءه السَّائل

---

(١) وأخرجه مرسلاً عبد الرزاق ١/ ١٢٦ (تفسير)، والطبري ٥/ ٥٧٧ عن أيوب السختياني، و٥/ ٥٧٦ عن عمرو بن دينار، وسعيد بن منصور في التفسير (٥٠٧) عن محمد بن المنكدر.

(٢) في (د) و (م): عن أبي نجيح، وهو خطأ، والمثبت من (خ).

(٣) تفسير مجاهد ١٣١، وأخرجه الواحدي في الوسيط ١/ ٤٦٣ - ٤٦٤ من طريق شِبْل به. وأخرجه الطبري ٥/ ٥٧٤ من طريق عيسى عن ابن أبي نجيح به. وأورده النحاس في معاني القرآن ١/ ٤٣٩، والبغوي ١/ ٣٢٦، وقوله: جلولاء: ناحية من نواحي السَّواد في طريق خُراسان؛ بها الوقعة المشهورة على الفرس للمسلمين سنة (١٦ هـ)، فاستباحهم المسلمون، فسميِّت جلولاء الوقيعة. انظر معجم البلدان ٢/ ١٥٦.

يقولُ لي: يا فلانةُ، أعطي السَّائلَ سُكَّراً، فإنَّ الربيع يحبُّ السُّكَّر؛ قال سفيان: يتأوَّل قولَه جلَّ وعزَّ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[١].

ورُوِيَ عن عمر بنِ عبد العزيزِ أنه كان يشتري أعدالاً من سُكَّر ويتصدَّقُ بها. فقيل له: هلَّا تصدَّقتَ بقيمتها؟ فقال: لأنَّ السكرَ أحبُّ إليَّ، فأردتُ أنْ أنفقَ مما أحبُّ[٢].

وقال الحسن: إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تُدركون[٣] ما تأمُلون إلا بالصَّبر على ما تكرهون[٤].

الثانية: واختلفوا في تأويل «البِرّ» فقيل: الجنة؛ عن ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد وعمرو بن ميمون والسُّدِّيّ. والتقدير: لن تنالوا ثوابَ البِرِّ حتى تنفقوا مما تحبون[٥]. والنَّوَال: العطاءُ، من قولك: نوَّلتُه تنويلاً: أعطيتُه[٦]. ونالني من فلان معروفٌ ينالُني، أي: وصل إليّ. فالمعنى: لن تصلوا إلى الجنة وتُعْطَوْها حتى تنفقوا مما تُحبُّون.

وقيل: البِرُّ: العملُ الصالح[٧]. وفي الحديث الصحيح: «عليكم بالصدق، فإنه يهدي[٨] إلى البِرّ، وإنَّ البِرَّ يهدي إلى الجنة». وقد مضى في البقرة[٩].

قال عطية العوفي: يعني الطاعة. عطاء: لن تنالوا شرفَ الدِّين والتقوى حتى تتصدَّقوا وأنتم أصحَّاءُ أشحَّاءُ؛ تأملُون العيشَ، وتخشَوْن الفقر.

وعن الحسن: «حتى تُنفِقوا»: هي الزكاةُ المفروضة. مجاهد والكلبيّ: هي

(١) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٠٤ .

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٢٨٤ .

(٣) في (خ) و (م): تدركوا.

(٤) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٠٥ .

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٥٧٣ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٢٥ .

(٦) مجمل اللغة ٣/ ٨٤٨ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٤٨ .

(٨) في النسخ: يدعو (في الموضعين)، والمثبت من (م)، ومصادر الحديث.

(٩) قطعة من حديث ابن مسعود ﷺ أخرجه أحمد (٣٦٣٨)، والبخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧). وقد سلف ٣/ ٦٣ .

منسوخةٌ، نسخَتْها آيةُ الزَّكاة[١].

وقيل: المعنى حتى تنفقوا مما تحبون في سبيل الخيرِ من صدقةٍ أو غيرِها من الطاعات، وهذا جامع.

وروى النسائيُّ عن صعصعةَ بنِ معاويةَ قال: لَقِيتُ أبا ذرٍّ قال: قلت: حدِّثْني، قال: نعم، قال رسول الله ﷺ: «ما من عبدٍ مسلمٍ يُنفقُ من كلِّ ماله زوجين في سبيل الله، إلا استقبلته حَجَبَةُ الجنة، كلُّهم يَدعوه إلى ما عندَه». قلت: وكيف ذلك؟ قال: إنْ كانت إبلاً فبعيرين، وإن كانت بقراً فبقرتين[٢].

وقال أبو بكر الورَّاق: دلَّهم بهذه الآيةِ على الفُتُوَّة[٣]، أي: لن تنالوا بِرِّي بكم إلا بِبِرِّكم بإخوانكم، والإنفاقِ عليهم من أموالكم وجاهِكم، فإذا فعلتُم ذلك نالكم بِرِّي وعطفي[٤].

قال مجاهد: وهو مثلُ قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا﴾ [الإنسان:٨]. ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾، أي: وإذا علِم جازَى عليه[٥].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿حِلًّا﴾، أي: حَلالاً، ثم استثنى، فقال: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ وهو يعقوبُ عليه السلام[٦].

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٢٥ ، وزاد المسير ١/ ٤٢١ .

(٢) سنن النسائي ٦/ ٤٨ - ٤٩ ، وهو عند أحمد (٢١٣٤١)، وله شاهد من حديث أبي هريرة؛ أخرجه أحمد (٧٦٣٣).

(٣) قوله: الفتوّة، أي: الكرم. القاموس (فتى).

(٤) مجمع البيان ٤/ ١٤١ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٣٩ - ٤٤٠ . وقول مجاهد في تفسيره ص١١٣ .

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٢ .

في الترمذيِّ عن ابن عباس أنَّ اليهودَ قالوا للنبيِّ ﷺ: أخبرنا ما حرَّم إسرائيلُ على نفسه؟ قال: «كان يسكُن البَدْوَ، فاشتكى عِرْقَ النَّسَا، فلم يجد شيئاً يُلائمه إلا لحومَ الإبلِ وألبانَها، فلذلك حرَّمها». قالوا: صدقت[1]. وذكر الحديث.

ويقال: إنه نَذَرَ إنْ برأ منه ليتركنَّ أحبَّ الطعامِ والشَّرابِ إليه، وكان أحبَّ الطعامِ والشَّرابِ إليه لحومُ الإبل وألبانُها[2].

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادةُ والسُّدّيُّ: أقبلَ يعقوبُ عليه السلام من حرَّان يريد بيتَ المقدسِ حين هَرَبَ من أخيه عِيصو، وكان رجلاً بطشاً قوياً، فلقِيَه ملَكٌ، فظنّ يعقوبُ أنه لصٌّ، فعالجه أنْ يصرعَه، فغمز المَلَكُ فخِذَ يعقوبَ عليه السلام، ثم صَعِدَ الملَكُ إلى السماء ويعقوبُ ينظر إليه، فهاج به[3] عِرْقُ النَّسَا، ولقِيَ من ذلك بلاءً شديداً، فكان لا ينامُ الليلَ من الوَجَع، ويبيتُ وله زُقاء، أي: صياح، فحلفَ يعقوب عليه السلام إنْ شفاه اللّه جلَّ وعزَّ ألّا يأكلَ عِرْقاً، ولا يأكلَ طعاماً فيه عِرْقٌ، فحرَّمَها على نفسه، فجعلَ بنوه يتبعون بعد ذلك العروقَ، فيخرجونها من اللحم[4]. وكان سببُ غمزِ المَلَك ليعقوب أنه كان نذرَ إنْ وهبَ اللّه له اثني عشر ولداً وأتى بيت المقدسِ صحيحاً أنْ يذبح آخرَهم، فكان ذلك للمخرج من نذره؛ عن الضحاك[5].

الثانية: واختُلف: هل كان التحريمُ من يعقوبَ باجتهادٍ منه، أو بإذنٍ من اللّه تعالى؟ والصحيحُ الأوّل؛ لأنَّ اللّه تعالى أضافَ التحريمَ إليه بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ﴾، وأنَّ النبيَّ إذا أدَّاه اجتهادُه إلى شيءٍ كان دِيناً يلزمنا اتباعُه؛ لتقرير اللّه سبحانه إياه على ذلك. وكما يُوحَى إليه ويلزمُ اتّباعُه، كذلك يؤذَنُ له ويجتهد، ويتعيَّن موجبُ اجتهاده إذا قدر عليه، ولولا تقدُّمُ الإذنِ له في تحريم ذلك ما تسوَّر[6] على التحليل

(١) سنن الترمذي (٣١١٧) دون قوله: كان يسكن البدو، فهو عند النسائي في الكبرى (٩٠٢٤) وعند أحمد (٢٤٨٣) ضمن حديث مطول، وسلفت قطعة أخرى منه ٢/ ٢٦١ . وقوله: النَّسا: عِرْق يخرج من الورك، فيستبطن الفخذ، والأفصحُ أن يقال له: النَّسا، لا عِرق النَّسا. النهاية (نسا).

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٥٧٨ ، والوسيط ١/ ٤٦٤ .

(٣) في (د) و (م): عليه، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لتفسير البغوي ١/ ٣٢٧ .

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٢٧ ، وانظر تفسير أبي الليث ١/ ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٥) أورده البغوي ١/ ٣٢٦ ، والخبر من رواية جويبر عن الضحاك، وجويبر ضعيف جداً.

(٦) قوله: تسوَّر: هجمَ. اللسان (سور).

والتحريم. وقد حرَّم نبيُّنا ﷺ العسلَ على الرواية الصَّحيحة(١)، أو خادمَه ماريةَ(٢)، فلم يقرَّ اللّه تحريمَه، ونزل: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾(٣) على ما يأتي بيانه في «التحريم».

قال الكيا الطبري(٤): فيمكن أنْ يقال: مطلقُ قولِه تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ يقتضي ألّا يختَصَّ بمارية، وقد رأى الشافعيُّ أنَّ وجوبَ الكفارةِ في ذلك غيرُ معقولِ المعنى، فجعلها مخصوصاً بموضع النص، وأبو حنيفة رأى ذلك أصلاً في تحريم كلِّ مباح، وأجراه مُجرى اليمين.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

قال ابن عباس: لما أصاب يعقوبَ عليه السلام عِرْقُ النَّسا، وصفَ الأطباءُ له أنْ يجتنبَ لحومَ الإبلِ، فحرَّمها على نفسه، فقالت اليهود: إنما حرَّمنا(٥) على أنفسنا لحومَ الإبل؛ لأنَّ يعقوبَ حرَّمها، وأنزل اللّه تحريمَها في التوراة، فأنزلَ اللّه هذه الآية. قال الضَّحَّاك: فكذَّبهم اللّه، وردَّ عليهم فقال: يا محمد ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، فلم يأتوا، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٦).

قال الزجَّاج(٧): في هذه الآية أعظمُ دلالةٍ لنبوّة محمدٍ نبيِّنا ﷺ، أخبرَهم أنه ليس

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٨٥٢)، والبخاري (٥٢٦٧)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبو داود في المراسيل (٢٣٩) عن الحسن، وأخرجه النسائي ٧/ ٧١ من حديث أنس ﷺ، ولم يذكر أنها مارية.
وأخرجه الشاشي في مسنده ـ كما ذكر ابن كثير، وصحح إسناده ـ ومن طريقه الضياء في المختارة (١٨٩)، عند تفسير الآية (١) من سورة التحريم.
وأخرجه البزار (كشف الأستار (٢٢٧٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢٦: رجال البزار رجالُ الصحيح غير بِشر بن آدم، وهو ثقة.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٢.

(٤) في أحكام القرآن له ٢/ ٢٩٠.

(٥) في (د) و (م): نحرم، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٦) تفسير أبي الليث ١/ ٢٨٥، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٤٤١، وتفسير البغوي ١/ ٣٢٧.

(٧) في معاني القرآن له ١/ ٤٤٤، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي الليث ١/ ٢٨٥.

في كتابهم، وأمرَهم أنْ يأتوا بالتوراة، فأبَوا؛ يعني عرفوا أنه قال ذلك بالوحي.

وقال عطيةُ العوفيّ: إنما كان ذلك حراماً عليهم بتحريم يعقوبَ ذلك عليهم. وذلك أنَّ إسرائيلَ قال حين أصابَه عِرقُ النَّسا: واللّه لئن عافاني اللّه منه لا يأكلُه لي ولدٌ، ولم يكن ذلك محرَّماً عليهم في التوراة[١].

وقال الكلبيُّ: لم يُحرِّمْه اللّه عزَّ وجلَّ في التوراة عليهم، وإنما حرَّمه عليهم[٢] بعد التوراة بظلمهم وكفرِهم، وكانت بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنباً عظيماً حرَّم اللّه تعالى عليهم طعاماً طيِّباً، أو صبَّ عليهم رِجْزاً، وهو الموت، فذلك قولُه تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ الآية [النساء: ١٦٠]، وقولُه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ الآية. إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[٣] [الأنعام: ١٤٦].

الرابعة: ترجم ابن ماجه في سننه: «دواء عِرْق النَّسا»: حدثنا هشام بنُ عمَّار وراشدُ بن سعيد الرملي قالا[٤]: حدَّثنا الوليد بنُ مسلم، حدَّثنا هشام بنُ حسَّان، حدَّثنا أنس بنُ سيرين أنه سمع أنس بنَ مالك يقول: سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول: «شفاءُ عِرْقِ النَّسا أليةُ شاةٍ أعرابيةٍ تُذابُ، ثم تُجَزَّأ ثلاثةَ أجزاء، ثم يُشربُ على الرِّيق في كلِّ يوم جزءٌ»[٥].

وأخرجه الثعلبيُّ في تفسيره أيضاً من حديث أنس بنِ مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ في عِرق النسا: «تؤخذ أليةُ كبشٍ عربيٍّ، لا صغير ولا كبيرٍ، فتقطع صغاراً، فتخرج إهالتُه، فتقسم ثلاثةَ أقسام، في كل يوم على ريقِ النفس ثلثاً». قال أنس: فوصفتُه لأكثرَ

(١) قوله: في التوراة، من (خ) و (ظ).

(٢) قوله: عليهم من (خ) و (ظ).

(٣) أورد القولين البغويُّ في تفسيره ١/ ٣٢٧ .

(٤) في النسخ: قال، والمثبت من (م)، وسنن ابن ماجه.

(٥) سنن ابن ماجه (٣٤٦٣)، وهو عند أحمد (١٣٢٩٥) بنحوه.

من مئة، فبرأ بإذن اللّهِ تعالى[١].

شعبة: حدّثني شيخٌ في زمن الحجّاج بنِ يوسفَ في عِرْقِ النَّسا: أُقسم لك باللّه الأعلى، لئن لم تنته لأكوينَّك بنارٍ، أو لأحلقنَّك بموسى. قال شعبة: قد جرَّبتُه، تقولُه، وتمسحُ[٢] على ذلك الموضع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

أي: قل يا محمد: صدق اللّه، إنَّ ذلك لم يكن[٣] في التوراة محرَّماً. ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أمرٌ باتّباع دينه. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ردٌّ عليهم في دعواهم الباطل كما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذرّ قال: سألتُ رسولَ اللّه ﷺ عن أوّلِ مسجدٍ وُضع في الأرض، قال: «المسجدُ الحرام». قلتُ: ثم أيّ؟ قال: «المسجد الأقصى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعونَ عاماً، ثم الأرضُ لك مسجدٌ، فحيثما أدركَتْكَ الصلاةُ فصَلِّ»[٤].

قال مجاهد وقتادة: لم يوضع قبلَه بيت.

قال عليٌّ ﷺ: كان قبلَ البيت بيوتٌ كثيرة، والمعنى أنه أوَّلُ بيتٍ وضع للعبادة.

---

(١) وأخرجه أيضاً الحاكم ٢/ ٢٩٢، وصححه، ووافقه الذهبي، وقوله: قال أنس هو ابن سيرين راوي الحديث عن أنس بن مالك كما هو مبيَّن في رواية الحاكم، وقوله: إهالته، أي: شحمُه أو ما أذيب منه. انظر القاموس (أهل).

(٢) في (د): بقوله ويمسح.

(٣) في (د) و (م): إنه لم يكن ذلك، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٤) صحيح مسلم (٥٢٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٣٣٣)، والبخاري (٣٣٦٦).

وعن مجاهد قال: تفاخر المسلمون واليهودُ، فقالت اليهود: بيتُ المقدِسِ أفضلُ وأعظمُ من الكعبة؛ لأنه مهاجَرُ الأنبياء، وفي الأرض المقدسة. وقال المسلمون: بل الكعبةُ أفضل، فأنزل اللّه هذه الآية. وقد مضى في البقرة بنيانُ البيتِ وأوّلُ مَنْ بناه[١].

قال مجاهد: خلق اللّه موضعَ هذا البيتِ قبلَ أن يَخلقَ شيئاً من الأرض بألفي سنة، وإنَّ قواعدَه لفي الأرض السابعةِ السُّفلى[٢].

وأما المسجدُ الأقصى، فبناه سليمانُ عليه السلام، كما خرَّجه النسائي بإسناد صحيحٍ من حديث عبد اللّه بنِ عمرو، عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ سليمان بنَ داود عليه السلام لما بنى بيتَ المقدسِ سأل اللّهَ خِلالاً ثلاثةً: [سأل اللّهَ عزَّ وجلَّ] حُكْماً يصادفُ حُكمَه، فأُوتيَه، وسأل اللّهَ عزَّ وجلَّ مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأوتيَه، وسأل اللّهَ عزَّ وجلَّ حين فرغَ من بناء المسجدِ ألَّا يأتيَه أحدٌ لا يَنْهزُه إلا الصلاةُ فيه أنْ يُخرجَه من خطيئته كيومَ ولدته أمُّه، فأوتيَه»[٣].

فجاء إشكالٌ بين الحديثين[٤]؛ لأنَّ بين إبراهيمَ وسليمانَ آماداً طويلة؛ قال أهلُ التواريخ: أكثرُ من ألف سنة. فقيل: إنَّ إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنَّما جدَّدا ما كان أسَّسَه غيرُهما. وقد رُوِيَ أنَّ أوّلَ مَنْ بنى البيتَ آدمُ عليه السلام كما تقدَّم[٥]. فيجوزُ أنْ يكونَ غيرُه من ولده وضعَ بيتَ المقدِس بعدَه[٦] بأربعين عاماً، ويجوزُ أنْ تكون الملائكةُ أيضاً بنته بعد بنائها البيتَ بإذن اللّه، وكلٌّ محتمل. واللّه أعلم.

وقال علي بن أبي طالب ﷺ: أمر اللّه تعالى الملائكةَ ببناء بيتٍ في الأرض، وأنْ

---

(١) ٢/ ٣٨٦ - ٣٨٩ .

(٢) وردت الأقوال السالفة في تفسير الطبري ٥/ ٥٩٠ - ٥٩١ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٢٨ ، والنكت والعيون ١/ ٤١٠ ، والوسيط ١/ ٤٦٦، وأسباب النزول للواحدي ص٨٤ ، وزاد المسير ١/ ٤٢٤ .

(٣) سنن النسائي ٢/ ٣٤ ، وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٦٦٤٤) مطول، قوله: لا ينهزُه، أي: لا يدفعه. النهاية (نهز)، وقوله: حكماً يصادف حكمه؛ قال السندي في حاشيته على النسائي: أي: يوافق حكم الله تعالى، والمراد التوفيق للصواب في الاجتهاد، وفصل الخصومات بين الناس.

(٤) يعني حديث أبي ذر وحديث عبدالله بن عمرو السَّالفين.

(٥) ٢/ ٣٨٧ .

(٦) في (م): من بعده.

يطوفوا به، وكان هذا قبلَ خلقِ آدم، ثم إنَّ آدم بَنى منه ما بَنى، وطاف به، ثم الأنبياءُ بعدَه، ثم استتمَّ بناءَه إبراهيمُ عليه السَّلام.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ خبر «إنَّ»، واللام توكيد. و«بكة» موضعُ البيت، ومكةُ سائرُ البلد، عن مالك بنِ أنس[(١)].

وقال محمد[(٢)] بن شهاب: بَكَّةُ المسجد، ومكة الحرم كلُّه، تدخلُ فيه البيوت.

قال مجاهد: بكة هي مكة. فالميم على هذا مُبْدَلَةٌ من الباء؛ كما قالوا: طينٌ لازِبٌ ولازم. وقاله الضحاك والمؤرّج[(٣)].

ثم قيل: بكة مشتقةٌ من البَكِّ، وهو الازدحام، تَباكَّ القوم: ازدحموا. وسُمِّيت بَكَّةَ لازدحام الناسِ في موضع طوافِهم. والبَكُّ: دَقُّ العُنق.

وقيل: سُمِّيت بذلك؛ لأنها كانت تَدُقُّ رقابَ الجبابرةِ إذا ألْحَدُوا فيها بظلم[(٤)].

قال عبد الله بنُ الزبير: لم يَقْصِدْها جبارٌ قَطُّ بسوء إلا وَقَصَه[(٥)] الله عزَّ وجلَّ.

وأما مكةُ؛ فقيل: إنها سُمِّيت بذلك لقلة مائها، وقيل: سُمِّيت بذلك؛ لأنها تَمُكُّ المخَّ من العظم مما ينالُ قاصدَها من المشقة؛ من قولهم: مَكَكْتُ العظم: إذا أخرجتَ ما فيه. ومَكَّ الفَصِيلُ ضَرْعَ أمِّه، وامْتَكَّه: إذا امْتَصَّ كلَّ ما فيه من اللبن وشَرِبَه[(٦)]، قال الشاعر:

مَكَّتْ فلم تُبْقِ في أجْوافِها دِرَرا[(٧)]

---

(١) النوادر والزيادات ٢/ ٥٠٠، والبيان والتحصيل ٣/ ٤٦٣.

(٢) لفظة: محمد، من (م).

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٥٩٧، وتفسير البغوي ١/ ٣٢٨، والوسيط ١/ ٤٦٦، وزاد المسير ١/ ٤٢٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٤٥، وتفسير أبي الليث ١/ ٢٦٨، والنكت والعيون ١/ ٢١٠، وتهذيب اللغة ٩/ ٣٦٣.

(٥) في (د): أوقصه، وفي (ظ): وقصمه.

(٦) تفسير البغوي ١/ ٣٢٨.

(٧) لم نقف عليه.

وقِيل: سُمِّيت بذلك؛ لأنها تَمُكُّ مَنْ ظَلَمَ فيها[١]، أي: تُهلكه وتنقصه[٢].

وقيل: سُمِّيت بذلك لأنَّ الناس كانوا يَمُكُّون ويضحكون فيها، من قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥] أي: تَصْفِيقاً وتَصْفِيراً. وهذا لا يوجبه التَّصريف؛ لأنَّ «مكة» ثنائيٌّ مضاعف، و«مُكَاءً» ثلاثيٌّ معتلّ.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿مُبَارَكًا﴾ جعلَه مباركاً لتضاعف العملِ فيه، فالبركة كثرةُ الخير، ونُصب على الحال من المضمر في «وُضِعَ»، أو بالظرف من «بَكَّة»، المعنى: الذي استقرَّ «ببكّة مُبَارَكاً»، ويجوزُ في غير القرآنِ: «مبارك»، على أنْ يكونَ خبراً ثانياً، أو على البدل من «الذي»، أو على إضمار مبتدأ.

﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ عطفٌ عليه، ويكون بمعنى: وهو هدًى للعالَمين. ويجوزُ في غير القرآن: «مباركٍ»، بالخفض، يكون نعتاً للبيت[٣].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ رفعٌ بالابتداء أو بالصفة.

وقرأ أهل مكةَ وابنُ عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: «آيةٌ بينة»، على التوحيد[٤]، يعني مقامَ إبراهيم وحدَه؛ قالوا: أثرُ قدميه في المقام آيةٌ بيِّنة. وفسَّر مجاهد مقامَ إبراهيمَ بالحرم كلِّه[٥]؛ فذهبَ إلى أنَّ من آياته الصفا والمروةَ والركنَ والمقام. والباقون بالجمع؛ أرادوا مقامَ إبراهيم، والحجرَ الأسود، والحطيم، وزمزمَ، والمشاعرَ كلَّها.

قال أبو جعفر النحاس[٦]: من قرأ: «آياتٍ بيِّنات» فقراءتُه أبين؛ لأنَّ الصفا والمروةَ من الآيات، ومنها أنَّ الطائر لا يعلو البيتَ صحيحاً، ومنها أنَّ الجارح يطلب الصيدَ، فإذا دخل الحرمَ تركَه، ومنها أنَّ الغيثَ إذا كان ناحيةَ الركنِ اليمانيِّ كان

(١) انظر الزاهر لابن الأنباري ٢/ ١٠٦ .

(٢) في (د): وتنفضه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٥ .

(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٢ لمجاهد وأُبيّ، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٧٥ لأُبيّ بن كعب وعمر وابن عباس. وقراءة الجمهور بالجمع.

(٥) أخرجه الطبري ٢/ ٥٢٦ .

(٦) في معاني القرآن ١/ ٤٤٤ - ٤٤٥ ، وما قبله منه، وانظر تفسير الطبري ٢/ ٥٢٧ .

الخِصْبُ باليمن، وإذا كان بناحية الشامي كان الخِصبُ بالشَّام، وإذا [(١)] عمَّ البيتَ كان الخِصبُ في جميع البلدان، ومنها أنَّ الجِمار على ما يُزادُ عليها تُرى على قدر واحد.

والمَقام من قولهم: قمت مَقاماً، وهو الموضعُ الذي يُقام فيه، والمُقام من قولك: أقمت مُقاماً. وقد مضى هذا في البقرة، ومضى الخلاف أيضاً في المقام والصحيح منه[(٢)].

وارتفع المقام على الابتداء، والخبرُ محذوف، والتقدير: منها مقامُ إبراهيم، قاله الأخفش[(٣)].

وحُكي عن محمد بنِ يزيدَ أنه قال: «مقام» بدلٌ من: «آيات». وفيه قولٌ ثالث بمعنى: هي مقامُ إبراهيم. وقولُ الأخفش معروفٌ في كلام العرب. كما قال زهير:

لـهـا مـتـاعٌ وأعـوانٌ غَـدَوْنَ بـه قِتْبٌ وغَرْبٌ إذا ما أُفْرِغَ انْسَحَقَا[(٤)]

أي: مضى وبَعُدَ سيلانه.

وقولُ أبي العباس: إنَّ مقاماً بمعنى مقامات؛ لأنه مصدر، قال الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة:٧]. وقال الشاعر:

إنَّ العُيونَ التي في طَرْفِها مَرَضٌ[(٥)]

أي: في أطرافها. ويقوِّي هذا الحديثُ المرويّ: الحج كلُّه مقامُ إبراهيم[(٦)].

---

(١) في (م): وإذْ.

(٢) ٢/ ٣٧٤ - ٣٧٦.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٤١٥، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٥.

(٤) ديوان زهير ص٦٧، برواية الشنتمري، ورواية ثعلب ص٣٩: لها أداة وأعوانٌ غدون لها. وقال الشنتمري في شرحه: قوله: لها متاع، أي: لهذه الناقة التي يُستقى عليها، وقوله: قِتْب وغَرْبٌ تبيين للمتاع، والقِتْب أداة السَّانية، والغَرْب: الدلو العظيمة، وقوله: غَدَوْن به، أراد جماعات الأعوان.

(٥) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ١٦٣، وتمامه: قَتَلْننا ثم لم يحيين قتلانا، وذكر محققه أن ثمة رواية: في طرفها حَوَر.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٥ - ٣٩٦، والخبر أخرجه ابن أبي حاتم ٣/ ٧١١ عن ابن عباس قال: مقامُ إبراهيم الحَرَمُ كلُّه. وذكره ابن كثير عند الآية (٩٧) من آل عمران بلفظ: الحِجْر، بدل: الحجّ. =

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ قال قتادة: ذلك أيضاً من آيات الحرم.

قال النحاس[١]: وهو قولٌ حسن؛ لأن الناسَ كانوا يُتَخَطَّفُون من حواليه، ولا يصل إليه جبَّار، وقد وُصِل إلى بيت المقدسِ وخُرِّب، ولم يوصَلْ إلى الحرم. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١].

وقال بعضُ أهلِ المعاني: صورةُ الآية خبرٌ، ومعناها أمر، تقديرها: ومن دخله فأمِّنُوه، كقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٩٧]، أي: لا ترفثوا ولا تفسُقوا ولا تجادلوا[٢]. ولهذا المعنى قال الإمام السَّابق النعمانُ بن ثابت: من اقترف ذنباً واستوجبَ به حدّاً، ثم لجأ إلى الحرم، عَصَمَه؛ لقوله تعالى[٣]: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾، فأوجب الله سبحانه الأمْنَ لمن دخلَه. ورُوِيَ ذلك عن جماعة من السَّلَف، منهم ابنُ عباس[٤] وغيرُه من الناس.

قال ابن العربيّ[٥]: وكلُّ من قال هذا فقد وهم من جهتين: إحداهما أنه لم يفهمْ من الآية أنها خبرٌ عما مضى، ولم يُقْصَدْ بها إثباتُ حكمٍ مستقبل. الثاني: أنه لم يعلمْ أنَّ ذلك الأمنَ قد ذهب، وأنَّ القتلَ والقتالَ قد وقع بعد ذلك فيها، وخبرُ الله لا يقع بخلاف مخبره، فدلَّ ذلك على أنه كان في الماضي هذا. وقد ناقضَ أبو حنيفة، فقال: إذا لجأ إلى الحَرَم فإنَّه[٦] لا يُطعَم ولا يُسْقَى ولا يُعامَل ولا يُكلَّم حتى يخرج،

= وأخرج ابن أبي حاتم ٢/ ٧١١ عن سعيد بن جبير قال: الحجُّ مقام إبراهيم. قال ابن كثير: هكذا رأيت في النسخة، ولعله: الحِجْر كلُّه مقام إبراهيم، وقد صرَّح بذلك مجاهد.

(١) في معاني القرآن ١/ ٤٩٥ - ٤٩٦ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٢٩، وانظر أحكام القرآن للجصاص٢/ ٢١ .

(٣) قوله: لقوله تعالى، من (م)، وأحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٤.

(٤) أخرجه الطبري ٥/ ٦٠٣ .

(٥) أحكام القرآن ١/ ٢٨٤ - ٢٨٥ ، وما قبله منه.

(٦) لفظة: فإنه، ليست في (م).

فاضطراره[١] إلى الخروج ليس[٢] يصحُّ معه أمْنٌ. ورُوي عنه أنه قال: يقعُ القِصاص في الأطراف في الحرم، ولا أمنَ أيضاً مع هذا.

والجمهورُ من العلماء على أنَّ الحدودَ تُقام في الحرم[٣]، وقد أمر النبيُّ ﷺ بقتل ابن خَطَلٍ وهو متعلِّقٌ بأستار الكعبة[٤].

قلت: ورَوَى الثوريُّ عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس: مَنْ أصابَ حدّاً في الحَرَم، أُقيمَ عليه فيه، وإنْ أصابَه في الحِلِّ ولجأ إلى الحرم، لم يُكلَّمْ ولم يُبايَعْ حتى يخرجَ من الحرم، فيقامَ عليه الحدّ[٥]؛ وهو قولُ الشَّعبي[٦]. فهذه حجةُ الكوفيين، وقد فهم ابن عباس ذلك من معنى الآية، وهو حَبْرُ الأمّةِ وعالِمُها.

والصحيح أنه قصدَ بذلك تعديدَ النِّعم على كلِّ من كان بها جاهلاً ولها منكراً من العرب، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧]، فكانوا في الجاهلية من دخله، لجأ إليه وأَمِن من الغارة والقتل، على ما يأتي بيانه في «المائدة» إن شاء الله تعالى[٧].

قال قتادة: ومن دخله في الجاهلية كان آمناً. وهذا حسن[٨].

ورُوي أنَّ بعض المُلْحدة قال لبعض العلماء: أليس في القرآن: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾؟ فقد دخلناه وفعلنا كذا وكذا، فلم يأمنْ من كان فيه! قال له: ألستَ من العرب؟! ما الذي يريد القائلُ: مَنْ دخلَ داري كان آمناً؟ أليس إنَّما يقول[٩] لمن

---

(١) في (خ) و (ظ): فاضطره، وفي (د): فاضطروه، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٥ .

(٢) في النسخ: وليس، والمثبت من (م)، وأحكام القرآن لابن العربي.

(٣) الإشراف لابن المنذر ٢/ ٢٩ .

(٤) سلف ٣/ ٢٤٤ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٤٦ .

(٦) تفسير الطبري ٥/ ٦٠٥ .

(٧) عند تفسير الآية (٩٧) منها.

(٨) أخرجه الطبري ٥/ ٦٠١ .

(٩) في (د) و (م): أن يقولَ.

أطاعه: كُفَّ عنه فقد أمَّنتُه وكففتُ عنه؟! قال: بلى، قال: فكذلك قوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾.

وقال يحيى بنُ جَعْدة: معنى ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ يعني من النار[١].

قلت: وهذا ليس على عمومه؛ لأنَّ في صحيح مسلم عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ حديثَ الشفاعةِ الطويل: «فوالذِي نفسي بيده، ما منكم من أحدٍ بأشَدَّ مناشدةً لله في استقصاء الحقِّ من المؤمنين لله يومَ القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون: ربَّنا، كانوا يصومون معنا، ويُصلُّون ويحُجّون، فيقال لهم: أخْرِجُوا مَنْ عَرَفتُم...»[٢] الحديث. وإنما يكون آمِناً من النار من دخلَه لقضاء النُّسُكِ معظِّماً له، عارفاً بحقِّه، متقرِّباً إلى الله تعالى.

قال جعفر الصادق: من دخله على الصَّفاء كما دخله الأنبياءُ والأولياء، كان آمناً من عذابه. وهذا معنى قولِه عليه الصلاة والسلام: «مَنْ حَجَّ فلم يَرْفُثْ ولم يَفْسُقْ، خرجَ من ذنوبه كيومَ ولدَتْه أمُّه» و«الحجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلَّا الجنة»[٣].

قال الحسن: الحج المبرورُ هو أنْ يرجعَ زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة[٤].

وأنشد[٥]:

يا كعبةَ اللّهِ دعوة اللّاجِي ... دعوة مستشعرٍ ومحتاجِ
ودَّعَ أحبابَه ومسكَنه ... فجاء ما بينَ خائفٍ راجي
إنْ يقبلِ اللّه سعيَه كرماً ... نجا، وإلا فليس بالنَّاجي
وأنت ممَّن تُرجى شفاعتُه ... فاعطفْ على وافِدِ بنِ حَجَّاجِ[٦]

---

(١) أخرجه الطبري ٥/٦٠٦ .

(٢) صحيح مسلم (١٨٣)، وأخرجه أيضاً أحمد (١١١٢٧)، والبخاري (٧٤٣٩). وسيذكر المصنف قطعة منه عند تفسير قوله: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾من الآية (١٧٣) من هذه السورة.

(٣) سلف ذكرهما ٣/ ٣٢٤ .

(٤) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٣/ ٢٣٨ ، وسلف ٣/ ٣٢٤ .

(٥) في (د) و (ظ): وأنشدوا.

(٦) لم نقف عليها.

وقيل: المعنى: ومن دخله عامَ عمرةِ القضاءِ مع محمدٍ ﷺ كان آمناً. دليلُه قولُه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح:٢٧]. وقد قيل: إنَّ «مَنْ» هاهنا لمن لا يعقل، والآية في أمان الصيد، وهو شاذٌّ، وفي التنزيل: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ الآية [النور:٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

فيه تسع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ﴾ اللام في قوله: «ولله» لامُ الإيجابِ والإلزام، ثم أكَّده بقوله تعالى: ﴿عَلَى﴾ التي هي من أوكد ألفاظِ الوجوبِ عند العرب، فإذا قال العربي: لفلان عليّ كذا، فقد وكّده وأوجبه. فذكر الله تعالى الحجَّ بأبلغِ[١] ألفاظِ الوجوب تأكيداً لحقِّه وتعظيماً لحُرْمته[٢].

ولا خلافَ في فريضته[٣]، وهو أحدُ قواعدِ الإسلام، وليس يجب إلا مرةً في العمر. وقال بعضُ الناس: يجب في كلِّ خمسة أعوام مرَّةً، وروَوْا في ذلك حديثاً أسندوه إلى النَّبيِّ ﷺ، والحديثُ باطلٌ لا يصحُّ، والإجماعُ صادٌّ في وجوههم[٤].

قلت: ذكر عبد الرزاق قال: حدَّثنا سفيان الثوريُّ، عن العلاء بن المسيِّب، عن أبيه، عن أبي سعيد الخُدْريّ أنَّ النبي ﷺ قال: «يقول الربُّ جلَّ وعزَّ: إن عبداً أوسعتُ عليه في الرزق، فلم يَفِدْ[٥] إليَّ في كلِّ أربعة أعوامٍ لمحرومٌ»[٦] مشهورٌ من حديث العلاء بنِ المسيِّب بن رافع الكاهليّ الكوفيِّ من أولاد المحدِّثين، روَى عنه

---

(١) في (د) بأوكد.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٥ .

(٣) في (خ): فرضيَّته.

(٤) القبس ٢/ ٥٣٩ - ٥٤٠ ، والحديث الذي أشار إليه سيذكره المصنف لاحقاً.

(٥) في النسخ الخطية: يَعُد، والمثبت من مصادر الحديث.

(٦) هو في مصنف عبد الرزاق (٨٨٢٦). وأخرجه من طريقه الطبراني في «الأوسط» (٤٩٠)، وإسناده منقطع، لأن المسيِّب بن رافع ـ والد العلاء ـ لم يسمع من أبي سعيد الخدري، فقد قال ابن معين كما في تهذيب التهذيب: لم يسمع من أحد من الصحابة إلا من البراء وأبي إياس عامر بن عقدة.

غيرُ واحد، منهم من قال: في خمسة[(١)] أعوامٍ[(٢)].

ومنهم من قال: عن العلاء، عن يونس بن خَبَّاب[(٣)]، عن أبي سعيد، في غير ذلك من الاختلاف.

وأنكرت الملحِدة الحَجَّ، فقالت: إنَّ فيه تجريدَ الثِّياب، وذلك يخالف الحياء، والسَّعيَ؛ وهو يناقض الوَقَار، ورَمْيَ الجمارِ لغير مَرْمِيّ، وذلك يضادُّ العقل، فصاروا إلى أنَّ هذه الأفعال كلَّها باطلةٌ؛ إذ لم يعرفوا لها حِكمةً ولا عِلَّة، وجهلُوا أنه ليس من شرط المولى مع العبد أنْ يفهم المقصودَ بجميع ما يأمرُه به، ولا أنْ يطَّلعَ على فائدة تكليفِه، وإنما يتعينُ عليه الامتثال، ويلزمُه الانقياد من غير طلب فائدةٍ ولا سؤالٍ عن مقصود. ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول في تلبيته: «لَبَّيْك حقّاً حقّاً، تعبُّداً ورِقّاً»، «لَبَّيْك إلهَ الحقِّ»[(٤)].

وروى الأئمة عن أبي هريرة قال: خطبَنا رسول اللّه ﷺ فقال: «أيها الناسُ، قد فَرَضَ اللّه عليكم الحجَّ فَحُجُّوا». فقال رجل: كلَّ عام يا رسول اللّه؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول اللّه ﷺ: «لو قلت: نعم، لوجبتْ ولما استطعتُم». ثم قال: «ذرُوني ما تركتُكم، فإنما هلكَ مَنْ كان قَبلكم بكثرة مسائلهم[(٥)]، واختلافِهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيءٍ فَأْتُوا منه ما استطعتُم، وإذا نهيتكم عن شيءٍ فدَعُوه» لفظ

---

(١) في (م): في كلِّ خمسة.

(٢) أخرجه أبو يعلى (١٠٣١)، وابن حبان (٣٧٠٣). وأخرجه البيهقي في السنن ٥/ ٢٦٢ من حديث أبي هريرة، وضعف إسناده. وانظر الكامل لابن عدي ٤/ ١٣٩٥ - ١٣٩٦ .

(٣) في (خ): حباب، وفي (د): حبان، والمثبت من(ظ)، وذكر روايته البيهقي في السنن ٥/ ٢٦٢ . ويونس ابن خبَّاب قال فيه يحيى القطان: كان كذاباً، وقال ابن معين: رجل سوء ضعيف، وقال ابن حبان: لا تحلُّ الرواية عنه، وقال البخاري: منكر الحديث. ميزان الاعتدال ٤/ ٤٧٩ .

(٤) القبس ٢/ ٥٧٦ . وقوله: «لبيك حقّاً تعبداً ورِقّاً» أخرجه البزار (كشف الأستار) (١٠٩٠)، والخطيب في تاريخ بغداد ١٤/ ٢١٥ من حديث أنس ﷺ مرفوعاً، وأخرجه أيضاً البزار (١٠٩١) عن أنس موقوفاً، ونقل ابن الملقن في خلاصة البدر المنير ١/ ٣٦١ عن الدارقطني أن الموقوف الصحيح. وقوله: «لبيَّك إله الحقّ» أخرجه أحمد (٨٤٩٧)، والنسائي ٥/ ١٦١ ، وابن ماجه (٢٩٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الحاكم ١/ ٤٥٠ ، ووافقه الذهبي.

(٥) في (م): سؤالهم.

مسلم[١]. فبيَّنَ هذا الحديثُ أنَّ الخطابَ إذا توجَّهَ على المكلَّفين بفرضٍ أنه يكفي منه فعلُ مرَّة، ولا يقتضي التَّكرار، خلافاً للأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني وغيره[٢].

وثبت أنَّ النبيَّ ﷺ قال له أصحابه: يا رسول اللّه، أحجُّنا لعامِنا هذا أم للأبد؟ فقال: «لا، بل للأبد»[٣] وهذا نصٌّ في الردِّ على مَنْ قال: يجب في كلِّ خمس سنين مرَّة.

وقد كان الحجُّ معلوماً عند العرب مشهوراً[٤] لديهم، وكان مما يُرغبُ فيه لأسواقها وتَبَرُّرِها[٥] وتحنُّفِها؛ فلما جاء الإسلام خُوطبوا بما علموا، وأُلزموا بما عرفوا. وقد حجَّ النبيُّ ﷺ قبل حجِّ الفرض[٦]، وقد وقف بعرفة، ولم يغيِّر من شرعِ إبراهيمَ ما غيَّروا؛ حين كانت قريش تقف بالمَشْعَر الحرام ويقولون: نحن أهلُ الحرمِ، فلا نخرجُ منه، ونحن الْحُمْسُ[٧]. حسب ما تقدَّم بيانه في «البقرة»[٨].

قلت: من أغرب ما رأيته أنَّ النبيَّ ﷺ حجَّ قبلَ الهجرةِ مرتين[٩]، وأنَّ الفرضَ سقطَ عنه بذلك؛ لأنه قد أجاب نداءَ إبراهيمَ حينَ قيل له: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]. قال الكيا الطبري[١٠]: وهذا بعيدٌ؛ فإنه إذا ورد في شرعه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ فلا بدَّ من وجوبه عليه بحكم الخطابِ في شرعه. ولئن قيل: إنما

---

(١) برقم (١٣٣٧)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٠٦٠٧)، والنسائي ٥/ ١١٠ - ١١١.

(٢) البرهان في أصول الفقه لأبي المعالي ١/ ١٦٤ .

(٣) أخرجه أحمد (١٧٥٨٩)، والنسائي ٥/ ١٧٨ - ١٧٩ من حديث سراقة بن جُعْشُم ﷺ، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤١١٦) من حديث جابر ﷺ مطولاً، ووقع في (خ) و(ظ): أحجنا هذا لعامنا أم لأبد؟ فقال: لا، بل لأبد أبد.

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٦ : مشروعاً.

(٥) قوله: تبرّرها، من التبرُّر، وهو الطاعة، القاموس (برر). ووقع في (ظ): وتبروها.

(٦) أخرج الترمذي (٨١٥)، وابن ماجه (٣٠٧٦) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ حجَّ ثلاث حجج، حجتين قبل أن يُهاجر، وحجة بعد ما هاجر..

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٦ .

(٨) ٣/ ٢٣٤ و ٣٥٠ .

(٩) سلف قريباً.

(١٠) في أحكام القرآن له ٣/ ٢٨٠ ، وما قبله منه.

خاطب من لم يحجَّ، كان تَحكُّماً وتخصيصاً لا دليلَ عليه، ويلزمُ عليه ألا يجبَ بهذا الخطابِ على من حجَّ على دِين إبراهيم. وهذا في غاية البعد.

الثانية: ودلَّ الكتابُ والسنة على أنَّ الحجَّ على التراخِي، لا على الفور، وهو تحصيلُ مذهبِ مالكٍ فيما ذكر ابن خُوَيزمَنْداد، وهو قولُ الشَّافعيِّ ومحمد بنِ الحسن وأبي يوسف في رواية عنه. وذهب بعضُ البغداديّين من المتأخرين من المالكيّين إلى أنه على الفور، ولا يجوز تأخيرُه مع القدرة عليه؛ وهو قولُ داود[1]. والصحيحُ الأوَّل؛ لأنَّ اللّه تعالى قال في سورة الحج: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾ [الآية: ٢٧]، وسورةُ الحجِّ مكية[2]. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ الآية، وهذه السورةُ نزلت عام أُحُدٍ بالمدينة؛ سنةَ ثلاثٍ من الهجرة، ولم يحجَّ رسولُ اللّه ﷺ إلى سنةِ عشر.

وأما السُّنَّة؛ فحديثُ ضِمام بنِ ثعلبة السَّعديِّ من بني سعد بن بكر، قدمَ على النبيِّ ﷺ، فسألَه عن الإسلام، فذكر الشهادةَ والصلاةَ والزكاةَ والصِّيامَ والحجَّ. رواه ابن عباس وأبو هريرة وأنس[3]، وفيها كلِّها ذِكرُ الحج، وأنه كان مفروضاً، وحديثُ أنسٍ أحسنُها سياقاً وأتَمُّها.

واختُلف في وقت قدومه، فقيل: سنةَ خمس. وقيل: سنةَ سبع. وقيل: سنةَ تسع، ذكره ابن هشام[4] عن أبي عُبيدةَ.

الواقدي: عامَ الخَنْدَقِ بعد انصرافِ الأحْزَاب[5].

قال ابن عبد البر[6]: ومن الدليل على أنَّ الحجَّ على التراخي إجماعُ العلماء على

(١) انظر التمهيد ١٦/ ١٦٣.

(٢) ذكر المصنف أول سورة الحج؛ هل هي مكية أو مدنية، وصحح القول بأن منها المكيَّ ومنها المدنيَّ، وعزاه للجمهور.

(٣) حديث ابن عباس أخرجه أحمد (٢٣٨٠)، وأبو داود (٤٨٧)، وحديث أبي هريرة أخرجه النسائي في المجتبى ٤/ ١٢٤، والكبرى (٢٤١٥)، وحديث أنس أخرجه أحمد (١٢٧٩١)، والبخاري (٦٣)، ومسلم (١٢).

(٤) في السيرة ٢/ ٥٧٣.

(٥) التمهيد ١٦/ ١٦٧.

(٦) في التمهيد ١٦/ ١٧٢ - ١٧٣.

ترك تفسيقِ القادرِ على الحجِّ إذا أخَّره العامَ والعامين ونحوَهما، وأنه إذا حجَّ من بعد أعوامٍ من حين استطاعتِه، فقد أدَّى الحجَّ الواجبَ عليه في وقته، وليس هو عند الجميع كمن فاتته الصلاةُ حتى خرج وقتُها، فقضاها بعد خروجِ وقتِها، ولا كمن فاته صيامُ رمضانَ لمرض أو سفرٍ فقضاه، ولا كمن أفسدَ حجَّه فقضاه، فلما أجمعوا على أنه لا يقالُ لمن حجَّ بعد أعوامٍ من وقت استطاعتِه: أنت قاضٍ لِما وجب عليك، علِمنا أنَّ وقتَ الحجِّ مُوسَّعٌ فيه، وأنه على التراخي، لا على الفور.

قال أبو عمر[١]: كلُّ من قال بالتراخي لا يَحُدُّ في ذلك حدّاً؛ إلا ما رُوِيَ عن سحنون وقد سُئل عن الرجل يجدُ ما يحجُّ به، فيؤخِّرُ ذلك إلى سنين كثيرةٍ مع قدرته على ذلك: هل يُفَسَّقُ بتأخيره الحجَّ، وتُردُّ شهادتُه؟ قال: لا، وإنْ مضى من عمره ستون سنة، فإذا زاد على الستين فُسِّق، ورُدَّت شهادتُه. وهذا توقيفٌ وحَدٌّ، والحدودُ في الشرع لا تؤخذُ إلا عمَّن له أنْ يُشَرِّع.

قلت: وحكاه ابن خُويزِمنداد عن ابن القاسم. قال ابنُ القاسم وغيره: إنْ أخَّره ستين سنة لم يُحَرَّجْ، وإن أخَّره بعد الستين حُرِّج؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أعمارُ أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وقَلَّ من يتجاوزها»[٢]، فكأنه في هذا العشرِ قد يتضايق[٣] عليه الخطاب.

قال أبو عمر[٤]: وقد احتج بعضُ الناس لسحنون[٥] بقوله ﷺ: «مُعتَرَكُ أمّتي من[٦] الستين إلى السبعين، وقَلَّ من يجاوزُ ذلك»[٧]. ولا حجةَ فيه؛ لأنه كلامٌ خرج

---

(١) التمهيد ١٦/ ١٦٤.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٣١) و (٣٥٥٠)، وحسَّنه، وابن ماجه (٤٢٣٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وحسنه الحافظ في الفتح ١١/ ٢٤٠، وصححه ابن حبان (٢٩٨٠)، وأخرجه أبو يعلى (٢٩٠٢) بإسناد ضعيف عن أنس ﷺ. وقد غمز ابن عبد البر في الحديث، كما سيرد.

(٣) في (خ) و(ظ): تضايق.

(٤) في التمهيد ١٦/ ١٦٦.

(٥) في (م): كسحنون، وليست في (د)، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق للتمهيد.

(٦) في (م): بين.

(٧) هو حديث أبي هريرة السالف، وقد أخرجه بهذا اللفظ الرامهرمزي في أمثال الحديث ص٢٦، وأبو يعلى =

على الأغلب من أعمار أمّتِه لو صحَّ الحديث. وفيه دليلٌ على التوسعة إلى السبعين؛ لأنه من الأغلب أيضاً، ولا ينبغي أنْ يُقطعَ بتفسيقِ مَنْ صحَّت عدالتُه وأمانتُه بمثل هذا من التأويل الضعيف. وبالله التوفيق.

الثالثة: أجمع العلماء على أنَّ الخطابَ بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ عامٌّ في جميعهم مسترسلٌ على جملتهم.

قال ابن العربيّ[١]: وإن كان الناس قد اختلفوا في مطلق العموماتِ؛ بَيْدَ أنهم اتفقوا على حمل هذه الآيةِ على جميع الناسِ؛ ذَكَرِهم وأُنثاهم، خلا الصغير، فإنه خارجٌ بالإجماع عن أصول التكليفِ، وكذلك العبدُ لم يدخلْ فيه؛ لأنه أخرجه عن مطلق العمومِ قولُه تعالى في التمام[٢]: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. والعبد غيرُ مستطيع؛ لأن السيِّدَ يمنعُه لحقوقه[٣] عن هذه العبادة. وقد قدَّم الله سبحانه حقَّ السَّيد على حقِّه رِفقاً بالعباد، ومصلحةً لهم. ولا خلافَ فيه بين الأمةِ ولا بين الأئمة، فلا نَهْرِف[٤] بما لا نعرِف، ولا دليلَ عليه إلا الإجماعُ.

قال ابن المنذر: أجمع عامَّة أهلِ العلم ـ إلا من شَذَّ منهم ممن لا يعدُّ خلافاً ـ على أنَّ الصبيَّ إذا حَجَّ في حال صغره، والعبدَ إذا حجَّ في حال رِقِّه، ثم بلغ الصبيُّ وعَتَق العبدُ أنّ عليهما حجةَ الإسلام إذا وجدا إليه[٥] سبيلا[٦].

وقال أبو عمر[٧]: خالف داود جماعةَ فقهاءِ الأمصارِ وأئمة الأثرِ في المملوك، وأنه عنده مخاطبٌ بالحجّ. وهو عند جمهورِ العلماء خارجٌ من الخطاب العامّ في قوله

= (٦٥٤٣)، والخطيب في تاريخ بغداد ٥/ ٤٧٦ من حديث أبي هريرة بلفظ: (معترك المنايا ما بين..).

(١) في أحكام القرآن ١/ ٢٨٧، وما قبله منه.

(٢) في أحكام القرآن: في تمام الآية.

(٣) في (خ) و(ظ): بحقوقه.

(٤) أي: لا نهذي، ووقع في (د) و(خ): نهدف، وفي (ظ): تهتف... تعرف.

(٥) في (م): إليهما.

(٦) نقل ابن قدامة المقدسي كلام ابن المنذر في المغني ٥/ ٤٤.

(٧) في التمهيد ١/ ١٠٧ - ١٠٨.

تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بدليل عدمِ التَّصرف، وأنه ليس له أنْ يحجَّ بغير إذنِ سيِّدِه، كما خرج من خطاب الجمعةِ، وهو قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ الآية [الجمعة: ٩] عند عامَّةِ العلماء إلا من شذَّ، وكما خرج من خطاب إيجابِ الشَّهادة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فلم يدخلْ في ذلك العبدُ. وكما جاز خروجُ الصَّبيِّ من قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾، وهو من الناس بدليل رفعِ القلمِ عنه[١]. وخرجت المرأةُ من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ [الجمعة: ٩]، وهي ممّن شَمِلَهُ اسمُ الإيمان، فكذلك خروجُ العبيد[٢] من الخطاب المذكور. وهو قولُ فقهاءِ الحجاز والعراقِ والشَّامِ والمغرب، ومثلُهم لا يجوزُ عليهم تحريفُ تأويلِ الكتاب[٣].

فإن قيل: إذا كان حاضرَ المسجدِ الحرامِ وأذِن له سيِّدُه، فلِمَ لا يلزمُه الحجّ؟ قيل له: هذا سؤالٌ على الإجماع، وربما لا يُعَلّل ذلك، ولكن إذا ثبتَ هذا الحكمُ بالإجماع[٤] استدلَلْنا به على أنه لا يُعْتَدُّ بحجِّهِ في حال الرِّقِّ عن حَجَّة الإسلام، وقد رُوِيَ عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أيُّما صبيٍّ حجَّ ثم أدرك، فعليه أنْ يحجَّ حجةً أخرى، وأيُّما أعرابيٍّ حجَّ ثم هاجر، فعليه أنْ يحجَّ حجَّةً أخرى، وأيُّما عبدٍ حجَّ ثم أُعتق، فعليه أنْ يحجَّ حجةً أخرى»[٥].

---

(١) يشير المصنف إلى قوله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الغلام حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق». أخرجه أحمد (٢٤٦٩٤)، وأبو داود (٤٣٩٨)، والنسائي في المجتبى ٦/ ١٥٦، والكبرى (٥٥٩٦)، وابن ماجه (٢٠٤١) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه أحمد (٩٤٠)، وأبو داود (٤٤٠٣)، والترمذي (١٤٣٣)، وابن ماجه (٢٠٤٢) من حديث علي ﷺ. وفي الباب من حديث ثوبان وابن عباس وشداد بن أوس ﷺ ذكرها الزيلعيُّ في نصب الراية ٤/ ١٦٤ - ١٦٥، والهيثميُّ في مجمع الزوائد ٦/ ٢٥١.

(٢) في (د) و(م): وكذلك خروج العبد.

(٣) التمهيد ١/ ١٠٨.

(٤) في (د) و (م): على الإجماع، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لأحكام القرآن للكيا ١/ ٢٩٧، والكلام منه.

(٥) أخرجه ابن خزيمة (٣٠٥٠)، والحاكم ١/ ٤٨١، والبيهقي ٤/ ٣٢٥، والخطيب في تاريخ بغداد =

قال ابن العربيّ[١]: وقد تساهلَ بعضُ علمائنا، فقال: إنما لم يثبت الحجُّ على العبد وإنْ أذن له السيد؛ لأنه كان كافراً في الأصل، ولم يكن حَجُّ الكافرِ معتدّاً به، فلما ضُرب عليه الرِّقُّ ضرباً مؤبّداً لم يخاطَبْ بالحج. وهذا فاسدٌ من ثلاثة أوجهٍ فاعلموه:

أحدها: أنَّ الكفارَ عندنا مُخاطبون بفروع الشريعة، ولا خلافَ فيه في قول مالك.

الثاني: أنَّ سائر العباداتِ تلزمُه من صلاة وصوم مع كونه رقيقاً، ولو فعلَها في حال كفره لم يعتدَّ بها، فوجبَ أنْ يكون الحجُّ مثلَها.

الثالث: أنَّ الكفرَ قد ارتفع بالإسلام، فوجبَ ارتفاعُ حكمِه. فتبيَّنَ أنَّ المعتمدَ ما ذكرناه من تقدُّم حقوقِ السيد، واللّه الموفِّق.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ «مَنْ» في موضع خفضٍ، على بدل البعضِ من الكلّ، هذا قولُ أكثرِ النحويين. وأجاز الكسائيُّ أنْ يكونَ «مَنْ» في موضع رفعٍ بـ «حِجُّ»، التقدير: أنْ يحجَّ البيتَ مَن. وقيل: هي شرط. و«استطاع» في موضع جزم، والجواب محذوفٌ، أي: من استطاع إليه سبيلاً، فعليه الحجّ[٢]؛ روَى الدارقطنِيُّ عن ابن عباس قال: قيل: يا رسولَ اللّه، الحجُّ كلَّ عام؟ قال: «لا، بل حجة»؟ قيل: فما السبيل، قال: «الزاد والراحلة». ورواه عن أنس وابنِ مسعود وابنِ عمر وجابر وعائشةَ، وعمرو بنِ شعيب عن أبيه عن جدِّه[٣].

= ٨/ ٢٠٩، وأخرجه الشافعي (٧٤٣) (بترتيب السندي)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٢/ ٢٥٧، والبيهقي ٥/ ١٥٦ عن ابن عباس موقوفاً، وصحح إسناده (يعني الموقوف) الحافظ في الفتح ٤/ ٧١.

(١) في أحكام القرآن ١/ ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٦.

(٣) سنن الدارقطني ٢/ ١٩٣ - ١٩٦ (طبعة الكتب العلمية). قال صاحب التعليق المغني على الدارقطني ٢/ ٢١٩: الروايات التي جاءت في هذا الباب كلها ضعيفة، كما صرح بذلك الزيلعي وابن حجر، وأحسن ما يستدل به في هذا الباب ما رواه البخاري في صحيحه عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا المدينة ـ وفي رواية: مكة ـ سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

وعن عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ، عن النبيِّ ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال: فسئل عن ذلك، فقال النبيُّ ﷺ: «أنْ تجدَ ظهرَ بَعير»[(١)].

وأخرج حديثَ ابن عمرَ أيضاً ابن ماجه في سُننه، وأبو عيسى الترمذيُّ في جامِعه وقال: حديث حَسَن، والعملُ عليه عند أهلِ العلم أنَّ الرجل إذا ملك زاداً وراحلةً وجب عليه الحج، وإبراهيم بنُ يزيدَ هو الخُوزيُّ المكيُّ، وقد تكلم فيه بعضُ أهلِ الحديثِ من قِبلَ حِفظِه؛ أخرجاه[(٢)] عن وَكيع، والدَّارقُطْنِيُّ[(٣)] عن سفيانَ بنِ سعيد، قالوا: حدَّثنا إبراهيم بنُ يزيدَ، عن محمد بن عبَّاد، عن ابن عمر قال: قام رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسول اللّه، ما يوجبُ الحجَّ؟. قال: «الزادُ والراحلة». قال[(٤)]: يا رسولَ اللّه، وما الحاجُّ؟ قال: «الشَّعِثُ التَّفِلُ». وقام آخر فقال: يا رسول اللّه، وما الحجُّ؟ قال: «العَجُّ والثَّجُّ». قال وكيع: يعني بالعجِّ: العجيجَ بالتَّلبية، والثَّجّ: نحرَ البُدْن، لفظُ ابنِ ماجه[(٥)].

وممن قال: إنَّ الزاد والراحلةَ شرطٌ في وجوب الحجّ: عمر بنُ الخطاب، وابنُه عبدُ اللّه وعبد اللّه بنُ عباس، والحسن البصريُّ، وسعيد بنُ جُبير، وعطاء، ومجاهد. وإليه ذهب الشافعيُّ، والثوريُّ، وأبو حنيفة وأصحابُه، وأحمدُ، وإسحاق، وعبد العزيز بنُ

---

(١) سنن الدارقطني ٢/ ٢١٨، وفي إسناده حسين بن عبدالله بن ضميرة، قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٥٣٨: كذبه مالك، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، كذاب، وقال أحمد: لا يساوي شيئاً، وقال ابن معين: ليس بثقة ولا مأمون، وقال البخاري: منكر الحديث ضعيف.

(٢) في (د) و (ظ) و (م): وأخرجاه، والمثبت من (خ)، وهو عند الترمذي (٨١٣) مختصر، وسنن ابن ماجه (٢٨٩٦)، وإبراهيم بن يزيد الخوزي قال فيه الحافظ في التقريب ص٣٥: متروك الحديث، وقال البيهقي ٤/ ٣٣٠: ضعَّفه أهل العلم بالحديث، وقد تابعه محمد بن عبدالله بن عبيد عن محمد بن عباد، إلا أنه أضعف من إبراهيم بن يزيد، ورواه أيضاً محمد بن الحجاج عن جرير عن محمد بن عباد، ومحمد بن الحجاج متروك.

(٣) سنن الدارقطني ٢/ ١٩٤ (طبعة الكتب العلمية).

(٤) في النسخ: قالوا، والمثبت من (م)، ومصادر التخريج.

(٥) برقم (٢٨٩٦)، وسلفت الإشارة إليه. قوله: الشَّعِث: المغبرّ الرأس، والتَّفِل: الذي ترك استعمال الطيب. انظر القاموس (شعث)، والنهاية (تفل).

أبي سلمة، وابنُ حبيب، وذَكر ابن عبدوس[(١)] مثلَه عن سُحُنون[(٢)].

قال الشافعيّ[(٣)]: الاستطاعة وجهان:

أحدُهما: أنْ يكونَ مستطيعاً ببدنه، واجداً من ماله ما يبلِّغه الحجّ.

والثاني: أنْ يكونَ معضُوباً[(٤)] في بدنه، لا يثبتُ على مَركَبِهِ، وهو قادرٌ على من يُطيعُه إذا أمرَه أنْ يحجَّ عنه بأجرة وبغيرِ أجرة، على ما يأتي بيانه.

أما المستطيع ببدنه، فإنه يلزمُه فرضُ الحجّ بالكتاب بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾. وأما المستطيعُ بالمال، فقد لزمَه فرضُ الحجِّ بالسُّنة بحديث الخثعمِيةِ على ما يأتي[(٥)]. وأما المستطيعُ بنفسه؛ وهو القوِيُّ الذي لا تلحقه مشقَّةٌ غيرُ محتملةٍ في الركوب على الراحلة؛ فإنَّ هذا إذا ملك الزادَ والراحلة؛ لزمه فرضُ الحجِّ بنفسه، وإن عَدِمَ الزادَ والراحلةَ أو أحدَهما سقطَ عنه فرضُ الحج، فإن كان قادراً على المشي مُطيقاً له، ووجد الزاد، أو قَدَر على كسب الزادِ في طريقه بصنعةٍ؛ مثل الخرزِ والحجامةِ أو نحوِهما، فالمستحبُّ له أنْ يَحُجَّ ماشياً، رَجلاً كان أو امرأة[(٦)].

قال الشافعيّ: والرجلُ أقلُّ عُذْراً من المرأة؛ لأنه أقوى. وهذا عندهم على طريق الاستحبابِ، لا على طريق الإيجاب، فأمّا إن قَدَرَ على الزاد بمسألة الناسِ في الطريق، كَرِهْتُ له أنْ يحجَّ، لأنه يصير كَلّاً على الناس[(٧)].

وقال مالك بنُ أنس رحمه اللّه: إذا قَدَرَ على المشي ووجدَ الزادَ، فعليه فرضُ

---

(١) في (د) و (م): وذكر عبدوس، والمثبت من (خ)، و(ظ)، وهو الصواب.

وابن عبدوس: هو أبو عبدالله محمد بن إبراهيم، من كبار أصحاب سحنون وأفقههم، صنف المجموعة في الفقه على مذهب الإمام مالك. توفي سنة (٢٦٠ هـ). الديباج المذهب ٢/ ١٧٤.

(٢) النوادر والزيادات ٢/ ٣١٧، والمنتقى ٢/ ٢٦٩، وعقد الجواهر الثمينة ١/ ٣٧٩.

(٣) الأم ٢/ ٩٦ و ١٠٤، والتمهيد ٩/ ١٢٧ - ١٢٨، والاستذكار ١٢/ ٦٣.

(٤) أي: ضعيفاً زَمِناً، لا حراك به. القاموس (عضب). وسيذكر المصنف معناه في المسألة السابعة.

(٥) ص٢٢٩ من هذا الجزء.

(٦) انظر التمهيد ٩/ ١٢٧ - ١٢٨، والمعونة ١/ ٥٠٠ - ٥٠١، والمجموع ٧/ ٥٧، ٥٩.

(٧) الأم ٢/ ٩٩ والتمهيد ٩/ ١٢٧ والمجموع ٧/ ٥٧ - ٥٨.

الحج، وإن لم يجد الراحلةَ، وقَدَر على المشي، نُظر؛ فإن كان مالكاً للزاد، وجب عليه فرضُ الحج، وإن لم يكن مالكاً للزاد، ولكنه يَقدِر على كسب حاجتِه منه في الطريق، نُظر أيضاً؛ فإن كان من أهل المروءاتِ ممن لا يَكتسبُ بنفسه، لا يجب عليه، وإن كان ممن يَكتَسبُ كفايتَه بتجارة أو صناعةٍ، لزمه فرضُ الحج، وهكذا إن كانت عادتُه مسألةَ الناس، لزمه فرضُ الحجّ. وكذلك أَوجبَ مالكٌ على المطيق للمشي[١] الحجَّ، وإن لم يكن معه زاد وراحلة. وهو قول عبد الله بن الزبير والشَّعْبيّ وعكرمة[٢].

وقال الضحاك: إنْ كان شابّاً قويّاً صحيحاً ليس له مالٌ، فعليه أن يؤجرَ نفسَه بأكلِهِ أو عُقَبِهِ حتى يقضِيَ حجَّه. فقال له قائل[٣]: كلَّف اللّه الناسَ أنْ يمشوا إلى البيت؟ فقال: لو أنَّ لأحدهم ميراثاً بمكةَ، أكان تاركَه؟! بل ينطلق إليه ولو حَبْواً، كذلك يجبُ عليه الحجُّ[٤].

واحتجَّ هؤلاء بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج:٢٧] أي: مُشاةً. قالوا: ولأنَّ الحجَّ من عبادات الأبدان، ومن[٥] فرائضِ الأعيان، فوجبَ ألَّا يكونَ الزادُ من شروط وجوبِها ولا الراحلةُ، كالصلاة والصيام. قالوا: ولو صحَّ حديثُ الخُوزِيّ[٦]: «الزادُ والراحلة»، لحملناه على عموم الناسِ، والغالبِ منهم في الأقطار البعيدة. وخروجُ مطلقِ الكلامِ على غالب الأحوالِ كثيرٌ في الشريعة، وفي كلام العربِ وأشعارها.

---

(١) في (د) و(م): المشي.

(٢) انظر التمهيد ٩/ ١٢٨ ، والمنتقى ٢/ ٢٦٩ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٧٨ ، وأخرج هذه الأقوال الطبري ٥/ ٦١٥ - ٦١٦ .

(٣) في النسخ: مقاتل، والمثبت من تفسير الطبري ٥/ ٦١٥ .

(٤) أخرجه الطبري ٥/ ٦١٥ ، وقوله عُقَبِهِ: هو جمع عُقْبة، وهي النَّوْبة. انظر معجم متن اللغة ٤/ ١٥٥ ، وأخرج قول الضحاك أيضاً ابنُ أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٧١٤ بلفظ: إن كان فقيراً وهو صحيح شابٌ، فليؤاجر نفسه بالأُكْلَةِ والعُقْبَة حتى يحجَّ. وأخرج أيضاً عن معمر بن خثيم قال: قلت لأبي جعفر: قول الله تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال: يا معمر أن تكون لك راحلة، أو يمشي عُقبةً ويركب عُقبة.

(٥) في (خ) (د) . (م): من دون واو، والمثبت من (ظ).

(٦) هو حديث ابن عمر رضي الله عنهما السالف أول هذه المسألة.

وقد روى ابنُ وَهْب وابنُ القاسم وأشهبُ عن مالك أنه سُئل عن هذه الآيةِ، فقال: الناسُ في ذلك على قدر طاقتِهم ويُسْرهم وجَلَدِهم؛ قال أشْهَبُ لمالك: أهو الزادُ والراحلة؟ قال: لا واللّه، ما ذاك إلا على قدر طاقةِ الناس، وقد يجدُ الزادَ والراحلةَ، ولا يقدرُ على السير، وآخَرُ يقدر أنْ يمشيَ على رجليه(١).

الخامسة: إذا وُجدت الاستطاعة، وتوجَّه فرضُ الحجِّ، فقد يعرضُ ما يمنعُ منه، كالغرِيم يمنعُه عن الخروج حتى يؤدّيَ الدَّيْن؛ ولا خلافَ في ذلك. أو يكونُ له عِيَالٌ يجبُ عليه نفقتُهم، فلا يلزمه الحجُّ حتى يكونَ لهم نفقتُهم مدّةَ غَيْبَتِه لذهابه ورجوعه؛ لأنَّ هذا الإنفاقَ فرضٌ على الفَوْر، والحجُّ فرضٌ على التَّراخي، فكان تقديمُ العيالِ أوْلى، وقد قال النبيُّ ﷺ: «كَفَى بالمرء إثماً أنْ يُضيِّعَ من يقوت»(٢).

وكذلك الأبَوانِ يخافُ الضَّيْعةَ عليهما وعَدَمَ العِوَض في التلطُّف بهما، فلا سبيلَ له إلى الحجّ؛ فإنْ مَنَعاه لأجل الشَّوْقِ والوَحْشةِ، فلا يُلتفتُ إليه.

والمرأةُ يمنعُها زوجُها، وقيل: لا يمنعها. والصحيح المنعُ، لا سيما إذا قلنا: إنَّ الحج لا يلزم على الفَوْر(٣).

والبحر لا يمنع الوجوبَ إذا كان غالبُه السَّلامة - كما تقدَّم بيانه في «البقرة(٤)» - ويَعلمُ من نفسه أنه لا يَمِيد(٥). فإن كان الغالبَ عليه العَطَبُ أو المَيْدُ حتى يُعطِّلَ الصَّلاة، فلَا. وإنْ كان لا يجد موضعاً لسجوده لكثرة الراكبِ وضيقِ المكانِ، فقد قال مالك: إذا لم يستطع الركوعَ والسجودَ إلا على ظهر أخيه، فلا يركبْه. ثم قال: أيركب حيثُ لا يُصلّي؟! ويلٌ لمن ترك الصلاة!.

ويسقط الحجُّ إذا كان في الطريق عدوٌّ يطلب الأنفسَ، أو يطلبُ من الأموال

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٨ ، والنوادر والزيادات ٢/ ٣١٧ .

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٦٤٩٥)، وأبو داود (١٦٩٢)، والنسائي في الكبرى (٩١٣٢) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وأخرجه مسلم (٦٩٦) بلفظ: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قُوْتَه».

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٤) ٢/ ٤٩٥ - ٤٩٦ .

(٥) قوله: يَميد، من: مَادَ: إذا أصابه غثيان ودُوَار. القاموس (ماد).

مالاً[١] يتحدَّد بحدٍّ مخصوصٍ، أو يتحدَّد بقدْرٍ يُجحف[٢]، وفي سقوطه بغير المُجْحفِ خلاف. وقال الشافعيُّ: لا يُعطي حبَّةً، ويسقطُ فرضُ الحجّ. ويجبُ على المتسوِّل إذا كانت تلك عادتَه، وغلَب على ظنّه أنه يجدُ من يُعطيه. وقيل: لا يجب[٣]، على ما تقدَّم من مراعاة الاستطاعة.

السادسة: إذا زالت الموانعُ ولم يكن عنده من النَّاضِّ[٤] ما يحجُّ به، وعندَه عُروض، فيلزمُه أنْ يبيعَ من عُروضه للحجّ ما يُباع عليه في الدَّيْن. وسُئل ابنُ القاسم عن الرجل تكون له القَرْية[٥] ليس له غيرُها، أيبيعُها في حجَّة الإسلام، ويترك ولَده ولا شيءَ لهم يعيشون به؟. قال: نعم، ذلك عليه، ويتركُ ولَدَه في الصدقة! والصحيح القولُ الأوَّل؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «كفى بالمرء إثماً أنْ يُضَيِّعَ من يقوت»[٦]، وهو قولُ الشَّافعي[٧]. والظاهرُ من مذهبه أنه لا يلزم الحجُّ إلا من له ما يكفيه من النفقة ذاهباً وراجعاً ـ قاله في الإملاء ـ وإن لم يكن له أهلٌ وعِيالٌ. وقال بعضُهم: لا يعتبرُ الرجوع؛ لأنه ليس عليه كبيرُ مشقَّةٍ في تركه القيامَ ببلده؛ لأنه لا أهلَ له فيه ولا عيالَ، وكلُّ البلاد له وطن. والأوَّلُ أصوب؛ لأنَّ الإنسانَ يستوحش لفراق وطنِه كما يستوحشُ لفراق سكنِه[٨]. ألا ترى أنَّ البِكر إذا زنا جُلد وغُرِّب عن بلده، سواء كان له أهلٌ أو لم يكن؟

قال الشافعيّ في الأمّ[٩]: إذا كان له مسكنٌ وخادم، وله نفقةُ أهلِه بقدْرِ غيبتِه؛

---

(١) في (د) و (م): ما لم، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لعقد الجواهر الثمينة ١/ ٣٨٠، والكلام منه.

(٢) في (م): مجحف.

(٣) عقد الجواهر الثمينة ١/ ٣٨٠، والعزيز شرح الوجيز ٣/ ٢٩٢.

(٤) قوله: الناضّ؛ المراد به هنا الدراهم والدنانير، كما يسميه أهل الحجاز. انظر المصباح المنير (نضّ).

(٥) في (خ) و(م): القربة، والمثبت من (د) و (ظ)، وعقد الجواهر الثمينة ١/ ٣٨١، والكلام منه، والنوادر والزيادات ٢/ ٣١٩، والبيان والتحصيل ٤/ ٧٢.

(٦) سلف ذكره في المسألة الخامسة.

(٧) الأم ٢/ ٩٩.

(٨) العزيز شرح الوجيز للرافعي ٣/ ٢٨٤ - ٢٨٥، والمجموع ٧/ ٥٢ - ٥٣ و ٦٩.

(٩) ٢/ ٩٩.

يلزمه الحج. وظاهرُ هذا أنه اعتبر أنْ يكون مالُ الحج فاضلاً عن الخادم والمسكن؛ لأنه قدَّمه على نفقة أهلِه، فكأنه قال: بعد هذا كله.

وقال أصحابه: يلزمُه أنْ يبيعَ المسكنَ والخادمَ ويَكْتَرِيَ مسكناً وخادماً لأهله، فإن كان له بضاعةٌ يتَّجر بها، وربحُها؛ قدرُ كفايتِه وكفايةِ عيالِه على الدوام، ومتى أنفقَ من أصل البضاعة اختلَّ عليه ربحُها؛ ولم يكن فيه قدرُ كفايته[١]؛ فهل يلزمُه الحجُّ من أصل البضاعةِ أم لا؟ قولان: الأوّل للجمهور، وهو الصحيحُ المشهور؛ لأنه لا خلافَ في أنه لو كان له عَقَارٌ تكفيه غَلَّتُه، لزمه أنْ يبيعَ أصلَ العَقارِ في الحجّ، فكذلك البضاعة. وقال ابن سُريج[٢]: لا يلزمه ذلك، ويُبقي البضاعة، ولا يحجُّ من أصلها؛ لأنَّ الحج إنما يجبُ عليه في الفاضل من كفايته. فهذا الكلامُ في الاستطاعة بالبدن والمال[٣].

السابعة: المريضُ والمَعْضُوبُ، والعَضْبُ: القطع، ومنه سُمِّيَ السَّيفُ عَضْباً، وكأنَّ من انتهى إلى ألَّا يقدرَ أنْ يستمسكَ على الراحلة، ولا يثبتَ عليها بمنزلة من قُطعت أعضاؤه؛ إذْ لا يقدرُ على شيء. وقد اختلف العلماء في حكمهما بعد إجماعِهم أنه لا يلزمُهما المسيرُ إلى الحج؛ لأنَّ الحجَّ إنما فرَضه الله على المستطيع إجماعاً، والمريضُ والمعضوب لا استطاعةَ لهما. فقال مالك: إذا كان معضُوباً سقط عنه فرضُ الحجِّ أصلاً، سواء كان قادراً على مَنْ يحجُّ عنه بالمال أو بغير المال، لا يلزمه فرضُ الحج[٤].

ولو وجب عليه الحج، ثم عُضِب وزَمِن، سقط عنه فرضُ الحجِّ، ولا يجوز أنْ يُحَجَّ عنه في حال حياتِه بحال، بل إنْ أوْصى أن يُحَجَّ عنه بعد موتِه، حُجَّ عنه من الثلث، وكان تطوُّعاً؛ واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:١٩]، فأخبر أنه ليس له إلا ما سعى. فمن قال: إنه له سَعْيُ غيره، فقد خالف

---

(١) بعدها في (ظ): وكفاية عياله على الدَّوام.

(٢) في (د) و (م): شريح، وفي (خ): سريح، والمثبت من (ظ)، والعزيز شرح الوجيز ٣/ ٢٨٦ .

(٣) العزيز شرح الوجيز ٣/ ٢٨٥ - ٢٨٦ ، والمغني ٥/ ١٢ .

(٤) الاستذكار ١٦/ ٦٢ ، وأحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٩ ، والمفهم ٣/ ٤٤١ - ٤٤٢ .

ظاهرَ الآية. وبقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾، وهذا غيرُ مستطيع؛ لأن الحجَّ هو قصدُ المكلَّفِ البيتَ بنفسه، ولأنها عبادةٌ لا تدخلها النِّيابة مع العجزِ عنها كالصلاة[١].

وروى محمد بنُ المُنْكَدر عن جابر قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ اللّه عزَّ وجلَّ لَيُدخِلُ بالحَجّة الواحدةِ ثلاثةً الجنةَ: الميِّتَ، والحاجَّ عنه، والمنفِذَ ذلك». خرّجه الطبرانيُّ أبو القاسم سليمان بنُ أحمدَ قال: حدثنا عُمر بن حفص[٢] السَّدوسي قال: حدّثنا إسحاق بن بشر قال: حدثنا[٣] أبو معشر عن محمد بن المنكدر، فذكره[٤].

قلت: أبو معشر اسمه نَجِيحٌ، وهو ضعيفٌ عندَهم.

وقال الشافعيُّ[٥] في المريض الزَّمِنِ والمعضوبِ والشيخِ الكبيرِ يكون قادراً على من يُطِيعُه إذا أمره بالحج عنه؛ فهو مستطيعٌ استطاعةً مّا. وهو على وجهين:

أحدُهما أنْ يكونَ قادراً على مالٍ يستأجرُ به من يَحُجُّ عنه، فإنه يلزمُه فرضُ الحجِّ. وهذا قولُ عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه، رُوِيَ عنه أنه قال لشيخ كبيرٍ لم يَحجَّ: جهِّزْ رجلاً يحجُّ عنك[٦]. وإلى هذا ذهبَ الثَّوريُّ، وأبو حنيفةَ وأصحابُه، وابنُ المبارك، وأحمدُ، وإسحاق.

والثاني أن يكونَ قادراً على من يبذل له الطاعةَ والنيابةَ، فيحجُّ عنه، فهذا أيضاً

(١) المعونة ١/ ٥٠١ ، والكافي ١/ ٣٥٦ - ٣٥٧ ، والمنتقى ٢/ ٢٦٩ ، والمجموع ٧/ ٨٠ .

(٢) في (ظ): عمرو بن حفص، وفي (د) و (م): عمرو بن حصين، والمثبت من (خ)، وهو الصواب، فقد روى عنه الطبراني في معاجمه، وانظر تاريخ بغداد ١١/ ٢١٦ .

(٣) قوله : «إسحاق بن بشر قال: حدثنا»، ليس في (م).

(٤) لم نقف عليه في مصنفات الطبراني، وأخرجه أيضاً الحارث بن أبي أسامة في مسنده (بغية الباحث) (٣٥٥)، وابن عديٍّ ١/ ٣٣٦ ، وأبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان ٢/ ٣٦٥ من طريق إسحاق بن بشر به. قال ابن عديٍّ: هو في عداد من يضع الحديث. وأبو معشر قال فيه البيهقي ٥/ ١٨٠ : مدني ضعيف، وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ١٣٠ : هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، والمتهم به إسحاق بن بشر. وتابع إسحاق بنَ بشر عبد الرزاق كما في تنزيه الشريعة ٢/ ١٧٣ عن أبي معشر به، وأبو معشر سلف الكلام عليه وأورده السيوطي في الجامع الصغير ١/ ٢٥٥، ورمز لضعفه.

(٥) في الأم ٢/ ٩٦ - ٩٧ .

(٦) أورده الشافعي في الأم ٢/ ٩٨ .

يلزمه الحجُّ عنه[١] عندَ الشافعيِّ وأحمدَ وابن راهويه، وقال أبو حنيفة: لا يلزم الحجُّ ببذل الطاعةِ بحال[٢].

استدلَّ الشافعيُّ بما رواه ابن عباس أنَّ امرأةً من خَثْعَم سألتِ النبيَّ ﷺ، فقالت: يا رسولَ اللّه، إنَّ فريضةَ اللّهِ على عباده في الحجِّ أدركَتْ أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أنْ يثبتَ على الراحلة، أفأحجُّ عنه؟ قال: «نعم». وذلك في حجَّة الوَدَاع[٣]. في رواية: لا يستطيع أنْ يستويَ على ظهر بعيرِه، فقال النبيُّ ﷺ: «فحجِّي عنه، أرأيتِ لو كان على أبيكِ دَيْنٌ، أكنتِ قاضِيَتَه»؟ قالت: نعم. قال: «فدَيْنُ اللّهِ أحقُّ أنْ يُقْضَى»[٤].

فأوجبَ النبيُّ ﷺ الحجَّ بطاعة ابنته إياه، وبذلِها من نفسها له بأنْ تحجَّ عنه، فإذا وجب ذلك بطاعة البنتِ له، كان بأنْ يجبَ عليه بقدرته على المال الذي يستأجرُ به أَوْلى. فأمَّا إنْ بذل له المال دونَ الطاعة؛ فالصحيح أنه لا يلزمُه قبولُه والحجُّ به عن نفسه، ولا يصيرُ ببذل المالِ له مستطيعاً[٥].

وقال علماؤنا: حديثُ الخثعمية ليس مقصودُه الإيجابَ، وإنَّما مقصودُه الحثُّ على بِرِّ الوالدَيْن، والنظرِ في مصالحهما دُنْيا ودِيناً[٦]، وجلبُ المنفعةِ إليهما جِبِلَّةً وشَرْعاً، فلما رأى من المرأة انفعالاً وطواعيةً ظاهرة ورغبةً صادقة في بِرِّها بأبيها، وحرصاً على إيصال الخيرِ والثَّوابِ إليه، وتأسَّفت أنْ تفوتَه بركةُ الحجِّ، أجابَها إلى ذلك، كما قال للأخرى التي قالت: إنَّ أُمِّي نذرت أنْ تحجَّ، فلم تحجَّ حتى ماتت،

---

(١) لفظة: عنه، من (م).

(٢) المنتقى ٢/ ٢٦٩، والعزيز شرح الوجيز ٣/ ٣٠٠ - ٣٠٢ و ٣٠٥ - ٣٠٦. والمفهم ٣/ ٤٤٢، والمجموع ٧/ ٧٥ - ٧٦، و ٨٠ - ٨١.

(٣) أخرجه أحمد (٣٢٣٨) (٣٣٧٥)، والبخاري (١٥١٣)، و مسلم (١٣٣٤).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٩٠٩)بنحوه، وأخرجه أيضاً النسائي ٥/ ١١٨، لكن فيه أن السائل رجل، وأحمد (١٦١٢٥) والنسائي ٥/ ١١٧ - ١١٨ من حديث عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما. وانظر حديث ابن عباس السالف ٣/ ٣٦١.

(٥) الوجيز ٣/ ٣٠٥.

(٦) في (ظ): وأُخرى.

أفأحجُّ عنها؟ قال: «حُجِّي عنها، أرأيتِ لو كان على أمِّك دينٌ أكنتِ قاضِيَتَه»؟ قالت: نعم[١]. ففي هذا ما يدلُّ على أنه من باب التطوّعاتِ وإيصالِ البرِّ والخيراتِ للأموات؛ ألَا ترى أنه قد شبَّه فعلَ الحج بالدَّيْن. وبالإجماع لو مات ميِّتٌ وعليه دَينٌ لم يجبْ على وَلِيِّه قضاؤُه من ماله، فإن تَطَوَّعَ بذلك تأدَّى الدَّينُ عنه[٢].

ومن الدليل على أنَّ الحجَّ في هذا الحديثِ ليس بفرضٍ على أبيها ما صرَّحت به هذه المرأة بقولها: لا يستطيع، ومن لا يستطيعُ لا يجبُ عليه. وهذا تصريحٌ بنفي الوجوبِ ومنعِ الفريضة، فلا يجوز ما انتفى في أوّل الحديثِ قطعاً أنْ يثبتَ في آخره ظَنّاً؛ يحقِّقُه قولُه: «فدَين اللّه أحقُّ أن يُقضى»، فإنه ليس على ظاهره إجماعاً، فإنَّ دَيْنَ العبدِ أوْلى بالقضاءِ، وبه يُبدأ إجماعاً، لفقر الآدميِّ، واستغناءِ اللّه تعالى؛ قاله ابن العربيّ[٣].

وذكر أبو عمر بنُ عبد البَرّ[٤] أنَّ حديثَ الخثعميةِ عند مالك وأصحابِه مخصوصٌ بها. وقال آخرون: فيه اضطراب. وقال ابن وهب وأبو مصعب: هو في حقِّ الولدِ خاصَّةً. وقال ابنُ حبيب: جاءت الرخصةُ في الحجِّ عن الكبير الذي لا منهض له ولم يحجَّ، وعمَّن مات ولم يحجَّ، أنْ يَحُجَّ عنه ولده وإنْ لم يُوصِ به، ويجزئُه إنْ شاء اللّه تعالى[٥].

فهذا الكلامُ على المعضوب وشبهه. وحديثُ الخثعمية أخرجه الأئمة[٦]، وهو يردُّ على الحسن قولَه: إنه لا يجوزُ حجُّ المرأةِ عن الرجل[٧].

الثامنة: وأجمعَ العلماء على أنه إذا لم يكن للمكلَّف قوتٌ يتزوَّده في الطريق، لم

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٤٠)، والبخاري (١٨٥٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر الكلام على الحديث في الفتح ٤/ ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) المفهم ٣/ ٤٤٣ .

(٣) في أحكام القرآن ١/ ٢٩٠ .

(٤) في الاستذكار ١٢/ ٥٩ - ٦٠، وانظر المفهم ٣/ ٤٤٣ .

(٥) النوادر والزيادات ٢/ ٤٨٢ .

(٦) سلف قريباً.

(٧) التمهيد ٩/ ١٣٦ ، والاستذكار ١٢/ ٦٨ ، وإكمال المعلم ٤/ ٤٤٠، والمفهم ٣/ ٣٤٣ .

يلزمه الحجُّ. وإنْ وَهب له أجنبيٌّ مالاً يحجُّ به، لم يلزمه قبولُه إجماعاً، لما يلحقُه من المِنَّة في ذلك. فلو كان رجلٌ وهبَ لأبيه مالاً؛ فقد قال الشّافعيّ: يلزمُه قبولُه؛ لأنَّ ابنَ الرجلِ من كسْبِهِ، ولا مِنَّةَ عليه في ذلك. وقال مالك وأبو حنيفة: لا يلزمه قبولُه؛ لأنَّ فيه سقوطَ حُرْمَةِ الأبوّة؛ إذ يقال: قد جَزَاه وقد وفَّاه[١]. واللّه أعلم.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال ابن عباس[٢] وغيره: المعنى: ومن كفر بفرض الحجِّ، ولم يره واجباً.

وقال الحسنُ البصريُّ وغيره: إنَّ من ترك الحج وهو قادرٌ عليه فهو كافر[٣].

وروى الترمذيُّ عن الحارث، عن عليٍّ قال: قال رسولُ اللّه ﷺ: «مَنْ ملكَ زاداً وراحلةً تُبلِّغُه إلى بيت اللّهِ، ولم يحجَّ، فلا عليه أنْ يموت[٤] يهودياً أو نصرانيّاً، وذلك أنَّ اللّه يقول في كتابه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، قال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مَقال، وهلال ابنُ عبد اللّه مجهول، والحارث يُضعَّف[٥].

ورُوِيَ نحوُه عن أبي أمامة[٦] وعمرَ بنِ الخطاب رضي اللّه عنهما[٧].

وعن عبد خير بن يزيدَ عن عليّ بن أبي طالب ﷺ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال في خطبته: «يا أيها الناس، إنَّ اللّه فرضَ الحجَّ[٨] على من استطاع إليه سبيلاً، ومن لم

---

(١) أحكام القرآن ١/ ٢٩٠ ، وانظر المجموع ٧/ ٧٤ - ٧٥ ، و ٧٧، ٨٠.

(٢) أخرجه الطبري ٥/٦١٩ .

(٣) أورده الزجاج في معاني القرآن ١/ ٤٤٧ من غير نسبة.

(٤) في (د) و (ظ): لا يموت، وفي (خ): ألا، والمثبت من (م)، وسنن الترمذي.

(٥) سنن الترمذي (٨١٢)، وقال البخاري في هلال هذا: منكر الحديث، وقال العقيلي: لا يتابع على حديثه، ميزان الاعتدال ٤/ ٣١٥؛ وقال الذهبي: ويروى عن علي قوله.

(٦) أخرجه الدارمي (١٧٨٥)، والبيهقي ٤/ ٣٣٤ ، والبغوي في تفسيره ١/ ٢٣١ ، وفي إسناده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٣٣٧ (الجزء المفقود) عن عمر موقوفاً، وصحح إسناده ابن كثير (يعني موقوفاً) في مسند الفاروق ١/ ٢٩٢ .

(٨) في (م) فرض عليكم الحجَّ.

يفعلْ فليمتْ على أيِّ حالٍ شاء؛ إنْ شاء يهودياً أو نصرانيّاً أو مجوسياً، إلا أنْ يكون به عذرٌ من مرض، أو سلطانٍ جائرٍ. ألا لا نصيبَ[1] له في شفاعتي ولا وُرودِ حَوْضِي»[2].

وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «من كان عنده مالٌ يبلّغه الحجَّ فلم يحجَّ، أو عنده مالٌ تحلُّ فيه الزكاة فلم يزكِّه، سأل عند الموت الرجعةَ». فقيل: يا ابن عباس، إنَّا كنَّا نرى هذا للكافرين، فقال: أنا أقرأ عليكم به قرآناً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ، وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[3] [المنافقون: ٩ـ١٠].

قال الحسن بنُ صالح في تفسيره: فأزكِّي وأحجّ.

وعن النبيِّ ﷺ أنَّ رجلاً سألَه عن الآية، فقال: «مَنْ حَجَّ لا يرجو ثواباً، أو جلس لا يخافُ عقاباً، فقد كفر به»[4].

وروى قتادةُ عن الحسن قال: قال عمر ﷺ: لقد هممتُ أنْ أبعثَ رجالاً إلى الأمصار، فينظرون إلى مَنْ كان له مالٌ ولم يحجَّ، فيضربون عليه الجزية، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[5].

قلتُ: هذا خرجَ مَخرجَ التغليط، ولهذا قال علماؤنا: تَضَمَّنتِ الآيةُ أنَّ من ماتَ ولم يحجَّ وهو قادرٌ، فالوعيدُ يتوجَّه عليه، ولا يُجزئُ أنْ يَحجَّ عنه غيرُه؛ لأنَّ حجَّ الغيرِ لو أسقط عنه الفرضَ؛ لسقط عنه الوعيد. والله أعلم.

---

(١) في (م): ألا نصيب؛ سقطت منه (لا).

(٢) أخرجه أبو الليث في تفسيره ١/ ٢٨٦ ، وروايته من طريق داود بن المحبر، عن عباد بن كثير الثقفي، عن عبد خير. وداود وعباد كلٌّ منهما متروك الحديث كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣١٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أورده النحاس في معاني القرآن ١/ ٤٤٨ ، والسيوطي في الإتقان ٢/ ١٢٤٣ ، وعزاه لعبد بن حميد في تفسيره عن نفيع مرسلاً.

(٥) أخرجه سعيد بن منصور في سننه ـ كما في مسند الفاروق لابن كثير ١/ ٢٩٣ ، والدر المنثور ٢/ ٥٦ ـ وابن الجوزي في التحقيق ٢/ ١١٨ .

وقال سعيد بنُ جُبير: لو مات جارٌ لي وله مَيْسرةٌ ولم يحجَّ، لم أصلِّ عليه(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: تَصرِفون عن دين الله ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾.

وقرأ الحسن: «تُصِدُّون»، بضم التاء وكسر الصاد(٢)، وهما لغتان: صَدَّ وأصَدَّ، مثل: صلَّ اللحمُ وأصَلَّ: إذا أنْتَنَ، وخَمّ وأخَمَّ أيضاً: إذا تغيَّر.

﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: تطلبون لها، فحذف اللام، مثل: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣]. يقال: بغيتُ له كذا، أي: طلبتُه. وأبغيتُه كذا، أي: أَعَنْتُه [عليه](٣).

والعِوَج: المَيْلُ والزَّيغ ـ بكسر العين ـ في الدِّين والقولِ والعملِ، وما خرج عن طريق الاستواء. وبالفتح: في الحائِط والجِدار، وكلِّ شخصٍ قائم. عن أبي عبيدةَ وغيرِه(٤).

ومعنى قولِه تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٠٨]، أي: لا يقدرون أنْ يَعُوجُوا عن دعائه. وعاجَ بالمكان وعَوَّجَ: أقام ووقف. والعائجُ الواقف(٥)، قال الشاعر:

هلَ انْتُمْ عائجونَ بنا لعنَّا ... نَرَى العَرَصاتِ أو أثَرَ الخِيامِ(٦)

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٣٣٧ (الجزء المفقود).

(٢) القراءات الشاذة ص٢٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤٨١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٩ وما بين حاصرتين منه، وانظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٧، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٤٧.

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٩٨، وتفسير البغوي ١/ ٣٣١.

(٥) الصحاح (عوج)، وتهذيب اللغة ٣/ ٤٧.

(٦) أورده البغدادي في شرح شواهد الشافية ٤/ ٤٦٤ و ٤٦٦. بمثل رواية المصنف، ونسبه للفرزدق، ونسبه إليه كذلك صاحب طبقات فحول الشعراء ٢/ ٣٦٥، وصاحب الأغاني ٢١/ ٣٠٧، وروايته فيهما: ألستم عائجين بنا لعنًّا. قال البغدادي: الأصل: لعلنا، فأُبدلت اللام نوناً بضعف. =

والرجل الأعوجُ: السيِّئُ الخَلْقِ، وهو بَيِّنُ العَوَج. والعُوجُ من الخيل التي في أرجلها تَحْنِيبٌ، والأَعْوجِيَّةُ من الخيل تُنسبُ إلى فرسٍ كان في الجاهلية سابقاً[(١)]. ويقال: فرسٌ مُحَنَّبٌ: إذا كان بعيدَ ما بين الرِّجْلَيْن بغير فَحَجٍ[(٢)]، وهو مَدْحٌ. ويقال: الحَنَب اعوجاجٌ في السَّاقَين. قال الخليل: التَّحْنيبُ يوصف في الشدَّة، وليس ذلك باعوجاج[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أي: عقلاء. وقيل: شهداء أنَّ في التوراة مكتوباً أنَّ دِينَ الله الذي لا يُقبل غيرُه الإسلامُ، إذ فيه نعتُ محمدٍ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

نزلت في يهوديٍّ أرادَ تجديد الفِتنة بين الأَوْسِ والخَزْرَج بعد انقطاعها بالنبيِّ ﷺ، فجلس بينَهم وأنشدَهم شِعْراً قاله أحدُ الحَيَّيْنِ في حربهم. فقال الحَيُّ الآخر: قد قال شاعرُنا في يوم [كذا:] كذا وكذا، فكأنهم دخلَهم من ذلك شيءٌ، فقالوا: تعالَوْا نردَّ الحربَ جَذَعاً[(٤)] كما كانت. فنادى هؤلاء: يا آلَ أَوْس. ونادى هؤلاء: يا آل خَزْرَج. فاجتمعوا وأخذُوا السلاحَ، واصطفُّوا للقتال، فنزلت هذه الآية، فجاء النبيُّ ﷺ حتى

= وأورده ابن منظور في اللسان (لغن) ونسبه للفرزدق أيضاً، وروايته فيه: قفا يا صاحبيَّ بنا لغنَّا. وبنحوه أورده ابن الأنباري في الإنصاف ١/ ٢٢٥، ولم ينسبه. ولغنَّ (بالغين المعجمة) لغة في (لعلَّ) كما ذكر ابن منظور، وقال: بعض بني تيم يقول: لغنَّك، بمعنى: لعلَّك، وأورد البيت.

وأورده ابن منظور أيضاً في اللسان (أنن)، ونسبه لجرير، وروايتُه فيه: هلَ اْنتم عائجون بنا لأنَّا. أي: لعلنا، فقد تكون (أنَّ) المفتوحة بمعنى: لعلَّ، كما ذكر.

قوله: العَرَصات؛ هو جمع عَرْصَة، وهي كل بقعة بين الدور واسعة، ليس فيها بناء. اللسان (عرص).

(١) مجمل اللغة ٣/ ٦٣٥ .

(٢) في القاموس (فحج): فَحَجَ في مِشيته (كمنعَ): تدانى صدورُ قدميه، وتباعَدَ عَقِباه.. وهو أفحج، بيِّنُ الفَحَج، محركةً.

(٣) العين ٣/ ٢٥٠، ومجمل اللغة ١/ ٢٥٣ ، وعنه نقل المصنف كلام الخليل.

(٤) في (م): جذعاء. ولم تجود اللفظة في النسخ. والمثبت من أسباب النزول للواحدي ص١١١. قال في اللسان (جذع): أعدت الأمر جَذَعاً، أي: جديداً كما بدأ.. وإذا طفئت حرب بين قوم فقال بعضهم: إن شئتم أعدناها جَذَعَة، أي أول ما يبتدأ فيها.

وقف بين الصَّفَّين، فقرأها ورفعَ صوتَه، فلما سمعوا صوتَه، أَنْصَتوا له، وجعلوا يستمعون، فلما فرغَ؛ أَلْقَوا السِّلاح، وعانق بعضُهم بعضاً، وجعلوا يبكون. عن عكرمة وابن زيد وابن عباس.

والذي فعل ذلك شاسُ بنُ قيس اليهوديُّ، دَسَّ على الأوْس والخَزْرج مَنْ يُذَكِّرُهم ما كان بينهم منَ الحروب، وإنَّ النبيَّ ﷺ أتاهم وذَكَّرهم، فعرف القومُ أنها نَزْغةٌ منَ الشيطان، وكَيْدٌ من عدوِّهم، فألْقَوا السلاحَ من أيديهم، وبكَوا، وعانقَ بعضُهم بعضاً، ثم انصرفوا مع النبيِّ ﷺ سامعين مُطيعين، فأنزلَ اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يعني الأوسَ والخزرجَ. ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني شاساً وأصحابَه ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾.

قال جابر بن عبد اللّه: ما كان طَالِعٌ أكْرَهَ[1] إلينا من رسول اللّه ﷺ، فأومأ إلينا بيده فكَفَفْنا، وأصلحَ اللّهُ تعالى ما بينَنا، فما كان شخصٌ أحبَّ إلينا من رسول اللّه ﷺ، فما رأيتُ يوماً أقبحَ؛ ولا أوْحَشَ أوَّلاً، وأحسَنَ آخِراً؛ من ذلك اليوم[2].

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

قاله تعالى على جهة التعجُّب، أي: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن. ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ يعني محمداً ﷺ.

قال ابن عباس: كان بين الأوْس والخَزْرَج قتَالٌ وشَرٌّ في الجاهلية، فذكروا ما كان بينَهم، فثارَ بعضُهم على بعض بالسيوف، فَأُتِيَ النبيُّ ﷺ، فذُكر ذلك له، فذهب

---

(١) كذا وقع في النسخ و (م) وأسباب النزول للواحدي والعجاب لابن حجر: (أكره). ومعناه ـ إن صحَّ ـ أنه لم يكن شيءٌ أكرهَ إليهم من أن يراهم رسولُ الله ﷺ على تلك الحال من التنازع والاختلاف. ووقع في تفسير أبي الليث ١/ ٢٨٩ (المجلد ١/ورقة ١٣٦): فما كان من طالعٍ يومئذ أكرم إلينا من رسول الله ﷺ، إذ طلع إلينا فأومأ إلينا بيده..

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي ص١١١ - ١١٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وأخرج الطبري ٥/ ٦٢٧ حديث زيد بن أسلم، وأورده ابن حجر في الإصابة ١/ ١٣٩ - ١٤٠ وقال: إسناد مرسل، وفيه راوٍ مبهم. وأخرج ابن المنذر ـ كما في الدر المنثور ٢/ ٥٨ ـ حديث عكرمة، وسترد رواية ابن عباس في الآية بعدها.

إليهم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[١].

ويدخل في هذه الآية مَنْ لم يَرَ النبيَّ ﷺ؛ لأنَّ ما فيهم من سُنَّته يقوم مَقام رؤيته.

قال الزَّجّاج: يجوزُ أن يكونَ هذا الخطابُ لأصحاب محمدٍ ﷺ خاصَّةً؛ لأنَّ رسولَ اللّه ﷺ كان فيهم وهم يشاهدونه، ويجوز أن يكونَ هذا الخطابُ لجميع الأمة؛ لأنَّ آثارَه وعلاماتِه والقرآنَ الذي أُوتِيَه[٢] فِينَا، فكأنَّ[٣] النبيَّ ﷺ فِينَا، وإنْ لم نشاهده[٤].

وقال قَتادة: في هذه الآية عَلَمان بيِّنان: كتابُ اللّه، ونبيُّ اللّه. فأمّا نبيُّ اللّه فقد مَضَى، وأمّا كتابُ اللّه فأبقاه[٥] اللّهُ بين أظهرهم رحمةً منه ونعمةً، فيه حلالُه وحرامُه، وطاعتُه ومعصيتُه[٦].

﴿وَكَيْفَ﴾ في موضع نصب، وفُتحت الفاءُ عند الخليل وسيبويه لالتقاء الساكنين، واخْتِير لها الفتحُ، لأنَّ ما قبل الفاء ياء، فثَقُل أن يجمعوا بين ياء وكسرة[٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ أي: يمتنع به[٨] ويتمسَّك بدينه وطاعته. ﴿فَقَدْ هُدِىَ﴾: وُفِّقَ وأُرشد ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. ابن جُريج: ﴿يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾: يؤمن به[٩].

وقيل: المعنى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ أي: يتمسَّك بحبل اللّه، وهو القرآن. يقال: أَعصم به واعتصم، وتمسَّك واستمسك: إذا امتنع به من غيره. واعتصمتُ فلاناً: هيَّأتُ له ما يَعتصِمُ به. وكلُّ متمسِّكٍ بشيءٍ مُعْصِمٌ ومُعتصِمٌ. وكل مانع شيئاً فهو

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص١١٣، وأخرجه الطبري ٥/ ٦٣٦، وابن أبي حاتم (٣٨٩٨).
(٢) في (د) و(خ) و(م): أوتي.
(٣) في (د) و(م): مكان.
(٤) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٤٨، ونقله المصنف عنه بواسطة تفسير أبي الليث ١/ ٢٨٧.
(٥) في (م): فقد أبقاه.
(٦) أخرجه الطبري ٥/ ٦٣٤، وابن أبي حاتم (٣٨٩٩).
(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٧.
(٨) لفظة (به) من (خ) و (ظ).
(٩) أخرجه الطبري ٥/ ٦٣٤، وابن أبي حاتم (٣٩٠١).

عاصم.

قال الفرزدق(١):

أنـا ابـنُ الـعـاصِـمـيـنَ بَـنِـي تَـمـيـم إذا مَـا أعْـظَـمُ الـحَـدَثـانِ نَـابَـا

وقال النابغة:

يَـظَـلُّ مـن خـوفـه الـمـلَّاحُ مُـعْـتـصِـمـاً بـالـخَـيْـزُرانـةِ بَـعْـدَ الأيْـنِ والـنَّـجَـدِ(٢)

وقال آخر:

فـأَشـرَطَ فـيـهـا نَـفْـسَـه وهـو مُـعْـصِـمٌ وألْـقَـى بـأسـبـابٍ لـه وتَـوكَّـلا(٣)

وعَصَمه الطعامُ: منعَ الجوعَ منه، تقول العرب: عَصَم فلاناً الطعامُ، أي: منعه من الجوع، فكَنَّوْا السَّوِيقَ بأبي عاصم لذلك.

قال أحمد بن يحيى: العربُ تُسمِّي الخبزَ عاصماً وجابراً، وأنشد:

فـلا تـلـومـيـنـي ولُـومِـي جـابـرا فـجـابـرٌ كـلَّـفـنـي الـهـواجِـرَا

ويُسمُّونه عامراً. وأنشد:

أبـو مـالـكٍ يـعـتـادُنِـي بـالـظَّـهـائـرِ يـجـيءُ فـيُـلـقـي رَحْـلَـهُ عـنـد عـامِـرِ

أبو مالك كنية الجوع(٤).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

فيه مسألة واحدة:

---

(١) ديوانه ص٩٩.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص٣٦ . والخيزرانة: ذنب السفينة، وهو السُّكَّان الذي تسكَّن به السفينة، والأَيْن: الإعياء. والنَّجَد: العَرَق. القاموس (خزر) (أين) (نجد).

(٣) قائله أوس بن حجر، والبيت في ديوانه ص٨٧ . وقوله: فأشرط أي: أعلم وأعدّ. مختار الصحاح (شرط).

(٤) تهذيب اللغة للأزهري ٢/ ٥٨ - ٥٩ .

رَوَى النحاس[١] عن مُرة عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أنْ يُطاعَ فلا يُعْصَى، وأَنْ يُذْكَرَ فلا يُنْسَى، وأَنْ يُشْكَرَ فلا يُكْفر»[٢].

وقال ابن عباس: هو أَلَّا يُعْصَى طَرْفَةَ عيْن[٣].

وذكر المفسرون أنه لما نَزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله، مَنْ يَقْوَى على هذا؟ وشقَّ عليهم، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾. فنسخت هذه الآيةَ، عن قَتادةَ والرَّبيع وابنِ زيد[٤].

قال مقاتل: وليس في آل عمران من المنسوخ شيءٌ إلَّا هذه الآية[٥].

وقيل: إنَّ قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ بيانٌ لهذه الآية. والمعنى: فاتَّقوا اللّهَ حَقَّ تُقاتِهِ ما اسْتَطَعْتُم[٦]، وهذا أصوب؛ لأنَّ النسخ إنما يكون عند عدم الجمع، والجمعُ ممكنٌ فهو أوْلَى.

وقد رَوَى عليُّ بنُ أبي طلحة، عن ابن عباس قال: قول اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ قال: لم تُنسخ، ولكن﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أنْ تُجاهدوا[٧] في اللّه[٨] حَقَّ جهادِه، ولا تَأْخُذْكم في اللّه لَوْمةُ لائم، وتقُوموا بالقِسط ولو على أنفسكم

---

(١) في (خ) و (ف) و (م): البخاري، وهو خطأ. والمثبت من (د) و (ظ).

(٢) هو في الناسخ والمنسوخ له (٢٩٩) موقوف على ابن مسعود، وذكر أنه أصح ما روي في تفسير هذه الآية. وأخرجه موقوفاً النسائي في الكبرى (١١٨٤٧)، وابن المبارك في الزهد ص٨ ، وعبد الرزاق في تفسيره ١/ ١٢٩ ، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٧ ، والطبري ٥/ ٦٣٧ ، والطبراني في المعجم الكبير ٩/ (٨٥٠١) و (٨٥٠٢)، والحاكم ٢/ ٢٩٤ وصححه على شرط الشيخين، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٣٨ . قال ابن كثير: إسناد صحيح موقوف.

(٣) تفسير الرازي ٨/ ١٧١ .

(٤) أخرج أقوالهم الطبري ٥/ ٦٤٢ - ٦٤٣ .

(٥) تفسير البغوي ١/ ٣٣٣ .

(٦) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤٨٣ .

(٧) في (د) و (خ) و (م): يجاهد، وفي (ظ): يجاهدوا والمثبت من الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ١٣٠ .

(٨) في (خ) و (ظ) و(م): في سبيل الله، والمثبت من (د)، وهو الموافق للناسخ والمنسوخ للنحاس.

وأبنائكم[١].

قال النحاس[٢]: وكلُّ ما ذُكِر في الآية؛ واجبٌ على المسلمين أن يستعملوه، ولا يقع فيه نسخٌ.

وقد مضى في البقرة[٣] معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟﴾ العِصمة: المَنْعَة، ومنه يقال للبَذْرَقَة: عِصْمةٌ. والبَذْرَقَةُ: الخَفَارَةُ للقافِلة، وذلك بأن يرسَلَ معها مَن يحميها ممَّن يُؤذيها. قال ابن خالويه: البَذْرَقَةُ ليست بعربية، وإنما هي كلمة فارسيَّة عرَّبتها العرب؛ يقال: بعثَ السلطانُ بَذْرَقةً مع القافلة[٤].

والحَبْل لفظ مشترك، وأصله في اللغة: السببُ الذي يُوصَل به إلى البُغية والحاجة[٥].

والحَبْلُ: حَبْلُ العاتق[٦]. والحَبْلُ: مستطيلٌ من الرمل، ومنه الحديث: واللّهِ ما تركتُ مِن حَبْلٍ إلا وقفتُ عليه، فهل لي مِن حَجٍّ[٧]؟ والحَبْلُ: الرَّسَنُ. والحَبْل:

---

(١) أخرجه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (٤٧٤)، والطبري ٥/ ٦٤٠ - ٦٤١ ، وابن أبي حاتم (٣٩١٠)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ١٣٠ .

(٢) الناسخ والمنسوخ ٢/ ١٣٠ .

(٣) ٢/ ٤١١ .

(٤) انظر اللسان (بذق).

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٦٤٣ .

(٦) حبل العاتق: عَصَب ما بين العنق والمنكب. انظر النهاية (عتق).

(٧) هو من حديث عروة بن مضرِّس؛ أخرجه أحمد (١٦٢٠٨)، والترمذي (٨٩١)، والنسائي ٥/ ٢٦٣ ، وابن ماجه (٣٠١٦)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

العهد، قال الأعشى[(١)]:

وإذا تُجَوِّزُها حِبالُ قَبيلةٍ أخذتْ مِنَ الأُخْرَى إليك حِبالَها

يريد الأمان.

والحَبْل: الداهية، قال كُثيِّر[(٢)]:

فلا تعجَلِي يا عَزُّ أنْ تَتَفهَّمِي بنُصْحٍ أتَى الواشُونَ أم بِحُبُولِ

والحِبَالة: حِبالةُ الصائد[(٣)].

وكلُّها ليس مراداً في الآية إلا الذي بمعنى العهد، عن ابن عباس[(٤)]. وقال ابن مسعود: حبلُ اللّه: القرآن[(٥)]. ورواه عليٌّ وأبو سعيد الخدريُّ عن النبيِّ ﷺ[(٦)]. وعن مجاهد وقتادة مثل ذلك[(٧)]. وأبو معاوية عن الهَجَريّ، عن أبي الأحوص، عن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ هذا القرآنَ هو حَبْلُ اللّه»[(٨)].

ورَوى بَقيُّ[(٩)] بنُ مَخْلَد، حدَّثنا يحيى بنُ عبد الحميد، حدَّثنا هُشيم، عن العوَّام ابن حَوْشب، عن الشعبيِّ، عن عبد اللّه بن مسعود: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ قال: الجماعة، رُويَ عنه وعن غيره من وجوه[(١٠)]، والمعنى كلُّه متقارب

---

(١) ديوانه ص٧٩ .

(٢) في النسخ الخطية: لبيد، والبيت في ديوان كثيّر ص٢٧٨ .

(٣) انظر مجمل اللغة ١/ ٢٦٢ .

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ١/ ٤٥٣ .

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٥/ ٦٤٦ .

(٦) حديث علي ﷺ أخرجه ابن أبي حاتم (٣٩١٤)، وهو قطعة من حديث طويل أخرجه أحمد (٧٠٤)، والترمذي (٢٩٠٦). وسلف ١/ ١٠ . وحديث أبي سعيد الخدري ﷺ أخرجه الطبري ٥/ ٦٤٦ . وأخرجه أحمد (١١١٠٤) بأطول منه.

(٧) أخرجه الطبري ٥/ ٦٤٤ - ٦٤٥ .

(٨) سلف مطولاً ١/ ١٢ .

(٩) في النسخ و(م): تقي، وهو خطأ، والخبر في التمهيد ٢١/ ٢٧٣، وعنه نقل المصنف، وأخرجه أيضاً سعيد بن منصور في تفسيره (٥٢٠)، والطبري ٥/ ٦٤٤ ، والطبراني في المعجم الكبير ٩/ (٩٠٣٣). وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٦ وقال: منقطع الإسناد.

(١٠) ذكرها ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ٢٧٣ .

مُتَدَاخل، فإنَّ اللّه تعالى يأمرُ بالألُفة، وينهَى عن الفُرْقة، فإنَّ الفُرقةَ هَلَكةٌ، والجماعةَ نجاةٌ. ورحم اللّهُ ابنَ المباركِ حيث قال:

إنَّ الجماعةَ حَبْلُ اللّهِ فاعْتَصِمُوا ... منه بعُرْوتهِ الوُثْقى لمَنْ دَانا[١]

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ يعني في دينكم كما افترقتِ اليهودُ والنصارى في أديانهم. عن ابن مسعود وغيره.

ويجوز أن يكون معناه: ولا تفرَّقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا في دين اللّه إخواناً، فيكون ذلك مَنْعاً لهم عن التقاطع والتدابر، ودلَّ عليه ما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

وليس فيه دليلٌ على تحريم الاختلاف في الفروع، فإنَّ ذلك ليس اختلافاً، إذِ الاختلافُ ما يتعذَّر معه الائتلافُ والجمعُ، وأمّا حكم مسائل الاجتهاد، فإنَّ الاختلافَ فيها سببٌ لاستخراج[٢] الفرائض ودقائق معاني الشرع، وما زالت الصحابةُ يختلفون في أحكام الحوادث، وهم مع ذلك متآلفون. وقال رسول اللّه ﷺ: «اختلافُ أُمَّتي رحمة»[٣] وإنما منع اللّهُ اختلافاً هو سببُ الفساد[٤].

رَوَى الترمذيُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول اللّه ﷺ قال: «تَفَرَّقَتِ اليهودُ على إحدَى وسَبعينَ فِرْقةً، أو اثنتينِ وسبعين فِرْقةً، والنصارى مثلَ ذلك، وتفترقُ أمتي على

---

(١) أورده ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ٢٧٥ ضمن ثلاثة أبيات.

(٢) في (م): بسبب استخراج.

(٣) لم نقف عليه مسنداً بهذا اللفظ، وقال السيوطي في الجامع الصغير (٢٨٨): ولعله خرج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا. وأورده ملّا علي القاري في الأسرار المرفوعة (١٧) وقال: زعم كثير من الأئمة أنه لا أصل له، لكن ذكره الخطابي في غريب الحديث مستطرداً، وأشعر بأن له أصلاً عنده. وأورده السخاوي في المقاصد الحسنة (٣٩) وقال: رواه البيهقي في: المدخل [١٥٢] من حديث سليمان بن أبي كريمة، عن جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «... واختلاف أصحابي لكم رحمة». ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني والديلمي في مسنده، وجويبر ضعيف جداً، والضحاك عن ابن عباس منقطع وانظر كشف الخفاء ١/ ٦٦ .

(٤) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤٨٤ .

ثلاثٍ وسبعينَ فِرْقةً». قال الترمذيُّ: هذا حديث صحيح[(١)].

وأخرجه أيضاً عن ابن عَمرو[(٢)] قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لَيأْتينَّ على أُمَّتي ما أَتَى على بني إسرائيلَ، حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ، حتى إنْ[(٣)] كانَ منهم مَنْ يأتي أُمَّهُ عَلانيةً، لكان من أُمَّتي مَنْ يصنعُ ذلك، وإنَّ بني إسرائيلَ تَفرَّقتْ ثِنتينِ[(٤)] وسَبعينَ مِلَّةً، وتَفْتَرِقُ أُمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ مِلَّةً، كلُّهم في النَّار إلَّا مِلَّةً واحدةً». قالوا: مَنْ هيَ يا رسولَ اللّه؟ قال: «مَا أنا عليهِ وأصحابي». أخرجه من حديث عبد الرحمن[(٥)] بن زياد الإفريقيِّ، عن عبدِ اللّهِ بنِ يزيدَ، عن ابن عمرو، وقال: هذا حديثٌ مُفَسَّرٌ[(٦)] غريبٌ، لا نعرفه إلَّا مِن هذا الوجه[(٧)]. قال أبو عمر: وعبد الرحمن[(٨)] الإفريقي ثِقةٌ، وَثَّقه قومُه وأثنَوا عليه، وضعَّفه آخرون[(٩)].

وأخرجه أبو داود في سننه من حديث معاوية بن أبي سفيانَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «ألَا إنَّ مَنْ قبلَكم مِنْ أهلِ الكتابِ افترقُوا على ثنتينِ[(١٠)] وسبعينَ مِلَّةً، وإنَّ هذه المِلَّة[(١١)] ستفترقُ على ثلاثٍ وسبعينَ؛ ثنتانِ وسبعونَ في النار، وواحدةٌ في الجنة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج مِنْ أُمَّتي أقوامٌ تَجارَى بهم[(١٢)] تلك الأهْواءُ كما يتجارَى

(١) سنن الترمذي (٢٦٤٠). وأخرجه أيضاً أحمد (٨٣٩٦)، وأبو داود (٤٥٩٦)، وابن ماجه (٣٩٩١).

(٢) في النسخ: عمر، وهو خطأ. والمثبت من سنن الترمذي (٢٦٤١). وانظر تحفة الأشراف ٦/ ٣٥٤.

(٣) في (م) ونسخة في (د): لو.

(٤) في (د) و (م): اثنتين.

(٥) في (م) و (د): عبدالله، وهو خطأ.

(٦) في (د) و (م): حسن، وفي (خ): حسن مفسر.

(٧) سنن الترمذي (٢٦٤١). وأخرجه أيضاً اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٤٧).

(٨) في (د) و (م): عبدالله، وهو خطأ، وسقط من (ظ).

(٩) قال الذهبي في الميزان ٢/ ٥٦٢ : وكان البخاري يقوي أمره، وقال يحيى: ليس به بأس وقد ضعِّف، وقال أحمد: ليس بشيء نحن لا نروي عنه شيئاً، وقال النسائي: ضعيف، وقال الدارقطني: ليس بالقوي، وقال ابن حبان فأسرف: يروي الموضوعات عن الأثبات.

(١٠) في (د): اثنين، وفي (م): اثنتين.

(١١) ليست في (د)، وفي (ظ) و (خ): الأمة.

(١٢) في النسخ الخطية: بينهم، والمثبت من (م) وهو الموافق لسنن أبي داود.

الكَلَبُ بصاحبه، لا يَبْقَى منه عِرْقٌ ولا مِفصَلٌ إلا دخله»(١).

وفي سنن ابنِ ماجه: عن أنسِ بنِ مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ: «مَنْ فَارقَ الدُّنيا على الإخلاصِ للهِ وحدَه، وعبادتِه لا شريكَ له، وإقام الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، ماتَ واللّهُ عنه راضٍ». قال أنس: وهو دِينُ اللّهِ الذي جاءتْ به الرسلُ، وبلَّغوهُ عن ربهم قَبْلَ هرجِ الأحاديثِ، واختلافِ الأهْوَاء، وتصديقُ ذلك في كتاب اللّه في آخر ما نَزَل، يقولُ اللّهُ: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ قال: خلعوا الأوثانَ وعبادتَها ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: ٥]، وقال في آيةٍ أُخرى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]. أخرجه عن نَصْر بن عليٍّ الجَهْضَمِيِّ، عن أبي أحمد، عن أبي جعفرٍ الرازيِّ، عن الربيعِ بن أنس، عن أنس(٢).

قال أبو الفرج الجَوْزيُّ(٣): فإن قيل: [هل] هذه الفِرَقُ معروفة؟ فالجواب: أنَّا نعرف الافتراقَ وأصولَ الفِرَق، وأنَّ كلَّ طائفة من الفِرَق انقسمت إلى فِرَق، وإنْ لم نُحِطْ بأسماءِ تلك الفِرَق ومذاهبِها، فقد ظهر لنا من أصول الفِرَق: الحَرُورِيَّة، والقَدَرِيَّة، والجَهْمِيَّة، والمُرْجِئة، والرَّافِضَة، والجَبْرِيَّة.

وقال بعضُ أهلِ العلم: أصلُ الفِرقِ الضَّالَّةِ هذه الفِرَقُ السِّتُّ، وقد انقسمتْ كلُّ فِرْقةٍ منها [على] اثنتي عَشْرةَ فِرْقة، فصارتِ اثنتينِ وسبعينَ فِرْقة.

انقسمت الحَرُورِيَّةُ(٤) اثنتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً:

---

(١) سنن أبي داود (٤٥٩٦)، وهو في مسند أحمد (١٦٩٣٧) قوله: تَجارى بهم تلك الأهواء... أي: يتواقعون في الأهواء الفاسدة، ويتداعون فيها، تشبيهاً بجري الفرس، والكَلَب ـ بالتحريك ـ داء يعرض للكلب فمن عضّه قتله. النهاية (جرى)..

(٢) سنن ابن ماجه (٧٠). وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٣١ - ٣٣٢ وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٥٦) قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢٤): هذا إسناد ضعيف، الربيع بن أنس ضعيف هنا.

(٣) في تلبيس إبليس ص٢٠ وما بعدها، وما بين حاصرتين منه.

(٤) الحرورية: هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ حين جرى أمر المحكّمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، ورأسهم عبدالله بن الكوَّاء، وعتّاب بن الأعور، وعبدالله بن وهب الراسبي، وعروة ابن جرير، ويزيد بن أبي عاصم المحاربي، وحُرْقُوص بن زهير البجلي المعروف بذي الثُّدَيَّة. الملل والنحل ١/ ١١٥ .

فأوَّلهم الأزْرقِيَّة[١]: قالوا: لا نعلمُ أحداً مؤمناً، وكفَّروا أهلَ القِبْلة إلَّا مَنْ دانَ بقولهم.

والإباضيَّة[٢]: قالوا: مَنْ أخذَ بقولنا فهو مؤمن، ومَنْ أعرضَ عنه فهو منافق.

والثعلبيَّة[٣]: قالوا: إنَّ اللّه عزَّ وجلَّ لم يقضِ ولم يُقَدِّر.

والحازِمِيَّة[٤]: قالوا: لا ندري ما الإيمانُ، والخلقُ كلُّهم معذورون.

والخَلَفِية[٥]: زعموا أنَّ مَنْ تركَ الجهادَ مِنْ ذَكَر أو أنثى كَفَرَ.

والمَكْرَميَّة[٦]: قالوا: ليس لأحدٍ أنْ يَمسَّ أحداً لأنه لا يعرفُ الطاهر من النَّجِس، ولا أنْ يؤاكلَه حتى يتوبَ ويغتسلَ.

والكَنْزيَّة: قالوا: لا يَسَعُ أحداً[٧] أنْ يُعطيَ مالَه أحداً؛ لأنه ربَّما لم يكن مستحقّاً، بل يَكْنِزُه في الأرض حتى يظهرَ أهلُ الحقِّ.

والشمراخِيَّة[٨]: قالوا: لا بأسَ بمسِّ النساء الأجانب، لأنهنَّ رَياحين.

---

(١) الأزرقيَّة: أصحاب أبي راشد نافع بن الأزرق، خرج في أواخر دولة يزيد بن معاوية، إلى أن كان قتلُه في جمادى الآخرة سنة (٦٥هـ)، له أسئلة عن ابن عباس مجموعة في جزء. لسان الميزان ٨/ ٢٤٧، والملل والنحل ١/ ١١٨.

(٢) الإباضيَّة: أصحاب عبدالله بن إباض. قال الزركلي في الأعلام ٤/ ٦١: اضطرب المؤرخون في سيرته وتاريخ وفاته، وكان معاصراً لمعاوية، وعاش إلى أواخر أيام عبد الملك بن مروان.

(٣) الثعلبيَّة: ويقال: الثعالبة، وهم أصحاب ثعلبة بن عامر، وقيل: ثعلبة بن مشكان. انظر الملل والنحل ١/ ١٣١، والفرق بين الفرق ص٨٠.

(٤) الحازميَّة: أصحاب حازم بن علي. الملل ١/ ١٣١. وفي (د) و (ظ) و (م): الخازميَّة. وكذا في مقالات الإسلاميين ص١٧٩ ولم ينسبها. والمثبت من (خ) وتلبيس إبليس.

(٥) الخَلَفيَّة: أصحاب خَلَف الخارجي، وهم من خوارج كرمان ومكران. الملل والنحل ١/ ١٣٠، والفرق بين الفرق ص٧٥.

(٦) في (خ) و (د) و (م): الكوزية. وفي (ظ): الكروية. والمثبت من تلبيس إبليس ص٢١. والمَكْرَميَّة: أصحاب مَكْرَم بن عبدالله العجلي. الملل والنحل ١/ ١٣٣.

(٧) في تلبيس إبليس ص٢٢: لا ينبغي لأحد.

(٨) الشمراخيَّة: نسبة إلى عبدالله بن شمراخ. مقالات الإسلاميين ص١٩٨.

والأخْنَسيَّة[١]: قالوا: لا يلحقُ الميتَ بعد موته خيرٌ ولا شرٌ.

والحكميَّة[٢]: قالوا: مَنْ حَاكَمَ إلى مخلوقٍ فهو كافرٌ. والمعتزلة [من الحرورية]: قالوا: اشتبهَ علينا أمرُ عليٍّ ومعاوية، فنحن نتبرَّأُ من الفريقين.

والميمونية[٣]: قالوا: لا إمامَ إلا برضا أهلِ محبَّتنا.

وانقسمت القَدَرِيَّة اثنتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً:

الأحمرية: وهي التي زعمت أنَّ في شرط العَدلِ منَ اللّه أنْ يُملّكَ عبادَه أمورَهم، ويحولَ بينهم وبين معاصيهم.

والثَّنَويَّة: وهي التي زعمت أنَّ الخيرَ منَ اللّه، والشرَّ منَ الشيطان.

والمعتزلة[٤]: وهم الذين قالوا بخلقِ القرآن وجحدوا صفاتِ الرُّبوبيَّة.

والكَيْسانية[٥]: وهم الذين قالوا: لا ندري هذه الأفعال منَ اللّهِ أو منَ العباد، ولا نعلمُ أيثابُ الناسُ بعد [الموت] أو يعاقبون.

والشيطانيَّة[٦]: قالوا: إنَّ اللّهَ تعالى لم يخلقِ الشيطانَ.

---

(١) الأخنسية: أصحاب أخنس بن قيس. الملل والنحل ١/ ١٣٢، ومقالات الإسلاميين ص٩٨، والفرق بين الفرق ص٨١.

(٢) في تلبيس إبليس: المحكّمية.

(٣) الميمونية: أصحاب ميمون بن خالد، وهو رجل من أهل بلخ. الملل والنحل ١/ ١٢٩ ، ومقالات الإسلاميين ص٩٥ .

(٤) المعتزلة: ويقال لهم: الواصلية، والقدرية والعدلية. وهم أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزّال، مولده سنة ثمانين بالمدينة، وكان تلميذ الحسن البصري، وطرده عن مجلسه لما قال: الفاسق لا مؤمن ولا كافر، فانضم إليه عمرو بن عبيد، واعتزلا حلقة الحسن، فسموا المعتزلة. مات سنة إحدى وثلاثين ومئة. انظر سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٦٤ ، والملل والنحل ١/ ٤٣ و ٤٦ .

(٥) هم أتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي، الذي قام بثأر الحسين بن علي، وقتل أكثر الذين قتلوا حسيناً بكربلاء، وكان المختار يقال له كيسان، وقيل: إنه أخذ مقالته عن مولى لعلي ﷺ اسمه كيسان، قتل سنة (٦٧ هـ). الفرق بين الفرق ص٢٧ . والملل والنحل ١/ ١٤٧، ومقالات الإسلاميين ص١٨ ، والأعلام ٧/ ١٩٢ .

(٦) الشيطانية: ويقال لهم: النعمانية، وهم أتباع محمد بن النعمان الرافضي أبي جعفر الأحول الملقب بشيطان الطاق. والشيعة تقول: هو مؤمن الطاق. وهو تلميذ الباقر محمد بن علي بن الحسين. انظر الملل ١/ ١٨٦ .

والشَّريكيَّة: قالوا: إنَّ السيئاتِ كلَّها مقدَّرَةٌ إلَّا الكفر.

والوَهْمِيَّة: قالوا: ليس لأفعالِ الخلقِ وكلامهم ذاتٌ، ولا للحسنةِ والسيئةِ ذاتٌ.

والرَّاوندية[١]: قالوا: كلُّ كتابٍ نزلَ من عندِ اللّه فالعملُ به حقٌّ، ناسخاً كانَ أو منسوخاً.

والبُتْرِيَّة[٢]: زعموا أنَّ مَنْ عصى ثم تابَ، لم تقبلْ توبتُه.

والناكِثيَّة: زعموا أنَّ مَنْ نَكَثَ بيعةَ رسولِ اللّه ﷺ فلا إثمَ عليه.

والقاسِطيَّة: [فضّلوا طلب الدنيا على الزهد فيها.

والنَّظَّاميّة[٣]]: تبعوا إبراهيمَ بن النَّظَّام في قوله: مَنْ زعمَ أنَّ اللّه شيءٌ فهو كافرٌ.

وانقسمت الجَهْميَّة[٤] اثنتَي عَشْرَةَ فرقةً:

المعطِّلة: زعموا أنَّ كلَّ ما يقع عليه وهمُ الإنسان فهو مخلوقٌ، وأنَّ من ادَّعى أنَّ اللّه يُرى فهو كافرٌ.

والمَرِيسيَّة[٥]، قالوا: أكثرُ صفاتِ اللّه تعالى مخلوقةٌ.

---

(١) في (د) و (م): الزبرية. وفي (ظ) و (خ): الزبوندية. والمثبت من تلبيس إبليس ص٢٢ . والراوندية نسبة إلى أحمد بن يحيى أبي الحسين بن الراوندي، كان من متكلمي المعتزلة، ثم تزندق، واشتهر بالإلحاد. لسان الميزان ١/ ٣٢٣ - ٣٢٤ ، الأعلام ١/ ٢٦٧ .

(٢) في (خ) و (ظ): المنبرية. وفي (م): المسعدية. والمثبت من تلبيس إبليس ص٢٢ . والبُتْرِية: أصحاب الحسن بن صالح بن حيّ، وأصحاب كثير النوَّاء الملقب بالأبتر. وهي فرقة من الزيدية. انظر مقالات الإسلاميين ١/ ١٤٤ ، والفرق بين الفرق ص٢٤ .

(٣) ما بين حاصرتين من تلبيس إبليس ص٢٢ . والنَّظَّامية: أتباع أبي إسحاق إبراهيم بن سيَّار المعروف بالنَّظَّام، والمعتزلة يوهمون أنه كان نظَّاماً للكلام المنثور والشعر الموزون، وإنما كان ينظم الخرز في سوق البصرة، ولأجل ذلك قيل له: النَّظّام.. وأكثر المعتزلة متفقون على تكفير النَّظَّام، وإنما تبعه في ضلالته شرذمة من القدرية. له تصانيف جمّة، ورد أنه سقط من غرفة وهو سكران، فمات سنة بضع وعشرين ومئتين. الفرق بين الفرق ص١١٣، و السير ١٠/ ٥٤١ .

(٤) الجَهْمية: أصحاب جَهْم بن صفوان، أبو محرز الراسبي مولاهم، السمرقندي، أسُّ الضلالة، كان صاحب ذكاء وجدال، قتل سنة (١٢٨هـ). الملل والنحل ص٨٦ ، والسير ٦/ ٢٦ .

(٥) المريسية: هم أتباع بشر بن غياث المَريسي، أبو عبد الرحمن، كان من كبار الفقهاء، وجرّد القول بخلق القرآن ودعا إليه، مات آخر سنة (٢١٨ هـ). السير ١٠/ ١٩٩ ، والفرق بين الفرق ص١٩٢ .

والملتزقة[١]: جعلوا الباري سبحانه في كل مكان.

والوَارِدِيَّة: قالوا: لا يدخلُ النارَ مَنْ عَرف ربَّه، ومَنْ دخلَها لم يخرجْ منها أبداً.

والزنَادِقَة[٢]: قالوا: ليس لأحدٍ أنْ يُثبتَ لنفسه ربّاً، لأنَّ الإثباتَ لا يكون إلا بعد إدراكِ الحواس، [وما يُدرك فليس بإله][٣] وما لا يُدرَك لا يثبت.

والحَرْقيَّة: زعموا أنَ الكافرَ تَحرقُه النارُ مرَّةً واحدةً، ثم يَبْقَى محترقاً أبداً لا يجدُ حرَّ النار.

والمخْلُوقية: زعموا أنَّ القرآنَ مخلوقٌ.

والفانيّة: زعموا أنَّ الجنَّةَ والنارَ يفنيان، ومنهم مَنْ قال: لم يُخلقا.

والمغيريَّة[٤]: جحدوا الرسلَ، وقالوا: إنما هم حكماء. والواقفيَّة، قالوا: لا نقول إنَّ القرآن مخلوقٌ ولا غيرَ مخلوق.

والقَبْريَّة: يُنكرون عذابَ القبرِ والشفاعةَ.

واللفْظيَّة: قالوا: لَفْظُنا بالقرآن مخلوقٌ.

وانقسمتِ المُرْجِئةُ اثنتَيْ عَشْرةَ فِرْقة:

التَّارِكِيَّة: قالوا: ليس للهِ عزَّ وجلَّ على خلقه فريضةٌ سِوى الإيمان به، فمَنْ آمنَ به فليفعل ما شاء.

والسَّائبِيَّة: قالوا: إنَّ اللّه تعالى سيَّبَ خلقَه ليفعلوا ما شاؤوا.

والراجِيَّة: قالوا: لا يُسمَّى الطائعُ طائعاً ولا العاصي عاصياً، لأنّا لا ندري مآله عند اللّه تعالى.

---

(١) في تلبيس إبليس: الملتزمة.

(٢) في (ظ): الزبارقة.

(٣) ما بين حاصرتين من تلبيس إبليس ص٢٣ .

(٤) في (د) و (م): العبدية. وفي (ظ): العمرية، وفي (خ): العيرية. والمثبت من تلبيس إبليس. والمغيرية: أصحاب المغيرة بن سعيد العجلي، أبو عبدالله الكوفي الكذاب، قال الجوزجاني: قُتل على ادعاء النبوة في حدود (١٢٠ هـ). لسان الميزان ٨/ ١٢٩ ، والملل والنحل ١/ ١٧٦ .

والشَّاكِيّة[١]: قالوا: الطاعةُ ليست منَ الإيمان.

والبيْهسية[٢]: قالوا: الإيمانُ عِلْمٌ، ومَنْ لا يعلمُ الحقَّ منَ الباطل، والحلالَ منَ الحرام، فهو كافرٌ.

والعَمَلِيَّة: قالوا: الإيمان عَملٌ.

والمَنْقُوصِيَّة: قالوا: الإيمانُ لا يزيدُ ولا ينقصُ.

والمسْتَثْنِيَّة: قالوا: الاستثناء منَ الإيمان.

والمشبِّهة: قالوا: بَصَرٌ كبصرٍ، ويَدٌ كيدٍ[٣].

والحَشَوِيّة: قالوا: حكم الأحاديث كلِّها واحدٌ، فعندهم أنَّ تاركَ النفل كتارك الفرض.

والظاهِرِيّة: الذين نفوا القياس.

والبِدْعيَّة: أوَّلُ منِ ابتدعَ الأحداثَ في هذه الأمّة.

وانقسمت الرافضةُ اثنتي عشرة فرقة:

العَلَويَّة: قالوا: إنَّ الرسالةَ كانت إلى عليٍّ، وإنَّ جبريلَ أخطأَ.

والأمْرِيَّة: قالوا: إنَّ علياً شريكُ محمدٍ في أمره.

والشِّيعة: قالوا: إنَّ علياً ﷺ وصِيُّ رسولِ اللّه ﷺ، ووَليُّه من بعده، وإنَّ الأُمَّة كفرتْ بمبايعةِ غيرِه.

والإسحاقيَّة[٤] قالوا: إنَّ النبوَّة متصلةٌ إلى يوم القيامة، وكلُّ مَنْ يعلمُ علمَ أهلِ

---

(١) في (د) و (م): السالبية. والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لكتاب تلبيس إبليس، والكلام منه.

(٢) في (د) و (م): البهيشية. وفي (ظ). السمتية. والمثبت موافق لكتاب تلبيس إبليس. والبيهسية: أصحاب أبي بَيْهس الهيصم بن جابر، أحد بني سعد بن ضبيعة، طلبه الحجاج أيام الوليد، فهرب إلى المدينة. الملل ١/ ١٢٥، والأعلام ٨/ ١٠٥.

(٣) في تلبيس إبليس ص٢٣: يقولون: لله بصرٌ كبصري، ويَدٌ كَيَدي.

(٤) الإسحاقية: نسبة إلى إسحاق بن محمد النخعي الأحمر، كذاب مارق من الغلاة، وكان خبيث المذهب، يقول: إن علياً هو الله، مات سنة (٢٨٦هـ). تاريخ بغداد ٣/ ٢٩٠، وتلبيس إبليس ص٩٤، ولسان الميزان ٢/ ٧١.

البيت فهو نبيٌّ.

والناوُوسيّة[١]: قالوا: عليٌّ أفضلُ الأمة، فمَنْ فضَّلَ غيرَه عليه فقد كَفرَ.

والإماميَّة: قالوا: لا يمكنُ أنْ تكونَ الدنيا بغير إمامٍ من وَلَدِ الحسين، وإنَّ الإمامَ يُعَلِّمُه جبريلُ عليه السلام، فإذا ماتَ بدّل غيره مكانه.

والزيدِيّة[٢]: قالوا: وَلَدُ الحسين كلُّهم أئمةٌ في الصلوات، فمتى وُجد منهم أحدٌ لم تَجُزِ الصلاةُ خلفَ غيرهم، بَرِّهم وفاجرِهم.

والعبَّاسيَّة: زعموا أنَّ العبَّاسَ كان أولى بالخلافة من غيره.

والتناسخية: قالوا: الأرواحُ تتناسخ، فمَنْ كان مُحسناً خرجتْ روحُه، فدخلت في خلق يسعد بعيشه.

والرَّجعية: زعموا أنَّ علياً وأصحابَه يرجعون إلى الدنيا، وينتقمون من أعدائهم.

واللاعِنَة: يلعنون عثمان وطلحة والزُّبير ومعاويةَ وأبا موسى وعائشةَ وغيرَهم.

والمتربِّصة: تشبَّهوا بزيِّ النُّساك، ونصبوا في كل عَصْرٍ رجلاً ينسُبون إليه الأمر، ويزعمون أنه مَهْدِيُّ هذه الأُمة، فإذا ماتَ نصبوا آخر.

ثم انقسمت الجَبْريَّة اثنتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً، فمنهم:

المضطرية[٣]: قالوا: لا فعلَ للآدميِّ، بل اللّهُ يفعل الكُلَّ.

والأفعالية: قالوا: لنا أفعالٌ، ولكن لا استطاعة لنا فيها، وإنما نحن كالبهائم نُقاد بالحبل.

والمفروغيَّة: قالوا: كلُّ الأشياء قد خُلقت، والآن لا يُخلقُ شيءٌ.

---

(١) الناوسية: أتباع رجل يقال له: ناوس. وقيل: نسبوا إلى قرية ناووسا، وقيل: إلى رجل من أهل البصرة يقال له: عجلان بن ناوس. الملل والنحل ١٦٦/١، ومقالات الإسلاميين ص٢٥.

(٢) الزيدية: أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسين الهاشمي العلوي المدني، أخو أبي جعفر الباقر، كان ذا علم وجلالة وصلاح، استشهد سنة (١٢٢ هـ). السير ٣٨٩/٥، والملل والنحل ١٥٤/١.

(٣) في (د) وتلبيس إبليس ص٢٤: المضطربة.

والنجاريّة[١]: زعمتْ أنَّ اللّه تعالى يُعذِّب الناسَ على فِعْلِه، لا على فِعْلِهم.

والمنّانِيَّة: قالوا: عليك بما يخطر بقلبك، فافْعَلْ ما توسَّمتَ منه الخيرَ.

والكَسْبية: قالوا: لا يكتسبُ العبدُ ثواباً ولا عقاباً.

والسَّابقية: قالوا: مَنْ شاءَ فليعملْ، ومَنْ شاءَ لا[٢] يعمل، فإنَّ السعيدَ لا تضرُّه ذنوبُه، والشَّقيَّ لا ينفعُه بِرُّه.

والحِبِّيَّة: قالوا: مَنْ شربَ كأسَ محبَّةِ اللّه تعالى سقطتْ عنه عبادةُ الأركان.

والخَوْفيّة: قالوا: مَنْ أحبَّ اللّه تعالى لم يسعْهُ أنْ يخافَه، لأنَّ الحبيبَ لا يَخافُ حبيبه.

والفكريَّة[٣]: قالوا: مَنِ ازدادَ عِلماً أُسقطَ عنه بقدر ذلك منَ العبادة.

والخشبية[٤]: قالوا: الدُّنيا بين العبادِ سواءٌ، لا تفاضُلَ بينهم فيما ورَّثَهم أبوهم آدمُ.

والمنِّيَّة: قالوا: مِنَّا الفعل، ولنا الاستطاعةُ.

وسيأتي بيانُ الفِرقة التي زادت في هذه الأمة في آخر سورة الأنعام[٥] إن شاء اللّهُ تعالى.

وقال ابن عباس لِسِمَاك الحنفيّ[٦]: يا حنفيّ، الجماعةَ الجماعةَ، فإنَّما هلكتِ الأممُ الخاليةُ لتفرُّقها؛ أما سمعتَ اللّه عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾.

---

(١) النجارية: أصحاب الحسين بن محمد النجار، أحد كبار المتكلمين، له مناظرة مع النظام، وله مصنفات. السير ١٠/ ٥٥٤، والملل والنحل ١/ ٨٨.

(٢) في النسخ الخطية: لم. والمثبت من تلبيس إبليس ص٢٤ والكلام منه.

(٣) في (د): الفركية.

(٤) في تلبيس إبليس: الخسية. وقال ابن الأثير في النهاية (خشب): هم أصحاب المختار بن أبي عبيد، ويقال لضرب من الشيعة الخشبية، قيل: لأنهم حفظوا خشبة زيد بن علي حين صلب، والوجهُ الأول.

(٥) في تفسير الآية (١٥٣) منها.

(٦) هو سماك بن الوليد المحدِّث أبو زُميل الحنفي اليمامي، نزيل الكوفة. سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٤٩.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرةَ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ اللّهَ يَرْضَى لكم ثلاثاً، ويَكْرهُ لكم ثلاثاً: يَرْضَى لكم أنْ تَعبدُوه ولا تُشركوا به شيئاً، وأنْ تَعتصموا بحبلِ اللّهِ جميعاً ولا تفرقوا، ويَكْرَهُ لكم ثلاثاً: قيلَ وقالَ، وكثرةَ السؤال، وإضاعةَ المال»[١].

فأوجبَ تعالى علينا التمسُّكَ بكتابه وسنةِ نبيِّه، والرجوعَ إليهما عند الاختلاف، وأمرَنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسُّنة اعتقاداً وعملاً، وذلك سببُ اتفاقِ الكلمة، وانتظامِ الشَّتاتِ الذي يتمُّ به مصالحُ الدنيا والدِّين، والسلامة من الاختلاف، وأمرَ بالاجتماع، ونَهَى عن الافتراق الذي حصل لأهل الكتابين.

هذا معنى الآية على التمام، وفيها دليلٌ على صحَّةِ الإجماع حسبما هو مذكورٌ في موضعه من أصول الفقه، واللّه أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾.

أمر تعالى بتذكُّر نِعَمِه، وأعظمُها الإسلامُ واتِّباعُ نبيِّهِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام؛ فإنَّ به زالتِ العداوةُ والفُرْقةُ، وكانتِ المحبَّةُ والأُلفة. والمرادُ الأوْسُ والخزرج؛ والآيةُ تَعمُّ.

ومعنى ﴿فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ أي: صِرْتُم بنعمة الإسلام إخواناً في الدِّين. وكلُّ ما في القرآن «أصبحتم» معناه: صِرْتُم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا﴾ [الملك: ٣٠] أي: صار غائراً[٢].

والإخوان جمعُ أَخٍ، وسُمِّيَ أخاً لأنه يتوخَّى مذهبَ أخيه، أي: يقصده.

وشَفا كلِّ شيءٍ: حَرْفُهُ، وكذلك شفيرُه، ومنه قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ﴾[٣] [التوبة: ١٠٩].

---

(١) صحيح مسلم (١٧١٥)، وهو في مسند أحمد (٨٣٣٤).

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٢٨٨ .

(٣) انظر الصحاح (شفا).

قال الراجز:

نحنُ حَفَرْنا للحجيجِ سَجْلَهْ نابتةٌ فوق شِفاها بَقْلَهْ[(١)]

وأشْفَى على الشيء: أشرفَ عليه، ومنه: أشفى المريضُ على الموت. وما بقي منه إلا شَفاً؛ أي: قليل. قال ابنُ السِّكِّيت[(٢)]: يقال للرجلِ عند موته، وللقمرِ عند امِّحاقِه، وللشمسِ عند غروبها: ما بقي منه إلا شَفاً، أي: قليل. قال العجّاج[(٣)]:

ومَرْبَأٍ عالٍ لمن تَشَرَّفا أَشْرَفْتُه بلا شَفاً أو بِشَفَا

قوله: «بلا شَفاً» أي: غابت الشمسُ. «أو بشَفا»: أو: قد بقيتْ منها بقيَّةٌ[(٤)]. وهو من ذَوات الياء، وفيه لغةٌ أنه من ذوات الواو.

وقال النحاس[(٥)]: الأصلُ في شَفا: شَفَوَ، ولهذا يُكتب بالألف، ولا يُمال.

وقال الأخفش[(٦)]: لمَّا لم تَجُزْ فيه الإمالةُ؛ عُرِف أنه من الواو؛ ولأن الإمالةَ من[(٧)] الياء، وتثنيتُه شَفَوان.

قال المَهْدَويُّ: وهذا تمثيلٌ يُراد به خروجُهم من الكفر إلى الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾

قد مضَى القولُ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه السورة[(٨)]. و«مِن»

---

(١) الرجز في تفسير الطبري ٥/ ٦٥٧ دون نسبة. وأخرج نحوه الفاكهي في أخبار مكة (٢٤٤٧) من قول خالدة بنت هاشم، وأورده ياقوت في معجم البلدان بلفظ:

نحن وهبنا لعديٍّ سَجْلَهْ تروي الحجيج زُغْلَةً فزُغْلَهْ

وقال: السَّجل الدلو إذا كان فيه ماء، قلَّ أو كثر.. والسَّجْلَة: بئر حفرها هاشم بن عبد مناف، فوهبها أسد بن هاشم لعدي بن نوفل، ولم يكن لأسد بن هاشم عقب. وقيل: حفرها قصيّ.

(٢) إصلاح المنطق ص٤٥٢، ونقله المصنف عنه بواسطة الصحاح (شفا).

(٣) ديوانه ص٤٢٤ .

(٤) الصحاح (شفا). وما قبله منه ووقع في (خ): أي: وقد، وفي (م): وقد.

(٥) في إعراب القرآن ١/ ٣٩٨ .

(٦) معاني القرآن ١/ ٤١٦ . ونقله المصنف عنه بواسطة الصحاح (شفا).

(٧) في (د) و (م): بين.

(٨) ص٧٣ من هذا الجزء.

في قوله: «مِنكم» للتبعيض، ومعناه أن الآمِرين يجب أن يكونوا علماء، وليس كلُّ الناسِ علماء. وقيل: لبيان الجنس، والمعنى: لتكونوا كلكم كذلك.

قلت: القولُ الأوَّل أصحُّ؛ فإنه يدلُّ على أنَّ الأمرَ بالمعروف والنهْيَ عن المنكر فرضٌ على الكفاية، وقد عيَّنهم اللّهُ تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية [الحج: ٤١]. وليس كل الناس مُكِّنُوا. وقرأ ابنُ الزبير: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيَستَعينونَ اللَّه على ما أصابهم»[١]. قال أبو بكر الأنباريّ: وهذه الزيادة تفسيرٌ من ابنِ الزبير، وكلامٌ من كلامه، غَلِطَ فيه بعضُ الناقلين، فألحقَه بألفاظ القرآن؛ يدلّ على صحة ما أصِفُ الحديثُ الذي حدَّثنيه أبي، حدَّثنا حسنُ بنُ عَرَفة، حدَّثنا وكيع، عن أبي عاصم، عن أبي عَوْن، عن صَبيح قال: سمعت عثمانَ بنَ عفَّان يقرأ: «ويأمرون بِالمعروفِ وَيَنْهَوْنَ عن المنكرِ ويستعينون اللَّه على ما أصابهم»[٢] فما يشكُّ عاقلٌ في أنَّ عثمانَ لا يعتقد هذه الزيادةَ منَ القرآن؛ إذْ لم يكتبْها في مصحفه الذي هو إمامُ المسلمين، وإنما ذَكَرها واعظاً بها، ومؤكِّداً ما تقدَّمها من كلام ربِّ العالمين جلَّ وعَلا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾

يعني اليهود والنصارى في قول جمهور المفسرين. وقال بعضهم: هم المبتدِعةُ من هذه الأُمة. وقال أبو أمامة: هم الحَرُورِيَّة، وتلا الآية[٣].

وقال جابرُ بنُ عبد اللّه: ﴿كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ﴾ اليهود والنصارَى. «جاءهم» مذكر على الجمع، وجاءتهم على الجماعة[٤].

---

(١) أخرج هذه القراءة الشاذة سعيد بن منصور في تفسيره (٥٢١)، والطبري ٥/ ٦٦١ ، وابن أبي داود في المصاحف (٢٢٧)، وعبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف كما في الدر المنثور ٢/ ٦١ .

(٢) هو عند أبي بكر الأنباري في المصاحف كما في الدر المنثور ٢/ ٦٣ . وأخرجه أيضاً الطبري ٥/ ٦٦١ ، وابن أبي داود في المصاحف (١٢٨). وأورده ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٤/ ٤٤٩ .

(٣) سيرد في تفسير الآية التالية.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٩ .

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعني يومَ القيامة حين يُبعثون من قبورهم، تكون وجوهُ المؤمنين مبيضَّةً، ووجُوه الكافرين مُسْوَدَّةً.

ويقال: إنَّ ذلك عند قراءةِ الكتاب، إذا قرأ المؤمنُ كتابَه، فرأى في كتابه حسناتِه، استبشر وابيَضَّ وجهُه، وإذا قرأ الكافرُ والمنافقُ كتابَه، فرأى فيه سيئاتِه، اسودَّ وجهُه.

ويقال: إنَّ ذلك عند الميزان، إذا رجحتْ حسناتُه ابيضَّ وجهُه، وإذا رجحتْ سيئاتُه اسودَّ وجهُه.

ويقال: ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].

ويقال: إذا كان يوم القيامة يُؤْمرُ كلُّ فريقٍ بأن يجتمعَ إلى معبودِه، فإذا انتهَوا إليه حزِنوا واسودَّتْ وجوهُهم، فيبقَى المؤمنون وأهلُ الكتاب والمنافقون، فيقول اللّهُ تعالى للمؤمنين: «مَنْ ربُّكم»؟ فيقولون: ربُّنا اللّهُ عزَّ وجلَّ. فيقول لهم: «أتعرفونه إذا رأيتموه»؟. فيقولون: سبحانه، إذا عَرَّفَنا[١] عَرَفْناه. فيرونه كما شاء اللّهُ. فيَخِرُّ المؤمنون سُجَّداً لله تعالى، فتصير وجوهُهم مثلَ الثلج بياضاً، ويبقَى المنافقون وأهلُ الكتابِ لا يقدرون على السجود، فيحزنوا[٢] وتسودُّ وجوهُهم، وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

ويجوز: «تِبْيَضُّ وتِسْوَدُّ» بكسر التائين، لأنك تقول: ابيضَّتْ، فتكسر التاءَ كما

---

(١) في (ظ): عرَّفنا به. وفي (خ): عرَّفناه. وفي (م): اعترف. والمثبت من (د) وهو الموافق لتفسير أبي الليث ١/ ٢٩٠ (١/ لوحة ١٣٧) والأقوال منه. وأورده ابن الأثير في النهاية (عرف) بلفظ: (إذا اعترف لنا عرفناه) وقال: أي إذا وصف نفسه بصفة نحققه بها عَرَفْناه.

(٢) كذا في النسخ، غير (خ)، ففيها: فحزنوا.

تكسر الألف[١]، وهي لغةُ تميم، وبها قرأ يحيى بنُ وثاب[٢].

وقرأ الزهريُّ: «يوم تَبياضُّ وتسوادُّ»[٣]. ويجوز كسرُ التاءِ أيضاً[٤]، ويجوز: «يوم يَبْيَضُّ وجوه» بالياء على تذكير الجمع، ويجوز: «أُجوه»، مثل: «أُقِّتت»[٥].

وابْيِضَاضُ الوجوه: إشراقُها بالنَّعيم. واسْوِدادُها: هو ما يُرهِقُها منَ العذابِ الأليم.

الثانية: واختلفوا في التعيين، فقال ابن عباس: تبيضُّ وجوهُ أهلِ السُّنَّة، وتسودُّ وجوهُ أهلِ البِدْعة[٦].

قلت: وقولُ ابنِ عباس هذا رواه مالك بنُ سليمان الهرويُّ أخو غسَّان، عن مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه ﷺ في قول اللّه تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال: «يعني تبيضُّ وجوهُ أهلِ السُّنَّة، وتسودُّ وجوهُ أهلِ البِدعة». ذكره أبو بكر أحمدُ بن عليِّ بنِ ثابت الخطيب. وقال فيه: منكر من حديث مالك[٧].

قال عطاء: تبيضُّ وجوهُ المهاجرين والأنصار، وتسودُّ وجوهُ بني قريظة والنضِير[٨].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٩.

(٢) ذكر النحاس ١/ ٣٩٩، والزمخشري في الكشاف ١/ ٤٥٣ هذه القراءة دون نسبة. ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٤٣٥ لأبي رزين العقيلي، وأبي عمران الجويني، وأبي نهيك.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٧. وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٢.

(٤) قال أبو حيان في البحر المحيط ٢/ ٢٢: ولم ينقل أنه قرئ بذلك.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٩. وما قبله منه.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٩٥٠)، واللالكائي في الاعتقاد (٧٤)، والسهمي في تاريخ جرجان ص١٣٢، والخطيب في تاريخ بغداد ٧/ ٣٧٩.

(٧) الحديث من رواية أبي نصر أحمد بن عبدالله بن فلان الأنصاري، عن الفضل بن عبدالله، عن مالك بن سليمان الهروي، به. قال الدارقطني: هذا موضوع، والحمل فيه على أبي نصر الأنصاري، والفضل ضعيف. لسان الميزان ١/ ٢٠٢. وأورده السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٦٣ ونسبه أيضاً للخطيب في تاريخه، ولم نقف عليه فيه. وأورده الديلمي في الفردوس (٨٩٨٦).

(٨) ذكره الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٥٣.

وقال أبيُّ بن كعب: الذين اسودَّت وجوههم هم الكفارُ، وقيل لهم: أَكَفرتم بعد إيمانكم لإقراركم حين أُخْرِجتم مِن ظهر آدمَ كالذَّرِّ. هذا اختيار الطبري[١].

الحسن: الآيةُ في المنافقين[٢]. قتادة: هي في المرتدِّين[٣]. عِكرمة: هم قومٌ من أهل الكتاب كانوا مصدِّقين بأنبيائهم، مصدّقين بمحمدٍ ﷺ قبلَ أنْ يُبعثَ، فلمّا بُعثَ عليه الصلاة والسلامُ كفروا به، فذلك قوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[٤]. وهو اختيار الزجاج[٥].

مالك بن أنس: هي في أهل الأهواء[٦].

أبو أمامة الباهِليُّ عن النبيِّ صلى الله علي وسلم: هي في الحرورِية، وفي خبرٍ آخرَ عن النبي عليه الصلاة والسلام[٧]: هي في القدرية[٨].

رَوَى الترمذيُّ عن أبي غالبٍ قال: رأى أبو أمامةَ رؤوساً منصوبةً على دَرَج[٩] دمشقَ، فقال أبو أُمَامةَ: كلابُ النَّار، شرُّ قَتْلَى تحتَ أدِيمِ السماء، خيرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوه. ثم قَرأَ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلى آخر الآية. قلتُ لأبي أُمامةَ: أنتَ

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٦٦٥ و ٦٦٦. وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم (٣٩٥٦).

(٢) أخرجه الطبري ٥/ ٦٦٦، وابن أبي حا تم (٣٩٥٣).

(٣) في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٧.

(٤) أخرجه الفريابي وابن المنذر، كما في الدر المنثور ٢/ ٦٣. وأورده ابن حجر في العجاب ٢/ ٧٣٢.

(٥) معاني القرآن وإعرابه له ١/ ٤٥٥.

(٦) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٧.

(٧) في (د) و(م): أنه عليه السلام، وزاد بعدها في (م) لفظة «قال»، وهو خطأ، والمثبت من (خ)، وسقط من (ظ) قوله: هي في الحرورية... إلى هذا الموضع. وانظر ما بعده.

(٨) قوله: هي في الحرورية.. وهي في القدرية. ليس مرفوعاً بهذا اللفظ، وقد اختصر المصنف كلام ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٨، ولفظه فيه: رُوي حديث أن الآية في القدرية، وقال أبو أمامة سمعنا من رسول الله ﷺ أنها في الحرورية، وقد تقدم أنها في الخوارج، وهو قول واحد. اهـ. وحديث أبي أمامة المشار إليه أورده المصنف بإثر هذا الكلام، وسلف ص١٦ من هذا الجزء.

(٩) في (د) و (ف) و (خ): على برج. وفي (ظ): بسور. وفي (م): على باب. والمثبت من سنن الترمذي (٣٠٠٠)، وتحفة الأشراف ٤/ ١٨٣، والدر المنثور ٢/ ٦٣، وسلف على الصواب ص١٦ من هذا الجزء. قال المباركفوري في تحفة الأحوذي ٨/ ٣٥١: أي: على درج مسجد دمشق، الدَّرَج: الطريق؛ وجمعه: الأَدْراج، والدَّرَجة: المِرْقاة، وجمعه: الدَّرَج، وهو المراد هنا.

سمعتَه مِن رسولِ اللّه ﷺ؟ قال: لَوْ لَمْ أسمعْهُ مِن رسولِ اللّه ﷺ إلّا مرَّةً، أو مرَّتين، أو ثلاثاً ـ حتى عَدَّ سبعاً ـ ما حَدَّثْتُكُموه. قال: هذا حديث حسن.

وفي صحيح البخاريِّ عن سَهْل بنِ سعد قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إنِّي فَرَطُكم على الحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَليَّ شَرِبَ، ومَنْ شَرِبَ لم يَظْمَأْ أبداً، لَيَرِدَنَّ عَليَّ أقوامٌ أَعْرِفُهم ويَعْرِفُوني، ثم يُحالُ بيني وبينهم». قال أبو حازم: فسمعني النُّعمانُ بنُ أبي عيَّاش فقال: هكذا سمعتَ من سهلِ بنِ سعد؟ فقلتُ: نعم. فقال: أَشهدُ على أبي سعيدٍ الخدريِّ لَسَمِعْتُهُ وهو يزيدُ فيها: «فأَقُولُ: إنَّهم مِنِّي، فيقال: إنَّكَ لا تَدْرِي ما أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فأقولُ: سُحْقاً سُحْقاً لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي»[١].

وعن أبي هريرةَ أنه كان يُحَدِّثُ أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قال: «يَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ يومَ القيامةِ رَهْطٌ مِنْ أصحابي، فيُجْلَونَ عنِ الحَوْض، فأقول: يا ربِّ أصحابي، فيقول: إنَّك لا عِلْمَ لكَ بما أحدثوا بعدَكَ، إنَّهم ارْتَدُّوا على أدبارهم القَهْقَرَى»[٢].

والأحاديث في هذا المعنَى كثيرة. فمَنْ بَدَّل أو غَيَّرَ أو ابتدَعَ في دين اللّه ما لايرضاهُ اللّهُ، ولم يأذَنْ به اللّهُ، فهو مِنَ المطْرُودينَ عنِ الحوضِ، المُبعَدِينَ[٣] منه، المُسْوَدِّي[٤] الوُجُوه، وأشدُّهم طرداً وإبعاداً مَنْ خالفَ جماعةَ المسلمين، وفارقَ سبيلَهم، كالخوارج على اختلافِ فِرَقها، والروافِضِ على تَباينِ ضَلالِها، والمعتزلةِ على أصنافِ أهوائِها، فهؤلاء كلهم مُبَدِّلون ومُبتدِعون، وكذلك الظَّلَمةُ المسرفون في الجَوْرِ والظلم وطَمْسِ الحقِّ، وقتلِ أهلِه وإذْلالِهم، والمعلنون بالكبائر، المستَخِفُّون بالمعاصي، وجماعةُ أهلِ الزَّيْغ والأهْواء والبِدَع؛ كلٌّ يُخافُ عليهم أن يكونوا عُنُوا بالآية والخَبَرِ كما بيَّنَّا، ولا يَخلُد في النَّار إلا كافرٌ جاحِدٌ؛ ليس في قلبه مثقالُ حبَّةِ خَرْدلٍ من إيمان.

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٨٣ - ٦٥٨٤)، وهو في صحيح مسلم أيضاً (٢٢٩٠ - ٢٢٩١)، ومسند أحمد (٢٢٨٢٢). وأبو حازم هو سلمة بن دينار. وقوله: «فرطكم» أي: مُتَقَدِّمُكم إليه. النهاية (فرط).

(٢) صحيح البخاري (٦٥٨٥). وأخرجه بنحوه مطوّلاً مسلم (٢٤٩)، وأحمد (٩٢٩٢).

(٣) في (م): المبتعدين.

(٤) في النسخ الخطية: المسودين. والمثبت من (م).

وقد قال ابن القاسم: وقد يكون مِنْ غيرِ أهلِ الأهْواء مَنْ هو شَرٌّ مِنْ أهلِ الأهواء. وكان يقال[١]: تمامُ الإخلاصِ تَجنُّبُ المعاصي.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ في الكلام حذفٌ، أي: فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ يعني يومَ الميثاق حين قالوا: بلى. ويقال: هذا لليهود، وكانوا مؤمنين بمحمدٍ ﷺ قبل أن يُبعث، فلما بُعث كفروا به. وقال أبو العالية: هذا للمنافقين، يقال: أكفرتم في السِّرِّ بعد إقراركم في العلانية[٢].

وأجمعَ أهلُ العربية على أنه لابُدَّ منَ الفاء في جواب «أمَّا»، لأنَّ المعنى في قولك: أمَّا زيدٌ فمنطلقٌ: مهما يكن من شيء فزيدٌ منطلقٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ هؤلاء أهلُ طاعةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ، والوفاءِ بعهده[٣]. ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: في جنَّتِهِ ودارِ كرامتِه خالدون باقون. جَعَلَنَا اللّهُ منهم، وجنَّبَنَا طرقَ البِدَعِ والضَّلالات، ووَفَّقَنا لطريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات. آمين.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، يعني القرآن. ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يعني نُنزل عليك جبريلَ، فيقرؤها عليك. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصِّدق[٤].

وقال الزجَّاج: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ المذكورة حُجَجُ اللّه ودلائله[٥].

وقيل: «تلك» بمعنى هذه، ولكنها لمَّا انقضتْ، صارت كأنها بَعُدَتْ، فقيل: «تلك»[٦].

---

(١) في (د) و (م): يقول. والمثبت موافق للتمهيد ٢٠/ ٢٦٢ - ٢٦٣ ، وما قبله منه.

(٢) انظر تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٠ .

(٣) انظر تفسير الطبري ٥/ ٦٦٦ .

(٤) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٠ .

(٥) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٤٥٥ بنحوه. وذكره النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٩٩ .

(٦) انظر تفسير الرازي ٨/ ١٨٥ .

ويجوز أن تكون «آيات اللّه» بدلاً من «تلك»، ولا تكون نعتاً، لأنْ المبْهَم لايُنعت بالمضاف[١]. ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني أنه لا يعذِّبهم بغير ذنب[٢].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال المهدويُّ: وجهُ اتصالِ هذا بما قبله أنَّه لمَّا ذَكَر أحوالَ المؤمنين والكافرين، وأنه لا يريدُ ظلماً للعالمين، وصلَه بذِكْرِ اتِّساعِ قدرته، وغناه عن الظلم؛ لكون ما في السماوات وما في الأرض في قبضته.

وقيل: هو ابتداءُ كلامٍ؛ بيَّن لعباده أنَّ جميعَ ما في السماوات وما في الأرض له، حتى يسألوه ويعبدوه، ولا يعبدوا غيره[٣].

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: رَوَى الترمذيُّ عن بَهْز بن حكيم، عن أبيه، عن جدِّه، أنه سمعَ رسولَ اللّه ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «أنتم تُتِمُّون سبعينَ أمَّةً، أنتم خيرُها وأكرمُها عند اللّه». وقال: هذا حديثٌ حسنٌ[٤].

وقال أبو هريرة: نحنُ خيرُ الناسِ للناس، نسوقُهم بالسلاسلِ إلى الإسلام[٥]. وقال ابن عباس: همُ الذين هاجَروا من مكةَ إلى المدينة، وشهدوا بَدْراً والحُديبِية[٦]. وقال عمر بن الخطاب: مَنْ فَعَلَ فِعْلَهم كان مثلَهم[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٩ .

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩١ .

(٣)المرجع السابق نفسه .

(٤) سنن الترمذي (٣٠٠١). وأخرجه أيضاً أحمد (٢٠٠١٥)، وابن ماجه (٤٢٨٨). وأخرجه مطولاً النسائي في السنن الكبرى (١١٣٦٧). وجدُّ بهز بن حكيم هو معاوية بن حيدة ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري (٤٥٥٧).

(٦) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ١٣٠ ، وأحمد (٢٤٦٣)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٠٠٦).

(٧) أورده ابن عبد البرّ في التمهيد ٢٠/ ٢٥١ .

وقيل: هم أمَّة محمدٍ ﷺ، يعني الصالحين منهم وأهلَ الفضل، وهم الشهداء على الناس يوم القيامة، كما تقدَّم في البقرة[١].

وقال مجاهد: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ على الشرائط المذكورة في الآية.

وقيل: معناه: كنتم في اللوحِ المحفوظ[٢]. وقيل: كنتم مُذْ آمنتُم خيرَ أُمَّة[٣].

وقيل: جاء ذلك لتقدّم البِشارة بالنبيِّ ﷺ وأمَّتِه؛ فالمعنى: كنتم عند مَنْ تقدَّمكم مِنْ أهلِ الكتب خيرَ أمة.

وقال الأخفشُ[٤]: يُريد أهلَ أمَّةٍ، أي: خيرَ أهلِ دين، وأنشد:

حَلَفْتُ فلم أتْرُكْ لنَفْسِكَ رِيبَةً ... وهلْ يأْثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وهو طائعُ[٥]

وقيل: هي «كان» التامَّة، والمعنى: خُلِقْتم ووُجِدتُم خيرَ أمَّة، فـ «خيرَ أمّة» حال.

وقيل: «كان» زائدة، والمعنى: أنتم خيرُ أمَّة. وأنشدَ سيبويه:

وجِيرانٍ لنا كانوا كرامِ[٦]

ومثله قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:٢٩]. وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف:٨٦]. وقال في موضع آخر: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال:٢٦].

وروى سفيان عن مَيْسَرةَ الأشجعيّ، عن أبي حازم، عن أبي هريرة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: تَجرُّون الناسَ بالسلاسل إلى الإسلام[٧].

---

(١) ٢/ ٤٣٥ .

(٢) ذكره النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤٠٠ .

(٣) ذكره الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ١/ ٤٥٦ .

(٤) معاني القرآن ١/ ٤١٩ .

(٥) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٨١ .

(٦) الكتاب ٢/ ١٥٣ . ونقل المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٠ ، والبيت للفرزدق وهو في ديوانه ص٢٩٠ ، وصدره: فكيف إذا رأيت ديار قوم.

(٧) أخرجه البخاري (٤٥٥٧). ونقله المصنف بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٠ . وسلف ذكره أول المسألة.

قال النحاس[(١)]: والتقديرُ على هذا: كُنتم للناسِ خيرَ أُمَّة. وعلى قول مجاهد: كنتم خيرَ أمّةٍ إذا[(٢)] كنتم تأمرون بالمعروف، وتَنْهَوْن عنِ المنكر.

وقيل: إنما صارت أمَّةُ محمدٍ ﷺ خيرَ أمّة؛ لأنَّ المسلمين منهم أكثرُ، والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر فيهم أَفْشَى. فقيل: هذا لأصحابِ رسولِ اللّه ﷺ، كما قال ﷺ: «خَيْرُ النَّاس قرْني»[(٣)] أي: الذين بُعِثْتُ فيهم.

الثانية: وإذا ثبتَ بنَصِّ التنزيل أنَّ هذه الأمةَ خيرُ الأمم، فقد روى الأئمةُ من حديثِ عِمرانَ بنِ حُصَيْن عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْني، ثُمَّ الذينَ يَلُونَهم، ثُمَّ الذين يَلُونَهم». الحديث[(٤)]. وهذا يدلُّ على أنَّ أوَّلَ هذه الأمةِ أفضلُ ممن بعدها[(٥)]، وإلى هذا ذهبَ معظم العلماء، وأنَّ مَنْ صَحِبَ النبيَّ ﷺ ورآه ولو مرَّةً في عمره أفضلُ ممن يأتي بعدَه، وأنَّ فضيلةَ الصحبة لا يَعْدِلُها عَمَلٌ.

وذهب أبو عمر بنُ عبد البَرّ[(٦)] إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعدَ الصحابةِ أفضلُ ممَّن كان في جملة الصحابة، وأنَّ قولَه عليه الصلاة والسلام: «خَيْرُ النَّاس قَرْني» ليس على عمومه، بدليل ما يجمع القرنُ من الفاضلِ والمفضول. وقد جَمَعَ قرنُه جماعةً منَ المنافقين المظهِرين للإيمان، وأهلِ الكبائر الذين أقامَ عليهم أو على بعضهم الحدود، وقال لهم: ما تقولون في السَّارقِ والشَّاربِ والزاني[(٧)]. وقال مُوَاجهةً لمَنْ هو في قرنه: «لا تَسُبُّوا أصحابي»[(٨)]. وقال لخالد بن الوليد في عمَّار:

---

(١) إعراب القرآن ١/ ٤٠٠ .

(٢) في (د) و (م): إذ. والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو موافق لإعراب القرآن.

(٣) أخرجه أحمد (٤١٣٠) ، والبخاري (٢٦٥٢) ، ومسلم (٢٥٣٣) (٢١٢) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.
وأخرج أحمد (٧١٢٣) ، ومسلم (٢٥٣٤) عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «خير أمتي القرن الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم».

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥)، وأحمد (١٩٨٢٠) واللفظ له.

(٥) في (م): بعدهم.

(٦) التمهيد ٢٠/ ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٧) قطعة من حديث، أخرجه مالك ١/ ١٦٧ ، وعبد الرزاق (٣٧٤٠) عن النعمان بن مرة، مرسلاً. قال ابن عبد البر في التمهيد ٢٣/ ٤٠٩ : هو حديث صحيح يستند من وجوه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد. . . (وذكرها).

(٨) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وهو في مسند أحمد (١١٠٧٩).

«لا تَسُبَّ مَنْ هو خيرٌ منك»[١].

وروى أبو أُمَامةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «طُوبَى لِمَنْ رآني وآمنَ بي، وطُوبَى سبع مرات لِمَنْ لم يَرَني وآمنَ بي»[٢].

وفي مسند أبي داودَ الطيالِسِيِّ: عن محمد بن أبي حُميد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمرَ قال: كنتُ جالساً عند رسولِ اللّه ﷺ، فقال: «أتَدْرُونَ أيُّ الخلقِ أفضلُ إيماناً؟» قلنا: الملائكة. قال: «وحُقَّ لهم، بل غيرُهم». قلنا: الأنبياء. قال: «وحُقَّ لهم، بلْ غيرُهم». ثمَّ قال رسول اللّه ﷺ: «أفضلُ الخلق إيماناً قومٌ في أصلاب الرجال، يؤمنون بي ولم يروني، يجِدون ورقاً فيعملون بما فيها، فهم أفضلُ الخلقِ إيماناً»[٣].

ورَوَى صالح بن جُبير، عن أبي جُمْعَة قال: قلنا: يا رسول اللّه، هل أحدٌ خيرٌ مِنَّا؟ قال: «نعم، قومٌ يجيئون مِنْ بعدِكم، فيجدون كتاباً بين لَوْحَين، فيؤمنون بما فيه، ويؤمنون بي ولم يَرَوْني»[٤]. وقال أبو عمر[٥]: وأبو جُمعة له صحبة، واسمه حَبِيبُ بنُ سِبَاع، وصالح بن جبير من ثِقَات التابعين.

ورَوَى أبو ثعلبة الخُشَنِيّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ أَمامَكم أيّاماً: الصَّابرُ فيها على دينه كالقابضِ على الجَمْر، للعامل فيها أجرُ خمسين رجلاً يَعمَلُ مثلَ عَمَلِه». قيل: يا رسولَ اللّه، منهم؟ قال: «بلْ منكم»[٦]. قال أبو عمر: هذه اللفظة: «بل

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨٢١٤) من حديث خالد بن الوليد ﷺ، بلفظ: «لا تسبَّ عماراً». وانظر حديث أحمد (١٦٨١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢١٣٨)، وابن عبد البر في التمهيد ٢٠/ ٢٤٧ .

(٣) التمهيد ٢/ ٢٤٨ . ولم نقف عليه عند الطيالسي. وأخرجه أبو يعلى في مسنده (١٦٠)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٨٥ - ٨٦ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي بقوله: بل محمد [يعني ابن أبي حميد] ضعفوه. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٦٥ وقال: رواه أبو يعلى، ورواه البزار [٢٨٣٩(زوائد)] وقال: الصواب أنه مرسل عن زيد بن أسلم.

(٤) أخرجه أحمد (١٦٩٧٦).

(٥) في التمهيد ٢٠/ ٢٥٠ . وما قبله منه.

(٦) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤)، وصححه ابن حبان (٣٨٥). قال الترمذي: حديث حسن غريب.

منكم» قد سكتَ عنها بعضُ المحدِّثين فلم يذكرها[١].

وقال عمر بن الخطاب في تأويل قوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ قال: مَنْ فَعَلَ مثلَ فعلِكم كان مثلَكم[٢]. ولا تعارضَ بين الأحاديث؛ لأن الأوَّل على الخصوص، واللّه الموفِّق.

وقد قيل في توجيه أحاديث هذا الباب: إنَّ قرنَه إنما فُضِّل لأنهم كانوا غُرَبَاء في إيمانهم؛ لكثرة الكفار، وصبرِهم على أذاهم، وتمسُّكهم بدينهم، وإنَّ أواخرَ هذه الأمّة إذا أقاموا الدِّينَ وتمسَّكوا به، وصبروا على طاعةِ ربِّهم في حين ظهورِ الشَّرِّ والفسقِ والهَرْج والمعاصي والكبائر؛ كانوا عند ذلك أيضاً غُرَبَاء، وزَكَت أعمالُهم في ذلك الوقت، كما زكَتْ أعمالُ أوائلِهم، وممَّا يشهدُ لهذا قولُه عليه الصلاة والسلام: «بدأَ الإسلامُ غريباً، وسيعودُ كما بدأ، فطُوْبَى للغرباء»[٣]. ويشهدُ له أيضاً حديثُ أبي ثعلبةَ، ويشهدُ له أيضاً قولُه ﷺ: «أُمَّتي كالمطر، لا يُدْرَى أوَّلُه خيرٌ أم آخرُه». ذكره أبو داود الطيالِسيّ وأبو عيسى الترمذي[٤]، ورواه هشام بن عبيد اللّه الرازي، عن مالكٍ، عن الزُّهري، عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «مَثَلُ أُمَّتي مَثَلُ المَطَرِ، لا يُدْرَى أوّلُه خيرٌ أم آخرُه» ذكره الدارقطني في مسند حديث مالك. قال أبو عمر[٥]: هشام بن عبيد اللّه ثقةٌ لا يختلفون في ذلك.

ورُوي أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيز لمَّا وليَ الخلافةَ كتب إلى سالم بن عبد اللّه: أنِ اكتب إليَّ بسيرةِ عمرَ بنِ الخطاب لأعملَ بها، فكتب إليه سالم: إنْ عملتَ بسيرةِ عمر، فأنتَ أفضلُ مِن عمر؛ لأنَّ زمانَك ليس كزمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر. قال: وكتب إلى فقهاء زمانه، فكلُّهم كتب إليه بمثل قول سالم.

---

(١) التمهيد ٢٠/ ٢٥٠ ، وما قبله منه. وهذه اللفظة لم يذكرها ابن ماجه.

(٢) التمهيد ٢٠/ ٢٥١ ، وسلف قول عمر ﷺ في المسألة الأولى.

(٣) أخرجه أحمد (٩٠٥٤)، ومسلم (١٤٥)، وابن ماجه (٣٩٨٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه مسلم أيضاً (١٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد أيضاً من حديث سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن مسعود، وعبد الرحمن بن سنة، على التوالي: (١٦٠٤) و (٣٧٨٤) و (١٦٦٩٠).

(٤) مسند الطيالسي (٢٠٢٣)، وسنن الترمذي (٢٨٦٩)، وهو في مسند أحمد (١٢٣٢٧).

(٥) في التمهيد ٢٠/ ٢٥٤ . وما قبله منه. وقد أخرج الحديث فيه من طريق هشام بن عبيد الله، وأخرجه أيضاً ابنُ حبان في المجروحين ٣/ ٩٠ ، والخطيب في تاريخ بغداد ١١/ ١١٤ .

وقد عارضَ بعضُ الجِلَّة من العلماء قولَه ﷺ: «خيرُ الناسِ قَرْنِي» بقوله ﷺ: «خيرُ الناسِ مَنْ طالَ عمرُهُ وحَسُنَ عَمَلُه، وشرُّ الناسِ مَنْ طالَ عمرُهُ وساءَ عملُه»[(١)]. قال أبو عمر[(٢)]: فهذه الأحاديث تقتضي مع تَوَاتُرِ طُرقها وحُسنِها التَّسْويةَ بين أوَّلِ هذه الأُمَّةِ وآخرِها. والمعنى في ذلك ما تقدَّم ذِكره؛ منَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ في الزمان الفاسد الذي يُرفع فيهِ مِنْ أهلِهِ[(٣)] العلمُ والدِّينُ، ويكثر فيه الفسقُ والهَرْج، ويُذَلُّ المؤمنُ، ويُعَزُّ الفاجر، ويعودُ الدِّينُ غَرِيباً كما بدأ[(٤)]، ويكون القائمُ فيه [بدينه] كالقابض على الجَمْر، فيستوي حينئذٍ أوَّلُ هذه الأُمَّة بآخرِها في فضل العمل، إلاَّ أهلَ بَدْر والحُديبية، ومَنْ تَدبَّر آثارَ هذا البابِ بانَ له الصَّوابُ، واللّه يُؤتي فضلَه مَنْ يشاء.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ مدحٌ لهذه الأمَّةِ ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغييرَ وتَواطَؤوا على المنكر، زالَ عنهم اسمُ المدح، ولحقَهم اسمُ الذَّمِّ، وكان ذلك سبباً لهلاكهم. وقد تقدَّم الكلامُ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أوَّل السورة[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ﴾ أخبرَ أنَّ إيمانَ أهلِ الكتاب بالنبيِّ ﷺ خيرٌ لهم، وأخبر أنَّ منهم مؤمناً وفاسقاً، وأنَّ الفاسقَ أكثر.

قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَۖ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾

قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ﴾ يعني كذبَهم وتحريفَهم وبَهْتَهم، لا أنه تكون لهم الغَلَبَة. عن الحسن وقتادة. فالاستثناء متَّصِل، والمعنى: لن يضرُّوكم إلا ضرّاً يسيراً، فوقع الأذى موقع المصدر.

(١) أخرجه أحمد (٢٠٤١٥)، والترمذي (٢٣٣٠) من حديث أبي بكرة. وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) التمهيد ٢٠/ ٢٥٥ . وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.
(٣) في (م) و (خ): أهل. وفي التمهيد: يرفع فيه العلم والدين من أهله.
(٤) بعدها في (م): غريباً.
(٥) ص٧٣ من هذا الجزء.

فالآية وعدٌ منَ اللّه لرسوله ﷺ وللمؤمنين؛ أنَّ أهلَ الكتابِ لا يغلبونهم، وأنهم منصورون عليهم، لا ينالُهم منهم اصطلام[١] إلَّا إيذاءً بالبَهْت والتحريف، وأمّا العاقبة فتكون للمؤمنين[٢].

وقيل: هو منقطع، والمعنى: لن يضروكم البتَّة، لكن يؤذونكم بما يُسمِّعونكم.

قال مقاتل: إنَّ رؤوس[٣] اليهود: كعب وبحريّ[٤] والنعمان وأبو رافع وأبو ياسر وكنانة وابن صوريا، عمدوا إلى مؤمنيهم: عبد اللّه بن سلام وأصحابه، فآذَوْهم لإسلامهم، فأنزل اللّه تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ يعني باللسان، وتَمَّ الكلام. ثم قال: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ يعني منهزمين، وتَمَّ الكلام. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ مستأنف، فلذلك ثبتت فيه النون. وفي هذه الآية معجزة للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، لأنَّ مَنْ قاتلَه من اليهود ولَّاه دُبُرَه.

قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ يعني: اليهودَ. ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ أي: وُجدوا ولُقُوا. وتَمَّ الكلام. وقد مضى في البقرة معنى ضرب الذِّلَّة عليهم[٥]. ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ

(١) أي: استئصال. (مختار الصحاح).

(٢) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ٤٥٧.

(٣) في (د): أما رؤساء.

(٤) في النسخ و (م): عدي. والمثبت من أسباب النزول للواحدي ص١١٤، والعجاب لابن حجر ٢/ ٧٣٤. وبحريّ هو ابن عمرو كما في السيرة النبوية ١/ ٥١٤.

(٥) ٢/ ١٥٤ - ١٥٥.

﴿ٱللَّهِ﴾ استثناءٌ منقطعٌ ليس من الأوَّل. أي: لكنهم يعتصمون بحبلٍ من اللّه[١]. ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: الذِّمَّة التي لهم. والناسُ: محمدٌ والمؤمنون؛ يُؤدُّون إليهم الخَراجَ فيُؤَمِّنُونهم[٢]. وفي الكلام اختصار، والمعنى: إلَّا أنْ يعتصموا بحبلٍ من[٣] الله، فحذف؛ قاله الفَّراء[٤].

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: رجعوا. وقيل: احتَملوا. وأصلُه في اللغة أنه لزِمَهم، وقد مضى في البقرة[٥]. ثم أخبر لِم فَعل ذلك بهم؟ فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾، وقد مضى في البقرة مُسْتوفى[٦].

ثم أخبر، فقال: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾[٧]، وتمَّ الكلام، والمعنى: ليس أهلُ الكتابِ وأمَّةُ محمدٍ ﷺ سواءً؛ عن ابن مسعود[٨].

وقيل: المعنى: ليس المؤمنون والكافرون من أهل الكتابِ سواءً[٩].

وذكر أبو خَيْثَمَة زُهَيْر بنُ حَرْب: حدَّثنا هاشم[١٠] بنُ القاسم، حدَّثنا شَيبان، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن ابن مسعودٍ قال: أخَّر رسولُ اللهِ ﷺ ليلةً صلاةَ العشاءِ، ثمَّ خرج إلى المسجد، فإذا الناسُ ينتظرون الصلاة، فقال: «إنه ليس من أهل الأديانِ أحدٌ يَذكرُ اللهَ تعالى في هذه الساعةِ غيرُكم»، قال: وأُنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ ـ إلى قولِه ـ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾[١١]، وروى ابن وهب

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠١.
(٢) انظر تفسير البغوي / ٣٤٢.
(٣) لفظة: من، من (م).
(٤) في معاني القرآن ١/ ٢٣٠.
(٥) ٢/ ١٥٥.
(٦) ٢/ ١٥٥.
(٧) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٦١.
(٨) أخرجه الطبري ٥/ ٦٩٢ - ٦٩٣.
(٩) انظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٥٨، والوسيط ١/ ٤٨٠.
(١٠) في النسخ: هشام، وهو خطأ، والمثبت من (م)، ومصادر التخريج.
(١١) أخرجه أحمد (٣٧٦٠)، والنسائي في الكبرى (١١٠٠٧) من طريق هاشم بن القاسم، به.

مثلَه[١].

وقال ابن عباس[٢]: قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾: من آمن مع النبيِّ ﷺ.

وقال ابن إسحاق عن ابن عباس: لمَّا أسلم عبدالله بنُ سَلَامٍ، وثعلبة بنُ سَعْيَةَ، وأَسِيد[٣] بنُ سعية، وأسيد[٤] بنُ عُبيد، ومَن أسلَمَ من يهود، فآمنوا وصدَّقوا، ورغبوا في الإسلام، ورسَخوا فيه، قالت أحبارُ يهود وأهلُ الكفرِ[٥] منهم: ما آمن بمحمد ولا تبعَه إلا شرارُنا، ولو كانوا من خِيارِنا ما تركوا دينَ آبائهم، وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله عزَّ وجلَّ في ذلك من قولهم: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[٦].

وقال الأخفش: التقديرُ: من أهل الكتابِ ذو أُمَّة، أي: ذو طريقةٍ حسنةٍ، وأنشد:

وهـل يَـأْثَـمَـنْ ذُو أُمَّـةٍ وهْـوَ طَـائِـعُ[٧]

وقيل: في الكلام حذفٌ، والتقديرُ: من أهل الكتابِ أُمَّةٌ قائمةٌ، وأخرى غيرُ قائمةٍ، فتَرَكَ الأخرى اكتفاءً بالأولى[٨]؛ كقول أبي ذؤيب:

---

(١) أخرجه الطبري ٥/ ٦٩٧ من طريق يونس، عن ابن وهب، به.

(٢) أورده النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤٠١ .

(٣) قيَّده ابن ماكولا في الإكمال ١/ ٥٣ ، وابن الأثير في أسْد الغابة ١/ ٨٥ بفتح الهمزة وكسر السين وتخفيف الياء، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ١٨٢ - ١٨٣ الوجهين (فتح الهمزة أو ضمُّها)، وقال: والفتح عندهم أصح.

(٤) كذا في النسخ، والذي في المصادر: أسد.

(٥) في النسخ: يهود أهل الكفر، والمثبت من (م)، وهو الموافق لمصادر التخريج.

(٦) أخرجه الطبري ٥/ ٦٩١ ، وابن أبي حاتم ٣/ ٣٣٧ ، وانظر السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٩٧ .

(٧) معاني القرآن للأخفش ١/ ٤١٨ - ٤١٩ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠١ ، وعنه نقل المصنف، والبيت للنابغة، وهو في ديوانه ص٨١ ، وصدره: حَلفتُ فلم أتركْ لنفسِكَ رِيبةً. وقد سلف ص٢٦٠ من هذا الجزء.

(٨) انظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٠ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٢ .

عَصَيْتُ[١] إِلَيْهَا القَلْبُ إِنِّي لأَمْرِهِ مُطِيعٌ فما أدرِي أَرُشْدٌ[٢] طِلابُهَا

أراد: أَرُشْدٌ أم غَيٌّ، فحذفَ.

قال الفرَّاء: «أُمَّة» رفع بـ «سواء»، والتقديرُ: ليس يستوي أمَّةٌ من أهل الكتابِ قائمةٌ يتلون آياتِ الله وأمَّةٌ كافرةٌ.

قال النَّحاس[٣]: وهذا قولٌ خطأٌ من جهات: إحداها[٤]: أنه يرفع «أُمَّة» بـ«سواء»، فلا يعودُ على اسمِ ليس شيءٌ[٥]، ويرفع[٦] بما ليس جارياً على الفعل، ويُضمر ما لا يحتاج إليه؛ لأنه قد تقدَّم ذكرُ الكافرة[٧]، فليس لإضمارِ هذا وجهٌ.

وقال أبو عبيدة: هذا مثلُ قولهم: أكلوني البراغيثُ، وذهبوا أصحابُك[٨].

قال النحاس: وهذا غلطٌ؛ لأنه قد تقدَّم ذكرهم، وأكلوني البراغيثُ لم يتقدَّمْ لهم ذكر.

و﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾: ساعاتُه، واحدُها إِنًى وأَنًى وإِنْيٌ، وهو منصوبٌ على الظَّرف[٩].

---

(١) كذا في النسخ: عصيتُ، ومثله في معاني القرآن للفراء ١/ ٧٠، وتفسير الطبري ١/ ٣٤٤ و ٥/ ٦٩٠، ومجمع البيان ٤/ ١٧١، وزاد المسير ١/ ٤٤٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٢، ووقع في ديوان الهذليين ص٧١، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٥٩: عصاني؛ قال الشيخ محمود شاكر رحمه الله في تعليقه على الطبري ١/ ٣٢٧: المعنى لا يستقيم برواية: عصيت، والصواب رواية: عصاني.

(٢) في المصادر المذكورة آنفاً: سميع.

(٣) في إعراب القرآن ١/ ٤٠١، وقول الفراء منه، وانظر معاني القرآن له ١/ ٢٣٠، ومجمع البيان ٤/ ١٧١، والبحر المحيط ٣/ ٣٣.

(٤) في النسخ: أحدها، والمثبت من (م).

(٥) في النسخ: بشيء، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠١، وفتح القدير ١/ ٣٧٣. قال ابن الأنباري في البيان ١/ ٢١٥: وليس قول من قال: إنه مرفوع بسواء صحيحاً، لأنه يؤدي إلى ألا يعود من خبر ليس إلى اسمها شيء، وذلك لا يجوز.

(٦) عبارة النحاس: فلا يعود على اسمِ ليس شيء يُرفع...

(٧) في (م): الكافر، وفي إعراب القرآن: الكافرين، وقوله: الكافرة يعني الأُمَّة الكافرة.

(٨) مجاز القرآن ١/ ١٠١ - ١٠٢، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠١، وعنه نقل المصنف.

(٩) انظر تفسير الطبري ٥/ ٦٩٥ - ٦٩٦، والوسيط ١/ ٤٨١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٣.

و﴿يَسْجُدُونَ﴾: يُصلُّون؛ عن الفراء والزجّاج؛ لأنَّ التلاوةَ لا تكون في الرُّكوع والسُّجود[(١)]، نظيره قولُه: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، أي: يصلُّون، وفي الفرقان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [٦٠] وفي النجم: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾ [٦٢].

وقيل: يُراد به السجودُ المعروفُ خاصَّةً[(٢)]. وسببُ النزولِ يردُّه، وأنَّ المرادَ صلاةُ العتمةِ كما ذكرنا عن ابن مسعود؛ فعبدةُ الأوثانِ ناموا حيث[(٣)] جَنَّ عليهم الليلُ، والموحِّدون قيامٌ بين يدي اللهِ تعالى في صلاة العشاءِ يتلون آياتِ الله؛ ألا ترى لمَّا ذكر قيامَهم، قال: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾، أي: مع القيامِ أيضاً.

الثوريُّ[(٤)]: هي الصَّلاةُ بين العشاءين.

وقيل: هي في قيام الليل، عن[(٥)] رجل من بني شيبةَ كان يدرس الكتبَ قال: إنَّا نجدُ كلاماً من كلام الربِّ عزَّ وجلَّ: أيحسَب راعي إبلٍ أو راعي غنمٍ، إذا جنَّه الليلُ انخذل كمن هو قائمٌ وساجدٌ آناءَ الليل؟!

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ يعني: يُقِرُّون بالله وبمحمدٍ ﷺ[(٦)].

﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قيل: هو عمومٌ، وقيل: يراد به الأمرُ باتباعِ النبيِّ ﷺ، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ النهيُ عن المنكر: النهيُ عن مخالفته[(٧)].

﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ التي يعملونها مبادرين غيرَ متثاقلين؛ لمعرفتهم بقَدْرِ ثوابِها[(٨)]. وقيل: يبادرون بالعمل قبلَ الفوت[(٩)].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: مع الصالحين، وهم أصحابُ محمدٍ ﷺ في

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣١، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٥٩.
(٢) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٦٩٩، وزاد المسير ١/ ٤٤٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٣.
(٣) في (ظ): حين.
(٤) أورده الماوردي في النكت والعيون ١/ ٤١٧.
(٥) في (م): وعن.
(٦) من (م): ويصدقون بمحمد ﷺ.
(٧) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٢، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٦٠.
(٨) في (م): ثوابهم.
(٩) الوسيط للواحدي ١/ ٤٨١.

الجنَّة[(١)].

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾، قرأ الأعمش وابنُ وَثَّاب وحمزةُ والكِسائيُّ وحفص وخَلَف بالياء فيهما؛ إخباراً عَنِ الأمَّة القائمةِ، وهي قراءةُ ابنِ عباسٍ، واختيارُ أبي عبيد. وقرأ الباقون بالتَّاء فيهما على الخطاب؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وهي اختيارُ أبي حاتم، وكان أبو عمرو يرى القراءتين جميعاً الياءَ والتَّاء[(٢)].

ومعنى الآيةِ: وما تفعلوا من خيرٍ فلن تُجحدوا ثوابَه، بل يُشكَر لكم وتُجازَوْن عليه[(٣)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اسم إنَّ، والخبرُ: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

قال مقاتل: لمَّا ذكر تعالى مؤمني أهلِ الكتابِ، ذكر كفَّارَهم، وهو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وقال الكلبيُّ: جعل هذا ابتداءً، فقال: إنَّ الذين كفروا لن تُغنيَ عنهم كثرةُ أموالِهم، ولا كثرةُ أولادِهم من عذاب اللهِ شيئاً[(٤)].

وخصَّ الأولادَ؛ لأنهم أقربُ أنسابِهم إليهم[(٥)].

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ١٣٩.

(٢) قال مكي في الكشف ١/ ٣٥٤: والمشهور عن أبي عمرو بالتاء وقال ابن الجزري في النشر ٢/ ٢٤١: والوجهان صحيحان... إلا أن الخطاب أكثر وأشهر، وعليه الجمهور من أهل الأداء. وينظر السبعة ص٢١٥، والتيسير ص٩٠.

(٣) تفسير البغوي ١/ ٣٤٤.

(٤) تفسير أبي الليث ١/ ١٣٩.

(٥) من (خ): أنسبائه إليه، وفي (د) و (ظ): أنسابه إليه، والمثبت من (م).

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، وكذا ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[١]. وقد تقدَّم جميعُ هذا[٢].

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ «ما» تصلحُ أنْ تكونَ مصدريةً، وتصلحُ أنْ تكونَ بمعنى الذي، والعائدُ محذوفٌ، أي: مَثَلُ ما ينفقونه. ومعنى «كَمثَلِ رِيحٍ»: كمثل مهلكِ[٣] ريحٍ.

قال ابنُ عباس: والصِّرُّ: البردُ الشَّديدُ[٤].

قيل: أصلُه من الصَّرير الذي هو الصَّوتُ، فهو صوتُ الريحِ الشَّديدة.

الزجَّاج: هو صوتُ لَهَبِ النار التي كانت في تلك الريح[٥]. وقد تقدَّم هذا المعنى في البقرة[٦]. وفي الحديث: إنَّه نهى عن الجراد الذي قتله الصِّرُّ[٧].

ومعنى الآية: مَثَلُ نفقةِ الكافرين في بطلانها وذهابِها وعدمِ منفعتِها، كمثل زرعٍ أصابه ريحٌ باردةٌ أو نارٌ، فأحرقَتْه وأهلكَتْه، فلم ينتفعْ أصحابُه بشيءٍ بعد ما كانوا يرجون فائدتَه ونفعه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك، ﴿وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ

(١) في (خ) و (م): وكذا و﴿هم فيها خالدون﴾، والمثبت من (د) و (ظ)، وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٢، والكلام منه.

(٢) ٥/ ٣٣، ١/ ٤٨٩، ٤٩٠.

(٣) في (د) و (ظ) و (م): مهبّ، والمثبت من (خ)، وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٢، والكلام منه، وانظر مجمع البيان ٤/ ١٧٥.

(٤) أخرجه الطبري ٥/ ٧٠٥.

(٥) معاني القرآن ١/ ٤٦١، والنكت والعيون ١/ ٤١٨، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٥.

(٦) ٤/ ٣٤١.

(٧) أورده النحاس في معاني القرآن ١/ ٤٦٤، والخطابي في غريب الحديث ٣/ ٢٣ والزمخشري في الفائق ٢/ ٢٩٧. وأخرجه أحمد في العلل ٢/ ٢٥٤ وأبو عبيد في غريب الحديث ٢/ ٤٤٥ عن هُشَيم، عن حجَّاج، عن عطاء من قوله، قال أحمد: لم يسمعه هُشَيم من حجَّاج، وقوله: الصرُّ، المقصود به هنا: البرد.

يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والمعصيةِ ومَنْعِ حقِّ الله تعالى[١].

وقيل: ظلموا أنفسَهم بأنْ زرعوا في غير وقتِ الزِّراعة، أو في غير موضعِها فأدَّبهم الله تعالى؛ لوضعهِم الشَّيءَ في غيرِ موضعه، حكاه المَهْدَوِيُّ[٢].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: أكَّدَ الله تعالى الزَّجْرَ عن الركُون إلى الكفار. وهو متَّصلٌ بما سبق من قوله: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

والبِطَانَةُ مصدرٌ، يُسَمَّى به الواحدُ والجمع. وبِطَانَةُ الرجلِ: خاصَّتُه الذين يستبطنون أمرَه. وأصلُه من البَطْن، الذي هو خلافُ الظَّهْر. وبَطَنَ فلانٌ بفلان يبْطُن بُطوناً وبِطَانَةً: إذا كان خاصّاً به[٣]. قال الشاعر:

أولئك خُلْصاني نعَمْ وبِطَانَتِي   وهم عَيْبَتِي من دون كلِّ قَريبِ[٤]

الثانية: نهى الله عزَّ وجلَّ المؤمنين بهذه الآيةِ أنْ يَتَّخِذوا من الكفَّار واليهودِ وأهلِ الأهْوَاء دُخَلاءَ ووُلَجاءَ، يفاوضونهم في الآراء، ويُسنِدون إليهم أمورَهم، ويُقال: كلُّ من كان على خلاف مَذْهَبِك ودينِك، فلا[٥] ينبغي لك أنْ تُحادثَه[٦]؛ قال الشاعر:

---

(١) ينظر تفسير البغوي ١/ ٣٤٤، والوسيط ١/ ٤٨٢.

(٢) ينظر النكت والعيون ١/ ٤١٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٥.

(٣) ينظر مجمع البيان ٢/ ١٧٦، وتفسير البغوي ١/ ٣٤٥، والنكت والعيون ١/ ٤١٩.

(٤) ورد البيت في مجمع البيان ٤/ ١٧٦، واللباب ٥/ ٤٨٨، والدّر المصون ٣/ ٣٦٣، والبحر المحيط ٣/ ٣٣ من غير نسبة، وقوله: خُلْصاني، أي: خالصتي، يستوي فيه الواحد والجماعة، وعَيْبَتي، أي: خاصَّتي وموضعُ سري، والجمع: عِيَب. اللسان (خلص، عيب).

(٥) في النسخ: لا، والمثبت من (م).

(٦) انظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٢، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٦١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٦.

عن المَرْءِ لا تَسْألْ[١] وسَلْ عن قَرِينِه فكلُّ قَرِينٍ[٢] بالمُقارِنِ يَقْتَدِي[٣]

وفي سنن أبي داود، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «المرءُ على دِينِ خليلِه، فَلْينظرْ أحدُكُم مَنْ يُخالِلُ»[٤].

ورُوي عن ابن مسعود أنه قال: اعْتبِروا الناسَ بإخوانهِم[٥].

ثم بيَّن تعالى المعنى الذي لأجله نهى عن المواصلة، فقال: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ يقول: فساداً. يعني: لا يتركون الجُهدَ في فسادكم، يعني: أنهم وإنْ لم يقاتلوكم في الظاهر، فإنهم لا يتركون الجُهْدَ في المكر والخديعة[٦]، على ما يأتي بيانُه.

روى أبو أُمَامَةَ[٧] عن رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾، قال: «هم الخوارجُ»[٨].

ورُوي أنَّ أبا موسى الأشعريَّ استَكتَب ذِمِّياً، فكتب إليه عمرُ يُعنِّفُه، وتلا عليه هذه الآيةَ[٩].

---

(١) في (د) و (خ): لا تَسَلْ، وهو صواب أيضاً.

(٢) في (خ) و (ظ): فإن القرين، والمثبت من (د) و(م)، وهو الموافق للديوان.

(٣) في (خ) و (ظ): مقتد، وفي(د): مقتدي، والمثبت من (م)، وهو الموافق للديوان والبيت لطرفة بن العبد وهو في ديوانه ص٤٤ ، قال التبريزي في شرح القصائد العشر ص١٢٤ : قيل: إنه لعدي بن زيد. ونسبه له الجاحظ في البيان والتبيين ٧/ ١٥٠ ، ورواية البيت فيه:

عن المرء لا تسألْ وأبصِر قرينَه فإنَّ القرينَ بالمقارن مقتدي

(٤) سنن أبي داود (٤٨٣٣)، وفيه: الرجل، بدل: المرء، وأخرجه أيضاً أحمد (٨٠٢٨)، والترمذي (٢٣٧٨).

(٥) رواه الطبراني في الكبير (٨٩١٩)، وفيه: بأخدانهم، بدل بإخوانهم، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٩٠: فيه محمد بن كثير بن عطاء، وثقه ابن معين وغيره، وفيه ضعف. وأخرجه أيضاً ابن عدي ٢/ ٥٨٥ ، والبيهقي في الشعب (٩٤٤٠) بلفظ: ... اعتبروا الصاحب بالصاحب. وانظر فيض القدير ١/ ٥٥١ - ٥٥٢ .

(٦) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٤ .

(٧) في (د) و (م): ورُوي عن أبي أمامة، والمثبت من (خ) و(ظ).

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم ٣/ ٧٤٢ ، والطبراني في الكبير (٨٠٤٧) وفي إسناده أبو غالب حزوَّر، قال الذهبي في الميزان ٤/ ٥١٠ : فيه شيء، وقال ١/ ٤٧٦ : ضعفه النسائي، وقال ابن حبان: لا يحتج به، وقد صحح له الترمذي.

(٩) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٤٤٧ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٦ .

وقدِم أبو موسى الأشعريُّ على عمرَ رضي الله عنهما بحساب، فرفعه إلى عمر فأعجبَهُ، وجاء عمرَ كتابٌ، فقال لأبي موسى: أين كاتبُك يقرأ هذا الكتابَ على الناس؟ فقال: إنه لا يدخلُ المسجد، فقال: لِمَ! أجُنُبٌ هو؟ قال: إنه نصرانيٌّ؛ فانتهره، وقال: لا تُدْنِهم وقد أقصاهم الله، ولا تُكرمْهم وقد أهانَهم الله، ولا تأْمَنهم وقد خوَّنهم الله[(١)].

وعن عمرَ ﷺ قال: لا تستعملوا أهلَ الكتابِ، فإنهم يَستَحِلُّون الرِّشا، واستَعينوا على أموركم وعلى رعيَّتِكم بالذين يخشَون اللهَ تعالى[(٢)].

وقيل لعمر ﷺ: إنَّ ههنا رجلاً من نصارى الحِيرةِ لا أحدَ أكتَبُ منه، ولا أخطُّ بقلم، أفلا يَكتُبُ عنك؟ فقال: إذاً أتَّخذُ[(٣)] بِطانةً من دون المؤمنين[(٤)]. فلا يجوزُ استكتابُ أهلِ الذِّمةِ، ولا غيرُ ذلك من تصرُّفاتهم في البيع والشراءِ والاستنابة إليهم[(٥)].

قلت: وقد انقلبتِ الأحوالُ في هذه الأزمانِ باتخاذ أهلِ الكتابِ كَتَبةً وأُمناءَ، وتَسوَّدُوا بذلك عند الجَهَلةِ الأغْبياءِ، من الوُلاة والأمراء.

روى البخاريُّ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «ما بعث اللهُ مِن نبيٍّ ولا استَخلفَ مِن خليفةٍ إلا كانت له بِطانتانِ: بِطانةٌ تأمرُهُ بالخير[(٦)]، وتحُضُّه عليه، وبطانةٌ تأمرُه بالشرِّ، وتحضُّه عليه، والمعصومُ من عَصَمه[(٧)] اللهُ تعالى»[(٨)].

وروى أنس بنُ مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تستضِيؤوا بِنار المشركين،

---

(١) أخرجه البيهقي ١٠/ ١٢٧ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) من (د) و (م): لا آخذ، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٦٥٨ .

(٥) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤٩٦ .

(٦) في (م): بالمعروف.

(٧) من (م): فالمعصوم من عصم.

(٨) صحيح البخاري (٦٦١١)، (٧١٩٨)، وهو عند أحمد (١١٨٣٤) بنحوه.

ولا تَنْقُشوا في خواتيمكم عَربيّاً»[1]، فسَّره الحسن بنُ أبي الحسن، فقال: أراد عليه الصَّلاة والسلام: لا تستشيروا المشركين في شيءٍ من أموركم، ولا تَنقُشوا في خواتيمكم محمداً، قال الحسن: وتصديقُ ذلك في كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾[2] الآية.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ يعني: مِن سواكم. قال الفرَّاء: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأنبياء: ٨٢] أي: سِوى ذلك.

وقيل: «مِن دونكم» يعني: في السِّيَرِ[3] وحُسْنِ المذهب[4].

ومعنى «لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً»: لا يُقصِّرون فيما فيه الفسادُ عليكم، وهو في موضع الصِّفةِ لـ «بِطَانَةً من دُونِكُم»، يقال: لا آلُو جُهْداً، أي: لا أُقصِّر. وأَلَوْتُ أُلُوّاً[5] قصَّرت؛ قال امرؤ القيس:

وما المرءُ ما دامتْ حُشاشَةُ نفسِه بِمُدْرِكِ أطْرافِ الخُطُوبِ ولا آلِ[6]

والخَبَال: الخَبْل. والخَبْل: الفساد؛ وقد يكون ذلك في الأفعال والأبدانِ والعقول. وفي الحديث: «من أُصيب بدَمٍ أو خَبْلٍ»[7]، أي: جُرْحٍ يُفسِدُ العُضْوَ.

---

(١) في (د) و (م): غريباً، وقد سقطت الكلمة من (ظ)، والمثبت من (خ) و (ز)، وهو الموافق لمصادر التخريج.

(٢) أخرجه الطبري ٥/ ٧١٠، والبيهقي ١٠/ ١٢٧، وفي الشعب (٩٣٧٥). وأخرجه أيضاً أحمد (١١٩٥٤)، والنسائي ٨/ ١٧٦ - ١٧٧ دون تفسير الحسن رحمه الله. قال ابن كثير عند تفسير الآية (١١٨) من آل عمران: وهذا التفسير [يعني تفسير الحسن] فيه نظر، ومعناه ظاهر؛ «لا تنقُشوا في خواتيمكم عَربيّاً»، أي: بخط عربي، لئلا يشابه نقشَ خاتم النبي ﷺ، فإنه كان نقشُه محمد رسول الله، وأما الاستضاءة بنار المشركين فمعناه: لا تقاربوهم في المنازل بحيث تكونون معهم في بلادهم.

(٣) في (خ): السّتر.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٢.

(٥) ضبطت في (خ): أَلْواً، وهو صحيح أيضاً، وينظر مجمع البيان ٤/ ١٧٦، والبيان لابن الأنباري ١/ ٢١٧، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٦.

(٦) ديوان امرئ القيس ص٣٩. ومعنى البيت أن الإنسان ما دام حيّاً فإنه لا يدرك أواخر الأمور، ولا يتأتى له كل ما يريد، وهو مع ذلك لا يألو، أي: لا يترك جهداً في الطلب. شرح الديوان ص٣٩.

(٧) قطعة من حديث أبي شُريح الخُزاعي ﷺ؛ أخرجه أحمد (١٦٣٧٥)، وأبو داود (٤٤٩٦)، وابن ماجه (٢٦٢٣).

والخَبْل: فسادُ الأعضاء، ورجُلٌ خَبْلٌ ومُخْتَبَلٌ، وخَبَلَه الحبُّ، أي: أفسده؛ قال: أوْسٌ:

أبــنِــي لُــبَــيْــنَــى لــسْــتُــمُ بــيَــدِ   إلَّا يــداً مَــخْــبــولَــةَ الــعَــضُــدِ[١]

أي: فاسدةَ العَضُد[٢]. وأنشد الفرَّاء:

نَـظَـر ابـنُ سـعـدٍ نـظـرةً وبَـتْ بـهـا   كـانـت لِـصُـحْـبِـك والـمـطِـيِّ خَـبـالاً[٣]

أي: فساداً[٤].

وانتصب «خَبَالاً» بالمفعول الثاني؛ لأنَّ الألْوَ يتعدَّى إلى مفعولين، وإنْ شئتَ على المصدر، أي: يخَبِلونكم خَبالاً. وإنْ شئتَ بنزع الخافضِ، أي: بالخبال؛ كما قالوا: أوجعتُه ضرباً[٥].

«وما» في قوله: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ مصدريةٌ، أي: وَدُّوا عَنَتَكُم. أي: ما يشُقُّ عليكم. والعَنَت: المشقَّةُ[٦]، وقد مضى في «البقرة» معناه[٧].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ يعني: ظهرت العداوةُ والتكذيبُ لكم من أفواههم[٨]. والبغضاءُ: البغضُ، وهو ضدُّ الحُبِّ. والبغضاءُ مصدرٌ مؤنث[٩].

---

(١) قائله أوس بن حجر، وهو في ديوانه ص٢١ ، وروايته: ... إلا يداً ليست لها عضدُ، وذكره بمثل رواية المصنف الزجاج في معاني القرآن ١/ ٤٦٢ .

(٢) ينظر مجمل اللغة ٢/ ٣١١ - ٣١٢ ، وتهذيب اللغة ٧/ ٤٢٦ - ٤٢٧ .

(٣) قائله عبد الرحمن بنُ دارة، وهو في الأغاني ٢١/ ٢٤٧ بلفظ: نظر ابن سَعْدَةَ نظرةً ويلاً لها...، وقوله: وبَتْ، من الوَبّ، وهو التهيؤ للحرب، اللسان (وبب)، وهذا البيت قاله ابنُ دارة مع أبيات له يهجو فيها الكُميتَ وهو ابنُ سعدةَ المذكورُ في البيت. انظر الأغاني ٢١/ ٣٤٦ - ٣٤٧ .

(٤) في (م): فساد.

(٥) ينظر تفسير البغوي ١/ ٣٤٥ .

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٦ .

(٧) ٣/ ٤٥٣ .

(٨) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٤ .

(٩) ينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣١ .

وخصَّ تعالى الأفواهَ بالذِّكر دونَ الألسنةِ إشارةً إلى تَشدُّقهم وثَرْثَرَتِهم في أقوالهم هذه، فهم فوق المتَستِّر الذي تبدو البغضاءُ في عينيه. ومن هذا المعنى نهيُه عليه الصلاة والسَّلام أنْ يَتَشحَّى[(١)] الرجلُ فاه في عِرض أخيه. معناه: أنْ يفتحَ؛ يُقَالُ: شحَى الحمارُ فاه بالنَّهيق، وشحَى الفَمُ نفسُه. وشحَى اللِّجامُ فَمَ الفرسِ شَحْياً، وجاءتْ الخيلُ شَوَاحِيَ: فاتحاتٍ أفواهَها. ولا يُفهمُ من هذا الحديثِ دليلُ خطابٍ على الجواز، فيأخذَ أحدٌ في عِرْضِ أخيه هَمْساً؛ فإنَّ ذلك يَحْرمُ باتفاق من العلماء[(٢)]. وفي التنزيل ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢] الآية. وقال ﷺ: «إنَّ دِماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ»[(٣)]. فذِكرُ الشَّحْوِ إنما هو إشارةٌ إلى التشدُّق والانبساطِ[(٤)]، فاعلم.

الخامسة: وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ شهادةَ العدوِّ على عدوِّه لا تجوز، وبذلك قال أهلُ المدينةِ وأهلُ الحجاز، ورُوي عن أبي حنيفةَ جوازُ ذلك[(٥)].

وحكى ابن بَطَّال عن ابن شعبانَ أنه قال: أجمع العلماءُ على أنه لا تجوزُ شهادةُ العدوِّ على عدوِّه في شيءٍ وإن كان عدلاً، والعداوةُ تُزيلُ العدالةَ، فكيف بعداوةِ كافرٍ[(٦)]؟.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ إخبارٌ وإعلامٌ بأنهم يُبطنون من البغضاء أكثرَ ممَّا يُظهِرون بأفواههم.

وقرأ عبدالله بنُ مسعود: «قد بدا[(٧)] البغضاءُ» بتذكير الفعل؛ لمَّا كانت البغضاءُ

---

(١) في (د) و (م): يشتحي، ولم تجود الكلمة في باقي النسخ، والمثبت من المحرر الوجيز ١/ ٤٩٦، والكلام منه، قال في اللسان (شحا): تَشَحَّى فلان على فلان إذا بسط لسانه فيه، وأصله التوسعُ في كل شيء، قال: شحا فاه يشحوه، ويشحاه شحواً فتحه، وشحا فوه انفتح، يتعدى ولا يتعدى، والحديث لم نقف عليه.

(٢) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤٩٦ - ٤٩٧، وتهذيب اللغة ٥/ ١٤٨.

(٣) سلف ٣/ ٢٢٨.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٧.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٩٦.

(٦) انظر النوادر والزيادات ٨/ ٣٠٨ وما بعدها.

(٧) في (م): قد بدأ.

بمعنى البُغض(١).

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ يعني: المنافقين؛ دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾؛ قاله أبو العالية ومقاتل(٢).

والمحبةُ هنا بمعنى: المصافاة، أي: أنتم أيها المسلمون تُصافونهم، ولا يُصافونكم لِنفاقهم(٣).

وقيل: المعنى: تريدون لهم الإسلامَ، وهم يريدون لكم الكفر(٤).

وقيل: المرادُ: اليهودُ(٥)؛ قاله الأكثرُ.

والكتاب اسمُ جنسٍ؛ قال ابن عباس: يعني: بالكُتُب. واليهودُ يؤمنون بالبعض؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ [البقرة: ٩١].

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، أي: بمحمد ﷺ، وأنه رسولُ اللهِ ﷺ. ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ فيما بينهم ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ﴾ يعني: أطرافَ الأصابع ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾ والحنَقِ عليكم؛ فيقول بعضُهم لبعض: ألا ترَون إلى هؤلاء ظهروا وكثُروا(٦).

والعَضُّ: عبارةٌ عن شِدَّة الغيظِ مع عدمِ القدرةِ على إنفاذه؛ ومنه قولُ أبي طالب:

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٧، وقراءة ابن مسعود ﷺ وردت في معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣١، وتفسير الطبري ٥/ ٧١٤، والكشاف ١/ ٤٥٨.

(٢) قول أبي العالية أورده ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٤٤٧، وقول مقاتل أورده البغوي في تفسيره ١/ ٣٤٥.

(٣) ينظر مجمع البيان ٤/ ١٧٩، وزاد المسير ١/ ٤٤٧.

(٤) ينظر الوسيط ١/ ٤٨٣.

(٥) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٤٩٧.

(٦) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٤.

يَعَضُّونَ غَيْظاً خَلْفَنَا بالأنامِلِ[(١)]

وقال آخر:

إذا رَأَونِي ـ أطال الله غيظَهُمُ ـ عَضُّوا من الغَيْظِ أطْرافَ الأبَاهِيم[(٢)]

يقال: عَضَّ يَعَضُّ عَضّاً وعَضِيضاً. والعُضُّ، بضم العين: عَلَفُ أهلِ[(٣)] الأمصار، مثلُ الكُسْبِ والنَّوَى المرْضُوخِ، تقول[(٤)] منه: أعَضَّ القومُ، إذا أكلت إبلُهم العُضَّ. وبعير عُضَاضيٌّ، أي: سمينٌ، كأنه منسوبٌ إليه. والعِضُّ، بالكسر: الدَّاهي من الرجال والبليغُ المُنكَرُ[(٥)].

وعَضُّ الأناملِ من فعل المُغْضَبِ الذي فاته ما لا يَقدِرُ عليه، أو نزل به ما لا يَقدِرُ على تغييره. وهذا العَضُّ هو بالأسنان، كعَضِّ اليد على اليد[(٦)] على فائتٍ قريبِ الفوت[(٧)]. وكقرع السِّنِّ النَّادمةِ، إلى غير ذلك من عدِّ الحصى والخَطِّ في الأرض للمهموم. ويُكتب هذا العضُّ بالضاد السَّاقطة، وعَظُّ الزمانِ بالظاء المشالة[(٨)]؛ كما قال:

وعَظُّ زمانٍ يا ابنَ مَرْوانَ لم يَدَعْ من المال إلا مُسْحَتاً أو مُجَلَّفُ[(٩)]

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٧، والبيت ورد في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٧٢، والروض الأنف ٢/ ١٣، والدر المصون ٣/ ٣٧٠، واللباب ٥/ ٤٩٧، والبحر المحيط ٣/ ٤١، وصدره: وقد حالفوا قوماً علينا أَظِنَّةً.

(٢) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ٢/ ٣٥٨.

(٣) في (م): علف دوابِّ أهل، والمثبت من النسخ الخطية، وهو موافق لما في الصحاح (عضض)، وتهذيب اللغة ١/ ٧٥.

(٤) في (خ) و (د): يقال، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للصحاح (عضض)، والكلام منه.

(٥) في (م): المكر، والمثبت من النسخ الخطية، وهو موافق لما في الصحاح والمجمل (عضض) وتهذيب اللغة ١/ ٧٤.

(٦) قوله: على اليد، ليست في (م).

(٧) في (د) و(م): الفوات، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٨) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤٩٧.

(٩) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ص٥٥٦، وفيه: مجرَّف بدل: مجلَّف، وفيه أيضاً وفي المحتسب ٢/ ٣٦٥، وطبقات فحول الشعراء ١/ ٣٦٨، والجمل للزجاجي ص٢٠٤، والإنصاف ١/ ١٨٨، =

وواحدُ الأناملِ: أَنْمُلة ـ بضم الميم ـ، ويقال: بفتحها، والضَّمُّ أشهر. وكان أبو الجَوْزَاء إذا تلا هذه الآيةَ قال: هُم الإباضِية[١]، قال ابن عطيَّة[٢]: وهذه الصِّفةُ قد تترتَّبُ في كثيرٍ من أهل بدعٍ من الناس إلى[٣] يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن قيل: كيف لم يموتوا واللهُ تعالى إذا قال لشيء: كن، فيكون؟ قيل عنه جوابان:

أحدُهُما: قال فيه الطبريُّ[٤] وكثيرٌ من المفسرين: هو دعاءٌ عليهم، أي: قل يا محمدُ: أدام الله غيظَكم إلى أنْ تموتوا. فعلى هذا يتجه أن يُدْعَى[٥] عليهم بهذا مُوَاجهةً وغيرَ مواجَهةٍ، بخلاف اللَّعْنَة.

الثاني: أنَّ المعنى: أَخْبِرْهم أنهم لا يدركون ما يُؤَمِّلون، فإنَّ الموتَ دون ذلك. فعلى هذا زال[٦] معنى الدعاءِ، وبقي معنى التقْرِيعِ والإغَاظَة. ويجري هذا المعنى مع قولِ مسافرِ بن أبي عمرو:

وَنَنْمِي[٧] في أَرُومتنا ونَفْقَأُ عينَ مَنْ حَسَدا[٨]

= والخزانة ٥/ ١٤٤ : وعضٌّ، بدل: وعظٌّ، ونقل البغدادي في الخزانة ٥/ ١٥٢ عن الخليل قوله: العضّ كله بالضاد إلا عظّ الزمان والحربِ، ونقل أيضاً عن ابن سِراج: العظّ المجازي بالظاء والحقيقي بالضاد، وقوله: مُسْحَت، أي: مُهْلَك، ومُجلَّف: الذي بقيت منه بقية، والمجلَّف أيضاً الرجل الذي جلَّفته السِّنون، أي: أذهبت أمواله. اللسان (جلف).

(١) أخرجه الطبري ٥/ ٧١٩ وسلف التعريف بالإباضية في الصفحة ٢٤٤ من هذا الجزء.

(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٨ ، وما قبله منه.

(٣) في (د) و (م): أهل البدع إلى، والمثبت من (خ) و(ط)، وهو الموافق للمحرر الوجيز ١/ ٤٩٨ .

(٤) في تفسيره ٥/ ٧٢١ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٨ ، وعنه نقل المصنف.

(٥) في (م): يدعو.

(٦) في (د) و (م): هذا المعنى زال، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق للمحرر الوجيز ١/ ٤٨٩ .

(٧) في (د) و (م): يتمنى، وفي (خ): ينمي، وسقطت الكلمة من (ز) و (ظ)، والمثبت من المحرر الوجيز ١/ ٤٩٨ ، والكلام منه.

(٨) ورد البيت في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٥٠ ، والأغاني ٩/ ٥٥ ، وفيهما: وزمزم، بدل: وننمي، وقوله: ننمي من نمى ينمي نمياً، ونمى الماء: طمى وعلا. انظر القاموس (نما)، وقوله: أرومتنا، بوزن أكولة: الأصل. النهاية (أرم). ومسافر بن أبي عمرو هو أبو أمية كان سيداً جواداً، أحد أزواد الركب الثلاثة: زمعة بن الأسود، وأبو أمية بن المغيرة، ومسافر، وسُمُّوا بذلك؛ لأنهم كانوا لا يدَعون غريباً ولا محتاجاً إلا تكفّلوا به حتى يظعن. انظر الأغاني ٩/ ٤٩ . وهذا الرجز قاله مسافر في أبيات له يفخر بها على قريش.

وينظر إلى هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٦].

قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ قرأ السُّلَميُّ بالياء[(١)]، والباقون بالتاء.

واللفظُ عامٌّ في كل ما يحسُن ويَسُوء. وما ذكره المفسرون من الخِصْب والجَدْب، واجتماعِ المؤمنين، ودخولِ الفُرقةِ بينهم، إلى غير ذلك من الأقوال؛ أمثلةٌ، وليس باختلاف.

والمعنى في الآية: أنَّ من كانت هذه صفتَه؛ من شدَّة العداوةِ والحِقدِ، والفرحِ بنزول الشَّدائدِ بالمؤمنين[(٢)]، لم يكن أهلاً لأَنْ يُتَّخذَ بِطانةً، لا سِيما في هذا الأمرِ الجسيمِ من الجهاد، الذي هو مِلاكُ الدنيا والآخرةِ؛ ولقد أحسن القائلُ في قوله:

كلُّ العداوةِ قد تُرجَى إفاقتُها   إلَّا عداوةَ مَن عاداك مِنْ حسدِ[(٣)]

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾، أي: على أذاهم، وعلى الطَّاعة، وموالاةِ المؤمنين ﴿وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضِرْكُم كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ يقال: ضارَه يَضُوره ويَضِيرُه ضَيْراً وضَوْراً؛ فَشَرط تعالى نفيَ ضَرِرهم بالصَّبر والتقوى، فكان ذلك تسليةً للمؤمنين وتقويةً لنفوسهم[(٤)]. قلت[(٥)]: قرأ الحِرْميَّان وأبو عمرٍو: ﴿لَا يَضِرْكُمْ﴾[(٦)] من ضارَ يضير كما ذكرنا؛ ومنه قوله: ﴿لَا

(١) لم نقف على هذه القراءة، وذكرها أبو حيان في البحر ٣/ ٤٣ ، وقال: لأن تأنيث الحسنة مجازي.

(٢) في (د) و (م): على المؤمنين، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٨ ، وفيه: إزالتها، بدل: إفاقتها، وورد البيت في عيون الأخبار ٢/ ١٠ ، وبهجة المجالس ١/ ٤١٤ من غير نسبة، وفيهما: إماتتها، بدل: إفاقتها، والمزهر ١/ ٨٠ ، وفيه: العداوات، بدل: العداوة.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٨ - ٤٩٩ .

(٥) في (خ) و (د): قراءات، وسقطت هذه الكلمة من (ظ)، والمثبت من (م).

(٦) السبعة ص٢١٥ ، والتيسير ص٩٠ : وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: لا يضُرُّكم، بضم الراء وتشديدها كما سيذكر المصنف. والحِرْميان هما: نافع المدني، وابن كثير المكي، قال في اللسان (حرم): النسب في الناس إلى الحرم: حِرْميّ، بكسر الحاء وسكون الراء، يقال: رجل حِرْميّ، فإذا كان في غير الناس، قالوا: ثوب حَرَميّ.

ضَيْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، وحُذفت الياءُ لالتقاء الساكنَين؛ لأنك لمَّا حَذَفْتَ الضَّمةَ من الراء، بقيتْ الراء ساكنةً، والياءُ ساكنة، فحُذِفت الياءُ، وكانت أولى بالحذف؛ لأنَّ قبلَها ما يدلُّ عليها.

وحكى الكسائيُّ أنه سمع: «ضَارَه يَضُورُه»، وأجاز: «لا يَضُرْكُم»، وزعم أنَّ في قراءة أُبَيِّ بن كعبٍ: «لا يَضْرُرْكُم»[١].

وقرأ الكوفيون: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بضمِّ الراءِ وتشديدِها؛ من ضَرَّ يَضُرُّ[٢]. ويجوزُ أنْ يكونَ مرفوعاً على تقدير إضمارِ الفاءِ؛ والمعنى: فلا يضُرُّكم، ومنه قولُ الشاعر:

مَن يَفعلِ الحسناتِ[٣] اللهُ يَشْكُرُها

هذا قولُ الكسائيِّ والفرَّاءِ[٤]، أو يكونَ مرفوعاً على نيَّة التَّقديم؛ وأنشد سيبويه[٥]:

إنـك[٦] إنْ يُـصـرَعْ أخـوك تُـصْـرَعُ

أي: لا يضرُّكم إنْ تصبِروا وتتقوا[٧].

ويجوز أنْ يكونَ مجزوماً، وضُمَّت الراءُ لالتقاء السَّاكنَين على إتباعِ الضَّم. وكذلك قراءةُ من فَتح الراءَ على أنَّ الفعلَ مجزومٌ، وفَتح «يَضُرَّكم»؛ لالتقاء

(١) في (خ) و(ظ): لا يضور، وفي (د): لا يضر، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٣ ، والكلام منه، وقراءة أُبيّ وردت في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٩ ، والبحر المحيط ٣/ ٤٣ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٣ ، وانظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٢ ، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٦٤-٤٦٥ .

(٣) في (خ) و (ظ): الخيرات، والمثبت من (د) و (م)، وهو الموافق لمصادر التخريج.

(٤) في معاني القرآن ١/ ٢٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٤ ، وعنه نقل المصنف، والبيت نُسب لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، كما سلف ٣/ ٩٢ .

(٥) في الكتاب ٣/ ٦٧ .

(٦) لفظة: إنك، من (م).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٤ ، والبيت نسبه سيبويه في الكتاب ٣/ ٦٧ لجرير بن عبدالله، ونسبه البغدادي في خزانة الأدب ٨/ ٢٠ لعمرو بن خُثارم، وورد الرجز في الكامل ١/ ١٧٤ ، والمقتضب ٢/ ٧٢ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ١٥٥ ، وأمالي ابن الشجري ١/ ١٢٥ ، والمقرَّب ١/ ٢٧٥ من غير نسبة، وقبله: يا أقرعُ بنَ حابسٍ يا أقرعُ.

الساكنين؛ لخفَّة الفتح؛ رواه أبو زيدٍ عن المفضَّل، عن عاصم[١]، حكاه المَهْدوِيُّ.

وحكى النحاسُ: وزعمَ المفضَّل الضَّبيُّ عن عاصم[٢]: «لا يَضُرِّكم» بكسر الراءِ لالتقاء السَّاكنَين[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ العامل في «إِذْ» فعلٌ مضمرٌ تقديرُه: واذكر إذْ غدوت، يعني: خرجت بالصَّباح. ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾: من منزلك من عندِ عائشة. ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، هذه غزوةُ أُحُدٍ، وفيها نزلت هذه الآيةُ كلُّها[٤].

وقال مجاهدٌ والحسنُ ومقاتل والكلبيُّ: هي غزوةُ الخَنْدَقِ[٥].

وعن الحسن أيضاً: يوم بَدْرٍ[٦].

والجمهورُ: على أنها غزوةُ أُحُدٍ[٧]؛ يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾. وهذا إنَّما كان يومَ أُحدٍ، وكان المشركون قَصدوا المدينةَ في ثلاثة آلافِ رجلٍ، ليأخذوا بثأْرهم في يوم بدر؛ فنزلوا عند أُحُدٍ على شَفِير الوادي

---

(١) انظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٩، وقراءة عاصم هذه ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٢، والزمخشري في الكشاف ١/ ٤٦٠.

(٢) قوله: الضبي عن عاصم، ليس في (ظ).

(٣) كذا حكى المصنف عن النحاس، والذي في إعراب القرآن ١/ ٤٠٣ أن رواية المفضل عن عاصم، بفتح الراء كما ذكر قبل، وأما الكسر، فقد ذكره النحاس وجهاً لا قراءة، قال ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٩: أما الكسر فلا أعرفها قراءة، وعبارة الزجاج (في معاني القرآن ١/ ٤٦٥) في هذا متجوز فيها، إذ يظهر من دَرَج كلامِه أنها قراءة. اهـ. وأما كسر الراء في: لا يَضُرِّكم، فقد نسبه السمين في الدر ٣/ ٣٧٧، وأبو حيان في البحر المحيط ٣/ ٤٣ للضحاك.

(٤) تنظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٠٦، وتفسير الطبري ٦/ ٧، وأسباب النزول ص ١١٥ - ١١٦.

(٥) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٥، وتفسير الطبري ٦/ ٧، والنكت والعيون ١/ ٤٢٠.

(٦) أورده البغوي ١/ ٣٤٦.

(٧) ينظر تفسير البغوي ١/ ٣٤٦، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٩.

بقناةٍ مقابل المدينة، يومَ الأربعاء الثاني عشرَ من شوَّال سنةَ ثلاثٍ من الهِجرة، على رأس أَحَدٍ وثلاثينَ شهراً من الهجرة، فأقاموا هنالك يومَ الخميس، ورسول الله ﷺ بالمدينة[١]؛ فرأى رسولُ اللهِ ﷺ في منامه أنَّ في سيفه ثُلْمَةً، وأنَّ بقراً له تُذبحُ، وأنه أَدخل يدَه في دِرْعٍ حصينةٍ؛ فتأوَّلَها أنَّ نفراً من أصحابه يُقتلون، وأنَّ رجلاً من أهل بيتِه يُصاب، وأنَّ الدِّرعَ الحصينةَ المدينةُ. أخرجه مسلم[٢]. فكان كلُّ ذلك على ما هو معروفٌ مشهورٌ من تلك الغَزاة.

وأصلُ التبوُّءِ اتخاذُ المنزل، بوَّأْتُه منزلاً: إذا أسكنته إياه؛ ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «من كذبَ عليَّ مُتعمِّداً، فَلْيتبوَّأْ مقعدَه مِنَ النَّارِ»[٣]، أي: لِيتخذْ فيها منزلاً. فمعنى «تُبوِّئُ المؤمنين»: تَتَّخذُ لهم مَصافَّ[٤].

وذكر البيهقيُّ من حديث أنس أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «رأيتُ فيما يرى النائمُ كأنِّي مُردِفٌ كبشاً، وكأنَّ ظُبَةَ[٥] سيفي انكسرت، فأوَّلْتُ أنّي أَقْتُلُ كبشَ القومِ، وأوَّلْتُ كَسْرَ ظُبَةِ[٦] سيفِي، قَتْلَ رجلٍ من عِترتي» فقُتل[٧] حمزةُ، وقَتلَ رسولُ اللهِ ﷺ طلحةَ، وكان صاحبَ اللِّواءِ[٨].

وذكر موسى بنُ عقبةَ عن ابن شهاب: وكان حاملَ لواءِ المهاجرين رجلٌ من

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٠.

(٢) برقم (٢٢٧٢) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ بنحوه، وهو عند البخاري (٣٦٢٢)، وأخرجه أحمد (٢٤٤٥) (١٤٧٨٧) من حديث ابن عباس وجابر ﷺ.

(٣) سلف ١/ ٥٧.

(٤) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٠١.

(٥) في (خ): طية، وفي (د) و (ظ) و (م): ضبة، والمثبت من دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٢٠٥، ومصادر الحديث.

(٦) في (د) و (م): ضبة، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٧) لفظة: فقُتل، من (د) و (م).

(٨) البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢٠٥ وفيه: وقُتل طلحة بن أبي طلحة وكان صاحب اللواء. وأخرجه أيضاً البراز (كشف الأستار) (٢١٣١)، والطبراني في الكبير (٢٩٥٠)، والحاكم ٣/ ١٩٨. وهو عند أحمد (١٣٨٢٥) مختصراً، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٠٧ - ١٠٨: رواه الطبراني، وأحمد ولم يكمله، وفيه علي بن زيد، وهو سيىء الحفظ، وبقية رجاله رجال الصحيح، وقوله: ظُبة سيفي، أي: طرفه، ويجمع على الظُّباه والظبين. النهاية (ظبب).

أصحاب رسولِ الله ﷺ، فقال: أنا عاصمٌ إنْ شاء الله لِمَا معي؛ فقال له طلحة بنُ عثمانَ أخو سعيد[١] بنُ عثمانَ اللخميُّ[٢]: هل لك يا عاصم في المبارزة؟ قال: نعم؛ فبدَره ذلك الرَّجلُ، فَضَرب بالسَّيف على رأس طلحةَ حتى وقع السَّيفُ في لَحْيَيْهِ[٣]، فقتله؛ فكان قتلُ صاحبِ لواءِ المشركين تصديقاً[٤] لرؤيا رسولِ الله ﷺ: «أني[٥] مُرْدِفٌ كبشاً»[٦].

قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

العامل في «إذ»: «تبوئ»، أو: «سميع عليم». والطائفتان: بنو سلَمةَ من الخزرج، وبنو حارِثةَ من الأوس، وكانا جناحَي العسكرِ يومَ أُحُدٍ. ومعنى ﴿أَن تَفْشَلَا﴾: أن[٧] تَجْبُنا[٨].

وفي البخاريِّ عن جابرٍ قال: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، قال: نحن الطائفتان: بنو حارثةَ وبنو سلمةَ، وما نُحِبُّ أنَّها لم تَنزلْ؛ لقول اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[٩].

وقيل: هم بنو الحارثِ، وبنو[١٠] الخزرج، وبنو النَّبِيت[١١]، والنَّبِيت: هو عمرو

---

(١) في (خ): شيبة.

(٢) في (د): الحجبي.

(٣) في (خ) و (ظ) و(م) والدلائل (كما سيرد): لحيته.

(٤) في (م): اللواء تصديقاً.

(٥) في (خ): أيْ، وفي (ظ) و (م): كأني، والمثبت من (د)، وهو الموافق لدلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٢١٠ .

(٦) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢١٠ مطولاً.

(٧) في (خ) و (ظ): أي.

(٨) ينظر تفسير البغوي ١/ ٣٤٧ ، وتفسير الرازي ٨/ ٢٢٠ .

(٩) صحيح البخاري (٤٥٥٨)، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٥٠٥).

(١٠) في (خ) و (ظ): ابن.

(١١) في (خ) و (ظ): النبت، وقد سقطت الكلمة من (د).

ابنُ مالك من بني الأوس. والفشلُ: عبارةٌ عنِ الجبن؛ وكذلك هو في اللغة.

والهَمُّ من الطائفتين كان بعد الخروجِ؛ لمَّا رجع عبدالله بنُ أُبَيٍّ بمن معه من المنافقين، فحفِظ الله قلوبَهم، فلم يرجعوا؛ فذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾، يعني: حافظٌ قلوبَهما عن تحقيق هذا الهمِّ[١].

وقيل: أرادوا التَّقاعدَ عن الخروج، وكان ذلك صغيرةً منهم.

وقيل: كان ذلك حديثَ نفسٍ منهم خَطَر ببالهم، فأطلَع اللهُ نبيَّه عليه الصلاة والسلام، فازدادوا[٢] بصيرةً؛ ولم يكن ذلك الخَوَرُ[٣] مكتسَباً لهم، فعصَمهم الله، وذمَّ[٤] بعضُهم بعضاً، ونهضوا مع النبيِّ ﷺ، فمضى رسولُ اللهِ ﷺ حتى أطَلَّ[٥] على المشركين، وكان خروجُه من المدينة في ألفٍ، فرجعَ عنه عبداللهِ بنُ أبَيّ بنُ سَلُولٍ بثلاث مئة رجلٍ مُغاضِباً؛ إذْ خُولِف رأيُه حين أشار بالقعود والقتالِ في المدينة إن نهض إليهم العدوُّ، وكان رأيُه وافَقَ رأيَ رسولِ الله ﷺ، وأبى ذلك أكثرُ الأنصار[٦]، وسيأتي[٧]. ونهضَ رسولُ الله ﷺ بالمسلمين، فاستُشهِد منهم من أكرمه الله بالشَّهادة.

قال مالكٌ رحمه الله: قُتِل من المهاجرين يومَ أُحُدٍ أربعةٌ، ومن الأنصارِ سبعون ﷺ[٨].

والمقاعِدُ: جمع مَقْعَدٍ وهو مكانُ القعود، وهذا بمنزلة: مَوَاقف، ولكنَّ لفظَ القعودِ دالٌّ على الثُّبوت؛ ولاسِيما أنَّ الرُّماةَ كانوا قعوداً[٩]. هذا معنى حديثِ غزاةِ

---

(١) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٥، وتفسير الطبري ٦/ ١٥.

(٢) في (ظ): فازداد.

(٣) في النسخ: الجور، والمثبت من (م)، وقوله: الخَوَر: الضعف، يقال: خار يخور: ضعف وانكسر. انظر الصحاح (خور).

(٤) في (خ): ودبر، وفي (ظ): ودمر، والمثبت من (د) و (م)، وهو الموافق للمحرر الوجيز ١/ ٥٠٠.

(٥) في النسخ الخطية: أظل، والمثبت من (م).

(٦) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٣ - ٦٤، والدررفي اختصار المغازي والسِّير لابن عبد البَرّ ص١٥٦-١٥٧، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٠.

(٧) ص٣٨٥ من هذا الجزء.

(٨) الجامع في السنن والآداب لابن أبي زيد القيرواني ص ٢٧٧.

(٩) المحرر الوجيز ١/ ٥٠١.

أُحدٍ على الاختصار، وسيأتي من تفصيلها ما فيه شِفاءٌ[١].

وكان مع المشركين يومَئِذٍ مئةُ فرسٍ عليها خالد بنُ الوليد، ولم يكن مع المسلمين يَومئِذٍ فرسٌ. وفيها جُرِحَ رسولُ اللهِ ﷺ في وجهه، وكُسِرتْ رَباعِيَتُه[٢] اليمنى السُّفلى بحجر، وهُشِمت البَيْضَةُ[٣] من على رأسه ﷺ، وجزاه عن أُمَّته ودِينه بأفضل ما جزى به نبيّاً من أنبيائه عن[٤] صبره. وكان الذي تَوَلَّى ذلك من النبيِّ ﷺ عمرو بنُ قَمِئَة[٥] الليثيُّ، وعُتْبةُ بنُ أبي وَقَّاص.

وقد قيل: إنَّ عبدَ اللهِ بنَ شِهابٍ ـ جدَّ الفقيهِ محمدِ بنِ مسلم بنِ شهابٍ ـ هو الذي شَجَّ رسولَ الله ﷺ في جبهته[٦].

قال الواقِدِيُّ[٧]: والثابتُ عندنا أنَّ الذي رمى في وجْنَتَي[٨] النبيِّ ﷺ ابنُ قمئةَ، والذي أَدمى شفتَه وأصابَ رَباعِيَتَه عُتبةُ بنُ أبي وَقَّاص.

قال الواقِدِيُّ بإسناده عن نافع بنِ جُبير قال: سمعت رجلاً من المهاجرين يقولُ: شهدتُ أُحُداً، فنظرتُ إلى النَّبْلِ تأتي من كل ناحية، ورسولُ اللهِ ﷺ وسطَها، كلُّ [ذلك] يُصْرَفُ عنه. ولقد رأيتُ عبدَ اللهِ بنَ شِهاب الزُّهرِيَّ يقولُ يومئذٍ: دُلُّونِي على محمد، دُلُّوني على محمد، فلا نجوْتُ إنْ نجا، [وإنَّ] رسولَ اللهِ ﷺ إلى جنْبه ما معه أحدٌ، ثمَّ جاوزَه، فعاتبه في ذلك صفوانُ، فقال: واللهِ ما رأيتُه، أحلِفُ بالله إنه مِنَّا ممنوعٌ! خرجنا أربعةً، فتعاهدْنا وتعاقدنا على قتله، [فلم نَخْلُصْ إلى ذلك][٩].

---

(١) ص٣٥٨-٣٧٥.

(٢) انظر صحيح مسلم (١٧٦١)، وسيذكره المصنف ص٣٠٦. قوله: رَبَاعِيَته، هي السنُّ التي بين الثنيةِ والناب، والجمع رَبَاعيات. الصحاح (ربع).

(٣) قوله: البيضة: الخوذة. انظر النهاية ٤/ ١١٤.

(٤) في (م): على.

(٥) في (م): قميئة.

(٦) الدرر في اختصار المغازي والسِّير ص١٦١، وانظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٧٩ - ٨٠.

(٧) في المغازي ١/ ٢٤٤.

(٨) في (د) و (م): وجه، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لمغازي الواقدي ١/ ٢٤٤.

(٩) في المغازي ١/ ٢٣٧ - ٢٣٨، وما بين حاصرتين منه.

وأكَبَّتِ الحجارةُ على رسول اللهِ ﷺ حتَّى سقط في حفرة، كان أبو عامر الرَّاهبُ قد حفرها مكيدةً للمسلمين، فخرَّ عليه الصلاة والسَّلام على جنبه، [فأخَذ عليٌّ بيده]، واحتضنه طلحةُ حتَى قام، ومَصَّ مالك بنُ سِنان والدُ أبي سعيدٍ الخدرِيّ من جُرْح رسولِ الله ﷺ الدَّمَ، ونَشِبَتْ[١] حلْقَتان من دِرع المِغْفَر[٢] في وجهه ﷺ، فانتزعهما أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاح، وعَضّ عليهما بِثَنِيَّتَيهِ، فسقطتا؛ فكان أهْتَمَ[٣] يُزيِّنُه هَتَمُه ﷺ[٤].

وفي هذه الغَزاةِ قُتل حمزةُ ﷺ، قتلَه وحشِيٌّ، وكان وَحْشِيٌّ مملوكاً لجُبير بنِ مُطْعِم، وقد كان جبيرٌ قال له: إنْ قَتلتَ محمداً جعلنا لك أعِنَّةَ الخيلِ، وإنْ أنت قتلتَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ جعلنا لك مئة ناقةٍ؛ كلُّها سُودُ الحَدَق، وإنْ أنت قتلتَ حمزةَ، فأنت حُرٌّ. فقال وحشِيٌّ: أمَّا محمدٌ فعليه حافظٌ من الله لا يخلُص إليه أحدٌ. وأما عليٌّ ما برز إليه أحدٌ إلَّا قتلَه. وأما حمزةُ فرجل شجاعٌ، وعسى أنْ أُصادفَه فأقتلَه. وكانت هِندُ كلَّما مرَّ بها[٥] وَحْشِيٌّ أو مرَّتْ به، قالت: إيْهاً أبا دَسَمَةَ، اشْفِ واستشفِ. فكَمِنَ له خلفَ صَخْرة، وكان حمزةُ حَمَلَ على القوم من المشركين، فلمَّا رجع من حَمْلته، ومرَّ بوحشِيٍّ، زَرَقه بالمِزْرَاق[٦]، فأصابه فسقط منها[٧]، رحمه الله ورضي عنه[٨].

قال ابنُ إسحاقَ: فَبَقَرت هِنْدٌ عن كبدِ حمزةَ، فلاكَتْها، فلم[٩] تستطع أنْ تُسِيغَها، فلفَظَتْها، ثم علَتْ على صخرة مُشْرفةٍ، فصرخَتْ بأعلى صوتِها، فقالت:

نــحــنُ جَــزَيْــنــاكــم بــيَــوْم بَــدْرِ والـحـربُ بـعـدَ الـحـربِ ذاتُ سُـعْـرِ

(١) يعني علقت، ووقع في (د) و (م): تشبثت، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق للدُّرر في اختصار المغازي والسِّير لابن عبد البَرّ ص١٦١ ، والكلام منه.

(٢) قوله: المِغْفَر: زَردٌ (درع) ينسج على قدر الرأسِ يُلبس تحت القَلَنْسُوة. مختار الصحاح (غفر).

(٣) قوله: أَهتم من الهَتَم، وهو انكسار الثنايا من أصولها، وقيل: من أطرافها. انظر اللسان (هتم).

(٤) الدرر في اختصار المغازي والسِّير ص١٦١ ، وما بين حاصرتين منه.

(٥) في (د) و (م): تهيأ، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٦) قوله: المِزْراق: رمحٌ قصير. الصحاح (زرق).

(٧) في (م): ميتا.

(٨) انظر السير والمغازي لابن إسحاق ص ٣٢٣ - ٣٢٤ ، والمغازي للواقدي ١/ ٢٨٥ - ٢٨٧ ، والدرر في اختصار المغازي والسِّير لابن عبد البر ص١٦٧ .

(٩) في (خ): لم، وفي (م): ولم، والمثبت من (د) و (ظ).

ما كان عن عُتْبَةَ لي من صَبْرِ ... ولا أخِي وعَمِّهِ وبِكْرِي
شفَيْتُ نفسي وقضَيْتُ نَذْرِي ... شفيتَ وَحْشِيٌّ غليلَ صَدْرِي
فشُكْرُ وحْشِيٍّ عليَّ عُمْرِي ... حتى تَرِمَّ أعْظُمِي في قَبْرِي

فأجابتها هِنْدُ بنتُ أُثَاثَةَ بنِ عَبّاد بنِ المطَّلب[1]، فقالت:

خَزِيتِ[2] في بدْرٍ وبعدَ بدرِ ... يا بنتَ وقَّاعٍ عظيمِ الكُفْرِ
صبَّحَكِ اللهُ غَداةَ الفجرِ ... مِلْهَاشِمِيِّينَ الطِّوَال الزُّهْرِ
بكلِّ قَطَّاعٍ حُسامٍ يَفْرِي ... حمزةُ لَيْثِي وعَليٌّ صَقْرِي
إذْ رَامَ شَيْبَ وأبوكِ غَدْرِي ... فَخَضَّبَا منه ضَوَاحِي النَّحْرِ
ونَذْرُكِ السُّوء فشرُّ نَذْرِ[3]

وقال عبدالله بنُ رواحةَ يبكي حمزةَ ﷺ:

بكتْ عيني وحُقَّ لها بُكاها ... وما يُغني البكاءُ ولا العَوِيلُ
على أسَدِ الإلهِ غَداةَ قالوا: ... أحَمْزَةُ ذاكُم الرَّجُل القتِيلُ؟!
أُصيبَ المسلمونَ به جميعاً ... هناك، وقد أُصيب به الرَّسُولُ
أبا يَعْلَى لك الأركانُ هُدَّتْ ... وأنتَ الماجدُ البَرُّ الوَصُولُ

---

(١) في النسخ: بن عبد المطلب، والمثبت من مغازي ابن إسحاق ص٣٣٣، ومصادر الخبر، وهند بنت أثاثة هي أخت مسطح، القرشية المطَّلبيَّه، أسلمت بمكة. انظر الإصابه ١٣/ ١٥٩.

(٢) في (د) و (ظ): جُريتِ، والمثبت من (خ) و (م)، وهو الموافق لمغازي ابن إسحاق ص٣٣٣، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٩١.

(٣) السير والمغازي ص٣٣٣، والسيرة النبوية ٢/ ٩١ - ٩٢، وقولها: غليل: العطش أو مرارة الجوف، وقولها: تَرِمَّ: تبلى، وقولها: وقَّاع، أي كثير الوقوع. شرح غريب السيرة ٢/ ١١٥، وقولها: مِلْهاشِميِّين؛ الأصل: من الهاشميين، فحذفت النون من حرف «من» لالتقاء الساكنين، ولا يجوز ذلك إلا في «مِن» وحدها لكثرة استعمالها. الروض الأُنف ٣/ ١٧٧، وقولها: الزُّهر: البيض، وقولها: رام شيبَ، أي: أراد شيبةُ، فرخَّمَه في غير النداء، وقولها: ضواحي النحر، أي: ما ظهر من النحر. شرح غريب السيرة ٢/ ١١٥.

عليك سلامُ ربِّك في جِنانٍ مُخالِطُها[١] نعيمٌ لا يزولُ
ألا يا هاشمَ الأخيارِ صبراً فكلُّ فِعالِكم حَسَنٌ جميلُ
رسولُ اللهِ مصطبِرٌ كريمٌ بأمرِ الله ينطِقُ إذْ يقولُ
ألا مَنْ مُبْلِغٌ عنِّي لُؤَيّاً فبَعدَ اليومِ[٢] دائلَةٌ تَدُولُ
وقبلَ اليومِ ما عرَفوا وذاقوا وقائِعَنا بها يُشْفَى الغَلِيلُ
نسِيْتُم ضَرْبَنا بِقَليبِ بَدْرٍ غداةَ أتاكم الموتُ العَجِيلُ
غَداةَ ثَوَى أبو جهلٍ صريعاً عليه الطَّيْرُ حَائِمَةً تَجُولُ
وعُتْبَةُ وابنُه خَرَّا جميعاً وشَيْبَةُ عَضَّه السَّيفُ الصَّقِيلُ
ومَتْرَكُنا أمَيَّةَ مُجْلَعِبّاً وفي حَيْزُومِه لَدْنٌ نَبيلُ
وهَامَ بني ربيعةَ سائِلوها ففي أسيافِنا منها فُلُولُ
ألا يا هِنْدُ لا تُبدي شَمَاتاً بحمزةَ إنَّ عِزَّكُم ذَليلُ
ألا يا هِنْدُ فابكي لا تَمَلِّي فأنتِ الوَالِهُ العَبْرَى الهَبُولُ[٣]

ورَثَتْه أيضاً أختُه صفيةُ، وذلك مذكورٌ في السيرة[٤]، رضي اللهُ عنهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه مسألةٌ واحدةٌ، وهي بيانُ التوكُّلِ.

والتَّوكُّلُ في اللغة: إظهارُ العجزِ، والاعتمادُ على غيرك[٥]، ووَاكل فلانٌ: إذا

---

(١) في (خ) و (د): يخالطها، والمثبت من (ظ) و (م) ، وهو الموافق لمصدر التخريج.

(٢) في (خ) و (ظ): القوم، والمثبت من (د) و (م)، وهو الموافق لمصدر التخريج.

(٣) السيرة النبوية ٢/ ١٦٢ - ١٦٣ ، قوله: العويل: البكاء مع رفع الصوت، وقوله: أبو يعلى: كنية حمزة ﷺ، وقوله: الماجد: الشريف، وقوله دائلة تدول، يريد دَولة في الحرب بعد دولة، وقوله: حائمة، أي: مستديرة، وقوله: مُجْلَعِبّاً: ممتداً مع الأرض، والحَيزوم: أسفل الصدر، واللَّدْنُ: الرمحُ اللَّيِّن، ونبيل، أي: عظيم، والوالِهُ: الفاقد، والعَبْرَى: الكثيرةُ الدمع، والهَبُول: الفاقد أيضاً. شرح غريب السيرة ٢/ ١٥٩ - ١٦٠ .

(٤) انظر السيرة النبوية ٢/ ١٦٧ .

(٥) في (م): الغير.

ضَيَّع أمرَه مُتَّكلاً على غيره[١].

واختلف العلماء في حقيقةِ التَّوكلِ؛ فسُئِلَ عن ذلك[٢] سهل بنُ عبدالله، فقال: قالت فرقة: الرِّضا بالضَّمان، وقطع الطَّمَع من المخلوقين. وقال قومٌ: التَوكُّل: تركُ الأسبابِ والركونُ إلى مُسبِّب الأسباب؛ فإذا شغله السَّببُ عن المسبِّبِ، زال عنه اسمُ التوكُّل.

قال سَهْلٌ: من قال: إنَّ التَّوكلَ يكونُ بترك السَّبب، فقد طعَن في سُنَّة رسولِ اللهِ ﷺ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]. فالغنيمةُ اكتسابٌ، وقال تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، فهذا عَملٌ[٣]، وقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ يحبُّ العبدَ المحترِفَ»[٤]. وكان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يُقْرِضُون[٥]، على السَّرِيَّة.

قال غيرُه: وهذا قولُ عامَّةِ الفقهاءِ، وإنَّ التوكلَ على الله هو الثقةُ بالله، والإيقانُ بأنَّ قضاءَه ماضٍ، واتباعُ سنةِ نبيِّهِ ﷺ في السعي فيما لابدَّ منه من الأسباب؛ من مَطعم ومَشربٍ، وتحرُّزٍ من عدوٍّ، وإعدادِ الأسلحةِ، واستعمالِ ما تقتضيه سنةُ اللهِ تعالى المعتادةُ. وإلى هذا ذهب محقِّقو الصُّوفية، لكنه لا يستحقُّ اسمَ المتوكِّلِ[٦] عندَهم مع الطُّمأنينةِ إلى تلك الأسبابِ والالتفاتِ إليها بالقلوب؛ فإنها لا تجلبُ نفعاً ولا تدفعُ ضرّاً، بلِ السَّببُ والمسبَّبُ فعلُ اللهِ تعالى، والكلُّ منه وبمشيئته، ومتى وقع من

---

(١) انظر زاد المسير ١/ ٤٥٠، والمفهم ١/ ٤٦٧.

(٢) في (د) و (م): فسئل عنه.

(٣) تنظر حلية الأولياء ١٠/ ١٩٥، والرسالة القشيرية ٣/ ٥٤.

(٤) أخرجه ابن عدي ١/ ٣٦٩، والطبراني في الكبير (١٣٢٠٠)، والبيهقي في الشعب (١٢٣٧) من طريق أبي الربيع السمان، عن عاصم بن عُبيد الله، عن سالم، عن ابن عمر مرفوعاً، قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٥٨٩: هذا حديث لا يصح؛ أبو الربيع كان يكذب، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٦٢: فيه عاصم بن عُبيد الله، وهو ضعيف.

وأخرجه القضاعي في مسنده (١٠٧٢) من طريق عُبيد بن إسحاق، عن قيس، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عمر مرفوعاً، قال أبو حاتم كما في العلل لابنه ٢/ ١٢٨: هذا حديث منكر.

(٥) في (د) و (ظ): يعرضون، وفي (خ): يغرضون، والمثبت من (م).

(٦) في (د) و (ظ) و (م): التوكل، والمثبت من (خ)، وهو الموافق للمفهم ١/ ٤٦٧.

المتوكِّل ركونٌ إلى تلك الأسبابِ، فقد انسَلَخَ عن ذلك الاسم[١].

ثم المتوكلون على حالين:

الأوَّلُ: حالُ المتمَكِّن في التوكُّل، فلا يَلتَفتُ إلى شيءٍ من تلك الأسبابِ بقلبه، ولا يتعاطاها[٢] إلَّا بحكم الأمر.

الثاني: حالُ غيرِ المتَمكِّن، وهو الذي يقع له الالتفاتُ إلى الأسباب[٣] أحياناً، غيرَ أنه يدفعُها عن نفسه بالطُّرُق العِلْميَّة، والبراهينِ القطعيَّة، والأذواقِ الحاليَّة؛ فلا يزالُ كذلك إلى أنْ يُرَقِّيَه اللهُ بجوده إلى مقامِ المتوكلين المتمكِّنين، ويُلحِقَه بدرجات العارفين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ كانت بدرٌ يومَ سبعةَ عشرَ من رمضان، يوم جُمُعَة لثمانيةَ عشرَ شهراً من الهِجرة، وبدرٌ: مَاءٌ هنالك، وبه سُمِّيَ الموضِعُ.

وقال الشعبيُّ: كان ذلك الماءُ لرجلٍ من جُهَينةَ يُسَمَّى بدراً، وبه سُمِّي الموضع. والأوَّل أكثرُ.

وقال الواقِدِيُّ وغيرُه: بدرٌ: اسمٌ لموضع غيرُ منقول[٤]. وسيأتي في قِصةِ بدرٍ في

---

(١) المفهم ١/ ٤٦٧.

(٢) في (د) و (م): يتعاطاه، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق للمفهم ١/ ٤٦٨ والكلام منه.

(٣) في (د) و (م): إلى تلك الأسباب، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق للمفهم.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٢، وأخرج الطبري ٦/ ١٧ - ١٨ قول الشعبي والواقدي.

«الأنفال» إن شاء الله تعالى[١].

و﴿أَذِلَّةٌ﴾ معناها: قليلون؛ وذلك أنهم كانوا ثلاث مئةٍ وثلاثةَ عشَر أو أربعةَ عشَر رجلاً. وكان عدوُّهم ما بين التسع مئة إلى الألف.

و«أذِلة» جمعُ ذليل. واسم الذلّ في هذا الموضع مُسْتعارٌ، ولم يكونوا في أنفسهم إلَّا أعِزَّةً، ولكنَّ نسبتَهم إلى عدوِّهم وإلى جميع الكفَّار في أقطار الأرض، تقتضي عند التأمل[٢] ذِلَّتهم، وأنهم يُغلبون.

والنصرُ: العونُ؛ فنصرهم الله يومَ بَدْرٍ، وقُتِلَ فيه صنادِيدُ المشركين، وعلى ذلك اليومِ انبنى[٣] الإسلامُ، وكان أوَّلَ قتال قاتلَه النبيُّ ﷺ[٤].

وفي صحيح مسلم عن بُريدة قال: غزا رسول الله ﷺ سبعَ عَشْرةَ غزوةً، قاتل في ثمانٍ[٥] منهنَّ.

وفيه عن أبي[٦] إسحاقَ قال: لقيت زيدَ بنَ أرْقَم، فقلت له: كم غزا رسول الله ﷺ؟ قال: تسعَ عشْرَةَ غزوةً. فقلت: فكم غزوتَ أنت معه؟ فقال: سبعَ عَشْرةَ غزوةً. قال: فقلت: فما أوَّلُ غزوةٍ غزاها؟ قال: ذات العُسَير أو العُشَيْر[٧].

وهذا كلُّه مخالفٌ لما عليه أهلُ التواريخِ والسِّيَر. قال محمد بنُ سعد في كتاب «الطبقات» له: إن غزواتِ رسولِ الله ﷺ سبعٌ وعشرون غزوةً، وسراياه ستٌّ وخمسون، وفي رواية: ستٌّ وأربعون، والتي قاتل فيها رسولُ الله ﷺ: بَدْرٌ، وأُحدٌ[٨]، والمُرَيْسِيع، والخَنْدَق، وخَيْبَر، وقُرَيْظَة، والفتْحُ، وحُنَيْن، والطائف. قال

---

(١) في تفسير الآية (٩ - ١٠) منها.

(٢) في النسخ: المتأمل، والمثبت من (م).

(٣) في (د) و (ظ) و (م): ابتنى، والمثبت من (خ) و (ز) و (ف).

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٢ .

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٣/ ٦٩٣ وعنه نقل المصنف الحديث، وفي صحيح مسلم (١٨١٤) أنه ﷺ غزا تسع عشرة غزوة، بدل: سبع عشرة.

(٦) في (ظ) و (م): ابن، وهو خطأ، وأبو إسحاق: هو السبيعي.

(٧) صحيح مسلم (١٢٥٤) ص١٤٤٧ (كتاب الجهاد والسير)، وأخرجه أحمد (١٩٣٣٥)، والبخاري (٣٩٤٩).

(٨) في النسخ: بدراً وأحداً، والمثبت من (م).

ابن سعد: هذا الذي اجتمع لنا عليه. وفي بعض الروايات أنه قاتل في بني النَّضِير، وفي وادي القرى مُنصَرفَه من خَيْبَر، وفي الغَابة[١].

وإذا تقرَّر هذا فنقول: زيدٌ وبُريدةُ، إنما أخبر كلُّ واحدٍ منهما[٢] عما[٣] في علمه، أو شاهده. وقولُ زيدٍ: إن أوَّلَ غزاةٍ غزاها ذاتُ العُسَير[٤]، مخالفٌ أيضاً لما قال أهلُ التواريخ والسِّيَر.

قال محمد بن سعد: كان قبلَ غزوةِ العُشيرةِ ثلاثُ غَزَوات، يعني غزاها بنفسه[٥].

وقال ابن عبد البَرِّ في كتاب «الدُّرر في المغازي والسير»[٦]: أوَّلُ غزاةٍ غزاها رسول الله ﷺ غزوةُ وَدَّان[٧]، غزاها بنفسه في صَفَر؛ وذلك أنه وصل إلى المدينة لاثنتي عَشْرَةَ ليلةً خلت من ربيع الأوَّل، وأقام بها بقيَّةَ ربيع الأوَّل، وباقي العامِ كلِّه إلى صفر من سنة اثنتين من الهجرة، ثم خرج في صفر المذكور، واستعمل على المدينة سعد بنَ عبادةَ حتى بلغ وَدَّانَ، فوادع بني ضَمْرة، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق حَرْباً، وهي المسماةُ بغزوة الأبْوَاء، ثم أقام بالمدينة إلى ربيعِ الآخِرِ من السنة المذكورة، ثم خرج فيها، واستعمل على المدينة السائبَ بنَ عثمان بن مظعونٍ، حتى بلغ بَوَاط من ناحية رَضْوَى[٨]، ثمَّ رجع إلى المدينة ولم يلقَ حرباً، ثم أقام بها بقيةَ

---

(١) المفهم ٣/ ٦٩١، وعنه نقل المصنف قول ابن سعد، والذي في الطبقات ٢/ ٥ - ٦ أن سراياه التي بعث بها سبع وأربعون سرية والغابة: موضع قريب من المدينة من عواليها، وبها أموال لأهلها. النهاية (غيب).

(٢) في النسخ: منهم، والمثبت من (م).

(٣) في (د) و (م): بما.

(٤) في (ظ) العشير، وفي (م): العسيرة.

(٥) المفهم ٣/ ٦٩٢ وعنه نقل قول ابن سعد، والذي في الطبقات ٢/ ٨ - ٩ ذكر الغزوات الثلاث التي غزاها النبي ﷺ قبل غزوة العشيرة مفصّلة.

(٦) ص٩٠ - ٩٤.

(٧) وَدَّان: موضع بين مكة والمدينة من نواحي الفُرْع، بينها وبين الأبواء نحو من ثمانية أميال، قريبة من الجحفة، وبين الأبواء وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً. معجم البلدان ١/ ٧٩ و ٥/ ٣٦٥.

(٨) بواط، بضم الباء وفتحها: جبل من جبال جُهينة، بناحية رَضْوى، ورَضْوى: جبل بالمدينة، وهو من ينبع على مسيرة يوم، ومن المدينة على سبع مراحل. معجم البلدان ١/ ٥٠٣ و ٣/ ٥١.

ربيعٍ الآخر، وبعضَ جمادى الأولى، ثم خرج غازياً، واستخلف على المدينة أبا سلمةَ بن عبدِ الأسد، وأخذ على طريق مَلَلٍ[١] إلى العُشَيْرة.

قلت: ذكر ابن إسحاقَ عن عمار بنِ ياسر قال: كنت أنا وعليُّ بنُ أبي طالبٍ رفيقين في غزوةِ العُشيرة من بطن يَنْبُع، فلما نزلها رسولُ الله ﷺ أقام بها شهراً، فصالح بها بني مُدْلِجٍ وحلفاءَهم من بني ضَمْرة، فوادعهم، فقال لي عليُّ بنُ أبي طالب: هل لك أبا اليقظان أن تأتيَ هؤلاء ـ نفرٌ من بني مُدلج يعملون في عينٍ لهم ـ ننظر كيف يعملون؟ فأتيناهم، فنظرنا إليهم ساعةً، ثم غشيَنا النومُ، فعَمِدنا إلى صَوْرٍ من النخل في دَقْعَاءَ من الأرض، فَنِمْنا فيه، فوالله ما أَهَبَّنا إلا رسولُ الله ﷺ بقدمه، فجلسنا وقد تَتَرَّبنا من تلك الدَّقْعاء، فيومئذٍ قال رسول الله ﷺ لعليّ: «يا أبا تُراب»[٢]، فأخبرناه بما كان من أمرنا، فقال: «ألا أخبرُكم بأشقى الناس رجلين؟» قلنا: بلى يا رسول الله، فقال: «أُحَيْمِر ثمودَ الذي عقر الناقة، والذي يَضربُك يا عليُّ على هذه». ووضع رسول الله ﷺ يدَه على رأسه «حتَّى يَبُلَّ منها هذه». ووضع يده على لحيته[٣]

قال أبو عمر[٤]: فأقام بها بقيَّةَ جُمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة، ووادع فيها بني مُدْلِجٍ، ثم رجع ولم يلق حرباً.

ثم كانت بعد ذلك غزوةُ بدرٍ الأولى بأيام قلائلَ، هذا الذي لا يشكُّ فيه أهلُ التواريخ والسِّيَر، فزيد بنُ أرقم إنما أخبر عما عنده. والله أعلم.

ويُقال: ذاتُ العُسَير، بالسين والشين، ويزاد عليها، هاء فيقال: العُشَيْرَة[٥].

---

(١) في (د) صكك، وفي (ظ) و (م): ملك، وهو خطأ، والمثبت من (خ) و (ز) و (ف)، وهو الموافق لما في المفهم ٣/ ٦٩٢ ، وعنه نقل المصنف قول ابن عبد البر. ومَلَل: موضع، يقال: إنما سُمّي مللاً لأن الماشي إليه من المدينة لا يبلغه إلا بعد جهد وملل، وهو على عشرين ميلاً من المدينة أو أكثر قليلاً. قاله السهيلي في الروض الأنف ٣/ ٢٨ ، وانظر معجم البلدان ٥/ ١٩٤ .

(٢) في (م): ما بالك يا أبا تراب؟

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٥٩٩ - ٦٠٠ ، والحديث أخرجه أحمد (١٨٣٢١). قوله: صَوْر؛ النخل الصغار، والدقعاء: التربة الليّنة، وأهبَّنا: أيقظنا. الإملاء المختصر في شرح غريب السير للخشني ٢/ ٣٢ - ٣٣ .

(٤) في الدرر في اختصار المغازي والسير ص٩٤ .

(٥) المفهم ٣/ ٦٩٢ وما قبله منه.

ثم غزوةُ بدرٍ الكبرى، وهي أعظمُ المشاهد فضلاً لمن شهدها، وفيها أمدَّ الله بملائكته نبيَّهُ والمؤمنين في قول جماعةِ العلماء، وعليه يدلُّ ظاهرُ الآيةِ، لا في يوم أُحُد. ومن قال: إن ذلك كان يومَ أُحُدٍ جعل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ إلى قوله: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ اعتراضاً بين الكلامين. هذا قولُ عامر الشعبيِّ(١)، وخالفه الناس.

وتظاهرت الروايات بأن الملائكةَ حضرتْ يومَ بدر وقاتلت؛ ومن ذلك قولُ أبي أُسَيدٍ مالك بنِ ربيعة(٢): لو كنتُ معكم الآن ببدرٍ ومعي بصري؛ لأريتُكم الشِّعْبَ الذي خرجتْ منه الملائكةُ، لا أشكُّ ولا أمْتَري. رواه عقيل، عن الزُّهريِّ، عن أبي حازمٍ سلمَةَ بن دينار(٣).

قال ابن أبي حاتم: لا يُعرفُ للزهريِّ عن أبي حازمٍ غيرُ هذا الحديثِ الواحد، وأبو أُسَيْدٍ يُقال: إنه آخرُ من مات من أهل بدر؛ ذكره أبو عمر في «الاستيعاب» وغيره(٤).

وفي «صحيح» مسلم(٥) من حديث عمر بن الخطاب قال: لمّا كان يومُ بَدْر؛ نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاث مئة وسبعةَ عشرَ(٦) رجلاً، فاستقبل نبيُّ الله ﷺ القبلةَ، ثم مدَّ يديه، فجعل يَهْتِف بربِّه: «اللهم أنجِزْ لِي ما وَعدتَني، اللهم آتِني(٧) ما وعدتَني، اللَّهم إن تُهْلِكْ هذه العِصابةَ من أهل الإسلام؛ لا تُعْبَدْ في الأرض». فما زال يَهْتِف بربه مادّاً يديه، مُستقبلَ القبلةِ، حتى سقط رداؤُه عن مَنْكِبَيْه. فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءَه، فألقاه على مَنْكِبَيْه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبيَّ الله، كفاكَ مناشَدَتُك(٨) ربَّك، فإنه سيُنْجِزُ لك ما وَعدَك، فأنزل الله عز وجل:

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٢٠ - ٢١.

(٢) بعدها في (م): وكان شهيد بدر.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٣، وأخرجه الطبري ٦/ ٢٢، والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٥٢ - ٥٣.

(٤) الاستيعاب ١١/ ١٢٢ (بهامش الإصابة).

(٥) برقم (١٧٦٣) وما سيرد بين حاصرتين منه، وهو في مسند أحمد (٢٠٨).

(٦) في (م) وصحيح مسلم: وتسعة عشر، والمثبت موافق لما في المفهم ٣/ ٥٧٢، وعنه نقل المصنف.

(٧) في (م) وصحيح مسلم: آت.

(٨) بالرفع على أنه فاعل كفاك، وضُبط بالنصب على المفعول. المفهم ٣/ ٥٧٦.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فأمدَّه الله تعالى بالملائكة.

قال أبو زُمَيْل[١]: فحدَّثني ابنُ عباسٍ قال: بينما رجلٌ من المسلمين يومئذٍ يَشتدُّ في أَثَر رجلٍ من المشركين أمامه، إذْ سمع ضربةً بالسَّوط فوقه، وصوتَ الفارس يقول: أَقْدِم حَيْزُومُ، فنظر إلى المشرك أمامه، فخرَّ مستلقياً؛ فنظر إليه، فإذا هو قد خُطِم أنفُه[٢]، وشُقَّ وجهُه [كضربة السَّوط]، فاخضرَّ ذلك أجمع. فجاء الأنصاريُّ، فحدَّث بذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: «صدقْتَ، ذلك من مدد السَّماء الثالثة». فقَتلوا يومئذٍ سبعينَ، وأسروا سبعين. وذكر الحديث.

وسيأتي تمامُه في آخر «الأنفال»[٣] إن شاء الله تعالى. فتظاهرتِ السنةُ والقرآنُ على ما قالهُ الجمهور، والحمدُ لله.

وعن خارجةَ بنِ إبراهيم، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «مَن القائلُ يوم بدر من الملائكة: أقدِم حَيْزُوم؟» فقال جبريل: يا محمد، ما كلُّ أهلِ السماء أعرِف[٤].

وعن عليٍّ ﷺ أنه خطب الناسَ، فقال: بينا أنا أَمْتَح من قَليب بَدْر، جاءت ريحٌ شديدة لم أر مثلَها قطّ، ثم ذهبت، ثم جاءت ريحٌ شديدةٌ لم أر مثلَها قطّ إلّا التي كانت قبلَها، قال: وأظنُّه ذكر: ثم جاءت ريحٌ شديدةٌ، فكانت الرِّيحُ الأولى جبريل، نزل في ألفٍ من الملائكةِ مع رسول الله ﷺ، وكانت الرِّيحُ الثانيةُ ميكائيل، نزل في ألفٍ من الملائكة عن يمين رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر عن يمينه، وكانت الرِّيحُ الثالثةُ إسرافيل، نزل في ألفٍ من الملائكة عن مَيْسَرة رسول الله ﷺ وأنا في الميسرة[٥].

---

(١) هو سماك الحنفي، أحد رجال الإسناد.

(٢) أي: أثّر فيه أثراً كالخطام، وهو الزِّمام. المفهم ٣/ ٥٧٧ .

(٣) في تفسير الآية (٦٧) منها.

(٤) دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٥٧ ، وهو مرسل كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ٣/ ٢٨١ .

(٥) دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٥٥ من طريق موسى بن يعقوب الزمعي، عن أبي الحويرث أن محمد بن جبير =

وعن سهل بن حُنَيف ﷺ قال: لقد رأيتُنا يوم بدر، وإنَّ أحدَنا يُشير بسيفه إلى رأس المشرك، فيقع رأسُه عن جسدِه قبل أن يَصِل إليه[١].

وعن الرَّبيع بن أنس قال: كان الناسُ يوم بَدْر يعرفون قتلى الملائكة ممَّن قتلوهم؛ بضربٍ فوق الأعناق وعلى البَنَان، مثلُ سِمَة النار قد أُحرِق به؛ ذكر جميعه البيهقيُّ[٢] رحمه الله.

وقال بعضُهم: إنَّ الملائكةَ كانوا يقاتلون، وكانت علامةُ ضربهم في الكفار ظاهرةً؛ لأنَّ كلَّ موضعٍ أصابتْ ضربتُهم اشتعلت النارُ في ذلك الموضع، حتى إنَّ أبا جهلٍ قال لابن مسعود: أنت قتلتَني؟ !. إنما قتلَني الذي لم يصل سِناني إلى سُنْبُكِ فرسِه[٣] وإن اجتهدتُ. وإنما كانت الفائدةُ في كَثرة الملائكة لتسكين قلوبِ المؤمنين؛ ولأن الله تعالى جعل أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة؛ فكلُّ عسكر صَبَر واحتسب تأتيهم الملائكة ويقاتلون معهم[٤].

وقال ابن عباس ومجاهد: لم تقاتِل الملائكةُ إلا يوم بَدْر، وفيما سوى ذلك يَشهدون ولا يقاتلون، إنما يكونون عَدداً ومَدداً[٥].

وقال بعضهم: إنما كانت الفائدةُ في كثرة الملائكة أنهم كانوا يَدْعون ويسبِّحون، ويُكَثِّرون الذين يقاتلون يومئذ[٦]، فعلى هذا لم تقاتل الملائكةُ يوم بدر، وإنما حضروا للدُّعاء بالتثبيت، والأوَّلُ أكثر.

= ابن مطعم حدثه أنه سمع علياً..، وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٤٨٩)، والحاكم ٣/ ٦٨ - ٦٩ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، فتعقبه الذهبي بقوله: بل منكر عجيب، وأبو الحويرث عبد الرحمن؛ قال مالك: ليس بثقة، وموسى: فيه شيء.

(١) دلائل النبوة ٣/ ٥٦، وأخرجه الطبري في التاريخ ٢/ ٤٥٣ - ٤٥٤، والطبراني في الكبير (٥٥٥٦)، والحاكم ٣/ ٤٠٩ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٨٤ وقال: فيه محمد بن يحيى الإسكندراني، قال ابن يونس: روى مناكير.

(٢) دلائل النبوة ٣/ ٥٦.

(٣) السِّنان: نَصْل الرُّمح، والسُّنْبُك: طرف الحافر. القاموس (سنن، سنبك).

(٤) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٦.

(٥) تفسير البغوي ١/ ٣٤٧ - ٣٤٨، وأخرجهما الطبري ٦/ ٢٣ و ٢٥.

(٦) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٦ - ٢٩٧.

قال قتادة: كان هذا يوم بدر، أمدَّهم الله بألفٍ، ثم صاروا ثلاثةَ آلاف، ثم صاروا خمسةَ آلافٍ؛ فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩]، وقوله: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾، وقوله: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾. فصبر المؤمنون يوم بدرٍ، واتَّقوا الله، فأمدَّهم الله بخمسة آلاف من الملائكة على ما وعدهم، فهذا كلُّه يومَ بدر.

وقال الحسن: فهؤلاء الخمسةُ آلافِ رِدْءٌ للمؤمنين إلى يوم القيامة[١].

قال الشعبي: بلغ النبيَّ ﷺ وأصحابَه يومَ بدر أن كُرْزَ بنَ جابرٍ المُحارِبيَّ يريدُ أن يُمدَّ المشركين، فشقَّ ذلك على النبيِّ ﷺ وعلى المسلمين، فأنزل الله تعالى ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ فبلغ كُرْزاً الهزيمةُ، فلم يُمدَّهم ورجع، فلم يُمدَّهم الله أيضاً بالخمسة آلاف، وكانوا قد مُدُّوا بألف.

وقيل: إنما وعد الله المؤمنين يوم بدر إن صبروا على طاعته، واتَّقَوْا محارمَه، أن يُمدَّهم أيضاً في حروبهم كلِّها، فلم يصبروا، ولم يتَّقوا محارمَه إلَّا في يوم الأحزاب، فأمدَّهم حين حاصروا قُرَيْظة.

وقيل: إنما كان هذا يوم أُحدٍ، وعدَهم الله المددَ إن صبروا، فما صبروا، فلم يُمدَّهم بمَلَك واحد، ولو أُمِدُّوا لما هُزِموا، قاله عكرمة والضحاك[٢].

فإن قيل: فقد ثبت عن سعد بن أبي وَقَّاص أنه قال: رأيتُ عن يَمين رسول الله ﷺ وعن يساره يوم أُحد[٣] رجلين، عليهما ثيابٌ بيضٌ، يقاتلان عنه أشدَّ القتال، ما رأيتُهما قبلُ ولا بعدُ[٤].

قيل له: لعلَّ هذا مختصٌّ بالنبيِّ ﷺ، خصَّه بملَكين يقاتلان عنه، ولا يكون هذا إمداداً للصحابة. والله أعلم.

---

(١) تفسير البغوي ١/٣٤٧، وأخرج الطبري ٦/٢٥ قول قتادة.

(٢) تفسير البغوي ١/٣٤٨، وأخرج الطبري ٦/٢٠ - ٢١ و ٢٧ قول الشعبي وعكرمة والضحاك.

(٣) في (د) و (م): يوم بدر، وهو خطأ، وفي (ز): يومئذ، بدل: يوم أحد، وليست في (ظ).

(٤) أخرجه أحمد (١٤٦٨)، والبخاري (٤٠٥٤)، ومسلم (٢٣٠٦).

الثانية: نزولُ الملائكة سببٌ من أسباب النصر، لا يحتاج إليه الربُّ تعالى، وإنما يحتاج إليه المخلوق، فلْيَعْلَق القلبُ بالله، ولْيَثِق به، فهو الناصر بسبب وبغير سبب ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. لكنْ أخبر بذلك ليمتثل الخلقُ ما أمرهم به من الأسباب التي قد خلت من قبل، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، ولا يقدح ذلك في التوكُّل. وهو ردٌّ على من قال: إن الأسباب إنما سُنَّت في حقِّ الضعفاء، لا للأقوياء؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ وأصحابَه كانوا الأقوياء، وغيرُهم هم الضعفاء؛ وهذا واضِحٌ.

و«مدَّ» في الشرِّ، و«أمدَّ» في الخير[١]. وقد تقدَّم في «البقرة»[٢].

وقرأ أبو حَيْوة: «مُنْزِلِين» بكسر الزاي مخفَّفاً[٣]، يعني: مُنزِلين النصرَ. وقرأ ابنُ عامر مشدَّدة الزاي مفتوحةً على التكثير[٤].

ثم قال: ﴿بَلَىٰٓ﴾ وتمَّ الكلام. ﴿إِن تَصْبِرُوا۟﴾ شرط، أي: على لقاء العدوِّ. ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ عطفٌ عليه، أي: معصيتَه. والجواب: ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾[٥].

ومعنى «مِنْ فَوْرِهِمْ»: من وجهِهم. هذا عن عكرمة وقتادة والحسن والربيع والسُّدِّي وابنِ زيد. وقيل: مِن غَضَبِهم؛ عن مجاهد والضحاك، كانوا قد غضِبوا يوم أُحُد ليوم بَدْر مما لَقُوا[٦].

وأصلُ الفَوْر: القصدُ إلى الشيء، والأخذُ فيه بِجِدٍّ؛ وهو من قولهم: فارتِ القِدْر تَفُور فَوْراً وَفَوَرَاناً: إذا غَلَت. والفَوْر: الغَلَيان. وفار غَضَبُه: إذا جاشَ. وفعَلَه من فَوْرِه؛ أي: قبل أن يسْكُن. والفُوَارة: ما يَفُور من القِدْر[٧]. وفي التنزيل: ﴿وَفَارَ

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٤٨.

(٢) ١/ ٣١٧.

(٣) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٢٢.

(٤) السبعة ص٢١٥، والتيسير ص٩٠. قال مكي في الكشف ١/ ٣٥٥: وفي التشديد معنى التكرير.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٥.

(٦) تفسير البغوي ١/ ٣٤٨، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٤، وأخرج الآثار الطبري ٦/ ٢٩ - ٣١.

(٧) تفسير الطبري ٦/ ٣١، ومجمل اللغة ٣/ ٧٠٧.

ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠]، قال الشاعر:

تَفُورُ علينا قِدْرُهُم فنُدِيمُها[١]

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مُسَوَّمين﴾ بفتح الواو: اسم مفعول، وهي قراءة ابنِ عامر وحمزةَ والكِسائِيِّ ونافع، أي: معَلَّمين بعلامات. و«مُسَوِّمين» بكسر الواو: اسم فاعل، وهي قراءة أبي عمرو وابن كثير وعاصم[٢]، فيَحتمل من المعنى ما تقدَّم، أي: قد أعلموا أنفسهم بعلامة، وأعلموا خَيْلَهم.

ورجَّح الطبريُّ[٣] وغيرُه هذه القراءة.

وقال كثير من المفسِّرين: مُسَوِّمِين، أي: مُرسِلِين خيلَهم في الغارة.

وذكر المهدويُّ هذا المعنى في «مُسَوَّمِينَ» بفتح الواو، أي: أرسلهم الله تعالى على الكفار، وقاله ابن فُورَك أيضاً[٤].

وعلى القراءة الأولى اختلفوا في سِيما الملائكة؛ فرُوي عن علي بن أبي طالبٍ وابن عباس وغيرِهما أن الملائكة اعتَمَّت بعمائمَ بيضٍ قد أرسلوها بين أكتافهم[٥] ـ ذكره البيهقيُّ عن ابن عباس، وحكاه المهدويُّ عن الزجاج[٦] ـ إلَّا جبريلَ، فإنه كان بعمامة صَفْراءَ على مِثال الزبير بن العوَّام، وقاله ابن إسحاق[٧].

وقال الربيع: كانت سِيماهم أنهم كانوا على خَيْل بُلْق[٨]. قلت: ذكر البيهقيُّ[٩] عن سهيل بن عمرو ﷺ قال: لقد رأيتُ يوم بدر رجالاً بِيضاً، على خيلٍ بُلْقٍ، بين

(١) تمامه: ونَفْثَؤُها عنّا إذا حَمْيُها غلا، وهو للنابغة الجعدي في ديوانه ص١١٨، وسلف ٢/ ١٤٥.

(٢) السبعة ص٢١٦، والتيسير ص٩٠.

(٣) في تفسيره ٦/ ٣٣.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٤ - ٥٠٥ وعنه نقل المصنف ترجيح الطبري وكلام المهدوي وابن فورك.

(٥) تفسير البغوي ١/ ٣٤٩.

(٦) دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٥٧، وانظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٦٧.

(٧) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٦٣٣.

(٨) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٤ وعنه نقل المصنف ما حكاه المهدوي وقول ابن إسحاق، وأخرج قول الربيع الطبري ٦/ ٣٥.

(٩) في دلائل النبوة ٣/ ٥٧.

السماء والأرض، مُعَلَّمين، يقتلون ويأسِرون. فقوله: «مُعَلَّمين» دلَّ على أن الخيل البُلْقَ ليست السِّيما. والله أعلم.

وقال مجاهد: كانت خيلُهم مَجْزُوزةَ الأذناب والأعْرَاف، معلَّمةَ النَّواصِي والأذناب بالصُّوف والعِهْن[(١)].

وروي عن ابن عباس: تسوَّمَت الملائكة يوم بدر بالصُّوف الأبيض في نواصي الخيل وأذنابها[(٢)].

وقال عبَّاد بن [حمزة بن] عبدالله بن الزبير، وهشام بن عُروة، والكلبيُّ: نزلت الملائكة في سِيما الزُّبير، عليهم عمائمُ صُفْر مُرْخَاةٌ على أكتافهم. وقال ذلك عبدالله وعروة ابنا الزبير. قال عبدالله: كانت ملاءةً صفراءَ اعْتَمَّ بها الزبير ﷺ[(٣)].

قلت: ودلَّت الآيةُ، وهي:

الرابعة: على اتخاذ الشارة والعلامةِ لِلقبائلِ والكتائب، يجعلُها السلطان لهم؛ لتتميَّز كلُّ قبيلةٍ وكتيبةٍ من غيرها عند الحرب، وعلى فَضْل الخيلِ البُلْقِ لنزولِ الملائكة عليها.

قلت: ولعلَّها نزلت عليها مُوافَقةً لفرس المقداد، فإنه كان أبلق، ولم يكن لهم فرسٌ غيره، فنزلت الملائكة على الخيل البُلْق إكراماً للمقداد، كما نزل جبريل مُعْتَجِراً[(٤)] بعمامةٍ صفراءَ على مثال الزبير. والله أعلم.

ودلَّت الآية أيضاً، وهي:

الخامسة: على لِباس الصُّوف، وقد لَبِسه الأنبياءُ والصَّالحون. وروى أبو داود وابن ماجه ـ واللفظ له ـ عن أبي بُرْدة، عن أبيه قال: قال لي أبي: لو شهدتَنا ونحن مع رسول الله ﷺ إذ أصابَتْنا السماء، لحسِبتَ أن ريحَنا ريحُ الضَّأن[(٥)].

---

(١) تفسير مجاهد ١/١٣٥ ، ونقل قوله المصنف عن المحرر الوجيز ١/٥٠٤ ، وأخرجه الطبري ٦/٣٤ و ٣٥ .

(٢) النكت والعيون ١/٤٢٢ ، وأخرجه الطبري ٦/٣٦ .

(٣) المحرر الوجيز ١/٥٠٤ وما بين حاصرتين منه، وتفسير البغوي ١/٣٤٩ ، وأخرج الأقوال الطبري ٦/٣٦ .

(٤) الاعتجار: هو لفُّ العِمامة دون التلحّي، القاموس (عجر)، ووقع في (ظ) و (خ): معتماً .

(٥) سنن أبي داود (٤٠٣٣)، وسنن ابن ماجه (٣٥٦٢)، وهو في مسند أحمد (١٩٧٥٩). وأبو أبي بُردة هو أبو موسى الأشعري، ﷺ .

ولبس ﷺ جُبَّةً روميَّةً من صوف، ضيِّقة الكُمَّين. رواه الأئمة[١].

ولبِسها يُونُس عليه السلام، رواه مسلم[٢]. وسيأتي لهذا المعنى مزيدُ بيانٍ في «النحل»[٣] إن شاء الله تعالى.

السادسة: قلت: وأما ما ذكره مجاهد من أنَّ خيلَهم كانت مَجْزوزةَ الأذنابِ والأَعْرافِ فبعيدُ، فإن في مصنف أبي داود، عن عُتْبة بن عبدٍ السُّلميّ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تقُصُّوا نواصيَ الخيلِ، ولا معارفَها، ولا أذنابَها، فإن أذنابَها مَذَابُّها، ومعارفَها دِفاؤُها، ونواصيها معقودٌ فيها الخير»[٤]. فقولُ مجاهدٍ يحتاج إلى توقيف، من أن خيلَ الملائكةِ كانت على تلك الصِّفة. والله أعلم.

ودلَّت الآيةُ على حُسْن الأبيضِ والأصفر من الألوان لنزول الملائكة بذلك[٥]، وقد قال ابن عباس: من لبس نَعلاً أَصْفَرَ قُضِيَت حاجتُه[٦].

وقال عليه الصلاة والسلام: «الْبَسوا من ثيابكم البياضَ، فإنه من خيرِ ثيابكم،

---

(١) أخرجه أحمد (١٨١٩٦) و(١٨٢٤١)، والبخاري (٣٦٣)، ومسلم (٢٧٤) (٧٧) من حديث المغيرة ابن شعبة ﷺ.

(٢) برقم (١٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (١٨٥٤).

(٣) في تفسير الآية (٨٠) منها.

(٤) سنن أبي داود (٢٥٤٢)، وهو في مسند أحمد (١٧٦٣٨) قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٣/ ٣٨٥: في إسناده مجهول. اهـ. قلنا وقوله: «ونواصيها معقود فيها الخير» له شاهد من حديث عروة البارقي وغيره، عند أحمد (١٩٣٥٥)، والبخاري (٣٦٤٣) ومسلم (١٨٧٣). قوله: نواصي الخيل؛ شعر مقدّم رأسها. معارفها: بكسر الراء، جمع مَعْرَفة بفتحها، الموضع الذي ينبت عليه عُرْفُ الفرس. وهو شعر عنقه. من رقبته، مَذَابُّها: جمع مِذَبَّة، بكسر الميم: ما يُذَبُّ به الذباب. دفاؤها: بكسر الدال؛ أي: كساؤها الذي تَدَفَّأ به. شرح سنن أبي داود للعظيم آبادي ٧/ ١٧٥.

(٥) ليس في الآية ما يدل على ذلك.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٩٧، وقال في قول ابن عباس: لم يصحّ عندي فأنظر فيه، وأخرجه العقيلي في الضعفاء ١/ ٢٣٥ و ٣/ ٤٤٦، والطبراني في الكبير (١٠٦١٢)، والخطيب في تاريخ بغداد ٥/ ٢٤ – ٢٥، وفي الجامع لأخلاق الراوي (٩٢٢) ولفظه عندهم: من لبس نعلاً صفراء لم يزل في سرور ما دام لابسها، وأورده أبي حاتم في الجرح والتعديل ٩/ ٣٢٥ وقال: ليس بشيء، هو حديث النّوكى (يعني الحمقى والجاهلين) وهو حديث كذب موضوع، وقال أبو حاتم الرازي ـ كما في علل الحديث لابنه ٢/ ٣١٩ ـ: هذا حديث كذب موضوع.

وكفِّنوا فيه موتاكمُ»[١].

وأمَّا العمائم فتيجانُ العربِ ولِباسُها، روى[٢] رُكَانةُ ـ وكان صارع النبيَّ ﷺ؛ فَصرعه النبيُّ ﷺ ـ قال رُكانةُ: وسمعت النبيَّ ﷺ يقول: «فَرْقُ ما بيننا وبين المشركين العمائمُ على القلانس». أخرجه أبو داود[٣]. قال البخاري[٤]: إسنادُه مجهولٌ لا يُعرفُ سماعُ بعضِه من بعض.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ الهاءُ للمَدَد، وهو الملائكةُ، أو الوعدُ، أو الإمدادُ، ويدلُّ عليه: «يُمْدِدْكُمْ»، أو للتَّسْويم، أو للإنْزال، أو للعدد[٥] على المعنى؛ لأن خمسةَ آلافٍ عددٌ[٦].

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ اللام لامُ كي، أي: ولِتطمئنَّ قلوبُكم به جعله؛ كقوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ [فصلت: ١٢] أي: وحفظاً لها جعل ذلك.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني: نصرَ المؤمنين، ولا يدخلُ في ذلك نصرُ الكافرين؛ لأنَّ ما وقع لهم من غلبةٍ إنما هو إملاءٌ محفوفٌ بخِذلانٍ وسوءِ عاقبةٍ وخُسرانٍ.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: بالقتل. ونظم الآية: ولقد نَصركم الله ببدرٍ لِيقطعَ. وقيل: المعنى: وما النصرُ إلَّا من عند الله ليقطعَ. ويجوزُ أن يكون متعلِّقاً بـ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٩)، وأبو داود (٣٨٧٨)، والترمذي (٩٩٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: حسن صحيح.

(٢) في (د) و (م): وروى.

(٣) في سننه (٤٠٧٨)، وأخرجه الترمذي (١٧٨٤) وقال: هذا حديث حسن غريب، وإسناده ليس بالقائم.

(٤) في التاريخ الكبير ١/ ٨٢ .

(٥) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: العدد.

(٦) مشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ١٧٣ .

«يُمْدِدْكُمْ»[١]، أي: يُمدِدْكُم لِيقطع. والمعنى: مَن قُتِل من المشركين يوم بَدْر. عن الحسن وغيره. السدّيّ: يعني به مَن قُتِل من المشركين يومَ أُحُدٍ، وكانوا ثمانيةَ عشرَ رجلاً[٢].

ومعنى ﴿يَكْبِتَهُمْ﴾: يُحزِنَهم؛ والمكْبُوتُ: المحزون. ورُوي أن النبيَّ ﷺ جاء إلى أبي طلحة، فرأى ابنَه مَكْبُوتاً، فقال: «ما شأنُه؟». فقيل: مات بعيرُه[٣].

وأصلُهُ فيما ذكر بعض أهل اللغة: «يكبِدُهم» أي: يصيبهم بالحزن والغيظِ في أكبادهم، فأبدلَت الدالُ تاءً، كما قُلِبت في سَبَتَ رأسَه وسبَدَه، أي: حَلَقه[٤]. كَبتَ الله العدوَّ كَبْتاً: إذا صرفَهُ وأذَلَّه. وكبَدَه: أصابه في كَبده؛ يقال: قد أحرق الحزنُ كَبِدَه، وأحرقت العداوةُ كبِدَه. وتقول العربُ للعدوِّ: أسودُ الكَبِد[٥]؛ قال الأعشى[٦]:

فـمـا أُجـشِـمْـتِ مـن إتـيـانِ قـومٍ   هـم الأعـداءُ والأكـبـادُ سُـودُ

كأنَّ الأكباد لمَّا احترقت بشدَّة العداوة اسْوَدَّتْ[٧].

وقرأ أبو مِجْلَز: «أو يكبِدَهم» بالدَّال[٨].

والخَائِبُ: المنقَطِعُ الأملِ. خاب يخيب: إذا لم ينَلْ ما طلب. والخَيَّاب: القِدْحُ لا يُوري[٩].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٦.

(٢) تفسير الماوردي ١/ ٤٢٢، وأخرج القولين الطبري ٦/ ٤٠ و ٤١.

(٣) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٧٢، وذكره مختصراً ابن الجوزي في غريب الحديث ٢/ ٢٧٧، وابن الأثير في النهاية (كبت).

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٤٩.

(٥) انظر مجمل اللغة ٣/ ٧٧٦، والصحاح (كبت، كبد).

(٦) ديوانه ص٣٧٣، والصحاح (كبد)، والخطاب فيه لناقته.

(٧) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١١٠ - ١١١.

(٨) ذكرها أبو حيان في البحر ٣/ ٥٢، والسمين الحلبي في الدر المصون ٣/ ٣٩١، وأبو مجلز: هو لاحق ابن حُميد.

(٩) مجمل اللغة ٣/ ٣٠٨.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: ثبَت في صحيح مسلمٍ أن النبيَّ ﷺ كُسِرتْ رَبَاعِيَتُه يومَ أُحُد، وشُجَّ في رأسه، فجعل يَسْلُتُ الدمَ عنه ويقول: «كيف يُفلح قومٌ شَجُّوا نبيَّهم[(١)] وكسروا رَباعِيَته وهو يدعوهم إلى الله تعالى» فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[(٢)].

الضحاك: هَمَّ النبيُّ ﷺ أن يدعوَ على المشركين، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[(٣)]. وقيل: استأذنَ في أن يدعوَ في استئصالهم، فلما نزلتْ هذه الآيةُ عَلِم أن منهم من سيُسلِم[(٤)]. وقد آمن كثيرٌ منهم، [فمنهم] خالدُ بنُ الوليد، وعمرو بنُ العاص، وعِكرمةُ بن أبي جهل، وغيرُهم[(٥)].

وروى الترمذيُّ[(٦)] عن ابن عمرَ قال: كان رسول الله ﷺ يدعو على أربعةِ نفرٍ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. فهداهمُ اللهُ للإسلام. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيحٌ.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: هو معطوفٌ على ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾، والمعنى: ليقتلَ طائفةً منهم، أو يحزنَهم[(٧)] بالهزيمة، أو يتوبَ عليهم، أو يعذِّبهم. وقد تكونُ

---

(١) في (د) و (م): شجوا رأس نبيهم، والمثبت من (خ) و (ظ) وهو الموافق لما في صحيح مسلم.

(٢) صحيح مسلم (١٧٩١): (١٠٤)، وأخرجه أحمد بنحوه (١٣٠٨٣). وهو من حديث أنس بن مالك ﷺ.
الرَّبَاعية: هي كل سن بعد ثنية. وسلت الدم عنه: نزعه بيده. المفهم ٣/ ٦٤٩ ، وانظر ما سلف ص٢٨٧ من هذا الجزء.

(٣) أورده أبو الليث ١/ ٢٩٧ من رواية جويبر عن الضحاك، وأخرجه الطبري ٦/ ٤٦ عن الربيع.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٧٣ . وتفسير البغوي ١/ ٣٥٠ .

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) سنن الترمذي (٣٠٠٥)، وهو عند أحمد (٥٨١٢). وجابر ذكر أسماء ثلاثة منهم عند البخاري (٤٠٧٠) مرسل، وعند أحمد (٥٦٧٤).

(٧) في (د): يخزيهم.

«أو» ها هنا بمعنى «حتى» و«إلا أن»[١]. قال امرؤ القيس:

... أو نَـــمـــوتَ فـــنُـــعْـــذَرَا[٢]

قال علماؤنا[٣]: قوله عليه الصلاة والسلام: «كيفَ يفلحُ قومٌ شَجُّوا نبيهم»[٤] استبعادٌ لتوفيقِ مَن فَعَلَ ذلك به. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ تقريبٌ لِمَا استبعدَه، وإطماعٌ في إسلامِهم، ولمَّا أُطْمِعَ في ذلك قال ﷺ: «اللّهمَّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، كما في صحيح مسلم[٥] عن ابن مسعود قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يَحكي نبيّاً من الأنبياء ضربَه قومُه، وهو يمسَحُ الدَّمَ عن وجهه ويقول: «ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

قال علماؤنا[٦]: فالحاكي في حديث ابن مسعودٍ هو الرسولُ عليه الصلاة والسلام، وهو المحكيُّ عنه؛ بدليل ما قد جاء صريحاً مبيَّناً، أنه عليه الصلاة والسلام لمَّا كُسرتْ رَباعيتُه وشُجَّ وجهُه يومَ أُحُدٍ، شَقَّ ذلك على أصحابه شَقّاً شديداً وقالوا: لو دَعَوْتَ عليهم! فقال: «إني لم أُبعثْ لَعَّاناً، ولكني بُعثْتُ داعِياً ورحمة، اللَّهمَّ اغْفرْ لقومي[٧] فإنَّهم لا يعلمون»[٨].

فكأنه عليه الصلاة والسلام أُوحيَ إليه بذلك قبلَ وقوعِ قضِيةِ[٩] أُحُد، ولم يعيِّن له ذلك النَّبيُّ، فلما وَقَع له ذلك تَعيَّن؛ أنه المعنيُّ بذلك بدليلِ ما ذكرنا.

ويُبيِّنه أيضاً ما قاله عمرُ له في بعضِ كلامه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٧٤ .

(٢) ديوانه ص٦٦ والبيت بتمامه:

فـقـلـتُ لـه لا تـبـكِ عـيـنُـك إنَّـمـا ... نـحـاول مـلـكـاً أو نـمـوتَ فـنُـعْـذرا

(٣) المفهم ٣/ ٦٥٠ .

(٤) في (م): شجوا رأس نبيهم.

(٥) برقم (١٧٩٢): (١٠٥)، وهو عند أحمد (٣٦١١)، والبخاري (٣٤٧٧).

(٦) المفهم ٣/ ٦٥١ .

(٧) في (خ) و (ظ): اللهم اهدِ قومي.

(٨) أورده القاضي عياض في الشفاء ص٢٢١ ، وأخرجه البيهقي في الشعب (١٤٤٦) عن عبدالله بن عبيد مرسلاً.

(٩) في (خ) و (ظ): قصة.

دعا نوحٌ على قومه فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآية [نوح:٢٦]. ولو دعوتَ علينا مثلَها لهلكنا من عند آخرِنا؛ فلقد وُطِئ ظهرُك، وأُدْمِيَ وجهُك، وكُسِرتْ رَبَاعيتك، فأبيتَ أن تقولَ إلَّا خيراً، فقلتَ: «ربِّ اغْفِرْ لقومي فإنهم لا يعلمون»[١].

وقوله: «اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ كسروا رَباعية نبيهم»[٢] يعني بذلك: المباشِرَ لذلك، وقد ذكرنا اسمه على اختلافٍ في ذلك[٣]، وإنما قلنا: إنه خُصوصٌ في المباشِر؛ لأنه قد أسلم جماعةٌ ممن شهدَ أُحداً وحَسُنَ إسلامُهم.

الثانية: زعمَ بعضُ الكوفيين أن هذه الآيةَ ناسخةٌ للقُنُوتِ الذي كان النبيُّ ﷺ يفعلُه بعد الركوع في الرَّكعة الأخيرةِ من الصبح، واحتجَّ بحديث ابن عمرَ أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول في صلاة الفجر بعد رَفْعِ رأسه من الركوع فقال: «اللَّهم ربَّنا ولك الحمد» في الآخرة، ثم قال: «اللَّهمَّ الْعَنْ فلاناً وفلاناً». فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية. أخرجه البخاريَّ[٤]، وأخرجه مسلمٌ أيضاً من حديث أبي هريرة أتمَّ منه[٥]. وليس هذا موضعَ نسخ، وإنما نَبَّهَ الله تعالى نبيَّه على أنَّ الأمرَ ليس إليه، وأنه لا يَعلَمُ من الغيب شيئاً إلا ما أعلمَه، وأنَّ الأمرَ كلَّه لله، يتوب على من يشاء، ويعجِّل العقوبةَ لمن يشاء. والتقديرُ: ليس لك من الأمر شيءٌ، ولله ما في السماوات وما في الأرض دونَك ودونَهم، يغفرُ لمن يشاء، ويتوبُ على مَن يشاء. فلا نسخَ، والله أعلَمُ[٦].

وبَيَّن بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أنَّ الأمورَ بقضاء الله وقدره؛ رَدّاً على القدريَّةِ وغيرِهم.

الثالثة: واختلفَ العلماءُ في القُنُوت في صلاة الفجر وغيرِها؛ فمنع الكوفيون منه

---

(١) الشفاء ص٢٢١، قال السيوطي في تخريج أحاديث الشفا ص٦٠ : لا يعرف.

(٢) أخرجه أحمد (٨٢١٣)، والبخاري (٤٠٧٣)، ومسلم (١٧٩٣) بنحوه من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ الذي ذكره المصنف هو في المفهم ٣/ ٦٥١ .

(٣) ص٢٨٧ من هذا الجزء.

(٤) صحيح البخاري (٧٣٤٦)، وهو عند أحمد (٦٣٤٩).

(٥) صحيح مسلم (٦٧٥): (٢٩٤)، وهو عند البخاري (٤٥٦٠).

(٦) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ١٣٢ - ١٣٣ و ١٣٦ .

في الفجر وغيرِها. وهو مذهب الليثِ، ويحيى بنِ يحيى اللَّيثيِّ الأندلسيِّ صاحبِ مالك، وأنكره الشعبي[(١)]. وفي الموطَّأ[(٢)] عن ابن عمرَ: أنه كان لا يَقْنُتُ في شيءٍ من الصلاة. ورَوَى النَّسائيُّ: أنبأنا قتيبةُ، عن خَلَفٍ، عن أبي مالكٍ الأشجعيِّ، عن أبيه قال: صليتُ خلْفَ النبيِّ ﷺ، فلم يقْنُتْ، وصليتُ خلفَ أبي بكرٍ، فلم يقْنُت، وصليتُ خلفَ عمرَ، فلم يَقْنُت، وصليتُ خلفَ عثمانَ، فلم يقْنُت، وصليت خلف عليٍّ، فلم يقْنُت. ثم قال: يا بُنَيَّ، إنها بِدْعة[(٣)].

وقيل: يقنتُ في الفجر دائماً وفي سائر الصلوات إذا نزَل بالمسلمين نازلةٌ؛ قاله الشافعيُّ والطبريُّ.

وقيل: هو مسْتَحَبٌّ في صلاة الفجر، ورويَ عن الشافعي.

وقال الحسنُ وسُحْنون: إنه سُنَّة. وهو مُقتضَى رواية عليّ بنِ زيادٍ عن مالك بإعادة تاركه للصلاة عمداً.

وحكى الطبريُّ الإجماعَ على أنَّ تركَه غيرُ مُفْسدٍ للصلاة. وعن الحسن: في تركه سجودُ السّهو[(٤)]؛ وهو أحدُ قولي الشافعي. وذكر الدارقطني[(٥)] عن سعيدِ بنِ عبد العزيز فيمن نسِيَ القنوتَ في صلاة الصبح قال: يسجد سجدَتَي السّهْوِ.

واختار مالكٌ قبلَ الركوع؛ وهو قولُ إسحاقَ. ورُويَ أيضاً عن مالكٍ بعدَ الركوع، ورُويَ عن الخلفاء الأربعة، وهو قولُ الشافعيِّ وأحمدَ وإسحاقَ أيضاً. ورُوي عن جماعةٍ من الصحابة التخييرُ في ذلك[(٦)].

وروى الدارقطني[(٧)] بإسنادٍ صحيحٍ عن أنسٍ أنه قال: ما زال رسولُ الله ﷺ يقنُتُ

---

(١) إكمال المعلم ٢/ ٦٥٧ ، والمفهم ٢/ ٣٠١ ، وخبر الشعبي أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (٦٦٠) و (٦٩١).

(٢) ١/ ١٥٩ .

(٣) سنن النسائي (المجتبى) ٢/ ٢٠٤ ، وأخرجه الترمذي بنحوه (٤٠٢) وقال: حسن صحيح.

(٤) إكمال المعلم ٢/ ٦٥٨ ، والمفهم ٢/ ٣٠٢ ، وكلام الطبري في تهذيب الآثار ١/ ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٥) سنن الدارقطني ٢/ ٤١ .

(٦) إكمال المعلم ٢/ ٦٥٨ ، والمفهم ٢/ ٣٠٢ .

(٧) سنن الدارقطني ٢/ ٣٩ ، وهو في مسند أحمد (١٢٦٥٧).

في صلاةِ الغداةِ حتى فارق الدنيا. وذكر أبو داودَ في المراسيل[١] عن خالد بنِ أبي عِمرانَ قال: بينا رسولُ الله ﷺ يدعو على مُضَرَ؛ إذْ جاءه جبريلُ، فأوْمَأ إليه أن اسكت، فسكت، فقال: «يا محمدُ، إنَّ الله لم يبعثْكَ سَبَّاباً ولا لعَّاناً، وإنَّما بعثَكَ رحمةً، ولم يبعثْكَ عذاباً» ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾. قال: ثم علَّمه هذا القُنُوتَ[٢]: «اللّهمَّ إنا نستعِينُك ونستغْفِرُك، ونؤمِنُ بك، ونَخْضَع[٣] لك، ونَخْلَع ونتْرُكُ من يكْفُركَ، اللّهم إياك نَعْبُد، ولك نصلِّي ونَسْجُدُ، وإليك نسْعَى ونَحْفِدُ، نرجُو[٤] رحمتَك ونخافُ عذابَك الجِدَّ، إن عذابك بالكافرين مُلْحِق»[٥].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ هذا النهيُ عن أكل الربا اعتراضٌ بينَ أثناء قصةِ أُحد. قال ابن عطية[٦]: ولا أحفظُ في ذلك شيئاً مَرْوِياً.

قلت: قال مجاهد: كانوا يبيعون البيعَ إلى أجل، فإذا حلَّ الأجلُ زادوا في الثَّمن على أن يؤخِّروا؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾[٧].

---

(١) برقم (٨٩).

(٢) بعدها في (خ) و (د) و (م): فقال، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في المراسيل.

(٣) في (خ) و (د) و(م): ونخنع، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في المراسيل.

(٤) في (م): ونرجو.

(٥) الرواية بكسر الحاء، أي: من نزل به عذابك ألحقه بالكفار، وقيل: هو بمعنى: لاحق، لغة في: لحق، ويروى بفتح الحاء على المفعول، أي: إن عذابك يلحق بالكفار ويصابون به. النهاية (لحق).

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٦ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٧٤ ، وأخرجه ابن أبي حاتم مختصراً (٤١٣٨).

قلت: وإنما خصَّ الرِّبا من بين سائر المعاصي؛ لأنه الذي أَذِنَ الله فيه بالحرب في قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، والحربُ يؤذِنُ بالقتل، فكأنه يقول: إن لم تتقوا الرِّبا هُزِمتُم وقُتلتم. فأمرَهم بتركِ الربا؛ لأنه كان معمولاً به عندَهم. والله أعلمُ.

و﴿أَضْعَافًا﴾ نصب على الحال، و﴿مُّضَاعَفَةً﴾ نعتُه. وقرئ: «مُضَعَّفَةً»[١] ومعناه: الربا الذي كانتِ العربُ تُضْعِفُ فيه الدَّيْن، فكان الطالبُ يقول: أَتَقْضي أم تُرْبي؟ كما تقدَّم في «البقرة»[٢]. و﴿مُّضَاعَفَةً﴾ إشارةٌ إلى تكرار التضعيف عاماً بعدَ عامٍ كما كانوا يصنعون، فدلَّت هذه العبارةُ المؤكِّدةُ على شُنعةِ فعلهم وقُبحه؛ ولذلك ذُكِرتْ حالُ التضعيف خاصةً[٣].

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في أموال الربا فلا تأكلوها. ثم خوَّفهم فقال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ قال كثيرٌ من المفسرين: وهذا الوعيد لمن استحَلَّ الرِّبا، ومَن استحلَّ الرِّبا فإنه يكْفُر ويصير[٤] [إلى النار]. وقيل: معناه: اتقوا العمل الذي ينزِعُ منكم الإيمانَ فتستوجبون النار؛ لأن من الذنوب ما يستوجِبُ به صاحبُه نزْعَ الإيمانِ ويُخافُ عليه؛ من ذلك عقوقُ الوالدين. وقد جاء في ذلك أثرٌ: أنّ رجلاً كان عاقّاً لوالديه يقال له: عَلْقَمَة، فقيل له عند الموت: قل لا إله إلا الله، فلم يقدر على ذلك حتى جاءته أمُّه، فرضيتْ عنه[٥]. ومن ذلك قطيعةُ الرحم، وأكلُ الربا، والخيانةُ في الأمانة.

---

(١) هي قراءة ابن كثير وابن عامر من السبعة، وقرأ الباقون: مضاعفة. السبعة ص١٨٤ - ١٨٥، والتيسير ص٨١.

(٢) ٤/ ٣٨١ - ٣٨٢.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٧.

(٤) في (خ): ويضر، وفي (م): ويكفَّر، وليست في (د) و (ظ)، والمثبت من تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٨، والكلام منه، وما بين حاصرتين منه.

(٥) أورده أبو الليث في تنبيه الغافلين ص٦٤ عن أنس ﷺ. وأخرجه دون ذكر اسم علقمة العقيليُّ في الضعفاء ٣/ ٤٦١، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٢٥١)، وابن الجوزي في الموضوعات (١٣٨٣) من طريق فائد بن عبد الرحمن العطار قال: سمعت عبدالله بن أبي أوفى يقول: إن شاباً حضرته الوفاة... ونقل العقيلي عن الإمام أحمد قوله عن فائد: متروك الحديث، ونقل عن البخاري قوله: منكر الحديث. وينظر تنزيه الشريعة ٢/ ٢٩٦ - ٢٩٧.

وذكرَ أبو بكر الورّاقُ[١] عن أبي حنيفةَ أنه قال: أكثر ما يُنزعُ الإيمان من العبد عند الموت[٢]. ثم قال أبو بكر: فنظرنا في الذنوب التي تَنزِع الإيمانَ، فلم نجد شيئاً أسرعَ نزعاً للإيمان من ظلم العباد.

وفي هذه الآية دليلٌ على أنّ النارَ مخلوقةٌ؛ ردّاً على الجَهْميّة؛ لأن المعدومَ لا يكونُ مُعَدّاً.

ثم قال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ يعني أطيعوا الله في الفرائض، والرَّسُولَ في السُّنن. وقيل: أطِيعُوا اللهَ في تحريم الربا، والرسول فيما بلَّغكم من التحريم[٣]. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: كي يرحمكم الله. وقد تقدم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قول تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟﴾ قرأ نافعٌ وابنُ عامر: «سَارِعُوا» بغير واو، وكذلك هي في مصاحفِ أهلِ المدينةِ وأهلِ الشام. وقرأ باقي السبعةِ: «وَسَارِعُوا» بالواو[٥]. قال أبو عليّ[٦]: كِلا الأمرين سائغٌ[٧] مستقيمٌ، فمن قرأ بالواو فلأنه عَطَفَ الجملةَ على الجملة، ومن ترك الواوَ فلأن الجملة الثانيةَ ملتبسةٌ بالأولى، مستغنيةٌ بذلك عن العطف بالواو.

والمسارعةُ: المبادرةُ، وهي مُفاعَلَة. وفي الآية حذفٌ، أي: سارعوا إلى ما

---

(١) محمد بن عمر الحكيم، أصله من ترمذ، وأقام ببلخ، له الكتب المشهورة في أنواع الرياضيات والمعاملات والآداب. طبقات الصوفية ص٢٢١ .

(٢) العبارة كما وقعت في تفسير أبي الليث: أكبر ما في الذنوب الذي يَنزع الإيمانَ من العبد عند الموت.

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٨ .

(٤) ١/ ٣٤٢ .

(٥) السبعة ص٢١٦ ، والتيسير ص٩٠ .

(٦) الحجة ٣/ ٧٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٠٧ .

(٧) في (د) و (م): شائع.

يُوجِبُ المغفرة[١]، وهي الطاعةُ. قال أنس بنُ مالكٍ ومَكْحُولٌ في تفسير ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: معناه: إلى تكبيرة الإحرام [مع الإمام][٢]. وقال عليُّ بنُ أبي طالبٍ: إلى أداء الفرائض. عثمانُ بن عفانَ: إلى الإخلاص[٣]. الكلبي: إلى التوبة من الربا. وقيل: إلى الثبات في القتال. وقيل غيرُ هذا. والآية عامَّةٌ في الجميع، ومعناها معنى: ﴿فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقد تقدَّم[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ﴾ تقديره: كعرض، فحذفَ المضافَ؛ كقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الزمر: ٦] أي: إلا كخلق نفسٍ واحدةٍ وَبعْثِها[٥]. قال الشاعر:

حَسِبْتَ بُغَامَ رَاحِلَتي عَنَاقاً ... وما هي وَيْبَ غيرِكَ بالعَنَاقِ[٦]

يريد صوتَ عَناقٍ.

نظيرُه في سورة الحديد: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية: ٢١].

واختلف العلماءُ في تأويله، فقال ابن عباس: تُقرَنُ السماواتُ والأرضُ بعضُها إلى بعضٍ كما تُبْسَطُ الثيابُ، ويوصَلُ بعضُها ببعضٍ؛ فذلك عَرْضُ الجنة، ولا يعلَمُ طولَها إلَّا الله[٧]. وهذا قولُ الجمهور، وذلك لا يُنْكَر، فإنَّ في حديث أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ: «ما السماوات السبعُ والأرَضونَ السبعُ في الكرسيِّ إلا كدراهمَ أُلقِيتْ في

(١) تفسير الرازي ٩/ ٤ .

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٨ ، وما بين حاصرتين منه، وقول أنس أورده البغوي ١/ ٣٥١ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٧٢ لابن المنذر.

(٣) تفسير البغوي ١/ ٣٥١ ، وتفسير الرازي ٩/ ٥ .

(٤) ٢/ ٤٥٠ .

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٨ .

(٦) نسبه أبو زيد في النوادر ص١١٦ وابن بري كما في اللسان (ويب) لذي الخِرَق الطُّهَوِيِّ، ونسبه ابن الأعرابي كما في اللسان (عنق) لقُرَيْط بن أُنَيْف، وهو دون نسبة في مجالس ثعلب ١/ ٦١ ، ودلائل الإعجاز ص٣٠١ ، والإنصاف ١/ ٣٧٢ .

وبُغام الناقة: صوت لا تُفصح به، والعَناق: الأنثى من المعز، والوَيب كلمة مثل الوَيل، تقول: ويبَك، وويب زيد، كما تقول: ويلك؛ يخاطب الشاعر ذئباً تبعه في طريقه. اللسان (عنق) و(بغم) و(ويب).

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٨، وأخرجه الطبري ٦/ ٥٣ .

فلاةٍ من الأرض، وما الكرسيُّ في العرش إلا كحلْقةٍ[١] أُلقيتْ في فلاةٍ من الأرض»[٢]. فهذه مخلوقاتٌ أعظمُ بكثيرٍ جدّاً من السماوات والأرض، وقدرةُ الله أعظَمُ من ذلك كلِّه.

وقال الكلبيُّ: الجِنَانُ أربعةٌ: جنةُ عدْنٍ، [وهي الجنة العليا]، وجنة المأوى، وجنةُ الفِردوس، وجنةُ النعيم، وكلُّ جنةٍ منها كعرضِ السماءِ والأرض لو وُصِلَ بعضُها ببعض. وقال إسماعيلُ السُّدّيّ: لو كُسِرَتِ السماواتُ والأرضُ وصِرْنَ خَرْدلاً، فبِكلِّ خَرْدلةٍ جَنةٌ عَرْضُها كعرض السماء والأرض[٣].

وفي الصحيحِ: «إن أدنى أهلِ الجنّةِ منزلةً مَن يتمنَّى ويتمنَّى حتى إذا انقطعتْ به الأمانيُّ قال الله تعالى: لك ذلك وعَشَرةُ أمثالِه». رواه أبو سعيد الخدري، خرَّجه مسلم وغيره[٤].

وقال يعلى بن مُرّةَ[٥]: لقِيتُ التَّنُوخِيَّ[٦] رسولَ هِرَقْلَ إلى النبيِّ ﷺ بحِمْصَ شيخاً كبيراً قال: قدِمتُ على رسول الله ﷺ بكتاب هرقلَ، فناول الصحيفةَ رجلاً عن يساره؛ قال: فقلتُ: من صاحبُكم الذي يقرأ؟ قالوا: معاويةُ، فإذا كتابُ صاحبي: إنك كتبتَ

---

(١) بعدها في (خ) و(ظ): من حديد.

(٢) كذا أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٠٨ ولم يذكر صحابيَّه. وأخرج نحوه ابن حبان (٣٦١) عن أبي ذرّ مطولاً وفي إسناده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، كذبه أبو حاتم وابن الجوزي، كما في ميزان الاعتدال ١/ ٧٢ - ٧٣ . وأخرج القسم الأول منه الطبري ٤/ ٥٣٩ ، وأبو الشيخ في العظمة (٢٢٢) من طريق ابن زيد عن أبيه زيد بن أسلم عن النبي ﷺ قال: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة أُلقيت في ترس». وقوله: «وما الكرسي في العرش...» أخرجه الطبري وأبو الشيخ مع الحديث الأول من طريق ابن زيد عن أبي ذر عن النبي ﷺ. قال ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٢٤ : أول الحديث مرسل، والثاني عن أبي ذر منقطع.

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٨ وما بين حاصرتين منه.

(٤) صحيح مسلم (١٨٨) مطولاً، وهو عند أحمد (١١٢١٦).

(٥) وقع في النسخ والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٨ والكلام منه: يعلى بن أبي مرة، ووقع كذلك في بعض نسخ الطبري ٦/ ٥٤ كما ذكر محققوه، والصواب ما أثبتناه، كما هو في المصادر، وهو يعلى بن مرة بن وهب الثقفي أبو المَرَازِم، قال أبو عمر: كان من أفضل الصحابة، قال ابن سعد: أمره النبي ﷺ أن يقطع أعناب ثقيف فقطعها. الإصابة ١٠/ ٣٧٣ .

(٦) سمع من النبي ﷺ وهو كافر، ثم أسلم بعد موته، فهو تابعي اتفاقاً، وحديثه ليس بمرسل، بل موصول. ينظر تدريب الراوي ١/ ٢٢٠ .

تدعوني إلى جنةٍ عَرْضُها السماواتُ والأرض، فأين النارُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «سبحانَ الله! فأين الليلُ إذا جاءَ النهار»(١).

وبمثل هذه الحُجة استدلَّ الفاروقُ على اليهود حين قالوا له: أرأيتَ قولَكم: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، فأين النار؟ فقالوا له: لقد نزعتَ بما في التوراة(٢).

ونَبَّه تعالى بالعَرْضِ على الطول لأنَّ الغالبَ أنَّ الطولَ يكون أكثرَ من العرض، والطولُ إذا ذُكر لا يدلُّ على قَدْر العرض. قال الزُّهْريُّ: إنَّما وصَف عرضَها، فأمَّا طولُها فلا يعلمُه إلا الله(٣)؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] فوصف البِطَانَة(٤) بأحسنِ ما يُعلَمُ مِن الزينة، إذْ معلومٌ أنَّ الظواهرَ تكونُ أحسنَ وأتقنَ من البطائن(٥).

وتقول العرب: بلادٌ عريضة وفلاةٌ عريضة، أي: واسعةٌ(٦)؛ قال الشاعر:

كأنّ بلادَ الله وهْيَ عَريضَةٌ على الخائف المطلوب كُفَّةُ حَابِلِ(٧)

وقال قومٌ: الكلامُ جارٍ على مَقْطَعِ العرب من الاستعارة؛ فلمّا كانت الجنةُ من

(١) أخرجه الطبري ٦/ ٥٤ من طريق مسلم بن خالد الزنجي، عن عبدالله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد ابن أبي راشد، عن يعلى بن مرة، قال: لقيت التنوخي، ورجح الشيخ أحمد شاكر رحمه الله(الطبري ٦/ ٢٠٩ - ٢١١ دار المعارف) أن ذكر يعلى بن مرة في الإسناد وهم من مسلم بن خالد الزنجي، فقد أخرجه أحمد (١٥٦٥٥) من طريق يحيى بن سليم الطائفي، عن عبدالله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد ابن أبي راشد قال: لقيت التنوخي، ويحيى بن سليم الطائفي أحفظ من مسلم بن خالد الزنجي. وأورد ابن كثير في البداية والنهاية ٧/ ١٧٤ رواية الإمام أحمد وقال: حديث غريب، وإسناده لا بأس به.

(٢) أخرجه الطبري ٦/ ٥٥ .

(٣) تفسير البغوي ١/ ٥٣١ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٩ .

(٤) في (ظ): البطائن.

(٥) تفسير الرازي ٩/ ٦ .

(٦) قال ابن قتيبة في تفسير الغريب ص١١١ قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ يريد سعتها، ولم يُرِد العرض الذي هو خلاف الطول، والعرب تقول...

(٧) البيت للبيد؛ كما في ملحق ديوانه ص٣٦٥ ، ونسبه البصري في الحماسة البصرية ١/ ٢٩ لعبيد بن أيوب العنبري، وهو بلا نسبة في تفسير غريب القرآن ص١١١ ، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٤٧٧ ، وذكره أيضاً المبرد في الكامل ٢/ ١٠٣٦ براوية: كأن فجاج الأرض... وقوله: كُفَّة حابل، قال المبرد: الحِبَالة التي ينصبها للصيد.

الاتساع والانفساح في غايةٍ قصوى؛ حَسُنَتِ العبارةُ عنها بعرض السماوات والأرض، كما تقول للرجل: هذا بَحْرٌ، ولشخصٍ كبيرٍ من الحيوان: هذا جبلٌ. ولم تقصِد الآيةُ تحديدَ العرض[١]، ولكنْ أراد بذلك أنها أوسعُ شيءٍ رأيتموه.

وعامّةُ العلماءِ على أن الجنةَ مخلوقةٌ موجودة؛ لقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وهو نصُّ حديث الإسراء وغيرِه في الصحيحين وغيرِهما[٢].

وقالتِ المعتزلةُ: إنهما غيرُ مخلوقتين في وقتنا، وإن الله تعالى إذا طوى السماواتِ والأرضَ ابتدأ خلْقَ الجنةِ والنارِ حيثُ شاء؛ لأنهما دارا جزاءٍ بالثواب والعقاب، فخُلِقَتا بعد التكليف في وقت الجزاء؛ لئلّا تجتمعَ دارُ التكليف ودارُ الجزاء في الدنيا، كما لم يجتمعا في الآخرة[٣].

وقال ابن فورك: الجنةُ يزادُ فيها يومَ القيامة. قال ابن عطية[٤]: وفي هذا متعَلَّقٌ لمنذرِ بن سعيد وغيرِه ممن قال: إنَّ الجنةَ لم تُخلَقْ بعدُ. قال ابنُ عطيةَ: وقولُ ابنِ فورك «يزاد فيها» إشارةٌ إلى موجود، لكنه يحتاجُ إلى سنَد يقطعُ العذرَ في الزيادة.

قلت: صدق ابنُ عطيةَ رضيَ الله عنه فيما قال، وإذا كانت السماواتُ السبْعُ والأَرَضونَ السبْعُ بالنسبة إلى الكرسيِّ كدراهمَ أُلقيتْ في فلاة من الأرض، والكرسيُّ بالنسبة إلى العرش كحلْقةٍ ملقاةٍ بأرضٍ فلاة[٥]؛ فالجنة الآنَ على ما هي عليه في الآخرة عرْضُها كعرض السماوات والأرض؛ إذِ العرشُ سقفُها، حَسْبَ ما ورد في صحيح الحديث[٦]. ومعلومٌ أنَّ السقفَ يحتوي على ما تحتَه ويزيد. وإذا كانتِ

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٩.

(٢) صحيح البخاري (٣٣٤٢)، وصحيح مسلم (١٦٣) من حديث أبي ذرّ ﷺ والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٥٠٩.

(٣) الإرشاد ص٣١٩.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٩.

(٥) يشير إلى حديث أبي ذر السالف أول هذه المسألة.

(٦) في (د) و (ز) و (م): مسلم، بدل: الحديث. ولم نقف عليه عند مسلم، والخبر أخرجه الديلمي في الفردوس (٣٥٢٧) عن أنس بن مالك ﷺ، بلفظ: «سقف الجنة عرشُ الرحمن عزَّ وجلَّ». ولم نقف على إسناده، وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٨٤١٩) وفيه: فإذا سألتم الله، فسلُوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرشُ الرحمن... وهو حديث صحيح، وعن عبادة بن الصامت عند أحمد أيضاً (٢٢٦٩٥) نحوه.

المخلوقات كلُّها بالنسبة إليه كالحلْقة، فمن ذا الذي يقدِّره ويعلَم طولَه وعرضَه إلا الله خالقُه الذي لا نهايةَ لقدرته[١]، ولا غايةَ لسَعَة مملكته! سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

فيه أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ هذا من صفة المتقينَ الذين أُعِدَّتْ لهم الجنة، وظاهرُ الآيةِ أنها مدحٌ بفعلِ المندوب إليه. و﴿ٱلسَّرَّآءِ﴾: اليُسر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: العسر؛ قاله ابن عباسٍ والكلبيُّ ومقاتل. وقال عبيدُ بنُ عميرٍ والضحَّاكُ: السرَّاء والضرَّاء: الرخاءُ والشدَّة[٢].

ويقال: في حال الصِّحَّةِ والمرض. وقيل: في السرَّاء: في الحياة، وفي الضرَّاء: يعني يُوصي بعد الموت. وقيل: في السرَّاء: في العرس والولائم، وفي الضرَّاء: في النوائبِ والمآتم. وقيل: في السراء: النفقة التي تسرُّكم، مثل النفقة على الأولاد والقرابات، والضرَّاء: على الأعداء. ويقال: في السرَّاء: ما يُضِيفُ به الغنيَّ[٣] ويُهدي إليه. والضرَّاء: ما ينفقُه على أهل الضرِّ ويتصدَّقُ به عليهم.

قلت: والآيةُ تَعُمّ.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ وهي المسألةُ:

الثانية: وكَظْمُ الغيظِ: ردُّه في الجوف؛ يقال: كَظَمَ غيظَه، أي: سكتَ عليه ولم يُظهرْه معَ قدرته على إيقاعه بعدوِّه، وكظمتُ السِّقاء، أي: ملأْتُه وسدَدْتُ عليه،

---

(١) في (خ) و (ظ): لمقدوراته.

(٢) أثر ابن عباس أخرجه الطبري ٦/ ٥٧، وابن أبي حاتم (٤١٦٢). وينظر تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٩ عن الكلبي والضحاك، وتفسير ابن أبي حاتم (٤١٦٣) عن مقاتل، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٦ عن عبيد بن عمير.

(٣) في (د) و (م): الفتى، والمثبت من (خ) و (ظ) وهو الموافق لما في تفسير أبي الليث جزء ٢/ لوحة ١٤٣ والكلام منه، وقد ذكرت فيه بصيغة الجمع، وتحرفت في المطبوع ١/ ٢٩٩ إلى: الأنبياء.

والكِظامةُ ما يُسدُّ به مجرى الماء[١]؛ ومنه الكِظام للسَّير الذي يُشدُّ[٢] به فَمُ الزِّقِّ والقِربة. وكظَمَ البعيرُ جِرَّته[٣]: إذا ردَّها في جَوْفه؛ وقد يقالُ لحبسه الجِرَّة قبل أن يرسلَها إلى فِيه: كظم؛ حكاه الزَّجَّاج[٤]. يقال: كظم البعيرُ والناقةُ إذا لم يَجْتَرَّا؛ ومنه قول الراعي[٥]:

فأفَضْنَ بعد كُظومِهنَّ بجِرَّةٍ … مِن ذي الأبارِق إذ رَعَيْن حَقِيلا[٦]

الحَقِيلُ: موضع. والحَقِيل: نبت. وقد قيل: إنها تفعل ذلك عند الفزَع والجُهد فلا تَجترُّ؛ قال أعشى باهِلةَ يصف رجلاً نحَّاراً للإبل فهي تفْزَعُ منه:

قد تكْظِم البُزْلُ منه حين تُبْصِرهُ … حتى تَقَطَّعَ في أجوافها الجِرَرُ[٧]

ومنه: رجل كظِيمٌ ومكظوم: إذا كان ممتلئاً غَمّاً وحُزناً. وفي التنزيل: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤][٨]، ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨، والزخرف: ١٦] ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

والغيظُ: أصلُ الغضب، وكثيراً ما يتلازمان، لكنْ فُرْقانُ ما بينَهما أنَّ الغيظَ لا يَظْهَرُ على الجوارح، بخلاف الغضب، فإنه يظهر في الجوارح مع فعلٍ مَّا ولابدَّ؛ ولهذا جاز[٩] إسنادُ الغضبِ إلى الله تعالى؛ إذ هو عبارةٌ عن أفعاله في المغضوب عليهم. وقد فسَّر بعض الناس الغيظَ بالغضب، وليس بجيد. والله أعلم.

---

(١) كتاب الأفعال للسرقسطي ٢/ ١٧١ .

(٢) المثبت من (خ). وفي باقي النسخ: يُسدّ.

(٣) الجِرَّة، بالكسر: ما يفيض به البعير، فيأكله ثانية. القاموس (جرر).

(٤) معاني القرآن ١/ ٤٦٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٠٩ .

(٥) ديوانه ص٢٢٤ .

(٦) في (د) و (خ): الأباطح بدل: الأبارق، وهي رواية السرقسطي في كتاب الأفعال ٢/ ١٧١ . وحَقِيل: واد في ديار بني عكل بين جبال من الحلة، وحقيل وذو الأبارق موضع واحد. معجم البلدان ٢/ ٢٧٩ .

(٧) هو في جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ٢/ ٧١٦ ، برواية: قد تكظم البَرْكُ منها حين يفجؤها. وفي خزانة الأدب ١/ ١٩٤ . قال البغدادي: البُزل، جمع بازل، وهو الداخل في السنة التاسعة.

(٨) تفسير الطبري ٦/ ٥٨ .

(٩) في النسخ: جاه، والمثبت من المحرر الوجيز ١/ ٥٠٩ ، والكلام منه.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ العفو عن الناس [من] أجَلِّ ضُرُوبِ فِعْلِ الخير؛ [وهذا] حيثُ يجوز للإنسان أن [لا] يعفوَ، وحيث يتَّجِه حقُّه[1]. وكلُّ مَنِ استحق عقوبةً، فتُرِكتْ له، فقد عُفِيَ عنه.

واخْتُلِفَ في معنى: ﴿عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾؛ فقال أبو العاليةِ والكلبيُّ والزجَّاجُ: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ يريد: عن المماليك[2]. قال ابن عطية[3]: وهذا حسَنٌ على جهة المثال؛ إذ هُم الخَدَمَة، فهم يذنبون كثيراً، والقدرةُ عليهم متيسرة، وإنفاذُ العقوبة سهْلٌ؛ فلذلك مثَّل هذا المفسِّر به.

ورُوِيَ عن ميمون بنِ مهران أن جاريتَه جاءتْ ذاتَ يوم بصَحْفةٍ فيها مَرَقَةٌ حارَّة، وعنده أضيافٌ، فعثَرتْ، فصبَّت المَرقَة عليه، فأراد ميمونٌ أن يَضْرِبَها، فقالت الجارية: يا مولاي، استعملْ قولَ الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ قال لها: قد فعلتُ. فقالت: اعمل بما بعدَه: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ قال: قد عفوتُ عنك. فقالت الجارية: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. قال ميمون: قد أحسنتُ إليكِ، فأنتِ حرَّةٌ لوجه الله تعالى[4]. ورُوِيَ عن الأحنف بنِ قيسٍ مثلُه[5].

وقال زيدُ بن أسلم[6]: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾: عمن ظلمهم وأساءَ إليهم[7]. وهذا عامٌّ، وهو ظاهرُ الآيةِ. وقال مقاتل بنُ حيَّانَ في هذه الآية: بلَغنا أنَّ رسولَ الله ﷺ قال عند ذلك: «إنَّ هؤلاء من أمَّتي قليلٌ إلَّا مَن عصَمَه الله، وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضَتْ»[8].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥١٠، وما بين حاصرتين منه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٧ عن أبي العالية، وتفسير أبي الليث ١/ ٢٩٩ عن الكلبي، وأورده الواحدي ١/ ٤٩٣ عن ابن عباس، ولم نقف على قول الزجاج في معاني القرآن له.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥١٠.

(٤) تنبيه الغافلين لأبي الليث السمرقندي ص١٠٢، وميمون بن مهران هو أبو أيوب الجزري الرَّقِّي، عالم الجزيرة ومفتيها، توفي سنة (١١٧هـ). السير ٥/ ٧١.

(٥) في (خ) و(ظ): بنحوه. وقد أخرجه البيهقي في الشعب (٨٣١٧).

(٦) في النسخ: سلم وهو خطأ، وقد ذكره الواحدي ١/ ٤٩٣، والبغوي ١/ ٣٥٢ عن زيد بن أسلم ومقاتل.

(٧) في (د) و(م): عن ظلمهم وإساءتهم.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٤١٦٨).

فمدح الله تعالى الذين يغفرون عند الغضب، وأثنى عليهم، فقال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وأثنى على الكاظمين الغيظ بقوله: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، وأخبرَ أنه يحبُّهم بإحسانهم في ذلك.

ووردتْ في كظْمِ الغيظ، والعفوِ عن الناس، ومُلْكِ النفس عندَ الغضب أحاديثُ، وذلك من أعظم العبادة وجِهادِ النفس؛ فقال ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرَعَةِ، ولكنَّ الشديدَ الذي يملكُ نفسَه عند الغضب»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما من جرعةٍ يتجرَّعها العبدُ خيرٌ له وأعظمُ أجراً من جرعةِ غيظٍ في الله»[2].

وروى أنسٌ أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، ما أشدُّ من كل شيء؟ قال: «غضبُ الله». قال: فما ينجي من غضب الله؟ قال: «لا تغضبْ»[3]. قال العَرْجِيّ[4]:

وإذا غضبتَ فكن وَقُوراً كاظِماً ... للغيظ تَبْصُر ما تقولُ وتسمعُ
فكفى به شرفاً تَصَبُّرُ ساعةٍ ... يرضى بها عنك الإله وتُرفَعُ[5]

وقال عروةُ بن الزبير في العفو:

لن يبلغَ المجدَ أقوامٌ وإن شَرُفوا ... حتى يَذِلُّوا وإن عَزُّوا لِأقوامِ
ويُشْتَمُوا فترى الألوانَ مُشرِقَةً ... لا عَفْوَ ذُلٌّ ولكنْ عَفْوَ إكرامِ[6]

---

(١) أخرجه أحمد (٧٢١٩)، والبخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه أحمد (٦١١٤)، وابن ماجه (٤١٨٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) لم نقف عليه من حديث أنس، وأخرج أحمد في المسند (٦٦٣٥) نحوه من حديث عبدالله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما، قال الهيثمي في المجمع ٨/ ٦٩ : وفيه ابن لهيعة وهو لين الحديث، وبقية رجاله ثقات.

(٤) عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان، لقب بالعرجي لأنه كان يسكن عرج الطائف، وهو من شعراء قريش الذين شُهروا بالغزل، وكان مشغوفاً باللهو والصيد. الأغاني ١/ ٣٨٣ .

(٥) في (خ) و (ظ): ويدفع، والبيتان في البحر ٣/ ٥٨ .

(٦) جمهرة الأمثال ١/ ٣٤٦ ، والمستطرف ١/ ٤١٩ ، وشعب الإيمان (٨٤٨٣)، وأدب الدين والدنيا للماوردي ص٢٢٩ .

وروى أبو داودَ وأبو عيسى الترمذيُّ[١] عن سهل بن معاذ بن أنسٍ الجُهَنيِّ، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «من كَظَم غيظاً وهو يستطيع أن يُنْفِذَه؛ دعاه الله يومَ القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيِّره في أيِّ الحورِ شاء». قال: هذا حديثٌ حسنٌ غريب.

وروى أنسٌ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ: مَن كان أجرُه على الله فليدخلِ الجنَة، فيقال: مَن ذا الذي أَجْرُه على الله؟ فيقوم العافون عن الناس يدخلون الجنةَ بغير حساب». ذكره الماوردي[٢]. وقال مبارك بن فضالة[٣]: كنتُ عندَ المنصور جالساً، فأمَرَ بقتل رجلٍ؛ فقلت: يا أميرَ المؤمنين، قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ بينَ يديِ الله عزَّ وجل: من كانت له يدٌ عند الله فليتقدَّمْ[٤]، فلا يتقدَّمُ إلا من عفا عن ذنب»؛ فأمر بإطلاقه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: يُثيبهم على إحسانهم. قال سَرِيٌّ السَّقَطِي: الإحسان أن تُحسِن وقتَ الإمكانِ، فليس كلَّ وقتٍ يمكنك الإحسانُ، قال الشاعر:

بادِرْ بِخَيْرٍ إذا ما كنتَ مُقْتَدِرا ... فليس في كلِّ وقتٍ أنتَ مُقتدِرُ[٥]

وقال أبو العباس الجُمَّانيُّ فأحسن:

ليس في كلِّ ساعةٍ وأَوَانِ ... تتهَيّا صنائعُ الإحسانِ

---

(١) سنن أبي داود (٤٧٧٧)، وسنن الترمذي (٢٠٢١) و (٢٤٩٣)، وهو عند أحمد (١٥٦٣٧).

(٢) بنحوه في أدب الدنيا والدين ص٢٣٦، وأخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/ ٤٤٧، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٨٧، والبيهقي في الشعب (٤٣١٣)، من طريق الفضل بن يسار، عن غالب القطان، عن الحسن، عن أنس، به، قال أبو نعيم: غريب من حديث الحسن، تفرد به الفضل عن غالب. وقال العقيلي: الفضل بن يسار عن غالب القطان، لا يتابع من وجه يثبت.

(٣) وقع في النسخ: ابن المبارك، والصواب ما أثبتناه، فقد أخرج الخطيب في تاريخ بغداد ١٣/ ٢١٢ القصة مطولة في ترجمة مبارك بن فضالة، فذكر فيها الحديث بنحوه من رواية مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن النبي ﷺ، وأخرجه أيضاً ٦/ ١٤٥ من طريق مبارك، عن الحسن، عن عمران بن الحصين عن النبي ﷺ.

(٤) في (د): فليقم.

(٥) لم نقف عليه.

وإذا أَمْكَنَتْ فبادِرْ إليها حذَراً من تعذُّرِ الإمكانِ[١]

وقد مضى في «البقرة» القولُ في المحسن والإحسان[٢]، فلا معنى للإعادة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

فيه سبعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآية صِنْفاً؛ هم دون الصِّنْفِ الأول، فألحقَهم به برحمته ومَنِّه؛ فهؤلاء هم التوَّابون[٣].

قال ابن عباس في رواية عطاء: نزلَتْ هذه الآيةُ في نَبْهانَ التَّمَّارِ ـ وكُنْيته أبو مُقْبِل ـ أَتَتْه امرأة حَسْناءُ باع منها تمراً، فضمَّها إلى نفسه وقبَّلَها، ثم ندم[٤] على ذلك، فأتى النبيَّ ﷺ، فذكر ذلك له؛ فنزلتْ هذه الآية.

وذكر أبو داودَ الطيالسِيُّ في مسنده عن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: حدَّثني أبو بكر ـ وصَدَق أبو بكر ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ما مِن عبدٍ يُذْنبُ ذنباً، ثم يتوضَّأُ ويصلي رَكعتين، ثم يستغفرُ الله، إلا غَفَرَ له». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآيـة، والآيـةَ الأخـرى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ [النساء: ١١٠]. وخرَّجه الترمذيُّ وقال: حديث حسن[٥].

---

(١) ذكرهما البيهقي في الشعب (٧٦٩٠) ونسبهما لعبدالله بن طاهر، وذكرهما أيضاً الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤١٩ وعزا إنشادها لمحمد بن طاهر الرقي، ووردت دون نسبة في المستطرف ٢/ ١١٠ برواية: ليس في كل وهلة وأوان...

(٢) ٢/ ١٣١.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥١٠.

(٤) في (د) و (م): فندم، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لما في أسباب النزول للواحدي ص١١٨، وهذا الحديث أخرجه ابن بشكوال مطولاً في غوامض الأسماء المبهمة ١/ ٢٩٥ - ٢٩٦ من طريق عبد الغني بن سعيد الثقفي، عن موسى بن عبد الرحمن، عن ابن جريج، عن عطاء، به. وذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة ١٠/ ١٤٠، وذكر له طريقاً آخر عن مقاتل بن سليمان، عن الضحاك، عن ابن عباس، ثم قال: ومقاتل متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس، وعبد الغني وموسى هالكان.

(٥) مسند الطيالسي ص٢، وسنن الترمذي (٤٠٦) و (٣٠٠٦)، وهو عند أحمد (٢).

وهذا عامٌّ. وقد تنزل الآية بسبب خاصٍّ، ثم تتناول جميعَ مَن فَعَل ذلك أو أكثرَ منه.

وقد قيل: إن سبب نزولها أن ثَقَفِيّاً خرجَ في غزاة، وخلَّفَ صاحباً له أنصارِيّاً على أهله، فخَانَه فيها بأن اقتحم عليها، فدفعتْ عن نفسها، فقبَّل يدها، فندم[١] على ذلك، فخرج يَسِيحُ في الأرض نادماً تائباً؛ فجاء الثقفيُّ، فأخبرتْه زوجتُه بفعل صاحبه، فخرجَ في طلبه، فأتى به إلى أبي بكر وعمرَ رَجاءَ أن يجدَ عندهما فرجاً فوَبَّخاه؛ فأتى النبيَّ ﷺ، فأخبره بفعله؛ فنزلت هذه الآية[٢]. والعمومُ أولى للحديث.

ورُوِيَ عن ابن مسعود أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، كانت بنو إسرائيل أكرَمَ على الله مِنَّا، حيثُ كان المذْنِبُ منهم تُصْبحُ عقوبتُه [مكتوبةً] على باب داره، وفي رواية: كفارةُ ذنْبِه مكتوبةً على عَتَبة داره: اجْدَعْ أنفَك، اقْطَع أُذُنَك، افعل كذا. فأنزل الله تعالى هذه الآية تَوْسِعةً ورحمةً وعِوَضاً من ذلك الفعل ببني إسرائيل[٣].

ويُروى أنَّ إبليس بكى حين نزلت هذه الآية[٤].

والفاحشةُ تطلَقُ على كلِّ معصية، وقد كَثُر اختصاصُها بالزنا، حتى فسَّرَ جابرُ بنُ عبدالله والسُّدِّي هذه الآيةَ بالزنا[٥].

و«أَوْ» في قوله: ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ قِيل: هي بمعنى الواو؛ والمرادُ: ما دونَ الكبائر.

﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ معناه: بالخوف من عقابه والحَيَاءِ منه[٦]. الضحاك: ذكروا العَرْضَ

---

(١) في (خ) و (ظ): ثم ندم.

(٢) ذكره مطولاً الواحدي في أسباب النزول ص١١٨، والبغوي في التفسير ١/ ٣٥٢، وهو من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس كما ذكر الحافظ ابن حجر في العجاب ٢/ ٧٥٧.

(٣) تفسير البغوي ١/ ٣٥٢، والمحرر الوجيز ١/ ٥١٠، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ٦/ ٦٢ عن عطاء مرسلاً، وأخرجه ٦/ ٦٣ من طريق علي بن زيد بن جدعان عن ابن مسعود بلفظ: كانت بنو إسرائيل إذا أذنبوا، أصبح مكتوباً على بابه الذنب وكفارته، فأعطينا خيراً من ذلك هذه الآية. وعلي بن زيد بن جدعان ضعيف، ولم يدرك ابن مسعود.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ١٣٣، والطبري ٦/ ٦٣ عن ثابت البُناني.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥١٠، وأخرج الأثرين عن جابر والسدِّي الطبريُّ ٦/ ٦١.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥١٠.

الأكبرَ على الله[١]. وقيل: تفكَّروا في أنفسهم أنَّ الله سائلُهم عنه؛ قاله الكلبيُّ ومقاتل[٢]. وعن مقاتل أيضاً: ذكروا الله باللسان عند الذنوب[٣].

﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي: طلبوا الغفرانَ لأجل ذنوبهم. وكلُّ دعاءٍ فيه هذا المعنى، أو لفظُه، فهو استغفار. وقد تقدَّمَ في صدر هذه السورة سيدُ الاستغفار، وأن وقتَه الأسحارُ[٤]. فالاستغفارُ عظيمٌ، وثوابُه جسيمٌ، حتى لقد رَوى الترمذيُّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن قال: أستغفر الله العظيم[٥] الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيومُ وأتوبُ إليه، غُفرَ له وإن كان قد فرَّ من الزحف».

وروى مَكْحُولٌ، عن أبي هريرةَ قال: ما رأيتُ أكثرَ استغفاراً من رسول الله ﷺ. وقال مكحول: ما رأيتُ أكثرَ استغفاراً من أبي هريرةَ[٦]. وكان مكحولٌ كثيرَ الاستغفار.

قال علماؤنا: الاستغفارُ المطلوبُ هو الذي يَحُلُّ عَقْدَ الإصرارِ، ويَثْبُتُ معناه في الجَنَان، لا التلفُّظُ باللسان. فأمَّا من قال بلسانه: أستغفر اللهَ، وقلبُه مُصِرٌّ على معصيته، فاستغفارُه ذلك يحتاجُ إلى استغفار، وصغيرتُه لاحقةٌ بالكبائر[٧].

ورُويَ عن الحسنِ البصريِّ أنه قال: استغفارُنا يحتاجُ إلى استغفار[٨].

قلت: هذا يقوله في زمانه، فكيف في زماننا هذا الذي يُرى فيه الإنسانُ مُكِبّاً على

---

(١) الوسيط ١/ ٤٩٤ .

(٢) أورده الواحدي في الوسيط ١/ ٤٩٤ ، والرازي في التفسير ٩/ ١٠ عن مقاتل والواقدي.

(٣) تفسير البغوي ١/ ٣٥٣ .

(٤) ص٥٩ - ٦٠ من هذا الجزء .

(٥) قوله: العظيم، من (خ) وليس في باقي النسخ، وهو الموافق لما في سنن الترمذي (٣٥٧٧)، وهو عند أبي داود (١٥١٧)، وهو من حديث بلال بن يسار بن زيد، عن أبيه، عن جده سمع النبي ﷺ يقول، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قلنا: وله شاهد من حديث ابن مسعود ﷺ أخرجه الحاكم ٢/ ١١٨ وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٦) الزهد لأحمد ص٥٠ ، وفيه بين مكحول وأبي هريرة رجل لم يُسمَّ، وهو الذي يروي الحديث عن أبي هريرة. ومكحول لم يلق أبا هريرة كما في العلل لابن أبي حاتم ص١٦٥ - ١٦٦ .

(٧) المفهم ٧/ ٨٥ - ٨٦ .

(٨) تفسير أبي الليث ١/ ٣٠٠ .

الظلم؟! حريصاً عليه لا يُقلِع، والسُّبْحَةُ في يده، زاعماً أنه يستغفرُ اللهَ من ذنبه! وذلك استهزاءٌ منه واستخفاف. وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقد تقدَّم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: ليس أحدٌ يغفِرُ المعصيةَ ولا يُزيلُ عقوبتَها إلا الله.

﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ﴾ أي: ولم يَثْبُتُوا ويعزِمُوا على ما فعلوا. وقال مجاهد: أي: ولم يَمضُوا[١]. وقال معبد بن صبيحة[٢]: صليتُ خلفَ عثمانَ، وعليٌّ إلى جانبي، فأقبل علينا فقال: صلَّيتُ بغير وضوء ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾. ثم ذهب فتوضأ وصلّى[٣].

والإصرار هو العزم بالقلب على الأمر، وتركُ الإقلاعِ عنه. ومنه صَرُّ الدنانيرِ، أي: الرَّبطُ عليها[٤]؛ قال الحطيئةُ يصِفُ الخيل:

عوابسُ بالشُّعْثِ الكُماةِ إذا ابتغَوا عُلالَتَها بالمُحْصَدَاتِ أصَرَّتِ[٥]

أي: ثَبَتَتْ على عَدْوِها.

وقال قتادة: الإصرارُ: الثبوتُ على المعاصي[٦]؛ قال الشاعر:

---

(١) تفسير مجاهد: ١٣٦، وأخرجه ابن أبي حاتم (٤١٨٥).

(٢) في (م): صبيح، قال ابن حبان في الثقات ٥/ ٤٣٢ - ٤٣٣: معبد بن صبيحة القرشي التيمي، من رهط طلحة بن عبيد الله، ويقال: ابن صبيح، رأى علياً وعثمان، وليست له صحبة. وذكره البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٣٩٩، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٨/ ٢٧٩ ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً.

(٣) قوله: ثم ذهب فتوضأ وصلى، وقع في (م) قبل: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ وسقط من (خ) و (ظ)، والمثبت من (د)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٧٩ والكلام منه. والأثر أخرجه محمد بن الحسن الشيباني في الحجة ١/ ٧٠ عن رجل من الصحابة أنه صلى خلف عثمان، فأحدث الرجل...

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥١٠.

(٥) ديوان الحطيئة ص٣٤١، وجاء في شرحه: العوابس: الخيل القاطبة الوجوه. والكُماة جمع كَمِيّ، وإنما سمي كمياً لأنه يَتكمَّى الأقران، أي: يتعمدهم ويقصد إليهم. والعُلَالة: الجري يُطلب منها بعد ما يذهب جريها، ومحصدات: سياط شديدة الفتل. وذكر في الديوان رواية أخرى للبيت وهي: أَضَرَّتِ، قال الشارح ص٣٤٥: ويقال: ناقة ذات ضرير: أي: ذات صبر على السير، أي: أجهدت نفسها.

(٦) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٤٦٣، وأخرجه الطبري بنحوه ٦/ ٦٦.

يُصِرُّ بالليل ما تُخفِي شَوَاكِلُه يا ويحَ كلِّ مُصِرِّ القلبِ خَتَّار[١]

قال سهل بن عبدالله: الجاهلُ ميِّتٌ، والناسي نائمٌ، والعاصي سَكْران، والمُصِرُّ هالكٌ، والإصرار هو التسويفُ، والتسويفُ أن يقولَ: أتوبُ غداً. وهذا دعوى النفس، كيف يتوب غداً، وغداً لا يملِكه!.

وقال غيرُ سهل: الإصرارُ هو أن ينويَ ألَّا يتوبَ، فإذا نوى التوبةَ النصوح خرج عن الإصرار.

وقولُ سهلٍ أحسنُ. ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا توبة مع إصرار»[٢].

الثالثة: قال علماؤنا: الباعثُ على التَّوبة وحلِّ الإصرار: إدامةُ الفِكْر في كتاب الله العزيز الغفَّار، وما ذكره الله سبحانَه من تفاصيلِ الجنة، ووَعَدَ به المطِيعين، وما وصفَهُ من عذابِ النار، وتهدَّدَ به العاصِين، ودام على ذلك حتى قَوِيَ خوفُه ورجاؤُه، فدعا الله رَغَبا ورَهَباً؛ والرَّغْبَةُ والرّهبةُ ثمرةُ الخوفِ والرجاء، يخافُ من العِقاب، ويرجو الثوابَ، والله الموفق للصواب.

وقد قيل: إن الباعثَ على ذلك تنبيهٌ إلهِيٌّ؛ ينبِّه به من أراد سعادتَه؛ لِقُبْح الذنوبِ وضررِها، إذ هي سُمومٌ مُهْلِكَة[٣].

قلت: وهذا خلافٌ في اللفظ لا في المعنى، فإن الإنسانَ لا يتفكَّر في وعد الله ووعِيده إلا بتَنْبيهه؛ فإذا نظر العبدُ - بتوفيق الله تعالى - إلى نفسه، فوجدَها مشْحُونةً بذنوبٍ اكتَسبَها، وسيِّئاتٍ اقترفَها، وانبعثَ منه الندمُ على ما فرَّط، وتَركَ مثلَ ما سبق، مخافةَ عقوبةِ الله تعالى، صَدَق عليه أنه تائب، فإن لم يكن كذلك؛ كان مُصِرّاً على المعصية، وملازِماً لأسباب الهَلَكة.

---

(١) في (ظ): جبار، والبيت أنشده ابن عباس عندما سأله نافع بن الأزرق عن قوله تعالى: ﴿كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩] ذكره السيوطي في الدر ٤/ ٧٣ وعزاه للطسْتي، ورواية البيت عنده: مصر على الحنث لا تخفى شواكله...

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج الطبري ٦/ ٦٥١ عن ابن عباس أنه قال: لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار. وفي إسناده أبو حذيفة موسى بن مسعود النهدي، قال عنه الحافظ في التقريب: صدوق سيىء الحفظ.

(٣) المفهم ٧/ ٧٠.

قال سهل بن عبدالله: علامة التَّائب أنْ يَشغلَه الذَّنبُ عن[١] الطعام والشراب؛ كالثلاثة الذين خُلِّفوا[٢].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فيه أقوال؛ فقيل: أي: يَذكرون ذنوبَهم، فيتوبون منها. قال النحاس[٣]: وهذا قول حسن.

وقيل: «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أني أعاقب على الإصرار.

وقال عبدالله بن عُبيد بن عُمير: «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أنهم إن تابوا تاب الله عليهم[٤].

وقيل: «يَعْلَمُونَ» أنهم إن استغفروا غفر لهم[٥].

وقيل: «يَعْلَمُونَ» بما حرَّمتُ عليهم؛ قاله ابن إسحاق[٦].

وقال ابن عباس والحسن ومقاتل والكلبي: «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أن الإصرار ضارّ، وأنَّ تركَه خيرٌ من التَّمادي.

وقال الحسين[٧] بن الفضل: «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أن لهم ربّاً يغفر الذَّنب[٨].

قلت: وهذا أخذه من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ فيما يَحكي عن ربِّه عزَّ وجلَّ قال: «أذنبَ عبدٌ ذنباً، فقال: اللّهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعَلِمَ أن له ربّاً يَغفِرُ الذَّنب، ويأخذ بالذَّنْب، ثم عاد فأذنبَ، فقال: أيْ ربِّ، اغفر لي ذنبي». فذكر مثلَه مرتين، وفي آخره: «اعمل ما شئتَ، فقد غفرتُ لك» أخرجه مسلم[٩].

---

(١) في (د) و (م): على.

(٢) وهم كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، انظر خبرهم في مسند أحمد (١٥٧٨٦)، وصحيح البخاري (٤٤١٨)، وصحيح مسلم (٢٧٦٩).

(٣) في إعراب القرآن ١/ ٤٠٧ وما قبله منه.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٨٠.

(٥) تفسير البغوي ١/ ٣٥٣.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥١١، وأخرجه الطبري ٦/ ٦٩.

(٧) في (د) و (ظ) و (م): الحسن، وهو خطأ، وهو أبو علي البَجَلي، الكوفي، المفسِّر، اللغوي، المحدِّث، توفي سنة (٢٨٢ هـ). السير ١٣/ ٤١٤.

(٨) تفسير البغوي ١/ ٣٥٣، وما قبله منه.

(٩) برقم (٢٧٥٨): (٢٩)، وأخرجه أيضاً البخاري (٧٥٠٧)، وهو في مسند أحمد (١٠٣٧٩).

وفيه دليلٌ على صِحَّة التوبةِ بعد نَقْضِها بمُعاوَدة الذَّنْب؛ لأنَّ التوبةَ الأولى طاعةٌ، وقد انقضت وصحَّتْ، وهو محتاجٌ بعد مواقعةِ الذَّنْبِ الثاني إلى توبةٍ أخرى مستأنَفَة.

والعَوْدُ إلى الذَّنْب؛ وإن كان أقْبَحَ من ابتدائه؛ لأنه انْضافَ إلى الذَّنب نَقْضُ التوبة، فالعودُ إلى التوبةِ أحسنُ من ابتدائها؛ لأنه انْضاف[1] إليها ملازمةُ الإِلْحَاح بباب الكريم، وأنه لا غافرَ للذُّنوب سواه.

وقولُه في آخرِ الحديث: «اعملْ ما شئت»؛ أمرٌ معناه الإكرامُ في أحد الأقوال؛ فيكون من باب قوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [الحجر: ٤٦]. وآخرُ الكلام خَبرٌ عن حال المخاطَبِ بأنه مغفورٌ له ما سلَفَ من ذنبه، ومحفوظٌ إن شاء الله تعالى فيما يستقبل من شأنه[2].

ودلّتِ الآيةُ والحديثُ على عظيم فائدةِ الاعترافِ بالذنب، والاستغفار منه، قال ﷺ: «إنَّ العبد إذا اعترفَ بذنبه، ثم تاب إلى الله، تاب الله عليه». أخرجاه في الصحيحين[3].

وقال:

يستوجبُ العفوَ الفتى إذا اعتَرفْ بما جَنَى من الذنوب واقترفْ[4]

وقال آخر:

أقرِرْ بذنبك ثم اطلُبْ تَجاوُزَه إن الجُحُودَ جُحُودَ الذَّنْب ذنبان[5]

وفي صحيح مسلم[6] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم تُذْنِبوا، لذهب الله بكم، ولَجَاء بقوم يُذنبون، فيستغفرون، فيغفر لهم».

---

(١) في (د) و (م): أضاف، في الموضعين.

(٢) المفهم ٧/ ٨٦.

(٣) صحيح البخاري (٢٦٦١)، وصحيح مسلم (٢٧٧٠) (٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك، وهو في مسند أحمد (٢٥٦٢٣).

(٤) نسبه المصنف في تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنفال لأبي سعيد أحمد بن محمد الزبيري، وهو دون نسبة في قرى الضيف ١/ ٣٦٨ وروايته فيه: وتاب مما قد جناه واقترف.

(٥) البيت في الأغاني ١٣/ ١١٥ دون نسبة.

(٦) برقم (٢٧٤٩): (١١)، وهو في مسند أحمد (٨٠٨٢).

وهذه فائدة اسم الله تعالى الغفَّار والتوَّاب، على ما بيّناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[١].

الخامسة: الذنوب التي يُتابُ منها إمَّا كُفرٌ أو غيرُه، فتوبةُ الكافر إيمانُه مع ندمِه على ما سلفَ من كفره، وليس مجردُ الإيمانِ نفْسَ توبةٍ. وغيرُ الكفْر إمَّا حقٌّ لله تعالى، وإمَّا حقٌّ لغيره، فحقُّ الله تعالى يكفي في التوبة منه التَّركُ؛ غيرَ أن منها ما لم يَكْتفِ الشرعُ فيها بمجرَّد الترك، بل أضافَ إلى ذلك في بعضها قضاءً، كالصلاة والصوم، ومنها ما أضاف إليها كفارةً؛ كالحِنْث في الأيْمان والظِّهار وغيرِ ذلك، وأمَّا حقوقُ الآدميِّيْنَ فلابدَّ من إيصالها إلى مستحقيها[٢]، فإن لم يوجَدوا تُصُدِّقَ عنهم، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسارٍ؛ فعفو الله مأمولٌ، وفضلُه مبذولٌ، فكم ضَمِنَ من التَّبِعاتِ، وبدَّل من السيِّئات بالحسنات[٣]. وستأتي زيادةُ بيانٍ لهذا المعنى[٤].

السادسة: ليسَ على الإنسان إذا لم يذكُرْ ذَنْبه ويعلَمْه أن يتوبَ منه بعينه، ولكن يعتقد[٥] إذا ذكر ذنباً تاب منه[٦].

وقد تأوَّل كثيرٌ من الناس ـ فيما ذكر شيخُنا أبو محمد عبدُ المعطي الإسكندرانيُّ[٧] ﷺ ـ أن الإمام المحاسبيَّ رحمه الله يرى أن التوبةَ من أجناس المعاصي لا تصحُّ، وأن الندمَ على جملتها لا يكفي، بل لابدَّ أن يتوبَ من كل فعلٍ

---

(١) لم نقف عليه في المطبوع منه.

(٢) في النسخ: مستحقها، والمثبت من (م).

(٣) المفهم ٧/ ٧١ .

(٤) في الآية (٧٠) من سورة الفرقان.

(٥) في (م): يلزم.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٧ وفيه: ولكن يعتقد أنه كلما ذكر...

(٧) ابن أبي الثناء محمود بن عبد المعطي، اللخمي، المالكي، الضرير، كان مشهوراً بالزهد والصلاح، وله معرفة بأصول الدين ومذهب مالك، صنّف شرح الرعاية للمحاسبي، وشرح الرسالة القشيرية، توفي بمكة سنة (٦٣٨ هـ). التكملة لوفيات النقلة للمنذري ٣/ ٥٦٦ ، والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي ٥/ ٤٩٧ .

بجارحته، وكلِّ عَقْدٍ بقلبه على التعيين. ظنُّوا ذلك من قوله، وليس هذا مرادَه، ولا يقتضيه كلامُه، بل حُكْمُ المكلَّفِ إذا عرَف حُكْم أفعالِه، وعرَفَ المعصيةَ من غيرها، صحَّتْ منه التوبةُ من جملةِ ما عرف؛ فإنه إن لم يعرفْ كونَ فعلِه الماضي معصيةً؛ لا يمكنه أن يتوبَ منه، لا على الجملة ولا على التفصيل.

ومثالُه رجلٌ كان يتعاطى باباً[١] من أبواب الرِّبا، ولا يعرفُ أنه رِباً، فإذا سمع كلام الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩]، عَظُمَ عليه هذا التهديدُ، وظنَّ أنه سالمٌ من الرِّبا، فإذا عَلِمَ حقيقةَ الرِّبا الآن، ثم تفكَّر فيما مضى من أيامه، وعلم أنه لابَسَ منه شيئاً كثيراً في أوقات متقدِّمة، صحَّ أن يندَمَ عليه الآن جُملةً، ولا يلزمُه تعيينُ أوقاته.

وهكذا كلُّ ما واقعَ من الذنوب والسيئات، كالغيبة والنَّميمة، وغيرِ ذلك من المحرَّماتِ التي لم يعرفْ كونَها مُحرَّمةً، فإذا فَقُهَ العبدُ وتفقَّد ما مضى من كلامه، تاب من ذلك جملةً، ونَدِم على ما فرَّط فيه من حق الله تعالى، وإذا استحلَّ مَن كان ظلَمَه، فحالَلَهُ على الجملة، وطابتْ نفسُه بترك حقِّه، جاز؛ لأنه من باب هبةِ المجهول[٢]، هذا مع شُحِّ العبد، وحرصِه على طلب حقِّه، فكيف بأكرمِ الأكرَمِين، المتفضِّلِ بالطاعات وأسبابِها، والعفوِ عن المعاصي صغارِها وكبارِها.

قال شيخنا رحمه الله تعالى: هذا مرادُ الإمام، والذي يدلُّ عليه كلامُه لمن تفقَّده، وما ظنَّهُ به الظانُّ من أنه لا يصحُّ الندمُ إلا على فِعلٍ فِعلٍ، وحركةٍ حركةٍ، وسكَنَةٍ سكَنَةٍ على التعيين، هو من باب تكْلِيف ما لا يُطاق، الذي لم يقع شرعاً وإن جاز عقلاً، ويلزم عنه أن يعرِفَ كم جرعةً جرعها في شربِ الخمر، وكم حركةً تحرَّكَها في الزنا، وكم خَطْوةً مَشاها إلى مُحرَّم، وهذا ما لا يطيقُه أحدٌ، ولا تتأتَّى منه توبةٌ على التفصيل.

وسيأتي لهذا الباب مزيدُ بيان من أحكام التوبة وشروطِها في «النساء» وغيرها إن

(١) في النسخ: أبواباً، والمثبت من (م).

(٢) في (د): لأنه باب من جهة المجهول.

شاء الله تعالى[١].

السابعة: في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ﴾ حُجَّةٌ واضحةٌ، ودلالةٌ قاطعةٌ لِمَا قاله سيفُ السنة، ولسانُ الأمة القاضي أبو بكر بن الطيب: إن الإنسان يؤاخَذُ بما وطَّنَ عليه بضميره، وعزَمَ عليه بقلبه من المعصية[٢].

قلت: وفي التنزيل: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وقال: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ٢٠]. فعوقبُوا قبلَ فِعْلهم بعزمهم. وسيأتي بيانُه.

وفي البخاري[٣]: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما[٤]، فالقاتلُ والمقتول في النار»، قالوا: يا رسولَ الله، هذا القاتلُ، فما بالُ المقتولِ؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبِه». فعلَّق الوعيدَ على الحرص، وهو العزمُ، وألغى إظهارَ السِّلاح.

وأنَصُّ من هذا ما خرَّجه الترمذيُّ[٥] من حديث أبي كبشةَ الأنماري، وصحّحه مرفوعاً: «إنما الدنيا لأربعةِ نفرٍ: رجل أعطاه الله مالاً وعِلْماً، فهو يتَّقي فيه ربَّه، ويصِلُ فيه رَحِمَه، ويعلم لله فيه حقّاً، فهذا بأفضلِ المنازل. ورجل آتاه الله علماً ولم يؤتِه مالاً، فهو [صادقُ النيَّة] يقول: لو أنَّ لي مالاً لعملتُ فيه بعمل فلان، فهو نيَّتُه، فأجرهما سواءٌ. ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته عِلماً، فهو [يخبِطُ في ماله بغير علم]، لا يتَّقي فيه ربَّه، ولا يصِلُ به رَحِمَه ولا يعلمُ لله فيه حقّاً، فهذا بأخبثِ المنازل. ورجل لم يؤتِه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعمِلْتُ فيه بعمل فلانٍ، فهو نيتُه، فوِزرُهما سواء».

وهذا الذي صارَ إليه القاضي هو الذي عليه عامَّةُ السَّلَفِ، وأهلُ العلم من الفقهاء والمحدِّثين والمتكلِّمين، ولا يُلتَفتُ إلى خلافِ مَنْ زعَمَ أنَّ ما يَهُمُّ الإنسانُ به وإن وَطَّن [نفسَه] عليه لا يؤاخَذُ به[٦].

---

(١) في تفسير الآيتين (١٧-١٨) من سورة النساء، وتفسير الآية (٨٢) من سورة طه.
(٢) انظر المفهم ١/ ٣٤٠.
(٣) برقم (٣١) من حديث أبي بكرة ﷺ. وأخرجه أيضاً مسلم (٢٨٨٨)، وهو في مسند أحمد (٢٠٤٣٩).
(٤) في (خ) و (م): بسيفهما.
(٥) في سننه برقم (٢٣٢٥) وما سيرد بين حاصرتين منه، وهو في مسند أحمد (١٨٠٣١).
(٦) المفهم ١/ ٣٤١ وما بين حاصرتين منه.

ولا حجَّةَ له في قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ هَمَّ بسيِّئةٍ فلم يعملْها، لم تُكتَبْ عليه، فإنْ عَمِلَها، كُتبتْ سيِّئةً واحدة»[١]؛ لأن معنى «فلم يعملها»: فلم يعزِمْ على عملها بدليلِ ما ذكرنا، ومعنى «فإن عمِلَها»؛ أي: أظهرَها، أو عزم عليها، بدليل ما وصفنا. وبالله توفيقُنا.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾

رَتَّبَ تعالى بفضله وكرمه غُفْرانَ الذُّنوب لمن أخلَصَ في توبتِه، ولم يُصِرَّ على ذنبه. ويمكنُ أن يتَّصلَ هذا بقصَّة أُحُد، أي: من فرَّ ثم تاب ولم يُصِرَّ، فله مغفرةُ الله.

قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾

هذا تسليةٌ من الله تعالى للمؤمنين، والسُّنَنُ جمع سُنَّة، وهي الطريقُ المستقيم، وفلانٌ على السنَّة؛ أي: على طريق الاسْتِوَاء، لا يَميل إلى شيء من الأهْواء[٢]، قال الهُذَلِيُّ[٣]:

فلا تَجْزَعَنْ من سُنَّةٍ أنت سِرْتَها فأوَّلُ راضٍ سُنَّةً مَن يَسيرُها

والسنَّة: الإمامُ المتَّبَعُ المؤتَمُّ به، يقال: سَنَّ فلانٌ سنَّةً حسنةً وسيئةً: إذا عَمِلَ عملاً اقتُدِيَ به فيه من خيرٍ أو شر[٤]، قال لَبيد:

من مَعشرٍ سَنَّتْ لهم آباؤهم ولكلِّ قومٍ سُنَّةٌ وإمامُها[٥]

والسنَّةُ: الأمَّةُ، والسُّنَنُ: الأُمَمُ؛ عن المفضل. وأنشد:

---

(١) أخرجه أحمد (٧١٩٦)، ومسلم (١٢٨) و (١٣٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٧.

(٣) هو خالد بن زهير الهذلي، والبيت في شرح أشعار الهذليين ص٢١٣، والأغاني ٦/ ٢٧٧، ومجمع الأمثال ٢/ ٢٤٨، والمحرر الوجيز ١/ ٥١١.

(٤) تفسير الطبري ٦/ ٧٣، وتفسير البغوي ١/ ٣٥٤.

(٥) ديوان لبيد ص ٣٢٠، وتفسير الطبري ٦/ ٧٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥١١، والنكت والعيون ١/ ٤٢٥.

ما عايَنَ الناسُ من فَضْلٍ كفضلِهِمُ ولا رَأوا مِثلَهم في سالِفِ السُّننِ[١]

وقال الزجاج[٢]: والمعنى: أهل سنن، فحذف المضافَ.

وقال ابن زيد[٣]: أمثال. عطاء: شرائع. مجاهد: المعنى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ يعني بالهلاك فيمن كذَّب قبلَكم، كعادٍ وثمودَ.

والعاقبةُ: آخرُ الأمر، وهذا في يوم أُحُد. يقول: فأنا أُمهِلُهم، وأُمْلي لهم، وأستَدْرجُهم حتى يبلُغَ الكتابُ أجلَه، يعني بنصرةِ النبيِّ ﷺ والمؤمنين، وهلاكِ أعدائهم الكافرين[٤].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

يعني القرآنَ، عن الحسن وغيره. وقيل: هذا إشارةٌ إلى قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾[٥].

والموعظةُ: الوَعْظ. وقد تقدَّم[٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

عزَّاهم وسَلَّاهم بما نالَهم يوم أُحُد من القتل والجراح، وحثَّهم على قتال عدوِّهم، ونهاهم عن العجز والفشل، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعُفُوا، ولا تجبُنوا يا أصحابَ محمدٍ عن جهادِ أعدائِكم لِمَا أصابكم. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ظُهورهم، ولا على ما أصابكم من الهَزيمةِ والمُصيبة، فأَنْتُم الأَعْلَوْنَ، أي: لكم تكون العاقبةُ بالنَّصر والظَّفَر ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: بصِدْق وَعْدِي. وقيل: «إنْ» بمعنى «إذ»[٧].

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٥٤، وما قبله منه دون نسبة إلى المفضل.

(٢) في معاني القرآن له ١/ ٤٧٠.

(٣) في النسخ: أبو زيد، والمثبت من تفسير الطبري ٦/ ٧٣.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٥٤، وعنه نقل المصنف كلام عطاء ومجاهد.

(٥) النكت والعيون ١/ ٤٢٦، والمحرر الوجيز ١/ ٥١٢، وأخرج القولين الطبري ٦/ ٧٤ - ٧٥.

(٦) ٤/ ٣٩٧.

(٧) انظر تفسير الطبري ١/ ٧٦ - ٧٧، وتفسير البغوي ١/ ٣٥٥.

قال ابن عباس: انهزمَ أصحابُ رسول الله ﷺ يومَ أُحُد، فَبَيْنا هم كذلك إذ أقبلَ خالدُ بن الوليد بخيلٍ من المشركين يريدُ أن يَعلُوَ عليهم الجبلَ، فقال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ لا يَعْلُنَّ علينا، اللهمَّ لا قوةَ لنا إلا بك، اللهمَّ ليس يعبدُك بهذه البلدة غيرُ هؤلاء النَّفَر». فأنزل اللهُ هذه الآياتِ، وثابَ نَفَرٌ من المسلمين رُماةٌ، فصَعِدُوا الجبلَ، ورَمَوْا خيلَ المشركين حتى هزمُوهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾[1] يعني: الغالبين على الأعداء بعد أُحد. فلم يُخرِجوا بعد ذلك عسكراً إلّا ظَفِروا في كلِّ عسكر كان في عهدِ رسول الله ﷺ، وفي كلِّ عسكر كان بعدَ رسول الله ﷺ، وكان فيه واحدٌ من الصحابة، كان الظَّفَرُ لهم، وهذه البلدانُ كلُّها إنما افْتُتِحَتْ على عهد أصحاب رسول الله ﷺ، ثم بعد انقراضِهم ما افتُتِحتْ بلدةٌ على الوجه كما كانوا يفتتحون في ذلك الوقت.

وفي هذه الآيةِ بيانُ فضلِ هذه الأمة؛ لأنه خاطَبهم بما خاطَبَ به أنبياءه؛ لأنه قال لموسى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه:٦٨]، وقال لهذه الأمة: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾. وهذه اللَّفظةُ مشتقةٌ من اسمه الأعلى، فهو سبحانه العَليّ، وقال للمؤمنين: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ القَرْح: الجُرح. والضمُّ والفتح فيه لغتان عن الكسائيّ والأخفش[3]، مثل فَقْر وفُقْر[4]. الفرَّاء: هو بالفتح: الجُرْح، وبالضم:

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص١٢٠، وأخرجه الطبري ٦/ ٧٩ مختصراً، وأخرجه بتمامه ٦/ ٧٨ لكن من قول ابن جريج.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٣٠١.

(٣) وقد قرأ بضم القاف أبو بكر وحمزة والكسائي، كما في السبعة ص٢١٦، والتيسير ص٩٠.

(٤) في (خ) و (د): قفر وقفر، وفي (ظ): نقر وفقر، وفي (م): غَقْر وعُقْر: والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٨. قال في مختار الصحاح: الفُقر بالضم لغة في الفقر، كالضُّعف والضَّعف.

أَلَمُه(١).

والمعنى: إن يَمسَسْكُم يومَ أُحد قَرْحٌ فقد مَسَّ القومَ يومَ بدر قَرْحٌ مثلُه.

وقرأ محمد بنُ السَّمَيْفَع: «قَرَح» بفتح القاف والراء على المصدر(٢).

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ قيل: هذا في الحرب، تكون مرةً للمؤمنين لِينصُرَ الله عزَّ وجلَّ دينَه، ومرةً للكافرين إذا عصَى المؤمنون، لِيبتليَهم ويُمَحِّصَ ذنوبَهم، فأما إذا لم يَعْصُوا؛ فإنّ حزبَ الله هم الغالبون. وقيل: «نُدَاوِلُها بين النّاس» من فَرَح وَغَمٍّ، وصحّةٍ وسُقْم، وغِنًى وفَقْر(٣). والدَّولَةُ: الكَرَّة، قال الشاعر:

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ويومٌ نُساءُ ويومٌ نُسَرّ(٤)

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ معناه: وإنما كانت هذه المُداولةُ لِيرى المؤمنَ مِنَ المنافق، فَيميزَ بعضَهم من بعض(٥)، كما قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧]. وقيل: لِيعلمَ صبر المؤمنين، العلمَ الذي يقع عليه الجَزاءُ كما عَلِمَه غَيْباً قبل أن كَلَّفَهم(٦). وقد تقدم(٧) في «البقرة» هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي: يُكرِمَكم بالشهادة؛ أي: لِيُقتلَ

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٤ ، ومعاني القرآن للأخفش ١/ ٤٢١ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥١١ .

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥١٣ و ٥١٤ ، وقراءة ابن السَّميفع ذكرها ابن جني في المحتسب ١/ ١٦٦ ، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٢ لأبي السمّال.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٨ ، ومعاني القرآن له ١/ ٤٨١ .

(٤) وقع في النسخ: فيوم لنا ويوم علينا، وهو خطأ رواية ووزناً، والبيت للنَّمِر بن تَوْلب، وهو في (شعراء إسلاميون) ص٣٤٧ ، وأورده سيبويه في الكتاب ١/ ٨٦ .

(٥) انظر تفسير البغوي ١/ ٣٥٦ .

(٦) انظر معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٨١ .

(٧) ٢/ ٤٣٧ - ٤٣٨ .

قومٌ فيكونوا[١] شهداءَ على الناس بأعمالهم. وقيل: لهذا قيل: شهيد: وقيل: سُمِّي شهيداً لأنه مشهودٌ له بالجنة[٢]. وقيل: سُمِّي شهيداً لأن أرواحَهم احتضرتْ[٣] دارَ السلام؛ لأنهم أحياءٌ عند ربِّهم، وأرواحُ غيرهم لا تصل إلى الجنة[٤]، فالشهيد بمعنى الشاهد، أي: الحاضر للجنة، وهذا هو الصحيح على ما يأتي، والشهادةُ فَضْلُها عظيم، ويَكفيك في فَضْلها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١] الآية، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠-١٢].

وفي «صحيح» البُسْتيّ[٥]: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يَجِد الشهيدُ مَسَّ[٦] القتل إلا كما يَجِدُ أحدُكم مسَّ القَرْصة»[٧].

وروى النسائي عن راشد بن سعد، عن رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يُفتنون في قبورهم إلا الشهيدَ؟ قال: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنةً»[٨].

وفي البخاري: مَنْ قُتلَ من المسلمين يومَ أُحد؛ منهم حمزةُ، واليَمان، والنَّضْر[٩] بن أنس، ومصعب بن عُمير. حدثني عمرو بن علي حدثنا[١٠] معاذ بن

---

(١) في النسخ: فيكونون، والمثبت من (م).
(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/٤٠٨.
(٣) في (خ) و (ظ): أحضرت.
(٤) ذكره الرازي في تفسيره ٩/١٧ بنحوه، ونسبه للنَّضر بن شُميل.
(٥) هو ابن حبان، والحديث في صحيحه برقم (٤٦٥٥)، ومسند أحمد (٧٩٥٣).
(٦) في (د) و (م) في الموضعين: «من»، والمثبت من (ظ) (خ) وهو موافق لما في صحيح ابن حبان.
(٧) في (د) و (م): «القرحة»، والمثبت من (ظ) (خ)، وهو موافق لما في صحيح ابن حبان.
(٨) السنن الكبرى (٢١٩١).
(٩) كذا في النسخ غير (ظ): النضر بن أنس، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/٣٧٥: كذا وقع لأبي ذر (أحد رواة صحيح البخاري) عن شيوخه، وكذا وقع عند النسفي، وهو خطأ، والصواب: أنس بن النضر.. فأما النضر بن أنس فهو ولده، وكان إذ ذاك صغيراً، وعاش بعد ذلك زماناً. اهـ. ووقع في (ظ): النضر بن شميل، وهو تحريف. وسيذكر المصنف قصة استشهاد أنس بن النضر في تفسير الآية (١٤٣) من هذه السورة.
(١٠) في (د) و (م): أن، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لما في صحيح البخاري.

هشام قال: حدثني أبي عن قتادة قال: ما نَعلَمُ حيّاً من أحياء العرب أكثَرَ شهيداً أعزَّ[١] يوم القيامة من الأنصار. قال قتادة: وحدثنا أنس بنُ مالك أنه قُتل منهم يوم أُحد سبعون، ويوم بِئْرِ مَعُونَةَ سبعون، ويوم اليَمامَةِ سبعون. قال: وكان بئر معونةَ على عهد النبي ﷺ، ويومُ اليَمامةِ على عهد أبي بكر يومَ مُسَيْلِمة الكذّاب[٢].

وقال أنس: أُتِيَ النبيُّ ﷺ بعليِّ بن أبي طالب، وبه نَيِّفٌ وسِتون جِراحةً من طَعْنةٍ وضَرْبةٍ ورَمْيَة، فجعلَ النبيُّ ﷺ يمسحُها وهي تَلْتَئم بإذن الله تعالى كأنْ لم تكن[٣].

الثانية: في قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ دليلٌ على أن الإرادةَ غيرُ الأمر كما يقوله أهلُ السنة، فإنّ الله تعالى نهى الكفارَ عن قتل المؤمنين؛ حمزةَ وأصحابِه، وأراد قَتْلَهم، ونهى آدمَ عن أكل الشجرة وأراده، فَواقَعَه آدمُ. وعكسُه أنه أمرَ إبليسَ بالسجود ولم يُرِدْه[٤]، فامتنع منه، وعنه وقعت الإشارةُ بقوله الحقّ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة:٤٦]. وإنْ كان قد أمرَ جميعَهم بالجهاد، ولكنه خلَق الكَسَل والأسبابَ القاطعةَ عن المسِير، فقعدوا.

الثالثة: رُوِيَ عن عليِّ بن أبي طالب ﷺ قال: جاء جبريلُ إلى النبي ﷺ يومَ بدر فقال له: «خَيِّرْ أصحابَك في الأُسارى؛ إنْ شاؤوا القتلَ، وإن شاؤوا الفِداءَ، على أن يُقتَل منهم العام[٥] المُقبِل مِثْلُهم، فقالوا: الفِداء، ويُقتَل منّا». أخرجه الترمذي[٦]، وقال: حديث حسن. فأنجزَ الله وَعْدَه بشهادة أوليائه بعد أن خَيَّرَهم، فاختاروا القتلَ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المشركين، أي: وإن أنالَ الكفارَ من المؤمنين، فهو لا يُحِبُّهم، وإن أحلَّ ألَماً بالمؤمنين؛ فإنه يُحِبُّ المؤمنين.

---

(١) في مطبوع البخاري: أغر، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٣٧٥: كذا للكشميهني، بغين معجمة وراء، ولغيره بالمهملة و الزاي.

(٢) صحيح البخاري (٤٠٧٨).

(٣) أورد نحوه الطبرسي في مجمع البيان ٢/ ٢٢٠ عن أبي جعفر الباقر ﷺ.

(٤) في النسخ: ولم يرد، والمثبت من (م).

(٥) في (خ) و (د) و (م): عام.

(٦) في السنن (١٥٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾

فيه ثلاثةُ أقوال:

يُمَحِّص: يختبر.

الثاني: يُطَهِّر، أي: من ذنوبهم، فهو على حذف مضاف. المعنى: ولِيُمَحِّصَ الله ذنوبَ الذين آمنوا، قاله الفرّاء[١].

الثالث: يُمَحِّص: يُخَلِّص، فهذا أغْرَبُها[٢].

قال الخليل: يقال: مَحِصَ الحبلُ يَمْحَص مَحْصاً: إذا انقطع وَبَرُه، ومنه: اللّهم مَحِّصْ عنَّا ذنوبَنا، أي: خَلِّصْنا من عقوبتها.

وقال أبو إسحاق الزَّجّاج[٣]: قرأتُ على محمد بن يزيد، عن الخليل: التمحيص[٤]: التخليص. يقال: مَحَصَه يَمْحَصُه مَحْصاً: إذا خلَّصه، فالمعنى عليه: ليبتليَ المؤمنين، لِيُثِيبَهم ويُخَلِّصَهم من ذنوبهم. ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يستأصلَهم بالهلاك.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

«أم» بمعنى بل. وقيل: الميم زائدة، والمعنى: أَحَسِبتُم يا مَنْ انهزمَ يومَ أُحد أن تدخلوا الجنةَ كما دخل الذين قُتلوا وصبروا على أَلَم الجِراح والقتل من غير أن تَسْلُكوا طريقَهم وتصبِروا صبرَهم؟ لا، حتى ﴿يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي: عِلْمَ شهادة حتى يقعَ عليه الجزاء.

والمعنى: ولم تُجاهدوا فيعلمَ ذلك منكم؛ فـ«لما» بمعنى «لم».

---

(١) انظر معاني القرآن له ١/ ٢٣٥.

(٢) في إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٨ -٤٠٩ (والكلام منه): وهذا أعرفها.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٤٧٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ١/ ٤٨٣ - ٤٨٤.

(٤) في معاني القرآن للزجاج: المَحْص.

وفرَّق سيبويه بين «لم» و«لما»[١]، فزعمَ أن «لم يفعلْ» نَفْي فَعَل، وأن «لَمّا يفعلْ» نَفْي قد فَعَل.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ منصوب بإضمار أنْ، عن الخليل. وقرأ الحسن ويحيى بن يَعْمَر: «يَعْلَمِ الصَّابرين» بالجزم على النَّسق[٢]. وقُرئ بالرفع على القطع، أي: وهو يعلم. ورَوَى هذه القراءةَ عبدُ الوارث عن أبي عمرو[٣]. وقال الزَّجّاج[٤]: الواو هنا بمعنى «حتى»، أي: ولمَّا يعلمِ الله الذين جاهدوا منكم حتى يعلمَ صبرَهم، كما تقدَّم آنفاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: الشهادةَ من قبل أن تَلْقَوه. وقرأ الأعمش: «مِنْ قبلِ أنْ تُلاقُوهُ»[٥] أي: من قبل القتل. وقيل: من قبل أن تَلْقَوا أسبابَ الموت؛ وذلك أن كثيراً ممن لم يحضر[٦] بدراً كانوا يَتمنَّون يوماً يكون فيه قِتال، فلما كان يومُ أُحُد انهزموا، وكان منهم مَن تجلَّد حتى قُتل[٧]، ومنهم أنس بن النَّضْر عمُّ أنس بن مالك، فإنه قال لما انكشفَ المسلمون: اللهم إني أبرأُ إليك مما جاء به هؤلاء، وباشرَ القتال وقال: إيهاً، إنها ريح الجنة! إني لأَجدُها. ومضى حتى استُشهد. قال أنس: فما عَرَفناه إلا بِبَنانه، ووجدنا فيه بِضعاً وثمانين جِراحة. وفيه وفي

(١) انظر الكتاب ٤/ ٢٢٠ و ٢٢٣ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٩ . ونقل المصنف عنه قول سيبويه السالف. وقراءة الحسن أوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٢ .

(٣) القراءات الشاذة ص٢٢ .

(٤) ينظر معاني القرآن له ١/ ٤٧٢ .

(٥) لم نقف على من نسب هذه القراءة للأعمش غير المصنف، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٢ ليحيى وإبراهيم والزهري، ونسبها ابن جني في المحتسب ١/ ١٦٧ لإبراهيم وحده .

(٦) في (م): يحضروا.

(٧) انظر تفسير الطبري ٦/ ٩٣ .

أمثاله نزل: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِۖ﴾[١] [الأحزاب: ٢٣].

فالآية عِتابٌ في حقِّ من انهزمَ، لا سيَّما وكان منهم حَمْلٌ للنبيِّ ﷺ على الخروج من المدينة، وسيأتي.

وتَمنِّي الموتِ يرجِعُ من المسلمين إلى تَمنِّي الشهادة المبنيَّة على الثَّبات والصَّبر على الجهاد، لا إلى قتل الكفار لهم[٢]؛ لأنه معصيةٌ وكفرٌ، ولا يجوزُ إرادةُ المعصية، وعلى هذا يُحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقَهم الشهادةَ، فيسألون الصبر على الجهاد، وإن أدَّى إلى القتل.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ قال الأخفش[٣]: هو تكريرٌ بمعنى التأكيد لقوله: «فقد رَأَيْتُمُوهُ»، مثل: ﴿وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقيل: معناه: وأنتم بُصَرَاءُ ليس في أعينكم عِلَلٌ، كما تقول: قد رأيتَ كذا وكذا، وليس في عينيك عِلّة[٤]، أي: فقد رأيته رؤية حقيقة، وهذا راجعٌ إلى معنى التوكيد. وقال بعضهم: «وأنتم تنظرون» إلى محمد ﷺ. وفي الآية إضمارٌ، أي: فقد رأيتموه وأنتم تنظرون، فلِمَ انهزمتم[٥]؟.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِـلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: رُوِيَ أنه نزلت بسبب انهزام المسلمين يومَ أُحُد حين صاح الشيطان: قد

(١) أخرجه أحمد (١٣٠١٥)، والبخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣) بنحوه. وقوله: إيهاً، لم يرد في (د) و(ظ)، وعند أحمد والبخاري ومسلم: واهاً، وهي كلمة تحنُّن وتَلَهُّف ينظر شرح النووي على مسلم ١٣/ ٤٨.

(٢) لفظة: لهم، ليست في (ظ).

(٣) انظر معاني القرآن له ١/ ٤٢١-٤٢٢.

(٤) في (ظ): وجع.

(٥) انظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٧٣، وزاد المسير ١/ ٤٦٨ - ٤٦٩.

قُتل محمد(١).

قال عطية العَوْفي: فقال بعض الناس: قد أُصيبَ محمد فأعطوهم بأيديكم، فإنما هم إخوانكم. وقال بعضهم: إن كان محمدٌ قد أُصيب؛ ألا تَمْضُون على ما مضَى عليه نبيُّكم حتى تلحقوا به؟ فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إلى قوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾(٢).

وما نافية، وما بعدها ابتداءٌ وخبر، وبطَل عمل «ما».

وقرأ ابن عباس: «قد خَلَتْ مِن قبله رُسُلٌ» بغير ألف ولام(٣). فأَعْلَمَ الله تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست بباقيةٍ في قومها أبداً، وأنه يجب التمسُّكُ بما أتَتْ به الرُّسل؛ وإن فُقِد الرسول بموتٍ أو قتلٍ.

وأكرمَ نبيَّه ﷺ وصفيَّه باسمَيْن مشتقَّيْن من اسمه: محمد وأحمد(٤)، تقول العرب: رجل مَحْمُودٌ ومُحَمَّد: إذا كثُرت خِصاله المَحْمودة، قال الشاعر:

إلى الماجِدِ القَرْمِ الجَوَادِ المحَمَّدِ

وقد مضى هذا في الفاتحة(٥).

وقال عباس بن مِرْداس:

يا خاتَمَ النُّبَآء إنَّك مُرْسَلٌ ... بالحقّ(٦) كلُّ هُدَى السَّبيلِ هُداكا

إن الإلٰه بَنَى عليك مَحبَّةً ... في خَلْقِه ومُحَمَّداً سَمَّاكا(٧)

---

(١) أخرجه الطبري ٦/ ١٠٣ من قول الضحاك بنحوه، و ٦/ ١١٦ من قول ابن زيد، وسيأتي ص٣٦٤ من هذا الجزء ضمن حديث طويل لابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص١٢٠ .

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٩ ، وذكر القراءة ابن جني في المحتسب ١/ ١٦٨ ، ونسبها لحِطَّان ابن عبدالله، وقال: وكذلك هي في مصحف ابن مسعود.

(٤) انظر تفسير البغوي ١/ ٣٥٨ .

(٥) ١/ ٢٠٥ ، والشاعر هو الأعشى ميمون بن قيس.

(٦) في (م): بالخير.

(٧) ذكر هذين البيتين السُّهيلي في الروض الأنف ٤/ ١٣١ ، ضمن قصيدة قالها عبَّاس بن مِرْداس ﷺ يوم حنين.

فهذه الآيةُ من تَتِمَّة العِتاب مع المُنهزمين، أي: لم يكن لهم الانهزام وإن قُتلَ محمدٌ، والنبوَّة لا تَدْرَأُ الموتَ، والأديانُ لا تزول بموت الأنبياء. والله أعلم.

الثانية: هذه الآية أدلُّ دليلٍ على شجاعة الصدِّيق وجَرَاءَتِه[(١)]، فإن الشجاعة الجُرأة، وحدُّها[(٢)] ثُبوتُ القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبةَ أعظم من موت النبيّ ﷺ - كما تقدَّم بيانُه في «البقرة»[(٣)] - فظهرتْ عنده شجاعتُه وعلمُه؛ قال الناس: لم يَمُتْ رسول الله ﷺ، منهم عمر، وخَرِسَ عثمان، واستخفى عليٌّ، واضطرب الأمر، فكشَفَه الصدِّيق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسُّنْح، الحديث. كذا في البخاري[(٤)].

وفي «سنن» ابن ماجه عن عائشة قالت: لما قُبض رسولُ الله ﷺ وأبو بكر عند امرأته ابنةِ خارجةَ بالعَوَالي، فجعلوا يقولون: لم يَمُتِ النبيُّ ﷺ، إنما هو بعضُ ما كان يأخذُه عند الوَحْي، فجاء أبو بكر، فكشفَ عن وجهه، وقَبَّلَ بين عينيه، وقال: أنتَ أكرمُ على الله من أن يُميتَك مرتين، قد - واللهِ - مات رسولُ الله ﷺ. وعمرُ في ناحية المسجد[(٥)] يقول: واللهِ ما ماتَ رسولُ الله ﷺ، ولا يموت حتى يقطعَ أيديَ أُناس من المنافقين كثيرٍ وأرجلَهم. فقام أبو بكر، فَصَعِدَ المنبرَ فقال: مَنْ كان يعبدُ الله؛ فإنَّ الله حيٌّ لم يمتْ، ومَن كان يعبدُ محمداً؛ فإنَّ محمداً قد مات، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾. قال عمر: فَلَكَأَنِّي[(٦)] لم أقرأها إلا يومئذ[(٧)].

---

(١) في (خ): وجرأته، وهما بمعنى.

(٢) في (د) و (خ): حدها، وفي (م): فإن الشجاعة والجرأة حدهما. . .، والمثبت من (ظ).

(٣) ٢/٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٤) صحيح البخاري (١٢٤١) و (١٢٤٢)، وهو من حديث عائشة رضي الله عنها، وانظر مسند أحمد (٢٥٨٤١) وقوله: بالسُّنْح؛ قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٣/ ١١٥: هي منازل بني الحارث بن الخزرج، وكان أبو بكر متزوجاً فيهم.

(٥) قوله: المسجد، ليس في النسخ، وأثبتناه من (م) وسنن ابن ماجه.

(٦) في النسخ الخطية، فكأني، والمثبت من (م) وسنن ابن ماجه.

(٧) سنن ابن ماجه (١٦٢٧) .

ورجَع عن مَقَالته التي قالها فيما ذكر الوَائلي أبو نَصْر عُبيد الله[١] في كتابه «الإبانة»: عن أنس بن مالك، أنه سمع عمرَ بنَ الخطاب ـ حين بُويع أبو بكر في مسجد رسول الله ﷺ واستوى على مِنبر رسول الله ﷺ ـ تشهَّد قبل أبي بكر، فقال: أمّا بعد، فإني قلتُ لكم أمسِ مَقَالةً، وإنها لم تكن كما قلتُ، وإني ـ والله ـ ما وجدتُ المقالةَ التي قلتُ لكم في كتاب أنزله الله، ولا في عَهْدٍ عَهِدهُ إليَّ رسولُ الله ﷺ، ولكني كنتُ أرجو أن يعيشَ رسول الله ﷺ حتى يَدْبُرَنا ـ يريد أن يقول: حتى يكونَ آخِرَنا موتاً ـ فاختار الله عزَّ وجلَّ لرسوله الذي عندَه على الذي عندكم، وهذا الكتابُ الذي هَدَى اللهُ به رسولَه، فخُذُوا به تَهتدوا لِمَا هدى له رسولَ الله ﷺ[٢].

قال الوَائلي أبو نصر: المَقالةُ التي قالها ثم رَجَع عنها هي: أن النبيَّ ﷺ لم يَمُتْ، ولن يموتَ حتى يقطعَ أيديَ رجال وأرجلَهم. وكان قال ذلك لِعظيم ما وَرَد عليه، وخشيَ[٣] الفتنة وظُهور المنافقين، فلما شاهدَ قوَّة يقينِ الصدّيق الأكبر أبي بكر، وتفوُّهَه بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقولِه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وما قاله ذلك اليوم، تَنَبَّهَ وتثبَّتَ وقال: كأنّي لم أسمَعْ بالآية إلا من أبي بكر. وخرجَ الناسُ يتلونَها في سِكَك المدينة، كأنها لم تنزِلْ قطُّ إلا ذلك اليوم[٤].

ومات ﷺ يومَ الاثنين بلا اختلاف ـ في وقت دخوله المدينة في هجرته ـ حين اشتدَّ الضحاء[٥]، ودُفِنَ يومَ الثلاثاء، وقيل: ليلة الأربعاء[٦].

وقالت صفيةُ بنت عبد المُطَّلب ترثي رسولَ الله ﷺ:

---

(١) عبيد الله بن سعيد بن حاتم البكري، السِّجْزي، شيخ الحرم، وكتابه الإبانة الكبرى في أن القرآن غير مخلوق، وهو مجلد كبير دالّ على سَعة علمه بفنِّ الأثر. توفي سنة (٤٤٤ هـ). السير ١٧/ ٦٥٤ .

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن حبان (٦٦٢٠) ضمن حديث طويل، وهو عند البخاري (٧٢١٩) بنحوه مختصر.

(٣) في (خ) و (ظ) : ويخشى.

(٤) ينظر صحيح البخاري (١٢٤٢) .

(٥) في (د) و (ظ): الضحى .

(٦) انظر التمهيد ٢٤/ ٣٩٥ - ٣٩٦، وقوله: مات رسول الله ﷺ يوم الاثنين أخرجه البخاري (١٣٨٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ألا يا رسولَ الله كنتَ رجاءَنا وكنتَ بِنا بَرّاً ولم تَكُ جافِيا
وكنتَ رحيماً هادياً ومُعلِّماً لِيَبْكِ عليك اليومَ من كان باكِيا
لعمرُك ما أبكِي النبيَّ لِفَقْدِهِ ولكنْ لِما أخشَى من الهَرْجِ آتيا
كأنَّ على قلبي لِذِكرِ محمدٍ وما خِفتُ من بعد النبيِّ المكاوِيا
أفاطِمُ صلى الله ربُّ محمدٍ على جَدَثٍ أمسَى بيَثْرِبَ ثاوِيا
فِدًى لرسول الله أُمِّي وخالتي وعمِّي وآبائي ونفسي ومالِيا
صَدَقْتَ وبلَّغتَ الرسالةَ صادقاً ومُتَّ صَلِيبَ العودِ أبْلَجَ صافِيا
فلو أنَّ ربَّ الناس أبقَى نبيَّنا سَعِدْنا، ولكنْ أمرُه كان ماضِيا
عليك من الله السلامُ تحيةً وأُدْخِلتَ جناتٍ من العَدْن راضِيا
أرى حَسَناً أيْتَمتَه وتركتَه يُبَكِّي ويدعو جدَّه اليوم ناعِيا[(١)]

فإن قيل ـ وهي:

الثالثة ـ: فَلِمَ أُخِّر دَفْنُ رسول الله ﷺ وقد قال لأهل بيت أخَّروا دفنَ ميتهم: «عَجِّلُوا دفْنَ جِيفَتِكم، ولا تُؤَخِّروها»[(٢)]. فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأوّل: ما ذكرناه من عَدَمِ اتِّفاقهم على موته.

الثاني: لأنهم لا يعلمون حيث يَدْفِنُونه؛ قال قوم: في البَقِيع، وقال آخرون: في المسجد، وقال قوم: يُحبَس حتى يُحمَل إلى أبيه إبراهيم، حتى قال العالم الأكبر:

---

(١) أخرج هذه الأبيات الطبراني في الكبير ٢٤/(٨٠٦)، وأوردها الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣٩ ، ووقع البيت الأخير: «أرى حسناً..» فيهما بعد البيت الخامس: «أفاطم...».

(٢) ذكره بهذا اللفظ ابن العربي في القبس ٢/ ٤٤٨ ، ونقله المصنف عنه.

وأخرج أبو داود (٣١٥٩) عن الحصين بن وَحْوَح أن طلحة بن البراء مرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقال: «إني لا أرى طلحة إلا قد حدث فيه الموت، فآذنوني به وعجِّلوا، فإنه لا ينبغي لجيفة مسلمٍ أن تُحبس بين ظهراني أهله».

وأخرج الترمذي (١٠٧٥) وابن ماجه (١٤٨٦) عن علي بن أبي طالب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تؤخِّروا الجنازة إذا حضرت». واللفظ لابن ماجه.

سمعتُه يقول: «ما دُفِنَ نبيٌّ إلا حيث يموت» ذكره ابن ماجه و«الموطأ»[١] وغيرهما.

الثالث: أنهم اشتغلوا بالخِلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار في البيعة، فنظروا فيها حتى استتبَّ الأمرُ، وانتظمَ الشَّمْل، واستوثقت الحال، واستقرَّت الخلافةُ في نصابها، فبايَعوا أبا بكر، ثم بايعوه من الغد بيعةً أخرى عن ملأ منهم ورِضاً، فكشفَ الله به الكُرْبَةَ من أهل الرِّدَّة، وقام به الدِّين، والحمد لله رب العالمين. ثم رجَعوا بعد ذلك إلى النبيِّ ﷺ، فنظروا في دَفْنه وغسَّلوه وكفَّنوه. والله أعلم[٢].

الرابعة: واختُلف هل صُلِّيَ عليه أم لا، فمنهم من قال: لم يصلِّ عليه أحدٌ، وإنما وقفَ كلُّ واحد يدعو؛ لأنه كان أشرفَ من أن يُصَلَّى عليه. قال ابن العربيّ: وهذا كلام ضعيفٌ؛ لأن السُّنة تُقام بالصلاة عليه في الجِنازة، كما تُقام بالصلاة عليه في الدعاء، فيقول: اللَّهمَّ صَلِّ على محمد، إلى يوم القيامة، وذلك منفعةٌ لنا.

وقيل: لم يُصَلَّ عليه؛ لأنه لم يكن هناك إمام. وهذا ضعيفٌ؛ فإنَّ[٣] الذي كان يُقيم بهم الصلاةَ الفريضة هو الذي كان يَؤُمُّ بهم في الصلاة عليه[٤]. وقيل: صلَّى عليه الناسُ أفذاذاً؛ لأنه كان آخرَ العهد به، فأرادوا أنْ يأخذَ كلُّ أحدٍ بَركتَه مخصوصاً؛ دون أن يكون فيها تابعاً لغيره. والله أعلم بصحة ذلك[٥].

قلت: قد خرَّج ابن ماجه بإسناد حسن ـ بل صحيح[٦] ـ من حديث ابن عباس، وفيه: فلما فرَغوا من جَهازه ﷺ يومَ الثلاثاء، وُضِعَ على سريره في بيته، ثم دخل الناسُ على رسول الله ﷺ أَرْسالاً يُصلُّون عليه، حتى إذا فرَغوا أدخلَوا النساء، حتى

---

(١) سنن ابن ماجه (١٦٢٨)، والموطأ ١/ ٢٣١ (وهو من بلاغات مالك). وقوله: العالم الأكبر: يعني أبا بكر الصديق ﷺ.

(٢) ينظر القبس ٢/ ٤٤٨ .

(٣) في (ظ) و (م): لأن.

(٤) قوله: عليه، زيادة من (ظ).

(٥) القبس ٢/ ٤٤٨-٤٤٩ .

(٦) في هذا الكلام نظر، وانظر التعليق التالي،

إذا فرغْنَ أدخلوا الصبيان، ولم يَؤُمَّ الناسَ على رسول الله ﷺ أحدٌ. خرَّجه عن نَصْر ابن علي الجَهْضَميّ، أنبأنا وَهْب بنُ جرير، حدثنا أَبي، عن محمد بن إسحاق قال: حدثني حسين بن عبدالله، عن عكرمة، عن ابن عباس، الحديثَ بطوله[١].

الخامسة: في تغيير الحال بعد موت النبيِّ ﷺ، عن أنس قال: لمَّا كان اليومُ الذي دخل فيه رسولُ الله ﷺ المدينةَ؛ أضاءَ منها كلُّ شيء، فلما كان اليومُ الذي مات فيه؛ أظلَم منها كلُّ شيء، وما نَفَضْنا عن النبيِّ ﷺ الأيديَ حتى أنْكرنا قلوبَنا. أخرجه ابن ماجه[٢]، وقال: حدثنا محمد بن بشّار، حدثنا عبد الرحمن بن مهديّ، حدثنا سفيان، عن عبدالله بن دينار، عن ابن عمر قال: كنَّا نتَّقِي الكلامَ والانبساطَ إلى نسائنا على عهد رسول الله ﷺ مخافةَ أن يُنزَلَ فينا القرآن، فلما مات رسولُ الله ﷺ تكلَّمنا[٣].

وأَسند عن أُمِّ سلَمةَ بنتِ أبي أُميَّةَ زوجِ النبيِّ ﷺ [أنها قالت]: كان الناسُ على[٤] عهد رسول الله ﷺ إذا قام المُصلِّي [يصلي] لم يَعْدُ بَصَرُ أحدِهم موضعَ قَدَمَيه، فتوفي[٥] رسولُ الله ﷺ وكان أبو بكر، فكان الناسُ إذا قام أحدُهم يُصلِّي لم يَعْدُ بَصَرُ أحدِهم موضعَ جبينه، فتُوفِّي أبو بكر وكان عمر، فكان الناس إذا قام أحدُهم يصلِّي لم يَعْدُ بَصَرُ أحدهم موضعَ القِبْلة، وكان[٦] عثمانُ بن عفان، فكانت الفتنةُ، فتلفَّتَ الناسُ في الصلاة يميناً وشمالاً[٧].

قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ «أفإنْ مات» شرط، «أو

---

(١) سنن ابن ماجه (١٦٢٨). قال البوصيري في مصباح الزجاجة ١/ ٢٩١: هذا إسناد فيه الحسين بن عبدالله بن عبيد الله بن عباس الهاشمي، تركه الإمام أحمد وعلي بن المديني والنسائي، وقال البخاري: يقال: إنه يُتَّهم بالزندقة، وقواه ابن عديٍّ، وباقي رجال الإسناد ثقات.

(٢) في سننه (١٦٣١).

(٣) سنن ابن ماجه (١٦٣٢).

(٤) في (م) وسنن ابن ماجه: في.

(٥) في (م) وسنن ابن ماجه: فلما توفي.

(٦) في (خ) و (د) و (م): فكان.

(٧) سنن ابن ماجه (١٦٣٢) و (١٦٣٤)، وما بين حاصرتين منه.

قُتل» عطف عليه، والجواب: «انقلَبتُم». ودخل ألف[١] الاستفهام على حرف الجزَاء؛ لأن الشرط قد انعقدَ به وصار جملةً واحدةً وخبراً واحداً. والمعنى: أفتنقَلِبون على أعقابكم إنْ مات أو قُتِل؟! وكذلك كلُّ استفهام دَخل على حرف الجزاء، فإنه في غير موضعه، وموضعُه أن يكون قبل جواب الشرط[٢].

وقوله: «انقلَبْتُم على أعْقابِكم» تمثيلٌ، ومعناه: ارتدَدْتُم كُفَّاراً بعد إيمانكم، قاله قتادةُ وغيره. ويقال لمن عاد إلى ما كان عليه: انقلب على عَقِبَيْه. ومنه: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾[٣] [الأنفال:٤٨]. وقيل: المرادُ بالانقلاب هنا الانهزام، فهو حقيقةٌ لا مجاز. وقيل: المعنى: فعلتُم فعلَ المرتدِّين وإنْ لم تكن رِدَّةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ بل يضرُّ نفسَه، ويُعرِّضُها للعِقاب بسبب المُخالفة، والله تعالى لا تنفعُه الطاعةُ، ولا تضرُّه المعصية[٤]؛ لِغِناه.

﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أي: الذين صَبَرُوا وجاهدوا واستُشهدوا.

وجاء ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ بعد قوله: ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ فهو اتِّصالُ وَعْد بوعيد[٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾ هذا حَضٌّ على الجهاد، وإعلامٌ بأنَّ[٦] الموتَ لابدَّ منه، وأنَّ كلَّ إنسانٍ مقتولٍ أو غير مقتولٍ مَيِّتٌ إذا بلغَ أجلَه المكتوبَ له؛ لأن معنى «مُؤَجَّلاً»: إلى أجل. ومعنى «بِإذن الله»:

---

(١) في (م): حرف.

(٢) انظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٦، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٧٤، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٩ - ٤١٠.

(٣) انظر تفسير الرازي ٩/ ٢٢، وقول قتادة أخرجه الطبري ٦/ ٩٨ - ٩٩.

(٤) في (خ) و (ظ): ولا يتضرَّر بالمعصية.

(٥) انظر مجمع البيان ٢/ ٢١٨.

(٦) في (خ) و (د) و (م): أن.

بقضاء الله وقَدَره. و«كتاباً» نصب على المصدر، أي: كتبَ الله كتاباً مُؤَجَّلاً.

وأجلُ الموت: هو الوقتُ الذي في معلومه سبحانه، أنّ روح الحيّ تُفارق جسدَه، ومتى قُتل العبدُ علمنا أن ذلك أجلُه. ولا يصحُّ أن يقال: لو لم يُقتَلْ لَعَاش. والدليل عليه[1] قوله: ﴿كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ [العنكبوت: ٥]، ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ [الرعد: ٣٨]. والمعتزِليُّ يقول: يتقدَّم الأجل ويتأخَّر، وأنَّ من قُتل فإنما يَهْلِك قبل أجلِه، وكذلك كلُّ ما ذُبح من الحيوان كان هلاكُه قبل أجله؛ لأنه يجب على القاتل الضَّمَانُ والدِّيَةُ. وقد بيَّن الله تعالى في هذه الآية أنه لا تَهْلِكُ نفسٌ قبل أجلها[2]. وسيأتي لهذا مزيد بيان في «الأعراف» إن شاء الله تعالى[3].

وفيه دليلٌ على كَتْب العلم وتدوينه. وسيأتي بيانه في «طه» عند قوله: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ﴾ [الآية: ٥٢] إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ يعني: الغنيمة؛ نزلت في الذين تركوا المَرْكَزَ طلباً للغنيمة. وقيل: هي عامَّة في كلِّ من أرادَ الدنيا دون الآخرة، والمعنى: نُؤْتِهِ مِنها ما قُسم له. وفي التنزيل: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ﴾ أي: نُؤتِه جزاءَ عملِه، على ما وصفَ الله تعالى مِن تضعيف الحسنات لمن يشاء. وقيل: المراد بهذا[4] عبدُ الله بن جُبير ومن لَزِمَ المَرْكَزَ معه حتى قُتِلوا[5].

﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: نُؤتيهم الثوابَ الأبَديَّ جزاءً لهم على ترك الانهزام، فهو تأكيدٌ لما تقدَّم من إيتاء مَزيد الآخرة. وقيل: ﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ من الرزق في

(١) في (م): على.

(٢) انظر تفسير أبي الليث ١/ ٣٠٥.

(٣) في تفسير الآية (٣٤) منها.

(٤) في (م): المراد منها.

(٥) انظر الوسيط ١/ ٥٠٠، وتفسير البغوي ١/ ٣٥٩.

الدنيا لئلا يُتَوَهَّمَ أن الشاكر يُحرم ما قُسِم له مما يَناله الكافر(١).

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ قال الزُّهريُّ: صاح الشيطان يوم أُحُد: قتِل محمد، فانهزم جماعةٌ من المسلمين. قال كعب بن مالك: فكنتُ أوَّلَ من عَرَفَ رسول الله ﷺ، رأيتُ عَيْنَيْه من تحت المِغْفَر تَزْهَران، فناديتُ بأعلى صوتي: هذا رسولُ الله ﷺ، فأوْمأ إليَّ أن اسكُتْ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبيّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا﴾ الآية(٢).

و«كَأَيِّن» بمعنى: كم. قال الخليل وسيبويه: هي «أيّ» دخلَتْ عليها كافُ التشبيه وبُنِيت معها، فصار في(٣) الكلام معنى «كم»، وصُوِّرت في المصحف نوناً؛ لأنها كلمة نُقِلتْ عن أصلها، فغُيِّر لفظُها لِتغيُّرِ معناها، ثم كَثُر استعمالها، فتلعَّبَت بها العرب. وتصرَّفتْ فيها بالقلب والحذف، فَحدَثَ(٤) فيها لُغاتٌ أربعٌ قُرِئ بها.

وقرأ ابن كثير: «وكَائِنْ» مثل: وكَاعِنْ، على وزن فاعل، وأصله: كَيْءٍ، فَقُلبت الياءُ ألفاً، كما قُلبت في يَيْأس، فقيل: ياءَسُ(٥)، قال الشاعر:

وكَـائِـنْ بـالأبَـاطِـحِ مـن صـديـقٍ يَـرَانـي لـو أُصِبْـتُ هـو الـمُـصَـابَـا(٦)

---

(١) انظر مجمع البيان ٢/ ٢٢٠ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٨٩-٤٩٠ ، وقول الزهري سلف ٤/ ٢٢١ ولم ينسبه المصنف هناك لأحد، وقول كعب بن مالك ﷺ أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٩٧٣٥)، والطبري ٦/ ١٥٤ مطولاً.

(٣) لفظة «في» من (م).

(٤) في (م): فحصل.

(٥) انظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٠، والسبعة ص٢١٦ ، والتيسير ص٩٠ .

(٦) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٢٤٤ .

وقال آخر:

وكَائِنْ رَدَدْنا عنكُمُ مِن مُدَجَّجٍ يَجيءُ أمامَ الرَّكْبِ يَرْدِي مُقَنَّعَا[١]

وقال آخر:

وكَائِنْ في المَعاشِرِ من أُنَاس أخوهم فَوْقَهم وهُمُ كِرامُ[٢]

وقرأ ابن مُحَيصِن: «وكَئِنْ» مهموزاً مقصوراً، مثل: وكَعِنْ، وهو من كَائِنْ، حُذفتْ ألفه. وعنه أيضاً: «وكَأْيِن» مثل: وكَعْيِنْ، وهو مقلوب كَيْءٍ المُخفَّف[٣]. وقرأ الباقون: «كَأَيِّنْ» بالتشديد مثل: كَعَيِّن، وهو الأصل[٤]، قال الشاعر:

كَأَيِّنْ من أُناسٍ لم يزالوا أخوهم فوقَهم وهُمُ كرامُ[٥]

وقال آخر:

كأَيِّنْ أَبَدْنا من عدوٍّ بِعِزِّنا وكائِنْ أَجَرْنا من ضَعِيف وخائف[٦]

فجمعَ بين لُغتين: كأَيِّنْ وكَائِنْ.

ولغة خامسة: كَيْئِنْ مثل: كَيْعِنْ، وكأنه مخفَّف من كَيِّء، مقلوب كَأْيِنْ. ولم يذكر الجوهري[٧] غير لغتين: كائِنْ مثل كاعِنْ، وكأَيِّنْ مثل كَعَيِّنْ، تقول: كأَيِّنْ رجلاً لَقِيتُ، بنصب ما بعد كأَيِّنْ على التمييز. وتقول أيضاً: كأَيِّنْ مِن رجل لَقِيتُ، وإدخال «مِنْ» بعد «كأَيِّنْ» أكثرُ من النَّصب بها وأجودُ. وبكأَيِّنْ تبيعُ هذا الثوبَ؟ أي: بكم

---

(١) قائله عمر بن شاس كما في منتهى الطلب من أشعار العرب ٨/ ٥١، وفيه: متوَّج، بدل: مدجَّج، والألف بدل: الركب، وأورده سيبويه في الكتاب ٢/ ١٧٠، وأبو علي الفارسي في الحجة ٣/ ٨٠، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥١٨.

وقوله: يردي، من ردت الخيلَ رَدْياً ورَدَياناً: إذا رجمت الأرض بحوافرها في سيرها وعدوها. اللسان (ردى).

(٢) لم نهتد إلى قائله: وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥١٨، وفيه: كأيِّن.

(٣) القراءات الشاذة ص٢٢، والمحتسب ١/ ١٧٠، والمحرر الوجيز ١/ ٥١٩.

(٤) السبعة ص ٢١٦، والتيسير ص٩٠.

(٥) لم نقف عليه، وانظر البيت السالف قبله.

(٦) لم نقف عليه.

(٧) في الصحاح (كين).

تبيع، قال ذو الرمّة:

وكَـائِـنْ ذَعَـرْنـا مـن مَـهَـاةٍ ورامِـحٍ بـلادُ الـعِـدا لـيـسـت لـه بِـبِـلادِ[1]

قال النحاس: ووقف أبو عمرو: «وكَأَيّ» بغير نون؛ لأنه تنوين. وروى ذلك سَوْرَةُ بن المبارك[2] عن الكسائيّ. ووقف الباقون بالنون اتباعاً لخطّ المصحف[3].

ومعنى الآية تشجيعُ المؤمنين، والأمرُ بالاقتداءِ بمن تقدَّم من خِيار أَتْباع الأنبياء، أي: كثيرٌ من الأنبياء قُتِل معه رِبِّيون كثير، أو كثيرٌ من الأنبياء قُتِلوا، فما ارتدَّ أُمَمهم؛ قولان:

الأوّل: للحسن وسعيد بنِ جُبير؛ قال الحسن: ما قُتِلَ نبيٌّ في حرب قطُّ. وقال ابن جُبير: ما سَمِعنا أنّ نبيّاً قُتِلَ في القتال[4].

والثاني: عن قتادة وعكرمة، والوقف ـ على هذا القول ـ على «قُتِل» جائز، وهي قراءةُ نافع وابن كثير[5] وأبي عمرو ويعقوب[6]. وهي قراءة ابن عباس، واختارها أبو حاتم.

وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون «قُتِل» واقعاً على النبيّ وحدَه، وحينئذ يكون تمامُ الكلام عند قوله: «قُتِلَ»، ويكون في الكلام إضمارٌ، أي: ومعه رِبِّيُّون كثيرٌ، كما يقال: قُتِل الأمير؛ معه جيشٌ عظيمٌ، أي: ومعه جيش. وخَرجْتُ معي تجارة، أي: ومعي.

---

(١) ديوان ذي الرمة ٢/ ٦٨٨، وفيه: الورى، بدل: العِدا. وقال شارح الديوان: المها: بقر الوحش؛ الواحدة، مَهَاة، ورامح: ثور له قَرْن.

(٢) الخراساني، الدينوري، روى القراءة عن الكسائي، وهو من المكثرين عنه. طبقات القراء ١/ ٣٢١.

(٣) الكلام في المحرر الوجيز ١/ ٥١٩، ولم نقف عليه للنحاس. وقراءة أبي عمرو وقفاً ذكرها الداني في التيسير ص٦٠ - ٦١، وأما قراءة الكسائي وقفاً فهي في قوله تعالى: ﴿ويكأن الله﴾ و﴿ويكأنه﴾ [القصص: ٨٢] لا غير.

(٤) ذكرهما ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٠.

(٥) في (د) و (م): ابن جبير، وهو خطأ، والمثبت من (د) و (ظ)، وهو الموافق لما في كتب القراءات.

(٦) السبعة ص٢١٧، والتيسير ص٩٠، والنشر ٢/ ٢٤٢.

الوجه الثاني: أن يكون القَتْلُ نالَ النبيَّ ومَنْ معه من الرِّبِّيِّين، ويكون وجهُ الكلام: قُتِل بعضُ مَن كان معه؛ تقول العرب: قَتلنا بَني تميم وبَني سُليم، وإنما قتلوا بعضَهم. ويكون قوله: «فما وَهَنُوا» راجعاً إلى مَن بقيَ منهم[(١)].

قلت: وهذا القول أشبهُ بنزول الآية وأنسبُ، فإنّ النبيَّ ﷺ لم يُقتل، وقُتِل معه جماعةٌ من أصحابه.

وقرأ الكوفيون وابن عامر: «قَاتَلَ»[(٢)]، وهي قراءة ابن مسعود[(٣)]؛ واختارها أبو عُبيد، وقال: إن الله إذا حَمِدَ مَن قاتَل، كان مَن قُتِل داخلاً فيه، وإذا حَمِدَ مَن قُتِل لم يدخُلْ فيه غيرهم؛ فـ«قاتَلَ» أعمُّ وأمدحُ[(٤)].

و«الرِّبِّيُّون» بكسر الراء قراءة الجمهور. وقرأ[(٥)] عليٌّ ﷺ بضمِّها، وابنُ عباس بفتحها[(٦)]؛ ثلاث لغات.

والرِّبِّيُّون: الجماعاتُ الكثيرة؛ عن مجاهد وقتادة والضحَّاك وعِكرمة، واحدهم رُبِّيّ؛ بضم الراء وكسرها؛ منسوب إلى الرِّبَّة؛ بكسر الراء أيضاً وضَمِّها، وهي الجماعة. وقال عبدالله بن مسعود: الرِّبِّيُّون: الألوفُ الكثيرة. وقال ابن زيد: الرِّبِّيُّون: الأتباع. والأوّل أعرفُ في اللغة؛ ومنه يقال للخِرقة التي تُجمع فيها القِدَاح: رِبّةٌ ورُبَّة. والرِّبَاب: قبائل تجَمَّعَت. وقال أَبَان بن ثعلب: الرِّبّي: عشرة آلاف. وقال الحسن: هم العلماء الصُّبُر. ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع والسّدي: الجمْعُ الكثير[(٧)]؛ قال حسّان:

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٦٠، وينظر معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٨٨ - ٤٨٩.

(٢) السبعة ص٢١٧، والتيسير ص٩٠. والمراد بالكوفيين: عاصم وحمزة والكسائي من السبعة.

(٣) أخرجها سعيد بن منصور في سننه (التفسير) (٥٢٨).

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٦٠، ووقع في مطبوعه: أبو عبيدة.

(٥) في (خ) و (م): وقراءة.

(٦) القراءات الشاذة ص٢٢، والمحتسب ١/ ١٧٣. وزاد ابن جني نسبة قراءة الرفع لابن مسعود وابن عباس وعكرمة والحسن وأبي رجاء وعمرو بن عبيد وعطاء بن السائب.

(٧) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٩٠ - ٤٩١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٠ - ٥٢١، وانظر تفسير الطبري ٦/ ١١٢ - ١١٦.

وإذا مَـعْـشَـرٌ تَـجَـافَـوْا عـن الـحَـ قِّ حَـمَـلْـنَـا عـلـيـهـمُ رِبِّـيَّـا[١]

وقال الزجاج[٢]: هاهنا قراءتان: «رُبِّيُّون» بضم الراء، و«رِبِّيُّون» بكسر الراء؛ أما الرُّبيون، بالضم: الجماعاتُ الكثيرة. ويقال: عشرةُ آلاف.

قلت: وقد رُوي عن ابن عباس: «رَبِّيُّون» بفتح الراء، منسوبٌ إلى الرَّبِّ[٣]. قال الخليل: الرِّبِّيّ: الواحدُ من العُبَّاد الذين صبروا مع الأنبياء، وهم الرَّبَّانيُّون؛ نُسبوا إلى التَّألُّه والعبادة ومعرفةِ الرُّبُوبيّة لله تعالى. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ «وَهَنُوا»: أي: ضَعُفوا، وقد تقدَّم. والوَهْن: انكسار الجدّ[٤] بالخوف.

وقرأ الحسن وأبو السَّمَّال: «وَهِنُوا» بكسر الهاء وضمها[٥]، لغتان عن أبي زيد.

وهَنَ الشيءُ يَهِنُ وَهْنا. وأَوْهَنْته أنا ووَهَّنْته: ضعَّفته. والوَاهِنة: أسفلُ الأضلاع وقِصَارُها[٦]. والوَهَن من الإبل: الكثيف. والوَهْن: ساعةٌ تمضي من الليل، وكذلك المَوْهِن. وأَوْهَنَّا: صِرْنا في تلك الساعة[٧]، أي: ما وَهَنوا لِقَتْل نبيِّهم، أو لِقتل مَنْ قُتِل منهم، أي: ما وَهَن باقيهم، فحذفَ المضاف.

﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ أي: عن عدوِّهم. ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ أي: لِمَا أصابهم في الجهاد. والاستكانة: الذِّلَّة والخُضوع، وأصلُها: «اسْتَكَنُوا» على: افتعلوا، فأُشبِعتْ فتحةُ

---

(١) لم نقف عليه في ديوان حسان، ونسبه إليه ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٧٨ ضمن أجوبة سيدنا علي ﷺ على أسئلة نافع بن الأزرق.

(٢) في معاني القرآن له ١/ ٤٧٦ .

(٣) انظر المحرر الوجيز ١/ ٥٢١ .

(٤) في (خ) و (ظ): الحدّ.

(٥) لم نقف على من ذكر قراءة: وَهُنوا (بضم الهاء)، والذي في المصادر: أن الحسن وأبا السّمال قرآ: وَهِنوا (بكسر الهاء)، ورُوي عن أبي السَّمال وعكرمه: وَهْنوا (بإسكان الهاء)، وسيذكرها المصنف. ينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١١ ، والقراءات الشاذة ص٢٢ ، والمحتسب ١/ ١٧٤ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢١ ، والبحر المحيط ٣/ ٧٤ .

(٦) في (خ) و (ظ): قصراها.

(٧) الصحاح (وهن)، وفيه: الواهنة: القُصَيْرَى، وهي أسفل الأضلاع.

الكاف، فتولَّدتْ منها ألفٌ. ومَنْ جعلَها من الكَوْن، فهي: استفعلوا، والأوَّل أشبهُ بمعنى الآية[(١)].

وقُرئ: «فما وَهْنُوا ومَا ضَعْفُوا» بإسكان الهاء والعين. وحكَى الكِسائيّ: «ضَعَفُوا» بفتح العين[(٢)].

ثم أخبر تعالى عنهم بعد أن قُتل منهم، أو قُتل نبيُّهم، بأنهم صبروا ولم يَفِرُّوا، ووطَّنوا أنفسَهم على الموت، واستغفَروا ليكون موتُهم على التوبة من الذنوب إنْ رُزِقوا الشهادة، ودَعَوْا في الثَّبات حتى لا ينهزموا، وبالنَّصر على أعدائهم. وخَصُّوا الأَقْدَام بالثَّبات دون غيرها من الجوارح؛ لأنَّ الاعتمادَ عليها.

يقول: فهلّا فعلتُم وقلتُم مثلَ ذلك يا أصحابَ محمد؟ فأجاب دعاءَهم وأعطاهم النَّصر والظَّفَر والغنيمةَ في الدنيا، والمغفرةَ في الآخرة إذا صاروا إليها.

وهكذا يفعلُ الله مع عبادِه المُخلصين التائبين الصادقين الناصرين لدينه، الثابتين عند لقاء عدوِّه بوعده الحقّ، وقوله الصِّدق. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يعني الصابرين على الجهاد.

وقرأ بعضهم: «ومَا كان قَوْلُهُمْ» بالرفع؛ جعل القولَ اسماً لِـ«كان»، فيكون معناه: وما كان قولُهم إلّا قولَهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾. ومَن قرأ بالنصب جعلَ القولَ خبر «كان»، واسمها «إلّا أنْ قَالُوا»[(٣)].

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ يعني الصغائر ﴿وَإِسْرَافَنَا﴾ يعني الكبائر. والإسراف: الإفراطُ في الشيء ومجاوزةُ الحَدّ[(٤)]. وفي «صحيح» مسلم: عن أبي موسى الأشعريّ، عن النبيّ ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «اللهم اغفِرْ لي خطيئتي وجَهْلي،

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٢١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١١، ونسب قراءة: «وَهْنوا» لأبي السمَّال، ثم قال: ويجوز: «ضَعْفوا» بإسكان العين. وقراءة الكسائي كقراءة الجماعة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٢، والقراءات الشاذة ص٢٣. وقراءة النصب هي قراءة الجمهور.

(٤) تفسير الطبري ٦/ ١١٩ - ١٢٠.

وإسرافي في أمري، وما أنتَ أعلمُ به منّي» وذكر الحديث[١].

فعلى الإنسان أن يستعملَ ما في كتاب الله وصحيحِ السُّنة من الدعاء ويَدَعَ ما سواه، ولا يقول: أختارُ كذا؛ فإنَّ الله تعالى قد اختار لِنبيِّه وأوليائه، وعَلَّمَهم كيف يَدْعون.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أعطاهم ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني النَّصر والظَّفر على عدوِّهم. ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يعني الجنة. وقرأ الجَحْدَري: «فَأَثَابَهُمُ اللهُ» من الثواب[٢]. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تقدّم[٣].

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

لما أمرَ اللهُ تعالى بالاقتداء بمن تقدَّم من أنصار الأنبياء حَذَّرَ طاعةَ الكافرين، يعني مُشْركي العرب: أبا سفيان وأصحابَه. وقيل: اليهود والنَّصارى. وقال عليّ ﷺ: يعني المنافقين في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة: إرْجِعوا إلى دين آبائكم.

﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ أي: إلى الكفر. ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ أي: ترجعوا مَغْبونين. ثم قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: مُتولِّي نصْرِكم وحِفظِكم إنْ أطعتموه[٤]. وقُرئ: «بَلِ اللهَ» بالنصب[٥]، على تقدير: بل أطيعوا[٦] اللهَ مولاكم.

---

(١) صحيح مسلم (٢٧١٩)، وهو عند أحمد (١٩٧٣٨) والبخاري (٦٣٩٨).

(٢) البحر المحيط ٣/ ٧٦.

(٣) ٢/ ١٣١ وص٣٢١ من هذا الجزء.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٦٠.

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٢ لعيسى النصر وابن ميسرة.

(٦) في (د) و (م): وأطيعوا.

قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

نظيره ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢]. وقرأ ابن عامر والكِسائي: «الرُّعُب» بضم العين[١]، وهما لغتان. والرُّعْب: الخوف، يقال: رَعَبْتُه رُعْباً ورُعُباً، فهو مَرْعُوب. ويجوز أن يكون الرُّعْب مصدراً، والرُّعُب الاسم. وأصلُه من المَلْء، يقال: سَيْل راعب، أي[٢]: يملأ الوادي. ورعبتُ الحوضَ: ملأتُه[٣]. فالمعنى: سَنَمْلأُ قلوبَ المشركين[٤] خوفاً وفَزَعاً.

وقرأ السَّخْتِياني: «سَيُلْقِي» بالياء، والباقون بنون العظمة[٥].

قال السُّدّي وغيره: لمَّا ارتحل أبو سفيان والمشركون يومَ أُحُد متوجِّهين إلى مكة، انطلقوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق نَدِموا وقالوا: بئس ما صنعنا، قتلناهم حتى إذا لم يبقَ منهم إلا الشَّرِيد، تركناهم، إرْجِعوا فاستأصلوهم. فلمَّا عَزَموا على ذلك، ألقى الله في قلوبهم الرُّعبَ حتى رَجَعوا عما هَمُّوا به[٦].

والإلقاء يُستعمل حقيقةً في الأجسام[٧]، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ [الشعراء: ٤٤]، ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ [الشعراء: ٤٥]. وقال الشاعر:

فألقَتْ عصاها واسْتَقَرَّ بها النَّوَى[٨]

ثم قد يستعمل مجازاً كما في هذه الآية، وقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾

---

(١) السبعة ص٢١٧، والتيسير ص٩١.

(٢) لفظ: أي، زيادة من (ظ).

(٣) تهذيب اللغة ٢/ ٣٦٨.

(٤) في (خ) و(ظ): الكافرين.

(٥) القراءات الشاذة ص٢٢، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٣، وقراءة: «سنلقي» بالنون، هي قراءة الجماعة.

(٦) أخرجه الطبري ٦/ ١٢٨.

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٢.

(٨) قائله مُعَقِّر بن حمار. ينظر البيان والتبيين ٣/ ٤٠، ومعجم الشعراء ص٩، وشطره الثاني: كما قرَّ عيناً بالإياب المسافرُ.

[طه: ٣٩]. وألقى عليك مسألةً.

قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ تعليل؛ أي: كان سببَ إلقاء الرُّعب في قلوبهم إشراكُهم؛ فـ «ما» للمصدر. ويقال: أشرك به، أي: عَدَل به غيرَه لِيجعلَه شريكاً.

قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ﴾: حُجَّةً وبياناً، وعُذْراً وبرهاناً، ومن هذا قيل للوالي: سلطان؛ لأنه حُجَّةُ الله عزَّ وجلَّ في الأرض. ويقال: إنه مأخوذٌ من السَّلِيط، وهو ما يُضاء به السِّراج، وهو دُهْنُ السِّمْسِم، قال امرؤ القيس:

أهان[١] السَّلِيطَ بالذُّبَالِ المُفَتَّلِ[٢]

فالسلطانُ يُستضاءُ به في إظهار الحقّ وقَمْعِ الباطل. وقيل: السَّلِيط: الحديد. والسَّلاطَة: الحِدَّة. والسَّلاطة من التَّسليط[٣]، وهو القهر؛ والسلطان مِن ذلك، فالنون زائدة. فأصلُ السلطان القوَّة، فإنه يُقهر بها كما يُقهر بالسلطان. والسَّليطة: المرأة الصَّخَّابة. والسَّلِيط: الرجلُ الفَصيح اللسان[٤].

ومعنى هذا أنه لم تثبتْ[٥] عبادةُ الأوثان في شيء من المِلَل، ولم يَدلَّ عقلٌ على جواز ذلك.

ثم أخبر تعالى عن مصيرهم ومَرْجِعهم، فقال: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ ثم ذَمَّه فقال: ﴿وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. والمَثْوَى: المكان الذي يُقام فيه، يقال: ثَوَى يَثْوِي ثَوَاءً. والمأوى: كلُّ مكان يرجع إليه شيءٌ ليلاً أو نهاراً[٦].

---

(١) في (م) وشرح القصائدُ السبع ص٨٠٠ : أمال، قال الأصمعي فيما نقله عنه ابن الأنباري: وليس قوله أمال السليط بشيء، ولا معنى له.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٢٤ وفيه: في الذُّبال. وصدره: يضيءُ سناه أو مصابيح راهب. قوله: الذبال يعني الفتائل.

(٣) في (خ): التسلط.

(٤) ينظر تهذيب اللغة ١٢/ ٣٣٥-٣٣٦ ، والصحاح (سلط) .

(٥) في النسخ: يثبت، والمثبت من (م) .

(٦) ينظر تفسير الرازي ٩/ ٢٢ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

قال محمد بن كعب القُرَظِيّ: لما رَجَع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أُحُد وقد أُصيبوا قال بعضُهم لبعض: مِن أين أصابَنا هذا وقد وعدَنا الله النَّصر؟! فنزلت هذه الآية[١]. وذلك أنهم قتلوا صاحبَ لِوَاء المشركين وسبعةَ نَفَرٍ منهم بعدَه على اللِّواء، وكان الظَّفَرُ ابتداءً للمسلمين؛ غير أنهم اشتغلوا بالغنيمة، وتركَ بعضُ الرُّماة أيضاً مَرْكزَهم طلباً للغنيمة، فكان ذلك سببَ الهزيمة[٢].

روى البخاريُّ عن البَراء بن عازب قال: لمَّا كان يوم أُحُد ولَقِينا المشركين، أَجْلسَ رسولُ الله ﷺ أُناساً[٣] من الرُّماة وأَمَّرَ عليهم عبدَ الله بنَ جُبير، وقال لهم: «لا تَبْرَحوا من مَكَانِكم، [إنْ رأيتمونا ظَهَرْنا عليهم فلا تبرحوا] وإنْ رأيتُموهم قد ظَهَروا علينا فلا تُعينونا عليهم». قال: فلما التقى القومُ وهزمَهم المسلمون حتى نظرنا إلى النساء يَشْتَدِدْن في الجبل، وقد رَفَعن عن سُوقِهنَّ قد بدتْ خلاخلُهنَّ[٤]. فجعلوا يقولون: الغنيمةَ الغنيمةَ. فقال لهم عبدُ الله: أَمْهلوا، أما عَهِدَ إليكم رسولُ الله ﷺ ألَّا تبرحوا؟ فانطَلَقوا، فلما أَتَوْهم صَرَفَ اللهُ وجوهَهم[٥]، وقُتِل من المسلمين سبعون رجلاً. ثم إنَّ أبا سفيان بنَ حرب أَشْرفَ علينا وهو في نَشْزٍ[٦]، فقال: أفي القوم محمدٌ؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تُجيبوه». حتى قالها ثلاثاً. ثم قال: أفي القوم ابنُ

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص١٢١، وتفسير البغوي ١/ ٣٦١.

(٢) في (ظ) سبباً للهزيمة.

(٣) في (خ) و (ظ): ما شاء.

(٤) قوله: يَشْتَدِدْن، أي: يُسرِعْن المشيَ. وقوله: رفَعْن عن سُوقهن: جمع ساق، أي: لِيُعينهنَّ ذلك على سرعة الهرب. فتح الباري ٧/ ٣٥٠.

(٥) عند البخاري (٤٠٤٣): فلما أَبَوْ صُرِفت وجوهُهم، ولفظ المصنف عند ابن حبان (٤٧٣٨)، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٣٥١: أي: تحيَّروا، فلم يدروا أين يتوجَّهون.

(٦) النَّشز: المرتفع من الأرض. النهاية (نشز).

أبي قُحافة؟ ثلاثاً، فقال النبيُّ ﷺ: «لا تُجيبوه». ثم قال: أفي القوم عمر بن الخطاب؟ ثلاثاً، فقال النبيُّ ﷺ: «لا تُجيبوه». ثم التفتَ إلى أصحابه، فقال: أما هؤلاء فقد قُتِلوا. فلم يملكْ عمرُ ﷺ نفسَه أن قال[1]: كذبتَ يا عدوَّ الله، قد أبقى الله لك من يُخزِيك به. فقال: أُعْلُ هُبَل. مرتين. فقال النبيُّ ﷺ: «أجيبوه»، فقالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهُ أعلى وأجَلّ». قال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم. فقال رسول الله ﷺ: «أجيبوه». قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: «الله مولانا، ولا مَوْلَى لكم». قال أبو سفيان: يومٌ بِيَوْم بَدْر، والحربُ سِجَال، أمَا إنكم ستجدون في القوم مُثْلةً؛ لم آمُرْ بها ولم تَسُؤْني[2].

وفي البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وَقَّاص قال: رأيتُ عن يمين رسول الله ﷺ وعن شِماله يومَ أُحُد رجلين عليهما ثيابٌ بيض؛ يُقاتلان عن رسول الله ﷺ أشدَّ القتال. وفي رواية عن سعد: عليهما ثيابٌ بيض؛ ما رأيتُهما قبلُ ولا بعدُ. يعني جِبريلَ ومِيكائيل[3].

وفي رواية أخرى: يُقاتلان عن رسول الله ﷺ أشدَّ القتال ما رأيتُهما قبلَ ذلك اليوم ولا بعدَه[4].

وعن مجاهد قال: لم تُقاتل الملائكةُ معهم يومئذ، ولا قبلَه ولا بعدَه إلا يومَ بدر.

قال البيهقي[5]: إنما أراد مجاهدٌ أنهم لم يُقاتلوا يومَ أُحُد عن القوم حين عَصَوا الرسولَ، ولم يَصْبِروا على ما أمرهم به.

وعن عروةَ بن الزبير قال: وكان اللهُ عزَّ وجلَّ وعدَهم على الصبر والتقوى أن يُمِدَّهم بخمسة آلافٍ من الملائكة مُسوِّمين: وكان قد فعل؛ فلما عَصَوْا أَمْرَ الرسولِ

(١) في (د) و (م): دون أن قال.

(٢) صحيح البخاري (٤٠٤٣)، باختلاف يسير في الألفاظ. وما بين حاصرتين منه، والحديث في مسند أحمد (١٨٥٩٣).

(٣) صحيح البخاري (٤٠٥٤)، وصحيح مسلم (٢٣٠٦): (٤٦) و (٤٧)، وهو في مسند أحمد (١٤٦٨).

(٤) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢٥٤ .

(٥) المصدر السابق ٣/ ٢٥٥ - ٢٥٦ . وقد أخرج قول مجاهد السابق وقولي عروة بن الزبير وعمير بن اسحاق الآتيين.

وتركوا مَصَافَّهم، وتركت[١] الرُّماةُ عَهْدَ رسول الله ﷺ إليهم ألَّا يبرحوا من منازلهم، وأرادوا الدنيا، رُفع عنهم مَدَدُ الملائكة، وأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾. فصَدَقَ اللهُ وعدَه، وأراهم الفَتْحَ، فلما عَصَوْا، أَعقبهم البلاء.

وعن عُمير بن إسحاق[٢] قال: لمَّا كان يوم أُحُد انكشفوا عن رسول الله ﷺ وسَعْدٌ يَرمي بين يَدَيه، وفتًى يُنَبِّل له، كلما ذهبتْ نَبْلَةٌ أتاه بها. قال: اِرْمِ أبا إسحاق. فلما فَرَغُوا نظروا مَنِ الشابُّ، فلم يَرَوْه ولم يعرفوه. وقال[٣] محمد بن كعب: ولمَّا قُتِل صاحبُ لواءِ المشركين وسقطَ لواؤهم، رَفعَتْه عَمْرَةُ بنت علقمةَ الحارِثيةُ؛ وفي ذلك يقول حَسَّان:

فلولا لِواءُ الحارثيةِ أصبحوا ... يُباعُون في الأسواق بيعَ الجلائب[٤]

و﴿تَحُسُّونَهُم﴾ معناه: تقتلونهم وتَسْتأصِلونهم، قال الشاعر:

حَسَسْناهُمُ بالسَّيْف حَسّاً فأصبحتْ ... بَقِيَّتُهم قد شُرِّدُوا وتَبَدَّدُوا[٥]

وقال جرير:

تَحُسُّهُمُ السيوفُ كما تَسامَى ... حَرِيقُ النارِ في الأَجمِ الحَصِيدِ[٦]

قال أبو عُبيد: الحَسُّ: الاستئصال بالقتل[٧]؛ يقال: جرادٌ مَحْسوسٌ إذا قَتَله البَرْدُ. والبردُ مَحَسَّةٌ للنَّبت. أي: مُحْرِقَةٌ له ذاهِبةٌ به[٨]. وسَنَةٌ حَسُوس، أي: جَدْبة

---

(١) في (د) و (م): وترك.

(٢) أبي محمد القرشي، مولى بني هاشم، قال النسائي: ليس به بأس، وذكره ابن حبان في الثقات، والعقيلي في الضعفاء، لأنه لم يرو عنه غير واحد هو عبدالله بن عون. تهذيب التهذيب ٣/ ٣٢٥ .

(٣) في (ظ): نقله.

(٤) ديوان حسان ص٨٢ . وذكر قصة عمرة والبيت ابنُ هشام في سيرته ٢/ ٧٨ - ٧٩ .

(٥) لم نقف عليه.

(٦) ديوان جرير ٢/ ٧٢٨ ، وفيه: أجم، بدل: الأجم.

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ١/ ٣٦١ ، ونسبه لأبي عبيدة. وانظر كتابه مجاز القرآن ١/ ١٠٤ - ١٠٥ ، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٧٨ .

(٨) لفظة (به) من (م).

تأكلُ كلَّ شيء[(١)]، قال رؤبة:

إذا شكَوْنا سَنةً حَسُوسا تأكلُ بعدَ الأخضرِ اليَبِيسا[(٢)]

وأَصْلُه من الحِسّ الذي هو الإدراك بالحاسَّة. فمعنى حَسَّه: أذهب حِسَّه بالقتل[(٣)].

﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: بعلمه، أو بقضائه وأَمْره. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي: جَبُنتم وضَعُفتم. يقال: فَشِلَ يَفْشَل، فهو فَشِل وفَشْل[(٤)].

وجواب «حتى» محذوفٌ، أي: حتى إذا فَشِلتم امْتُحِنتم. ومثلُ هذا جائزٌ، كقوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ٣٥] فافعل. وقال الفرّاء[(٥)]: جوابُ «حتى»: «وتنازعتُم»، والواوُ مقْحَمة زائدةٌ، كقوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٤] أي: ناديناه. وقال امرؤ القيس:

فلما أجَزْنا ساحَةَ الحَيِّ وانْتَحَى[(٦)]

أي: انتحَى. وعند هؤلاء يجوزُ إقحامُ الواو من «وعَصَيْتُم». أي: حتى إذا فَشِلتم وتنازعتم، عَصَيْتم. وعلى هذا فيه تقديمٌ وتأخير، أي: حتى إذا تنازعتُم وعَصَيْتُم فَشِلتم.

وقال أبو علي: يجوزُ أن يكون الجوابُ: «صَرَفَكُم عنهم»، و«ثم» زائدة، والتقدير: حتى إذا فَشِلتم وتنازَعْتُم وَعَصيْتم، صَرَفَكُم عنهم[(٧)]. وقد أنشد بعضُ النحويين في زيادتها قولَ الشاعر:

---

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١١٣-١١٤، والصحاح (حسس).

(٢) ديوان رؤبة ص٧٢، وهو في مجاز القرآن ١/ ١٠٥، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٤، واللسان (حسس).

(٣) ذكر نحو هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٤، وضعَّفه.

(٤) الوسيط ١/ ٥٠٤، وزاد المسير ١/ ٤٧٥ - ٤٧٦، وانظر تهذيب اللغة ١١/ ٣٦٨.

(٥) في معاني القرآن ١/ ٢٣٨.

(٦) ديوان امرئ القيس ص١٥، وهو من معلقته المشهورة، وشطره الثاني:

بنا بطنُ حِقْفٍ ذي رُكام عَقَنْقَلِ.

(٧) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٢٤، وتفسير الرازي ٩/ ٣٥ - ٣٦.

أُرانِـي إذا مـا بِـتُّ بِـتُّ عـلـى هَـوًى فـثُـمَّ إذا أصبحتُ أصبحتُ غـادِيـا[١]

وجوّز الأخفشُ أن تكون زائدةً، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾[٢] [التوبة: ١١٨].

وقيل: «حتى» بمعنى «إلى» وحينئذ لا جوابَ له، أي: صَدَقكم اللهُ وَعْدَه إلى أن فَشِلتُم، أي: كان ذلك الوعدُ بشرط الثَّبات. ومعنى «تنازعتُم»: اختلفتُم، يعني الرُّمَاة حين قال بعضُهم لبعض: نلحقُ الغنائم. وقال بعضهم: بل نثبتُ في مكاننا الذي أمرنا النبيُّ ﷺ بالثُّبوت فيه[٣].

﴿وَعَصَيْتُم﴾ أي: خالفتم أمرَ الرسول في الثُّبوت. ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ يعني من الغَلَبةِ التي كانت للمسلمين يومَ أُحُد أوّلَ أمرهم، وذلك حين صُرِعَ صاحبُ لواء المشركين على ما تقدَّم. وذلك أنه لمَّا صُرِعَ؛ انتشرَ النبيُّ ﷺ وأصحابه، وصاروا كتائبَ متفرِّقةً، فحاسُوا[٤] العدوَّ ضَرْباً حتى أجْهَضُوهُم عن أثقالهم. وحملتْ خيلُ المشركين على المسلمين ثلاثَ مرات، كل ذلك تُنْضَحُ بالنَّبْل، فترجِعُ مغلوبة[٥]، وحَمَلَ المسلمون، فنَهَكُوهُم قتلاً. فلما أبصر الرُّماةُ الخمسون أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد فَتَحَ لإخوانهم؛ قالوا: والله، ما نَجْلِسُ هاهنا لشيء، قد أهلكَ اللهُ العدوَّ، وإخوانُنا في عسكر المشركين. وقال طوائفُ منهم: عَلامَ نَقِفُ وقد هزمَ اللهُ العدوَّ؟ فتركوا منازِلَهم التي عَهِدَ إليهم النبيُّ ﷺ ألَّا يتركوها، وتنازعوا وفشِلوا، وعَصَوُا الرسولَ، فأَوْجَفتِ الخيلُ فيهم قتلاً.

---

(١) في (خ) و (م): عاديا، وهي رواية ذكرها الصبان في شرحه على الأشموني ٣/ ٨٢، والبيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص ٢٨٥، واستشهد بهذا البيت على أنَّ «ثم» زائدة ابنُ الشَّجري في أماليه ٣/ ٩٠، أما ابن جني فذكره في سر صناعة الإعراب ١/ ٢٦٤ شاهداً على أن الفاء زائدة.

(٢) مغني اللبيب ص١٥٨-١٥٩، وشرح الصبان على الأشموني ٣/ ٨٢.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٢٤ - ٥٢٥، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٢.

(٤) في (خ): فجاشوا، وفي (ظ): فجاسوا. وقوله: فحاسوا العدو: أي: بالغوا النكاية فيهم، وأصل الحوس: شدة الاختلاط ومداركة الضرب. النهاية (حوس).

(٥) في (خ) و (ظ): مغلولة.

وألفاظُ الآية تقتضي التوبيخَ لهم، ووجهُ التوبيخ لهم أنهم رَأَوا مبادئ النَّصر، فكان الواجبُ أن يعلموا أن تمامَ النَّصر في الثَّبات، لا في الانهزام. ثم بَيَّنَ سببَ التنازع، فقال: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني الغنيمة.

قال ابن مسعود: ما شَعَرْنا أنَّ أحداً من أصحابِ النبيِّ ﷺ يريدُ الدنيا وعَرَضَها حتى كان يومُ أُحُد.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا في مَرْكزهم، ولم يُخالفوا أمرَ نبيِّهم ﷺ مع أميرهم عبدِ الله بن جُبير، فحمَلَ خالدُ بن الوليد وعِكرمةُ بن أبي جهل عليه ـ وكانا يومئذ كافرين ـ فقتلوه مع مَنْ بَقِيَ، رحمهم الله[١].

والعِتابُ مع مَن انهزمَ، لا مع مَن ثبتَ، فإنَّ من ثبتَ فاز بالثواب، وهذا كما أنه إذا حَلَّ بقوم عقوبةٌ عامّةٌ؛ فأهلُ الصَّلاح والصِّبيان يَهْلِكون، ولكن لا يكون ما حَلَّ بهم عقوبةً، بل هو سببُ المَثُوبة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: بعد أن استَوْلَيتُم عليهم ردَّكم عنهم بالانهزام، ودَلَّ هذا على أنّ المعصيةَ مخلوقةٌ لله تعالى. وقالت المعتزلة: المعنى: ثم انصرفتُم، فإضافتُه إلى الله تعالى بإخراجه الرُّعب من قلوب الكافرين من المسلمين ابتلاءً لهم.

قال القشيري: وهذا لا يُغنيهم؛ لأن إخراجَ الرُّعب من[٢] قلوب الكافرين حتى يستخِفُّوا بالمسلمين قبيحٌ، ولا يجوز عندهم أنْ يَقَعَ من الله قبيحٌ، فلا يبقى لقوله: «ثم صَرَفَكُمْ عنهم» معنًى. وقيل: معنى «صَرَفَكُم عنهم» أي: لم يُكَلِّفكم طَلَبَهم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لم يَستأصِلْكم بعد المعصية والمُخالفة[٤]. والخِطاب قيل: هو للجميع. وقيل: هو لِلرُّماة

---

(١) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٣٠٨، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٥، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٢. وقول ابن مسعود ﷺ أخرجه أحمد (٤٤١٤) مطولاً، والطبري ٦/ ١٤٠ - ١٤١.

(٢) في النسخ: عن، والمثبت من (م).

(٣) ذكر هذه المسألة الرازي في تفسيره ٩/ ٣٧-٣٨.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٦٢.

الذين خالفوا ما أُمروا به، واختاره النحاس[١].

وقال أكثرُ المفسرين: ونظيرُ هذه الآية قولُه: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾[٢] [البقرة: ٥٢].

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعفو والمغفرة.

وعن ابن عباس قال: ما نُصِرَ النبيُّ ﷺ في مَوْطن كما نُصِرَ يومَ أُحد، قال: وأَنْكرنا ذلك، فقال ابنُ عباس: بيني وبين مَنْ أنكر ذلك كتابُ الله عزَّ وجلَّ، إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول في يوم أُحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ - يقول ابن عباس: والحَسُّ: القتل - ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وإنما عنى بهذا الرُّماة. وذلك أن النبيَّ ﷺ أَقامهم في موضع، ثم قال: «احموا ظُهورنا، فإنْ رأيتُمونا نُقْتَل، فلا تَنْصرونا، وإنْ رأيتُمونا قد غَنِمنا، فلا تَشْرَكُونا».

فلما غَنِمَ رسولُ الله ﷺ وأباحوا عسكرَ المشركين، انْكفَأتِ الرماةُ جميعاً، فدخلوا في العسكر يَنْتهبون، وقد التقَتْ صفوفُ أصحابِ النبيِّ ﷺ، فهم هكذا - وشبَّكَ أصابعَ يَدَيْه - والتبسوا.

فلما أخَلَّ الرُّماةُ تلك الخَلَّةَ التي كانوا فيها، دخلَتِ الخيلُ من ذلك الموضع على أصحابِ رسول الله ﷺ، فضربَ بعضُهم بعضاً، والتبسوا، وقُتِلَ من المسلمين ناسٌ كثير، وقد كان لرسول الله ﷺ وأصحابِه أوَّلُ النهار، حتى قُتِلَ من أصحاب لواءِ المشركين سبعةٌ أو تسعةٌ. وجالَ المسلمون نحوَ الجبل، ولم يبلُغوا حيث يقول الناس: الغارَ، إنما كانوا تحت المِهْراس، وصاحَ الشيطان: قُتِلَ محمد. فلم يُشَكَّ فيه أنه حقٌّ، فما زلنا كذلك ما نَشُكُّ أنه قُتِل حتى طَلَع علينا رسولُ الله ﷺ بين السَّعْدَيْن، نعرِفُه بتكفُّئِهِ إذا مشَى. قال: فَفَرِحنا حتى كأنّا لم يُصِبْنا ما أصابنا. قال: فَرَقِيَ نحونا وهو يقول: «اشتدَّ غضبُ الله على قوم دَمَّوْا وجهَ رسوله»[٣].

---

(١) في إعراب القرآن ١/ ٤١٢ . وانظر مجمع البيان ٢/ ٢٣١ .

(٢) ذكر نحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٥ ونسبه لابن جريج وابن اسحاق وجماعة من المفسرين.

(٣) في (د): «رسول الله ﷺ»، وفي (م): «نبيّهم»، والحديث أخرجه أحمد (٢٦٠٩)، وأورده ابن كثير =

وقال كعبُ بن مالك: أنا كنتُ أوَّلَ من عَرَفَ رسولَ الله ﷺ من المسلمين، عَرَفْتُه بعينيه من تحت المِغْفَر تَزْهَران، فناديتُ بأعلى صوتي: يا مَعْشرَ المسلمين، أبْشِروا، هذا رسولُ الله ﷺ قد أقْبلَ. فأشار إليَّ أنِ اسكُتْ(١).

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

«إذ» متعلِّق بقوله: «وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ». وقراءة العامة: «تُصْعِدُونَ» بضمِّ التاء وكسر العين.

وقرأ أبو رجاء العُطارِدِيُّ وأبو عبد الرحمن السُّلميُّ والحسن وقتادة بفتح التاء والعين، يعني: تَصعَدون الجبل(٢).

وقرأ ابن مُحَيْصِن وشِبْل: «إذ يَصعدون ولا يَلْوون» بالياء فيهما. وقرأ الحسن «تَلُونَ» بواو واحدة(٣).

وروى أبو بكر بنُ عيَّاش عن عاصم: «ولا تُلوون»، بضم التاء، وهي لغةٌ شاذَّة

= في تفسيره ٢/ ١٣٣ - ١٣٤، وقال: هذا حديث غريب، وسياق عجيب، وهو من مرسلات ابن عباس، فإنه لم يشهد أحداً، ولا أبوه. اهـ. قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على المسند: الظاهر عندي أنه حكاه عن واحد من الصحابة ممن شهد أحداً، ونسي بعض الرواة أن يذكر من حدَّث ابن عباس به؛ حتى يقول في حديثه: «فما زلنا كذلك ما نشك أنه قتل...» وأما سياق القصة في ذاتها فصحيح، له شواهد كثيرةٌ في الصحاح؛ أشار إلى بعضها ابن كثير في التفسير وفي التاريخ.

قال السندي كما في حاشية المسند: قوله: وجال المسلمون، أي: انكشفوا.

وقوله: تحت المِهْراس، بكسر الميم: صخرة منقورة تسع كثيراً من الماء وقيل: اسم ماء بأُحد. والتكفُّؤ: التمايل إلى قُدَّام. ودمَّوْا: أسالوا دَمَه.

وقوله: السَّعدين: يعني سعد بن معاذ وسعد بن عُبادة. انظر السير ١/ ٢٧٩ - ٢٨٠.

(١) سلف ٤/ ٢٢٨.

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٩، وتفسير الطبري ٦/ ١٤٥، والكشاف ١/ ٤٧١، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٢، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٦.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٦، وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٣ قراءة ابن محيصن والحسن، وذكر الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٧١ قراءة الحسن. وقراءة ابن محيصن: «يَصْعَدون» هي بفتح الياء والعين، كما قيّدها البنّا في إتحاف فضلاء البشر ص٢٣٠، ولم تضبط على الصواب في مطبوع ابن خالويه، وبعض المطبوعات الأخرى.

ذكرها النحاس[١].

وقال أبو حاتم: أَصْعَدْت؛ إذا مضيتَ حِيالَ وجهك، وصَعِدت؛ إذا ارتقيتَ في جبل أو غيره[٢]. فالإِصعادُ: السَّيرُ في مُستوي الأرض[٣] وبطونِ الأودية والشِّعاب. والصُّعودُ: الارتفاعُ على الجبال والسُّطوح والسَّلاليم والدَّرج. فيحتمل أن يكون صعودُهم في الجبل بعد إصعادِهم في الوادي، فيصحُّ المعنى على قراءة: «تُصْعِدون» و«تَصْعَدون».

قال قتادة والرَّبيع: أَصعَدوا يومَ أحدٍ في الوادي[٤]. وقراءة أُبَيٍّ: «إذ تُصعِدُون في الوادي»[٥]. قال ابن عباس: صَعِدُوا في أُحُدٍ فراراً[٦]. فكلتا القراءتين صواب، كان يومئذٍ من المنهزمين مُصْعِدٌ وصاعد. والله أعلم.

قال القُتَبيُّ[٧] والمبرِّد: أَصعَد إذا أبعدَ في الذَّهاب وأمعنَ فيه[٨]، فكأنَّ الإصعادَ إبعادٌ في الأرض كإبعاد الارتفاع، قال الشاعر:

ألا أيُّهذا السائلي أيْنَ أصْعَدَتْ فإنّ لها من بطن يَثْرِبَ موعِدا[٩]

وقال الفرَّاء[١٠]: الإصعادُ: الابتداءُ في السفر، والانحدارُ: الرجوعُ منه، يقال: أَصْعَدْنا من بغداد إلى مكة وإلى خراسان وأشباهِ ذلك: إذا خَرَجْنا إليها وأَخَذْنا في

---

(١) في إعراب القرآن ١/ ٤١٢ . وقراءة ابن عياش المشهورة عنه كقراءة الجماعة: «تُصْعِدُون».

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٦٢ .

(٣) في (د) و (م): مستو من الأرض، والمثبت من (خ) و (ز) و (ظ)، وهو الموافق لما في تفسير الطبري ٦/ ١٤٦ .

(٤) أخرجه الطبري ٦/ ١٤٦-١٤٧ .

(٥) ذكرها الطبري ٦/ ١٤٦ ، وابن خالويه ص٢٣ ، والزمخشري ١/ ٤٧١ .

(٦) أخرجه الطبري ٦/ ١٤٨ .

(٧) في غريب القرآن ص ١١٤ .

(٨) تفسير البغوي ١/ ٣٦٢ .

(٩) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ١٨٥ ، وروايته فيه: أين يممت، فإن لها في أهل يثرب موعداً .

(١٠) في معاني القرآن ١/ ٢٣٩ .

السفر، وانحدَرْنا: إذا رجَعْنا. وأنشد أبو عبيدة[١]:

قد كنتِ تَبكِين على الإصعاد فاليوم سُرِّحْتِ وصاحَ الحادي

وقال المفضّل: صَعِدَ وأصْعَد وصَعَّد بمعنى واحد. ومعنى «تَلْوُونَ»: تُعَرِّجون وتُقيمون، أي: لا يلتفتُ بعضُكم إلى بعضٍ هَرَباً[٢]؛ فإن المُعرِّجَ على الشيء يَلوي إليه عُنقَه أو عِنانَ دابَّته.

﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ يريد محمداً ﷺ؛ قاله الكلبي.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ أي: في آخركم، يقال: جاء فلانٌ في آخر الناس، وأُخْرَةِ الناس، وأُخْرَى الناس، وأُخْرَيَات الناس.

وفي البخاري[٣]: «أُخْرَاكُمْ» تأنيثُ آخِركم: حدثنا عمرو بن خالد، حدثنا زهير، حدثنا أبو إسحاق قال: سمعت البراء بن عازب قال: جعلَ النبيُّ ﷺ على الرَّجَّالة يومَ أُحُد عبدَ الله بنَ جبير، وأقبلوا مُنهزمين، فذاك إذ يَدعوهم الرسولُ في أُخراهم، ولم يبق مع النبيِّ ﷺ غيرُ اثني عَشَرَ رجلاً.

قال ابن عباس وغيره: كان دعاءُ النبيِّ ﷺ: «أيْ عبادَ الله، ارْجِعُوا»[٤]. وكان دعاؤه تغييراً للمنكَر، ومحالٌ أن يرى عليه الصلاة والسلام المنكَر وهو الانهزامُ، ثم لا يَنهى عنه.

قلت: هذا على أن يكون الانهزامُ معصيةً، وليس كذلك، على ما يأتي بيانُه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ الغمُّ في اللغة: التَّغطِيةُ، غَمَمْتُ الشيءَ: غَطَّيتُه. ويومٌ غَمٌّ وليلةٌ غَمَّةٌ: إذا كانا مُظلِمَيْن. ومنه: غُمَّ الهلالُ: إذا لم يُرَ، وغَمَّني الأمرُ يَغُمُّني.

---

(١) في مجاز القرآن ١/ ١٠٥ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٦٢ .

(٣) برقم (٤٥٦١)، وأخرجه أحمد (١٨٥٩٣) مطولاً.

(٤) أخرجه الطبري ٦/ ١٤٨ - ١٤٩ عن ابن عباس وقتادة والربيع.

قال مجاهد وقتادة وغيرُهما: الغَمُّ الأوَّلُ: القتلُ والجراح، والغمُّ الثاني: الإرجافُ بقتلِ النبيِّ ﷺ، إذ صاح به الشيطانُ[(١)].

وقيل: الغمُّ الأوَّلُ: ما فَاتهم من الظَّفَرِ والغنيمة، والثاني: ما أصابهم من القتلِ والهزيمة.

وقيل: الغَمُّ الأوَّلُ: الهزيمةُ، والثاني: إشرافُ أبي سفيان وخالدٍ عليهم في الجبل، فلما نظر إليهم المسلمون غَمَّهم ذلك، وظنُّوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم، فأنساهم هذا ما نالهم، فعند ذلك قال النبيُّ ﷺ: «اللّهم لا يَعْلُنَّ علينا» كما تقدَّم[(٢)].

والباء في «بِغَمٍّ» على هذا بمعنى «على»، وقيل: هي على بابها، والمعنى أنهم غَمُّوا النبيَّ ﷺ بمخالفتِهم إياه، فأثابهم بذلك غَمّهم بمن أُصيب منهم[(٣)].

وقال الحسن: «فَأَثَابَكُمْ غَمّاً» يومَ أحد «بِغَمٍّ» يوم بدر للمشركين[(٤)]. وسمَّى الغَمّ ثواباً كما سَمَّى جزاءَ الذَّنب ذنباً. وقيل: وقفهم الله على ذنبهم، فشُغلوا بذلك عمَّا أصابهم[(٥)].

قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ اللام متعلِّقةٌ بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ﴾ وقيل: هي متعلِّقةٌ بقوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ أي: كان هذا الغمُّ بعد الغمِّ لكيلا تحزنوا على ما فات من الغنيمة، ولا ما أصابكم من الهزيمة. والأوَّلُ أحسن.

و«ما» في قوله: ﴿مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ﴾ في موضع خَفْض، وقيل: «لا» صلة. أي: لكي تحزنوا على ما فاتكم وما أصابكم عقوبةً لكم في[(٦)] مخالفتكم رسولَ الله ﷺ. وهو

---

(١) أخرجه الطبري ٦/ ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٦٢ - ٣٦٣ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٦ - ٥٢٧ ، وذكر هذه الأقوال الطبري ٦/ ١٥١ - ١٥٨ . وسلف الكلام ص٣٣٤ من هذا الجزء .

(٣) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٩٦ .

(٤) النكت والعيون ١/ ٤٣٠ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٢ .

(٦) في (م): على.

مثل قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، أي: أن تَسجُدَ، وقوله ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩]، أي: ليعلَم، وهذا قولُ المفضَّل(١).

وقيل: أراد بقوله: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أي: توالت عليكم الغُمومُ؛ لكيلا تَشتَغِلوا بعد هذا بالغنائم.

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيه معنى التحذير والوعيد.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ الأَمَنَة والأَمْن سواءٌ، وقيل: الأَمَنَة إنما تكون مع أسباب الخوف، والأَمْن مع عدمه(٢). وهي منصوبة بـ «أَنْزَلَ» و«نُعاساً» بدلٌ منها. وقيل: نصب على المفعول له؛ كأنه قال: أنزل عليكم(٣) للأمنة نُعاساً. وقرأ ابن محيصن: «أَمْنَةً» بسكون الميم(٤). تفضَّل الله تعالى على المؤمنين بعد هذه الغُموم في يوم أُحُد بالنُّعاس حتى نام أكثرُهم؛ وإنما يَنعُسُ مَن يأمن، والخائف لا ينام.

روى البخاريُّ(٥) عن أنس أن أبا طلحة قال: غَشِيَنا النعاسُ ونحن في مَصافِّنا يومَ أُحُد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخُذُه، ويسقطُ وآخُذُه.

---

(١) ينظر زاد المسير ١/ ٤٧٩ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٦٣ .

(٣) في النسخ الخطية: عليهم، والمثبت من (م).

(٤) المحتسب لابن جني ١/ ١٧٤ ، والقراءات الشاذة لابن خالويه ص٢٣ .

(٥) برقم (٤٥٦٢)، وهو في مسند أحمد (١٦٣٥٧) .

﴿يَغْشَىٰ﴾ قُرئ بالياء والتاء[١]، الياء للنعاس، والتاء للأَمَنَة.

والطائفةُ تُطلَق على الواحد والجماعة.

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني المنافقين: مُعَتِّب بن قُشير وأصحابَه، وكانوا خرجوا طمعاً في الغنيمة، وخوفَ المؤمنين، فلم يَغْشَهم النُّعاسُ، وجعلوا يتأسَّفون على الحضور، ويقولون الأقاويل.

ومعنى «قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ»: حملتهم على الهمِّ، والهمُّ: ما هَمَمْتَ به؛ يقال: أَهَمَّني الشيءُ، أي: كان من همِّي. وأمرٌ مُهِمٌّ: شديد. وأَهَمَّني الأمرُ: أقلقَني، وهَمَّني: أذابَني[٢].

والواو في قوله: «وطائفةٌ» واو الحال، بمعنى إذْ، أي: إذ طائفةٌ يَظُنُّونَ أَنَّ أمر محمد ﷺ باطلٌ، وأنه لا يُنصر.

﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي: ظَنَّ أهلِ الجاهليَّة، فحذف.

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ لفظُه استفهام، ومعناه الجحد، أي: ما لنا شيءٌ من الأمر[٣]، أي: من أمر الخُروج، وإنما خَرَجْنا كَرْهاً؛ يدلُّ عليه قولُه تعالى إخباراً عنهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾.

قال الزُّبير: أُرسِل علينا النومُ ذلك اليوم، وإني لأسمع قولَ مُعَتِّبِ بن قُشير والنعاسُ يغشاني يقول: لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتلنا هاهنا[٤].

وقيل: المعنى: يقولون[٥]: ليس لنا من الظَّفَر الذي وَعَدَنا به محمدٌ شيءٌ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب: «كُلُّه»، بالرَّفع على

(١) قرأ حمزة والكسائي من السبعة بالتاء، والباقون بالياء. السبعة ص٢١٧ ، والتيسير ص٩١ .

(٢) ينظر الصحاح (همم).

(٣) انظر زاد المسير ١/ ٤٨١ .

(٤) أخرجه الطبري ٦/ ١٦٨ .

(٥) في (م): يقول.

الابتداء، وخبرُه: «لله»، والجملة خبر «إن»، وهو كقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]. والباقون بالنصب[١]، كما تقول: إن الأمر أجمعَ لله. فهو توكيدٌ، وهو بمعنى أجمع في الإحاطة والعموم، و«أجمع» لا يكون إلا توكيداً. وقيل: نعتٌ للأمر[٢].

وقال الأخفش[٣]: بدل، أي: النَّصرُ بيد الله ينصرُ من يشاء، ويخذُلُ من يشاء.

وقال جويبر عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ يعني التكذيبَ بالقَدَر[٤]. وذلك أنهم تكلَّموا فيه، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ يعني القَدَر؛ خيرُه وشرُّه من الله.

﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم﴾ أي: من الشِّرك والكُفرِ والتَّكذيب ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾: يُظهرون لك.

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أي: ما قُتِل عشائرُنا. فقيل: إن المنافقين قالوا: لو كان لنا عقلٌ ما خَرَجْنا إلى قتال أهل مكة، ولَمَا قُتِل رؤساؤنا، فردَّ الله عليهم، فقال: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ﴾ أي: لخرج ﴿الَّذِينَ كُتِبَ﴾ أي: فُرض ﴿عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ يعني في اللَّوح المحفوظ. ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: مصارِعِهم.

وقيل: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ أي: فُرِض عليهم القتال[٥]، فعبَّر عنه بالقَتْل؛ لأنه قد يؤول إليه.

وقرأ أبو حَيْوَة: «لَبُرِّزَ» بضمِّ الباء وشدِّ الراء[٦]، بمعنى يُجعل[٧] يَخرج.

وقيل: لو تخلَّفتم أيُّها المنافقون؛ لبرزتُم إلى موطن آخرَ غيرِه تُصرعون فيه، حتى

---

(١) السبعة ص٢١٧، والتيسير ص٩١، والنشر ٢/ ٢٤٢.

(٢) انظر الحجة لأبي علي الفارسي ٣/ ٩٠.

(٣) في معاني القرآن له ١/ ٤٢٥.

(٤) ذكره البغوي ١/ ٣٦٤، وابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٤٨١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٣.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٩، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٣.

(٧) في (ظ): فجعل.

يَبتليَ الله ما في الصدور ويُظهرَه للمؤمنين.

والواو في قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾ مُقحمة، كقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]. أي: ليكون، وحُذف الفعل الذي مع لام كي، والتقدير: وليبتليَ الله ما في صدوركم وليمحِّصَ ما في قلوبكم فرض الله عليكم القتالَ والحربَ، ولم يَنصرْكُم يومَ أُحُد ليختبرَ صبرَكُم، وليُمحِّصَ عنكم سيئاتِكم إن تُبتم وأخلصتم[١].

وقيل: معنى «ليبتلي»: ليُعاملَكم معاملَة المختَبِر. وقيل: ليقعَ منكم مُشاهدةً ما علمَه غَيْباً. وقيل: هو على حذف مضاف، والتقدير: ليبتليَ أولياءُ الله تعالى[٢]. وقد تقدَّم معنى التَّمحيص[٣].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: ما فيها من خيرٍ وشرٍّ. وقيل: ذات الصُّدور هي الصُّدور؛ لأن ذات الشيء نفسُه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ هذه الجملة هي خبرُ «إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا». والمراد مَن تولَّى عن المشركين يوم أُحُد. عن عمر ﷺ وغيره.

السُّدِّيّ: يعني مَن هرب إلى المدينة في وقت الهزيمة؛ دون مَن صَعِدَ الجبل.

وقيل: هي في قوم بأعيانهم؛ تخلَّفُوا عن النبيِّ ﷺ في وقت هزيمتهم ثلاثة أيامٍ، ثمَّ انصرفوا[٤].

ومعنى «استزلَّهمُ الشَّيطانُ»: استدعى زَلَلَهم بأن ذكَّرهم خطايا سلفت منهم، فكرهوا الثُّبوت لئلَّا يُقتلوا[٥]. وهو معنى قوله[٦]: «ببعضِ ما كسبوا».

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٣ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٨٠ ، والنكت والعيون ١/ ٤٣١ .

(٣) ص٣٣٨ - ٣٣٩ من هذا الجزء.

(٤) أخرج الأقوال الطبري ٦/ ١٧٢ - ١٧٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٤ .

(٦) لفظ: قوله، من (ظ).

وقيل: «استزلَّهم»: حملَهم على الزَّلَل، وهو استفعل، من الزَّلَّة، وهي الخَطيئة. وقيل: زَلَّ وأزَلَّ بمعنًى واحد. ثم قيل: كرهوا القتالَ قبل إخلاص التوبة، فإنما تولَّوْا لهذا، هذا على القول الأوَّل. وعلى الثاني بمعصيتهم النبيَّ ﷺ في تركهم المركز ومَيْلِهم إلى الغنيمة.

وقال الحسن: «مَا كَسَبوا»: قَبُولهم من إبليس ما وَسوس إليهم(١).

وقال الكلبيُّ: زيَّن لهم الشيطانُ أعمالهم(٢).

وقيل: لم يكن الانهزامُ معصيةً؛ لأنهم أرادوا التحصُّنَ بالمدينة، ليقطعَ(٣) العدوُّ طمعَه فيهم لمَّا سمعوا أن النبيَّ ﷺ قُتِل.

ويجوز أن يُقال: لم يسمعوا دعاءَ النبيِّ ﷺ للهَوْل الذي كانوا فيه.

ويجوز أن يُقال: زاد عددُ العدوِّ على الضِّعف؛ لأنهم كانوا سبعَ مئة، والعدوُّ ثلاثة آلاف، وعند هذا يجوز الانهزام، ولكن الانهزام عن النبيِّ ﷺ خطأٌ لا يجوز، ولعلَّهم توهَّموا أن النبيَّ ﷺ انحاز إلى الجبل أيضاً. وأحسنُها الأوَّل.

وعلى الجملة؛ فإنْ حُمِلَ الأمرُ على ذنبٍ مُحَقَّق؛ فقد عفا الله عنه، وإن حُمِل على انهزامٍ مُسَوَّغ؛ فالآية فيمن أبْعَدَ في الهزيمة، وزاد على القَدْر المُسَوَّغ.

وذكر أبو الليث السَّمرقنديُّ نصرُ بن محمد بن إبراهيم(٤) قال: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا السرَّاج، قال: حدثنا قتيبة، قال: حدثنا أبو بكر، عن غَيْلان بن جرير(٥): أن عثمان كان بينه وبين عبد الرحمن بن عوف كلامٌ، فقال له عبد الرحمن: أَتَسُبُّني وقد شهدتُ بَدْراً ولم تَشهد، وقد بايعتُ تحت الشجرة ولم تبايع، وقد كنتَ

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٦٤.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٣٠٩ دون نسبة.

(٣) في (د) و (ز) و (م): فيقطع.

(٤) في تفسيره ١/ ٣١٠، وأخرج أحمد نحوه (٤٩٠) من حديث عثمان ﷺ.

(٥) في النسخ: حدثنا أبو بكر بن غيلان، عن جرير، والمثبت من تفسير أبي الليث، وغيلان بن جرير من رجال التهذيب، روى له الجماعة، وهو ثقة وليس له رواية عن عثمان ﷺ. وأبو بكر: لعله ابنُ شعيب بن الحبحاب، روى له مسلم والترمذي، وروى عنه قتيبة بن سعيد.

تولَّيتَ[(١)] فيمن[(٢)] تَولَّى يوم الجَمْع. يعني يومَ أُحُد.

فردَّ عليه عثمان، فقال: أمَّا قولُك: أنا شهدتُ بدراً ولم تشهد، فإني لم أَغِب عن شيءٍ شهده رسول الله ﷺ، إلا أنَّ بنتَ رسولِ الله ﷺ كانت مريضةً، وكنتُ معها أُمَرِّضُها، فضربَ لي رسول الله ﷺ سهماً في سهام المسلمين. وأما بيعةُ الشجرة، فإن رسول الله ﷺ بعثَني رَبيئَةً على المشركين بمكة ـ الرَّبيئَةُ هو النَّاظِرُ ـ فضربَ رسول الله ﷺ يمينَه على شماله، فقال: «هذه لعثمان». فيمينُ رسول الله ﷺ وشمالُه خيرٌ لي من يميني وشمالي، وأما يوم الجَمْع؛ فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾، فكنتُ فيمن عفا الله عنهم، فَخَصَمَ[(٣)] عثمانُ عبدَ الرحمن.

قلت: وهذا المعنى صحيحٌ أيضاً عن ابن عمر ـ كما في «صحيح» البخاري[(٤)] ـ قال: حدثنا عَبْدان، أخبرنا أبو حمزة، عن عثمان بن مَوْهَب قال: جاء رجلٌ حَجَّ البيتَ، فرأى قوماً جلوساً، فقال: مَن هؤلاء القُعود؟ قالوا: هؤلاء قريشٌ، قال: مَن الشيخ؟ قالوا: ابنُ عمر، فأتاه فقال: إني سائلُك عن شيءٍ أتُحدِّثُني؟ قال: أَنْشُدُكَ بحُرْمة هذا البيت، أتعلم أن عثمانَ بنَ عفَّان فَرَّ يوم أُحد؟ قال: نعم. قال: فتعْلَمُه تَغيَّبَ عن بَدْرٍ، فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: فتعلم أنه تخلَّفَ عن بيعة الرِّضوان، فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: فكَبَّر. قال ابن عمر: تعالَ لِأُخبرك، ولأبيِّنَ لك عمَّا سألْتَني عنه. أمَّا فِرارُه يوم أُحُد؛ فأشهَدُ أن الله عفا عنه، وأما تغيُّبُه عن بَدْرٍ؛ فإنه كان تحتَه بنتُ رسولِ الله ﷺ وكانت مريضةً، فقال له النبيُّ ﷺ: «إن لكَ أجرَ رجلٍ ممن شَهِد بَدْراً وسهْمَه»، وأما تغيُّبُه عن بيعة الرِّضوان؛ فإنه لو كان أحَدٌ أعزَّ ببطن مكة من عثمان بن عفان لبعثه مكانَه، فبعث عثمانَ، وكانت بيعةُ الرِّضوان؛ بعد ما ذهب عثمانُ إلى مكة، فقال النبيُّ ﷺ بيده اليُمنى: «هذه يدُ عثمان». فضرب بها على يده، فقال: «هذه لعثمان». اذهب بهذا الآن معك.

---

(١) في (خ) و (د) و (ز) و (م): تولى، والمثبت من (ظ) وتفسير أبي الليث.

(٢) في (د) و (م): مع من.

(٣) في (خ) و (ز) و (ف): فخاصم، وفي (د): فحاجّ، وفي (م): فحج، والمثبت من (ظ) وتفسير أبي الليث، ومعنى خَصَمَهُ، أي: غلبه في الخصام.

(٤) برقم (٤٠٦٦).

قلت: ونظيرُ هذه الآية توبةُ الله على آدمَ عليه السلام، وقولُه عليه الصلاة والسلام: «فحجَّ آدمُ موسى». أي: غلبه بالحُجَّة، وذلك أن موسى عليه السلام أرادَ توبيخَ آدمَ ولومَه في إخراج نفسِه وذريَّتِه من الجنة بسبب أكلِه من الشجرة، فقال له آدم: «أفتلُومُني على أمرٍ قدَّرَه الله تعالى عليَّ قبلَ أن أُخلَق بأربعين سنة، تاب عليَّ منه»[١]، ومَن تاب عليه فلا ذنبَ له، ومَن لا ذنبَ له لا يتوجَّه عليه لومٌ، وكذلك مَنْ عفا الله عنه. وإنما كان هذا لإخباره تعالى بذلك، وخبرُه صِدْقٌ، وغيرُهما من المذنبين التائبين يرجون رحمتَه، ويخافون عذابَه، فهم على وَجَلٍ وخوفٍ ألَّا تُقبَلَ توبتُهم، وإن قُبِلت؛ فالخوفُ أغلبُ عليهم؛ إذ لا علمَ لهم بذلك. فاعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني المنافقين.

﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ يعني في النِّفاق، أو في النَّسَب في السرايا التي بعث النبيُّ ﷺ إلى بئر مَعُونَة[٢].

﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ فنُهِيَ المسلمون أن يقولوا مثلَ قولهم.

وقوله: ﴿إِذَا ضَرَبُواْ﴾ هو لِما مضى، أي: إذ ضَربوا؛ لأن في الكلام معنى الشَّرط من حيث كان «الذين» مُبْهَماً غيرَ موقَّت[٣]، فوقع «إذا» موقِعَ «إذْ» كما يقع الماضي في الجزاء موضع المستقبَل.

ومعنى ﴿ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: سافروا فيها، وساروا لتجارة أو غيرها، فماتوا. ﴿أَوْ

(١) أخرجه دون قوله: تاب علي منه، أحمد (٧٣٨٧)، والبخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٢/ ٢١٥. وأما هذه الزيادة فلم نقف على من أخرجها، لكن معناها صحيح في صريح الكتاب العزيز.

(٢) الوسيط للواحدي ١/ ٥١٠، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٤.

(٣) يعني أن اسم الموصول: «الذين»، فيه إبهام يعمُّ من قال في الماضي ومن يقول في المستقبل. المحرر الوجيز ١/ ٥٣١.

كَانُوا غُزًّى﴾: غُزاةً، فقُتِلوا[١]. والغُزَّى جمعٌ منقوصٌ لا يتغيَّر لفظُها في رفعٍ وخَفْضٍ، واحدُهم غازٍ، كراكع ورُكَّع، وصائم وصُوَّم، ونائم ونُوَّم، وشاهِد وشُهَّد، وغائب وغُيَّب. ويجوز في الجمع: غُزاة، مثل: قُضاة، وغُزَّاء، بالمدّ، مثل: ضُرَّاب وصُوَّام. ويقال: غَزِيّ جمع الغُزاة، قال الشاعر:

قُـلْ لـلـقـوافـلِ والـغَـزِيِّ إذا غَـزَوْا[٢]

ورُوِيَ عن الزُّهري أنه قرأه: «غُزَى» بالتخفيف[٣].

والمُغْزِيَة: المرأة التي غزا زوجُها. وأتانٌ مُغزِيَة: متأخِّرة النِّتاج، ثم تُنتَج. وأغْزَت الناقةُ: إذا عَسُرَ لِقاحُها. والغَزْوُ: قَصْدُ الشيء. والمَغْزَى: المَقْصِدُ. ويُقال في النَّسب إلى الغَزْوِ: غَزَوِيّ[٤].

قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يعني ظَنَّهم وقولَهم. واللام متعلِّقةٌ بقوله: «قالوا» أي: ليجعلَ ظَنَّهم أنهم لو لم يخرجوا ما قُتلوا حَسْرَةً، أي: ندامةً في قلوبهم. والحَسْرةُ: الاهتمامُ على فائتٍ لم يُقْدَر بلوغُه، قال الشاعر:

فـوَاحـسـرَتـي لـم أقـضِ مـنـهـا لُـبـانـتـي ولـم أتـمـتَّـعْ بـالـجِـوارِ وبـالـقُـرْبِ[٥]

وقيل: هي متعلِّقة بمحذوف، والمعنى: لا تكونوا مثلَهم، ليجعل الله ذلك القولَ حسرةً في قلوبهم؛ لأنهم ظهر نفاقُهم.

وقيل: المعنى: لا تُصدِّقُوهم، ولا تلتفتوا إليهم، فكان ذلك حسرةً في قلوبهم.

وقيل: لِيَجْعلَ اللهُ ذلك حسرةً في قلوبهم يومَ القيامة؛ لِما هم فيه من الخِزْيِ والنَّدامة، ولِما فيه المسلمون من النَّعيم والكرامة.

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٦٤.

(٢) صدر بيت لزياد الأعجم، وعجزه: والباكِرين وللمُجِدِّ الرَّائح، وهو في ديوانه ص٨٦.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٤، والقراءة في المحتسب ١/ ١٥٧، والقراءات الشاذة ص٢٣.

(٤) الصحاح (غزا).

(٥) البيت للصِّمَّة بن عبدالله القشيري، وهو في الأغاني ٧/ ٢٩٤ و ٢٩٥، والوحشيات ص١٨٧، وديوانه ص٢٨ (نقلاً عنهما). واللُّبانة: الحاجة من غير فاقة، ولكن من همَّة، يقال: قضى فلان لُبانته، والجمع: لُبان. اللسان (لبن).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يَقْدِرُ على أن يُحْيِيَ مَنْ يَخْرُجُ إلى القتال، ويميتَ مَن أقام في أهله[١].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قُرئ بالياء والتاء[٢].

ثم أخبر تعالى أن القتلَ في سبيل الله والموتَ فيه خيرٌ من جميع الدُّنيا:

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

جوابُ الجزاءِ محذوفٌ، استُغْنِيَ عنه بجواب القسم في قوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾، وكان الاستغناءُ بجواب القسم أولى؛ لأنَّ له صدرَ الكلام، ومعناه: لَيغفِرنَّ لكم.

وأهل الحجاز يقولون: مِتُّم، بكسر الميم، مثل: نِمتم، من: مات يَمات، مثل: خِفتُ يَخاف. وسُفْلى مُضر يقولون: مُتّم، بضمِّ الميم، مثل: صُمْتُم، من مات يَموت، كقولك: كان يكون، وقال يقول. هذا قولُ الكوفيين، وهو حسن.

وقوله: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ وَعظٌ؛ وَعظَهم الله بهذا القول، أي: لا تَفِرُّوا من القتال وممَّا أمركم به، بل فِرُّوا من عِقابه وأليمِ عذابه، فإنَّ مَردَّكم إليه، لا يملك لكم أحدٌ ضراً ولا نفعاً غيره[٣]. والله سبحانه وتعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

«ما» صلةٌ فيها معنى التأكيد، أي: فبرحمة، كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠]،

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٤.

(٢) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي من السبعة بالياء، والباقون بالتاء، السبعة ص٢١٧، والتيسير ص٩١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٥. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم بضم الميم، والباقون بكسر الميم. السبعة ص٢١٨، والتيسير ص٩١.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾ [ص: ١١][(١)]. وليست بزائدة على الإطلاق، وإنما أَطلَقَ عليها سيبويه معنى الزيادة من حيث زال عملها[(٢)].

ابن كَيْسان: «ما» نكرة في موضع جرٍّ بالباء، و«رحمةٍ» بَدلٌ منها[(٣)].

ومعنى الآية: أنه عليه الصلاة والسلام لمَّا رَفَقَ بمَن تولَّى يومَ أحدٍ ولم يُعنِّفْهم، بيَّن الرَّبُّ تعالى أنه إنما فَعَل ذلك بتوفيق الله تعالى إياه.

وقيل: «ما» استِفهامٌ، والمعنى: فبِأيِّ رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم؟ فهو تعجيب. وفيه بُعد؛ لأنه لو كان كذلك لكان «فبم» بغير ألف.

﴿لِنتَ﴾ من لَانَ يَلِينُ لِيْناً ولَيَاناً، بالفتح.

والفَظُّ: الغليظُ الجافي. فَظِظْتَ تَفَظُّ فَظَاظَةً وفِظاظاً، فأنت فَظٌّ، والأنثى فَظَّةٌ، والجمع أَفظاظ. وفي صفة النبيِّ عليه الصلاة والسلام: ليس بفَظٍّ ولا غليظٍ، ولا صَخَّابٍ في الأسواق[(٤)].

وأنشد المُفَضَّل في المذكَّر:

وليس بفَظٍّ في الأدَانِيِّ والأُلَى ... يَؤمُّون جَدواه ولكنَّه سَهْلُ
وفَظٌّ على أعدائه يَحذرونه[(٥)] ... فسطوتُه حَتْفٌ ونائلُه جَزْلُ

وقال آخر في المؤنَّث:

أموتُ من الضُّرِّ في منزلي ... وغيري يموتُ من الكِظَّه
ودُنيا تجودُ على الجاهلِيـ ... ـنَ وهْي على ذي النُّهَى فَظَّه[(٦)]

وغِلَظُ القلب عبارةٌ عن تجهُّمِ الوجه، وقلَّةِ الانفعال في الرَّغائب، وقِلَّةِ الإشفاقِ

---

(١) الوسيط للواحدي ١/ ٥١٢.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٣، وذكر سيبويه ٣/ ٧٦ أنها لَغْو.

(٣) مشكل إعراب القرآن ١/ ١٧٨.

(٤) أخرجه البخاري (٢١٢٥) و (٤٨٣٨) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٥) في (ظ): يحرزونه.

(٦) ذكرهما أبو موسى المديني في المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث ٣/ ٤٩ دون نسبة.

والرَّحمة، ومن ذلك قولُ الشاعر:

يُبْكَى علينا ولا نَبكي على أحدٍ   لَنحنُ أغلظُ أكباداً من الإبلِ[(١)]

ومعنى ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾: لتفرَّقوا، فضَضْتَهم فانفضُّوا، أي: فرَّقتَهم فتفرَّقوا، ومن ذلك قول أبي النَّجم يصف إبلاً:

مُستعجلات القيض[(٢)] غير جُرْدِ   ينفضُّ عنهنَّ الحصى بالصَّمْدِ[(٣)]

وأصلُ الفضِّ: الكسرُ، ومنه قولهم: لا يَفضُضِ اللهُ فاك.

والمعنى: يا محمَّد، لولا رِفْقُك لَمنَعَهم الاحتشامُ والهيبةُ من القُربِ منك بعد ما كان من تَولِّيهم.

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قال العلماء: أمرَ الله تعالى نبيَّه ﷺ بهذه الأوامر التي هي بتدريج بليغ، وذلك أنه أمرَه بأنْ يعفوَ عنهم ما له في خاصَّته عليهم من تَبِعَة، فلما صاروا في هذه الدَّرجة، أمرَه أن يستغفرَ فيما لله عليهم من تَبِعةٍ أيضاً، فإذا صاروا في هذه الدَّرجة، صاروا أهلاً للاستشارة في الأمور[(٤)].

قال أهل اللغة: الاستشارةُ مأخوذةٌ من قول العرب: شُرْتُ الدابَّةَ وشَوَّرتُها: إذا علمتَ خَبَرَها بجَرْيٍ أو غيره. ويقال للموضع الذي تركُضُ فيه: مِشوار. وقد يكون من قولهم: شُرْتُ العسلَ واشْتَرْتُه فهو مَشُورٌ ومُشَار: إذا أخذتَه من موضعه؛ قال عديُّ بن زيد:

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٣، ونسب المرزوقي البيت في شرح حماسة أبي تمام ص٥٩١، والبغدادي في الخزانة ٦/ ٣٧ إلى المهلهل، ونسبه ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ١٩٢ إلى المخبَّل، ونسبه الثعالبي في ثمار القلوب ص٣٤٨، والزمخشري في المستقصى ١/ ٦٩ إلى بلعاء بن قيس الكناني.

(٢) في (د): الغيض، وفي (ز) و(ف): القميض، وفي (ظ): الغيظ، والمثبت من (خ) و(م).

(٣) لم نقف عليه.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٣ - ٥٣٤.

فـي سَمـاعٍ يـأذَنُ الـشَّـيـخُ لـه وحَـديـثٍ مـثـلِ مَـاذيٍّ مُـشـارِ[١]

الثانية: قال ابن عطية[٢]: والشُّورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، مَن لا يستشيرُ أهلَ العلم والدِّين فعزلُه واجبٌ، هذا ما لا خلاف فيه. وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقال أعرابيٌّ: ما غُبِنْتُ قطّ حتى يُغبَنَ قومي، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا أَفْعَلُ شيئاً حتى أشَاوِرَهُم[٣].

وقال ابن خُوَيْزمنداد: واجبٌ على الوُلاة مشاورةُ العلماءِ فيما لا يعلمون، وفيما أشكَلَ عليهم من أمور الدِّين[٤]، ووجوهِ الجيش فيما يتعلَّقُ بالحرب[٥]، ووجوهِ الناس فيما يتعلَّقُ بالمصالح، ووجوهِ الكُتَّاب والوزراء والعمال فيما يتعلَّق بمصالح البلاد وعِمارتها.

وكان يُقال: ما نَدم من استشار[٦]. وكان يُقال: مَن أُعجِبَ برأيه ضَلَّ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ يدلُّ على جواز الاجتهاد في الأمور والأخذِ بالظُّنون مع إمكان الوحي، فإن الله أذِنَ لرسوله ﷺ في ذلك[٧].

واختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي أَمر الله نبيَّهُ عليه الصلاة والسلام أن يشاورَ فيه أصحابَه، فقالت طائفةٌ: ذلك في مَكايد الحروب، وعند لقاء العدوّ، وتطييباً لنفوسهم، ورفعاً لأقدارهم، وتألُّفاً على دينهم، وإن كان الله تعالى قد أغناه

---

(١) تهذيب اللغة ١١/ ٤٠٤، ومجمل اللغة ١/ ٥١٦ ، والصحاح (شور).

(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤ .

(٣) أورده ابن قتيبة في عيون الأخبار ١/ ٣٢ .

(٤) في (ظ): الدنيا.

(٥) في (د): بمصالح العباد.

(٦) قطعة من حديث أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٦٢٣)، وفي الصغير (٩٨٠)، وعنه القضاعي (٧٧٤) من طريق عبد السلام بن عبد القدوس بن حبيب، عن أبيه، عن الحسن، عن أنس ﷺ مرفوعاً. قال الطبراني: لم يروه عن الحسن إلا عبد القدوس، تفرد به ولده عنه. اهـ. وعبد القدوس هذا قال فيه الذهبي في الميزان ٢/ ٦٤٣ : قال الفلاّس: أجمعوا على ترك حديثه، وقال ابن عدي: أحاديثه منكرة الإسناد والمتن.

(٧) أحكام القرآن للكيا الطبري ١/ ٣٠٥ .

عن رأيهم بوحيه. رُوي هذا عن قتادة والربيع وابن إسحاق والشافعي[١]. قال الشافعيُّ: هو كقوله: «والبِكر تُستأمَر» تطييباً[٢] لقلبها، لا أنَّه واجبٌ[٣].

وقال مقاتل وقتادة والربيع: كانت ساداتُ العرب إذا لم يُشاوَروا في الأمر شقَّ عليهم، فأمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يشاورَهم في الأمر؛ فإن ذلك أعطفُ لهم عليه، وأذهبُ لأضغانِهم، وأطيبُ لنفوسهم، فإذا شاورهم عرفوا إكرامَه لهم[٤].

وقال آخرون: ذلك فيما لم يأته فيه وَحيٌ، رُوي ذلك عن الحسن البصريِّ والضحاك قالا: ما أمر الله تعالى نبيَّه بالمشاورة لحاجةٍ منه إلى رأيهم، وإنما أرادَ أن يعلِّمَهم ما في المشاورة من الفضل، ولتقتديَ به أمتُه من بعده[٥].

وفي قراءة ابن عباس: «وشاوِرْهُمْ في بعض الأمر»[٦].

ولقد أحسن القائل:

شاوِرْ صديقَك في الخَفيِّ المُشكِلِ ... واقْبَلْ نصيحةَ ناصحٍ مُتفضِّلِ
فاللهُ قد أوصى بذاك نبيَّه ... في قوله: شاوِرْهُمُ وتَوَكَّلِ

الرابعة: جاء في مصنَّفِ أبي داود[٧] عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَن».

قال العلماء: وصِفةُ المستشار إن كان في الأحكام أن يكونَ عالماً دَيِّناً، وقلَّما

(١) أخرج أقوالهم الطبري ٦/ ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) في (ظ) و (م): تطيباً.

(٣) زاد المسير ١/ ٤٨٨ ، وأخرج الحديث الشافعي في مسنده ٢/ ١٢ (بترتيب السندي)، وأحمد (١٨٨٨)، ومسلم (١٤٢١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٦٥ .

(٥) أخرجهما الطبري ٦/ ١٨٩ - ١٩٠، وابن أبي حاتم ٣/ ٨٠١ .

(٦) المحتسب ١/ ١٧٥ ، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٥٧) .

(٧) برقم (٥١٢٨)، وأخرجه أيضاً البخاري في الأدب المفرد (٢٥٦)، والترمذي (٢٨٢٢)، وابن ماجه (٣٧٤٥)، وصححه ابن حبان (١٩٩١) (زوائد).

يكونُ ذلك إلا في عاقل. قال الحسن: ما كَمُل دِينُ امرئٍ ما لم يكملْ عقلُه[١]. فإذا استُشيرَ مَن هذه صفتُه، واجتَهدَ في الصَّلاح، وبذلَ جهدَه، فوقعت الإشارةُ خطأً، فلا غرامةَ عليه، قاله الخطَّابيُّ وغيرُه[٢].

الخامسة: وصِفةُ المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلاً مُجرَّباً[٣] وادّاً في المُستَشير[٤]. قال:

شاوِرْ صديقَك في الخفيِّ المُشْكِلِ

وقد تقدَّم.

وقال آخر:

وإنْ بَابُ أمرٍ عليك الْتَوَى ... فشاوِرْ لبيباً ولا تَعْصِهِ

في أبيات[٥].

والشُّورى بركةٌ، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما نَدِمَ مَن اسْتَشار، ولا خاب من اسْتخار»[٦].

وروى سهلُ بنُ سعد السَّاعديّ عن رسول الله ﷺ: «ما شَقِيَ قطُّ عبدٌ بمشورة، وما سَعِدَ باستغناء رأي»[٧].

وقال بعضهم: شاوِرْ من جرَّب الأمور؛ فإنه يُعطيك من رأيه ما وقع عليه غالياً

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤ .

(٢) معالم السنن ٤/١٤٩ .

(٣) في (ظ): وكذا.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤ .

(٥) أوّلها:

إذا كنت في حاجة مُرسِلاً ... فأرسِلْ حكيماً ولا توصِهِ

وتنسب لعبدالله بن معاوية كما في ديوانه ص٥١ ، وللزبير بن عبد المطلب كما في طبقات فحول الشعراء ص٢٤٦ ، ولصالح بن عبد القدوس كما في بهجة المجالس ١/ ٤٥٦.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤ ، وسلف الحديث في المسألة الثانية.

(٧) أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده (٧٧٣)، وفيه سليمان بن عمرو أبو داود النخعي، قال أحمد بن حنبل: كان يضع الحديث، وقال البخاري: متروك. ميزان الاعتدال ٢/ ٢١٦ .

وأنت تأخذه مجّاناً. وقد جعل عمر بن الخطاب ﷺ الخلافةَ ـ وهي أعظمُ النَّوازل ـ شورى[١].

قال البخاريُّ[٢]: وكانت الأئمةُ بعد النبيِّ ﷺ يستشيرون الأمناءَ من أهل العلم في الأمور المُباحة ليأخذوا بأسهلها.

وقال سفيان الثوريُّ: ليكن أهلُ مشورتك أهلَ التَّقوى والأمانة، ومَن يخشى الله تعالى.

وقال الحسن: والله ما تَشَاور قومٌ بينهم إلا هَدَاهم لأفضلِ ما بحضرتهم[٣].

ورُوي عن عليٍّ بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قومٍ كانت لهم مشورةٌ، فحضر معهم من اسمه أحمد أو محمد، فأدخلوه في مشورتهم إلا خِيرَ لهم»[٤].

السادسة: والشُّورى مبنيَّةٌ على اختلاف الآراء، والمستشيرُ ينظرُ في ذلك الخلاف، وينظرُ أقرَبَها قولاً إلى الكتاب والسنة إن أمكنَه، فإذا أرشدَه الله تعالى إلى ما شاء منه، عَزَمَ عليه وأنفذه متوكِّلاً عليه، إذْ هذه غايةُ الاجتهاد المطلوب، وبهذا أمر الله تعالى نبيَّه في هذه الآية[٥].

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ قال قتادة: أمرَ الله تعالى نبيَّه

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤.

(٢) في باب قوله تعالى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فتح الباري ١٣/ ٣٣٩.

(٣) في (د) و (م): يحضر بهم، وفي (ظ): يحضرهم، والمثبت من (خ) و (ز) و(ف) وأخرج الأثر البخاري في الأدب المفرد (٢٥٨)، والطبري ٦/ ١٩٠، وابن أبي حاتم ٣/ ٨٠١.

(٤) أخرجه ابن النجار في تاريخه ـ كما في اللآلئ المصنوعة للسيوطي ١/ ٩٦ ـ وفيه أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد المفيد، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٤٦٠: روى مناكير عن مجاهيل، وهومتَّهم. وأخرج نحوه ابن عدي في الكامل ١/ ١٧٢ - ١٧٣، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات (٩٢)، وفيه: فلم يحضروه معهم إلا لم يبارك لهم فيه. قال ابن عدي: هذا حديث غير محفوظ، [فيه] أحمد الشامي هو عندي ابن كنانة، وهو منكر الحديث. وعثمان الطرائفي عنده عجائب يروي عن المجهولين، وأورده الذهبي في الميزان في ترجمة أحمد الشامي ٣/ ١٢٩ في جملة أحاديث ثم قال: وهذه أحاديث مكذوبة.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤.

عليه الصلاة والسلام إذا عزمَ على أمرٍ أن يَمضيَ فيه، ويتوكَّلَ على الله، لا على مشاورتهم(١).

والعزم: هو الأمر المُروَّى المُنَقَّح، وليس ركوبُ الرأي دون رويَّةٍ عَزْماً، إلا على مَقطع المُشيحين(٢) من فُتَّاك العرب، كما قال:

إذا هَمَّ ألقَى بين عينَيه عَزْمَهُ ... وَنكَّبَ عن ذكرِ العواقبِ جانبا

ولم يَستَشِرْ في رأيه غيرَ نفسِه ... ولم يَرْضَ إلا قائم السَّيفِ صاحبا(٣)

وقال النقَّاش: العزمُ والحزم واحد، والحاءُ مبدَلةٌ من العين.

قال ابن عطية(٤): وهذا خطأ، والحزم جَودةُ النظرِ في الأمر وتنقيحُه، والحذرُ من الخطأ فيه. والعزمُ قَصْدُ الإمضاء، والله تعالى يقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ﴾، فالمشاوَرةُ وما كان في معناها هو الحزمُ. والعرب تقول: قد أحزِمُ لو أعزِمُ(٥).

وقرأ جعفر الصَّادق وجابرُ بن زيد: «فَإِذَا عَزَمْتُ» بضم التاء(٦). نسب العزمَ إلى نفسه سبحانه؛ إذ هو بهدايته وتوفيقه، كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، ومعنى الكلام أي: عزمتُ لك ووفَّقتُك وأرشدتُك، فتوكَّل على الله. والباقون بفتح التاء(٧).

قال المهلَّب: وامتثل هذا النبيُّ ﷺ من أمرِ ربِّه، فقال: «لا ينبغي لنبيٍّ يلبَسُ لأْمتَه

---

(١) أخرجه الطبري ٦/ ١٩٢.

(٢) المشيح: الحَذِر الجادُّ في الأمر المانعُ لما وراء ظهره. اللسان (شيح).

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٥١، والبيتان لسعد بن ناشب المازني، من كلمة له في ديوان الحماسة ١/ ٧٣-٧٤ (بشرح المرزوقي)، والكامل للمبرد ١/ ٢٦٨، والشعر والشعراء ص٦٩٦، وخزانة الأدب ٨/ ١٤١.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٥١ وعنه نقل المصنف قول النقاش.

(٥) الكامل للمبرد ١/ ١١٧، ومجمع الأمثال ٢/ ١٠٤، والمستقصى ٢/ ١٨٩. قال الميداني: إن عزمتُ الرأيَ وأمضيتُه فأنا حازم، وإن تركتُ الصواب وأنا أراه وضيَّعتُ العزم لم ينفعني حزمي.

(٦) المحتسب ١/ ١٧٦، والقراءات الشاذة ص٢٣، وإعراب القرآن ١/ ٤١٦ للنحاس، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٤.

(٧) هي قراءة الجمهور، وكان من الأنسب أن يعبّر بذلك، وليس كما قال: الباقون.

أن يضعَها حتى يَحكُم الله»[١]. أي: ليس ينبغي له إذا عَزَمَ أن ينصرفَ؛ لأنه نَقْضٌ للتوكُّل الذي شَرَطَه الله عزَّ وجلَّ مع العزيمة. فلُبسُه لأُمتَه ﷺ - حين أشار عليه بالخروج يوم أُحد مَنْ أكرمَه الله بالشهادة فيه، وهم صُلحاءُ المؤمنين ممَّن كان فاتته بدرٌ: يا رسول الله اخرج بنا إلى عدوِّنا - دالٌّ على العزيمة.

وكان ﷺ أشار بالقُعود، وكذلك عبدُ الله بن أُبيّ أشار بذلك وقال: أقم يا رسول الله، ولا تَخرُجْ إليهم بالناس، فإنْ هم أقاموا، أقاموا بشرِّ مجلس[٢]، وإن جاؤوا إلى المدينة قاتلناهم في الأفنية وأفواه السِّكك، ورماهم النساءُ والصبيانُ بالحجارة من الآطام[٣]، فوالله ما حارَبَنا قطُّ عدوٌّ في هذه المدينة إلا غَلَبْناه، ولا خرجْنا منها إلى عدوٍّ إلا غَلَبَنا. وأبى هذا الرأيَ مَن ذكرنا، وشجَّعوا الناسَ، ودَعَوْا إلى الحرب. فصلَّى رسول الله ﷺ الجمعة، ودخل إثْر صلاتِه بيتَه، ولبس سلاحَه، فندِمَ أولئك القوم وقالوا: أكْرَهْنا رسولَ الله ﷺ. فلما خرج عليهم في سلاحه قالوا: يا رسول الله، أقِمْ إن شئتَ، فإنَّا لا نريد أن نُكْرِهَك، فقال النبيُّ ﷺ: «لا ينبغي لنبيٍّ إذا لبسَ سلاحَه أن يضعَها حتى يقاتل»[٤].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ التَّوكُّلُ: الاعتمادُ على الله مع إظهار العجز، والاسم: التُّكْلان. يقال منه: اتَّكلْتُ عليه في أمري، وأصلُه: اِوْتَكَلْتُ؛ قُلبت الواوُ ياءً لانكسار ما قبلَها، ثم أُبدلت منها التاء وأدغمت في تاء الافتعال. ويقال: وَكَّلْتُه بأمري تَوكيلاً، والاسم: الوِكالة، بكسر الواو وفتحِها[٥].

واختلف العلماء في التوكُّل، فقالت طائفة من المتصوِّفة: لا يستحقُّه إلا مَن لم يُخالِط قلبَه خوفُ غير الله من سَبُعٍ أو غيره، وحتى يتركَ السعيَ في طلب الرِّزق

(١) علَّقه البخاري في صحيحه، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فتح الباري ١٣/ ٣٣٩، وسترد القصة في نهاية الخبر. واللأْمة: الدِّرْع، وقيل: سلاحُ الحرب وأداتُه. النهاية (لأم).

(٢) في سيرة ابن هشام ٢/ ٦٣ (والخبر فيه بنحوه): محبِس.

(٣) هي الأبنية المرتفعة، كالحصون. النهاية (أطم).

(٤) أخرج الخبر أحمد (١٤٧٨٧) من حديث جابر بن عبدالله ﷺ، وأخرجه الحاكم ٢/ ١٢٩، والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢٠٤-٢٠٥ من حديث ابن عباس ﷺ، وينظر الفتح ١٣/ ٣٤١، وسيرة ابن هشام ٢/ ٦٣.

(٥) الصحاح (وكل).

لضمان الله تعالى.

وقال عامَّةُ الفقهاء ما تقدَّم ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وهو الصحيح كما بيَّناه(١).

وقد خاف موسى وهارون بإخبار الله تعالى عنهما في قوله: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ [طه: ٤٦]، وقال: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ [طه: ٦٧-٦٨]، وأخبر عن إبراهيم بقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ [هود: ٧٠]. فإذا كان الخليلُ وموسى الكليمُ قد خافا ـ وحسبُك بهما ـ فغيرُهما أولى. وسيأتي بيانُ هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أي: عليه توكَّلوا، فإنه إن يُعِنْكم ويمنعْكم من عدوِّكم لن تُغلبوا. ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾: يتركْكُم من معونته، ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: لا ينصُركم أحدٌ من بعده، أي: من بعد خِذْلانه إيَّاكم؛ لأنه قال: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾. والخِذلانُ: تركُ العَوْن، والمخذُول: المتروكُ لا يُعْبأ به، وخَذَلت الوحْشِيَّة: أقامت على ولدها في المرعى، وتركت صواحباتِها، فهي خَذُول. قال طَرَفة:

خَذُولٌ تُراعي رَبْرَباً بِخَميلةٍ ... تَناولُ أطرافَ البَريرِ وتَرْتَدي(٢)

وقال أيضاً:

نَظَرَتْ إليك بعينِ جاريةٍ ... خَذَلَتْ صواحِبَها على طِفْلِ(٣)

وقيل: هذا من المقلوب؛ لأنها هي المخذولة إذا تُرِكَتْ.

وتخاذلت رجلاه: ضَعُفَتا. قال:

---

(١) ص٢٩١ من هذا الجزء.

(٢) ديوانه ص٢١ . قال شارحه: الربرب: القطيع من الظِّباء وبقر الوحش، والخَميلة: أرضٌ ذات شجر، والبرير: ثمر الأراك المدرك البالغ.

(٣) لم نقف عليه.

وخَذُولِ الرِّجْلِ مِنْ غيرِ كَسَحْ[١]

ورجل خُذَلَة: للذي لا يزال يَخْذُل[٢]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: لمَّا أخلَّ الرُّماةُ يومَ أُحُدٍ بمراكزهم ـ على ما تقدَّم[٣] ـ خوفاً من أن يستوليَ المسلمون على الغنيمة، فلا يُصرفَ إليهم شيءٌ، بيَّنَ الله سبحانه أنَّ النبيَّ ﷺ لا يجورُ في القِسْمة، فما كان من حقِّكم أن تتَّهموه[٤].

وقال الضحَّاك: بل السببُ أن رسول الله ﷺ بعَثَ طلائعَ في بعض غزواته، ثم غَنِمَ قبل مجيئهم، فقسَمَ للناس، ولم يقسِمْ للطَّلائع، فأنزل الله عليه عِتاباً: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي: يقسمَ لبعض ويتركَ بعضاً. ورُوي نحو هذا القول عن ابن عباس[٥].

وقال ابنُ عباس أيضاً وعِكْرمةُ وابن جُبير وغيرهم: نزلت بسبب قطيفةٍ حمراءَ فُقِدت من المَغانم يومَ بدر، فقال بعضُ مَنْ كان مع النبيِّ ﷺ: لعلَّ رسولَ الله ﷺ[٦] أخَذَها، فنزلت الآيةُ. أخرجه أبو داود والتِّرمذِيُّ، وقال: هذا حديثٌ حسن غريب[٧].

قال ابنُ عطية[٨]: قيل: كانت هذه المقالةُ من مؤمنين لم يظنُّوا أن في ذلك حَرَجاً. وقيل: كانت من المنافقين، وقد رُويَ أن المفقودَ كان سيفاً. وهذه الأقوال

---

(١) عجز بيت للأعشى، وصدره: بينَ مغلوبٍ تَلِيلٍ خَدُّهُ. وهو في ديوانه ص٢٩٣ .

(٢) مجمل اللغة ١/ ٢٨١ ، ومقاييس اللغة ٢/ ١٦٥ .

(٣) ص٣٥٨ من هذا الجزء .

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٦٦ .

(٥) تفسير الطبري ٦/ ١٩٦ - ١٩٧ .

(٦) في (د) و (م): لعل أن يكون رسول الله ﷺ.

(٧) سنن أبي داود (٣٩٧١)، وسنن الترمذي (٣٠٠٩) وهو من طريق خُصيف، عن مقسم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب... وروى بعضهم هذا الحديث عن خُصيف، عن مقسم، ولم يذكر فيه عن ابن عباس.

(٨) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٥ .

تُخَرَّج على قراءة: «يَغُلَّ» بفتح الياء وضمِّ الغين[١].

وروى أبو صخرٍ عن محمد بن كعب: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ قال: يقولُ: وما كان لنبيٍّ أن يكتُمَ شيئاً من كتاب الله.

وقيل: اللامُ فيه منقولةٌ، أي: وما كان نبيٌّ لِيَغُلَّ، كقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ [مريم: ٣٥] أي: ما كان الله ليتَّخِذَ ولداً[٢].

وقُرئ: «يُغَلَّ»، بضمِّ الياء وفتح الغين[٣].

قال ابن السِّكِّيت[٤]: [وأما المَغْنم فلم نسمَعْ فيه إلا: غَلَّ يَغُلُّ غُلولاً، وقُرئ في كتاب الله عز وجل]: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ و«يُغَلّ». قال: فمعنى[٥] «يَغُل»: يَخُون، ومعنى «يُغَلّ»: يُخَوَّن، ويحتمل معنيين: أحدُهما يُخان، أي: يُؤخَذ من غنيمته، والآخر يُخَوَّن، أي: يُنسب إلى الغُلُول[٦]. ثم قيل: إنَّ كلَّ من غَلَّ شيئاً في خفاءٍ، فقد غَلَّ يَغُلُّ غُلولاً.

قال ابنُ عَرَفة: سُمِّيت غُلولاً؛ لأن الأيديَ مَغلولةٌ منها، أي: ممنوعة.

وقال أبو عُبيد[٧]: الغُلُول من المَغْنم خاصَّةً، ولا نراه من الخيانة ولا من الحِقْد، ومما يُبيِّن ذلك أنه يقال من الخيانة: أَغَلَّ يُغِلُّ، ومن الحِقْد: غَلَّ يَغِلُّ؛ بالكسر، ومن الغُلول: غَلَّ يَغُلُّ بالضم. وغَلَّ البعيرُ أيضاً: إذا لم يَقْضِ رِيَّه، وأَغَلَّ الرجلُ: خان، قال النَّمِرُ:

جزى الله عنَّا حمزة ابنةَ نَوْفَلٍ   جزاءَ مُغِلٍّ بالأمانة كاذبِ[٨]

---

(١) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم. السبعة ص٢١٨، والتيسير ص٩١.

(٢) معاني القرآن للنحاس ١/ ٥٠٣، وتفسير البغوي ١/ ٣١٢.

(٣) وهي قراءة نافع وحمزة الكسائي وابن عامر. السبعة ص٢١٨، والتيسير ص٩١.

(٤) إصلاح المنطق ص٢٩٦، وما بين حاصرتين منه.

(٥) في (د): قال: يجور، وقيل: معنى.

(٦) معاني القرآن للنحاس ١/ ٥٠٤، وردّ المعنى الثاني وقال: لا يصح.

(٧) غريب الحديث ١/ ٢٠٠.

(٨) الصحاح، واللسان (غلل)، ووقع في الأغاني ٢٢/ ٢٧٦: جمرة، وذكر أبو الفَرَج فيه أنها امرأة =

وفي الحديث: «لا إغْلالَ ولا إسْلال»[١] أي: لا خيانةَ ولا سرقة، ويقال: لا رِشْوة. وقال شُرَيح: ليس على المُسْتعير غير المُغِلِّ ضمانٌ[٢].

وقال ﷺ: «ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مؤمن»[٣]. من رواه بالفتح فهو من الضِّغْن[٤].

وغَلَّ [أيضاً: دخل] يتعدَّى ولا يتعدَّى، يقال: غَلَّ فلان المفاوز، أي: دخلَها وتوسَّطَها، وغَلَّ من المغنم غُلولاً، أي: خان، وغَلَّ الماءُ بين الأشجار: إذا جرى فيها، يَغُلُّ، بالضمِّ في جميع ذلك.

وقيل: الغُلُول في اللغة: أن يأخذَ من المَغْنَم شيئاً يستُره عن أصحابه، ومنه تَغَلْغل الماءُ في الشجر: إذا تخللَّها، والغَلَل: الماء الجاري في أصول الشجر؛ لأنه مستترٌ بالأشجار، كما قال:

لَعِبَ السُّيُولُ به فأصبحَ ماؤه غَلَلًا تَقَطَّعَ في أصولِ الخِرْوَعِ[٥]

ومنه الغِلَالة: للثوب الذي يُلبس تحت الثياب، والغالُّ: أرضٌ مطمئنةٌ ذاتُ شجر. ومنابتُ السَّلْم[٦] والطَّلْح يقال لها: غالٌّ. والغالُّ أيضاً: نَبْت، والجمع غُلَّان بالضم[٧].

وقال بعض الناس: إن معنى «يُغَلّ» يوجد غالّاً، كما تقول: أحمدتُ الرجلَ: وجدتُه محموداً، فهذه القراءة على هذا التأويل ترجع إلى معنى «يَغُلّ» بفتح الياء وضم

= أسرَها الحارث من بني أسد (أخو النمر)، ووهبها له، فكرهته، فحبسها عنده وولدت له، ثم طلبت أن تزور أهلها وواثقته لترجعنَّ إليه، فنقضت عهدها ولم ترجع إليه.

(١) هو قطعة من حديث صلح الحديبية، أخرجه أحمد (١٨٩١٠) وأبو داود (٢٧٦٦) من حديث المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ١٩٨ .

(٣) أخرجه أحمد (٢١٥٩٠)، والترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٠) من حديث زيد بن ثابت ﷺ.

(٤) غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٥) البيت للحادرة، وهو في ديوانه ص٥٠ ، والخِرْوَع: نبت لا يُرعى. القاموس (خرع).

(٦) في (خ): الساح، وفي (ظ): الساج، والسَّلْم: شجر، كما في القاموس.

(٧) الصحاح: (غلل): وما سلف بين حاصرتين منه.

الغين.

ومعنى «يُغَلّ» عند جمهور أهل العلم أي: ليس لأحدٍ أن يَغُلَّه، : أي: يخونَه في الغنيمة.

فالآية في معنى نَهْي الناس عن الغُلول في الغنائم، والتَّوَعُّد عليه. وكما لا يجوزُ أن يُخان النبيُّ ﷺ؛ لا يجوز أن يُخان غيرُه، ولكن خصَّه بالذِّكر؛ لأن الخيانة معه أشدُّ وقْعاً وأعظمُ وِزْراً؛ لأن المعاصيَ تَعظُم بحضرته؛ لِتعيُّنِ توقيره. والوُلاة إنما هم على أمر النبيِّ ﷺ، فلهم حظُّهم من التَّوقير[١].

وقيل: معنى ﴿يَغُلَّ﴾ أي: ما غَلَّ نبيٌّ قطُّ، وليس الغرضُ النَّهْيَ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: يأتي به حاملاً له على ظهره ورقبته، مُعذَّباً بحمله وثِقَله، ومَرعُوباً بصوته، ومُوَبَّخاً بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد؛ على ما يأتي[٢].

وهذه الفضيحة التي يُوقِعُها الله تعالى بالغالِّ نظيرُ الفضيحة التي تُوقَع[٣] بالغادر، في أنْ يُنصَبَ له لواءٌ عند استِه بقدر غَدْرَته[٤]. وجعل الله تعالى هذه المعاقباتِ حَسْبَما يَعْهَدُه البشر ويَفْهَمُونه، ألا ترى إلى قول الشاعر[٥]:

أَسُمَيَّ ويحَكِ هل سمعتِ بِغَدْرةٍ   رُفِعَ اللواءُ لنا بها في المَجْمَعِ

وكانت العرب ترفعُ للغادِر لِواءً، وكذلك يُطافُ بالجاني مع جِنايته[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٦.

(٢) في حديث مسلم الذي سيذكره قريباً.

(٣) في (ظ): يوقعها.

(٤) في المحرر الوجيز ١/ ٥٣٦ ـ والكلام منه ـ: ينصب له لواء بغدرته حسب قوله عليه الصلاة والسلام.
وأخرج أحمد (١١٣٠٣)، ومسلم (١٧٣٨): (١٥) من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به عند اسْتِهِ». وأخرجه البخاري (٣١٨٨) ومسلم (١٧٣٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما دون قوله: «عند اسْتِهِ».

(٥) هو الحادرة، والبيت في ديوانه ص٥١.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٦.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قامَ فينا رسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ، فذكر الغُلُول، فعظَّمه، وعظَّمَ أمره، ثم قال: «لا أُلفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يومَ القيامة؛ على رقبته بَعِيرٌ له رُغاء، يقول: يا رسول اللهِ، أغثني، فأقولُ: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُك.

لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يوم القيامة؛ على رقبته فرسٌ له حَمْحَمَة، فيقول: يا رسول الله، أغِثني، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُك.

لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يوم القيامة على رقبته شاةٌ لها ثُغاء، يقول: يا رسول الله أغِثني، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُك.

لا أُلفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يوم القيامة؛ على رقبته نَفْسٌ لها صِياحٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُك.

لا أُلفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يوم القيامة؛ على رقبته رِقاعٌ تَخْفِقُ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُك.

لا أُلفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يوم القيامة؛ على رقبته صامِتٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُكَ»[١].

وروى أبو داود[٢] عن سَمُرة بن جُنْدُب[٣] قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصابَ غَنِيمةً؛ أمر بلالاً، فنادى في الناس، فيجيئون بغنائمهم، فَيَخْمُسُه ويَقسِمُه، فجاء رجلٌ يوماً بعد النداء بزِمامٍ من الشَّعر، فقال: يا رسول الله، هذا كان فيما أصبناه من الغنيمة. فقال: «أسمعتَ بلالاً ينادي ثلاثاً»؟ قال: نعم. قال: «فما منعك أن تجيءَ

(١) صحيح مسلم (١٨٣١)، وأخرجه أيضاً البخاري (٣٠٧٣)، وهو في المسند (٩٥٠٣). قوله: «رِقاع تخفق»، أي: تحركها الرياح فتضطرب، وأراد بالرِّقاع: ما عليه من الحقوق المكتوبة في الرِّقاع، و«الصامت»: الذهب والفضة. المفهم ٢٩/٤، والنهاية (رقع).

(٢) في سننه (٢٧١٢).

(٣) كذا أورده المصنف عن سمرة بن جندب، وكذا أورده ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وهو وهم، فقد أخرجه أبو داود من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (٢٧١٢)، وذكره المزي في تحفة الأشراف ٣٤٧/٦. أما حديث سمرة بن جندب فهو عند أبي داود (٢٧١٦) بلفظ: أما بعد، وكان رسول الله ﷺ يقول: «من كتم غالاً فهو مثله». وحديث ابن عمرو في المسند رقم (٦٩٩٦).

به»؟ فاعتذر إليه، فقال: «كُنْ[١] أنت تجيءُ به يومَ القيامة، فلن أَقْبَلَه منك».

قال بعض العلماء: أراد: يُوافَى بوزر ذلك يومَ القيامة، كما قال في آية أخرى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقيل: الخبر محمولٌ على شهرة الأمر، أي: يأتي يوم القيامة قد شَهَّر الله أمرَه، كما يُشَهَّر لو حملَ بَعِيراً له رُغاء، أو فرساً له حَمْحَمَةٌ.

قلت: وهذا عُدولٌ عن الحقيقة إلى المجاز والتَّشبيه، وإذا دَار الكلامُ بين الحقيقة والمجاز؛ فالحقيقةُ الأصلُ؛ كما في كُتُب الأصول[٢]. وقد أخبر النبيُّ ﷺ بالحقيقة، ولا عِطْرَ بعد عَرُوس[٣].

ويُقال: إنَّ مَنْ غَلَّ شيئاً في الدنيا يُمَثَّلُ له يومَ القيامة في النار، ثم يُقَالُ له: انْزِلْ إليه فَخُذْه، فيَهبِطُ إليه، فإذا انتهى إليه حَمَلَه، حتى إذا انتهى إلى الباب، سَقَط عنه إلى أسفل جَهَنَّم، فيرجعُ إليه فيأخُذُه، لا يزالُ هكذا إلى ما شاء الله.

ويقال: ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾: يعني تَشْهَدُ عليه يومَ القيامة تلك الخيانةُ والغُلولُ.

الثالثة: قال العلماء: والغُلولُ كبيرةٌ من الكَبائر؛ بدليل هذه الآية، وما ذكرناه من حديث أبي هُرَيرةَ أَنَّه يحمِلُه على عُنُقِه. وقد قال ﷺ في مِدْعَم: «والذي نفسي بيده، إن الشَّمْلَةَ التي أخَذَ يومَ خيبرَ[٤] من المغانم لم تُصِبْها المَقاسِمُ، لَتشتعلُ عليه ناراً». قال: فلمَّا سمع الناسُ ذلك جاء رجلٌ بِشِراكٍ أو شِراكَيْنِ إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «شِراكٌ أو شِراكانِ من نار». أخرجه «الموطَّأ»[٥].

فقوله عليه الصلاة والسَّلام: «والذي نفسي بيده»، وامتناعُه من الصَّلاة على مَنْ غَلَّ[٦]، دليلٌ على تعظيم الغُلول وتعظيمِ الذَّنب فيه، وأنه من الكبائر، وهو من حقوق

---

(١) في النسخ: كلا، والمثبت من سنن أبي داود.

(٢) ينظر المستصفى ١/ ٢٣ وما بعدها، والمحصول ١/ ٣٣٩ .

(٣) من أمثال العرب، ويروى: ولا مخبأ لعطر بعد عروس. مجمع الأمثال ٢/ ٢١١ .

(٤) في (ظ): أُحد، وهو خطأ.

(٥) ٢/ ٤٥٩ ، وأخرجه أيضاً البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم (١١٥). ومدعم: عبد أسود أهداه رفاعة بن زيد للنبي ﷺ يوم خيبر. الفتح ٧/ ٤٨٩ .

(٦) سيرد ذكره في المسألة التالية.

الآدميِّين، ولابدَّ فيه من القِصاص بالحسنات والسيِّئات، ثم صاحِبُه في المشيئة.

وقوله: «شِراكٌ أو شِراكانِ من نار» مثل قوله: «أَدُّوا الخِياطَ والمِخْيَط»[١]. وهذا يدلُّ على أنَّ القليلَ والكثيرَ لا يحلُّ أخذُه في الغَزْوِ قبل المَقَاسم، إلا ما أجمعوا عليه من أكل المطاعم في أرض الغزو، ومن الاحتطاب، والاصطياد.

وقد رُوِيَ عن الزُّهْرِيِّ أنه قال: لا يؤخَذُ الطعام في أرض العدوِّ إلا بإذن الإمام. وهذا لا أصلَ له؛ لأنَّ الآثار تُخالفه[٢]، على ما يأتي:

قال الحسن: كان أصحابُ رسول الله ﷺ إذا افتتحوا المدينةَ أو الحِصْنَ، أكلوا من السَّوِيق والدقيق والسَّمْن والعسل.

وقال إبراهيم: كانوا يأكلون من أرض العدوِّ الطعامَ في أرض الحرب ويَعْلِفُون قبل أن يُخَمِّسُوا.

وقال عطاء في الغزاة يكونون في السَّرِيَّة، فيصيبون أَنْحاء السمن والعسل والطعام؛ قال: يأكلون[٣]، وما بقي ردُّوه إلى إمامهم[٤]. وعلى هذا جماعةُ العلماء.

الرابعة: وفي هذا الحديث دليلٌ على أنَّ الغالَّ لا يُحرَقُ متاعُه؛ لأنَّ رسول الله ﷺ لم يُحْرِق رَحْل[٥] الذي أخذَ الشَّمْلة ولا متاعَه[٦]، ولا أَحْرَقَ متاعَ صاحبِ الخَرَزات الذي ترك الصلاةَ عليه، ولو كان حَرْقُ متاعِه واجباً لَفعلَه ﷺ، ولو فعلَه لَنُقل ذلك في الحديث[٧].

---

(١) أخرجه مطولاً أحمد (٦٧٢٩)، وأبو داود (٢٦٩٤) والنسائي في المجتبى ٦/ ٢٦٢ - ٢٦٤ من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما. قوله: الخياط: الخيط، والمِخْيَط، بالكسر: الإبرة. النهاية (خيط).

(٢) التمهيد ٢/ ١٨ - ١٩ .

(٣) في (د) و (م): فيأكلون، دون لفظ: قال.

(٤) الآثار الثلاثة عن الحسن وإبراهيم وعطاء أخرجها ابن أبي شيبة ١٢/ ٤٤٠. قوله: أنحاء السمن، واحده: نِحْي، وهو زِقُّ السمن. الصحاح: (نحى).

(٥) في (د) و (م): متاع الرجل، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لما في التمهيد ٢/ ٢١.

(٦) قوله: ولا متاعه: ليس في (د) و (م).

(٧) التمهيد ٢/ ٢١ . وحديث صاحب الخرزات أخرجه أحمد (١٧٠٣١)، وأبو داود (٢٧١٠) والنسائي ٤/ ٦٤ ، وابن ماجه (٢٨٤٨) من حديث زيد بن خالد الجهني أن رجلاً من المسلمين توفي بخيبر، =

وأما ما رُوي عن عمر بن الخطَّاب ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا وجدتُم الرجلَ قد غَلَّ؛ فأحرقوا متاعَه واضْرِبوه». فرواه أبو داود والترمذيُّ[١] من حديث صالح بن محمد بن زائدة، وهو ضعيفٌ لا يُحتجُّ به. قال التِّرمذيُّ: سألت محمداً ـ يعني البخاريَّ ـ عن هذا الحديث، فقال: إنما روى هذا صالح بنُ محمد، وهو أبو واقدٍ الليثيُّ، وهو منكَر الحديث.

وروى أبو داود[٢] أيضاً عنه قال: غَزَوْنا مع الوليد بن هشام، ومعنا سالم بنُ عبدالله بن عمر، وعمر بنُ عبد العزيز، فغَلَّ رجلٌ متاعاً، فأمرَ الوليد بمتاعه فأُحرق، وطِيْفَ به، ولم يُعطِه سهمَه. قال أبو داود: وهذا أصحُّ الحديثين.

وروى[٣] من حديث عَمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جدِّه، أنَّ رسول الله ﷺ وأبا بكرٍ وعمر حَرَّقوا متاعَ الغالِّ وضربوه. قال أبو داود: وزاد فيه عليُّ بنُ بَحْر عن الوليد ـ ولم أسمَعْه منه ـ: ومَنَعُوه سهمَه.

قال أبو عمر[٤]: قال بعضُ رواة هذا الحديث: فاضْرِبوا عنقَه، وأحْرِقوا متاعَه. وهذا الحديثُ يدور على صالح بن محمد، وليس ممن يُحتجُّ به.

وقد ثبتَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا يَحِلُّ دَمُ امرىءٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث»[٥]. وهو ينفي القتلَ في الغُلول.

وروى ابن جُرَيْج، عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبيِّ ﷺ قال: «ليس على الخائن، ولا على المُنْتَهِب، ولا على المختلس قَطْعٌ»[٦]. وهذا يعارِضُ حديثَ صالح

= وأنه ذُكر لرسول الله ﷺ فقال: «صلوا على صاحبكم» قال: فتغيرت وجوه القوم لذلك، فلما رأى الذي بهم قال: «إن صاحبكم غلَّ في سبيل الله» ففتشنا متاعه، فوجدنا فيه خرزاً من خرز اليهود ما يساوي درهمين.

(١) سنن أبي داود (٢٧١٣)، وسنن الترمذي (١٤٦١).

(٢) في سننه (٢٧١٤).

(٣) سنن أبي داود (٢٧١٥)، وضعفه البيهقي في السنن ٩/ ١٠٢ .

(٤) التمهيد ٢/ ٢٢ .

(٥) أخرجه أحمد (٣٦٢١)، والبخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (١٥٠٧٠)، وأبو داود (٤٣٩١) و (٤٣٩٢) و (٤٣٩٣)، والترمذي (١٤٤٨)، والنسائي ٨/ ٨٨ ، وابن ماجه (٢٥٩١). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم.

ابن محمد، وهو أقوى من جهة الإسناد. والغالُّ خائنٌ في اللغة والشَّريعة، وإذا انتفى عنه القطعُ فأحرى القتلُ[(١)].

وقال الطَّحاويُّ[(٢)]: لو صحَّ حديثُ صالحِ المذكورُ، احتمَلَ أن يكون حين كانت العقوباتُ في الأموال، كما قال في مانع الزكاة: «إنا آخِذُوها وشَطْرَ مالِهِ، عَزْمةً من عزماتِ الله تعالى»[(٣)]، وكما روى[(٤)] أبو هريرة في ضالَّةِ الإبل المكتومة: «فيها غَرامتُها ومِثلُها معها»[(٥)]، وكما روى عبدالله بنُ عَمرو بنِ العاص في الثَّمر المعلَّق: «غَرامةُ مِثلَيْه، وجَلَداتُ نَكالٍ»[(٦)]. وهذا كلُّه منسوخ[(٧)]، والله أعلم.

الخامسة: فإذا غلَّ الرجلُ في المَغنم ووُجِد، أُخِذ منه وأُدِّب، وعُوقب بالتعزير. وعند مالك والشافعيِّ وأبي حنيفة وأصحابهم واللَّيث: لا يُحرق متاعُه، وقال الشافعيُّ واللَّيث وداود: إن كان عالماً بالنَّهي عُوقب، وقال الأوزاعيُّ: يُحرق متاعُ الغالِّ كلُّه إلا سلاحَه وثيابَه التي عليه وسَرْجَه، ولا تُنزع منه دابتُه، ولا يُحرق الشيءُ الذي غلَّ. وهذا قول أحمد وإسحاق. وقال[(٨)] الحسن: إلا أن يكونَ حيواناً أو مصحفاً.

وقال ابن خُوَيْزمَنداد: ورُوي أن أبا بكرٍ وعمر رضي الله عنهما ضربا الغالَّ وأحرقا متاعَه[(٩)].

---

(١) في (ظ): فالحرق أحرى. وينظر التمهيد ٢/ ٢٣ .

(٢) ينظر مختصر اختلاف العلماء ٣/ ٤٧٦ .

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٠١٦)، وأبو داود (١٥٧٥)، والنسائي ٥/ ٢٥ من حديث معاوية بن حَيْدة ﷺ.

(٤) في النسخ: قال: والمثبت من التمهيد ٢/ ٢٣ .

(٥) أخرجه أبو داود (١٧١٨). قوله: المكتومة: أي التي كتمها الواجد، ولم يعرّفها، ولم يُشهد عليها. عون المعبود ٥/ ١٠٧ .

(٦) أخرجه أحمد (٦٦٨٣)، وأبو داود (١٧١٠)، والنسائي في المجتبى ٨/ ٨٦ .

(٧) التمهيد ٢/ ٢٣ ، وقد نقل المصنف عنه كلام الطحاوي.

(٨) في (د) و (م): وقاله، والمثبت من (خ) و (ظ)، وينظر الأوسط لابن المنذر ١١/ ٥٥ .

(٩) أثر أبي بكر وعمر أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٤٩٦ من طريق عمرو بن شعيب بلاغاً، وقد سلف في المسألة السابقة ضمن حديث عبدالله بن عمرو.

قال ابن عبد البر(١): وممن قال يُحرق رَحْل الغالّ ومتاعُه: مكحولٌ وسعيدُ بن عبد العزيز، وحُجَّة من ذهب إلى هذا حديثُ صالحٍ المذكورُ، وهو عندنا حديثٌ لا يجبُ به انتهاكُ حُرْمة، ولا إنفاذُ حُكْم؛ لما يعارِضُه من الآثار التي هي أقوى منه. وما ذهب إليه مالكٌ ومن تابعه في هذه المسألة أصحُّ من جهة النَّظَر وصحيحِ الأثر. والله أعلم.

السادسة: لم يختلف مذهب مالك في العقوبة على البَدَن، فأما في المال؛ فقال في الذِّمِّي يبيعُ الخمرَ من المسلم: تُراقُ الخمر على المسلم، ويُنزع الثمنُ من الذِّمِّي عقوبةً له؛ لئلّا يبيعَ الخمر من المسلمين. فعلى هذا يجوز أن يقال: تجوزُ العقوبة في المال، وقد أراقَ عمرُ ﷺ لَبَناً شِيْبَ بماء(٢).

السابعة: أجمع العلماء على أن الغالَّ يجب أنْ يردَّ(٣) جميعَ ما غَلَّ إلى صاحب المَقاسِم قبل أن يَفترِقَ الناسُ إن وجَدَ السبيلَ إلى ذلك(٤)، وأنه إذا فعل ذلك؛ فهي توبةٌ له، وخروجٌ عن ذنبه. واختلفوا فيما يفعلُ به إذا افترقَ أهلُ العسكر ولم يَصِلْ إليه، فقال جماعةٌ من أهل العلم: يدفع إلى الإمام خُمُسَه، ويتصدَّقُ بالباقي. هذا مذهبُ الزُّهريِّ ومالكٍ والأوزاعيِّ واللَّيث والثوريّ، ورُوِيَ عن عُبادةَ بنِ الصَّامت ومعاويةَ والحسنِ البصريِّ، وهو يُشْبه مذهبَ ابن مسعود وابن عباس؛ لأنهما كانا يَريان أن يُتَصَدَّقَ بالمال الذي لا يُعرف صاحبُه(٥)، وهو مذهبُ أحمدَ بنِ حنبل. وقال الشافعيُّ: ليس له الصَّدقة بمال غيره.

قال أبو عمر(٦): فهذا عندي فيما يمكن وجودُ صاحبه والوصولُ إليه، أو إلى ورثتِه، وأمَّا إن لم يكن شيءٌ من ذلك؛ فإن الشافعيَّ لا يكره الصَّدقةَ حينئذٍ إن شاء

---

(١) التمهيد ٢/ ٢٣، وما قبله منه دون قول ابن خويز منداد.

(٢) أورده ابن عبد البر في التمهيد ٦/ ١٥٥.

(٣) في (د) و (م): للغالّ أن يردّ.

(٤) حكى الإجماع ابن المنذر في الأوسط ١١/ ٦٠.

(٥) ذكر هذه الآثار غير قول عبادة ابنُ المنذر في الأوسط ١١/ ٦٠ - ٦١.

(٦) التمهيد ٢/ ٢٣ - ٢٤، وما قبله منه.

الله. وقد أجمعوا في اللُّقَطة على جواز الصَّدقة بها بعد التعريف لها وانقطاع صاحبها، وجعلوه ـ إذا جاء ـ مخيَّراً بين الأجر والضَّمان[(١)]، وكذلك المغصوب. وبالله التوفيق.

وفي تحريم الغُلُول دليلٌ على اشتراك الغانمين في الغنيمة، فلا يحلُّ لأحدٍ أن يستأثر بشيء منها دون الآخر، فمن غَصَب شيئاً منها أُدِّب اتفاقاً على ما تقدَّم.

الثامنة: وإن وطئَ جاريةً، أو سرَقَ نِصاباً، فاختلف العلماء في إقامة الحدِّ عليه، فرأى جماعةٌ أنه لا قَطْعَ عليه.

التاسعة: ومن الغُلُول هدايا العمال، وحُكْمُه في الفضيحة في الآخرة حُكْم الغالِّ؛ روى أبو داود في «سُننه»، ومُسْلمٌ في «صحيحه»[(٢)] عن أبي حُميد الساعِديِّ، أن النبيَّ ﷺ استعمَلَ رجلاً من الأَزْد يقال له: ابن اللُّتْبِيَّة ـ قال ابن السَّرْح[(٣)]: ابن الأُتْبِيَّة ـ على الصَّدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أُهديَ لي، فقام النبيُّ ﷺ على المنبر، فحمِدَ الله وأثنى عليه وقال: «ما بالُ العامل نبعثُه، فيجيءُ فيقول: هذا لكم وهذا أُهْديَ لي؟ ألَا جلَسَ في بيت أمِّه أو أبيه، فينظرَ أيُهدَى إليه أم لا؟ لا يأتي أحدٌ منكم بشيء من ذلك إلا جاء به يوم القيامة؛ إن كان بعيراً فله رُغاء، وإن كانت بقرةً فلها خُوار، أو شاةً تَيْعَر». ثم رفَعَ يديه حتى رأينا عُفْرَتَي إبْطَيه، ثم قال: «اللهمَّ هل بلَّغتُ، اللهمَّ هل بلَّغتُ».

وروى أبو داود[(٤)] عن بُريدةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنِ استعملناه على عملٍ، فرزَقْناه رِزْقاً، فما أخَذَ بعد ذلك فهو غُلُول».

وروى أيضاً[(٥)] عن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ قال: بعثني رسولُ الله ﷺ ساعياً ثم

---

(١) ما نقله ابن عبد البر من الإجماع فيه نظر، فقد قال ابن المنذر في الإجماع ص١١٨ في كتاب اللقطة: لم يثبت فيها إجماع. وحكى فيها الخلاف في الإشراف ١/ ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٢) صحيح مسلم (١٨٣٢)، وسنن أبي داود (٢٩٤٦)، وأخرجه أيضاً البخاري (٧١٧٤). وهو في المسند (٢٣٥٩٨) .

(٣) هو أحمد بن عمرو بن عبدالله، أحد شيخَي أبي داود الذي روى عنه هذا الحديث.

(٤) في سننه (٢٩٤٣).

(٥) في سننه (٢٩٤٧).

قال: «انْطَلِقْ أبا مسعود، ولا أُلْفِيَنَّكَ يومَ القيامة تجيءُ[١]؛ على ظهرك بعيرٌ من إبل الصَّدَقة له رُغاءٌ قد غَلَلْتَه»، قال: إذاً لا أنطلِقُ، قال: «إذاً لا أُكرِهُكَ».

وقد قيَّد هذه الأحاديثَ ما رواه أبو داود أيضاً[٢] عن المُسْتورِد بن شَدَّاد قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «مَنْ كان لنا عاملاً، فلْيكْتَسِبْ زوجةً، فإن لم يكنْ له خادمٌ، فلْيَكْتَسِبْ خادماً، فإن لم يكن له مسكنٌ، فلْيكتَسِبْ مَسْكَناً». قال: فقال أبو بكر: أُخبِرتُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنِ اتَّخَذَ غيرَ ذلك، فهو غالٌّ [أو] سارق». والله أعلم.

العاشرة: ومن الغُلُول حبسُ الكُتُب عن أصحابها، ويدخُلُ غيرها في معناها. قال الزُّهريُّ: إيَّاك وغُلولَ الكُتب، فقيل له: وما غُلُولُ الكتب؟ قال: حبسُها عن أصحابها[٣].

وقد قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾: أن يكتُمَ شيئاً من الوحي رَغْبةً أو رَهْبة أو مُداهنةً؛ وذلك أنهم كانوا يكرهون ما في القرآن من عَيْبِ دينِهم وسَبِّ آلهتم، فسألوه أنْ يَطوِيَ ذلك، فأنزل الله هذه الآية، قاله محمد بن بشار[٤]، وما بدأنا به قولُ الجمهور.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ تقدّم القول فيه.[٥]

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ يُريد: بتَركِ الغُلُول، والصَّبر على الجهاد. ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يُريد: بكُفْرٍ، أو غُلولٍ، أو تَولٍّ عن النبيِّ ﷺ في الحرب.

---

(١) في (د) و (م): تأتي، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لسنن أبي داود.

(٢) في سننه (٢٩٤٥)، وما سيرد بين حاصرتين منه، وهو في مسند أحمد (١٨٠١٥).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٣٧٣ .

(٤) في (خ) و (ظ): يسار. ولم نعرفه، وذكر القولَ الألوسيُّ في روح المعاني ٤/ ١٠٩ - ١١٠ وقال: ولا يخفى أنه بعيد جداً، ولا أدري سند هذه الرواية، ولا أظن الخبر إلا موضوعاً.

(٥) ٤/ ٤٢١ .

﴿وَمَأْوَنهُ جَهَنَّمُۖ﴾ أي: مَثْوَاهُ النار إن[١] لم يَتُب أو يعفُ الله عنه. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجِع. وقرئ: رِضْوانُ، بكسر الراء وضَمّها[٢]، كالعُدوان والعِدوان.

ثم قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾، أي: ليس من اتّبَع رِضْوانَ الله كَمَن باءَ بسَخَطٍ منه، بل درجاتُهم[٣] مُتفاوِتةٌ، أي: هم مُختلفُو المنازلِ عند الله؛ فَلِمنِ اتَّبعَ رضوانَه الكَرامةُ والثَّوابُ العظيمُ، ولِمن بَاءَ بِسَخَطٍ منه المَهانةُ والعذابُ الأليم.[٤]

ومعنى «هُمْ دَرَجَاتٌ»، أي: ذَوُو[٥] دَرَجات، أو: على دَرَجات، أو: في دَرَجاتٍ، أو: لهم دَرَجاتٌ. وأهلُ النارِ أيضاً ذوو درجات[٦]؛ كما قال: «وجدتُه في غَمَراتٍ من النار، فأخرجتُه إلى ضَحْضَاح».[٧]

فالمؤمن والكافرُ لا يستويان في الدَّرجة، ثمَّ المؤمنون يختلفون أيضاً، فبعضُهم أرفعُ درجةً من بعض، وكذلك الكفار. والدرجةُ: الرُّتْبة، ومنه الدَّرَج؛ لأنه يُطْوَى رُتْبةً بعد رُتْبة. والأشهرُ في منازل جهنَّم: دَرَكات؛ كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، فلمن لم يَغُلَّ دَرَجاتٌ في الجنة، ولمن غَلَّ دَرَكاتٌ في النار.

قال أبو عبيدة[٨]: جهنّمُ أَدْرَاكٌ، أي: منازل؛ يقال لكلِّ منزلٍ منها: دَرَك ودَرْك. والدَّرَكُ إلى أسفل، والدَّرَجُ إلى أعلى.

---

(١) في (م): أي إن.

(٢) قرأ بضم الراء عاصم في رواية شعبة، وقرأ الباقون بكسرها. السبعة ص٢٠٢، والتيسير ص٨٦.

(٣) في (د) و(م): قيل: هم درجات، وفي (ظ): بل درجات، والمثبت من (خ) و(ز).

(٤) الوسيط ١/ ٥١٦ .

(٥) في النسخ: ذو (في الموضعين)، والمثبت من (م).

(٦) في (د): دركات.

(٧) أخرجه أحمد (١٧٦٣)، والبخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩) من حديث العبَّاس بن عبد المطلب ﷺ، وقوله: ضَحْضَاح: هو ما رقَّ من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين، فاستعاره للنار. النهاية (ضحضح).

(٨) في النسخ: أبو عبيد، والمثبت من (م)، ولسان العرب (درك)، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ١٠٧ - ١٠٨ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

بيَّنَ الله تعالى عظيمَ مِنَّته عليهم ببعثه محمداً ﷺ.

والمعنى في المِنَّة فيه أقوال:

منها: أن يكونَ معنى ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أنه بشرٌ مِثلُهم[١]. فلمَّا أظهر البراهينَ وهو بشرٌ مثلُهم، عُلِم أنَّ ذلك من عند الله.

وقيل: «مِن أنفُسِهِم»: منهم، فشَرُفُوا به ﷺ، فكانت تلك المنَّة.

وقيل: «مِن أنفُسِهم» ليعرفوا حالَه، ولا تخفى عليهم طريقتُه. وإذا كان محلُّه فيهم هذا؛ كانوا أحقَّ بأن يقاتلوا عنه، ولا يَنهزِموا دونه.

وقُرِئ في الشَّواذ: «من أنْفَسِهِم» بفتح الفاء[٢]، يعني من أشرفهم؛ لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضلُ قريش، وقريشٌ أفضلُ العرب[٣]، والعربُ أفضلُ من غيرهم.

ثم قيل: لفظ المؤمنين عامٌّ، ومعناه خاصٌّ في العرب؛ لأنه ليس حيٌّ من أحياء العرب إلا وقد ولَدَه ﷺ ولهم فيه نسبٌ إلا بني تَغْلِب، فإنهم كانوا نصارى، فطهَّره الله من دَنَسِ النَّصرانية[٤]. وبيانُ هذا التأويلِ قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

---

(١) في (د) و(م): أيْ: بَشَر، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٧، والكلام منه.

(٢) القراءات الشاذة ص٢٣، وتفسير أبي الليث ١/ ٣١٣، والكشاف ١/ ٤٧٦. قال ابن خالويه: رُوي عن النبي ﷺ وعن فاطمة رضي الله عنها.

(٣) في النسخ: وبنو هاشم أفضل من قريش وقريش أفضل من العرب، والصواب ما أثبتناه، وينظر تفسير أبي الليث ١/ ٣١٣، وفتح القدير ١/ ٣٩٥.

(٤) الوسيط ١/ ٥١٦.

وذكر أبو محمد عبد الغني قال: حدَّثنا أبو أحمد المصريُّ[(١)] ، حدّثنا أحمد بنُ عليِّ بنِ سعيد القاضي أبو بكر المَرْوَزِيُّ، حدّثنا يحيى بنُ مَعِين، حدَّثنا هشام بنُ يوسفَ، عن عبدالله بن سُلَيمان النَّوفَلِيّ، عن الزُّهريّ، عن عُرْوةَ، عن عائشة رضي الله عنها: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، قالت: هذه للعرب خاصَّةً[(٢)]. وقال آخرون[(٣)]: أرادَ به المؤمنين كلَّهم.

ومعنى «مِنْ أَنْفُسِهِمْ» أنَّه واحدٌ منهم، وبَشَرٌ مِثْلُهُم، وإنما امتازَ عنهم بالوحي؛ وهو معنى قولِهِ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وخَصَّ المؤمنين بالذِّكْر، لأنهم المُنْتَفِعون به، فالمِنَّةُ عليهم أعْظَم.

وقولُه تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ﴾؛ «يتلو» في موضِع نَصْب نَعْتٌ لرسُول[(٤)] ، ومعناه: يَقْرَأُ. والتِّلاوةُ: القِرَاءةُ. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ تقدَّم في «البقرة».[(٥)]

ومعنى ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾، أي: ولقد كانوا من قبل، أي: من قبل محمد ﷺ.

وقيل: «إنْ» بمعنى ما، واللام في الخبر بِمعنى إلا، أي: وما كانوا من قبلُ إلاَّ في ضلال مبين، ومثلهُ: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨]، أي: وما كنتم من قبله إلا من الضَّالين[(٦)]، وهذا مذهبُ الكوفيين، وقد تقدَّم في «البقرة»معنى هذه الآية.[(٧)]

---

(١) في (د) و(م): البصري، وهو خطأ، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو عبدالله بن محمد بن عبدالله بن الناصح الدمشقي الفقيه الشافعي المعروف بابن المفسِّر، نزيل مصر، توفي سنة (٣٦٥ هـ). ينظر السير ٢٨٢/١٦ .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٦١٥) من طريق يحيى بن معين به، وأورده الواحدي في الوسيط ٥١٦/١ .

(٣) ينظر تفسير البغوي ٣٦٨/١ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤١٧/١ .

(٥) ٤٠٣/٢ .

(٦) ينظر الوسيط ٥١٧/١ .

(٧) ٣٤٩/٣ .

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾﴾.

الألف للاستفهام، والواو للعطف. ﴿مُّصِيبَةٞ﴾ أي: غَلَبة. ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ يومَ بَدْر بأن قَتلتُم منهم سبعين، وأَسَرتُم سبعين[١]. والأسير في حكم المقتول؛ لأنَّ الآسرَ يقتل أسيره إن أراد، أي: فهزمتُموهم يوم بَدْرٍ ويومَ أُحُدٍ أيضاً في الابتداء، وقَتلتُم فيه قريباً من عشرين، قتلتُم[٢] منهم في يومين، ونالوا منكم في يوم أُحُد.

﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾، أي: من أين أصابَنا هذا الانهزامُ والقتل، ونحن نقاتلُ في سبيل الله، ونحن مسلمون، وفينا النبيُّ والوحي، وهم مشركون؟!

﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ يعني مخالفةَ الرُّماة، وما من قوم أطاعوا نبيَّهم في حرب إلا نُصِروا؛ لأنهم إذا أطاعوا فهم حزبُ الله، وحزبُ الله هم الغالبون.[٣]

وقال قتادة والرَّبيع بن أنس: يعني[٤] سؤالَهم النبيَّ ﷺ أنْ يخرج بعد ما أراد الإقامة بالمدينة، وتأوَّلَها في الرؤيا التي رآها دِرْعاً حَصِينة.[٥]

عليُّ بن أبي طالب ﷺ: هو اختيارُهم الفِداءَ يومَ بَدْرٍ على القتل، وقد قيل لهم: إنْ فاديتم الأُسارى قُتل منكم على عِدَّتهم.[٦] روى البَيْهَقِيُّ عن عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ في الأُسارى يومَ بدر: «إنْ شئتُم قَتلتُموهم، وإن شئتُم فاديتُموهم، واستمتعتُم بالفِداء، واستُشهد منكم بعدَّتهم»، فكان آخرَ السبعين ثابتُ بنُ قيس؛ قُتِلَ يومَ اليمامة.[٧]

فمعنى «مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ» على القولين الأوَّلَين: بذنوبكم. وعلى القول الأخير: باختياركم.

---

(١) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٣١٣، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٨، وتفسير الرازي ٩/ ٨١.

(٢) قوله: قتلتم، من (د) و(م).

(٣) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٨٨، وينظر تفسير البغوي ١/ ٣٦٩، والوسيط ١/ ٥١٧.

(٤) في النسخ: معنى، والمثبت من (م).

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٢١٥ - ٢١٦.

(٦) أورده الماوردي في النكت والعيون ١/ ٤٣٥.

(٧) سنن البيهقي ٦/ ٣٢١، وأخرجه أيضاً الترمذي (١٥٦٧)، والنسائي في الكبرى (٨٦٠٨) بنحوه مختصراً.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾.

يعني يومَ أُحُد من القتل والجَرْح والهزيمة. ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، أي: بعِلْمه، وقيل: بقضائه وقَدَرِه.

قال القَفَّال[١]: أي: فبِتَخْلِيتهِ بينكم وبينهم، لا أنه أراد ذلك. وهذا تأويلُ المعتزلة. ودخلت الفاء في «فبإذن الله»؛ لأن «ما» بمعنى الذي. أي: والذي أصابكم يومَ التقى الجمعانِ فبإذن الله، فأشبه الكلامُ معنى الشَّرط، كما قال سيبويه: الذي قام فله درهم.[٢]

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾، أي: ليُمَيِّز. وقيل: ليَرَى. وقيل: ليُظهِرَ إيمانَ المؤمنين بثبوتهم في القتال[٣]، وليُظهِر كفرَ المنافقين بإظهارهم الشَّماتةَ، فيعلمون ذلك. والإشارة بقوله: ﴿نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ﴾ هي إلى عبدالله بنِ أُبَيٍّ وأصحابِه الذين انصرفوا معه عن نُصرة النبيِّ ﷺ، وكانوا ثلاث مئة، فمشى في أثرهم عبدُ الله بنُ عمرو بنِ حرام الأنصاريُّ، أبو جابر بن عبدالله، فقال لهم: اتَّقوا الله، ولا تتركوا نبيَّكم، وقاتِلوا في سبيل الله أو ادفعوا، ونحو هذا من القول. فقال له ابنُ أُبَيٍّ: ما أرى أنْ يكون قِتال، ولو علمنا أنْ يكون قِتالٌ لكنَّا معكم. فلما يئس منهم عبدُ الله قال: اذهبوا أعداءَ الله، فسيُغني اللهُ رسولَه عنكم. ومضى مع النبيِّ ﷺ، واستُشهد رحمه الله تعالى.[٤]

---

(١) محمد بن علي بن إسماعيل أبو بكر الشاشي الشافعي، القفال الكبير، عنه انتشر فقه الشافعي بما وراء النهر، توفي (٣٦٥ هـ). السير ١٦/ ٢٨٣ .

(٢) ينظر الكتاب ٣/ ٦٩ ، ومجمع البيان ٢/ ٢٥٧، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٨ .

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٨٨ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٩ .

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٤ ، وتفسير الطبري ٥/ ٢٢٢ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٩، وعبدالله بن عمرو ابن حرام أبو جابر أحد النقباء ليلة العقبة، شهد بدراً. السير ١/ ٣٢٤ .

واختلف الناس في معنى قولِه: ﴿أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ فقال السُّدِّيُّ وابنُ جُريج وغيرُهما: كَثِّرُوا سَوادَنا وإن لم تقاتلوا معنا، فيكون ذلك دَفْعاً وقَمْعاً للعدوّ، فإنَّ السَّوادَ إذا كثُر حصل دفْعُ العدوّ.(١)

وقال أنس بنُ مالك: رأيت يومَ القادِسِيَّةِ عبدالله بنَ أمِّ مَكْتُوم الأعمى وعليه دِرْعٌ يجرُّ أطرافها، وبيده رايةٌ سوداء، فقيل له: أليس(٢) قد أنزل الله عُذْرَك؟ قال: بلى! ولكني أُكثِّرُ المسلمين بنفسي. ورويَ عنه أنه قال: فكيف بسوادِي في سبيل الله!(٣)

وقال أبو عونٍ الأنصاريُّ: معنى «أو ادفعوا»: رابِطوا(٤). وهذا قريبٌ من الأوّل. ولا محالةَ أنَّ المرابِطَ مدافع؛ لأنه لولا مكانُ المرابطين في الثُّغور لجاءها العدوّ.

وذهب قومٌ من المفسّرين إلى أنَّ قولَ عبدِ الله بنِ عَمرو(٥): أو ادفعوا، إنما هو استدعاءٌ إلى القتال حَمِيَّةً؛ لأنه استدعاهم إلى القتال في سبيل الله، وهي أنْ تكون كلمةُ الله هي العليا، فلما رأى أنهم ليسوا على ذلك؛ عَرَضَ عليهم الوجهَ الذي يَحْشِمُهم، ويبعثُ الأَنَفَة، أي: أو قاتِلوا دِفاعاً عن الحَوْزة، ألا ترى أنَّ قُزْمانَ(٦) قال: واللهِ ما قاتلتُ إلا عن أحساب قومي. وألا ترى أنَّ بعضَ الأنصارِ قال يومَ أُحدٍ لمَّا رأى قريشاً قد أرسلت الظَّهْرَ(٧) في زروع قناة(٨): أتُرعَى زروعُ بني قَيْلةَ(٩) ولمّا

(١) تفسير الطبري ٥/ ٢٢٤.

(٢) قوله: أليس، من (م)، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٩.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٩.

(٤) تفسير الطبري ٥/ ٢٢٤.

(٥) هو أبو جابر رضي الله عنهما السالف ذكره.

(٦) هو ابن الحارث المنافق، كان شجاعاً، قاتل بشدة يوم أحد حَميةً، ثم جُرِحَ جرحاً شديداً، فقتل نفسه، فشهد له النبي ﷺ بالنار، وقال: «إن الله يؤيد هذا الدينَ بالرجل الفاجر». ينظر الإصابة ٨/ ١٥٩-١٦٠.
وفي صحيح البخاري (٢٨٩٨) عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا ... الحديث، وفيه: وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجلٌ لا يدع لهم شاذَّة ولا فاذَّة إلا اتبعها يضربها بسيفه ... فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه من أهل النار» ... إلى آخر الحديث، وفيه أنه قتل نفسه.

(٧) قوله: الظهر، أي: الإبل التي يحمل عليها وتركب. النهاية (ظهر).

(٨) قوله: قناة هو أحد أودية المدينة الثلاثة، عليه حرث ومال. وقد يقال: وادي قناة. معجم البلدان ٤/ ٤٠١.

(٩) قوله: بني قَيْلَة: هم الأوس والخزرج؛ قبيلتا الأنصار، وقيلة: اسم أمٍّ لهم قديمة، وهي قَيْلة بنت كاهل. النهاية (قيل).

نُضارِبْ؟[١]

فالمعنى: إنْ لم تقاتلوا في سبيل الله، فقاتلوا دَفْعاً عن أنفسكم وحَرِيمكم.[٢]

قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾، أي: بَيَّنُوا حالَهم، وهَتَكُوا أسْتارَهم، وكَشَفُوا عن نِفاقِهم لمن كان يَظُنُّ أنهم مسلمون، فصارُوا أقربَ إلى الكفر في ظاهر الحال، وإن كانوا كافرين على التَّحقيق.

وقولُه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: أظْهَرُوا الإيمان، وأَضْمَرُوا الكفر. وذِكْرُ الأفواه تأكيدٌ، مثلُ قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾.[٣]

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ معناه: لأجل إخوانهم، وهم الشهداءُ المقتولون من الخَزْرَج؛ وهم إخوةُ نسبٍ ومجاورة، لا إخوةُ الدِّين. أي: قالوا لهؤلاء الشهداء: لو قعَدوا، أي: بالمدينة ما قُتِلوا.[٤]

وقيل: قال عبدالله بنُ أُبَيٍّ وأصحابُه لإخوانهم، أي: لأشكالهم من المنافقين: لو أطاعونا هؤلاء الذين قُتِلوا، لَمَا قُتِلوا. وقوله: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ يريد في ألاَّ يخرجوا إلى قريش. وقوله: ﴿وَقَعَدُوا﴾، أي: قالوا هذا القولَ، وقعدوا بأنفسهم عن الجهاد، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا﴾، أي: قل لهم يا محمد: إن صدَقتم فادفعوا الموتَ عن أنفسكم، والدَّرْء: الدفعُ.[٥]

بيَّنَ بهذا أنَّ الحَذَرَ لا ينفعُ من القَدَر، وأنَّ المقتولَ يُقتلُ بأجله، وما عَلِم الله وأخبر به كائنٌ لا محالَة.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٩.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٣١٤، والوسيط ١/ ٥١٨.

(٣) ينظر مجمع البيان ١/ ٢٥٨، والوسيط ١/ ٥١٨، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٩.

(٤) ينظر تفسير البغوي ١/ ٣٦٩، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٩ - ٥٤٠.

(٥) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٢٢٦ - ٢٢٧، والوسيط ١/ ٥١٨ - ٥١٩.

وقيل: مات يومَ قيل هذا سبعون منافقاً. وقال أبو الليث السَّمَرْقَنْديُّ[١]: سمعت بعضَ المفسِّرين بسَمَرْقَنْد يقول: لما نزلت الآية: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ مات يومئذ سبعون نَفْساً من المنافقين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)﴾.

فيه ثمان مسائل:

الأولى: لما بيَّنَ الله تعالى أنَّ ما جَرَى يومَ أُحُدٍ كان امتحاناً يُميِّز المنافق من الصادق؛ بيَّنَ أنَّ مَنْ لم يَنْهَزِمْ فقُتل؛ له الكرامةُ والحياةُ عنده.

والآية في شُهداءِ أُحد[٢]. وقيل: نزلت في شهداء بئرِ مَعُونة[٣]. وقيل: بل هي عامَّةٌ في جميع الشهداء.[٤]

وفي مصنَّف أبي داودَ بإسناد صحيحٍ عن ابن عباسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا أُصيبَ إخوانُكم بأُحُد جَعَلَ الله أرواحَهم في جَوْفِ طَيرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أنهارَ الجنةِ، تأكُل من ثمارها، وتأوِي إلى قناديلَ من ذهبٍ معلَّقةٍ في ظلِّ العَرْش، فلَمَّا وجدوا طِيبَ مأْكَلِهم ومَشْرَبِهم ومَقِيلِهم، قالوا: مَنْ يُبلِّغُ إخوانَنا عنَّا أنَّا أحياءٌ في الجنَّة نُرْزَقُ؛ لئلا يَزْهَدُوا في الجهاد ولا يَنْكُلوا عن الحربِ؟[٥] فقال الله سبحانه: أنا أبلِّغهم عنكم، قال: فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ إلى آخر الآيات.[٦]

---

(١) في تفسيره ١/ ٣١٤، وينظر الكشاف ١/ ٤٧٨.

(٢) أخرجه الطبري ٦/ ٢٢٨، والواحدي في أسباب النزول ص١٢٣-١٢٤ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسيورده المصنف لاحقاً.

(٣) أخرجه الطبري ٦/ ٢٣٤ - ٢٣٥، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٥٠٠، وقصة شهداء بئر معونة أخرجها أحمد (١٣١٩٥)، والبخاري (٤٠٩١)، ومسلم (٦٧٧) من حديث أنس ﷺ، دون ذكر أن الآية نزلت في ذلك.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص١٢٥.

(٥) في (م): عند الحرب.

(٦) سنن أبي داود (٢٥٢٠)، وهو عند أحمد (٢٣٨٨).

ورَوى بَقِيُّ بنُ مَخْلَد عن جابر قال: لَقِيَني رسولُ الله ﷺ، فقال: «يا جابر، مالي أراك مُنكَّساً مُهْتَمّاً»؟ قلت: يا رسولَ الله، اسْتُشْهِد أبِي، وترك عِيالاً وعليه دَيْنٌ، فقال: «ألا أبَشِّرُك بما لَقِيَ اللهُ عزَّ وجلَّ به أباك»؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: «إنَّ اللهَ أحْيَا أباكَ وكلَّمه كِفاحاً، وما كلم أحداً[1] قطُّ إلا من وراء حجاب، فقال له: يا عبدي، تَمنَّ أُعْطِك[2]، قال: يا ربِّ، فرُدَّني إلى الدنيا فأُقْتَلَ فيك ثانيةً، فقال الربُّ تبارك وتعالى: إنه قد سبقَ مِني أنهم إليها لا يرجعون، قال: يا ربُّ، فأَبلِغْ مَنْ ورائي، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية. أخرجه ابن ماجه في سُنَنه، والتِّرمذِيُّ في جامعه، وقال: هذا حديثٌ حسن غريب[3].

وروى وكيع، عن سالم بن الأفْطَس، عن سعيد بن جبير: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ قال: لما أُصيبَ حمزةُ بنُ عبدِ المطَّلب ومُصْعَبُ بنُ عُمير ورأَوا ما رُزِقوا من الخير، قالوا: ليتَ إخوانَنا يَعلَمون ما أصابَنا من الخير كي يزدادوا في الجهاد رَغْبَةً، فقال الله تعالى: أنا أُبلِّغُهم عنكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

وقال أبو الضُّحى: نزلت هذه الآيةُ في أهل أُحدٍ خاصَّةً[5]، والحديثُ الأوَّلُ يقتضي صحةَ[6] هذا القول.

وقال بعضهم: نزلت في شهداء بَدْرٍ وكانوا أربعةَ عشرَ رجلاً؛ ثمانية من الأنصار، وستة من المهاجرين.[7]

وقيل: نزلت في شهداء بئرِ مَعُونة، وقصَّتُهم مشهورةٌ، ذكرها محمد بنُ إسحاق[8]

---

(١) في (م): أحد.

(٢) في النسخ: أعطيك، والمثبت من (م)، ومصادر الحديث.

(٣) سنن ابن ماجه (١٩٠)، (٢٨٠٠)، وسنن الترمذي (٣٠١٠)، وهو عند أحمد (١٤٨٨١) بنحوه مختصراً، وقوله: كفاحاً، أي: مواجهة، ليس بينهما حجاب ولا رسول. النهاية (كفح).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٨١٤ من طريق عطاء عن سعيد بن جبير به.

(٥) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٨٩٤)، وفي التفسير (٥٣٨)، وابن أبي حاتم ٣/ ٨١٢ .

(٦) في (خ) و(ظ): يقضي بصحة، والمثبت من (د) و (م).

(٧) تفسير البغوي ١/ ٣٦٩ .

(٨) نقلها عنه ابن هشام في السيرة ٢/ ١٨٣ ، وسلف الكلام عليها قريباً ص٢٦٨ .

وغيره.

وقال آخرون: إنَّ أولياءَ الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمةٌ أو سرورٌ[١] تحسَّروا، وقالوا: نحن في النِّعمة والسرور، وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا في القبور، فأنزل الله تعالى هذه الآيةَ تَنْفِيساً عنهم وإخباراً عن حال قتلاهم[٢].

قلت: وبالجملة؛ وإنْ كان يَحتملُ أنْ يكونَ النُّزولُ بسبب المجموع، فقد أخبرَ الله تعالى فيها عن الشُّهداء أنهم أحياءٌ في الجنة يُرزقون، ولا مَحالةَ أنهم ماتوا وأنَّ أجسادَهم في التراب، وأرواحَهم حيَّةٌ كأرواح سائرِ المؤمنين، وفُضِّلوا بالرزق في الجنَّة من وقت القَتْلِ حتى كأنَّ حياةَ الدنيا دائمةٌ لهم[٣].

وقد اختلف العلماءُ في هذا المعنى، فالذي عليه المعظمُ ما ذكرناه[٤]، وأنَّ حياةَ الشُّهداءِ محقَّقة. ثم منهم من يقول: تُردُّ إليهم الأرواحُ في قبورهم فيُنعَّمون، كما يحيا الكفار في قبورهم فيُعذَّبون.

وقال مجاهد[٥]: يُرزقون من ثَمَر الجنة، أي: يجدون ريحَها وليسوا فيها. وصار قومٌ إلى أنَّ هذا مجازٌ، والمعنى أنهم في حكم اللهِ مستحقُّون للتنعُّم في الجنة، وهو كما يقال: ما مات فلان، أي: ذِكْرُه حيٌّ، كما قيل:

مَـوْتُ الـتَّـقِـيِّ حـيـاةٌ لا فـنـاءَ لـهـا ... قَدْ مات قومٌ وهُمْ في الناس أحْيَاءُ[٦]

فالمعنى: أنهم يرزقون الثَّناءَ الجميل.

---

(١) في (د) و(م): وسرور، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لزاد المسير ١/ ٥٠١.

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٧٢، وزاد المسير ١/ ٥٠١.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٠.

(٤) في (م): هو ما ذكرناه.

(٥) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٥٠١.

(٦) أخرج أبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٠، والخطيب في تاريخ بغداد ١٣/ ٢٠٧ أن معروفاً الكرخيّ رُئي في المنام، فسئل: ما صنع الله بك، فأنشأ يقول، وذكر البيت، وفيه: لا نفاد، بدل: لا فناء، وأخرجه القزويني في تاريخ قزوين ٣/ ٥٧، و ٣/ ٣٨٣ عن سُويد بن سعيد الأنباري وسفيان الثوري، وفيه: لا انقطاع بدل: لا فناء.

وقال آخرون: أرواحُهم في أجوافِ طَيْرٍ خُضْرٍ، وأنهم يُرزقون في الجنة، ويأكلون ويتنعَّمون. وهذا هو الصحيحُ من الأقوال؛ لأن ما صحَّ به النقلُ فهو الواقع. وحديثُ ابنِ عباس نصٌّ يرفع الخلاف[١]، وكذلك حديثُ ابنِ مسعود خرَّجه مسلم.[٢] وقد أتينا على هذا المعنى مبيَّناً في كتاب «التَّذكِرة بأحوال الموتى وأمورِ الآخرة»[٣]. والحمد لله. وقد ذكرنا هناك كم الشُّهداء، وأنهم مختلفو الحال.

وأما مَنْ تأوَّلَ في الشهداء أنهم أحياءٌ بمعنى أنهم سيَحْيَوْن؛ فبعيدٌ يَرُدُّه القرآنُ والسُّنَّة؛ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ دليلٌ على حياتهم، وأنهم يُرزقون، ولا يُرزق إلا حيٌّ.

وقد قيل: إنه يُكتبُ لهم في كلِّ سَنَةٍ ثوابُ غزوة، ويُشرَكون في ثواب كلِّ جهادٍ كان بعدَهم إلى يوم القيامة؛ لأنهم سَنُّوا أمرَ الجهاد.

نَظِيرُه قولُه تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾ [المائدة: ٣٢] على ما يأتي بيانه هناك إنْ شاء الله تعالى.

وقيل: لأنَّ أرواحَهم تَركَع وتسجُد تحت العرشِ إلى يوم القيامةِ، كأرواح الأحياءِ المؤمنين الذين باتُوا على وُضُوء.

وقيل: لأنَّ الشَّهيدَ لا يَبْلَى في القبر، ولا تأكُلُه الأرض، وقد ذكرنا هذا المعنى في «التّذكِرة»[٤] وأنَّ الأرضَ لا تأكل الأنبياءَ والشهداءَ والعلماءَ والمؤذِّنين المحتَسِبين وحَمَلَةَ القرآن.

الثانية: إذا كان الشَّهيد حيّاً حُكماً فلا يُصلَّى عليه، كالحيِّ حِسّاً. وقد اختَلف العلماء في غسل الشُّهداءِ والصَّلاة عليهم؛ فذهب مالك والشافعيُّ وأبو حنيفة والثَّوْريُّ إلى غُسل جميعِ الشُّهداء والصلاةِ عليهم[٥]؛ إلاَّ قتيلَ المُعترَكِ في قتال العدوِّ

(١) سلف أول المسألة.

(٢) برقم (١٨٨٧).

(٣) ص١٥٤-١٥٩.

(٤) ص١٦٣-١٦٤.

(٥) قوله: والصلاة عليهم، من (م).

خاصَّة؛ لحديث جابر قال: قال النبيُّ ﷺ: «ادفنوهم في دمائهم»[(١)] يعني: يومَ أُحُد، ولم يُغسِّلْهم. رواه البخاري.[(٢)]

وروى أبو داود عن ابن عباس قال: أمرَ رسولُ اللهِ ﷺ بقتلى أُحُدٍ أنْ يُنزَعَ عنهم الحديدُ والجلودُ، وأنْ يُدْفَنُوا بِدمائهم وثيابهم[(٣)]. وبهذا قال أحمدُ، وإسحاقُ، والأوزاعيُّ، وداود بنُ عليّ، وجماعةُ فُقَهاءِ الأمصارِ، وأهلُ الحديثِ، وابن عُلَيَّة.

وقال سعيد بنُ المُسَيِّب والحَسَن: يُغسَّلون. قال أحدهما: إنما لم يُغسَّل[(٤)] شهداءُ أُحُدٍ لكثرتهم والشُّغلِ عن ذلك.

قال أبو عُمَر[(٥)]: ولم يقل بقول سعيدٍ والحسنِ هذا أحدٌ من فقهاء الأمصارِ إلا عُبيدَ الله بنَ الحسن العَنْبَريَّ، وليس ما ذكروا من الشُّغل عن غُسل شهداءِ أُحُدٍ علَّةً؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم كان له وليٌّ يشتَغلُ به، ويقومُ بأمره. والعلةُ في ذلك - والله أعلم - ما جاء في الحديث في دمائهم أنها تأتي يوم القيامة كريح المِسْك[(٦)]، فَبانَ أنَّ العلَّة ليست الشُّغلَ كما قال من قال ذلك[(٧)]، وليس لهذه المسألةِ مدخلٌ في القياس والنظر، وإنما هي مسألةُ اتِّباعٍ للأثر الذي نقله الكافَّة في قتلى أُحُدٍ لم يُغسَّلوا.

وقد احتجَّ بعضُ المتأخِّرين ممن ذهب مذهبَ الحسنِ بقوله عليه الصلاة والسلام في شهداء أُحُد: «أنا شهيدٌ على هؤلاء يومَ القيامة»[(٨)]. قال: وهذا يدلُّ على خصوصهم، وأنه لا يَشْرَكهم في ذلك غيرُهم.

قال أبو عمر: وهذا يشبه الشُّذوذ، والقولُ بترك غُسلِهم أولى؛ لثبوت ذلك عن

---

(١) في (د) و(م): بدمائهم، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٢) هو قطعة من حديث جابر ﷺ عند البخاري (١٣٤٣) (١٣٤٧)، وهو عند أحمد (١٤١٨٩) بنحوه.

(٣) سنن أبي داود (٣١٣٤)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (١٥١٥)، وهو عند أحمد (٢٢١٧).

(٤) في (د) نغسل، وفي (م): تغسل، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق للتمهيد ٢٤/ ٢٤٣.

(٥) في التمهيد ٢٤/ ٢٤٣ - ٢٤٤، وما قبله منه.

(٦) أخرجه أحمد (٩٠٨٧)، والبخاري (٢٨٠٣)، ومسلم (١٨٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) في (م): من قال في ذلك.

(٨) قطعة من حديث جابر ﷺ أخرجه البخاري (١٣٤٣) و (١٣٤٧).

النبيِّ ﷺ في قَتلى أُحدٍ وغيرِهم. ورَوى أبو داودَ عن جابر قال: رُميَ رجلٌ بسهم في صدره ـ أو في حلْقِه ـ فمات، فأُدرِجَ في ثيابه كما هو، قال: ونحن مع رسولِ الله ﷺ.(١)

الثالثة: وأمَّا الصَّلاةُ عليهم فاختَلف العلماءُ في ذلك أيضاً؛ فذهب مالكٌ واللَّيثُ والشافعيُّ وأحمدُ وداودُ إلى أنه لا يُصلَّى عليهم؛ لحديث جابر قال: كان النبيُّ ﷺ يجمع بين الرجلينِ من قتلى أُحُدٍ في ثوبٍ واحدٍ، ثم يقول: «أيُّهما أكثرُ أخْذاً للقرآن؟» فإذا أُشيرَ له إلى أحدِهما قدَّمَه في اللَّحد، وقال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء يومَ القيامة» وأَمر بدفنهم بدمائهم، ولم يُغسَّلوا، ولم يُصلّ عليهم.(٢)

وقال فقهاء الكوفة والبصرةِ والشَّام: يُصلَّى عليهم، ورَوَوْا آثاراً كثيرةً؛ أكثرُها مراسيلُ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى على حمزةَ وعلى سائرِ شهداءِ أُحُد.(٣)

الرابعة: وأجمع العلماء على أنَّ الشَّهيدَ إذا حُمل حَيّاً ولم يَمت في الْمعتَرَك، وعاش وأكَل، فإنه يُصلَّى عليه؛ كما قد صُنع بعمرَ ﷺ.(٤)

واختلفوا فيمن قُتل مظلوماً؛ كقتيل الخوارجِ وقُطّاعِ الطَّريق وشبهِ ذلك، فقال أبو حنيفة والثَّوريُّ: كلُّ من قُتل مظلوماً لم يُغسَّل، ولكنه يُصلَّى عليه وعلى كلِّ شهيد، وهو قولُ سائرِ أهلِ العِراق، ورَوَوْا من طُرق كثيرة صحاحٍ عن زيد بن صُوحان ـ وكان قُتل يومَ الجَمَل ـ: لا تَنزِعوا عنِّي ثوباً، ولا تَغسِلوا عني دَماً.(٥)

---

(١) التمهيد ٢٤/ ٢٤٤ ، والحديث في سنن أبي داود (٣١٣٣)، وعند أحمد (١٤٩٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٤٣) (١٣٤٧) من حديث جابر ﷺ، وسلف قطعة منه: « ادفنوهم في دمائهم» في المسألة قبلها.

(٣) التمهيد ٢٤/ ٢٤٤ ، وحديث الصلاة على حمزة وشهداء أحد أخرجه أبو داود في المراسيل (٤٢٧)، وابن أبي شيبة ٣/ ٣٠٤ ، والدارقطني ٢/ ٧٨ عن أبي مالك غزوان الغفاري مرسلاً، وأخرجه أيضاً أبو داود (٤٢٨)، ومن طريقه البيهقي ٤/ ١٢ عن الشعبي مرسلاً.

وروى أحمد (١٧٣٤٤)، والبخاري (١٣٤٤)، ومسلم (٢٢٩٦) عن عقبة بن عامر ﷺ أن النبي ﷺ خرج يوماً، فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف ...

(٤) التمهيد ٢٤/ ٢٤٤؛ والحديث أخرجه البيهقي ٤/ ١٦.

(٥) أخرجه عبد الرزاق (٦٦٤٠)، وابن أبي شيبة ١٢/ ٢٨٨ ، والخطيب في تاريخ بغداد ٨/ ٤٣٩ ، والبيهقي ٤/ ١٧. وزيد بن صوحان أبو سليمان ذكر الكلبي أنه صحب النبي ﷺ، وتعقبه ابن عبد البر، فقال: لا أعلم له صحبة، وإنما أدرك، وكان فاضلاً سيداً في قومه، جعله علي ﷺ يوم الجمل أميراً على عبد القيس. انظر الإصابة ٤/ ٨٨ - ٨٩ .

وثبت عن عمار بنِ ياسر أنه قال مثلَ قولِ زيد بن صُوحان[١]. وقُتل عمار بنُ ياسِر بِصفِّين، ولم يغسِّله عليّ.[٢]

وللشافعيِّ قولان:

أحدهما: يُغسَّل جميعُ[٣] الموتى إلا من قتله أهلُ الحرب، وهذا قولُ مالك. قال مالك: لا يُغسَّل من قتَلَه الكفار، ومات في المُعترك. وكلُّ مقتولٍ غيرِ قتيلِ المُعتَركِ ـ قتيلِ الكفار ـ فإنه يُغسّل ويُصلَّى عليه. وهذا قولُ أحمد بن حنبل ﷺ.

والقول الآخر للشافعيّ: لا يُغسَّل قتيلُ البُغاة.

وقول مالك أصحُّ؛ فإنَّ غُسْلَ الموتى قد ثبت بالإجماع ونَقْلِ الكافَّةِ، فواجبٌ غُسلُ كلِّ ميتٍ إلا من أخرجه إجماعٌ أو سُنَّةٌ ثابتة، وبالله التوفيق.[٤]

الخامسة: العدوُّ إذا صبَّح قوماً في منزلهم[٥]، ولم يَعلموا به، فقتَلَ منهم، فهل يكون حكمُه حكمَ قتيلِ المعتَرك، أو حكمَ سائرِ الموتى؟ وهذه مسألة[٦] نزلت عندنا بقُرطُبَةَ أعادها الله: أغَارَ العدوُّ ـ قصَمه الله ـ صَبيحَةَ الثَّالثِ من رَمضانَ المُعظَّمِ سنةَ سَبعٍ وعشرين وستِّ مئة والناسُ في أجْرانهم[٧] على غَفلةٍ، فقتَل وأسَر، وكان من جُملةِ من قُتل والدي رحمه الله؛ فسألتُ شيخَنا المقرئَ الأستاذَ أبا جعفر أحمدَ المعروفَ بأبي حجة[٨]، فقال: غَسِّلْه وصَلِّ عليه؛ فإنَّ أباك لم يُقتَل في المُعْتَرك بينَ

(١) أخرجه ابن سعد ٣/ ٢٦٨، وابن أبي شيبة ١٢/ ٢٨٨ ، وأورده البيهقي ٤/ ١٧ .

(٢) أخرجه ابن سعد ٣/ ٢٦٢، والخطيب في تاريخ بغداد ١/ ١٥٣. وعبارة التمهيد (والكلام منه): وصلى الله عليه علي ولم يغسّله.

(٣) في (د) و(م): كجميع، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق للتمهيد ٢٤/ ٢٤٥ .

(٤) التمهيد ٢٤/ ٢٤٤ - ٢٤٦ .

(٥) في (خ) و(ظ): موضعهم.

(٦) في (م): المسألة.

(٧) جمع جرين، وهو موضع تجفيف التمر، وهو له كالبيدر للحنطة، ويجمع على جُرُن. النهاية (جرن).

(٨) كذا في النسخ. وجاء في بغية الوعاة ١/ ٣٨٣ ، وشجرة النور ص١٨٢ : ابن أبي حجة، وفي إيضاح المكنون ١/ ٢٨٦ : ابن حجة، وهو أحمد بن محمد القيسي المقرئ النحوي المحدث، ولي القضاء والخطابة بإشبيلية، صنف تسديد اللسان في النحو، والجمع بين الصحيحين، مات مأسوراً سنة (٦٤٣ هـ) . انظر طبقات القراء ١/ ١٣٦ ، وبغية الوعاة ١/ ٣٨٣ .

الصَّفَّيْن، ثم سألتُ شيخَنا ربيعَ بنَ عبد الرحمن بنِ أحمدَ بنِ ربيع بن أُبيّ[1] فقال: إنَّ حكمَه حكمُ القتلى في المعترك، ثم سألتُ قاضيَ الجماعةِ أبا الحسن عليَّ بن قُطْرال[2] وحولَه جماعةٌ من الفقهاء، فقالوا: غَسِّلْه وكفِّنْه، وصلِّ عليه، ففعلت. ثم بعد ذلك وقَفتُ على المسألة في «التَّبصرة» لأبي الحسن اللَّخميِّ وغيرِها، ولو كان ذلك قبلَ ذلك ما غسَّلتُه، وكنت دفنتُه بدمه في ثيابه.

السادسة: هذه الآيةُ تدلُّ على عظيم ثوابِ القتلِ في سبيل اللهِ والشَّهادةِ فيه حتى إنه يُكفِّر الذنوب؛ كما قال ﷺ: «القتلُ في سبيل اللهِ يُكفِّر كلَّ شيءٍ إلا الدَّيْنَ[3]، كذلك قال لي جبريلُ عليه السلام آنفاً».

قال علماؤنا: ذِكْرُ الدَّيْنِ تنبيهٌ على ما في معناه من الحقوقِ المتعلِّقَة بالذِّمم، كالغَصْب وأخْذِ المالِ بالباطل، وقتلِ العَمْدِ، وجراحِه، وغيرِ ذلك من التَّبِعات، فإنَّ كلَّ هذا أوْلى بأن لا[4] يُغفَر بالجهاد من الدَّيْن، فإنه أشدّ، والقِصاصُ في هذا كلِّه بالحسنات والسيئاتِ حسبما وردت به السُّنَّةُ الثابتة:

روى عبدالله بنُ أُنَيس قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «يَحشُر اللهُ العبادَ ـ أو قال: الناسَ، شكَّ همّام[5]، وأوْمَأ بيده إلى الشَّام ـ عُراةً غُرْلاً بُهْماً». قلنا: ما بُهْماً؟[6] قال: «ليس معهم شيءٌ، فيناديهم بصوتٍ يسمَعُه مَن قَرُب ومَن بَعُد: أنا المَلِكُ، أنا الدَّيَّانُ، لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنَّةِ أن يدخلَ الجنةَ وأحدٌ من أهل النار

(١) هو أبو سليمان الأشعري، قاضي قرطبة، كان رجلاً صالحاً عدلاً في أحكامه، له مشاركة في علم الحديث، مات بإشبيلية سنة (٦٣٣هـ). تكملة الصلة ١/ ٣٢٣.

(٢) هو علي بن عبدالله بن محمد الأنصاري القرطبيُّ، يعرف بابن قُطرال الفقيه، سمع ابن أبي زمنين، وأخذَ عنه ابن الأبَّار، امتُحن بالأسر وهو قاضٍ بأُبَّذَة إثر وقيعة العقاب، ثم افتُكَّ، وقُدم للقضاء بمواضع نبيهة، مات بمراكش سنة (٦٥١هـ). الإحاطة بأخبار غرناطة ٤/ ١٩٠ - ١٩١، والسير ٢٣/ ٣٠٤.

(٣) أخرجه أحمد (٧٠٥١)، ومسلم (١٨٨٦) ( ) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما. وأخرجه أيضاً (١٨٨٥) (١١٧) من حديث أبي قتادة ﷺ.

(٤) في (د) و(خ) و(م): ألا، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمفهم ٣/ ٧١٣، والكلام منه.

(٥) هو همام بن يحيى أحد رجال سند هذا الحديث.

(٦) في (د) و(م): بهم، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لمصادر الحديث.

يَطلُبه بمَظلِمة، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النارِ أنْ يدخلَ النارَ وأحدٌ من أهل الجنةِ يَطلُبه بمَظلِمة، حتَّى اللَّطْمة». قال: قلنا: كيف وإنما نأتي اللهَ حفاةً عُراةً غُرلاً؟ قال: «بالحسنات والسَّيئات». أخرجه الحارث بنُ أبي أُسامة.(١)

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أتدرونَ مَنِ المُفْلِسُ؟». قالوا: المفلِسُ فينا من لا دِرْهَمَ له ولا متاعَ، فقال: «إنَّ المُفْلِسَ من أمتي من يأتي يومَ القيامةِ بصلاة وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شَتَم هذا، وقَذَفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضرَبَ هذا، فيُعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإنْ فَنِيَتْ حسناتُه قَبْلَ انقضاءِ(٢) ما عليه؛ أُخِذ من خطاياهم، فطُرِحت عليه، ثم طُرِح في النار».(٣)

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده؛ لو أنَّ رجلاً قُتل في سبيل اللهِ، ثم أُحْيِيَ، ثم قُتل، ثم أُحْيِيَ، ثم قُتِلَ وعليه دَيْنٌ، ما دخلَ الجنةَ حتى يُقْضى عنه».(٤)

وروى أبو هريرة قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «نفسُ المؤمنِ معلَّقةٌ ما كان عليه دَيْن»(٥). وقال أحمد بنُ زُهَير: سُئل يحيى بنُ مَعِين عن هذا الحديثِ، فقال: هو صحيحٌ.

فإن قيل: فهذا يدلُّ على أنَّ بعضَ الشهداءِ لا يدخلون الجنةَ من حينِ القتلِ، ولا تكون أرواحُهُم في جَوف طيرٍ كما ذكرتُم، ولا يكونون في قبورهم، فأيْنَ يكونون؟ قلنا: قد وَرَدَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أرواحُ الشهداءِ على نهرٍ بباب الجنةِ يقال له: بَارِقٌ يخرجُ عليهم رزقُهم من الجنة بُكْرَةً وعَشِيًّا»(٦). فلعلَّهم هؤلاء. والله أعلم. ولهذا

---

(١) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (٤٤)، وهو عند أحمد (١٦٠٤٢)، وعلَّق البخاري طرفاً منه قبل الحديث (٧٤٨١)، وحسنه الحافظ في الفتح ١/ ١٧٤ ، وقوله: غُرْلاً؛ مِن الغُرْل جمع الأغرل، وهو الأقلف، والغُرلة: القلفة. النهاية (غرل).

(٢) في (م): أن يقضى.

(٣) صحيح مسلم (٢٥٨١)، وهو عند أحمد (٨٠٢٩) .

(٤) أخرجه النسائي في المجتبى ٧/ ٣١٤-٣١٥ ، والكبرى (٦٢٣٧) من حديث محمد بن جحش ﷺ.

(٥) سلف ٤/ ٤٨٠ .

(٦) أخرجه أحمد (٢٣٩٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وجوَّد إسناده الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية (١٧٠) من آل عمران.

قال الإمام أبو محمد بنُ عطية[١]: وهؤلاء طبقاتٌ وأحوالٌ مختلفةٌ يجمعُها أنهم: «يُرْزَقُونَ».

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بنُ يزيدَ بنِ ماجه القزوينيُّ في «سننه» عن سُلَيم بنِ عامر قال: سمعت أبا أُمامةَ يقول: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «شهيدُ البحرِ مثلُ شهيدَي[٢] البرِّ، والمائدُ في البحر كالمُتَشَحِّط في دَمِه في البرِّ، وما بين المَوْجَتين كقاطع الدُّنيا في طاعة الله، وإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وكَّلَ مَلَكَ الموتِ بقبض الأرواح إلا شهيدَ[٣] البحرِ، فإنه سبحانه يتولَّى قَبْضَ أرواحِهم، ويَغْفِرُ لشهيد البرِّ الذنوبَ كلَّها إلا الدَّيْنَ، ويَغفرُ لشهيد البحرِ الذنوبَ كلَّها والدَّيْنَ».[٤]

السابعة: الدَّيْن الذي يُحْبَسُ به صاحبُه عن الجنة ـ والله أعلم ـ هو الذي قد ترك له وفاءً ولم يُوصِ به. أو قَدَر على الأداء فلم يؤدِّه، أو ادَّانَه في سَرَفٍ أو في سَفَهٍ، ومات ولم يُوَفِّه.

وأما من ادَّانَ في حقٍّ واجبٍ لِفاقةٍ وعُسْرٍ، ومات ولم يَتْرُك وفاءً، فإنَّ الله لا يحبِسُه عن الجنة إن شاء الله؛ لأنَّ على السلطان فرضاً أن يؤدِّيَ عنه دينَه، إما من جملة الصدقات، أو من سهم الغارمين، أو من الفَيْءِ الراجع على المسلمين؛ قال ﷺ: «مَنْ تركَ دَيْناً أو ضَياعاً فعلى الله ورسولِه، ومَنْ تركَ مالاً فلورثته».[٥] وقد زدنا هذا البابَ بياناً في كتاب «التذكرة»[٦]، والحمد لله.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فيه حذف مضاف، تقديرُه: عند كرامةِ ربِّهم. و «عِند» هنا تقتضي غايةَ القُرْب، فهي كـ: «لدى»، ولذلك لم تصغَّر فيقال:

---

(١) في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٠.

(٢) في النسخ: شهيد، والمثبت من (م)، وسنن ابن ماجه.

(٣) في (د) و(م): شهداء، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لسنن ابن ماجه.

(٤) سنن ابن ماجه (٢٧٧٨) ، وضعَّفه البوصيري في الزوائد ٣/ ١٥٩.

(٥) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٧٨٦١) و(٧٨٩٩)، والبخاري (٢٢٩٨) و(٢٣٩٨)، ومسلم (١٦١٩) مختصراً ومطولاً، وأخرجه أيضاً أحمد (١٣٢٥١) من حديث أنس ﷺ.

(٦) ص١٥٦-١٥٧.

عُنَيد؛ قاله سيبويه[١]. فهذه عِنْدِيَّةُ الكرامةِ، لا عِنْدِيةُ المسافةِ والقُرْب.

و«يرزقون»: هو الرِّزقُ المعروفُ في العادات. ومن قال: هي حياةُ الذِّكْرِ، قال: يرزقون الثناءَ الجميل. والأَوْلى[٢] الحقيقة.

وقد قيل: إنَّ الأرواحَ تُدرِك في تلك الحالِ التي يسرحون فيها من روائح الجنةِ وطِيبها ونعيمِها وسرورِها ما يَليق بالأرواح؛ مما تَرتزق وتَنتعش به، وأما اللَّذاتُ الجسمانيَّةُ؛ فإذا أُعيدت تلك الأرواحُ إلى أجسادها استَوْفت من النعيم جميعَ ما أعدَّ الله لها[٣]. وهذا قولٌ حسن، وإن كان فيه نوعٌ من المجاز، فهو الموافقُ لما اخترناه، والموَفق الإله.

و﴿فَرِحِينَ﴾ نصب في موضع الحالِ من المضمر في «يُرْزَقُونَ». ويجوز في الكلام «فَرِحُون» على النعت لـ «أحياء». وهو من الفرح بمعنى السرور، والفضْلُ في هذه الآيةِ هو النَّعيمُ المذكور.[٤]

وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «فَارِحِين» بالألف[٥]، وهما لغتان، كالفَرِه، والفارِه، والحَذِر والحاذِر، والطَّمِع والطَّامِع، والبَخِل والباخِل. قال النحاس[٦]: ويجوز في غير القرآنِ رَفعُه، يكون نعتاً لـ «أحياء».

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ المعنى: لم يلحقوا بهم في الفضل، وإن كان لهم فضلٌ. وأصلُه من البَشَرة؛ لأنَّ الإنسانَ إذا فَرِح ظهرَ أثر السُّرورِ في وجهه.[٧]

وقال السُّدّي: يؤتى الشَّهيدُ بِكتابٍ فيه ذكرُ مَن يَقْدَمُ عليه من إخوانه، فيستَبْشِرُ كما يستبشرُ أهلُ الغائبِ بقُدومِه في الدُّنيا.

(١) الكتاب ٣/ ٤٨٠ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤١ ، وعنه نقل المصنف.

(٢) في (خ) و(د) و(م): الأول، والمثبت من (ظ).

(٣) المفهم٣/ ٧١٥ .

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٤١.

(٥) لم نقف على من ذكر هذه القراءة، وذكرها الشوكاني في فتح القدير ١/ ٣٩٩ .

(٦) في إعراب القرآن ١/ ٤١٩ ، وسلف ذكر ذلك.

(٧) ينظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٨٩ ، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٥٠٨ .

وقال قَتادةُ وابنُ جُرَيْج والرَّبيعُ وغيرُهم: استبشارُهم بأنهم يقولون: إخوانُنا الذين تركنا خلْفَنا في الدنيا يقاتلون في سبيل اللهِ مع نبيِّهم، فيُستشهدون، فينالون من الكرامة مثلَ ما نحن فيه؛ فيُسرُّون ويفرحون لهم بذلك.[١]

وقيل: إنَّ الإشارةَ بالاستبشار للذين لم يَلحَقوا بهم إلى جميع المؤمنين وإن لم يُقتلوا، ولكنهم لمَّا عاينوا ثوابَ اللهِ؛ وقع اليقينُ بأنَّ دِينَ الإسلامِ هو الحقُّ الذي يُثيبُ الله عليه؛ فهم فَرِحون لأنفسهم بما آتاهم الله من فضله، مستبشرون للمؤمنين بأنْ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. ذهب إلى هذا المعنى الزجَّاج[٢] وابن فُورَك.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

أي: بجَنَّةٍ من الله، ويقال: بمغفرةٍ من الله. ﴿وَفَضْلٍ﴾ هذا لزيادة البيان. والفضلُ داخلٌ في النعمة، وفيه دليلٌ على اتِّساعها، وأنها ليست كنِعَم الدنيا.

وقيل: جاء الفضلُ بعد النعمةِ على وجه التأكيد[٣]؛ روى التِّرمذيُّ عن المِقْدام بنِ مَعْدِ يكرِب قال: قال رسول الله ﷺ: «للشَّهيد عند اللهِ ستُّ خِصالٍ ـ كذا في الترمذيّ وابن ماجة: «سِتٌّ»، وهي في العدد سبعٌ ـ[٤]: يغفر له في أوَّل دُفعة،[٥] ويُرى مَقعدَه من الجنة، ويُجارُ من عذاب القبرِ، ويَأْمن من الفزع الأكبر، ويُوضَعُ على رأسه تاجُ الوَقار؛ الياقوتةُ منها خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، ويُزوَّجُ اثنتين وسبعين زوجةً من الحور العِين، ويُشَفَّعُ في سبعين من أقاربه» قال: هذا حديثٌ حسن صحيح غريب.[٦] وهذا تفسيرٌ للنِّعمة والفضل. والآثارُ في هذا المعنى كثيرة.

---

(١) أخرج الأقوال الطبري ٦/ ٢٣٧ - ٢٣٨ . وينظر النكت والعيون ١/ ٤٣٧ .

(٢) في معاني القرآن ١/ ٤٨٩ .

(٣) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٣١٥ .

(٤) قال السندي في حاشية سنن ابن ماجه ٢/ ١٨٤ : المذكورات سبع إلا أن يجعل الإجارة والأمن من الفزع واحدة.

(٥) قال السندي: قوله: دُفعة، ضبطناه في جامع الترمذي بضم الدال، ولذلك قال أهل اللغة: الدُّفعة بالضم ما دفع من إناء أو سقاء فانصبَّ بمرة، وأما الدَّفعة بالفتح، فهي المرة الواحدة من الدفع والإزالة بقوة، فلا يصلح هنا.

(٦) سنن الترمذي (١٦٦٣)، وسنن ابن ماجه (٢٧٩٩)، وهو عند أحمد (١٧١٨٢)، ورواه أحمد أيضاً (١٧١٨٣) من حديث عبادة بن الصامت، وحسن إسناده المنذري في الترغيب ٢/ ٢٩٤ .

ورُوي عن مجاهد أنه قال: السُّيوف مفاتيحُ الجنة.(١)

ورُوي عن رسول اللهِ ﷺ أنه قال: «أكرمَ الله تعالى الشهداءَ بخمس كراماتٍ؛ لم يُكرِمْ بها أحداً من الأنبياء ولا أنا: أحدُها: أنَّ جميعَ الأنبياءِ قبضَ أرواحَهم مَلَكُ الموت، وهو الذي سيَقبِضُ رُوحي، وأما الشُّهداءُ فاللهُ هو الذي يقبِضُ أرواحَهم بقدرته كيف يشاء، ولا يُسلَّط على أرواحهم مَلَكُ الموت، والثاني: أنّ جميعَ الأنبياءِ قد غُسِّلوا بعد الموتِ، وأنا أُغَسَّل بعد الموت، والشهداءُ لا يُغَسَّلُون ولا حاجةَ لهم إلى ماء الدُّنيا، والثالثُ: أنَّ جميعَ الأنبياءِ قد كُفِّنوا وأنا أُكَفَّن، والشهداءُ لا يُكَفَّنون بل يُدفنون في ثيابهم، والرابع: أنَّ الأنبياءَ لما ماتوا سُمُّوا أمواتاً، وإذا مِتُّ يقال: قد مات، والشُّهداءُ لا يُسَمَّوْن مَوْتى، والخامسُ: أنَّ الأنبياءَ تُعطى لهم الشفاعةُ يومَ القيامة وشفاعتي أيضاً يومَ القيامة، وأما الشهداءُ فإنهم يشفعون في كلِّ يومٍ فيمن يشفعون».(٢)

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ قرأه الكِسائيُّ بكسر الألف، والباقون بالنصب؛ فمن قرأ بالنصب فمعناه: يستبشرون بنعمة من الله، ويستبشرون بأنَّ الله لا يُضيع أجرَ المؤمنين. ومن قرأ بالكسر فعلى الابتداء.(٣) ودليله قراءةُ ابنِ مسعود: «واللهُ لا يضيع أجر المؤمِنين».(٤)

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع رفعٍ على الابتداء، وخبره: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾(٥).

(١) أورده أبو الليث في تفسيره ١/ ٣١٥ وأخرج الطبراني في الكبير ٢٢/ ٢٤٦ عن مجاهد عن يزيد بن شجرة قال: أُنبئت أن السيوف مفاتيح الجنة.

(٢) لم نقف على من أخرجه وذكره أبو الليث في تفسيره ١/ ٣١٥ - ٣١٦ ، وقال: أروي هذا الحديث بمعناه لا بلفظه.

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٣١٦ ، وانظر القراءة في السبعة ص٢١٩ ، والتيسير ص٩١ ، والحجة ٣/ ٩٨ .

(٤) ذكر القراءة الطبري ٦/ ٢٣٩ ، وابن أبي داود في المصاحف ١/ ٣١١ ، وابن زنجلة في حجة القراءات ص١٨١، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٤١ .

(٥) كذا قال المصنف رحمه الله، وكذا قال مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ١٧٨ - ١٧٩ ، وتعقبه السمين =

ويجوز أنْ يكونَ في موضع خفض، بدل من المؤمنين، أو من «الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا».

﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ بمعنى أجابوا، والسين والتاءُ زائدتان. ومنه قوله:

فلم يَسْتَجِبْهُ عند ذاك مُجِيبُ[١]

وفي الصحيحين عن عروةَ بنِ الزبير قال: قالت لي عائشةُ رضي الله عنها: كان أبوك[٢] من الذين استجابوا لله والرسولِ من بعد ما أصابهم القَرْح. لفظ مسلم[٣].

وعنه عن عائشة: يا ابنَ أختي، كان أبواك ـ تعني الزبيرَ وأبا بكر ـ من الذين استجابوا لله والرسولِ من بعد ما أصابهم القَرْح.

وقالت: لما انصرف المشركون من أُحُد، وأصابَ النبيَّ ﷺ وأصحابَه ما أصابهم، خاف أن يرجعوا، فقال: «من يَنتدبُ لهؤلاء حتى يعلموا أنَّ بنا قوَّةً؟» قال: فانتَدَب أبو بكر والزُّبير في سبعين؛ فخرجوا في آثار القوم، فسمعوا بهم، وانصرفوا بنعمةٍ من الله وفضل[٤].

وأشارت عائشةُ رضي الله عنها إلى ما جرى في غزوة حَمْراء الأسد، وهي على نحو ثمانيةِ أميالٍ من المدينة، وذلك أنه لما كان في يوم الأحد، وهو الثاني من يوم أُحُد، نادى رسولُ الله ﷺ في الناس باتّباع المشركين، وقال: «لا يخرجْ معنا إلا من شهدها بالأمس»[٥]، فنهض معه مئتا رجلٍ من المؤمنين ـ في البخاري[٦]: فقال: «من يذهبُ في إثرهم؟»، فانتدب منهم سبعون رجلاً. قال: كان فيهم أبو بكر والزبير على

= الحلبي في الدر المصون ٣/ ٤٨٧، فقال: وهذا غلط؛ لأن هذا ليس بمفيد البتة، بل «من بعد» متعلق باستجابوا. ا هـ. يعني أن الخبر: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. وينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٩.

(١) قائله كعب بن سعد الغنوي، والبيت في تأويل مشكل القرآن ص١٧٧، وأمالي القالي ٢/ ١٥١، وأمالي ابن الشجري ١/ ٩٥، والخزانة ١٠/ ٤٣٦، وصدره: وداعٍ دعا يا من يجيب إلى النَّدى.

(٢) كذا في النسخ، وتلخيص مسلم لأبي العباس القرطبي وشرحه المفهم ٦/ ٢٩١، وأما لفظ مسلم: كان أبواك.

(٣) صحيح البخاري (٤٠٧٧)، وصحيح مسلم (٢٤١٨): (٥٢) وفيهما: كان أبواك.

(٤) انظر تفسير الطبري ٦/ ٢٤١ - ٢٤٢، وأسباب النزول للواحدي ص١٢٦-١٢٧.

(٥) المفهم ٦/ ٢٩١ - ٢٩٢، وانظر سيرة ابن هشام ٢/ ١٠١.

(٦) هو حديث البخاري (٤٠٧٧) المذكور آنفاً.

ما تقدَّم ـ حتى بلغ حمراءَ الأسد، مُرْهِباً للعدوّ؛ فرُبَّما كان فيهم المُثْقَلُ بالجراح، لا يستطيع المشيَ، ولا يجد مركُوباً، فرُبَّما يُحمل على الأعناق؛ وكلُّ ذلك امتثالٌ لأمر رسولِ الله ﷺ، ورغبةٌ في الجهاد.(١)

وقيل: إنَّ الآيةَ نزلت في رجلين من بني عبدِ الأشهَلِ؛ كانا مُثْخَنَين بالجراح، فتوكّأ(٢) أحدُهما على صاحبه، وخرجا مع النبيِّ ﷺ(٣)؛ فلما وصلوا حمراءَ الأسد، لقيَهم نُعيم بنُ مسعود، فأخبرهم أنَّ أبا سفيان بنَ حرب ومن معه من قريشٍ قد جَمَعُوا جُموعَهم، وأجمعوا رأيَهم على أن يرجعوا(٤) إلى المدينة، فيستأصلوا أهلَها؛ فقالوا ما أخبرنا الله عنهم: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

وبينا قريشٌ قد أجمعوا على ذلك؛ إذ جاءهم مَعْبدٌ الخُزَاعيُّ، وكانت خُزاعةُ حُلفاءَ النبيِّ ﷺ وعَيْبَةَ نُصْحِه(٥)، وكان قد رأى حالَ أصحابِ النبيِّ ﷺ وما هم عليه؛ ولمَّا رأى عزمَ قريشٍ على الرجوع ليستأصلوا أهلَ المدينةِ، احتمله خوفُ ذلك، وخالِصُ نصحِه للنبيِّ ﷺ وأصحابه على أنْ خَوَّفَ قريشاً بأنْ قال لهم: قد تركت محمداً وأصحابه بحمراء الأسدِ في جيشٍ عظيم، قد اجتمع له من كان تخلَّف عنه، وهم قد تحرَّقوا عليكم، [وكأنهم قد أدركوكم]، فالنَّجاءَ النَّجاء!(٦) فإني أنهاك عن ذلك(٧)، فواللهِ لقد حملني ما رأيتُ أنْ قلتُ فيه أبياتاً من الشِّعر. قال: وما قلتَ؟ قال: قلت:

كادت تُهَدُّ من الأصوات راحِلَتي ... إذ سالت الأرضُ بالجُرْد الأبابيلِ(٨)

---

(١) ينظر المفهم ٦/ ٢٩٢ .

(٢) في (م): يتوكأ.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠١ ، وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٠ - ٢٤١ ، ودلائل البيهقي ٣/ ٣١٤ ، وليس عندهم أن الآية نزلت فيهما.

(٤) في (م): يأتوا.

(٥) قوله: عَيْبة نُصحِه، أي: موضع سرِّه، القاموس (عيب).

(٦) المفهم ٦/ ٢٩٢، وما بين حاصرتين منه.

(٧) هو من كلام معبد الجهني يخاطب أبا سفيان بنَ حرب، وانظر سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٢ .

(٨) قوله: الجُرد جمع أجرد، وهو القصير الشعر من الخيل، وقيل: الخيل العتاق. ينظر الإملاء المختصر في شرح غريب السِّير لأبي ذر الخشني ٢/ ١١٨ ، واللسان (جرد). والأبابيل: الجماعات المتفرقة. =

تُـرْدِي بِـأُسْـدٍ كِـرامٍ لا تَـنـابِـلَـةٍ عِـنـد الـلِّـقـاء ولا مِـيـلٍ مَـعـازِيـلِ[١]
فَـظَـلْـتُ عَـدْواً أظُـنُّ الأرضَ مـائِـلَـةً لـمَّـا سَـمَـوْا بـرئـيـسٍ غـيـرِ مَـخْـذُولِ
فقلتُ: وَيْلَ ابنِ حَرْبٍ من لقائِكُمُ إذا تَغَطْمَطَتِ[٢] البَطْحاءُ بالخَيْلِ[٣]
إنـي نـذيـرٌ لأهـل الـبَـسْـلِ ضـاحـيـةً لـكـلِّ ذي إرْبـةٍ مـنـهـم ومـعـقـولِ[٤]
من جيش أحْمَدَ لا وَخْشٌ[٥] تَناتلة[٦] وليس يُوصَفُ ما أنذرتُ بالقِيلِ[٧]

قال: فَثَنى ذلك أبا سُفيانَ ومن معه، وقذَف الله في قلوبهم الرُّعبَ، ورجعوا إلى مكةَ خائفين مسرعين، ورجع النبيُّ ﷺ في أصحابه إلى المدينة منصوراً، كما قال الله تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾[٨]، أي: قتالٌ ورُعْب.

واستأذن جابر بنُ عبدالله إلى النبيِّ ﷺ في الخروج معه، فأذن له. وأخبرهم تعالى أنَّ الأجرَ العظيمَ قد تَحصَّل لهم بهذه القَفْلة. وقال رسول الله ﷺ: «إنها غَزْوة». هذا تفسيرُ الجمهور لهذه الآية.[٩]

= ينظر اللسان والقاموس (أبل).

(١) قوله: تُردي، أي: ترجم الأرضَ بحوافرها، اللسان (ردى). وتنابلة: قصار، ومِيل جمع أَمْيَل، وهو الذي لا رمح معه، وقيل: الذي لا يثبت على السَّرج. الإملاء المختصر ٢/ ١١٨ .

(٢) قوله: تغطمطت أي: اهتزت وارتجَّت. الإملاء المختصر ٢/ ١١٨ .

(٣) في (خ) والسيرة ٢/ ١٠٣ وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٧ : بالجيل، والمثبت من (د) و(ظ) و(م). قال السهيلي في الروض الأنف: ٣/ ١٨٠ : قوله: بالخيل: جعل الرِّدف حرفَ لين، والأبيات كلها مردفة الرويّ بحرف مد ولين، وهذا هو السِّناد.

(٤) البَسْلُ: الحرام، وأراد بأهل البَسْل قريشاً، لأنهم أهل مكة، ومكة حرام. وضاحية: بارزة، وإربة: الإملاء المختصر ٢/ ١١٨ .

(٥) في النسخ: وحش، والمثبت من (م)، ومصادر التخريج، والوخش: رذالة الناس وأخسَّاؤهم. اللسان (وخش).

(٦) في (م): قَنابلُه، وهو جمع قَنْبَلَة، وهي الطائفة من الناس ومن الخيل. القاموس (قنبل)، وفي (د): ينائله، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو من تَنْتَل الرجل إذا تقذَّر بعد تنظيف. اللسان (تنتل). ووقع في سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٣ ، وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٧ : تنابلة.

(٧) وردت هذه الأبيات في السيرة النبوية ٢/ ١٠٣ ، وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٧ ، والروض الأُنُف ٣/ ١٧٤ .

(٨) المفهم ٦/ ٢٩١ - ٢٩٢ ، وينظر السيرة النبوية ٢/ ١٠٢ - ١٠٣ .وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٦ - ٢٤٨ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٧٣ - ٣٧٤ .

(٩) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٢ ، وينظر السيرة النبوية ٢/ ١٠١ ، وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٠ .

وشذَّ مجاهد وعِكرمةُ رحمهما الله تعالى فقالا[١]: إنَّ هذه الآيةَ من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ إنما نزلت في خروج النَّبيِّ ﷺ إلى بَدْرِ الصُّغرى. وذلك أنه خرج لميعاد أبي سفيان في أُحُد، إذ قال: مَوْعِدُنا بَدْرٌ من العام المُقبِل. فقال النبيُّ ﷺ: «قولوا: نعم». فخرج النبيُّ ﷺ قِبَل بَدْرٍ، وكان بها سُوقٌ عظيم، فأعطى رسولُ الله ﷺ أصحابَه دراهِم، وقَرُب من بَدْرٍ، فجاءه نُعيم بنُ مسعود الأشجَعِيُّ، فأخبره أنَّ قريشاً قد اجتمعت، وأقبلت لحربه هي ومن انضاف إليها، فأشفق المسلمون من ذلك، لكنهم قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فصَمَّموا حتى أتَوا بدراً، فلم يجدوا أحداً، ووجدوا السُّوق، فاشتَرَوْا بدراهمهم أُدْماً وتجارة، وانقلبوا ولم يَلقَوا كَيْداً، ورَبِحُوا في تجارتهم، فذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾، أي: وفضلٍ في تلك التجارات[٢]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾.

واختلفوا[٣] في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾، فقال مُجاهد ومُقاتِلٌ وعِكرمةُ والكَلْبيّ: هو نُعيم بنُ مسعود الأشجعيُّ، واللَّفظ عامٌّ ومعناه خاصٌّ، كقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ٥٤]، يعني محمداً ﷺ.[٤]

السُّدِّيّ: هو أعرابيٌّ جُعِل له جُعْلٌ على ذلك.[٥]

وقال ابن إسحاقَ وجماعةٌ: يريد بالناس رَكْبَ عبدِ القيس، مرُّوا بأبي سفيانَ،

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٢٥٠ - ٢٥١، وتفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٨١٨ - ٨١٩.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٣، وينظر تفسير البغوي ١/ ٣٧٤، والوسيط ١/ ٥٢٢.

(٣) في (د): اختلفوا، وفي (م): اختلف، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٧٥، وينظر تفسير أبي الليث ١/ ٣١٦.

(٥) في الكلام اختصار، وتفصيله ـ كما في تفسير الطبري ٦/ ٢٤٨ - ٢٤٩ ـ أن أبا سفيانَ وأصحابَه جعلوا له جُعْلاً، وقالوا له: إن لقيت محمداً وأصحابه فأخبرهم أنَّا قد جمعنا لهم، فأخبر الله تعالى رسوله ﷺ، فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد، فلقوا الأعرابي في الطريق، فأخبرهم الخبر، فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل ...

فدسَّهم إلى المسلمين ليثبِّطوهم.(١)

وقيل: الناسُ هنا المنافقون؛ قال السُّدِّيّ: لما تجهَّز النبيُّ ﷺ وأصحابُه للمسير إلى بَدْرٍ الصغرى لميعاد أبي سفيان، أتاهم المنافقون، وقالوا: نحن أصحابُكم الذين نهيناكم عن الخروج إليهم وعصيتُمونا، وقد قاتلوكم في دياركم وظَفِرُوا؛ فإنْ أتيتُموهم في ديارهم فلا يرجعُ منكم أحدٌ، فقالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.(٢)

وقال أبو مَعْشر: دخل ناسٌ من هُذيل من أهل تِهامةَ المدينةَ، فسألهم أصحابُ رسولِ الله ﷺ عن أبي سفيانَ، فقالوا: قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ جموعاً كثيرة، فَاخْشَوْهُمْ، أي: فخافوهم واحذروهم؛ فإنه لا طاقةَ لكم بهم(٣).

فالناسُ على هذه الأقوالِ على بابه من الجمع. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾، أي: فزادهم قولُ الناسِ إيماناً، أي: تصديقاً ويقيناً في دينهم، وإقامةً على نُصرته(٤)، وقوَّةً وجَراءةً واستعداداً. فزيادةُ الإيمانِ على هذا هي في الأعمال.

وقد اختلف العلماء في زيادة الإيمانِ ونقصانِه على أقوال. والعقيدةُ في هذا على أنَّ نَفْسَ الإيمانِ الذي هو تاجٌ واحدٌ، وتصديقٌ واحدٌ بشيءٍ مّا، إنما هو معنًى فَرْدٌ، لا يدخل معه زيادةٌ إذا حصل. ولا يبقى منه شيءٌ إذا زال؛ فلم يبق إلا أنْ تكون الزيادةُ والنقصانُ في متعلقاته دون ذاتِه.

فذهب جمعٌ من العلماء إلى أنه يزيد وينقص من حيث الأعمالُ الصادرةُ عنه، لا سيما أنَّ كثيراً من العلماء يوقعون اسمَ الإيمانِ على الطاعات(٥)؛ لقوله ﷺ: «الإيمان بضعٌ وسبعون باباً، فأعلاها قولُ: لا إله إلا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق».

---

(١) السيرة النبوية ١/ ١٠٣، وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٨.

(٢) تفسير الرازي ٩/ ١٠٠، وينظر الوسيط ١/ ٥٢٢.

(٣) أورده ابن حجر في العجاب ٢/ ٧٩٤، ونسبه للثعلبي.

(٤) في (م): نصرتهم.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٢.

أخرجه الترمذيّ، وزاد مسلم: «والحياءُ شُعْبَةٌ من الإيمان»[١]. وفي حديث عليٍّ ﷺ: إنَّ الإيمانَ يبدو[٢] لُمْظَةً بيضاءَ في القلب، كلما ازداد الإيمانُ ازدادت اللُّمْظَة[٣]، وقولُه: «لُمظة» قال الأصمعيّ: اللُّمظةُ مثلُ النُّكْتةِ ونحوِها من البياض؛ ومنه قيل: فرسٌ ألْمَظ، إذا كان بجَحْفَلَتِه شيءٌ من بياض. والمحدّثون يقولون: «لَمظة» بالفتح. وأما كلامُ العربِ فبالضم، مثلُ شُبهة ودُهمة وحُمرة[٤].

وفيه حُجّةٌ على من أنكر أنْ يكونَ الإيمانُ يزيد وينقص، ألا تراه يقول: كلما ازداد الإيمانُ ازدادت اللُّمظةُ، حتى يبيضَّ القلبُ كلُّه. وكذلك النفاقُ؛ يبدو لُمْظَةً سوداءَ في القلب، كلما ازداد النفاقُ اسودَّ، حتى[٥] يسودَّ القلب كلُّه.

ومنهم من قال: إنَّ الإيمانَ عَرَضٌ، وهو لا يَثْبتُ زمانين؛ فهو للنبيِّ ﷺ وللصُّلحاء متعاقِب، فيزيد باعتبار توالي أمثاله على قلب المؤمن، وباعتبار دوامِ حضوره، وينقص بتوالي الغَفَلاتِ على قلب المؤمن[٦]. أشار إلى هذا أبو المعالي[٧]. وهذا المعنى موجودٌ في حديث الشفاعة، حديثِ أبي سعيد الخُدْرِيِّ أخرجه مسلم[٨]. وفيه: «فيقول المؤمنون: يا ربَّنا، إخوانُنا كانوا يصومون ويُصلُّون ويَحجُّون، فيُقال لهم: أخْرِجوا من عرفتُم، فتُحَرَّم صُورهُم على النار، فيُخرِجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نِصفِ ساقَيْه وإلى رُكبتيه. ثم يقولون[٩]: ربَّنا ما بَقِيَ فيها أحدٌ ممن أمرتَنا به، فيقول: ارْجعوا فمن وجدتم في قلبه مِثقالَ دِينارٍ من خير

(١) صحيح مسلم (٣٥) وسنن الترمذي (٢٦١٤)، وقد سلف ص٦٨ من هذا الجزء.

(٢) في (د) و(م): ليبدو، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لغريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٤٦٠.

(٣) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٤٦٠ - ٤٦١، وأخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان (٨)، وأورده أبو عبيد في الإيمان ص٦٤ (وعندهما: إن الإيمان يبدأ) والزمخشري في الفائق ٣/ ٣٣١.

(٤) في (خ) و(م): خمرة، وفي (د) حجرة. والجحفلة بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير. القاموس (جحفل).

(٥) في (م): اسودَّ القلبُ حتى.

(٦) المفهم ١/ ٤٤٢.

(٧) في الإرشاد ص٣٣٣-٣٣٦، وينظر المحرر الوجيز ١/ ٤٥٣.

(٨) برقم (١٨٣)، وأخرجه أيضاً البخاري (٧٤٣٩)، وقد سلفت قطعة منه ص٢١٣ من هذا الجزء.

(٩) لفظة «ثم» ليست في النسخ الخطية، وفي (د): فيقولون، والمثبت من (م)، وصحيح مسلم.

فأخرجوه، فيُخرِجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: رَبَّنا لم نَذَرْ فيها أحداً ممن أمرتنا به[١]، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتُم في قلبه مِثقَالَ نِصفِ دِينارٍ من خير فأخرجوه، فيُخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: رَبَّنا لم نَذَرْ فيها ممن أمرتنا[٢] أحداً، ثم يقول: ارجِعوا فمن وجدتُم في قلبه مِثقَالَ ذَرَّةٍ من خير فأخرجوه»[٣]، وذكر الحديث.

وقد قيل: إنّ المرادَ بالإيمان في هذا الحديثِ أعمالُ القلوب؛ كالنيّة، والإخلاصِ، والخوف، والنصيحةِ، وشبه ذلك. وسمَّاها إيماناً لكونها في محلِّ الإيمانِ، أو عن الإيمان[٤]، على عادة العربِ في تسمية الشيءِ باسم الشيءِ إذا جاوره، أو كان منه بسبب.

دليلُ هذا التأويلِ قولُ الشافعين بعد إخراجِ من كان في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من خير: «لم نَذَرْ فيها خيراً»[٥]، مع أنه تعالى يُخرج بعد ذلك جموعاً كثيرةً ممن يقول: لا إله إلا الله، وهم مؤمنون قطعاً؛ ولو لم يكونوا مؤمنين لما أخرجهم.

ثم إن عُدِم الوجودُ الأوّل الذي يُرَكَّب عليه المِثْلُ لم تكن زيادةٌ ولا نقصان. وقُدّر ذلك في الحركة؛ فإنَّ الله سبحانه إذا خَلق عِلْماً فَرْداً، وخلق معه مِثْلَه، أو أمثالَه، بمعلومات، فقد زاد علمُه؛ فإنْ أعدم الله الأمثالَ فقد نقص، أي: زالت الزيادة. وكذلك إذا خلق حركةً وخلق معها مثلَها أو أمثالَها.

وذهب قومٌ من العلماء إلى أنَّ زيادةَ الإيمان ونَقْصَه إنما هو من طريق الأدلة، فتزيد الأدلَّة عند واحدٍ، فيقال في ذلك: إنها زيادةٌ في الإيمان، وبهذا المعنى ـ على أحد الأقوال ـ فُضِّل الأنبياءُ على الخلق، فإنهم عَلِموه من وجوه كثيرةٍ أكثرَ من الوجوه التي علمه الخلقُ بها. وهذا القولُ خارجٌ عن مقتضى الآية؛ إذ لا يُتصوَّر أنْ

---

(١) لفظة: به، ليست في (م).

(٢) في (د) و(ظ): أمرتنا به.

(٣) بعدها في (ظ): «فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربَّنا لم نذر فيها خيراً».

(٤) في (ظ) و(م): عنى بالإيمان، وفي (خ): عنى الإيمان، والمثبت من (د)، وهو الموافق للمفهم ١/ ٤٤٢ ، والكلام منه.

(٥) قطعة من حديث أبي سعيد الخدري السابق.

تكونَ الزيادةُ فيها من جهة الأدلة[١]. وذهب قوم: إلى أنَّ الزيادةَ في الإيمان إنما هي بنزول الفرائضِ والأخبارِ في مدَّة النبيِّ ﷺ، وفي المعرفة بها بعد الجهلِ غابرَ الدَّهر.

وهذا إنما هو زيادةُ إيمان؛ فالقول فيه: إنَّ الإيمان يزيد قولٌ مَجازِيٌّ، ولا يُتصوَّر فيه النقصُ على هذا الحدِّ، وإنما يُتصوَّر بالإضافة إلى من عَلِم[٢]. فاعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، أي: كافينا الله. وحَسْبُ مأخوذٌ من الإحساب، وهو الكفاية[٣]. قال الشاعر:

فتملأ بيتنا أقِطًا وسَمْناً وحَسْبُكَ من غِنًى شِبَعٌ ورِيُّ[٤]

روى البخاريُّ[٥] عن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم الخليلُ عليه السلام حين أُلْقِيَ في النار. وقالها محمد ﷺ حينَ قال لهم الناس: إنَّ الناسَ قد جمعوا لكم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾.

قال علماؤنا: لما فَوَّضوا أمورَهم إليه، واعتمدوا بقلوبهم عليه، أعطاهم من الجزاء أربعةَ معانٍ: النِّعمة، والفضل، وصرف السُّوء، واتِّباع الرِّضا. فرضَّاهم عنه، ورضِيَ عنهم.

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٤٣.

(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٢ (والكلام منه): وإنما يتصور الأنقص بالإضافة إلى الأعلم.

(٣) انظر الكشاف ١/ ٤٨١.

(٤) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٣٧، وفيه: فتُوسع أهلَها، بدل: فتملأ بيتنا، وأورده أبو الفرج في الأغاني ٩/ ٩٥، والزمخشري في المستقصى ٢/ ٦٣، والميداني في مجمع الأمثال ١/ ١٩٦ بمثل رواية المصنف، وقوله: الأقط؛ مثلثة، ويحرك، وككتف، ورجُل، وإبِل: شيءٌ يتخذ من المخيض الغنمي، ج: أقطان. القاموس (أقط).

(٥) برقم (٤٥٦٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾.

قال ابن عباس[1] وغيره: المعنى: يخوِّفُكم أولياءَه؛ أي: بأوليائه، أو: من أوليائه، فحذف حرف الجرِّ، ووصل الفعل إلى الاسم، فنصب. كما قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: ٢] أي: لينذركم ببأس شديد، أي: يخوّف المؤمن بالكافر[2].

وقال الحسن والسُّدِّيّ: المعنى: يخوّف أولياءَه المنافقين؛ ليقعدوا عن قتال المشركين، فأما أولياءُ اللهِ فإنهم لا يخافونه إذا خوَّفهم[3].

وقد قيل: إنَّ المرادَ: هذا الذي يُخوّفكم بجمع الكفارِ شيطانٌ من شياطين الإنس؛ إمّا نُعيم بنُ مسعود أو غيرُه[4]، على الخلاف في ذلك كما تقدَّم. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾، أي: لا تخافوا الكافرين المذكورين في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾. أو يرجعُ إلى الأولياء إن قلت: إنَّ المعنى يخوّفُ بأوليائه، أي: يخوّفكم أولياءَه[5].

قوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ﴾، أي: خافونِ في ترك أمري إن كنتم مصدِّقين بوعدي[6]. والخوفُ في كلام العربِ الذُّعْر. وخَاوَفَني فلانٌ فَخُفْتُه: أي: كنتُ أشدَّ خوفاً منه. والخَوْقاءُ[7] المَفَازَةُ لا ماءَ بها. ويقال: ناقةٌ خَوْقَاء[8] وهي الجَرْبَاء. والخافة: الخريطة[9] من الأَدَم يُشْتَارُ فيها العَسَل.

---

(١) أخرجه الطبري ٦/ ٢٥٥ .

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٤٨ ، وتفسير الرازي ٩/ ١٠٢ .

(٣) قول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم ٣/ ٨٢١ ، وأورده الماوردي في النكت والعيون ١/ ٤٣٨ ، وقول السّدّيّ أخرجه الطبري ٦/ ٢٥٦ .

(٤) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٣١٧ ، وتفسير الرازي ٩/ ١٠٢ .

(٥) ينظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٦٠ ، والكشاف ١/ ٤٨١ ، والوسيط ١/ ٥٢٣ .

(٦) تفسير البغوي ١/ ٣٧٦ .

(٧) في النسخ: والخوفاء (بالفاء)، وهو خطأ، والمثبت من مجمل اللغة لابن فارس ١/ ٣٠٧ ، والكلام منه، ولعل المصنف ذكر ذلك استطراداً أو وهماً، وينظر الصحاح واللسان (خوق).

(٨) في النسخ: خوفاء، بالفاء، وهو خطأ أيضاً.

(٩) في النسخ: كالخريطة، والمثبت من الصحاح (خوف).

قال سَهلُ بنُ عبدالله: اجتمع بعضُ الصدّيقين إلى إبراهيم الخَليلِ، فقالوا: ما الخوفُ؟ فقال: لا تأمنْ حتى تبلغَ المأمنَ.

قال سهل: وكان الربيع بنُ خُثَيْم إذا مرَّ بِكِيرٍ[١] يُغْشَى عليه؛ فقيل لعليّ بنِ أبي طالب ذلك، فقال: إذا أصابه ذلك فأعْلِموني. فأصابه، فأعلَموه، فجاءه، فأدخل يده في قميصه، فوجد حركتَه عالية، فقال: أَشهَدُ أنَّ هذا أخوفُ أهلِ[٢] زمانِكم[٣].

فالخائف من الله تعالى هو أنْ يخَافَ أن يُعاقِبَه إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة، ولهذا قيل: ليس الخائفُ الذي يبكي ويمسحُ عينيه، بل الخائفُ الذي يترك ما يَخَافُ أنْ يُعذَّب عليه.[٤]

ففرض الله تعالى على العباد أنْ يخافوه، فقال: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾. ومدح المؤمنين بالخوف، فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[٥]. ولأرباب الإشاراتِ في الخوف عباراتٌ مرجعُها إلى ما ذكرنا.

قال الأستاذ أبو عليّ الدَّقّاق: دخلت على أبي بكر بنِ فُورَك رحمه الله عائداً، فلما رآني دَمعتْ عيناه، فقلت له: إنَّ الله يعافيك ويَشفِيك، فقال لي: أترى أنِّي أخاف من الموت؟ إنما أخاف مما وراء الموت.[٦]

وفي سُنن ابنِ ماجه عن أبي ذَرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي أرى ما لا تَرَوْن، وأسمع ما لا تسمعون، إنَّ السماءَ أطَّت[٧]، وحُقَّ لها أنْ تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلَّا وملَكٌ واضعٌ جبهتَه ساجداً لله. واللهِ لو تعلمون ما أعلم؛ لَضَحِكتم قليلاً ولبَكَيْتُم كثيراً، وما تلذَّذْتُم بالنساء على الفُرُشَات، ولَخرجتُم إلى الصُّعُدات تَجْأرُون إلى الله». واللهِ لوَدِدْتُ أني كنت شجرةً تُعْضَد. خرّجه التِّرمذيُّ وقال: حديث حسَنٌ

---

(١) قوله: الكِيرُ، بالكسر: زِقٌّ يَنفخ فيه الحداد، وأما المبني من الطين فكور. القاموس (كير).

(٢) قوله: أهل، من (م).

(٣) ينظر حلية الأولياء ٢/ ١١٠، وصفة الصفوة ٣/ ٦٦.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/ ١٩٣.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/ ١٨٩.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/ ١٩٦.

(٧) في (د) و(م): أطت السماء، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لمصادر التخريج.

غريب، ويُروى من غير هذا الوجهِ أنَّ أبا ذرٍّ قال: لوَدِدْتُ أنِّي كنت شجرةً تُعْضَد.[١] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِۚ﴾ هؤلاء قومٌ أسلموا ثم ارتدُّوا خوفاً من المشركين؛ فاغْتمَّ النبيُّ ﷺ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِۚ﴾.[٢]

وقال الكَلْبيّ: يعني به المنافقين ورؤساءَ اليهود؛ كَتَموا صفةَ محمدٍ[٣] ﷺ في الكتاب، فنَزلت.

ويقال: إنَّ أهلَ الكتابِ لمَّا لم يُؤمنوا؛ شَقَّ ذلك على رسول اللهِ ﷺ؛ لأنَّ الناسَ ينظرون إليهم، ويقولون: إنهم أهلُ كتاب؛ فلو كان قولُه حقًّا لاتَّبعوه، فنزلت: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾.

قراءةُ نافع بضم الياءِ وكسرِ الزَّاي حيثُ وقع إلا في «الأنبياء»: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الآية: ١٠٣]، فإنه بفتح الياءِ وبضم الزاي. وضِدُّه أبو جعفر. وقرأ ابن مُحَيْصِن كلّها بضم الياءِ وكسرِ الزاي.[٤] والباقون كلّها بفتح الياءِ وضمِّ الزاي.[٥]

---

(١) سنن الترمذي (٢٣١٢)، وسنن ابن ماجه (٤١٩٠)، وهو عند أحمد (٢١٥٦)، وعنده بعد قوله: «تجأرون إلى الله»: قال: فقال أبو ذرٍّ: والله لوددتُ ... وهذا تصريح بأن الكلام بإثر الحديث من قول أبي ذرّ ﷺ. وقوله: أطَّت: الأطيط صوت الأقتاب، أي: إن كثرة الملائكة أثقلتها حتى أطَّت، وهذا مَثَلٌ وإيذان بكثرة الملائكة وإن لم يكن ثَمَّ أطيط، فإنما هو تقريب أُريدَ به تقرير عظمة الله تعالى. النهاية (أطط). وقوله: الصُّعُدات: هي الطرق. النهاية (صعد). وقوله: تجأرون؛ الجؤار: رفع الصوت والاستغاثة. النهاية (جأر) وقوله: تُعضَد، أي: تُقطع، يقال: عَضَدتُ الشجر أعضِده عضداً. النهاية (عضد)

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٠.

(٣) في (د) و(م): النبي، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لتفسير أبي الليث١/ ٣١٧، والكلام منه.

(٤) في النسخ: بضم الياء والزاي، وكذلك ذكر الشوكاني في فتح القدير ١/ ٤٠٣، وهو خطأ، والتصويب من إتحاف فضلاء البشر ص٢٣٢، وسيذكرها المصنف على الصواب عند الآية (١٠٣) من سورة الأنبياء.

(٥) السبعة ١/ ٢١٩، والتيسير ص٩١ - ٩٢، والنشر ٢/ ٢٤٤.

وهما لغتان: حَزَنَني الأمرُ يَحزُنُني، وأحْزَنَنِي أيضاً، وهي لغة قليلة؛ والأولى أفصحُ اللغتين. قاله النَّحاس[١]. وقال الشاعر في «أحزنَ»:

مَضى صَحْبي وأحْزَنَني الدِّيارُ[٢]

وقراءةُ العامَّة: «يُسَارِعُونَ». وقرأ طلحةُ: «يُسْرِعون في الكفر».[٣]

قال الضحَّاكُ: هم كفارُ قريش. وقال غيرُه: هم المنافقون[٤]. وقيل ما[٥] ذكرناه قبلُ. وقيل: هو عامٌّ في جميع الكفار. ومُسارعتُهم في الكفر: المظاهرةُ على محمد ﷺ.

قال القُشَيريُّ: والحُزْنُ على كُفرِ الكافر طاعةٌ، ولكنَّ النبيَّ ﷺ كان يُفرِطُ في الحُزْنِ على كُفرِ قومِه، فنُهيَ عن ذلك، كما قال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يَنقُصونَ من مُلْك الله وسلطانه شيئاً، يعني: لا يَنقُصُ بكفرهم[٦]، وكما رُوي عن أبي ذَرٍّ، عن النَّبيّ ﷺ فيما رَوى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي، إني حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم مُحرَّماً، فلا تَظالَموا. يا عبادِي، كلُّكم ضالٌّ إلَّا من هَدَيْتُه، فاستهدوني أَهْدِكم. يا عبادي، كلُّكم جائعٌ إلَّا مَنْ أطْعمتُه، فاستطعمُوني أُطْعِمْكم. يا عبادي، كلُّكم عارٍ إلَّا من كَسَوْتُه، فاسْتكْسُوني أكْسُكم. يا عبادِي، إنَّكم تُخطِئون بالليل والنَّهار، وأنا أغفِرُ الذنوبَ جميعاً، فاستغفروني أغفرْ لكُم. يا عبادي، إنَّكم لن تَبلغوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني، ولن تَبْلُغوا نَفعي فَتَنْفَعُوني. يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم، وإنْسَكم وجِنَّكم، كانوا على

---

(١) إعراب القرآن ١/ ٤١٩ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) نسب قراءة يسرعون ابن جني في المحتسب ١/ ١٧٧ (في كل القرآن)، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٤ ، وأبو حيان في البحر ٣/ ١٢١ إلى الحرّ النحوي، ونسبها إليه ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٣٣ (موضع سورة المائدة) وص٩٨ (موضع سورة المؤمنون) قال ابن عطية: وقراءة العامة أبلغ.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٧٦ . وأخرج القول الثاني الطبري ٦/ ٢٥٨ عن مجاهد وابن إسحاق.

(٥) في (م): وقيل هو ما.

(٦) تفسير أبي الليث ١/ ٣١٧ .

أَتْقَى قلبِ رجُلٍ واحدٍ منكم ما زادَ ذلك في مُلْكي شيئاً. يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكُم وآخِرَكُم، وإنْسَكُم وجِنَّكُم، كانوا على أفْجَرِ قلبِ رجُلٍ واحدٍ ما نَقَصَ ذلك من مُلْكي شيئاً. يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكُم وآخِرَكُم، وإنْسَكُم وجِنَّكم، قاموا في صَعيدٍ واحدٍ، فسَألُوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مَسْألَتَه، ما نقَصَ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البحرَ. يا عبادي، إنما هي أعمالُكُم أُحْصِيها لكُم، ثمَّ أُوَفِّيكُم إيّاها، فمن وَجدَ خيراً فليَحْمَدِ اللهَ، ومَنْ وجدَ غير ذلكَ فلا يلُومَنَّ إلَّا نَفْسَه». خرَّجه مسلم في صحيحه، والتِّرمذيُّ، وغيرُهما[١]، وهو حديثٌ عظيم فيه طول، يكتبُ كلُّه.

وقيل: معنى «لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً»، أي: لن يَضُرُّوا أولياءَ الله حينَ تركوا نصرَهم؛ إذ كان الله عزَّ وجلَّ ناصِرَهم.[٢]

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: نصيباً. والحظُّ النَّصيبُ والجَدُّ. يقالُ: فلان أحظُّ من فلان، وهو مَحظوظٌ. وجمعُ الحَظِّ أَحاظٍ، على غير قياس. قال أبو زيد: يقال: رجل حَظِيظٌ جديدٌ[٣]، إذا كان ذا حظٍّ من الرِّزق. وحَظِظْتُ في الأمر أحَظّ. وربَّما جُمع الحظُّ أُحُظّاً[٤]. أي: لا يَجعلُ لَهم نَصيباً في الجنَّةِ. وهو نَصٌّ في أنَّ الخيرَ والشَّر بإرادةِ الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُـرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ تقدَّم في البقرة[٥].

﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ كرّر للتَّأكيد. وقيل: أي من سوءِ تدبيره استبدالُ الإيمانِ بالكفر، وبيعُه به؛ فلا يخاف جانبَه ولا تدبيره.

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧) وسنن الترمذي (٢٤٩٥) وهو في مسند أحمد (٢١٤٢٠).

(٢) إعراب القرآن ١/ ٤٢٠.

(٣) في (د) و(م): حظيظ، أي جديد.

(٤) مجمل اللغة ١/ ٢١٥.

(٥) ١/ ٣١٨.

وانتصب «شيئاً» في الموضعين لوقوعه موقعَ المصدرِ، كأنّه قال: لن يَضُروا اللهَ ضرراً قليلاً ولا كثيراً. ويجوزُ انتصابُه على تقدير حذفِ الباءِ، كأنه قال: لن يَضرُّوا الله بشيء.[(١)]

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ﴾ الإملاء: طولُ العُمُرِ، ورَغَدُ العَيشِ. والمعنى: لا يَحسبنَّ هؤلاءِ الَّذين يُخَوِّفون المسلِمينَ، فإنَّ اللهَ قادرٌ على إهلاكهم، وإنَّما يُطوِّلُ أعمارَهم لِيعملوا بالمعاصي، لا لأنَّه خيرٌ لهم.

ويقالُ: «أنَّما نُملي لَهم» بما أصابوا من الظَّفر يومَ أُحُدٍ، لم يكن ذلكَ خيراً لأنفُسِهم، وإنَّما كان ذلك ليزدادوا عقوبةً.[(٢)]

ورُوِي عن ابن مسعود أنَّه قال: ما مِنْ أحدٍ بَرٍّ ولا فاجرٍ إلَّا والموتُ خيرٌ له؛ لأنَّه إن كان بَرّاً فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٨]، وإنْ كانَ فاجراً فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾.[(٣)]

وقرأ ابنُ عامرٍ وعاصم: «لا يَحْسَبنَّ» بالياءِ ونَصْبِ السِّين. وقرأ حمزةُ: بالتاء ونَصْبِ السِّين. والباقون: بالياء وكسر السِّين.[(٤)]

فمن قرأ بالياء فالذين فاعلون. أي: فلا يحسبنَّ الكفارُ. و«أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ» تسدُّ مَسَدَّ المفعولين. و«ما» بمعنى الذي، والعائد محذوفٌ، و«خيرٌ» خبر «أنَّ». ويجوزُ أنْ تقدِّر «ما» والفعلَ مصدراً، والتقدير: ولا يحسبنَّ الذين كفروا أنَّ إملاءَنا لهم خيرٌ لأنفسهم.

ومن قَرأَ بالتاء فالفاعلُ هو المخاطبُ، وهو محمدٌ ﷺ. و«الَّذِين» نصب على المفعول الأوّل لتحسبُ. وأنَّ وما بعدَها بدل من الَّذين، وهي تسدُّ مَسَدَّ المفعولين،

---

(١) ينظر مجمع البيان ٢/ ٢٧٥، والكشاف ١/ ٤٨٢ .

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٣١٨ .

(٣) أخرجه الطبري ٦/ ٢٦٢ .

(٤) السبعة ص٢٢٠، والتيسير ص٨٤ و٩٢ .

كما تسدُّ لو لم تكن بدلاً.[١]

ولا يصلحُ أن تكونَ «أنَّ» وما بعدَها مفعولاً ثانياً لتحسب؛ لأنَّ المفعولَ الثاني في هذا الباب هو الأوَّلُ في المعنى؛ لأنَّ حسِبَ وأخواتِها داخلةٌ على المبتدأ والخبرِ، فيكونُ التقديرُ: ولا تحسبنَّ أنَّما نُملي لهم خيرٌ. هذا قول الزَّجاج.[٢]

وقال أبو عليٍّ[٣]: لو صحَّ هذا لقالَ: «خيراً»؛ بالنَّصبِ؛ لأنَّ «أنَّ» تصيرُ بدلاً من «الذين كفروا»؛ فكأنَّه قال: لا تحسبنَّ إملاءَ الذين كفروا خيراً، فقولُه «خيراً» هو المفعولُ الثاني لحسبَ. فإذاً لا يجوزُ أنْ يُقرأ «لا تحسَبنَّ» بالتاء إلاَّ أنْ تكسرَ «إنَّ» في «أنَّما» وتَنصبَ خيراً، ولم يُرْوَ ذلك عن حمزة، والقراءَةُ عن حمزة بالتاء؛ فلا تصحُّ هذه القراءةُ إذاً.

وقال الفرَّاءُ والكسائيُّ[٤]: قراءةُ حمزةَ جائزةٌ على التكرير، تقديرُه: ولا تحسبنَّ الذين كفروا لا[٥] تحسبنَّ أنَّما نُملي لهم خيرٌ؛ فسدَّتْ «أنَّ» مَسدَّ المفعولين لتحسب الثاني، وهي وما عمِلَت مفعول ثانٍ لتحسب الأولُ.

قال القُشيريُّ: وهذا قريبٌ مما ذكَره الزَّجاجُ في دعوى البَدَلِ، والقراءةُ صحيحةٌ. فإذاً غرضُ أبي عليٍّ تغليطُ الزَّجاجِ.

قال النَّحاس[٦]: وزعَمَ أبو حاتم أنَّ قراءةَ حمزةَ بالتاء هنا، وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ لحنٌ لا يجوزُ، وتابعه[٧] على ذلك جماعةٌ.

قلت: وهذا ليس بشيءٍ، لِمَا تقدَّمَ بيانُه من الإعراب، ولصِحَّة القراءةِ وثبوتِها نقلاً.

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات لمكي ١/ ٣٦٥ - ٣٦٦ .

(٢) معاني القرآن له ١/ ٤٩١، ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ١٧٩ - ١٨٠ وعنه نقل المصنف.

(٣) انظر الحجة له ٣/ ١٠٧ - ١٠٨ .

(٤) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٤٨ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢١ وعنه نقل المصنف قول الفراء والكسائي.

(٥) في النسخ: ولا، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢١ ، والكلام منه.

(٦) المصدر السابق.

(٧) في (د) و(م): وتبعه.

وقرأ يحيى بنُ وثَّاب: «إنّمَا نُمْلِي لَهُمْ» بكسر «إنَّ» فيهما جميعاً.

قال أبو جعفر[١]: وقراءةُ يحيى حسنة، كما تقول: حسبتُ عمراً أبوه خارج.[٢]

قال أبو حاتم: وسمعتُ الأخفشَ يَذكُر كسرَ «إنَّ»؛ يحتجُّ به لأهل القَدَر؛ لأنَّه كانَ منهم، ويجعله[٣] على التَّقديم والتَّأخير: «ولا يحسبنَّ الذين كفروا إنما نُملي لهم ليزدادوا إثماً إنما نُملي لهم خيرٌ لأنفسهم». قال: ورأيتُ في مصحفٍ في المسجد الجامع قد زادوا فيه حرفاً فصار: «إنَّما نُملي لهم [ليزدادوا] إيماناً» فنظرَ إليه يَعقوبُ القارِئ فتبين اللَّحنَ فحكَّه.[٤]

والآيةُ نصٌّ في بطلان مَذهبِ القَدَريَّة؛ لأنَّه أخبرَ أنه يطيلُ أعمارَهم ليزدادوا الكفرَ بعمل المعاصي، وتوالي أمثالِهِ على القلب. كما تقدَّم بيانُه في ضدِّه، وهو الإيمان.

وعن ابن عباس قال: ما من بَرٍّ ولا فاجرٍ إلَّا والموتُ خيرٌ له، ثمَّ تلا: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾، وتلا: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٨]، أخرجه رزين.[٥]

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

قال أبو العالية: سألَ المؤمنون أن يُعطَوا علامةً يفرِّقون بها بينَ المؤمن

---

(١) هو النحاس، وكلامه في إعراب القرآن ١/ ٤٢١، وعنه نقل المصنف قراءة يحيى، وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٣ أن قراءة يحيى بن وثاب بكسر الهمزة في الأولى، وبفتحها في الثانية.

(٢) في (د) و(ز) و(م): خالد، وفي (ظ): خارجاً، والمثبت من (خ) و(ف)، وهو الموافق لما في إعراب القرآن.

(٣) في (د) و(م): ويجعل.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢١ وما بين حاصرتين منه.

(٥) لم نقف عليه من قول ابن عباس، وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٥٤٧) (قسم التفسير)، والطبري في تفسيره ٦/ ٣٢٧ من قول أبي الدرداء، وأخرجه سعيد بن منصور (٥٤٦) أيضاً من قول محمد بن كعب القرظي. وسلف ذكره قريباً عن ابن مسعود.

والمنافق، فأنزلَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية.(١)

واختلفوا مَن المخاطبُ بالآية على أقوال:

فقال ابنُ عباسٍ والضَّحَّاكُ ومقاتِلٌ والكلبيُّ وأكثرُ المفسرين: الخطابُ للكفارِ والمنافقين، أي: ما كانَ الله ليذرَ المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والنِّفاق وعداوة النبيِّ ﷺ.(٢)

قال الكلبيُّ: إنَّ قريشاً من أهل مكَّةَ قالوا للنبيِّ ﷺ: الرجلُ منَّا تزعمُ أنَّه في النَّار، وأنَّه إذا ترك دِيننا واتَّبع دِينَكَ قُلتَ: هو من أهل الجنَّة، فأخبرْنا عن هذا؛ من أين هو؟ وأخبرنا مَنْ يأتيكَ منَّا، ومَنْ لم يأتِك؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من الكفر والنِّفاق ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.(٣)

وقيل: هو خطابٌ للمشركين. والمرادُ بالمؤمنين في قوله: «لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ» مَن في الأصْلابِ والأرحامِ ممن يؤمن، أي: ما كان الله ليَذرَ أولادكم الذين حَكَمَ لهم بالإيمان على ما أنتم عليه من الشِّرك، حتى يفرِّقَ بينَكم وبينَهم(٤)؛ وعلى هذا ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ﴾ كلامٌ مستأنفٌ. وهو قول ابن عباس وأكثرِ المفسِّرين.

وقيل: الخطابُ للمؤمنين. أي: وما كانَ اللهُ ليذرَكم يا معشرَ المؤمنين على ما أنتم عليه من اختلاطِ المؤمن بالمنافق، حتى يميِّز بينَكم بالمِحْنَة والتَّكليفِ؛ فتَعرِفوا المنافقَ الخَبيثَ، والمؤمنَ الطَّيِّبَ. وقد مَيَّز يوم أُحُد بينَ الفريقين(٥). وهذا قول أكثر أهلِ المعاني.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ يا معشرَ المؤمنين، أي: ما كانَ اللهُ ليعيِّن لكم المنافقين حتَّى تَعرِفوهم، ولكنْ يظهرُ ذلك لكم بالتَّكليف والمِحْنةِ، وقد ظهرَ ذلك في يومِ أُحُد؛ فإنَّ المنافقين تخلَّفوا وأظهروا الشَّماتةَ، فما كُنتم تَعرفونَ هذا الغيبَ قبلَ

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص١٢٧.

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٧٧، وأخرجه ابن أبي حاتم ٣/ ٨٢٤ عن ابن عباس.

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٣١٨، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص١٢٧، والبغوي ١/ ٣٧٧.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٧٨، ونسبه للضحاك.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٠، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤٦.

هذا، فالآنَ قد أطلعَ اللهُ محمداً عليه الصلاة والسَّلام وصحبَه على ذلك.

وقيل: معنى «ليطلعَكم» أي: وما كانَ اللهُ ليُعلمَكم ما يكونُ منهم[١]. فقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ على هذا متَّصلٌ، وعلى القولين الأوَّلين منقطع. وذلك أنَّ الكفَّارَ لَمَّا قالوا: لِمَ لَمْ يوح إلينا؟ قال: «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ»[٢] أي: على مَنْ يَستحقُّ النُّبوَّةَ، حتَّى يكونَ الوحيُ باختياركم.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى﴾ أي: يختارُ ﴿مِن رُّسُلِهِۦ﴾ لإطلاع غيبه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ يقالُ: طَلَعْتُ على كذا، واطَّلَعْتُ عليه، وأَطلَعْتُ عليه غَيري، فهو لازمٌ ومتعدٍّ.

وقُرِئَ: «حَتَّى يُمَيِّزَ»، بالتَّشديد، مِن مَيَّزَ، وكذا في «الأنفال» وهي قراءةُ حمزةَ[٣]. والباقون: «يَمِيزَ»، بالتَّخفيفِ، من مَازَ يَميزُ.

يقالُ: مِزْتُ الشَّيءَ بعضَه من بَعضٍ أَمِيزُه مَيْزاً، ومَيَّزتُه تمييزاً. قال أبو معاذ: مِزْتُ الشَّيء أَمِيزُه مَيزاً: إذا فَرقتَ بين شيئين. فإنْ كانت أشياء قلتَ: ميَّزتُها تمييزاً. ومثلُه إذا جعلتَ الواحدَ شيئين قلتَ: فَرَقْتُ بينَهما، مخففاً؛ ومنه فَرَق الشَّعَر. فإنْ جعلتَه أشياء قلتَ: فرَّقتُه تَفريقاً.[٤]

قلتُ: ومنه: امتازَ القومُ؛ تميَّز بعضُهم عن بعض. ويكادُ يَتميَّزُ: يَتَقَطَّعُ، وبهذا فُسِّرَ قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك:٨][٥]. وفي الخبر: «من مَازَ أذًى عن الطريق فهو له صدقة».[٦]

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ يقالُ: إنَّ الكفَّارَ لَمَّا سألوا رسولَ الله ﷺ أن

---

(١) إعراب القرآن ١/ ٤٢٠.

(٢) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٩٢.

(٣) وقراءة الكسائي أيضاً. السبعة ص٢٢٠، والتيسير ص٩٢.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٧٧.

(٥) مجمل اللغة ٢/ ٨٢٠.

(٦) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج أحمد (١٦٩٠) من حديث أبي عبيدة بن الجراح ﷺ مطولاً ضمن قصة أن النبي ﷺ قال: «من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فبسبع مئة، ومن أنفق على نفسه وأهله، أو عاد مريضاً، أو ماز أذى، فالحسنة بعشر أمثالها ...».

يبيِّنَ لهم مَنْ يؤمِنُ منهم، فأنزلَ اللهُ: «فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ» يعني: لا تَشتَغِلوا بما لا يَعنِيكُم، واشتغلوا بما يَعنِيكُم، وهو الإيمان.(١)

﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ أي: صَدِّقوا، أي: عليكُم التَّصديقَ، لا التَّشوُّفَ إلى اطِّلاع الغيب.

﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: الجنَّة.

ويُذكَرُ أنَّ رجلاً كان عند الحجَّاجِ بن يوسُفَ الثَّقَفِيِّ مُنَجِّماً، فأخذ الحجَّاجُ حَصَياتٍ بيده قد عَرف عددَها، فقال للمُنَجِّم: كم في يدي؟ فحسَبَ، فأصابَ المنَجِّمُ. فأغفلَه الحجَّاجُ، وأخذَ حَصَياتٍ لم يعُدَّهُنَّ، فقال للمنجم: كم في يدي؟ فحسَبَ، فأخطأ، ثمَّ حسَبَ أيضاً، فأخطأ، فقال: أيُّها الأميرُ، أظنُّكَ لا تعرف عدد ما في يدك؟ قال: لا. قال: فما الفرقُ بينهما؟ فقال: إنَّ ذاك أحْصَيتَه، فخرجَ عن حدِّ الغَيْبِ، فحسَبتُ فأصبتُ، وإنَّ هذه(٢) لم تَعرف عددَها، فصار غَيْباً، ولا يعلمُ الغيبَ إلَّا اللهُ تعالى. وسيأتي هذا البابُ في «الأنعام»(٣) إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ «الذين» في موضع رفع، والمفعولُ الأول محذوفٌ. قال الخليلُ وسيبويه والفَرَّاءُ(٤): المعنى: البخل [هو] خيراً لهم، أي: لا يَحسبَنَّ الباخلون البخلَ خيراً لهم. وإنَّما حُذفَ لدلالة يَبخَلون على البُخل؛ وهو كقوله: من صدقَ كان خيراً له، أي: كان الصِّدقُ خيراً له. ومن هذا قولُ الشاعر:

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٣١٩.

(٢) في (م) هذا.

(٣) في تفسير الآية (٥٩) منها.

(٤) الكتاب ٢/ ٣٩١، ومعاني القرآن للفراء ١/ ٢٤٨.

إذا نُـهِـيَ الـسَّـفـيـهُ جَـرَى إلـيـه وخـالَـفَ والـسَّـفـيـهُ إلـى خِـلافِ[(١)]

فالمعنى: جَرَى إلى السَّفَه، فالسَّفيه دَلَّ على السَّفَه.

وأما قراءة حمزة بالتاءِ فبعيدةٌ جدّاً؛ قاله النَّحاسُ[(٢)]. وجوازها أن يكونَ التقديرُ: لا تحسبَنَّ بُخل الذين يَبخلون هو خيراً لهم.

قال الزجاج[(٣)]: وهي مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

و«هو» في قوله «هُوَ خَيْراً لَهُمْ» فاصلة عند البَصريّين، وهي العماد عندَ الكوفيين.

قال النَّحاسُ[(٤)]: ويجوزُ في العربية: «هو خير لهم» ابتداء وخبر.

الثانية: قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ ابتداءٌ وخبر، أي: البخلُ شرٌّ لهم. والسين في «سَيُطَوَّقُون» سينُ الوعيد، أي: سوفَ يُطَوَّقون. قاله المبرِّدُ.

وهذه الآية نزلت في البُخل بالمال، والإنفاق في سبيل اللهِ، وأداءِ الزكاةِ المفروضةِ. وهذه كقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] الآية. ذهبَ إلى هذا جماعةٌ من المتأوِّلين، منهم ابنُ مسعود، وابنُ عباس، وأبو وائل، وأبو مالك، والسُّدِّيُّ، والشَّعْبيُّ[(٥)]؛ قالوا: ومعنى ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ﴾ هو الذي وردَ في الحديث عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنْ آتاهُ اللهُ مالاً، فلم يُؤَدِّ زكاتَه، مُثِّلَ له يومَ القيامة شُجاعاً أَقْرَعَ له زَبِيبتان، يُطَوَّقُه يومَ القيامة، ثم يأخذ بِلِهْزِمَتَيه، ثم يقول: أنا مالُك، أنا كَنزُكَ» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآية. أخرجه النَّسائيُّ.[(٦)]

---

(١) البيت دون نسبة في معاني القرآن للفراء ١/ ١٠٤ و ٢٤٩، ومجالس ثعلب ص٦٠، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص١٧٦، وتفسير الطبري ٦/ ٢٦٨، والخصائص ٣/ ٤٩، والمحتسب ١/ ١٧٠ لابن جني، وأمالي ابن الشجري ١/ ٢٧٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤٩، وخزانة الأدب ٥/ ٢٦٦.

(٢) في إعراب القرآن ١/ ٤٢٢ وما قبله وما بعده وما سلف بين حاصرتين منه، وسلف تخريج قراءة حمزة قبل آيتين.

(٣) معاني القرآن ١/ ٤٩٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤٧ وعنه نقل المصنف.

(٤) في إعراب القرآن ١/ ٤٢٢.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٧، وتفسير البغوي ١/ ٣٧٨. وأخرج الآثار الطبري ٦/ ٢٦٩ - ٢٧٤.

(٦) في سننه ٥/ ٣٩، وأخرجه أحمد (٨٦٦١)، والبخاري (١٤٠٣). قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري=

وخرَّجه ابنُ ماجه[(١)] عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحدٍ لا يُؤدِّي زكاةَ مالِه إلا مُثِّلَ له يومَ القيامة شُجاعٌ أقْرَعُ، حتى يُطَوَّقَ به في عُنقه». ثم قرأ علينا النبيُّ ﷺ مِصداقَه من كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآية.

وجاء عنه ﷺ أنه قال: «ما من ذي رَحِمٍ يأتي ذَا رَحِمه، فيسألُه من فَضْلِ ما عنده، فيبخلُ به عليه، إلا أُخرِجَ له يومَ القيامة شُجاعٌ من النَّار، يَتلمَّظُ حتى يُطَوِّقَه».[(٢)]

وقال ابنُ عباس أيضاً: إنما نزلَتْ في أهل الكتاب وبُخلِهم، ببيانِ ما عَلِموهُ من أمر محمدٍ ﷺ.

وقال ذلك مُجاهد وجماعةٌ من أهل العلم.

ومعنى «سَيُطَوَّقُونَ» على هذا التأويل: سيحملون عقابَ ما بخلوا به؛ فهو من الطَّاقة كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وليسَ من التَّطويقِ.

وقال إبراهيم النَّخعِيُّ: معنى «سَيُطَوَّقون»: سيُجعلُ لهم يومَ القيامة طَوْقٌ من نار[(٣)]. وهذا يَجري مع التَّأويل الأوَّل [أي]: قول السُّدي [وغيره].[(٤)]

وقيل يُلزَمون أعمالَهم كما يَلزَمُ الطَّوقُ العُنقَ؛ يقال: طُوِّق فلانٌ عملَه طَوْقَ الحمامة، أي: أُلزِمَ عملَه، وقد قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]. ومن هذا المعنى قولُ عبدِ الله بن جَحْش لأبي سفيان:[(٥)]

أبلِغْ أبا سفيانَ عن أمرٍ عواقبُه ندامَهْ

= ٣/ ٢٧٠ : الشجاع: الحية الذكر، والأقرع: الذي تقرَّع رأسه، أي: تمعَّط لكثرة سُمِّه، وبلهزمتيه: هي بكسر اللام وسكون الهاء وزاي مكسورة، أي: بشدقيه.

(١) في سننه (١٧٨٤)، وهو عند أحمد (٣٥٧٧).

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٧، وأخرجه الطبري ٦/ ٢٧١ مرفوعاً وموقوفاً ومرسلاً، ونقل ابن حجر في الإصابة ٢/ ٢٢٠ عن ابن منده قوله: لا يصح.

(٣) في (م) النار.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٧، وما بين حاصرتين منه، وأخرج الطبري ٦/ ٢٧٥-٢٧٦ قول ابن عباس ومجاهد والنخعي.

(٥) سيرة ابن هشام ١/ ٥٠٠.

دارُ ابنِ عمِّكَ بِعتَها تقضي بها عنك الغرامَهْ
وحَليفُكم بالله ربِّ الناسِ مُجتهِدُ القَسامَهْ
إِذْهبْ بها إِذْهبْ بها طُوِّقتَها طَوْقَ الحمامَهْ

وهذا يجري مع التأويل الثاني.

والبُخْل والبَخَل في اللغة: أن يَمنع الإنسانُ الحقَّ الواجبَ عليه، فأمَّا مَنْ مَنع ما لا يجبُ عليه؛ فليسَ ببخيل؛ لأنَّه لا يُذَمُّ بذلك. وأهل الحجاز يقولون: يَبْخُلُون وقد بَخُلُوا، وسائر العرب يقولون: بَخِلوا يَبْخَلون؛ حكاه النَّحاس[(١)]. وبَخِل يَبْخَل بُخْلاً وَبَخَلاً، عن ابن فارس.[(٢)]

الثالثة: في ثمرة البُخل وفائدته: وهو ما رُوِيَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال للأنصار: «مَنْ سَيِّدُكم؟» قالوا: الجَدُّ بنُ قيس على بُخْلٍ فيه. فقال ﷺ: «وأيُّ داءٍ أَدْوَى من البُخل؟» قالوا: وكيف ذاك يا رسولَ الله؟ قال: «إنَّ قوماً نَزلوا بساحل البَحر، فكَرِهوا لبُخلهم نُزولَ الأضيافِ بهم، فقالوا: لِيَبعُدِ الرِّجالُ منَّا عن النِّساء، حتَّى يَعتذرَ الرجالُ إلى الأضياف بِبُعْدِ النِّساءِ، وتَعتذِرَ النِّساء بِبُعْدِ الرِّجالِ، ففعلوا، وطالَ ذلك بهم، فاشتغلَ الرِّجالُ بالرِّجال، والنِّساءُ بالنِّساءِ». ذكره الماوردي في كتاب «أدب الدُّنيا والدِّين»[(٣)]

---

(١) إعراب القرآن ١/ ٤٢٢.

(٢) ينظر مجمل اللغة ١/ ١١٨ ومقاييس اللغة ١/ ٢٠٧.

(٣) ص٣٣٠ طبعة منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين، ولم نقف لهذا الخبر بتمامه على إسناد.

وأخرج منه صدره، يعني إلى قوله: «وأيُّ داءٍ أدْوَى من البخل»، ودون ذكر القصة: وكيع في الزهد (٣٧٤)، وهناد في الزهد (٦١٤) عن المسعودي عن حبيب بن أبي ثابت، مرسلاً. وفيه: «بل سيِّدُكم الجَعْد الأبيض، عمرو بن الجَموح».

وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٧٠٥) عن معمر، والطبراني في الكبير ١٩/(١٦٤) من طريق يونس، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٨٥٨) من طريق شعيب، ثلاثتهم عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، مرسلاً، وفيه: قالوا: فَمَنْ سيِّدُنا يا رسول الله؟ قال: «بِشْرُ بنُ البَراء بن مَعْرور».

وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٩٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٨٥٩) و(١٠٨٦٠) من طريق أبي الزبير، والطبراني في الأوسط (٨٩٠٨)، من طريق عمرو بن دينار، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٣١٧ من طريق محمد بن المنكدر، ثلاثتهم عن جابر، مرفوعاً. وللحديث طرق أخرى، ذكرها الحافظ في الإصابة ١/ ٢٤٧ - ٢٤٨ و٧/ ٩٤ - ٩٥ (ترجمة بشر بن البراء بن معرور، وترجمة عمرو بن الجموح).

والله أعلم.

الرابعة: واختُلِفَ في البُخْل والشُّحِّ، هل هُما بمعنًى واحدٍ أو بمعنيين؟

فقيل: البُخلُ: الامتناعُ من إخراج ما حصَلَ عندَك. والشُّحُّ: الحِرصُ على تحصيل ما لَيسَ عندَك.

وقيل: إن الشُّحَّ هو البُخلُ مع حِرصٍ(١). وهو الصَّحيحُ؛ لما رواهُ مسلمٌ(٢) عن جابر بنِ عبدالله أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «اتَّقوا الظُّلم، فإن الظلم ظُلماتٌ يوم القيامة، واتَّقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهلكَ مَنْ كانَ قبلَكم؛ حملَهم على أنْ سفَكُوا دماءَهم، واستحلُّوا محارمَهم».

وهذا يردُّ قولَ من قال: إنَّ البُخلَ منعُ الواجبِ، والشُّحَّ منعُ المستحبِّ(٣)، إذ لو كان الشُّحُّ منعَ المستحبِّ لما دخلَ تحتَ هذا الوعيدِ العظيمِ، والذَّمِّ الشَّديدِ، الذي فيه هلاكُ الدُّنيا والآخرَةِ.

ويؤيِّدُ هذا المعنى ما رواه النَّسائيُّ(٤) عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ: «لا يَجتمعُ غُبارٌ في سبيل اللهِ ودخانُ جهنَّمَ في مِنخَرَيْ رجلٍ مسلمٍ أبداً، ولا يَجتمعُ شحٌّ وإيمانٌ في قلبِ رجلٍ مسلم أبداً».

وهذا يدلُّ على أنَّ الشُّحَّ أشدُّ في الذَّمِّ من البخل، إلاَّ أنَّه قد جاءَ ما يدُلُّ على مساواتِهما وهو قوله ـ وقد سئل ـ: أيكونُ المؤمنُ بخيلاً؟ قال: «لا».(٥)

وذكر الماورديُّ في كتاب «أدب الدُّنيا والدِّين» أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال للأنصار: «مَنْ

---

(١) المفهم ٦/ ٥٥٧.

(٢) في صحيحه (٢٥٧٨)، وهو في مسند أحمد (١٤٤٦١).

(٣) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن ١/ ٣٠٣.

(٤) في سننه ٦/ ١٣، وهو في مسند أحمد (٧٤٨٠).

(٥) لم نقف على هذا السياق الذي ذكره المصنف، إنما أخرج مالك في الموطأ ٢/ ٩٩٠، عن صفوان بن سليم أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جباناً؟ فقال: «نعم»، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ فقال: «نعم»، فقيل له: أيكون المؤمن كذاباً؟ فقال: «لا». قال ابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٥٣: مرسل مقطوع، لا أحفظ هذا الحديث مسنداً بهذا اللفظ من وجه ثابت، وهو حديث حسن.

سيِّدُكم؟» قالوا: الجدُّ بنُ قيسٍ على بُخْلٍ فيه، الحديثَ. وقد تقدَّم[١].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ أخبر تعالى ببقائه ودوامِ مُلكه، وأنه في الأبد كهو في الأزل، غنيٌّ عن العالمين، فيَرِثُ الأرضَ بعد فناء خلقِه وزوالِ أملاكِهم، فتبقى الأملاكُ والأموالُ لا مُدَّعى فيها. فجرى هذا مجرى الوِراثةِ في عادة الخلْقِ، وليس هذا بميراثٍ في الحقيقة؛ لأنَّ الوارِثَ[٢] في الحقيقة هو الذي يَرِثُ شيئاً لم يكن مَلَكه من قبلُ، واللهُ سبحانَه وتعالى مالكُ السَّمواتِ والأرضِ وما بينهما، وكانت السَّمواتُ وما فيها والأرض وما فيها له، وإنما كانت الأموال عارِيَّةً عند أربابها، فإذا ماتوا رجعت[٣] العارِيَّةُ إلى صاحبها الذي كانت له في الأصل.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] الآية. والمعنى في الآيتين أنَّ الله تعالى أمرَ عبادَه بأنْ يُنفِقوا ولا يَبْخَلوا، قبل أنْ يموتوا ويَتركوا ذلك ميراثاً لله تعالى، ولا يَنفعُهم إلَّا ما أنفقوا.[٤]

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ ذكر تعالى قبيحَ قولِ الكفَّار ولا سيَّما اليهود.

وقال أهلُ التفسير: لمَّا أنزلَ اللهُ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال قومٌ من اليهود ـ منهم حُيَيُّ بنُ أخطبَ، في قول الحسن. وقال عكرمةُ وغيرُه: هو فِنْحاصُ بنُ عازورا ـ: إنَّ الله فَقِيرٌ ونَحْنُ أغنياءُ يقترض منَّا. وإنما قالوا هذا تَمويهاً على ضعفائهم، لا أنَّهم يعتقدونَ هذا؛ لأنَّهم أهلُ كتاب. ولكنَّهم كفروا بهذا القول؛

---

(١) في المسألة الثالثة. وقوله: وذكر الماوردي. . . . إلى هذا الموضع، ليس في (ظ).

(٢) في النسخ: الميراث، والمثبت من تفسير أبي الليث ١/ ٣١٩ وعنه نقل المصنف.

(٣) في (د) و(م): وإن الأموال كانت عاريّة عند أربابها، فإذا ماتوا ردَّت.

(٤) تفسير أبي الليث ١/ ٣٢٠.

لأنَّهم أرادوا تشكيكَ الضُّعفاء منهم ومن المؤمنين، وتكذيبَ النبيِّ ﷺ. أي: إنَّه فقير على قول محمد ﷺ، لأنَّه اقترضَ منَّا.(١)

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ سنجازيهم عليه. وقيل: سنَكتبُه في صحائف أعمالهم، أي: نأمرُ الحَفَظةَ بإثباتِ قولهم حتَّى يَقرؤوه يومَ القيامةِ في كتبُهم التي يُؤتَونَها؛ حتى يكونَ أوْكدَ للحجَّة عليهم، وهذا كقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَـٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤](٢). وقيل: مقصود الكتابة الحفظُ، أي: سنحفظُ ما قالوا لنجازيَهم. «وما» في قوله «ما قالوا» في موضع نَصْب بـ «سنكتبُ». وقرأ الأعمشُ وحمزة: «سيُكتب»، بالياء؛ فيكون «ما» اسم ما لم يُسمَّ فاعلُه، واعتبَر حمزةُ ذلك بقراءة ابنِ مسعودٍ: «ويقال ذوقوا عذاب الحريق».(٣)

قوله تعالى: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: ونكتب قتلَهم الأنبياءَ، أي: رضاءهم بالقتل. والمرادُ قتلُ أسلافِهم الأنبياءَ، لكنْ لمَّا رَضُوا بذلك صحَّت الإضافةُ إليهم.

وحسَّن رجلٌ عِند الشَّعبيِّ قتْلَ عثمانَ ﷺ، فقال له الشَّعبيُّ: شَرِكتَ في دَمِه. فجعلَ الرِّضا بالقتل قَتْلاً، ﷺ.

قلت: وهذه مسألة عُظمَى، حيثُ يكونُ الرِّضا بالمعصية معصيةً.

وقد روى أبو داود(٤) عن العُرْس بن عَميرة الكِندِي(٥)، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إذا عُمِلت الخطيئةُ في الأرض كانَ من شَهِدَها فكرِهَها ـ وقال مرَّةً: فأنكرَها ـ كان(٦) كمن غابَ عنها، ومَنْ غابَ عنها فَرضِيَها؛ كان كمن شَهِدَها». وهذا نصٌّ.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٣ . وأخرجه الطبري ٦/ ٢٧٩-٢٨١ .

(٢) الوسيط للواحدي ١/ ٥٢٨ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٧٩ .

(٣) إعراب القرآن ١/ ٤٢٣ ، وقراءة حمزة في السبعة ص٢٢١، والتيسير ص٩٢ ، وقراءة ابن مسعود ذكرها الفراء في معاني القرآن ١/ ٢٤٩ ، والطبري ٦/ ٢٨١ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٨ . وابن أبي داود في المصاحف ١/ ٣١٢ وعنده: ويقال لهم ذوقوا.

(٤) في سننه (٤٣٤٥) .

(٥) العُرْسُ بضم أوله وسكون الراء ـ بن عَميرةَ ، بفتح أوله الكندي أخو عَديٍّ، صحابي مُقِلٌ. الإصابة ٦/ ٤١١ .

(٦) لفظة (كان) من (ظ).

قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ تقدَّم معناه في البقرة.[١]

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: يُقالُ لهم في جهنَّمَ، أو عند الموتِ، أو عند الحسابِ هذا. ثمَّ هذا القولُ من الله تعالى، أو من الملائكة؛ قولان. وقراءة ابن مسعود: «ويقال»[٢]. والحريق: اسمٌ للملتهبة من النَّار، والنَّار تشمَلُ المُلتهبةَ وغيرَ الملتَهبة.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: ذلك العذابُ بما سلَف من الذنوبِ. وخصَّ الأيْدي بالذِّكر ليدُلَّ على تولِّي الفِعلِ ومباشرته، إذ قد يُضافُ الفعلُ إلى الإنسان بمعنى أنَّه أمرَ به؛ كقوله: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٤].

وأصلُ «أَيْدِيكُمْ»: أيديُكم، فحُذِفَت الضَّمَّةُ لثِقَلِها. واللهُ أعلم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في مَوضعِ خفضٍ بدلاً من «الَّذِينَ» في قَوله عزَّ وجلَّ[٣]: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾، أو نعت «للعبيد»[٤]، أو خبر ابتداء، أي: همُ الذين قالوا.

وقال الكلبيُّ وغيرُه: نزلَت في كعب بن الأشرَفِ، ومالك بن الصَّيْف، ووَهْب بن يَهوذا، وفِنْحاص بن عازورا وجماعةٍ، أتَوا النَّبيَّ ﷺ، فقالوا له: أتزعُمُ أنَّ اللهَ أرسلَك إلينا، وأنَّه أنزلَ علينا كتاباً عَهِد إلينا فيه ألا نُؤمِنَ لرسول يزعمُ أنَّه من عند اللهِ

(١) ٢/ ١٥٧.

(٢) سلف تخريجها قريباً.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٤.

(٤) كذا وقع في معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٩٤؛ والأرجح أنه خطأ ناسخ، فقد ذكر محققه في حاشيته أنه وقع في نسخة أخرى للكتاب أنه نعت اليهود، والظاهر أنه لم تقع هذه النسخة لابن عطية فقال في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٩: هذا مفسد للمعنى والرصف.

حتَّى يَأتِيَنا بِقُربانٍ تأكلُه النَّارُ، فإنْ جئتَنا به صدَّقناك؟ فأنزل الله هذه الآية.[١]

فقيل: كان هذا في التَّوراة، ولكن كان تمامُ الكلام: حتَّى يأتيَكم المسيحُ ومحمدٌ، فإذا أتَياكُم فآمِنوا بهما من غير قُربانٍ.[٢]

وقيل: كانَ أمرُ القَرابِين ثابتاً إلى أن نُسِخت على لسان عيسى ابنِ مريمَ. وكان النَّبيُّ منهم يَذْبحُ ويَدعو، فتنزِلُ نارٌ بيضاءُ لها دَوِي وحفِيف، لا دخانَ لها، فتأكلُ القُرْبانَ. فكان هذا القولُ دعْوَى من اليهود؛ إذ كان ثَمَّ استثناءٌ فأخفَوه، أو نسخٌ، فكانوا في تمسُّكِهم بذلك مُتعنِّتين، ومعجزاتُ النَّبيِّ ﷺ دليلٌ قاطعٌ في إبطال دَعواهم، وكذلك معجزاتُ عيسى، ومن وجبَ صدقُه وجبَ تَصديقُه.

ثم قال تعالى إقامةً للحجَّة عليهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾ يا معشرَ اليهودِ ﴿رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ من القُربان ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ يعني زكريا ويحيى وشَعْيا، وسائرَ من قُتِلوا من الأنبياء عليهم السلام ولم تؤمنوا بهم. أرادَ بذلك أسلافَهم.[٣]

وهذه الآيةُ هي التي تلاها عامر الشَّعبيّ ﷺ، فاحتجَّ بها على الذي حسَّن قتلَ عثمانَ ﷺ كما بيَّناه. وأنَّ اللهَ تعالى سمَّى اليهودَ قَتَلةً لرضاهم بفعل أسلافهم، وإن كانَ بينَهم نحوٌ من سبع مئة سنة.

والقُرْبان ما يُتَقرَّب به إلى الله تعالى من نَسيكة[٤]، وصدَقةٍ، وعملٍ صالح، وهو فُعلان؛ من القُرْبة[٥]. ويكون اسماً ومصدراً؛ فمثال الاسم: السلطان والبُرْهان. والمصدر: العُدْوان والخُسْران.[٦]

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص١٢٩، وتفسير البغوي ١/ ٣٨٠.

(٢) مجمع البيان ٢/ ٢٨٨-٢٨٩، وينظر العجاب للحافظ ابن حجر ٢/ ٨٠٩.

(٣) تفسير البغوي ١/ ٣٨٠.

(٤) في (د) و(م): نسك، والنَّسيكة: الذبيحة.

(٥) تفسير البغوي ١/ ٣٨٠.

(٦) مجمع البيان ٢/ ٢٨٨.

وكان عيسى بن عمر يقرأ: «بِقُرُبانٍ» بضم الراء إتباعاً لضمة القاف[١]، كما قيل في جمع ظُلْمة: ظُلُمات، وفي حُجْرة: حُجُرات.

ثمَّ قالَ تعالى معزِّياً لنبِّيه ومؤنساً له: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أي: بالدَّلالات. ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المزبورة، يعني المكتوبة.[٢]

والزُّبُر جمع زَبُور، وهو الكتاب. وأصلُه من زَبَرتُ، أي: كتبتُ. وكلُّ زَبورٍ فهو كتاب، قال امرؤ القيس:

لِمَنْ طَلَلٌ أَبْصَرتُهُ فشَجاني كخطِّ زَبورٍ في عَسيبٍ يَماني[٣]

وأنا أعرف تَزْبِرَتي، أي: كتابتي. وقيل: الزَّبُور من الزَّبْر، بمعنى الزَّجْر. وزَبَرتُ الرَّجلَ: انتهَرْتُه. وزَبَرْتُ البئرَ: طويتُها بالحجارة.[٤]

وقرأ ابنُ عامرٍ: «وبالزُّبُر وبالكِتاب» بزيادة باء في الحرفين[٥]، وكذلك هو في مصاحف أهلِ الشَّام.[٦]

﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي: الواضح المُضِيء، من قولك: أَنَرْتُ الشيءَ أُنِيرُه، أي: أوضحتُه: يُقال: نارَ الشيءَ وأناره ونَوَّره واستناره بمعنًى، وكلُّ واحدٍ منهما

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٩ . وذكرها النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤٢٤ ، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٣، وابن جني في المحتسب ١/ ١٧٧ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٨٠ .

(٣) ديوانه ص٨٥، قال شارحه: كان أهل اليمن يكتبون في عسيب النخلة عهودَهم وصكاكهم. ويُروى: في عسيبِ يمانٍ، على الإضافة أي: أراد في عسيب رجل يماني.

(٤) مجمل اللغة لابن فارس ٢/ ٤٤٧ .

(٥) في (د) و(م): الكلمتين. وقراءة ابن عامر هي من رواية هشام عنه، أما رواية ابن ذكوان عنه فبزيادة الباء في «الزبر» وحده، وقرأ الباقون بغير باء فيهما. السبعة ٢٢١ ، والتيسير ٩٢ .

(٦) ذكره ابن أبي داود في المصاحف ١/ ٢٦٧ ، وزاد نسبتها لأهل الحجاز. وقال الداني في المقنع ص١٠٢ : وفيها [أي: سورة آل عمران] في مصاحف أهل الشام: «وبالزبر وبالكتاب» بزيادة باء في الكلمتين. كذا رواه لي خَلَف بن إبراهيم. . . اهـ. وذكر إسناده إلى أم الدرداء، عن أبي الدرداء، عن مصاحف أهل الشام. وقال: وكذلك حكى أبو حاتم أنهما مرسومان بالباء في مصحف أهل حمص الذي بعث عثمان إلى الشام. اهـ. ونقل كلام أبي حاتم أيضاً ابن الجزري في النشر ٢/ ٢٤٥ ، وقال: وكذا رأيتُه أنا في المصحف الشامي في الجامع الأموي.

لازمٌ ومتَعدٍّ. وجَمَعَ بين الزُّبُر والكتابِ ـ وهُما بمعنًى ـ لاختلاف لفظهما، وأصلهما[١] كما ذَكرنا.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى: لَمَّا أخبرَ جلَّ وتعالى عن الباخلين وكُفرِهم في قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾، وأمرَ المؤمنين بالصَّبر على أذاهم في قوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ الآية، بين أنَّ ذلك مما يَنقضي ولا يدومُ، فإنَّ أمدَ الدُّنيا قريبٌ، ويوم القيامةِ يومُ الجزاء.

﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ من الذَّوق، وهذا ممَّا لا مَحيصَ عنه للإنسان، ولا مَحِيد عنه لحيوان. وقد قال أميةُ بنُ أبي الصَّلْت:

مَنْ لم يَمُتْ عَبْطةً يمُتْ هَرَماً ... لِلموتِ كأسٌ والمَرْءُ ذائِقُها[٢]

وقال آخرُ:[٣]

الموتُ بابٌ وكلُّ الناس داخلُه ... فليتَ شِعْرِيَ بعد البابِ ما الدَّارُ

الثانية: قراءةُ العامَّة: «ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» بالإضافة. وقرأ الأعمشُ ويحيى وابنُ أبي إسحاقَ: «ذائقةٌ الموتَ» بالتنوين ونَصْبِ الموتِ[٤]. قالوا: لأنَّها لم تذق بعدُ. وذلك أن اسم الفاعل على ضربين: أحدُهما أنْ يكون بمعنى المُضِيِّ، والثاني بمعنى الاستقبال؛ فإن أردْتَ الأوَّلَ لم يكن فيه إلَّا الإضافةُ إلى ما بعده، كقولك: هذا

---

(١) في (د) و(م): وأصلها.

(٢) ديوانه ص١٧٢ . وقوله: عَبْطة، أي: شاباً صحيحاً. القاموس (عبط).

(٣) هو أبو العتاهية، والبيت في ديوانه ص١٤١ .

(٤) ذكر قراءة الأعمش ابنُ عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٠، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٣، والزمخشري في الكشاف ١/ ٤٨٥ لليزيدي، وذكرا أن قراءة الأعمش بغير تنوين ذائقة وبنصب الموت، وينظر البحر ٣/ ١٣٣ .

ضاربُ زيدٍ أمسِ، وقاتلُ بَكْرٍ أمسِ؛ لأنَّه يجري مجرى الاسم الجامد، وهو العلم، نحوُ: غلامُ زيدٍ، وصاحبُ بَكْرٍ. قال الشاعر:

الحافِظُو عَوْرَةِ العَشِيرة لا ... يَأتيهِمُ مِن وَرَائهِمْ وَكَفُ[1]

وإن أردتَ الثاني جاز الجرُّ، والنَّصبُ والتَّنوينُ فيما هذا سبيلُه هو الأصل؛ لأنَّه يَجري مجرى الفعل المضارع. فإن كان الفعل غيرَ متعدٍّ، لم يتعدَّ، نحو: قائمٌ زيدٌ. وإن كان متعدِّياً عدَّيتَه ونصبتَ به، فتقولُ: زيدٌ ضاربٌ عَمْراً، بمعنى يَضرب عَمْراً. ويجوزُ حذفُ التَّنوين، والإضافةُ تخفيفاً، كما قال المرَّارُ:[2]

سَلِّ الهُمُومَ بكلِّ مُعطِي رأسِه ... ناجٍ مُخالِطِ صُهْبَةٍ مُتَعَيِّسِ

مُغْتَالِ أَحْبُلِه مُبِينٍ عُنْقُه ... في مَنْكَبٍ زَبَنَ المَطِيَّ عَرَنْدَسِ[3]

فحذَفَ التَّنوينَ تخفيفاً، والأصلُ: مُعْطٍ رأسَه، بالتنوين والنَّصبِ، ومثل هذا أيضاً في التَّنزيل قولُه تعالى: ﴿هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ﴾ [الزمر:٣٨][4] وما كان مثله.

الثالثة: ثم أعلم أنَّ للموتِ أسباباً وأماراتٍ؛ فمن علامات موتِ المؤمن عَرَقُ الجبينِ. أخرجه النَّسائي[5] من حديث بُريدةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «المؤمنُ يموتُ بعَرَق الجَبِين». وقد بيَّناه في «التَّذكرة».[6]

---

(١) البيت لعمرو بن امرئ القيس من قصيدة له في الخزانة ٤/ ٢٧٥، وأورده سيبويه ١/ ١٨٦، وروايته: من ورائنا نَطَف، وينظر ديوان قيس بن الخطيم ص١١٥ و ٢٣٨. قوله: الوَكَف، بفتح الواو والكاف: العيب والإثم. قاله البغدادي في الخزانة.

(٢) بفتح الميم وتشديد الراء الأولى، ابن سعيد الفَقْعَسي، من شعراء الدولة الأموية، وقد أدرك العباسية. خزانة الأدب ٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩، وينظر الشعر والشعراء ٢/ ٦٩٩، والأغاني ١٠/ ٣٧٢.

(٣) البيتان في الكتاب ١/ ٤٢٦، قال الشنتمري في شرحهما ١/ ١٤٠ و ٢/ ٢٤١: المعنى: سلِّ همومَك اللازمة لك بفراق مَن تهواه ونأيِه عنك بكل بعير ترتحلُه للسفر، مُعْطي رأسه، أي: ذلول منقاد، ناجٍ، أي: سريع، والصُّهبة: أن يضرب بياضُه إلى الحمرة، والمتعيِّس: الأبيض، وهو أفضل أنواع الإبل، ثم وصفه بعِظَم الجوف، فإذا شُدَّ رحلُه عليه اغتال أحبُلَه - والاغتيال: الذهاب بالشيء - واستوفاها لعِظَم جوفه، والمبين: البَيِّنُ الطولِ. ومعنى زَبَنَ المطيَّ: زاحم ودافع، والعَرَنْدَسُ: الشديد.

(٤) هي قراءة أبي عمرو، وقرأ باقي السبعة بغير تنوين وخفض «ضرّه». السبعة ص٥٦٢، والتيسير ص١٩٠.

(٥) في سننه ٤/ ٦، وهو في مسند أحمد (٢٢٩٦٤).

(٦) ص١٦.

فإذا احتُضِرَ لُقِّن الشَّهادةَ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لَقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله»[١] لتكونَ آخرَ كلامِه، فيُختمَ له بالشَّهادة، ولا يعادُ عليه منها لئلا يضجَرَ.

ويُستحبُّ قراءةُ «يس» ذلك الوقتِ؛ لقوله عليه الصلاة والسَّلام: «اقرَؤوا يس على مَوْتاكم». أخرجَه أبو داودَ[٢]. وذكر الآجُرِّي في كتاب «النَّصيحة» من حديث أمِّ الدرداء عن النبيِّ ﷺ قال: «ما من ميِّت يُقرأُ عنده سورةُ يس إلا هُوِّن عليه الموتُ».[٣]

فإذا قضى وتَبِع البصرُ الروحَ ـ كما أخبرَ ﷺ في صحيح مسلم ـ[٤] وارتفعت العباداتُ، وزالَ التَّكليفُ، توجَّهت على الأحياء أحكامٌ؛ منها: تغميضُه، وإعلامُ إخوانه الصُّلحَاءِ بموته، وكَرِهه قومٌ وقالوا: هو من النَّعي. والأوَّلُ أصحُّ، وقد بيَّنَّاه في غير هذا الموضع. ومنها الأخذُ في تجهيزه بالغسل والدَّفن؛ لئلا يُسرعَ إليه التغيُّر، قال ﷺ لقوم أخَّروا دفنَ ميِّتهم: «عجِّلوا بدفنِ جِيفَتِكم»[٥]، وقال: «أسرعوا بالجنازة» الحديثَ، وسيأتي.[٦]

فأما غسلُه وهي:

الرابعة[٧]: فهو سُنَّةٌ لجميع المسلمين حاشا الشَّهيد على ما تقدَّم[٨]. وقيل: غسلُه

(١) أخرجه أحمد (١٠٩٩٣)، ومسلم (٩١٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، ومسلم (٩١٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) في سننه (٣١٢١) من حديث معقل بن يسار، وهو في مسند أحمد (٢٠٣٠١)، ونقل الحافظ في التلخيص الحبير ٢/ ١٠٤ عن ابن القطان أنه أعلّه، وعن الدارقطني أنه قال: هذا حديث ضعيف الإسناد مجهول المتن، ولا يصح في الباب حديث.

(٣) وأخرجه أبو نعيم في أخبار أصبهان ١/ ١٨٨ من طريق مروان بن سالم، عن صفوان بن عمرو، عن شريح بن عبيد، عن أبي الدرداء، وشريح لم يسمع من أبي الدرداء كما في تهذيب الكمال ١٢/ ٤٤٧ وتهذيب التهذيب ٢/ ١٦٢ ، ومروان بن سالم؛ قال الدارقطني: متروك، وقال البخاري ومسلم وأبو حاتم: منكر الحديث، وقال الحراني: يضع الحديث. انظر ميزان الاعتدال ٤/ ٩٠ .

(٤) برقم (٩٢٠) من حديث أم سلمة، و (٩٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنهما، وحديث أم سلمة في مسند أحمد (٢٦٥٤٣).

(٥) سلف تخريجه ص٣٤٤ من هذا الجزء .

(٦) في المسألة الخامسة.

(٧) في (ز) و(ظ): وهي الرابعة وفي (م): الثالثة فأما غسله. وكذلك في التعداد التالي إلى نهاية المسائل.

(٨) ٤/ ٢٧٠ .

واجبٌ. قالَه القاضي عبد الوهَّاب(١). والأوَّل مذهبُ الكتاب(٢)، وعلى هذين القولَين العلماءُ.

وسببُ الخلافِ قولُه عليه الصلاة والسَّلام لأمِّ عطيةَ في غَسلها ابنَته زينَب، على ما في كتاب مسلم(٣)، وقيل: هي أمُّ كلثوم، على ما في كتاب أبي داود(٤): «اغْسِلنَها ثلاثاً، أو خمساً، أو أكثرَ من ذلك إن رأيتُنَّ ذلك». الحديث، وهو الأصلُ عند العلماء في غَسلِ الموتى.

فقيل: المرادُ بهذا الأمرِ بيانُ حكمِ الغُسلِ، فيكونُ واجباً.

وقيل: المقصودُ منه تعليمُ كيفيةِ الغُسلِ، فلا يكونُ فيه ما يدُلُّ على الوجوب.

قالوا: ويدُلُّ عليه قوله: «إن رأيتُنَّ ذلك». وهذا يقتضي إخراجَ ظاهرِ الأمرِ [بالغُسل] عن الوجوب؛ لأنَّه فوَّضه إلى نَظَرِهنَّ.

قيل لهم: هذا فيه بُعدٌ؛ لأن ردَّك «إن رأيتُنَّ» إلى الأمر، ليس السَّابقَ إلى الفَهم؛ بل السَّابقُ رجوعُ هذا الشَّرط إلى أقرب مذكورٍ، وهو: «أكثرَ من ذلك»، أو إلى التَّخيير في الأعداد.

وعلى الجملة؛ فلا خلافَ في أن غُسلَ الميِّتِ مشروعٌ معمولٌ به في الشَّريعة لا يُترَكُ. وصفتُه كصِفَة غُسلِ الجنابَةِ على ما هو معروف.

ولا يجاوِزُ السَّبعَ؛ غسلات في غُسل الميِّت بإجماع؛ على ما حكاه أبو عمر(٥). فإنْ خرجَ منه شيء بعدَ السَّبع؛ غُسِلَ الموضعُ وحدَه، وحكمُه حكم الجُنب إذا أحدَثَ بعدَ غسلِه.(٦)

فإذا فَرغَ من غسله كفَّنه في ثيابه، وهي:

الرابعة: والتَّكفينُ واجبٌ عند عامَّة العلماء، فإن كان له مالٌ؛ فمن رأس مالِه عند

(١) ينظر شرح التلقين ٣/ ١١١٣ .

(٢) هو المدونة، والكلام فيه ١/ ١٨٤ - ١٨٥ .

(٣) برقم (٩٣٩). وهو في مسند أحمد (٢٠٧٩٠)، وصحيح البخاري (١٢٥٣).

(٤) في سننه (٣١٥٧) من حديث ليلى بنت قانف، وهو في مسند أحمد (٢٧١٣٥).

(٥) في الكافي ١/ ٢٧٠ .

(٦) المفهم ٢/ ٥٩٢ - ٥٩٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

عامَّة العلماء، إلاَّ ما حُكي عن طاوس أنَّه قال: من الثلث؛ سواء[(١)] كان المالُ قليلاً أو كثيراً.

فإن كان الميِّت ممن تلزمُ غيرَه نفقتُه في حياته من سيِّدٍ - إن كان عبداً - أو أبٍ، أو زوجٍ، أو ابنٍ، فعلى السيِّد باتفاق، وعلى الزَّوج والأب والابن باختلاف. ثمَّ على بيتِ المالِ أو على جماعة المسلمين على الكفاية. والذي يتعيَّن منه بتعيين الفرض سَترُ العورةِ، فإن كان فيه فضلٌ؛ غير أنَّه لا يعمُّ جميعَ الجسدِ؛ غطَّى رأسَه ووجهَه؛ إكراماً لوجهه، وستراً لما يَظهرُ من تغيُّر محاسنه.[(٢)]

والأصلُ في هذا قصَّةُ مُصعب بنِ عُمير، فإنَّه تَرك يوم أحدٍ نَمِرةً[(٣)]؛ كان إذا غُطِّيَ رأسُه خرجَت رِجلاهُ، وإذا غُطِّي رِجلاه خرجَ رأسُه، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «ضَعوها ممَّا يلي رأسَه، واجْعلُوا على رِجلَيه من الإذْخِرِ» أخرجَ الحديثَ مسلمٌ.[(٤)]

والوتر مستحبٌّ عند كافَّة العلماء في الكَفن، وكلُّهم مُجمعون على أنَّه ليس فيه حَدٌّ، والمستحبُّ منه البياضُ، قال ﷺ: «اِلبَسوا من ثيابكم البَياضَ، فإنَّها من خير ثيابكم، وكفِّنوا فيها موتاكم». أخرجه أبو داود.[(٥)]

وكُفِّن ﷺ في ثلاثة أثوابٍ بيضٍ سَحُوليَّة من كُرْسُف[(٦)]. والكَفَنُ في غير البياض جائزٌ إلاَّ أن يكون حريراً أو خَزّاً.[(٧)]

فإن تشاحَّ الورثةُ في الكَفَن[(٨)]؛ قُضي عليهم في مثل لباسِه في جُمعتِه وأعيادِه،

---

(١) لفظة: سواء، من (ظ).

(٢) المفهم ٢/ ٥٩٨.

(٣) النَّمِرة: بُردة من صوف تلبسها الأعراب. مختار الصحاح.

(٤) في صحيحه (٩٤٠) من حديث خبّاب بن الأرت ﷺ، وأخرجه البخاري (١٢٧٦).

(٥) في سننه (٣٨٧٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (٢٢١٩)، وسلف ص٣٠٣ من هذا الجزء.

(٦) أخرجه أحمد (٢٤١٢٢)، والبخاري (١٢٦٤)، ومسلم (٩٤١) من حديث عائشة رضي الله عنها. قوله: سَحولية، نسبة إلى سحول قرية باليمن، والكرسف: بضم الكاف والمهملة بينهما راء ساكنة، هو القطن. فتح الباري ٣/ ١٤٠.

(٧) المفهم ٢/ ٥٩٨ - ٥٩٩.

(٨) في (ظ): الوراثة.

قال ﷺ: «إذا كَفَّن أحدُكم أخاه؛ فَلْيُحسِّن كفنَه». أخرجه مسلم[١]. إلاَّ أنْ يُوصيَ بأقلَّ من ذلك. فإنْ أوصى بسَرفٍ قيل: يَبطلُ الزائدُ. وقيل: يكونُ في الثُّلث. والأوَّلُ أصحُّ، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف:٣١]، وقال أبو بكر: إنَّه للمُهْلَة.[٢]

فإذا فرَغَ من غَسلِهِ وتكفينه، ووُضع على سريره، واحتملَه الرجالُ على أعناقهم، وهي:

الخامسة: فالحكمُ الإسراعُ في المشي؛ لقوله عليه الصلاة والسَّلام: «أسرعوا بالجِنازة، فإن تَكُ صالحةً، فخيرٌ تُقدِّمونها إليه، وإن تكن غيرَ ذلك، فشرٌّ تضعونه عن رقابكم»[٣]. لا كما يفعلُه اليومَ الجهَّالُ في المشي رُويداً، والوقوفِ بها المرَّة بعد المرَّة، وقراءةِ القرآنِ بالألحان إلى ما لا يَحِلُّ ولا يجوز، حسب ما يفعلُه أهلُ الدِّيار المصريَّة بموتاهم.

روى النسائي[٤]: أخبرنا محمد بنُ عبد الأعلى قال: حدثنا خالد قال: أنبأنا عُيينةُ بن عبد الرحمن قال: حدثني أبي قال: شَهدْتُ جِنازةَ عبد الرحمن بن سَمُرة، وخرج زياد يمشي بين يدي السَّرير، فجعل رجالٌ من أهل عبد الرحمن ومواليهم يستقبلون السَّرير، ويمشون على أعقابهم، ويقولون: رُويداً رويداً، بارك الله فيكم. فكانوا يَدِبُّون دَبيباً، حتى إذا كنا ببعض طريق المِرْبَد؛ لَحقَنا أبو بكرة ﷺ على بغلة، فلما رأى الذين يصنعون؛ حمل عليهم ببغلته، وأهوى إليهم بالسَّوْط، فقال: خَلُّوا! فوالذي أكرمَ وجهَ أبي القاسم ﷺ لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ وإنا[٥] لنكادُ نرمُلُ بها

---

(١) في صحيحه (٩٤٣) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (١٤١٤٥).

(٢) المنتقى للباجي ٢/ ٨، وأخرج أحمد (٢٤١٨٦)، والبخاري (١٣٨٧) من حديث عائشة رضي الله عنها أنها دخلت على أبي بكر ﷺ فقال: في كم كفَّنتم رسول الله ﷺ؟ ... فقال: اغسلوا ثوبيَّ هذين، وزيدوا عليه ثوبين، فكفنوني فيها، قلت: إن هذا خَلَق، قال: إن الحيَّ أحقُّ بالجديد من الميت، إنما هو للمُهلة.

قال السندي في شرحه على المسند: المهلة، بضم ميم وكسرها: هي القيح والصديد الذي يذوب ويسيل من الجسد.

(٣) أخرجه أحمد (٧٢٦٧)، والبخاري (١٣١٥)، ومسلم (٩٤٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) في المجتبى ٤/ ٤٢ - ٤٣، وهو في مسند أحمد (٢٠٤٠٠).

(٥) في (م): وإنها.

رَمَلاً. فانبسط القومُ.

وروى أبو ماجدة[١] عن ابن مسعودٍ قال: سألْنا نبيَّنا ﷺ عن المشي مع الجِنازة فقال: «دون الخَبَب، إن يكن خيراً يعجِّلْ إليه، وإن يكن غيرَ ذلك فبعداً لأهل النَّار». الحديث.[٢]

قال أبو عمر[٣]: والذي عليه جماعةُ العلماء في ذلك الإسراعُ فوقَ السَّجية قليلاً، والعَجَلة أحبُّ إليهم من الإبطاء. ويُكره الإسراعُ الذي يَشقُّ على ضَعَفة النَّاس ممن يتبعها. وقال إبراهيمُ النَّخَعي: بَطِّئوا بها قليلاً، ولا تَدِبُّوا دبيبَ اليَهود والنَّصارى. وقد تأوَّل قومٌ الإسراعَ في حديث أبي هريرةَ تعجيلَ الدَّفنِ لا المشي، وليس بشيء لما ذكرنا. وبالله التوفيق.

السادسة: وأما الصَّلاةُ عليه فهي واجبَةٌ على الكفاية، كالجهاد. هذا هو المشهورُ من مذاهب العلماء، مالك وغيره؛ لقوله ﷺ في النَّجاشي: «قوموا فصلُّوا عليه»[٤]. وقال أصْبغ: إنها سُنَّة. ورُوي عن مالك[٥]. وسيأتي لهذا المعنى زيادةُ بيانٍ في «براءة».[٦]

السابعة: وأما دفنُه في التراب ودسُّه وسَتْرُه، فذلك واجبٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١]. وهناك يُذكر حكم بنيانِ القبر وما يُستحبُّ منه، وكيفيَّةُ جعلِ الميِّت فيه. ويأتي في «الكهف»[٧] حكمُ بناءِ المسجدِ عليه، إن شاء الله تعالى.

---

(١) ويقال: أبو ماجد، الحنفي العجلي الكوفي، قال الترمذي: مجهول، وقال النسائي: منكر الحديث، وقال الدارقطني: مجهول متروك. تهذيب الكمال ٣٤/ ٢٤١.

(٢) أخرجه أحمد (٤١١٠)، وأبو داود (٣١٨٤)، والترمذي (١٠١١)، وابن ماجه (١٤٨٤).

(٣) التمهيد ١٦/ ٣٣ - ٣٤، والاستذكار ٨/ ٤١٧ - ٤١٨.

(٤) المفهم ٢/ ٦٠٩، وأخرجه أحمد (١٤١٥٠)، والبخاري (١٣٢٠)، ومسلم (٩٥٢) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

(٥) المنتقى للباجي ٢/ ١١.

(٦) في تفسير الآية (٨٤) منها.

(٧) في تفسير الآية (٢١) منها.

فهذه جملةٌ من أحكام الموتى وما يجبُ لهم على الأحياء.

وعن عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تَسبُّوا الأمواتَ، فإنهم قد أفضَوْا إلى ما قدَّموا». أخرجه مسلم.(١)

وفي سُنن النَّسائي(٢) عنها أيضاً قالت: ذُكر عند النبيِّ ﷺ هالكٌ بسوءٍ، فقال: «لا تذكروا هَلْكاكُم إلا بخير».

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فأَجْرُ المؤمن ثوابٌ، وأجرُ الكافرِ عقابٌ، ولم يعتدَّ بالنِّعمة والبليَّة في الدنيا أجراً وجزاءً؛ لأنَّها عُرضةٌ للفناء.

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ أي: أُبعِدَ. ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾: ظَفِر بما يَرجو، ونجا مما يخافُ.

وروى الأعمش، عن زيد بن وَهْب، عن عبد الرحمن بن عبدِ ربِّ الكعبة، عن عبدالله بن عمرو، عن النَّبي ﷺ قال: «من سَرَّه أن يُزحزَح عن النَّار، وأنْ يدخل الجنَّة، فلْتأتِه منيَّتهُ وهو يشهد أن لا إله إلَّا الله، وأن محمداً رسول الله، ويأتي إلى النَّاس الذي يُحبُّ أنْ يُؤتى إليه».(٣)

وعن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «موضِعُ سَوْطٍ في الجنَّة خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، اقرؤوا إنْ شِئْتم: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾».(٤)

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: تَغرُّ المؤمنَ وتَخدعُه، فيَظُنُّ طولَ البقاءِ وهي فانيةٌ. والمتاعُ ما يُتمتَّع به ويُنتفَعُ، كالفأس والقِدْر والقَصْعَة، ثم يزول ولا يبقى مُلكُه، قالَه أكثرُ المفسِّرين.

قال الحسنُ: كخُضرةِ النَّبات، ولُعبِ البنَات، لا حاصلَ له(٥).

---

(١) لم يخرجه مسلم، وإنما أخرجه البخاري (١٣٩٣)، وهو في مسند أحمد (٢٥٤٧٠)، وينظر الجمع بين الصحيحين لعبد الحق الإشبيلي ٢/ ٣٦ .

(٢) المجتبى ٤/ ٥٢ ، والكبرى (٢٠٧٣).

(٣) أخرجه أحمد (٦٧٩٣)، ومسلم (١٨٤٤) مطولاً.

(٤) أخرجه أحمد (٩٦٥١)، والترمذي (٣٠١٣) وقال: حسن صحيح.

(٥) في (ظ): به.

وقال قتادة: هي متاعٌ متروكٌ، يوشِكُ أنْ تَضمحِلَّ بأهلها، فينبغي للإنسان أنْ يأخذَ من هذا المتاع بطاعةِ الله سبحانه ما استطاع.(١)

ولقد أحسن مَنْ قال:(٢)

هـي الـدَّارُ دارُ الأذى والـقَـذَى ... ودارُ الـفَـنـاءِ ودارُ الـغِـيَـرْ(٣)

فـلـو نِـلْـتَـهـا بـحَـذافـيـرِهـا ... لَـمُـتَّ ولم تَـقْـضِ منـهـا الـوَطَرْ

أيـا مَـنْ يـؤمِّـلُ طُـولَ الـخُـلـودِ ... وطُـولُ الـخـلـودِ عـلـيـه ضَـرَرْ

إذا أنـت شِـبْـتَ وبـانَ الـشَّـبـابُ ... فـلا خيـرَ في الـعيـشِ بـعـد الـكِـبَـرْ

والغَرورُ، بفتح الغَين: الشيطان؛ يَغُرُّ الناسَ بالتَّمنيةِ والمواعيد الكاذبةِ. قال ابن عرفةَ: الغُرور: ما رأيتَ له ظاهراً تُحِبُّه، وفيه باطنٌ مكروهٌ أو مجهول. والشَّيطانُ غَرورٌ، لأنه يَحملُ على مَحابِّ النَّفسِ، ووراءَ ذلك ما يَسوءُ. قال: ومن هذا بيعُ الغَرَر، وهو ما كان له ظاهرُ بيعٍ يَغُرُّ، وباطنٌ مجهول.

قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

هذا الخطابُ للنبيِّ ﷺ وأمَّتِه، والمعنى: لَتُخْتَبَرُنَّ ولَتُمْتَحَنُنَّ في أموالكم بالمصائب والأرزاء، وبالإنفاق في سبيل الله، وسائرِ تكاليفِ الشَّرعِ، والابتلاءِ في الأنفس بالموت والأمراضِ وفقدِ الأحبابِ(٤). وبدأ بذكر الأموالِ لكثرةِ المصائبِ بها.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ إن قيل: لِم ثبتتِ الواوُ في «لَتُبلَوُنَّ»، وحُذفت من «ولَتَسْمَعُنَّ»؟

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٨١ ، وأخرج قول قتادة ابن أبي حاتم ٣/ ٨٣٣ .

(٢) هو أبو العتاهية، والأبيات في ديوانه ص١٦١-١٦٢ على اختلاف في بعض ألفاظه، وأدب الدنيا والدين للماوردي ص١٠٢ .

(٣) في (ظ): العبر.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٠ .

فالجوابُ: أن الواو في «لَتبلونَّ» قبلها فتحةٌ، فحُركت لالتقاءِ السَّاكنين، وخُصَّت بالضَّمة لأنها واوُ الجمعِ، ولم يَجُز حذفُها؛ لأنه[1] ليس قبلها ما يَدلُّ عليها، وحُذفت من «ولَتَسمعُنَّ» لأنَّ قبلها ما يدلُّ عليها. ولا يجوزُ همزُ الواوِ في «لَتبلوُنَّ»؛ لأنَّ حركتَها عارضَةٌ. قاله النَّحَّاسُ[2] وغيرُه.

ويقالُ للواحد من المذكر: لَتُبْلَيَنَّ يا رجلُ، وللاثنين: لتبليانِّ يا رجلانِ. ولجماعة الرجال: لتُبلَوُنَّ.[3]

ونزلت بسبب أنَّ أبا بكر ﷺ سمع يهودياً يقول: إنَّ الله فقيرٌ ونحنُ أغنياءُ، ردّاً على القرآن، واستخفافاً به حين أنزل اللهُ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فلطمه، فشكاه إلى النبيِّ ﷺ، فنزلت. قيل: إن قائلها فِنْحاص اليَهوديُّ، عن عكرمة.[4]

الزُّهريُّ: هو كعبُ بنُ الأشرف؛ نزلت بسببِهِ؛ وكان شاعراً، وكان يهجو النبيَّ ﷺ وأصحابَه، ويُؤَلِّب عليه كفارَ قريشٍ، ويُشبِّب بنساء المسلمين، حتى بعث إليه رسولُ الله ﷺ محمد بنَ مَسْلمةَ وأصحابَه، فقتله القِتْلة المشهورة في السِّيَر وصحيحِ الخَبر[5]. وقيل غير هذا. وكان ﷺ لما قَدِمَ المدينةَ كان بها اليهودُ والمشركون، فكان هو وأصحابُه يَسمعون أذًى كثيراً.

وفي الصحيحين[6] أنه عليه الصلاة والسَّلامُ مرَّ بابنِ أُبَيٍّ وهو عليه الصلاة والسَّلام على حمارٍ، فدعاهُ إلى الله تعالى، فقال ابنُ أُبَيٍّ: إنْ كان ما تقول حقّاً فلا تؤذِنَا به في مجالسنا، ارجعْ إلى رَحلك، فمن جاءَك فاقصُصْ عليه. وقبض على أنفه

---

(١) في (م) لأنها.

(٢) في إعراب القرآن ١/ ٤٢٤ - ٤٢٥ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٩٦ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/ ٥١٩ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥١ . وأخرجه الطبري ٦/ ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥٥١ . والخبر في صحيح البخاري (٤٠٣٧)، وصحيح مسلم (١٨٠١)، وينظر تفسير الطبري ٦/ ٢٩١ - ٢٩٣ .

(٦) صحيح البخاري (٤٥٦٦)، وصحيح مسلم (١٧٩٨) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (٢١٧٦٧).

لئلاّ يُصيبَه غبارُ الحمارِ، فقالَ ابن رَوَاحة: نعم يا رسول الله، فاغْشَنا في مجالسنا، فإنا نُحبُّ ذلك. واستَبَّ المشركونَ الذين كانوا حول ابنِ أُبَيٍّ والمسلمون، وما زال النبيُّ ﷺ يُسكِّنُهم حتَّى سَكنوا[١].

ثم دخل على سعد بنِ عُبادةَ يَعودُه وهو مريض، فقال: «ألم تسمعْ ما قال فلان؟» فقال سعدٌ: اعفُ عنه واصفح، فوالَّذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاءك اللهُ بالحقِّ الذي نَزل، وقد اصطلح أهلُ هذه البُحَيْرة[٢] على أنْ يُتوِّجوه ويُعصِّبوه بالعِصابة، فلما ردَّ اللهُ ذلك بالحقِّ الذي أعطاكَهُ، شَرِقَ[٣] به، فذلك فَعَل به ما رأيت. فعفا عنه رسولُ الله ﷺ، ونزلَت هذه الآيةُ. قيل: هذا كان قبل نُزولِ القتال، ونَدَب اللهُ عبادَه إلى الصَّبْر والتَّقوى، وأخبر أنَّه من عَزم الأمور. وكذا في البخاريِّ في سياق الحديث، أنَّ ذلك كان قبل نُزولِ القتالِ.

والأظهرُ أنَّه ليس بمنسوخ؛ فإنَّ الجدال بالأحسنِ والمُداراةَ أبداً مندوبٌ إليها، وكان عليه الصلاة والسَّلام مع الأمر بالقتال يوادِعُ اليهودَ ويُدارِيهم، ويَصفحُ عن المنافقين، وهذا بيِّنٌ.

ومعنى ﴿عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾: شدُّها وصَلابتُها. وقد تقدَّم.[٤]

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هذا متَّصلٌ بذكر اليهود، فإنَّهم أُمِروا بالإيمان بمحمد عليه الصلاة والسَّلام وبيانِ أمرِه، فكتموا نعتَه.

---

(١) في (خ): يسكّتهم حتى يسكتوا.

(٢) في صحيح البخاري: البحرةُ، وفي رواية له: البحيرة، كما ذكرَ الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٢٣٢ ، وقال: هذا اللفظ يطلق على القرية وعلى البلد، والمراد به هنا المدينة النبوية.

(٣) بفتح المعجمة وكسر الراء، أي: غصَّ به، وهو كناية عن الحسد. فتح الباري ٨/ ٢٣٢ .

(٤) ص٣٨٤ من هذا الجزء.

فالآيةُ توبيخٌ لهم، ثمَّ مع ذلك هو خبرٌ عامٌّ لهم ولغيرهم.(١)

قال الحسن وقتادة: هي في كلِّ من أوتيَ عِلْمَ شيء من الكتاب. فمن عَلِمَ شيئاً فليُعلِّمه، وإيَّاكم وكِتمانَ العلم فإنه هَلَكَةٌ.(٢)

وقال محمد بنُ كعبٍ: لا يَحلُّ للعالم أنْ يسكتَ على علمه، ولا للجاهل أن يَسكُتَ على جهله، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية، وقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].(٣)

وقالَ أبو هريرة: لولا ما أخذَ اللهُ على أهل الكتابِ؛ ما حدَّثتُكم بشيءٍ، ثمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾.(٤)

وقال الحسن بنُ عمارة: أتيتُ الزُّهريَّ بعدما ترك الحديث، فألفيتُه على بابه، فقلتُ: إنْ رأيتَ أنْ تُحدِّثني. فقال: أما علمتَ أني تركتُ الحديث؟ فقلت: إما أن تُحدِّثَني، وإما أنْ أحدِّثَك. قال: حدِّثْني. قلتُ: حدَّثني الحَكَم بنُ عُتَيبة، عن يحيى بن الجزار قال: سمعتُ عليَّ بنَ أبي طالب يقول: ما أخذ اللهُ على الجاهلين أنْ يتعلَّموا حتَّى أخذ على العلماء أنْ يُعلِّموا. قال: فحدَّثني أربعين حديثاً.(٥)

الثانية: الهاء في قوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ ترجع إلى محمَّدٍ ﷺ وإنْ لم يَجْرِ له ذِكرٌ. وقيل: ترجعُ إلى الكتاب، ويدخل فيه بيان أمر النَّبي ﷺ؛ لأنَّه في الكتاب(٦). وقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ ولم يقل: تَكْتُمُنَّهُ؛ لأنَّه في معنى الحال، أي: لتُبيننَّه غيرَ كاتمين.(٧)

وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر وأهل مكَّة: «لَيُبَيِّنُنَّهُ» بالتاء على حكاية

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٥١.

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٨٣، وأخرج الطبري ٦/ ٢٩٦ قول قتادة.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٨٦.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٨٣، وأخرجه الحاكم ١/ ١٠٨ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولا أعلم له علة، ولم يخرجاه. وسلف نحوه ٢/ ٤٨٠.

(٥) تفسير البغوي ١/ ٣٨٣، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٥٢١، والزمخشري في الكشاف ١/ ٤٨٦ قول علي ﷺ دون القصة.

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٥، ومجمع البيان ٤/ ٢٩٢، وزاد المسير ١/ ٥٢١.

(٧) ينظر تفسير الفخر الرازي ٩/ ١٣١.

الخطاب، والباقون بالياء لأنَّهم غُيَّب.(١)

وقرأ ابنُ عباس: «وَإِذْ أَخَذَ اللهُ ميثَاقَ النَّبِيِّينَ لَتُبَيِّنُنَّهُ»(٢)، فيجيءُ قولُه: ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ عائداً على النَّاس الَّذين بيَّنَ لهم الأنبياءُ.(٣)

وفي قراءة ابنِ مسعود «لَيُبَيِّنُونَه»(٤) دونَ النُّونِ الثقيلة.

والنَّبْذ: الطَّرحُ. وقد تقدَّم بيانُه في «البقرة».(٥)

﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾: مبالغة في الاطّراح، ومنه ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود: ٩٢]. وقد تقدَّم في «البقرة» بيانُه أيضاً(٦). وتقدَّم معنى قولِه: ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ في «البقرة» فلا معنى لإعادته. ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ تقدَّم أيضاً(٧). والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾.

أي: بما فعلوا من القُعود في التَّخلُّفِ عن الغَزْوِ، وجاؤوا به من العُذرِ.

ثبت في الصحيحين(٨) عن أبي سعيد الخُدريِّ: أنَّ رجالاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج النَّبيُّ ﷺ إلى الغزو تخلَّفوا عنه، وفرحوا بمَقْعَدِهم خِلافَ رسول الله ﷺ، فإذا قَدم النَّبيُّ ﷺ اعتذروا إليه وحلَفوا، وأحبُّوا أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ الآية.

---

(١) كذا قال المصنف رحمه الله، وهو وهم منه، فإن ابن كثير وأبا عمرو وعاصماً في رواية أبي بكر شعبة عنه قرؤوا: «لَيُبَيِّنُنَّه للناس» بالياء من أسفل، وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وحفص بالتاء للخطاب. السبعة ص٢٢١ والتيسير ص٩٣ .

(٢) في (خ) و (م): ليبيننه (بالياء).

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٥١ . وأخرج الطبري ٦/ ٢٩٧ قراءة ابن عباس، ونقل عنه معناها بقوله: أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم.

(٤) في (د): ليبينوه، وفي (ظ): ليبيننه، وفي المحرر الوجيز ١/ ٥٥١ (وعنه نقل المصنف)، والدر المصون ٣/ ٥٢٤: لتبينونه. وينظر البحر المحيط ٣/ ١٣٦ .

(٥) ٢/ ٢٦٧ .

(٦) ٢/ ٢٦٨ .

(٧) ١/ ٣١٨ .

(٨) صحيح البخاري (٤٥٦٧)، وصحيح مسلم (٢٧٧٧) .

وفي الصحيحين أيضاً[١] أن مَرْوان قال لبوَّابه: اذهب يا رافعُ إلى ابن عباس، فقل له: لئن كان كلُّ امرئٍ منَّا فرح بما أوتي[٢]، وأحبَّ أن يُحمد بما لم يفعل؛ معذَّباً لنعذَّبنَّ أجمعون. فقال ابن عباس: ما لَكم ولهذه الآية؟ إنما أنزلت هذه الآيةُ في أهل الكتاب. ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ و ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾. وقال ابن عباس: سألهم النبيُّ ﷺ عن شيءٍ، فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد أروه أنْ قد أخبروه بما سألهم عنه، واستَحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتَوْا من كتمانهم إيَّاه ما سألَهم عنه.

وقال محمد بنُ كعبٍ القُرَظِيّ: نزلت في علماء بني إسرائيل الذين كتموا الحقَّ، وأتَوا ملوكَهم من العلم ما يوافقهم في باطلهم، ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: بما أعطوهم الملوكُ[٣] من الدُّنيا، فقال الله لنبيِّه ﷺ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فأخبر أنَّ لهم عذاباً أليماً بما أفسدوا من الدِّين على عبادِ الله.[٤]

وقال الضَّحاك: إن اليهودَ كانوا يقولون للملوك: إنا نجدُ في كتابنا أن الله يبعثُ نبيّاً في آخر الزمان يَخْتمُ به النُّبوَّة؛ فلمَّا بعثه اللهُ سألهم الملوك: أهو هذا الذي تجدونه في كتابكم؟ فقالت اليهود طمعاً في أموال الملوك: هو غيرُ هذا، فأعطاهم الملوك الخزائنَ، فقال الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ الملوكَ من الكذب حتى يأخذوا عَرَض الدُّنيا[٥].

والحديث الأولُ خلافُ مقتضى الحديث الثاني. ويحتمل أنْ يكون نزولُها على السببين لاجتماعهما في زمن واحدٍ، فكانت جواباً للفريقين. والله أعلم.

وقوله: واستحمدوا بذلك إليه، أي: طلبوا أنْ يُحمَدوا. وقول مروان: لئن كان

---

(١) صحيح البخاري (٤٥٦٨)، وصحيح مسلم (٢٧٧٨)، وهو في مسند أحمد (٢٧١٢).

(٢) في (خ) و(د): أتى، وهي كذلك في صحيح مسلم.

(٣) كذا في النسخ، وهي لغة، وفي (م): أعطاهم الملوك.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٨٣٨.

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٣٢٣.

كلُّ امرئٍ منَّا .. إلخ، دليلٌ على أنَّ للعموم صِيَغاً مَخصوصةً، وأنَّ «الذين» منها. وهذا مقطوعٌ به من تَفهُّمِ ذلك من القرآن والسُّنَّة.

وقولُه تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ قيل:[١] كانت الآيةُ في أهلِ الكتاب، لا في المنافقين المتخلِّفين؛ لأنَّهم كانوا يقولون: نحن على دين إبراهيمَ، ولم يكونوا على دينه، وكانوا يقولون: نحن أهل الصلاة والصوم والكتاب، يريدون أن يُحمَدوا بذلك.[٢]

و «الذين» فاعل لـ «يحسبن»[٣] بالياء، وهي قراءة نافع وابن عَامر وابن كَثير وأبي عمرو[٤]، أي: لا يَحسبَنَّ الفارحون فرحَهم مُنجياً لهم من العذاب. وقيل: المفعول الأوَّلُ محذوفٌ، وهو أنفسهم. والثَّاني «بمفازة»[٥]. وقرأ الكوفيون: «تَحسبَنَّ» بالتاء على الخطاب للنَّبيِّ ﷺ[٦]؛ أي: لا تحسبَنَّ يا محمدُ الفارحين بمفازةٍ من العذاب.

وقولُه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ بالتَّاء وفتح الباء، إعادةُ تأكيدٍ، ومفعولُه الأوَّل الهاء والميم، والمفعول الثاني محذوفٌ، أي: كذلك، والفاء عاطفةٌ، أو زائدة على بدل الفعل الثَّاني من الأول.

وقرأ الضحاك وعيسى بن عمر بالتاء وضمِّ الباء: «فلا تَحْسبُنَّهم»[٧]، أراد محمداً ﷺ وأصحابه. وقرأ مجاهد وابن كثيرٍ وأبو عمرو ويحيى بن يعمر بالياء وضمِّ الباءِ خبراً عن الفارحين[٨]، أي: فلا يَحسبُنَّ أنفسهم، «بِمَفَازَةٍ» المفعول الثاني. ويكون «فلا يحسبُنَّهم» تأكيداً.

---

(١) في (خ) و(د) و(ز) و(ف) و(م): إذا، والمثبت من (ظ).

(٢) أخرجه الطبري ٦/ ٣٠٢ عن السدي.

(٣) في (خ) و(د) و(ز) و(ف) و(م): بيحسبن، والمثبت من (ظ).

(٤) مع كسر السين لنافع وابن كثير وأبي عمرو، وفتحها لابن عامر السبعة ص٢١٩-٢٢٠ ، والتيسير ص٨٤ و٩٢ .

(٥) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ١٨٢ - ١٨٣ .

(٦) مع فتح السين لعاصم وحمزة، وكسرها للكسائي، وهؤلاء هم الكوفيون. السبعة ص٢١٩-٢٢٠ ، والتيسير ص٨٤ و٩٢ .

(٧) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٣ قراءة الضحاك.

(٨) السبعة ص٢١٩-٢٢٠، والتيسير ص٩٣، وابن كثير وأبو عمرو من السبعة.

وقيل: «الذين» فاعل لـ«يحسبنَّ» ومفعولاها محذوفان لدلالة «يَحسبُنَّهم» عليه، كما قال الشاعر:

بـأيِّ كـتـابٍ أمْ بـأيَّـةِ آيـةٍ ... تَـرى حبَّـهم عـاراً عـليَّ وتَـحسَبُ[(١)]

استغنى بذكر مفعولي الواحد عن ذكر مفعولي[(٢)] الثاني، و «بمفازة» الثاني، وهو بدل من الفعل الأول، فأغنى لإبدالِه منه عن ذكر مفعولَيْه، والفاء زائدةٌ[(٣)].

وقيل: قد تجيء هذه الأفعال مُلْغاةً لا في حكم الجمل المفيدة، نحو قولِ الشاعر:

ومـا خِـلْـت أبـقـى بـيـنـنـا مـن مَـودَّةٍ ... عِراض المَذَاكِي المُسْنِفاتِ القلائِصَا[(٤)]

المَذَاكي: الخيلُ التي قد أتى عليها بعد قُروحها سَنةٌ أو سَنتان، الواحد مُذَكٍّ، مثل المُخْلِف من الإبل، وفي المَثَل: جَرْيُ المُذَكِّيات غِلاء[(٥)]، والمُسْنَفاتُ اسم مفعول، يقال: سَنَفْتُ البعيرَ أسنُفهُ سَنْفاً: إذا كَفَفْتَه بزمامه وأنت راكبُه، وأسنف البعيرَ لغةٌ في سنَفَه، وأَسْنَفَ البعيرُ بنفسه: إذا رفع رأسَه؛ يَتعدَّى ولا يَتعدَّى. وكانت العربُ تركبُ الإبلَ وتَجْنُب الخيلَ، تقول: الحربُ لا تُبقي مودَّة[(٦)]. وقال كعبُ بنُ أبي سُلْمَى:

أرجـو وآمـلُ أن تَـدْنُـو مَـوَدَّتُـهـا ... ومـا إخـالُ لَـدَيْـنـا مـنـكِ تَـنـوِيـلُ[(٧)]

---

(١) البيت للكميت، وهو في ديوانه ص٥١٦ ، والحجة للفارسي ٣/ ١٠٥، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٣، وعندهم: أم بأية سنة.

(٢) في (م): مفعول، في الموضعين.

(٣) ينظر بسط الكلام في هذه المسألة في الدر المصون ٣/ ٥٢٥ - ٥٣١ .

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٣ ، ولم يجود البيت في النسخ، وهو للأعشى في ديوانه ص٢٠١ .

(٥) في (د) و(م): غلاب، وهي رواية في المثل، والمثبت موافق للصحاح (ذكا) وعنه نقل المصنف، والمثل برواية غلاب في الأمثال لأبي عبيد ص٩١ و ١٠٧ ، والكامل للمبرد ص٥٠١ ، وجمهرة الأمثال للعسكري ١/ ٢٩٩ ، وفصل المقال للبكري ص١٢٧، ومجمع الأمثال للميداني ١/ ١٥٨. قال الميداني: والغِلاب: المغالبة، ويروى: غلاء جمع غلوة، يعني أن جريها يكون غَلْوات، يضرب لمن يوصف بالتَّبريز على أقرانه في حَلْبة الفضل.

(٦) الصحاح (سنف).

(٧) البيت في ديوانه ص٨٥ برواية:

أرجـو وآمـل أن يـعـجـلْـن فـي أبـد ... ومـا لـهـنَّ طـوال الـدهـر تـعـجـيـل

وهو في شرح قصيدة بانت سعاد لابن هشام ص٤١ برواية المصنف.

وقرأ جمهورُ القرَّاء السبعة وغيرُهم: «أتوا» بقصر الألف، أي: بما جاؤوا به من الكذب والكتمان.

وقرأ مروانُ بنُ الحَكَم والأعمشُ وإبراهيم النَّخَعِيّ: «آتوا»، بالمدِّ، بمعنى: أعْطَوا. وقرأ سعيد بن جبير: «أُوتُوا» على ما لم يُسمَّ فاعلُه، أي: أُعْطُوا.[١]

والمَفازة: المَنْجاةُ، مَفْعَلَة، من فاز يفوز إذا نجا، أي: ليسوا بفائزين. وسُمِّي موضعُ المخاف[٢] مَفازةً على جهة التَّفاؤل، قاله الأصمعي. وقيل: لأنَّها موضعُ تَفويز ومَظِنَّة هلاكٍ، تقول العرب: فَوَّز الرَّجلُ إذا مات. قال ثعلب[٣]: حكيتُ لابن الأعرابي قولَ الأصمعي، فقال: أخطأ، قال لي أبو المكارم: إنما سُمِّيت مَفازةً، لأنَّ مَن قطعها فاز.

وقال الأصمعيُّ: سُمِّي اللَّدِيغ سليماً تفاؤلاً. قال ابن الأعرابي: لأنه مُسْتَسْلِم لما أصابه.[٤]

وقيل: لا تحسبنهم بمكان بعيد من العذاب؛ لأن الفوز التباعدُ عن المكروه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

هذا احتجاجٌ على الذين قالوا إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء، وتكذيب لهم[٥]. وقيل: المعنى: لا تَظُنَّنَّ الفرحين يَنجُون من العذاب؛ فإن لله كلَّ شيءٍ، وهم في قبضة

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٣، وذكر قراءة الأعمش النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤٢٥، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٣ - ٢٤. وأما قراءة سعيد بن جبير فقد نسبها ابن خالويه ص٢٣ للسلمي عن علي ابن أبي طالب ﷺ.

(٢) في (م): المخاوف.

(٣) ينظر مجالسه ص١٧٠.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٣ وعنه نقل المصنف قول الأصمعي وثعلب، وينظر الصحاح (فوز)، وتهذيب اللغة ١٣/ ٢٦٤. وأبو المكارم: أحد الأعراب الذين أخذ عنهم ابن الأعرابي. ينظر مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص٩٢.

(٥) معاني القرآن للنحاس ١/ ٥٢٣، والوسيط للواحدي ١/ ٥٣٢.

القدير[١]؛ فيكون معطوفاً على الكلام الأوّل، أي: إنهم لا يَنجُون من عذابه، يأخذهم متى شاء.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مُمْكن ﴿قَدِيرٌ﴾ وقد مضى في «البقرة».[٢]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

فيه خمس وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدَّم معنى هذه الآية في

---

(١) في النسخ: التقدير، والمثبت من (م).

(٢) ١/ ٣٣٨ - ٣٣٩.

«البقرة» في غير موضع[١]. فختم تعالى هذه السورة بالأمر بالنَّظر والاستدلال في آياته؛ إذ لا تصدر إلا عن حيٍّ قيوم، قدير، قُدُّوس، سلَام، غنيٍّ عن العالمين؛ حتى يكونَ إيمانُهم مُستنداً إلى اليقين، لا إلى التقليد.

﴿لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾: الذين يستعملون عقولهم في تأمُّلِ الدلائل.

ورُوِي عن عائشةَ رضي الله عنها أنها قالت: لمَّا نزلتْ هذه الآيةُ على النبيِّ ﷺ قام يُصلِّي، فأتاه بلالٌ يُؤْذِنُه بالصلاة، فرآه يبكي، فقال: يا رسول الله، أتبكي وقد غَفَر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟! فقال: «يا بلالُ، أفلا أكون عبداً شكوراً! ولقد أنزلَ اللهُ عليَّ الليلةَ آيةً: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾» ثم قال: «ويلٌ لمَنْ قرأها ولم يَتفكَّر فيها».[٢]

الثانية: قال العلماء: يُستحبُّ لمَنِ انتبه من نومه أن يمسحَ على وجهه، ويستفتحَ قِيامَه بقراءة هذه العشر الآياتِ[٣] اقتداءً بالنبيِّ ﷺ، ثبت ذلك في «الصحيحين» وغيرهما وسيأتي[٤]، ثم يُصلِّي ما كُتب له، فيجمع بين التفكُّر والعمل، وهو أفضلُ العمل على ما يأتي بيانُه في هذه الآية بعد هذا.

ورُوِي عن أبي هريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ كان يقرأُ عشرَ آياتٍ من آخر سورة آل عمران كلَّ ليلة. خرَّجه أبو نصر الوائلي السِّجِسْتاني الحافظ[٥] في كتاب «الإبانة» من

---

(١) ٢/ ٤٩٠.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص/ ١٨٦، وابن حبان (٦٢٠). وأخرج أحمد (٢٤٨٤٤)، والبخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠). عن عائشة رضي الله عنها أن نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطَّر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحبُّ أن أكون عبداً شكوراً».

(٣) في (د) و(ظ): العشر آيات.

(٤) مسند أحمد (٢١٦٤)، وصحيح البخاري (٤٥٧٠)، وصحيح مسلم (٧٦٣): (١٨٢). من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسيذكره المصنف في المسألة الثامنة.

(٥) هو عُبيد الله بن سعيد بن حاتم بن أحمد، شيخ الحرم، وهو راوي الحديث المسلسل بالأولية: «الراحمون يرحمهم الرحمن...»، وكتابه المذكور هو «الإبانة الكبرى» في أن القرآن غير مخلوق، وتوفي سنة (٤٤٤هـ). السير ١٧/ ٦٥٤.

حديث سليمانَ بن موسى، عن مظاهر بن أسلم المخزومي، عن المَقْبُري، عن أبي هريرة[١]. وقد تقدَّم أولَ السورة عن عثمان قال: مَنْ قرأ آخرَ آل عمران في ليلة كُتب له قيامُ ليلة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ ذكَر تعالى ثلاثَ هيئات لا يخلو ابنُ آدمَ منها في غالب أمره، فكأنها تَحصر زمانه، ومن هذا المعنى قولُ عائشةَ رضي الله عنها: كان رسولُ الله ﷺ يذكُر الله على كلِّ أحيانه. أخرجه مسلم[٢]. فدخل في ذلك كونُه على الخلاء وغيرُ ذلك.[٣]

وقد اختلف العلماءُ في هذا، فأجاز ذلك عبدُ الله بن عمرو[٤] وابن سيرين والنَّخَعي، وكره ذلك ابنُ عباس وعطاء والشعبي. والأول أصحُّ لعموم الآية والحديث. قال النَّخَعي: لا بأس بذكر الله في الخلاء، فإنه يَصْعَد[٥]. المعنى: تصعد به الملائكةُ مكتوباً في صُحُفهم، فحذف المُضاف. دليلُه قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١]. ولأن الله عزَّ وجلَّ أمرَ عبادَه بالذِّكر على كلِّ حال ولم يستثنِ فقال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، فعمَّ. فذاكرُ الله تعالى على كلِّ حالاته مُثابٌ مأجورٌ إن شاء الله تعالى.

وذكر أبو نُعيم قال: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثني أبي قال: حدثنا وكيعٌ قال: حدثنا سفيان، عن عطاء بن أبي مروان، عن

---

(١) وأخرجه أيضاً العقيلي في الضعفاء ٢/ ١٤١ ، والطبراني في الأوسط (٦٧٧٣) . قال العقيلي: مظاهر منكر الحديث، قاله البخاري.

(٢) رقم (٣٧٣)، وعلقه البخاري بصيغة الجزم في كتاب الحيض (فتح الباري ١/ ٤٠٧) وهو في مسند أحمد (٢٤٤١٠) .

(٣) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٥٤ .

(٤) في النسخ الخطية: عبدالله بن عمر، والمثبت من (م) وإكمال المعلم ٢/ ٢٣٠ حيث ذكر القاضي عياض هذه الأقوال وصرَّح ثمة أنه عبدالله بن عمرو بن العاص.

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٣٠ .

أبيه، عن كعب الأحبار قال: قال موسى عليه السلام: يا ربِّ، أقريبٌ أنت فأُناجيَك، أم بعيد فأُناديَك؟ قال: يا موسى، أنا جليسُ مَن ذكرني. قال: يا ربِّ، فإنَّا نكون من الحال على حال نُجِلُّك ونُعظِّمك أن نَذْكُرَك. قال: وما هي؟ قال: الجنابة والغائط. قال: يا موسى، أُذْكُرني على كلِّ حال.(١)

وكراهيةُ من كَرِه ذلك إمَّا لِتنزيه ذِكْر الله تعالى في المواضع المَرْغوبِ عن ذِكْره فيها، ككراهيةِ قراءة القرآن في الحمَّام، وإما إبقاء على الكرام الكاتبين على أنْ يُحِلَّهم موضعَ الأقذار والأنجاس لِكتابة ما يَلفِظُ به. والله أعلم.

و﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ نصب على الحال. ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ في موضع الحال، أي: ومضطجعين، ومثله قولُه تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس:١٢] على العكس، أي: دعانا مضطجعاً على جَنبه.

وذهب جماعةٌ من المفسرين ـ منهم الحسنُ وغيره ـ إلى أن قوله: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ إلى آخره، إنما هو عبارةٌ عن الصلاة، أي: لا يُضيِّعونها، ففي حال العذر يُصلُّونها قعوداً أو على جُنوبهم. وهي مثلُ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣](٢) في قول ابن مسعود(٣) على ما يأتي بيانُه.

وإذا كانت الآيةُ في الصلاة فَفِقْهُها أنَّ الإنسان يُصلِّي قائماً، فإن لم يستطِعْ فقاعداً، فإنْ لم يستطِعْ فعلى جَنْبه، كما ثبتَ عن عِمرانَ بن حُصين قال: كان بي

---

(٣) حلية الأولياء ٦/ ٤٢ . وهو من الإسرائيليات. وفي معنى قوله: «أقريب أنت فأناجيَك...» عن معاوية ابن حيدة أن سائلاً قال للنبي ﷺ: يا محمد، أقريب ربُّنا فنناجيَه، أم بعيدٌ فنناديَه، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾. أخرجه الطبري في التفسير ٣/ ٢٢٢ - ٢٢٣ ، وفي إسناده الصُّلب بن حكيم، ذكره الحافظ ابن حجر في لسان الميزان ٣/ ١٩٥ وسمَّاه الصلت، وقال: مجهول، وذكر الحديث. وقوله: أنا جليس من ذكرني، . ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة ص٩٥ ، وقال: رواه الديلمي بلا سند عن عائشة مرفوعاً. وقال ص٩٦ : وعند البيهقي [في شعب الإيمان (٥١٠)] معناه في المرفوع من حديث أبي هريرة: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه». وانتهى كلام السخاوي. وفي حديث أبي هريرة أيضاً يرفعه: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بيُ وأنا معه إذا ذكرني...» أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٤ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٨٤١ .

البَواسِيرُ، فسألتُ النبيَّ ﷺ عن الصلاة، فقال: «صَلِّ قائماً، فإنْ لم تستطِعْ فقاعداً، فإنْ لم تَستطِعْ فعلى جَنب» رواه الأئمة.[١]

وقد كان ﷺ يُصلِّي قاعداً قبل موته بعام في النافلة، على ما في «صحيح» مسلم[٢]. وروى النسائيُّ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُصلِّي متربِّعاً. قال أبو عبد الرحمن: لا أَعلمُ أحداً روى هذا الحديثَ غيرَ أبي داود الحَفَرِيّ، وهو ثقةٌ، ولا أحسَب هذا الحديثَ إلا خطأ. والله أعلم.[٣]

الرابعة: واختلف العلماءُ في كيفية صلاة المريض والقاعد وهيئتها، فذكر ابنُ عبد الحكم عن مالك أنه يتربَّع في قيامه[٤] ـ وقاله البُوَيْطيُّ عن الشافعيّ ـ فإذا أراد السجودَ تهيَّأ للسجود على قدر ما يُطيق، قال: وكذلك المُتنفِّل. ونحوه قولُ الثوري، وكذلك قال اللَّيث وأحمد وإسحاق وأبو يوسف ومحمد. وقال الشافعيّ ـ في رواية المُزَنيّ ـ: يَجلِسُ في صلاته كلِّها كجلوس التشهد. ورُوي هذا عن مالك وأصحابه، والأوَّلُ المشهور، وهو ظاهر «المدوّنة»[٥]. وقال أبو حنيفة وزُفَر: يجلسُ كجلوس التشهد، وكذلك يركع ويَسْجد.[٦]

الخامسة[٧]: فإنْ لم يستطع القعودَ، صلَّى على جَنْبه أو ظَهْره على التخيير، هذا مذهب «المدوَّنة»[٨]. وحكى ابنُ حبيب عن ابن القاسم: يُصلِّي على ظهره، فإنْ لم

---

(١) مسند أحمد (١٩٨١٩)، وصحيح البخاري (١١١٧)، وسنن أبي داود (٩٥٢)، وسنن الترمذي (٣٧٢)، وسنن ابن ماجه (١٢٢٣).

(٢) رقم (٧٣٣) من حديث حفصة رضي الله عنها، وهو في مسند أحمد (٢٦٤٤٢).

(٣) المجتبى ٣/ ٢٢٤. أبو عبد الرحمن: هو النسائي، وأبو داود الحَفَري هو عمر بن سعد بن عبيد، مات سنة (٢٠٣ هـ). تقريب التهذيب.

(٤) رواية ابن عبد الحكم عن مالك ـ كما في التمهيد ١/ ١٣٧، والاستذكار ٥/ ٤١٣ ـ أنه يتربَّع في قيامه وركوعه.

(٥) ١/ ٧٦ - ٧٧.

(٦) التمهيد ١/ ١٣٧، والاستذكار ٥/ ٤١٤.

(٧) بعدها في (م): قال.

(٨) ١/ ٧٧.

يستطِعْ فعلى جَنْبه الأيمن، ثم على جَنْبه الأيْسر. وفي كتاب ابن الموَّاز عَكْسُه؛ يُصلِّي على جَنْبه الأيمن، وإلا فعلى الأيسر، وإلا فعلى الظَّهر. وقال سحنون: يُصلِّي على الأيمن كما يُجعل في لَحْده، وإلا فعلى ظَهْره، وإلا فعلى الأيسر[(١)]. وقال مالك وأبو حنيفة[وأصحابُهما] إذا صلَّى مضطجعاً تكون رجلاه مما يَلي القِبلة [مستقبل القبلة]. [وقال:] الشافعيّ والثوريّ: يُصلِّي على جَنْبه، ووجهُه إلى القِبلة.[(٢)]

السادسة: فإنْ قَوِيَ لخِفَّة المرض وهو في الصلاة، قال ابن القاسم: إنه يقومُ فيما بَقِيَ من صلاته ويَبني على ما مضَى، وهو قول الشافعيّ وزُفَر والطبري. وقال أبو حنيفة وصاحباه يعقوبُ ومحمد فيمن صلَّى مضطجعاً ركعةً ثم صحَّ: إنه يستقبلُ الصلاةَ من أوَّلها، ولو كان قاعداً يركع ويسجد، ثم صحَّ، بنَى في قول أبي حنيفة، ولم يَبْنِ في قول محمد. وقال أبو حنيفة وأصحابه: إذا افتتحَ الصلاةَ قائماً، ثم صار إلى حَدّ[(٣)] الإيماء فَلْيَبْنِ، ورُوي عن أبي يوسف [أنه يستقبل]. وقال مالك في المريض الذي لا يستطيعُ الركوعَ ولا السجودَ وهو يستطيعُ القيامَ والجُلوس: إنه يُصلِّي قائماً ويُومئ إلى الركوع، فإذا أراد السجودَ جلَس وأَوْمأ إلى السجود؛ وهو قولُ أبي يوسف، وقياسُ قول الشافعيّ. وقال أبو حنيفة وأصحابه: يُصلِّي قاعداً.[(٤)]

السابعة: وأما صلاةُ الراقد الصحيح، فرُوِيَ من حديث عِمران بن حُصين زيادةٌ ليست موجودةً في غيره، وهي: «صلاةُ الراقدِ مِثْلُ نصف صلاةِ القاعد». قال أبو عمر[(٥)]: وجمهور أهل العلم لا يُجيزُون النافلةَ مضطجعاً، وهو حديثٌ لم يَرْوِهِ إلا حسينٌ المعلِّم ـ وهو حسين بن ذَكْوان ـ عن عبدالله بن بُرَيْدة، عن عِمران بن حُصين.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٤، وينظر النوادر والزيادات ١/ ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٢) التمهيد ٢٢/ ١٢٣. وما بين حاصرتين منه.

(٣) في التمهيد والاستذكار: حال.

(٤) التمهيد ٢٢/ ١٢٢، والاستذكار ٥/ ٤١٢ - ٤١٣، وما بين حاصرتين منهما.

(٥) في التمهيد ١/ ١٣٤، والكلام الذي قبله منه، وحديث عمران بن حصين ﷺ أخرجه بنحوه أحمد (١٩٨٨٧)، والبخاري (١١١٥)، والترمذي (٣٧١)، والنسائي ٣/ ٢٢٣ - ٢٢٤. ولفظه «إنْ صلى قائماً فهو أفضل، ومن صلّى قاعداً فله نصف أجر القائم، ومن صلى نائماً فله نصف أجر القاعد». لفظ البخاري.

وقد اختُلف على حسين في إسناده ومَتْنه اختلافاً يُوجب التوقّف عنه، وإن صحَّ فلا أدري ما وجهه؛ فإنْ كان أحدٌ من أهل العلم قد أجاز النافلةَ مضطجعاً لمن قدر على القُعود أو على القيام فوجهه هذه الزيادة في هذا الخبر، وهي حُجّةٌ لمن ذهب إلى ذلك. وإنْ أجمعوا على كراهة النافلة راقداً لمن قدر على القعود أو القيام، فحديثُ حسين هذا إمّا غلطٌ، وإما منسوخ.

وقيل: المرادُ بالآية الذين يستدلُّون بخلق السماوات والأرض على أن المتغيِّر لابدَّ له من مُغيِّر، وذلك المُغيِّر يجب أن يكون قادراً على الكمال، وله أن يبعثَ الرُّسل، فإذا[١] بعث رسولاً ودلَّ على صِدْقه بمعجزة واحدةٍ لم يَبْقَ لأحد عذرٌ، فهؤلاء هم الذين يذكرون اللهَ على كلِّ حال. والله أعلم.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قد بيَّنّا معنى[٢] «يذكرون»، وهو إما الذِّكر[٣] باللسان، وإما الصلاةُ فَرْضُها ونَفْلُها؛ فعطفَ تعالى عبادةً أُخرى على إحداهما بعبادة[٤] أخرى، وهي التفكّر في قُدرة الله تعالى ومخلوقاته والعِبَرِ التي بثَّ[٥]؛ ليكون ذلك أَزْيدَ في بصائرهم:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تَدُلُّ على أنه واحدُ[٦]

وقيل: «يتفكرون» عطفٌ على الحال. وقيل: يكون منقطعاً[٧]؛ والأوّل أشبهُ.

والفكرةُ: تردُّد القلب في الشيء، يقال: تفكّر، ورجل فِكِّير: كثيرُ الفِكْر[٨].

---

(١) في (م): فإن.

(٢) في النسخ: أن معنى، والمثبت من (م).

(٣) في (د) و(م): ذكر.

(٤) في (خ): لعبادة.

(٥) في (خ) و(م): الذي بث، وفي (د): الذي نبه به، وفي (ظ): التي أتت، والمثبت من المحرر الوجيز ١/ ٥٥٥ والكلام منه.

(٦) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص١٠٤ .

(٧) ينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٦ .

(٨) مجمل اللغة ٣/ ٧٠٤ .

ومرَّ النبيُّ ﷺ على قوم يتفكَّرون في الله، فقال: «تفكَّروا في الخَلْق، ولا تتفكَّروا في الخالق، فإنَّكم لا تقدرون قدره»(١).

وإنما التفكُّر والاعتبار وانبساطُ الذِّهن في المخلوقات كما قال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٢).

ويُحكى(٣) أن سفيانَ الثوريّ ﷺ صلَّى خلفَ المقام ركعتين، ثم رفع رأسَه إلى السماء، فلما رأى الكواكب غُشِيَ عليه(٤)، وكان يبولُ الدَّم من طول حُزنه وفِكرته.(٥)

وروي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بينما رجلٌ مُستلقٍ على فراشِه إذْ رَفَع رأسَه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال: أشهدُ أن لكِ ربّاً وخالقاً، اللهم اغفِرْ لي، فنظر اللهُ إليه، فغفَرَ له»(٦) وقال ﷺ: «لا عبادةَ كتفكُّر».(٧)

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسنده ضعيف لجهالة الراوي عن ابن عباس. وبرقم (٤) من حديث أبي ذر ﷺ بالمرفوع منه، وفي إسناده سيف بن محمد الكوفي قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: كذَّبوه.

وأخرج المرفوع أيضاً الطبراني في الأوسط (٦٣١٥) وأبو الشيخ (١)، والبيهقي في الشعب (١٢٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ٤/ ٣٢٧، ولفظه: «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله». وفي إسناده الوازع بن نافع العُقيلي. قال الذهبي في ميزان الاعتدال ٤/ ٣٢٧: قال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك الحديث، وقال أحمد وابن معين: ليس بثقة.

وأخرجه بنحوه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٦٦ - ٦٧ من حديث عبدالله بن سلام ﷺ. وفي إسناده عبد الجليل ابن عطية، وهو صدوق يهم، وشهر بن حوشب، وهو صدوق كثير الإرسال والأوهام.

وذكر صاحب كشف الخفاء ١/ ٣٧٢ طرقاً أخرى ضعيفة للحديث، وقال: لكن اجتماعها يكسبه قوة، ومعناه صحيح، وفي صحيح مسلم (١٣٤) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا، خلقَ اللهُ الخلقَ، فمن خلقَ الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً، فليقل: آمنتُ بالله».

(٢) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٥٥.

(٣) في (م): وحكي.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ١٧، وفي إسناده أبو عِصمة نوح بن أبي مريم المروزي قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يَضَع.

(٥) أخرجه أبو نعيم ٧/ ٢٣، والبيهقي في الشعب ١/ ٥٣٥.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (١٠٦)، وفي إسناده عبدالله بن جعفر بن نَجيح السَّعدي أبو علي بن المديني. قال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب ٢/ ٣١٥: قال ابن معين: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: منكر الحديث جداً، وقال النسائي: متروك الحديث. قال علي بن المديني: أبي صدوق، وهو أحب إلي من الدراوردي.

(٧) أورده الزمخشري في كشافه ١/ ٤٨٨ ـ مع الأخبار السابقة ـ وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٥ =

ورُوي عنه عليه الصلاة والسلام[١]: «تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سنة»[٢]. وروى ابنُ القاسم عن مالك قال: قيل لأمّ الدرداء: ما كان أكثرُ شأن أبي الدرداء؟ قالت: كان أكثرُ شأنه التفكُّر. قيل له: أفترى التفكُّرَ عملاً[٣] من الأعمال؟ قال: نعم، هو اليقين[٤]. وقيل لابن المسيّب في الصلاة بين الظهر والعصر، قال: ليست هذه عبادةً، إنما العبادةُ الوَرَع عمّا حرَّم الله، والتفكُّر في أمر الله[٥].

وقال الحسن: تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلة، وقاله ابنُ عباس وأبو الدرداء[٦]. وقال الحسن: الفِكْرةُ مرآةُ المؤمن ينظرُ فيها إلى حسناته وسيئاته.[٧]

ومما يُتفكَّر[٨] فيه مخاوفُ الآخرة من الحَشْر والنَّشْر، والجنة ونعيمِها، والنار وعذابها.

يُروى أن أبا سليمان الداراني ﷺ أخذَ قَدَحَ الماء ليتوضأ لصلاة الليل وعنده ضيفٌ، فرآه لمّا أدخل أصبعه في أُذن القَدَح أقام لذلك متفكّراً حتى طلع الفجر، فقال له: ما هذا يا أبا سليمان؟! قال: إني لمّا طرحتُ أصبعي في أُذن القدح تفكَّرتُ في قول الله تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١]، ففكرت[٩] في حالي، وكيف أتلقَّى الغُلَّ إنْ طُرح في عُنقي يوم القيامة، فما زِلتُ في ذلك حتى

= ولم نقف عليه بهذا اللفظ، ولا على إسناده. وانظر ما بعده.

(١) بعدها في (م): قال.

(٢) أورده أبو الليث في تفسيره ١/ ٣٢٤، ونسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٥ لِسَرِيّ السَّقَطي، وقالَ مُلّا علي القاري في المصنوع (٩٤): ليس بحديث، إنما هو من كلام السَّري السقطي رحمه الله تعالى.

(٣) في (م): عمل، وهو خطأ.

(٤) أورده ابن رشد في البيان والتحصيل ١٧/ ٥٨٠، وقوله: قيل له: افترى التفكر.. يعني لمالك. وأخرجه من غير طريق مالك أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٠٨، والبيهقي في الشعب (١١٩).

(٥) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٨٣٠).

(٦) أخرج قول الحسن أبو نعيم في الحلية ٦/ ٢٧١، وأخرج قول ابن عباس رضي الله عنهما أبو الشيخ في العظمة (٤٣)، وأخرج قول أبي الدرداء أبو نعيم ١/ ٢٠٨-٢٠٩، والبيهقي في الشعب (١١٨).

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٥، وإتحاف السادة المتقين ١٠/ ١٦٣.

(٨) في النسخ: ومن التفكر، والمثبت من (م).

(٩) في (د) و(م): تفكرت.

أصبحتُ. قال ابن عطية[(١)]: وهذا نهايةُ الخوف، وخيرُ الأمور أوساطها، وليس علماءُ الأمة ـ الذين هم الحُجّة ـ على هذا المِنْهاج، وقراءةُ علم كتاب الله تعالى ومعاني سنة رسوله[(٢)] ﷺ لمن يَفْهم ويُرجَى نفعُه أفضلُ من هذا.

قال ابن العربيّ: اختلف الناس أيُّ العملين أفضل: التفكُّر أم الصلاة؛ فذهب الصوفية إلى أن التفكُّر أفضلُ؛ فإنه يُثَمِّر المعرفةَ، وهو أفضلُ المقامات الشرعية. وذهب الفقهاءُ إلى أن الصلاة أفضلُ؛ لما وردَ في الحديث من الحَثِّ عليها، والدُّعاء إليها، والترغيبِ فيها.

وفي «الصحيحين»: عن ابن عباس أنه باتَ عند خالته ميمونةَ، وفيه: فقام رسولُ الله ﷺ، فمسحَ النومَ عن وَجْهه، ثم قرأَ العَشْرَ الآياتِ[(٣)] الخواتِمَ من سورة آل عمران، وقام إلى شَنٍّ معلَّق، فتوضأ وضوءاً خفيفاً، ثم صلَّى ثلاثَ عشرة ركعةً، الحديث.[(٤)]

فانظروا رحمكم الله إلى جَمْعه بين التفكُّر في المخلوقات ثم إقباله على صلاته بعدَه؛ وهذه السُّنة هي التي يُعتَمدُ عليها. فأما طريقةُ الصوفية أن يكون الشيخُ منهم يوماً وليلة وشهراً مُفكِّراً[(٥)] لا يَفْتُر؛ فطريقةٌ بعيدةٌ عن الصواب، غيرُ لائقة بالبشر، ولا مُستمرَّة على السنن.

قال ابن عطية[(٦)]: وحدثني أبي عن بعض علماء الشرق[(٧)] قال: كنتُ بائتاً في مسجد الأقدام بمصر، فصلَّيت العَتَمةَ، فرأيتُ رجلاً قد اضطجع في كِساءٍ له مسجًّى بكسائه حتى أصبح، وصلَّينا نحن تلك الليلةَ؛ فلما أُقيمتْ صلاةُ الصبح، قام ذلك

---

(١) في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٥ ، وما قبله منه.

(٢) في (م) والمحرر الوجيز: رسول الله.

(٣) في (د) و(م): الآيات العشر، وفي (ظ): العشر آيات، والمثبت من (خ).

(٤) صحيح البخاري (١٨٣)، وصحيح مسلم (٧٦٣). وهو في مسند أحمد (٢١٦٤). وقوله: شن، أي قِربة. النهاية ٢/ ٥٠٧ .

(٥) في (د): يومه وليله وشهره متفكراً.

(٦) في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٥ .

(٧) في (م) والمحرر الوجيز: المشرق.

الرجل، فاستقبلَ القبلة، وصلَّى مع الناس، فاستعظمتُ جُرأته في الصلاة بغير وضوء، فلما فَرغتِ الصلاةُ، خرج فتبِعتُه لأعِظَه، فلما دنوتُ منه سمعتُه يُنشد شعراً:

مُنسجِن[١] الجسمِ غائبٌ حاضر ... مُنْتَبِه القلبِ صامتٌ ذاكِر
مُنقبِضٌ في الغُيوب مُنبسِط ... كذاك من كان عارفاً ذاكِر[٢]
يَبيتُ في ليلهِ أخا فِكَرٍ ... فهو مَدَى الليلِ نائمٌ ساهر

قال: فعلمتُ أنه ممن يعبدُ بالفكرة، فانصرفتُ عنه.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي: يقولون: ما خلقتَه عَبَثاً وهَزْلاً، بل خلقتَه دليلاً على قُدرتك وحِكمتك. والباطلُ: الزائِل الذاهب؛ ومنه قول لَبيد:

ألا كلُّ شيءٍ ما خَلاَ اللهَ باطِلُ[٣]

أي: زائل.

و«باطِلاً» نُصِب لأنه نعتُ مصدرٍ محذوف؛ أي: خلقاً باطلاً. وقيل: انتصَب على نَزْع الخافض، أي: ما خلقتَها للباطل. وقيل: على المفعول الثاني، ويكون خَلَق بمعنى جعل.[٤]

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أسند النحاسُ عن موسى بن طلحة قال: سُئل رسول الله ﷺ عن معنى «سبحان الله» فقال: «تنزِيهُ الله عن السُّوء»[٥] وقد تقدَّم في «البقرة» معناه مستوفًى.

---

(١) كذا في (خ) و(ظ): منسجن وتفسير الثعالبي ١/ ٣٤١، وفي (م): مسجًّى، وفي (د): سجي، وفي المحرر الوجيز: منسحق.

(٢) في المحرر الوجيز: ذاكرا.

(٣) سلف ٢/ ٢١.

(٤) ينظر البحر المحيط ٣/ ١٤٠.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٦، وهو مرسل؛ موسى بن طلحة ليس له رواية عن النبي ﷺ، وله رؤية مات سنة ست ومئة. الإصابة ٩/ ٣٢٧. وذكر الخبر الدارقطني في العلل ٤/ ٢٠٨ وأورد له طريقاً آخر موصولاً، ثم قال: والمرسل أصح.
وسلف ١/ ٤١٢ من حديث طلحة بن عبيد الله ﷺ والد موسى، وسلف الكلام عليه ثمة.

﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: أَجِرْنا من عذابها، وقد تقدَّم.[١]

العاشرة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أي: أَذْلَلتَه وأهنتَه. وقال المُفضَّل: أَهْلكتَه[٢]، وأنشد:

أَخْزَى الإلهُ من الصَّليب عَبِيدَه والـلَّابسيـن قَـلانِسَ الرُّهبـانِ[٣]

وقيل: فضحتَه وأَبعدتَه؛ يقال: أخزاه الله: أبعده ومَقَتَه. والاسم الخِزْيُ. قال ابن السِّكِّيت: خَزِيَ يَخْزَى خِزْياً: إذا وقع في بَلِيَّة.[٤]

وقد تمسَّك بهذه الآيةِ أصحابُ الوعيد وقالوا: مَن أُدخِل النار ينبغي ألا يكون مؤمناً، لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾، فإن الله يقول: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم:٨]. وما قالوه مردودٌ؛ لِقيام الأدلة على أن من ارتكبَ كبيرةً لا يزولُ عنه اسمُ الإيمان[٥]، كما تقدّم ويأتي.

والمراد من قوله: ﴿مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ﴾ مَن تُخلِّد في النار، قاله أنس بن مالك. وقال قتادة: تُدخِل مقلوبُ تُخلد، ولا نقول كما قال أهل حروراء.

وقال سعيد بن المسيّب: الآية خاصةٌ في قوم لا يخرجُون من النار، ولهذا قال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: الكفار.[٦]

وقال أهل المعاني: الخِزْي يَحتمل أن يكون بمعنى الحَيَاء؛ يقال: خَزِيَ يَخْزَى خَزَايةً، إذا استحيا، فهو خَزْيان. قال ذو الرُّمة:

خَـزَايـةٌ أدركَـتْـه عـنـد جَـوْلَـتِـه من جانب الحَبْلِ مخلوطاً بها الغضبُ[٧]

---

(١) ٣/ ٣٥٧.

(٢) في (م): أي: أهلكته.

(٣) أورده الطبرسي في مجمع البيان ٢/ ٣٠٢. وفيه: إلهه، بدل: عبيده. وملابس، بدل: قلانس.

(٤) ينظر تهذيب اللغة ٧/ ٤٩٢.

(٥) ينظر تفسير الرازي ٩/ ١٤١ - ١٤٢.

(٦) ينظر تفسير البغوي ١/ ٣٨٦ وأخرج قولي أنس وسعيد بن المسيب الطبري ٦/ ٣١٢. وقول قتادة أخرجه الطبري ١٢/ ٥٨٠، والطحاوي في شرح مشكل الآثار ١٤/ ٣٤٧ دون قوله: تدخل مقلوب تخلد.

(٧) ديوان ذي الرمة ١/ ١٠٣. قال شارحه: الحبل: الكثيب. وينظر مجمع البيان للطبرسي ٢/ ٣٠٢.

فخِزْيُ المؤمِنين يومئذ استحياؤهم في دخول النار من سائر أهل الأديان إلى أن يخرجوا منها. والخِزْيُ للكافرين هو إهلاكُهم فيها من غيرِ موت، والمؤمنون يموتون، فافترقوا. كذا ثبتَ في «صحيح» السنة من حديث أبي سعيد الخُدريّ، أخرجه مسلم، وقد تقدَّم ويأتي.(١)

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ﴾ أي: محمداً ﷺ؛ قاله ابنُ مسعود وابن عباس وأكثرُ المفسرين.

وقال قتادة ومحمد بن كعب القُرَظيّ: هو القرآن، وليس كلُّهم سمع رسولَ الله ﷺ. دليلُ هذا القول ما أخبر الله تعالى عن مؤمِني الجِنّ إذ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١و٢].(٢)

وأجاب الأوّلون فقالوا: مَن سمع القرآنَ فكأنما لقي النبيَّ ﷺ، وهذا صحيح معنًى.

و«أنْ» مِنْ ﴿أَنْ ءَامِنُوا﴾ في موضع نصب على حَذْف حرف الخَفْض، أي: بأنْ آمنوا(٣). وفي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: سمعنا منادياً للإيمان يُنادي. عن أبي عُبيدة.(٤)

وقيل: اللام بمعنى إلى، أي: إلى الإيمان؛ كقوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة:٨]، وقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة:٥]، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا﴾ [الأعراف:٤٣]. أي: إلى هذا، ومِثْلُه كثير(٥). وقيل: هي لام أجل، أي: لأجل الإيمان.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ تأكيدٌ ومبالغة في الدعاء. ومعنى اللفظين واحدٌ، فإنّ الغَفْر والكَفْر: السّتر.

---

(١) تقدم ١/ ٣٧٥ ، وسيأتي في تفسير الآية (١٠) من سورة النساء. المسألة الثالثة.

(٢) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٣١٤ - ٣١٥ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٨٦ .

(٣) مشكل إعراب القرآن ١/ ١٨٤ .

(٤) مجاز القرآن ١/ ١١١ .

(٥) ينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٥٠ .

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ أي: أبراراً مع الأنبياء، أي: في جُملتهم. واحدُهم بَرٌّ وبَارٌّ، وأصلُه من الاتّساع، فكأن البَرَّ مُتَّسِعٌ في طاعة الله، ومُتَّسِعةٌ له رحمةُ الله.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي: على ألسِنة رُسُلك؛ مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[(١)] [يوسف: ٨٢].

وقرأ الأعمش والزهريّ: «رُسْلِكَ» بالتخفيف[(٢)]. و[يقال:] هو ما ذكر من استغفار الأنبياء والملائكة للمؤمنين، والملائكة يستغفِرون لمن في الأرض. وما ذكر من دعاء نوح للمؤمنين ودعاءِ إبراهيم، واستِغفارِ النبيِّ ﷺ لأُمّته.[(٣)]

﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ أي: لا تُعذِّبنا، ولا تُهلِكنا، ولا تَفْضحنا، ولا تُهِنَّا، ولا تُبعِدنا، ولا تَمقُتنا يومَ القيامة ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.[(٤)]

إن قيل: ما وجهُ قولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ وقد علموا أنه لا يُخلف المِيعاد؛ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أنّ الله سبحانه وَعَدَ مَن آمن بالجنة، فسألوا أن يكونوا ممن وُعِد بذلك دون الخِزْيِ والعِقاب.

الثاني: أنهم دَعَوا بهذا الدعاء على جِهة العبادة والخُضوع؛ والدُّعاءُ مُخُّ العبادة. وهذا كقوله: ﴿قُلْ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾[(٥)] [الأنبياء: ١١٢]. وإنْ كان[(٦)] لا يقضي إلّا بالحقّ.

الثالث: سألوا أن يُعْطَوا ما وُعِدوا به من النَّصر على عدوِّهم مُعَجَّلاً؛ لأنها حكايةٌ عن أصحاب النبيِّ ﷺ، فسألوه ذلك إعزازاً للدِّين. والله أعلم.[(٧)]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٧، وينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٥٦.

(٢) ذكر قراءة الأعمش ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٦، وأبو حيان في البحر ٣/ ١٤٣، ولم نقف عن من نسب القراءة للزهري.

(٣) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٣٢٤. وما بين حاصرتين منه.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٨٦.

(٥) قرأ عاصم: «قال ربّ احكم بالحق»، وقرأ الباقون: «قُلْ ربّ ...». السبعة ص٤٣١.

(٦) بعدها في (م): هو.

(٧) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٣١٧ - ٣١٨، وتفسير البغوي ١/ ٣٨٦، وزاد المسير ١/ ٥٢٩.

وروى أنس بن مالك أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ وَعَدَه الله عزَّ وجلَّ على عملٍ ثواباً، فهو مُنْجِزٌ له رحمة، ومَن وَعَدَه على عمل عِقاباً فهو فيه بالخِيار»[١]. والعرب تذمُّ بالمُخالفة في الوَعْد، وتمدحُ بذلك في الوعيد؛ حتى قال قائلهم:

ولا يرهَبُ ابنُ العمِّ ما عِشتُ صَوْلَتي ... ولا أَخْتَفِي من خَشْيةِ المُتَهَدِّدِ
وإنِّي متى أَوْعَدتُه أو وَعَدتُه ... لَمُخْلِفُ إيْعادِي ومُنْجِزُ مَوْعِدِي[٢]

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: أجابهم. قال الحسن: مازالوا يقولون: ربَّنا ربَّنا، حتى استجابَ لهم[٣]. وقال جعفرٌ الصادق: مَن حَزَبَه أمرٌ فقال خمسَ مرات: ربَّنا، أنجاه الله مما يخاف، وأعطاه ما أراد. قيل: وكيف ذلك؟ قال: اقرؤوا إنْ شئتم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.[٤]

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَنِّي﴾ أي: بأنِّي. وقرأ عيسى بن عمر: «إني» بكسر الهمزة[٥]، أي: فقال: إني.

وروى الحاكم أبو عبدالله في «صحيحه»[٦] عن أُمِّ سلمة أنها قالت: يا رسول

---

(١) أخرجه البزار (٣٣١٦) (زوائد)، وأبو يعلى (٣٣١٦)، ومن طريقه ابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٨٨، وليس فيه لفظة: «رحمة»، وفي إسناده سهيل بن أبي حزم القطعي البصري، قال ابن حجر في تهذيب التهذيب ٢/ ١٢٨: قال البخاري: لا يتابع في حديثه، يتكلمون فيه، قال أحمد: له أحاديث منكرة، قال ابن معين: صالح، ووثّقه العجلي.

(٢) القائل هو عامر بن الطُّفيل، والبيتان في ديوانه ص٥٨، وروايتهما فيه:

ولا يُرهِبُ ابنَ العمّ منيَ صَوْلةٌ ... ولا أختتي من صولة المتهدِّد
وإنيَ إن أوعدته أو وعدته ... لأخلف إيعادي وأنجز موعدي

ويروى: لمخلف ميعادي ومنجز موعدي.

وقوله: ولا أختتي من: اخْتَتَأ، يختتئ، أي: لا أستتر خوفاً أو حياءً، إنما ترك هَمْزَه ضرورةً. اللسان (ختأ).

(٣) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٦ ونسبه لأبي الدرداء ﷺ.

(٤) أورده الرازي في تفسيره ٩/ ١٥١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٧، والقراءات الشاذة ص٢٤.

(٦) الصواب أن اسمه: «المستدرك على الصحيحين» كما ذكر الأئمة، وفي تسميته بالصحيح تساهل كبير، فإن فيه الضعيف والموضوع. انظر سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٧٥.

الله، لا أسمع[١] اللهَ ذكرَ النساءَ في الهجرة بشيء؟ فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ الآية. وأخرجه الترمذي.[٢]

ودخلت «مِن» للتأكيد؛ لأنّ قبلَها حرفَ نفي. وقال الكوفيون: هي للتفسير ولا يجوز حذفُها؛ لأنها دخلت لمعنًى لا يصلح الكلامُ إلا به. وإنما تُحذَفُ إذا كانت تأكيداً للجَحْد.[٣]

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ ابتداءٌ وخبر، أي: دينكم واحد.

وقيل: بعضُكم من بعض في الثواب والأحكام والنُّصرة وشِبْهِ ذلك. وقال الضحَّاك: رجالُكم شَكْل نسائكم في الطاعة، ونساؤكم شَكْل رجالكم في الطاعة، نظيرُها قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[٤]. ويقال: فلان مِنّي، أي: على مذهبي وخُلقي.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ ابتداءٌ وخبر[٥]، أي: هَجروا أوطانَهم، وساروا إلى المدينة. ﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ في طاعة الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَقَٰتَلُوا۟﴾ أي: وقاتلوا أعدائي. ﴿وَقُتِلُوا۟﴾ أي: في سبيلي.

وقرأ ابنُ كثير وابنُ عامر: «وقاتلوا وقُتِّلوا» على التكثير[٦]. وقرأ الأعمش: «وقُتِلوا وقاتلوا» لأن الواو لا تدلُّ على أن الثاني بعد الأوّل[٧].

---

(١) في (د) و(م): ألا أسمع.

(٢) المستدرك ٢/ ٣٠٠، وسنن الترمذي (٣٠٢٣). قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٣٢١.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٨٧.

(٥) كذا قال المصنف رحمه الله، وهو سبق قلم، فـ«الذين هاجروا» مبتدأ، وقوله: «لأكفِّرنَّ» جواب قسم محذوف، تقديره: والله لأكفرنَّ، وهذا القسم وجوابه خبر لهذا المبتدأ. الدر المصون ٣/ ٥٤١ - ٥٤٢، وانظر البحر المحيط ٣/ ١٤٥.

(٦) السبعة ص٢٢١، والتيسير ص٩٣.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٧. وقراءة الأعمش هي قراءة حمزة والكسائي من السبعة. وقال أبو حيان في البحر ٣/ ١٤٥: لأن الواو لا تدل على الترتيب؛ فيكون الثاني وقع أوّلاً. ويجوز أن يكون ذلك على التوزيع؛ فالمعنى: قُتل بعضهمُ، وقاتل باقيهم.

وقيل: في الكلام إضمارُ «قد» أي: قُتِلوا وقد قاتلوا؛ ومنه قول الشاعر:

تَـصَـابَـى وأَمْـسَـى عَـلَاهُ الـكِـبَـرْ[١]

أي: وقد علاه الكِبَر.

وقيل: أي: وقد قاتلَ من بَقِيَ منهم، تقول العرب: قتلنا بَني تميم، وإنما قُتل بعضهم. وقال امرؤ القيس:

فـإنْ تَـقْـتُـلُـونَـا نُـقَـتِّـلْـكُـمُ[٢]

وقرأ عمرُ بن عبد العزيز: «وقَتَلُوا وقُتِلُوا» خفيفةً بغير ألف[٣].

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: لأَسْتُرنَّها عليهم في الآخرة، فلا أُوَبِّخُهم بها، ولا أُعاقِبهم عليها.

﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكَّد عند البصريين؛ لأن معنى ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾: لأُثيبنَّهم ثواباً. الكسائي: انتصبَ على القَطْع. الفرّاء: على التفسير[٤].

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أي: حُسْن الجزاء، وهو ما يَرْجِعُ على العامِل من جزاء[٥] عمله، مِن ثابَ يثوبُ.

السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ قيل: الخِطاب للنبيِّ ﷺ، والمرادُ الأُمّة. وقيل: للجميع. وذلك أن المسلمين قالوا: هؤلاء الكفارُ لهم تجائرُ وأموالٌ واضطرابٌ في البلاد، وقد هَلَكْنا نحن من الجُوع، فنزلتْ هذه الآية. أي: لا يَغرَّنَّكم سلامتُهم بتقلُّبهم في أسفارهم[٦].

---

(١) القائل هو النمر بن تولب، والبيت في ديوانه ص٥٥، وشطره الثاني: وأمسى لجمرة حبل غرر.

(٢) ديوان امرئ القيس ص١٨٦، والشطر الثاني هو: وإن تقعدوا لدم نقعد.

(٣) القراءات الشاذة ص٢٤. قال أبو حيان في البحر ٣/ ١٤٥: ببناء الأول للفاعل، وبناء الثاني للمفعول، وهي قراءة حسنة في المعنى، مستوفية للحالين على الترتيب المتعارف.

(٤) ينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٨، وقول الفراء في معاني القرآن له ١/ ٢٥١.

(٥) في (د) و(م): جراء.

(٦) ينظر أسباب النزول للواحدي ص١٣٤، وتفسير الرازي ٩/ ١٥٢.

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي: تقلُّبهم متاعٌ قليل.

وقرأ يعقوب: «يَغُرَّنْكَ» ساكنة النون(١)، وأنشد:

لا يَغُرَّنْكَ عِشاءٌ ساكِنٌ قد يُوافي بالمَنِيّاتِ السَّحَرْ(٢)

ونظيرُ هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]. والمَتَاع: ما يُعجَّل الانتفاع به، وسمَّاه قليلاً لأنه فَانٍ، وكلُّ فانٍ وإنْ كان كثيراً فهو قليل. وفي «صحيح» مسلم(٣) والترمذي عن المُستورِد الفِهْري قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «ما الدنيا في الآخرة إلا مِثْلُ ما يجعلُ أحدُكم إصبعَه في اليَمِّ، فَلْينظُرْ بم(٤) يَرْجِعُ». قيل: «يَرْجع» بالياء والتاء(٥).

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: بئس ما مَهَّدوا لأنفسهم بكفرهم، وما مَهَّد اللهُ لهم من النار.

الثامنة عشرة: في هذه الآيةِ وأمثالها، كقوله: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٨]، ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ [المؤمنون: ٥٥]، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] دليلٌ على أنَّ الكفارَ غيرُ مُنْعَم عليهم في الدنيا؛ لأنَّ حقيقةَ النِّعمة الخُلوصُ من شَوائب(٦) الضَّررِ العاجلةِ والآجلة، ونِعَمُ الكفار مَشُوبَةٌ بالآلام والعقوبات، فصار كمن قدَّم بين يدي غيرِهِ حلاوةً من عسل فيها السُّمُّ، فهو وإن استلذَّ آكلُه لا يقال: أُنعِم عليه؛ لأنَّ فيه هلاكَ روحه. ذهب إلى هذا جماعةٌ من العلماء، وهو قول الشيخ أبي الحسن الأشعرِي. وذهب جماعةٌ منهم سيفُ السنة ولِسانُ الأُمَّة القاضي أبو بكر(٧) إلى أن

---

(١) هي من رواية رُويس عن يعقوب من العشرة، كما ذكر ابن الجزري في النشر ٢/ ٢٤٦ ، وأوردها النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤٢٨ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٨ ، ونسباها أيضاً لابن أبي إسحاق.

(٢) أورده الجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ١٩٤ ، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان (١٠٦٠٣) عن سفيان الثوري قال: بلغني أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يتمثل هذا البيت، وذكره.

(٣) قوله: مسلم، زيادة من (ظ).

(٤) في (م) وسنن الترمذي: بماذا.

(٥) صحيح مسلم (٢٨٥٨)، وسنن الترمذي (٢٣٢٣)، وهو في مسند أحمد (١٨٠٠٨).

(٦) في النسخ: مشائب، والمثبت من (م).

(٧) هو ابن الطيب الباقلاني، وانظر ١/ ٩٠ .

الله أنعمَ عليهم في الدنيا. قالوا: وأصلُ النِّعمة من النَّعمة بفتح النون، وهي لِيْنُ العيش، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ [الدخان:٢٧]. يقال: دقيقٌ ناعم، إذا بُولِغ في طحنهِ، وأُجيد سَحْقُه.

وهذا هو الصحيح، والدليل عليه أنَّ اللهَ تعالى أوجبَ على الكفار أن يشكروه وعلى جميع المُكَلَّفين فقال: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٦٩]، ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢].

والشكر لا يكون إلا على نعمة. وقال: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧]. وهذا خِطابٌ لقارون. وقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ الآية [النحل:١١٢]. فنبَّه سبحانه أنه قد أنعم عليهم نِعمةً دُنْياوِيَّةً، فجحدوها. وقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [فاطر:٣].

وهذا عامٌّ في الكفار وغيرهم. فأما إذا قدَّم لغيره طعاماً فيه سُمٌّ فقد رَفَق به في الحال؛ إذْ لم يُجَرِّعْه السُّمَّ بحتاً، بل دَسَّه في الحلاوة، فلا يُستبعد أن يقال: قد أنعم عليه، وإذا ثبتَ هذا فالنِّعَم ضربان: نِعَمُ نَفْع ونِعَمُ دَفْع؛ فنِعم النَّفعِ ما وصَل إليهم من فنون اللذَّات، ونِعَمُ الدَّفْع ما صُرِفَ عنهم من أنواع الآفات[1]. فعلى هذا قد أنعم على الكفار نِعَمَ الدَّفْع قولاً واحداً، وهو ما زُوِيَ عنهم من الآلامِ والأسقام، ولا خِلافَ بينهم في أنه لم يُنعِمْ عليهم نِعمةً دِينيّةً. والحمد لله.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ استدراكٌ بعد كلام تقدَّم فيه معنى النَّفي؛ لأن معنى ما تقدَّم: ليس لهم في تقلُّبِهم في البلاد كبيرُ الانتفاع، لكن المُتَّقون لهم الانتفاعُ الكبير[2] والخُلْدُ الدائِم.

فموضع «لكِن» رَفْعٌ بالابتداء. وقرأ يزيدُ بن القعقاع: «لكِنَّ» بتشديد النون[3].

الموفية عشرين: قوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ نُزُلاً مِثْلُ ثواباً عند البصريين،

---

(١) في (ظ): البليات.

(٢) في (ظ): الكثير.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٨ ، يزيد بن القعقاع ـ وهو أبو جعفر ـ من العشرة، انظر النشر ٢/ ٢٤٧ .

وعند الكِسائي يكون مصدراً. الفراء[١]: هو مفسَّر.

وقرأ الحسن والنَّخَعي: «نُزْلاً» بتخفيف الزاي[٢] استِثقالاً لِضمتين، وثقَّله الباقون.

والنُّزُلُ: ما يُهيَّأ للنَّزيل، والنَّزيلُ: الضَّيف. قال الشاعر:

نَـزيـلُ الـقَـوْم أعـظَـمُـهـم حـقـوقـاً وحَـقُّ الـلـهِ فـي حـقِّ الـنَّـزيـلِ

والجمع الأنزال[٣]. وحظٌّ[٤] نزِيل[٥]: مُجتمِعٌ. والنُّزْل أيضاً: الرَّيْع؛ يقال: طعامٌ كثيرُ النُّزْل والنَّزَل.

الحادية والعشرون: قلت: ولعلَّ النُّزُل ـ والله أعلم ـ ما جاء في «صحيح» مسلم[٦] من حديث ثَوْبَان مولى رسولِ الله ﷺ في قصة الحِبْر الذي سأل النبيَّ ﷺ: أين يكون الناسُ يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماواتُ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «هم في الظُّلمة دون الجِسْر». قال: فمن أوَّل الناسِ إجازة؟ قال: «فقراء المهاجِرين». قال اليهودي: فما تُحْفَتُهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادةُ كَبِدِ النون». قال: فما غَذَاؤهم على إِثْرِها؟ فقال: «يُنْحَرُ لهم ثورُ الجَنَّةِ الذي كان يأكلُ من أطرافها». قال: فما شرابُهم عليه؟ قال: «مِنْ عينٍ فيها تُسَمَّى سلسبِيلاً». وذكر الحديث.

قال أهلُ اللغة[٧]: والتُّحفة: ما يُتحَفُ به الإنسان من الفواكه والطُّرَف؛ مُحاسَنَةً

---

(١) في معاني القرآن له ١/ ٢٥١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤٢٨ والكلام الذي قبله منه.

(٢) أي: بسكونها كما في اتحاف فضلاء البشر ص٢٣٥. وذكر قراءةَ الحسن النحاسُ في إعراب القرآن ١/ ٤٢٨، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٨، وذكر قراءة النخعي أبو حيان في البحر ٣/ ١٤٧، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٤ لمسلمة بن محارب والأعمش.

(٣) يعني جمع النُّزل، كما في الصحاح (نزل) والكلام منه.

(٤) في (د) و(ظ): وخطّ.

(٥) في الصحاح: نَزِلٌ.

(٦) الحديث (٣١٥).

(٧) المفهم ١/ ٥٧٤، وقال أبو العباس القرطبي أيضاً: «الجِسْر» ـ بفتح الجيم وكسرها ـ: ما يعبر عليه، وهو الصراط هنا. و«دون» بمعنى فوق. و«النون»: الحوت.

ومُلاطَفةٌ[١]، وهذا مُطابِق لما ذكرناه في النُّزل، والله أعلم. وزِيادة الكَبِد: قطعةٌ منه كالأصبع. قال الهروِيّ: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: ثواباً. وقيل: رِزقاً[٢].

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ أي: مما يتقلَّب به الكفار في الدنيا. والله أعلم.

الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الآية. قال جابر بن عبد الله وأنس وابن عباس وقتادة والحسن: نزلَتْ في النجاشِيّ، وذلك أنه لمَّا مات، نعاه جبريلُ عليه السلام لرسول الله ﷺ؛ فقال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «قوموا فَصَلُّوا على أخيكم النجاشي»، فقال بعضهم لبعض: يأمرنا[٣] أنْ نُصلِّيَ على عِلْج من عُلُوج الحبشَة! فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾[٤].

قال الضحاك: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾: القرآن، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾: التوراة والإنجيل[٥].

وفي التنزيل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤]. وفي «صحيح» مسلم: «ثلاثة يُؤْتَون أجْرَهم مرَّتين - فذكَر - رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بِنبيِّه، ثم أدركَ النبيَّ ﷺ، فآمنَ به، واتَّبعه وصدَّقه، فله أجران». وذكر الحديث[٦].

وقد تقدَّم في «البقرة» الصلاة عليه[٧]، وما للعلماء في الصلاة على الميت الغائب، فلا معنى للإعادة.

---

(١) في (م): محاسنه وملاطفه.

(٢) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١١٧، وتهذيب اللغة ١٣/ ٢١١.

(٣) في (ظ) و(خ): تأمرنا.

(٤) ينظر أسباب النزول للواحدي ص١٣٤-١٣٥، وتفسير البغوي ١/ ٣٨٨، وزاد المسير ١/ ٥٣٢ - ٥٣٣، وقولا جابر وقتادة أخرجهما الطبري ٦/ ٣٢٧ - ٣٢٨، وقول أنس ﷺ أخرجه ابن أبي حاتم (٤٦٨٢)، وقول الحسن أخرجه عبد بن حُميد كما في الدر المنثور ٢/ ١١٣.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٩.

(٦) صحيح مسلم (١٥٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، وأخرجه أحمد (١٩٥٣٢) والبخاري (٩٧).

(٧) ٢/ ٣٢٧ - ٣٢٨، وذكرنا أن خبر صلاة النبي ﷺ على النجاشي في الصحيحين، وذكرنا تخريجه ثمّة.

وقال مجاهد وابن جُريج وابن زيد: نزلَتْ في مؤمِنِي أهل الكتاب[١]، وهذا عامٌّ والنجاشِيُّ واحدٌ منهم. واسمه أَصْحَمَة، وهو بالعربية عطِية[٢].

و﴿خَٰشِعِينَ﴾: أذِلَّة، ونُصِبَ على الحال من المُضْمَر الذي في «يؤمِن». وقيل: من الضمير في «إليهم» أو في «إليكم»[٣]. وما في الآية بيِّنٌ، وقد تقدَّم.

الثالثة والعشرون: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ﴾ الآية. خَتَمَ تعالى السُّورةَ بما تَضمَّنته هذه الآيةُ العاشرة من الوَصَاة[٤] التي جمعت الظُّهور في الدنيا على الأعداء والفَوْزَ بنعيم الآخرة، فحضَّ على الصَّبر على الطاعات وعن الشَّهوات. والصَّبر: الحَبْس، وقد تقدَّم في «البقرة» بيانُه[٥].

وأمر بالمُصابرة، فقيل: معناه: مُصابرةُ الأعداء، قاله زيدُ بن أسلم[٦]. وقال الحسن: على الصَّلوات الخمس[٧]. وقيل: إدامةُ مُخالفةِ النفس عن شَهَواتها، فهي تدعو وهو يَنْزَع[٨]. وقال عطاء والقُرَظي: صابروا الوَعْدَ الذي وُعِدتم[٩]. أي: لا تَيْأَسُوا، وانتظروا الفَرَجَ، قال ﷺ: «انتظارُ الفَرَجِ بالصَّبر عبادةٌ»[١٠]. واختارَ هذا

(١) أسباب النزول للواحدي ص١٣٥ .

(٢) انظر المحرر الوجيز ١/ ٥٥٩ ، وقد سلف تفسير أصحمة ٢/ ٣٢٧ - ٣٢٨ .

(٣) انظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٩ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ١٨٦ ، والبحر المحيط ٣/ ١٤٨ .

(٤) في (ظ): الوصايا.

(٥) ١/ ٣٧١ و ٢/ ١٧٤ .

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٩ . وأخرج قول زيد بن أسلم الطبريُّ ٦/ ٣٣٤ .

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٦٩٣) .

(٨) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٣٠٥ .

(٩) أخرجه الطبري ٦/ ٣٣٣ ، وابن أبي حاتم (٤٦٩٧) عن محمد بن كعب القرظي. وقول عطاء ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٥٣٤ .

(١٠) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٥٩ ، وحديث: انتظار الفرج ... رُوي عن ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وأنس وعلي ﷺ. أما حديث ابن مسعود، فقد رواه الترمذي، بلفظ: «سَلوا الله من فضله، فإن الله عزَّ وجلَّ يحبُّ أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج». وفي إسناده حماد بن واقد، قال الترمذي: ليس بالحافظ . . . وروى أبو نعيم هذا الحديث . . . مرسل، وحديث أبي نعيم أشبه أن يكون أصح.

وأما حديث ابن عمر رضي الله عنهما، فأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٤٦) وفي إسناده عمرو بن حُميد قاضي الدينور، قال الذهبي في ميزانه ٣/ ٢٥٦ : هالك، أتى بخبر موضوع اتُّهم به، وقد ذكره =

القولَ أبو عمر[(١)] رحمه الله. والأوّلُ قولُ الجمهور؛ ومنه قول عنترة:

فلم أرَ حَيّاً صابروا مِثْلَ صَبْرِنا ولا كافحوا مِثْلَ الذين نُكافِحُ[(٢)]

فقوله: صابروا مِثْل صبرنا، أي: صابروا العدوَّ في الحرب، ولم يَبْدُ منهم جُبْنٌ ولا خَوَرٌ.

والمكافحة: المواجهةُ والمُقابلة في الحرب، ولذلك اختلفوا في معنى قوله: ﴿وَرَابِطُواْ﴾، فقال جمهورُ الأُمَّة: رابِطوا أعداءَكم بالخيل، أي: ارتبطوها كما يرتَبِطُها أعداؤكم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

وفي «الموطأ»[(٣)]: عن مالك، عن زيد بن أسلم قال: كتبَ أبو عُبيدة بن الجرَّاح إلى عمر بن الخطاب يذكُر له جُموعاً من الروم وما يتخوَّف منهم، فكتب إليه عمرُ: أما بعد، فإنه مهما يَنْزِلْ بعبدٍ مؤمن من مُنْزَلِ شدّةٍ يجعلِ الله له بعدَها فَرَجاً، وإنه لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرين، وإنّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

= السليماني في عداد من يضع الحديث. وأما حديث ابن عباس رضي الله عنهما، فأخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٨٩٩، والقضاعي (٤٧) وفي إسناده عيسى بن مهران المستعطف أبو موسى، قال ابن عدي: حدّث بأحاديث موضوعة مناكير، محترق في الرفض، وقال الذهبي في الميزان ٣/ ٣٢٤: كذاب جَبَل. وأما حديث أنس ﷺ، فأخرجه ابن عدي ٢/ ٥٠٨ و٣/ ١١٤١ والبيهقي في الشعب (١٠٠٠٦) وفي إسناده سليمان بن سلمة الخبائري أبو أيوب الحمصي، قال الذهبي في الميزان ٢/ ٢٠٩: قال أبو حاتم: متروك، وقال ابن الجنيد: كان يكذب. وسمع منه الباغندي حديثاً فأنكره عليه، ثم ساق له هذا الحديث.

وأخرجه البزار (٣١٣٨) (زوائد)، والبيهقي في الشعب (١٠٠٠٥)، وفي إسناده بقية بن الوليد، وهو كثير التدليس عن الضعفاء، قال البيهقي: هذا مرسل.

أما حديث علي ﷺ، فأخرجه البيهقي في الشعب (١٠٠٠٣) من طريقين، وفيهما إسحاق بن محمد بن إسماعيل الفروي، قال الذهبي في الميزان ١/ ١٩٨-١٩٩: صدوق في الجملة، وقال العقيلي: جاء عن مالك بأحاديث كثيرة لا يتابع عليها، ووهَّاه أبو داود. ثم إن في الطريق الأول عبد الرحمن بن الحسن الهمذَاني، كذَّبه القاسم بن أبي صالح، كما في الميزان ٢/ ٥٥٦. وفي الطريق الثاني عبدالله بن شعيب، قال فيه الذهبي في الميزان ٢/ ٤٣٨: واهٍ، وقال الحاكم: ذاهب الحديث، وقال ابن حبان: يُقَلِّب الأخبار ويسرقها.

(١) الاستذكار ١٤/ ٤٧ - ٤٨.

(٢) ديوان عنترة ص٣٨.

(٣) ٢/ ٤٤٦.

وقال أبو سلمة بنُ عبد الرحمن: هذه الآيةُ في انتظار الصلاة بعد الصلاة، ولم يكن في زمان رسول الله ﷺ غَزْوٌ يُرابَطُ فيه، رواه الحاكم أبو عبدالله في «صحيحه»(١). واحتجَّ أبو سلمة بقوله عليه الصلاة والسلام: «ألا أدلُّكم على ما يمحو اللهُ به الخَطايا، ويرفعُ به الدَّرجاتِ: إسباغ الوضوء على المكاره، وكَثْرةُ الخُطا إلى المساجد، وانتظارُ الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرِّباط» ثلاثاً، رواه مالك(٢).

قال ابن عطية(٣): والقولُ الصحيح هو أن الرِّباط هو الملازمةُ في سبيل الله. أصلُها من ربط الخيل، ثم سُمِّيَ كلُّ ملازم لِثَغْرٍ من ثُغُور الإسلام(٤) مُرابِطاً؛ فارِساً كان أو راجلاً. واللفظةُ مأخوذةٌ من الرَّبط. وقولُ النبيِّ ﷺ: «فذلكم الرِّباط» إنما هو تَشْبِيهٌ بالرِّباط في سبيل الله. والرِّباط اللُّغويُّ هو الأوّل، وهذا كقوله: «ليس الشَّديدُ بالصُّرَعة، إنما الشديدُ الذي يَملِكُ نَفْسَه عند الغَضَب»(٥)، وقوله: «ليس المِسْكينُ بهذا الطَّوَّاف»(٦) إلى غير ذلك.

قلت: قوله: والرِّباط اللُّغويُّ هو الأوّل ليس بمسلَّم، فإنَّ الخليلَ بن أحمد أحدَ أئمة اللغة وثِقاتها قد قال: الرِّبَاط: ملازمةُ الثغور، ومواظبةُ الصلاة أيضاً(٧)، فقد حصل أن انتظارَ الصلاة رِباطٌ لُغويٌّ حقيقةً، كما قال ﷺ. وأكثرُ من هذا ما قاله الشَّيْباني(٨) أنه يقال: ماءٌ مترابطٌ، أي: دائمٌ لا يُنْزَحُ(٩)؛ حكاه ابن فارس. وهو

---

(١) ٢/ ٣٠١ . قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

(٢) الموطأ ١/ ١٦١ من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو في مسند أحمد (٧٧٢٩) وصحيح مسلم (٢٥١). وفي الباب عن جابر ﷺ أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٠٣٩)، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أخرجه أحمد (١٠٩٩٤)، وعن علي ﷺ أخرجه البزار (٤٤٧) (زوائد)، والحاكم ١/ ١٣٢ . وليس في حديث أبي سعيد وعلي رضي الله عنهما ذكر الرِّباط.

(٣) في المحرر الوجيز ١/ ٥٦٠ ، والكلام الذي قبله منه.

(٤) في (خ): المسلمين.

(٥) سلف تخريجه ٣/ ٣٤٢ ، ومن قوله: «إنما الشديد ...» إلى آخر الحديث زيادة من (ظ).

(٦) سلف تخريجه ٤/ ٢٠٨ .

(٧) العين ٧/ ٤٢٢ - ٤٢٣ .

(٨) هو أبو عمرو، إسحاق بن مرار.

(٩) في النسخ: لا يبرح، والمثبت من مجمل اللغة ٢/ ٤١٤ ، والصحاح (ربط).

يقتضي تعدِيةَ الرِّباط لغةً إلى غير ما ذكرناه. فإنَّ المُرابطةَ عند العرب: العَقْدُ على الشيء حتى لا يَنْحلَّ، فيعودَ إلى ما كان صَبَرَ عنه، فيحبس القلبَ على النيةِ الحسنة والجسمَ على فِعْل الطاعة؛ ومن أعظمِها وأهمِّها ارتباطُ الخيل في سبيل الله كما نصَّ عليه في التنزيل في قوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] على ما يأتي، وارتباطُ النفس على الصلوات، كما قاله النبيُّ ﷺ، رواه أبو هريرة وجابر وعليّ[١]، ولا عِطْرَ بعد عَرُوس[٢].

الرابعة والعشرون: المُرابِطُ في سبيل الله عند الفقهاء هو الذي يَشْخَصُ إلى ثَغْرٍ من الثُّغور لِيُرابطَ فيه مُدَّةً مّا؛ قاله محمد بن الموَّاز ورواه[٣]. وأما سُكّانُ الثُّغور دائماً بأهليهم الذين يَعْمُرون ويكتسبون هنالك، فهم وإن كانوا حُماةً فليسوا بمرابطين. قاله ابن عطية[٤].

وقال ابن خُوَيْزمَنْداد: وللرِّباط حالتان: حالةٌ يكون الثَّغْرُ مأموناً مَنيعاً يجوز سُكناه بالأهل والولد، وإن كان غيرَ مأمونٍ جاز أن يُرابِطَ فيه بنفسه إذا كان من أهل القتال، ولا ينقلُ إليه الأهلَ والولدَ لئلا يظهرَ العدوُّ، فَيسبيَ ويَسترِقَّ. والله أعلم.

الخامسة والعشرون: جاء في فَضْل الرِّباط أحاديثُ كثيرةٌ، منها ما رواه البخاريُّ عن سَهْل بن سعد السَّاعِديّ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «رِباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ[٥] مِن الدنيا وما فيها»[٦].

وفي «صحيح» مسلم: عن سلمانَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «رِباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيام شهر وقيامِه، وإنْ ماتَ جَرَى عليه عملُه الذي كان يَعْملُه، وأُجْرِيَ

(١) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٣٠٥ - ٣٠٦، والحديث الذي أشار إليه المصنف سلف قريباً.

(٢) قوله: لا عطر بعد عروس، من أمثال العرب، وقد سلف ٤/ ٢٥٨.

(٣) في (د): وداود، والمثبت موافق للمحرر الوجيز، فالكلام منه كما سيأتي.

(٤) في المحرر الوجيز ١/ ٥٦٠.

(٥) بعدها في (د) و (م): عند الله، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو موافق لصحيح البخاري.

(٦) صحيح البخاري (٢٨٩٢)، وهو في مسند أحمد (٢٢٨٧٢).

عليه رِزْقُه، وأَمِنَ الفُتَّان»(١).

وروى أبو داود في «سُننه» عن فَضَالةَ بن عُبيد أن رسولَ الله ﷺ قال: كلُّ مَيِّت يُخْتَم على عَمَله إلا المُرابطَ، فإنه يَنْمو له عملُه إلى يوم القيامة، ويُؤمن من فَتَّان القبر»(٢).

وفي هذين الحديثين دليلٌ على أن الرِّباطَ أفضلُ الأعمال التي يبقى ثوابُها بعد الموت، كما جاء في حديثِ العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إذا ماتَ الإنسانُ انقطعَ عنه عملُه إلا من ثلاث: صدقةٍ(٣) جاريةٍ، أو علم يُنتفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يَدْعو له». وهو حديثٌ صحيح؛ انفردَ بإخراجه مسلم(٤)؛ فإنَّ الصدقةَ الجاريةَ، والعلمَ المُنتفَعَ به، والولدَ الصالح الذي يدعو لأبويه ينقطعُ ذلك بنفَاد الصَّدقات وذهابِ العلم وموتِ الولد.

والرِّباط يُضاعَفُ أجرهُ إلى يوم القيامة؛ لأنه لا معنى للنَّماء إلا المُضاعفة، وهي غير موقوفةٍ على سبب فتنقطع بانقطاعه، بل هي فَضْلٌ دائمٌ من الله تعالى إلى يوم القيامة.

وهذا لأنَّ أعمالَ البِرِّ كلَّها لا يُتمكَّنُ منها إلا بالسلامة من العدوِّ والتحرُّزِ منه(٥) بحراسة بَيْضَةِ الدِّين وإقامةِ شعائر الإسلام. وهذا العملُ الذي يجري عليه ثوابُه هو ما كان يعملُه من الأعمال الصالحة، خرَّجه ابن ماجه(٦) بإسناد صحيح عن أبي هريرة،

(١) صحيح مسلم (١٩١٣)، وهو في مسند أحمد (٢٣٧٢٨). قوله: «الفتّان» قال أبو العباس القرطبي في المفهم ٣/ ٧٥٦: يُروى على الأكثر من الرواة بضم الفاء، جمع فاتن، ويكون للجنس .. ورواه الطبري بفتح الفاء، يعني به فتّان القبر.

(٢) سنن أبي داود (٢٥٠٠)، وهو في مسند أحمد (٢٣٩٥١)، وسنن الترمذي (١٦٢١)، وفي الباب عن عقبة بن عامر ﷺ أخرجه أحمد (١٧٣٥٩).

(٣) في (م) وصحيح مسلم: إلا من ثلاثة إلا من صدقة. . . وسلف ١/ ٨.

(٤) برقم (١٦٣١)، وهو في مسند أحمد (٨٨٤٤).

(٥) في النسخ الخطية: منهم، والمثبت من (م).

(٦) الحديث (٢٧٦٧).

عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ مات مُرابطاً في سبيل الله أجْرى اللهُ[١] عليه أَجْرَ عملِه الصالحِ الذي كان يعملُ، وأَجْرَى عليه رِزْقَه، وأَمِنَ من الفُتّان، وبَعَثَه اللهُ يومَ القيامة آمناً من الفَزَع». وفي هذا الحديث قيدٌ ثانٍ، وهو الموتُ حالةَ الرِّباط. والله أعلم.

ورَوى عن عثمانَ بن عفّان قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رابطَ ليلةً في سبيل الله كانت له كألف ليلةٍ صيامِها وقيامِها»[٢].

ورَوى عن أُبَيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «لَرِباط يومٍ في سبيل الله مِنْ وراءِ عَوْرةِ المسلمين مُحتسِباً من غير شهر رمضانَ أعظمُ أجراً من عبادةِ مئةِ سنةٍ صيامِها وقيامِها، ورباطُ يومٍ في سبيل الله من وراء عَوْرةِ المسلمين مُحتسِباً من شهر رمضانَ أفضلُ عند الله وأعظمُ أجراً ـ أُراه قال: ـ من عبادةِ ألفِ سنةٍ صيامِها وقيامِها، فإنْ ردَّه اللهُ إلى أهلِه سالماً، لم تُكتَبْ عليه سيئةٌ ألفَ سنةٍ، ويُكْتَبُ[٣] له من[٤] الحسناتُ، ويُجرَى له أجرُ الرِّباط إلى يوم القيامة»[٥]. ودلَّ هذا الحديثُ على أن رِباطَ يوم في شهر رمضان يحصلُ له من[٦] الثوابِ الدَّائم وإنْ لم يَمُتْ مُرابطاً. والله أعلم.

---

(١) لفظ الجلالة: «الله» ليس في (م) وسنن ابن ماجه.

(٢) سنن ابن ماجه (٢٧٦٦)، وفي إسناده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعفه أحمد وابن معين وابن المديني والنسائي، وقال الحاكم وأبو نعيم: روى عن أبيه أحاديث موضوعة. انظر تهذيب التهذيب ٢/ ٥٠٧، ومصباح الزجاجة ٢/ ١٠٨ - ١٠٩. قلنا: وأخرجه من طريق أخرى أحمد (٤٧٠) والترمذي (١٦٦٧) والنسائي ٦/ ٣٩ - ٤٠ بلفظ: «رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل»، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) في (م): وتكتبُ.

(٤) لفظة «من»، من (ظ) و(خ).

(٥) سنن ابن ماجه (٢٧٦٨)، في إسناده عمر بن صبيح الخراساني، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٢٠٦: ليس بثقة ولا مأمون، قال ابن حبان: كان ممن يضع الحديث. قال الدارقطني: متروك، وقال الأزدي: كذاب. والراوي عنه محمد بن يعلى السلمي، قال الذهبي في الميزان ٤/ ٧٠: قال البخاري: ذاهب الحديث، وقال أبو حاتم: متروك. وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٢٠٣: وآثار الوضع ظاهرة عليه، ولولا أنه في الأصول لما ذكرته.

(٦) قوله: من، ليست في النسخ، وأثبتناها من (م).

وعن أنس بن مالك قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «حَرْسُ ليلةٍ في سبيل الله أفضلُ من صيامِ رجلٍ وقيامِهِ في أهله ألفَ سنةٍ؛ السّنة ثلاث مئة يوم [وستون يوماً]، واليومُ كألف سنة»(١).

قلت: وجاء في انتظار الصلاةِ بعد الصلاة أنه رِباطٌ؛ فقد يحصلُ لِمُنْتَظِرِ الصلواتِ ذلك الفَضْلُ إن شاء الله تعالى. وقد روى أبو نُعيم الحافظُ قال: حدثنا سليمانُ بن أحمد قال: حدثنا علي بن عبد العزيز قال: حدثنا حَجَّاجُ بن المِنْهال (ح) وحدثنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي قال: الحسنُ بن موسى قال: حدثنا حمادُ بن سلمة، عن ثابتٍ البُنَانِيّ، عن أبي أيوب الأزدي، عن نَوْفٍ البِكَالِيّ، عن عبدالله بن عمرو، أن النبيَّ ﷺ صلَّى ذاتَ ليلةٍ المغربَ، فصلَّينا معه فعقَّب مَنْ عَقَّب، ورَجَع من رَجَع، فجاء رسولُ الله ﷺ قبلَ أن يثوبَ(٢) الناسُ لصلاة العشاء، فجاء وقد حَفَزه النَّفَس(٣) رافعاً أصبعَه وقد عَقَدَ تِسعاً وعشرين؛ يُشير بالسَّبَّابة إلى السماء، فَحَسَر ثوبَه عن رُكبتيه وهو يقول: «أَبْشِروا مَعْشَرَ المسلمين، هذا ربُّكم قد فتحَ باباً من أبواب السماء؛ يُباهي بكم الملائكةَ يقول: يا ملائكتي، انظُروا إلى عبادي هؤلاء، قَضَوْا فريضةً وهم ينتظرون أُخرى». ورواه حَمَّاد بن سلمة، عن عليِّ بن زيد، عن مُطَرِّف بن عبدالله: أن نَوْفاً وعبدَ الله بن عمرو اجتمعا، فحدَّث نَوْفٌ عن التوراة، وحدَّث عبدُ الله بن عمرو بهذا الحديث عن النبيِّ ﷺ(٤).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: لم تُؤمَروا بالجهاد من غير تقوى.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لتكونوا على رجاءٍ من الفَلاح. وقيل: «لعلَّ» بمعنى لِكي.

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٧٧٠) وما بين حاصرتين منه وفي إسناده سعيد بن خالد بن أبي الطويل، قال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب ٢/ ١٣: قال البخاري: فيه نظر، وقال الحاكم: روى عن أنس أحاديث موضوعة، وقال أبو حاتم: أحاديثه عن أنس لا تُعرَف.

(٢) في (خ): يتوجه.

(٣) في (خ): حفزه الناس، وفي (ظ): جهره الناس، و (د) و(م): حضره الناس، والمثبت من حلية الأولياء ومسند أحمد.

(٤) حلية الأولياء ٦/ ٥٤، وهو في مسند أحمد (٦٧٥٠) من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت البُناني، به، و(٦٧٥١) من طريق حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، به.

والفَلاح: البقاء[١]، وقد مضَى هذا كلُّه في «البقرة»[٢] مستوفًى، والحمد لله.

نَجِزَ تفسيرُ سورة آل عمران من «جامع أحكام القرآن والمُبَيِّن لما تضمَّنَ من السُّنَّة وآي الفُرقان» بحمد الله وعونه.

تَمَّ الجزء الخامس من تفسير القرطبي،
ويليه الجزء السادس،
ويبدأ بسورة النساء.

(١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٩.

(٢) ١/ ١٦١ و١٨٢ و٢٢٧.

فهرس الجزء الخامس